مُسامرات الظّريف بحسن التّعريف

تأليف

الشيخ أبي عبد الله محمّد بن عثمان السنوسي

تحقيق وتعليق

الشيخ محمّد الشاذلي النيفر

عميد الكلية الزيتونية سابقًا

الجزء الأول

دار الغرب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
1994

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

مُسامرات الظّريف بحسن التعريف

الشيخ محمد الصادق النيفر
قاضي الجماعة (1299 ـ 1356)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

للزيتونة في عنقي منن جسام، فمنها تخرجت، وبها تلقيت على أساتذتها الأعلام، وفيها قضيت شبابي، وكهولتي وشيخوختي تدريساً وإدارة، فمن الحق الواجب أن أهدي هذا الكتاب الذي هو تاريخ رجالها إليها وإلى أساتذتها الذين قدموا للإسلام خدمات جليلة وأنشأوا أجيالاً علماءً أفذاذاً أخلصوا لله جلّ وعلا.

وممن استفدت منه من رجالها تربية إسلامية وإقراءً في البيت وغيره العلاّمة النفاعة المرحوم الوالد محمد الصادق ابن الشيخ محمد الطاهر النيفر، فقد أمضى حياته كلها لخدمة الزيتونة وخدمة الوطن حيث أبدى أول رغبة في إقرار دستور تونسي على غرار عهد الأمان، فمن البرور أن أهدي إليه هذه الباكورة الجامعة لتاريخ الزيتونة مركز الإشعاع الإفريقي راجياً من الله أن يثيبه على حسن صنيعه، وأن يغدق عليه رحمته الواسعة إنه كان بالمؤمنين رحيماً.

محمد الشاذلي النيفر

فاتحة الكتاب

الحمد لله مودع الحكم، في قصص الأمم، ومزيل ظلمة الجهالة بعلماء الأمة استنارة للأفكار، وتجنباً للعثار.

والصلاة والسلام على مبلغ الرسالة والداعي إلى المنهج القويم. ومنير العقول في ليل الشرك البهيم. وعلى آله أكرم سلالة، وأصحابه المبرئين من الضلالة.

وبعد فبين أيدينا كتاب يتناول المؤسسة المباركة المضيئة في البلاد التونسية وما جاورها بأنوار المعرفة جامع الزيتونة ألفه المرحوم الحفيد الشيخ مَحمد بن عثمان السنوسي فأدى بتأليفه هذا بعض الواجب حيث تناول ترجمة رجاله بتعريف أظهر فيه ما قاموا به من نشر للمعرفة في حلقة من حلقات تونس التاريخية، وسلك فيه مسلكاً رضياً مؤدياً به بعض الواجب نحو السلف.

ومسلكه هذا في تاريخ جامع الزيتونة مسلك ذو اختصاص فهو أول تاريخ للزيتونة كان منفرداً بها دون غيرها.

وقد اتسعت شهرة جامع الزيتونة واشتهرت أيما اشتهار بلغ أقصى المشارق والمغارب وجرى ذكره على الألسنة، فاقترن اسم تونس باسمه، فصارت تونس لا تعرف إلا بجامع الزيتونة كما اقترن اسم القاهرة بالأزهر.

ومع هذه الشهرة على الألسنة لم تنصرف الهمة إلى تدوين تاريخه إلا بصورة ضمن تاريخ تونس ومن أهم العنايات بتاريخ الزيتونة ما جاء متناثراً في كتاب الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية فإن صاحبه ابن القنفذ القسنطيني

(ـ 809) أو (ـ 810) أرخ للكثير من رجال الزيتونة مما يلتئم منه معرفة النهضة العلمية لجامع الزيتونة مدة الدولة الحفصية.

جاء في الفارسية عبارة أثناء الحديث عن ركب المشائخ إلى الحج تفيد شيئاً عن الحياة العلمية في تونس، وطبعاً أنها في الزيتونة وهي:

(وكان من علمائهم ـ أي ركب المشائخ ـ أبو علي الزبيدي والشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن البزدري، والشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله اللبيدي إلى كثير ممن يعتمد عليه في التدريس، والفتوى، والتحقيق، درجوا كلهم نفع الله بهم)[1].

وهي تراجم لعلماء الزيتونة جاءت ضمن تاريخ الأمراء بحسب سني وفاتهم وكذلك أطنب في تاريخهم حسب وفاتهم الزركشي في تاريخ الدولتين، وهو من أوفى المؤرخين لهم في عصر الدولة الحفصية.

وهناك ابتداء لتاريخ جامع الزيتونة بذكر تاريخ تأسيسه وبعض متعلقاته مع ذكر علمائه لكن بإدماج غيرهم فيهم.

وكان هذا الابتداء على يد مؤرخ تونس وهو محمد بن محمد الأندلسي المعروف بالوزير السراج المتوفى سنة 1149[2] فإنه خصص قسماً هاماً من كتابه الحلل السندسية في الأخبار التونسية بالتعريف بجامع الزيتونة وهو الفصل الثاني من الباب الخامس في مسجدها جامع الزيتونة وبعض أئمته ومدرسيه، وهو فصل يستغرق الكثير من الكتاب إلا أنه بدون ترتيب في رجاله مع ما قدمناه من أنه أدخل بعض العلماء الأفارقة ممن هم ليسوا من رجال الزيتونة أثناء تراجم الزيتونيين وتبلغ صفحات تاريخ الزيتونة من الحلل السندسية (276) من الطبعة الأخيرة[3]، وهذا الفصل على اتساعه كان ضمن تاريخ تونس من الكتاب المذكور

---

(1) الفارسية (ص 140).

(2) حسبما حققه في وفاته المرحوم الشيخ محمد البشير النيفر.

(3) التي حقق الجزء الأول منها الأستاذ الحبيب الهيلة.

الذي قصد من تأليفه أولاً وبالذات تاريخ الأمير حسين بن علي لكن القسم الأكبر من الكتاب في تاريخ تونس عموماً وخاصة العصر التركي.

وثنى عليه حسين خوجة في «ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» فإنه خص تراجم الزيتونيين بالفصل الذي عنونه بقوله: فصل في ذكر علماء الحضرة التونسية من لدن فتحها إلى الآن على الترتيب وهو فصل فيه البعض من تاريخ رجال الزيتونة في مبتدإ الدولة الحسينية.

مبتدأ تاريخ أئمة جامع الزيتونة

كان ابتداء تاريخ أئمة هذا المسجد المبارك على يد العلاّمة الأصولي المرحوم الشيخ إسماعيل التميمي شيخ الإسلام (ـ 1248) فإنه ترك تقييداً بخطه ضمنه تاريخ من تولى الإمامة بجامع الزيتونة من عهد ابن عرفة إلى ترجمة آخر من تولى الإمامة به من البكريين، وأخذ هذا التقييد الشيخ الوزير ابن أبي الضياف عن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ـ 1284) وضمنه تاريخه «إتحاف أهل الزمان بتاريخ تونس وعهد الأمان» وأضاف إليه من تولى بعد آخر البكريين وهو الشيخ العلاّمة الشريف حسن الشريف ومن تولى بعده ممن أدركه.

انبناء المسامرات على هذا التقييد

وقد أخذ الشيخ السنوسي في «مسامرات الظريف بحسن التعريف» هذا التقييد مبتدئاً بتاريخ من تولى الإمامة بجامع الزيتونة متوسعاً في ذلك كما يأتي، وما جاء في تاريخ الزيتونة في الفترة التي خصّ تاريخه بها.

تقديـــم

تاريخ الزيتونة ـ تاريخ تونس العلمي

ورغم هذه الخطوات في تاريخ جامع الزيتونة لا زال تاريخه لم يكتمل، بل هو ذو ثغرات في أحقابه التاريخية لكن الحقبة التي اعتنى بها مؤرخنا الشيخ محمد بن عثمان السنوسي أخذت حظاً وافراً ولكنها مقصورة على طائفة خاصة دون أن تكتمل وتتناول جميع رجال الزيتونة في الدور الحسيني قبل انتصاب الحماية وهو ما يدعو إلى مواصلة الكتابة في الزيتونة فإن تاريخها تاريخ تونس العلمي فكلما تعمق البحث في ذلك كان تعمقاً في الحياة العلمية التونسية.

وقد كانت البادرة التي جاءت ذكرى للزيتونة بمرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيسها جامعة لتونس الخضراء خطوة لفتح التوسع في تاريخها توسعاً يعرِّف بها من جميع جوانبها ويحيط بما أنتجته هذه المؤسسة وما قدمته للإنسانية من معارف جمة استطاعت بها أن تكون تونس مساهمة في الحياة الثقافية الإنسانية مساهمة ذات فعالية لها الأثر البارز في الفكر التونسي.

ولا يستطيع أياً كان أن ينفي عن نفسه التأثير الزيتوني لأن تأثيرها إن لم يكن بصورة واضحة جلية فإنه ثابت بصورة قد تخفى ولكنها موجودة عل كل حال مغروسة في النفوس.

فالزيتونة هي القلعة العلمية لا في تونس بل فيها وفي غيرها من كل مكان امتد إليه إشعاعها فهي القلعة العلمية المناغية لكواكب الجوزاء الناطحة لأسمى مراتب العلوّ والسموق، قد ارتقت فيها الأفكار، وأضاءت معارفها إضاءة النوا، ،

وبدت فريدة بين أخواتها من الجامعات العريقة فهي مأوى العلوم، ومنبع الدراسات العالية حرسها الله من الأغيار، وثبت أركانها ثبوت الرواسخ وأدام النفع بها.

محمد بن عثمان السَّنُوسي

منبت العائلة:

أصل هذه العائلة السَّنُوسية من قلعة سنان وهي في الشمال الغربي للقطر التونسي وهي مشهورة بما يوجد في أرضها من مناجم الفسفاط ثم انتقلت العائلة المذكورة إلى بلدة الكاف وهي مركز الولاية.

والكاف بلدة ذات تاريخ في كافة العصور التونسية لارتفاعها وإشرافها مما جعلها من المعاقل الحربية ومركز دفاع عن تونس العاصمة في طريق المغيرين عليها ولم تفقد مركزها في العهود التي مرت بالبلاد التونسية سواء الرومانية، أو الرومية، أو الإسلامية، وهي من البلدان التي كانت في عهد قرطاجنة.

والكاف معروفة بخصوبة مزارعها فهي بلدة زراعية ومن أعمالها الأربس البلدة الشهيرة في التاريخ الإسلامي ثم انتقلت العائلة السنوسية واستوطنت العاصمة التونسية.

انحدار العائلة:

تنحدر هذه العائلة من الولي الصالح الشيخ سيدي عساكر الشريف الحسيني دفين قلعة سنان[1] والجد الجامع لهذه العائلة أبو العباس أحمد بن مهنية القلعي وهذه شجرة العائلة إلى الحفيد.

---

(1) مقدمة لقط الدرر (ص 2).

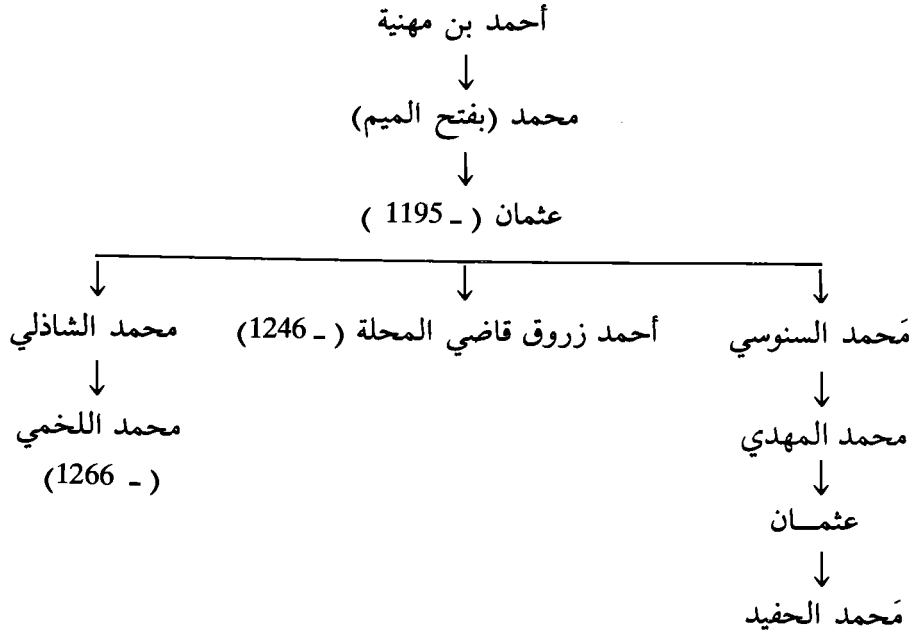

محمد بن عثمان السنوسي الجد:

ولد جد المؤلف (1179)[1]، ونشأ بين يدي والده عثمان.

مشيخته:

ـ والده الشيخ عثمان (ـ 1195).

ـ والشيخ أبو الفلاح صالح الكواش واختص به حتى كان كأحد أبنائه ولازمه إلى وفاته التي في سنة (ـ 1218)، وأسكنه المدرسة المنتصرية.

ـ والشيخ محمد بن علي الغرياني (ـ 1195).

ـ والشيخ محمد الشحمي بعد (ـ 1190).

خططه:

تولى أولاً قضاء بنزرت ودام فيه خمس سنوات وكانت ولايته سنة (1230).

ثم تولى قضاء باردو سنة (1235) وبإثر ذلك تولّىٰ مشيَخة المدرسة الحسينيّة.

(1) وفي مسامرات الظريف أنه ولد سنة (1176).

ثم تولى خطة قضاء الحاضرة وخطة قضاء الجماعة وكان ذلك بعد وفاة الشيخ محمد البحري سنة (1254).

وتولى قبل ولايته قضاء الحاضرة مدرسة النخلة في السنة المتقدمة.

تلاميذه:

تخرج على يديه الكثير منهم: الشيخ محمد النيفر الأول (ـ 1277).
والشيخ أحمد بن حسين (ـ 1285).
والشيخ صالح بن فرحات (ـ 1309).
والشيخ المعمَّر حمدة الشاهد (ـ 1311) وغيرهم.

تآليفه:

قال حفيده في «المسامرات»: «تحاريره في الفقه المالكي والحنفي كثيرة وخاصة في المذهب المالكي.

وقد نظم تلك التحارير في منظومة سماها «لقط الدرر»، وأول هذا النظم:

الحمد لله وصلّى الله على نبيء عم منه الجاه

ثم يقول:

وبعد فاعلم أن في الأحكام مسائل استخفت عن الأفهام

ثم يقول:

نظمتها من الطروس كالدرر تجلب بهجة النفوس والفكر

وهو نظم مفيد جداً وضمنه خاصة ما نص عليه أبو يحيى الحطاب في الوقف واستجلب ما ذكره أبوه في المعاوضات في الوقف وضمنه كاشف الإلباس عن بيع الخارب من الأحباس. وله طرر كثيرة على الكتب وقفت على بعضها».

مكانته العلمية:

كان فقيهاً واسع الاطلاع محيطاً بالكثير من كتب الفقه واعتنى عناية خاصة بما كتبه الفقهاء التونسيون مستخرجاً لما شذ من المسائل. وقد أصبح كتابه «لقط الدرر» من الكتب المعتمدة عند القضاة حتى أني وقفت على نسخة من المطبوع

كانت عند بعض القضاة وهو الشيخ أحمد بن الحاج موسى كلها عليها توقيفات بخط الشيخ المذكور.

ويدلك على سعة اطلاعه على كتب الفقه ما نقله من أنقال ذيل بها ما نظمه من مسائل فقهية.

وفاته:

توفي رحمه الله سنة 1255 هـ[1] وهو على خطة القضاء، وتولى بعده الشيخ محمد بن سلامة خطة قضاء الجماعة وتوفي الشيخ ابن سلامة سنة (1266 ـ).

والد المؤلف:

هو الشيخ عثمان بن محمد المهدي بن محمد بن عثمان كان والده قاضياً بجبل المنار وقد أنشأ ولدَه على التربية العلمية فتربى بين يديه، فالبذرة الأولى من هذا الوالد.

ولم أقف على ترجمة ابنه له لأن الخاتمة يظن أنه لم يكتبها أو كتبت وضاعت وتوفي الشيخ عثمان سنة (1303 ـ) أسفاً على إبعاد ابنه[2].

ميلاد المؤلف:

ولد مَحمد بن عثمان بن محمد المهدي بن مَحمد بن عثمان بتونس التي انتقل إليها جده من بلد الكاف، وقد تولى جده قضاء الجماعة، كما درس بها وفي أثناء الدراسة اتصل بالشيخ صالح الكواش الذي اعتبره اعتبار ابن من الأبناء وعند وفاته سنة (1218) حل محله في منزله محبة في شيخه الكواش فلعلّ ذلك من الأسباب التي حببت إليه استيطان العاصمة لأن هذه العائلة كانت في الكاف تتمتع بامتيازات واحترام بسبب مكانتها العلمية وانتسابها إلى الشرف والصلاح فلا تنتقل من الكاف إلى تونس إلا لسبب قوي وهو اتصاله بالشيخ المذكور.

---

(1) وفي الرزنامة التونسية (ج 1 ص 114) أنه توفي سنة (1254).

(2) النازلة التونسية بتحقيق المرحوم الشيخ محمد الصادق بسيس (ص 177).

ولد صاحب الترجمة في ذي القعدة 1267، وفي «عنوان الأريب» أنه ولد سنة 1266 [1].

ثقافته:

تثقف بثقافة عصره وتلقى بالطريقة المسلوكة حينذاك فأخذ عن شيوخ عصره الذين ذكر منهم عدداً في المسامرات فمن أشهر شيوخه:

أ ـ أبو الفلاح صالح بن أحمد النيفر وهو من أبرز شيوخه وقد نوه به أيما تنويه في ترجمته له في القسم الأول في التعريف بأئمة جامع الزيتونة ومما قاله إنه عالم تونس وإمامها الأكبر بجامعها الأعظم جامع الزيتونة، وقاضيها ورئيس المفتين بها وكان في فقهه ذا دراية واسعة مما جعله مضرب مثل وكان آية الله في الذكاء.

ومنحه الله تعالى الجاه العريض فكان من أبرز العلماء علماً وذكاءً وجاهاً وسعة سمعة.

ومن أبرز تلاميذه البارين به المؤلف محمد بن عثمان الحفيد حتى أنه لما ترجم له ذكر بعضاً من أفهامه المبنية على الذكاء فقال:

وقد قرأت كفاية الطالب الرباني شرح رسالة الشيخ ابن أبي زيد القيرواني وكانت قراءته لذلك قراءة تحقيق بعد صلاة الصبح، وكانت تقاريره ومباحثه تسحر الألباب.

وأذكر منها أنّه لما كان يقرىء قول الشيخ (ومما يجب اعتقاده أنه تعالى فوق عرشه المجيد بذاته) وقد أورد الشارح الاستشكال على ظاهر العبارة مما هو مبسوط في محله من إشعاره بالجرمية والاستقرار بالذات نفسها، فاستظهر رحمه الله أن الجملة مركبة من عقيدتين:

وهما فوق عرشه وكونه مجيداً بذاته بحيث يقرأ المجيد بالرفع خبراً ثانياً لا

---

(1) ج 2 ص 145.

بالجر على أنه نعت للعرش قال وهذا الوجه أخذته من قراءة الوقف على ذي العرش في قوله تعالى: ﴿ **ذو العرش المجيد فعال لما يريد** ﴾ وهو يزيدك حسناً كلما زدته نظراً.

وهكذا كانت أختامه ودروسه كلها في غاية حسن التقرير والتحرير وأدعيته لطيفة الإنشاء يبدع فيها كيف يشاء.

ولما توفي رثاه في الرائد التونسي نثراً. ومما جاء في رثاه:

فَقَدَ هذا القطر التونسي شيخ الإسلام المالكي والإمام الأعظم... وهو الهمام الذي عبقت الأرجاء من الثناء عليه بمسك أذفر، أستاذنا أبو الفلاح الشيخ صالح النيفر.

ويصفه في هذا الرثاء:

له اليد الطولى في المعقول والمنقول، وأحرز ميادين السبق في الفروع والأصول، وقدمه في سائر العلوم راسخة، ومعرفته الوثيقة لسائر الزيوف ناسخة، وإن تكلم في المجالس أَبْهَتَ الناطق والصامت.

وكانت وفاته أواخر ذي القعدة الحرام من سنة 1290 وكانت ولادته سنة (1236) عن نيف خمسين سنة[1].

ب ـ الشيخ الشاذلي بن صالح، وقد وصفه بأنه عالم خير حسن الأخلاق مع الخصوم سهل الجانب، وأشار رمزاً إلى أنه كان يعتمد على أحد شهود البلاد مما ناله منه الأذى.

وكان ولوعاً بمطالعة كتب الأحكام وكتب عدة رسائل في تحرير مسائل خلافية وقع له فيها النزاع مع الشيوخ[2].

ووقفت له على رسالة في الإرتواك غاية في التحرير الفقهي والنفاسة التحريرية.

---

(1) مسامرات الظريف (ج 1 ص 260).

(2) المسامرات (ج 2 ص 274).

وقرأ عليه المؤلف المكودي على الألفية ابتدأه غرة رجب سنة (1285).

وقرأ عليه بعد ذلك نبذة من شرح التاودي الذي كان بصدد تحرير حاشية عليه.

وتوفي رحمه الله بجبل المنار سنة (ـ 1308) وقد ناهز التسعين من عمره.

ج ـ محمد ويدعى حمدة ابن مَحمد ـ بالفتح ـ الشاهد، وهو من تلاميذ جد المؤلف قرأ عليه شرح الخرشي على المختصر الخليلي.

ووصفه بقوله يأتي في كل المشكلات الواردة في درسه بالعجب العجاب وناهيك به من فذ فاضل حسن الأخلاق بعيد عن التصنع وكان معتنياً بدروسه لا يضيع الوقت في المباحثات اللفظية.

وقرأ عليه المؤلف قطعة من أول شرح الشُبرخيتي على الأربعين النووية وتوفي سنة (1311) عن نيف وتسعين سنة[1].

د ـ الشيخ محمود قابادو ترجم له أوّلاً بقوله:

(هو شيخنا أبو الثناء محمود بن علي بن مَحمد بالفتح قابادو الشريف أصلهم من صفاقس، وانتقلوا إلى تونس وبها ولد صاحب الترجمة سنة (1235) ولقد أرخ ولادته بقوله (ولد الشيخ الأكبر).

ومال الشيخ قابادو أولاً إلى التصوف.

وذكر عنه قصة غريبة وهي أنه في أثناء وجوده بطرابلس وابتغائه التوصل إلى المعرفة كانت تجري على لسانه أشعار فائقة رائقة فيكتبها في ظلمة الليل ويجد الضياء حين الكتابة من غير مصباح موقد ولا شك أنه حدثه بذلك.

ويذكر المؤلف أنّ علمَ شيخه علمٌ إلٰهي، ومن أظهر علومه علم القوم وكان فيه المفرد العلم.

---

(1) المسامرات (ج 2 ص 280).

وقد اعتنى المؤلف بجمع شعره في ديوان طبعه في جزأين وكتب على ظهره إعجابه وتعلقه بشعر شيخه قابادو، وتفضيله التفضيل الكلي.

هـذا الذي نـظمت به الآبـاد عقـداً بـه تتفـاخـر الأجيـاد
تُنسي محاسنه القـلائدوالمغـا ني إن زهـا بنظامـه الإنشـاد
فيريك نفح الطيب مع زَهر الريا ض بـزُهر أفق بـلاغـة تنقـاد
جمع المحاسن زَهرها والزُّهر في ديوان شعر أبي الثنـاء قابـادو

ويعبر عن إعجابه بشيخه العلاّمة الأديب ما نقله في المسامرات من كتاب رُشيد الدحداح صاحب قمطرة طوامير.

وأما علومه ففضلاً عن أنه كان الفقيه المحقق، والفاضل المدقق واللغوي النحرير والأديب الماهر، والناظم الناثر والمالك لزمام المعالي والبيان والبديع والنحو والصرف والعروض لم يكن أجنبياً عن سائر العلوم كالفلك والمساحة والحساب والطب والتاريخ والاستخراج من علوم النجوم والجبر وأشباهها، وما كان يرى من الألغاز والمُعمَّى شيئاً إلا كشف عنه الغطاء فوراً.

وقد توفي وما أخاله بلغ الخمسين وإني عليه لمن الآسفين).

تقلد المؤلف ما قاله رشيد الدحداح في كتابه الذي راسله به من أن دائرة معارف الشيخ قابادو متسعة اتساعاً لا يكاد يصدقه العقل من إتقان تلك العلوم المتباينة في مفهومها وموضوعها التباين البالغ.

ويصفه بما أدركه فيه.

(وله في العلوم المعقولة من الأصول والبيان والمعاني والنحو مدركة تشتعل اشتعالاً يستحضر بها سائر الأبحاث وما عساه أن يقال في المسالة في آن واحد من غير مطالعة، ولطالما نقلت له كلام السعد، وقبل أن أذكر ما أورده عليه السيد وما تحمله الشيخ عبد الحكيم وما يمكن أن يكون قد خطر ببالي يذكر لي كل ذلك)[1].

(1) المسامرات (ج 2 ص 307).

وتوفي الشيخ محمود قابادو سنة (1288) وتوفي وهو على خطة الافتاء[1].

هـ ـ من شيوخه العلاّمة أحمد بن محمد بن أحمد بن الخوجة شيخ الإسلام ابن شيخ الإسلام ولد سنة (1246).

وأكثر قراءته على والده الشيخ الذي اعتنى به أيما اعتناء فأتقن عليه العربية والفقة الحنفي والأصول وأجازه إجازة مطلقة يقول فيها فإن ولدي الفاضل النجيب، الذكي الزكي الأريب، الحائز من العلوم أوفر نصيب الأمجد الأنجد أبا العباس أحمد.

فها أنا قد أجزت له إجازة تامة في ذلك ـ أي الثبت وغيره ـ علماً مني بأنها من وضع الشيء في محله.

وتاريخ هذه الإجازة سنة (1271).

كما قرأ على جملة من الشيوخ منهم عمه الشيخ حسن بن الخوجة وروى عن الشيخ إبراهيم الرياحي قطعة من الموطأ وأجازه إجازة عامة مثل إجازة والده، وقرأ على الشيخ ابن سلاّمة والشيخ معاوية وابن عاشور.

وأجازه الشيخ بيرم الرابع إجازة نظماً يقول في مطلعها:

بحمد الله افتتح المقالا وأشكره على النعمى تعالى

وتدرج الشيخ أحمد بن الخوجة في الوظائف العلمية ودرس وأخذ عنه الجهابذة الفحول، إلى أن ارتقى إلى خطة مشيخة الإسلام.

وقرأ عليه الشيخ السنوسي العربية والتفسير وتوفي سنة (1313)[2].

و ـ ومن شيوخه الشيخ حسونة بن محمد عباس ولد سنة (1239) وتوفي 5 جمادى الأولى سنة 1302.

قرأ على شيوخ عصره وقرأ عليه المؤلف نبذة من الفاكهي وشرح

---

(1) مقدمة ديوانه (ج 1 ص 4) والمسامرات (ج 2 ص 309).

(2) المسامرات (ج 2 ص 128).

الباجوري على السمرقنديّة ونبذة من شرح الباجوري على البردة[1].

ز ـ ومن شيوخه الجد الشيخ محمد الطاهر والنيفر، وحين ترجم له وهو آخر من ترجم له من القضاة، وصفه بما يأتي:

هو شيخنا أبو الصفا الطاهر بن محمد بن أحمد بن قاسم بن محمد النيفر هو رابع القضاة من آل بيته ولد سنة (1247)، وتربى في حجر اعتناء أبيه.

وذكر شيوخه العديدين وما قرأ عليهم، وأكثر تلقيه على والده الشيخ محمد بن أحمد النيفر فإنه قرأ عليه كتباً عدة: الآجرومية، والقطر، وشرح ميارة على ابن عاشر، والكفاية، ونبذة من الأشموني ومختصر السعد، والقطب على الشمسية، والتاودي على العاصمية، وقطعة من مختصر الشيخ خليل، ونبذة من شرح الشهاب على الشفا، وقطعة من صحيح البخاري، وقطعة من تفسير القاضي البيضاوي.

وذكر المترجم أنه قرأ على الجد شرح الشذور لابن هشام، وشرح الشنشوري على الرحبية متابعة بحواشي الباجوري، وكلاهما ختمه عليه، وقرأ عليه قطعة وافرة من شرح الأشموني، ودروساً من آخر شرح الدردير، وقطعة من أول شرح الخرشي عليه إلى التيمم، ونبذة من المطول على التلخيص بحواشيه، وقطعة من شرح الزرقاني على الموطأ، ونحو الربع الأول من شرح القسطلاني على صحيح البخاري دراية.

ثم قال استجزته بسنده فيه ـ أي صحيح البخاري ـ فأجازني إجازة مطلقة ثم خص سنده فيها بصحيح البخاري هذا نصها:

نحمدك يا من أنَارَ الصدور بأنوار السنة النبوية، وآثر لحفظ درها المنظوم والمنثور عزائم أهل الهمم الأبية، فحمل علمها من كل خلف عدوله، وسلم من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين معقوله ومنقوله، فهو الوديعة تبلغ خلفاً عن سلف، والذخيرة حظ مضيعها من الدارين الندامة والأسف.

(1) المسامرات (ج 2 ص 149).

وأصلي وأسلم على من اتصل به السند إليك بلا انقطاع، وبلغ فصيح المصحف والموضوع بين الذعاع، فتواتر في الخافقين مشروعه واشتهر صالحه ومسنده ومرفوعه، وعلى الطاهرين آله الناسجين على منواله، والأكرمين أصحابه الحاملين لعلومه وآدابه، وعلى تابعيهم الغائصين على فرائده العديمة لمثالها، البالغين الجهد في جمعها وإيصالها.

أما بعد فإنه قد تقرر للعلم مكانة لا تجهل، ومنصة لا يحط فارعها ولا يستنزل، قد ركب سراة النفوس مطايا العزم في تحصيله، واجتمعوا ولو افترقوا على تفضيله وتأصيله وتفصيله، وقلبوا في محاسنه أحداق البصائر، وعضوا على محاسنه بالنواجذ وعقدوا عليها بالخناصر، حتى ظهرت عليهم خلع العرفان وتوجت نفوسهم الزكية بمواهب الرحمٰن وتلك قصارى الهمم غير القواصر، ومنتهى أمل الجهابذة الأكابر، فالأريب من صرف لروايته عزمه، وتابع في تحرير روايته كده وحزمه، كي يلتحق بالجلة الأول، ولا يُعْدَم من مشربهم نهل ولا علل.

هذا وإن ممن رمى في ميدان الاشتغال بسهم صائب، وأرجو الله أن يصل بانقطاعه إلى أسنى المطالب، الفقيه الألمعي والأديب اللوذعي ابن الروح الأعز أبا عبد الله مَحمد السنوسي سمي قاضي القضاة جده، المتجاوز بفضل الله لشأوه وحده.

وقد التمس مني إجازة تامة مطلقة عامة فناجيت نفسي الأبية عن غصب الرتبة العلية الخبيرة بمقدارها، المستقيلة من سوء عثارها، فأجابت بأن هذه المنصة وإن كانت لديها دون أن أتطاول إلى الترقي إليها إلّا أن مساعفة الطالب لنيل مرامه، حتى يشتفي من اشتياقه وأوامه، إذا حسنت فيه السريرة، تمحضت السلامة من حظوظ النفس الشريرة، أمر لا ينكره شرع ولا عادة، [لا] سيما إن أثمر الإفادة والاستفادة، ورجي شمول التبرك بذلك، وقصد التأسي بسلفنا أولئك.

فعند ذلك قلت حامداً مصلياً: قد أجزت الأعز ابن الروح المذكور جميع ما تصح روايته عني بشرطه كما أجازني بذلك على العموم والدي أظله الله بسحائب رضوانه وأسكنه أعلى فسيح جنانه.

عن شيخه العلم سيدي محمد بيرم الثالث.
عن جده سيدي محمد بن حسين بيرم.
عن شيخه سيدي أحمد بن حسين الماكودي الحسني.
عن سيدي علي بن أحمد الحريشي.
عن شيخ الجماعة سيدي عبد القادر بن يوسف الفاسي.
عن شيوخه الثابتين بفهرسته نفعنا الله بهم وأعاد علينا من بركتهم.

وبسند آخر لخصوص صحيح البخاري.
عن والدنا إلى الشيخ الحريشي.
عن الشيخ عبد الله العياشي.
عن الشيخ سيدي علي الأجهوري.
عن أبي حفص عمر المعروف بأبي النجائي.
عن شهاب الدين الحجازي.
عن شيخ الجماعة ابن أبي المجد.
عن الحجار.
عن الزبيدي.
عن أبي الوقت.
عن الداودي وأبي ذر.
عن السرخسي والكُشْمِيهَنِي.
زاد أبو ذر والمستملي.
عن الفربري.
عن البخاري.

كما أجزت له في التصدر للتدريس، فليتوخ ما لهذا المقام العالي النفيس، من الإخلاص لله وتقواه، فإنه ملاذ كل امرىء ومناه، باذلاً في النصيحة الوسع، مستعملا للضروب المنتجة لعظيم النفع، قائماً بما يجب للسلف من الأدب والتلطف، متجنباً لمذموم التشدق والتعسف، مراجعاً من فوقه فيما لم يصل إليه

حتى يكون على بصيرة فيما يلقيه لمن بين يديه فإن العلم أمانة، وقفو غير المعلوم من أعظم الخيانة. متلبساً لما يجب لمولانا سبحانه من الشكر، متذكراً لي بصالح الدعاء عند الحضور في السر، وعلى الله القبول وإليه الوسيلة في بلوغ المأمول، إنه ولي ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قاله منيباً في كتابته خديم العلم الشريف الطاهر بن محمد النيفر، أناله الله من رضوانه الحظ الأوفر. في الثاني من ربيع الأول سنة 1290 تسعين ومائتين وألف[1].

تطويعه:

حصل على شهادة التطويع ـ وهي شهادة انتهاء الدروس الثانوية ـ في 4 ربيع الثاني سنة 1287.

مكانته العلمية:

استعجل السنوسي الحفيد الالتحاق بالوظيف قبل أن يتأهل التأهل الكامل، ويدرس مثل أقرانه.

جاء في عنوان الأريب:

وشارك في العلوم نقلية وعقلية، فتصدر لبثها فضرب بسهم، فاعترف له الأقران بجودة الدراية وإصابة الفهم، وتولى تدريس العلم غير أن اشتغاله بما تقلده من تحرير جريدة الدولة الرسمية والكتابة بالأوقاف صرفا وجهته عن رياض العلم[2].

ولكنه تدارك تسرعه للوظيف الذي أداه إلى الانقطاع عن التعمق في الطلب والتدريس شأن المقبلين الإقبال الكلي على مناهل الزيتونة بإقباله على التحرير.

---

(1) المسامرات (ج 3) ص 119 وهي آخر ترجمة فيه.

(2) عنوان الأريب للشيخ المرحوم محمد النيفر (ج 2 ص 145).

وهو وإن فارق سبيل الفحول من الزيتونيين الذين تمكنوا من علوم العربية، والعلوم الشرعية فإنه سلك مسلكاً آخر كان فيه من الممتازين وهو التحرير وخاصة في التاريخ فألف مؤلفاته التي جمعت الكثير من تاريخ تونس وغير ذلك.

وبذلك امتاز على أهل عصره الذين اقتصروا على ما كتبه غيرهم دون أن تكون لهم آثار باقية فهذا شيخه الشيخ سالم بوحاجب على سعة مداركه وقوة حافظته على أنه حفظ من القاموس أكثرَه رحمه الله لم يترك آثاراً إلا ما نظمه من شعره أو دونه من خطب، أو حفظ من نثره، أو ما دونه الوالد محمد الصادق النيفر من حواشيه على شرح القاضي زكرياء على المنفرجة لابن النحوي التوزري، وهي نزر قليل بالنسبة لما تركه تلميذه الحفيد السنوسي.

وانتقده المنتقدون في تسرعه في الكتابة وخاصة فيما يرجع للتحقيق العلمي ونقل ذلك المرحوم الشيخ محمد بن الطيّب النيفر في كتابه عنوان الأريب:

(وله مؤلفات في غير ما موضوع منها شرح على القانون العقاري سماه بمطلع الدراري إلا أن كثيراً من مسائله التي رام تطبيقها على أحد المذهبين المالكي والحنفي انتقدت عليه وفوقت بسببها سهام الاعتراض عليه[1].

وكما انتقد عليه ما كتبه في مطلع الدراري انتقد عليه عدم تحريه في الكتابة، وهو ما ذكره في عنوان الأريب:

وقد كان قلمه رطب اللسان يترشح بكتابة ما عنَّ له لا يتهيب أي موضوع ولا يتأخر إذا أقدم على أي مشروع.

وقد أخبرني بعض أصحابه أنه قال له: إن ما يكتبه بين خطرات اليراع يريد أنه لا يحتاج إلى إعمال الفكرة إعلاماً بقوة عارضته، وذلك إغراقٌ منه يرحمه الله، ومؤذن بتعجله في محرراته[1].

ولعلّه اكتسب هذه العجلة من كونه كان محرراً بالجريدة الرسمية، وفي

(1) عنوان الأريب (ج 2 ص 146).

الكثير لا يجد من الوقت ما يتمكن به من الدرس العميق، والبحث المركز فصار ذلك له عادة.

واستفادة ذلك تطالعك من كتاباته فإن أثر التسرع يؤدي إلى الوقوع في بعض الأخطاء.

ولا يُوقِر هذا في النفس أنه من ضعاف الكتاب غير المحصلين بل بالعكس لأن تآليفه تدلك على بذل مجهود مشكور وجمع قليل النظير لم يكن في أهل عصره الذين ركزوا معارفهم على الكتب المدروسة، اكتفاءً بذلك.

امتيازه:

وامتيازه أنه اعتنى بجمع آثار التونسيين التي كادت تعدو عليها يد الضياع وتغيب في ثنايا النسيان وتصبح أثراً بعد عين لأن الأكثرية من الذين يكتبون أو ينظمون لا يعتنون بآثارهم إلا في القليل النادر وخاصة رجال العلم اشتغالاً منهم بالتدريس والفتوى والقضاء والإنشاء في الدواوين والتوثيق فتبقى آثارهم في بيوتهم وحتى خارجها فيسطو عليها من لا يعرف لها قيمة، فيحرقها أو يتركها للمطر الواكف من السقوف، أو البشر الذين لا يرقبون إلًّا ولا ذمة.

ومما أذكره أن آثار الشيخ محمد بن سلامة القاضي وآثار ابنه الطاهر بن سلامة أحرق الكثير منها من أجل أخذ عِدل وضعت فيه الآثار من زوج إحدى حفيدات الشيخ لأنه لم يبق من عقبه ذكر وعلمت ذلك لما أخرج كناشين لابنه الطاهر المنشىء بالوزارة الكبرى فاشتريتهما بثمن ذي بـال، فقال لي زوج الحفيدة هذه الأوراق ذات قيمة؟ قلت: لها قيمة وأية قيمة فتأسف وقال لي: أحرقت الكثير لأخذ ذلك العدل الموضوعة فيه الأوراق المخلفة عن الشيخ فتأسفت معه وكدت أجلس للعزاء كما جلس بعضهم لذلك.

فما صنعه الحفيد السنوسي من جمعه لبعض آثار هؤلاء الفحول من العلماء وخاصة في المسامرات لأن مجمع الدواوين الذي جمع فيه شعر الشعراء في الدولة الحسينية الكثير منهم اعتنوا بأشعارهم مثل الورغي وحمودة بن عبد

العزيز وابن سعيد وماضور وغيرهم فهذه الناحية كاد ينفرد بها لأن المؤرخين المتقدمين عليه، حتى المتأخرين عنايتهم مصروفة لغير الآثار للمترجمين.

فصنيعه هذا يجعله من المؤرخين الممتازين الذين لهم فضل على الآثار الأدبية التونسية والحياة التاريخية.

ومن امتنان الله تعالى عليّ أثره هذه المسامرات أنه وقع في يدي فأنقذه الله من الضياع فلو وضع في يد تضن به لعدا عليه ما عدا على غيره من الآثار التونسية.

وظائفه:

تدرج الحفيد السنوسي من الوظائف الصغرى إلى ما هو أسنى منها.

1) توظف كاتباً في جمعية الأوقاف التي أسسها الوزير المصلح خير الدين باشا ووظيفه أنه كاتب لمجلس جمعية الأوقاف، وكانت تسميته في ذي القعدة سنة 1291.

2) أسند إليه تدريس وَقْفِي بزاوية سيدي الهياص[1] الذي سعى في نقله إلى جامع حمودة باشا المرادي، وكانت تسميته بالجامع المذكور سنة 1301.

وقد كان معتزاً بهذا التدريس حتى أنه يقتصر عليه في وظائفه حين يذكر اسمه أو يصدر به كما جاء في مطلع الدراري.

تأليف العالم... مظهر فخر التصنيف بعد أن تنوسي، المدرس بالجامع الباشي الحفيد الشيخ السيد محمد السنوسي.

3) وظيفه الثالث إدارة الرائد التونسي وهو الجريدة الرسمية للمملكة وكانت تسميته به في 5 شعبان سنة 1283.

وهذا ما جاء في أحد أعدادها.

---

(1) وهي زاوية كانت خارج باب القرجاني.

يلزم المكاتيب المرسلة بعنوان منشىء الرائد التونسي محمد السنوسي تكون خالصة الأجرة وإلاَّ فلا تقبل.

وكذلك إمضاءاته في هذه الجريدة حين ينشر بعض الفصول أو القصائد يمضيها كذلك مثل ما جاء إمضاءً لقصيدته التي عنوانها:

«مورد الهناء المعين. بعام أربع وتسعين»[1].

(لحضرة أمير تونس المعظم)
(أدام الله عزه)

التي مطلعها:

عـام انتزاه الصـادق المنصور وافى ببشـر ليس بالمحصـور

فإنه أمضى هذه القصيدة بما نصه.

محمد السنوسي منشىء الرائد التونسي[2].

وهذه العبارة توهم أنه منشىء الرائد ومؤسسه مع أن تأسيسه لم يكن من قِبَلِه لأنه كان كما أشار إليه نفسه أسس (سنة 1277).

وقد جاء في مفتتح أعداد سنة خمس وتسعين 1295 مقال له هو نموذج من مقالاته فيه الدعوة إلى تطوير صناعة الأحذية التونسية وهي دعوة واجه بها الوزير المصلح خير الدين باشا وفداً قصده من صانعي الأحذية التونسية المعروفة (بالبلغة) متشكياً من كساد صناعتهم فنظر إلى أرجلهم فرآهم لابسين الحذاء المعروف (بالكنترة) وهو حذاء عصري مفتوح قائلاً لهم: كيف تشكون من كساد صناعتكم وأنتم لابسون حذاءً عصرياً لم يكن من صناعة أيديكم، بل هو من صناعة أيد أجنبية فهل طورتم صناعتكم فتعلمتم هذه الصناعة الأجنبية وحينئذ تروج صناعة الأحذية.

---

(1) هكذا جاء بعام أربع والصواب بعام أربعة.

(2) الرائد التونسي رقم 1 السنة 18 س 1294.

وقد أشار السنوسي إلى هذه الدعوة وهي تطوير صناعة الأحذية ولكنه لم يشر أدنى إشارة إلى أنها من نصائح ذلك الوزير وإنما لم يشر إلى ذلك لأن الوزير خير الدين قد استقال من منصبه وتولى الوزارة غيره وبقي السنوسي مشرفاً على جريدة الرائد التونسي خمس سنين أمدها بتحريراته وكان انفصاله عن الرائد التونسي بإسناد إدارته إلى الحاج حسن لازغلي وهو صاحب التقويم التونسي المسمى (بالنزهة الخيرية).

وكان انفصال السنوسي عن الرائد التونسي إثر الاحتلال.

وقد أشار السنوسي إلى سبب تأخيره عن الإشراف على الرائد في رسالته خلاصة النازلة التونسية عند اجتماعه بالكاتب العام (موريس بونبار) وهو أول من تولى هذه الخطة بتونس، فإنه في أثناء حديثه معه حين انتقل الحديث عن شخصه بعد الحديث العام أنبأ الكاتب العام:

(بأني معروف في البلاد بالميل إلى أسباب العمران الجديدة ولست من المضادين للمصالح العامة، وآثاري في الصحافة الرسمية وفي تأليفي شاهدة بذلك.

نعم كانت الدولة أخرتني من إنشاء الرائد التونسي بغير سبب، حتى أني كنت اجتمعت بترجمان السفارة في ذلك العهد اليهودي (ماريسا)، وقال لي من لفظه: إن الحاج حسن لازغلي نفع السفارة، فطلبنا له إنشاء الرائد مجازاةً له على صنيعه من غير ملاحظة شيء من جانب شخصكم ويمكنك بعد أن تحصل على وظيف أحسن من ذلك.

فلم نر لنفسي عند ذلك أن نتردد على بيوت المتوظفين حتى كان ذلك سببَ بُعْدِي عن الدولة في هاته السنين الأخيرة وقد كنت أظن أن معرفة المتوظفين مما لعلّه لا يخفى من شهرتي يغنيني عن التعرض لأسباب التعرف.

وبعد استحسانه للجواب بملاطفات شكرت موقعها.

قال لي: نطلب منك أن تنفع بلادك بمعارفك على ما يرضي ربك.

فكان هذا أهم ما جرى في ذلك الاجتماع، وكان اجتماعي مع نائبه (رينو) مجرد ملاطفات)[1].

فانفصاله عن الرائد لم يكن لأسباب سياسية، وإنما كان إرضاءً للحاج حسن لازغلي الذي تولى بعده إدارته ويتضح أن الحماية لم تكن تخشاه كما يبدو من كتابة بعض مترجميه كما أنه لم ينفصل عن إدارة الرائد من تلقاء نفسه كما تفيده عبارة المرحوم الشيخ الفاضل بن عاشور الذي يقول:

(وجاء انتصاب الحماية على تونس فانفصل عن تحرير جريدة الرائد وخرج من البلاد يتبع خطى أُستاذه في رحلة واسعة)[2].

فهو لم ينفصل، وإنما فصل كما صرّح به في مقابلته الأولى مع الكاتب العام (موريس بونبار) وبقي مع ذلك يتتبع أسباب فصله لذلك لما تقابل مع ترجمان السفارة خاض معه في سبب فصله، فأخبره بما تقدم من إرضاء لازغلي الذي نفع السفارة الفرنسية وطلب خطة إدارة الرائد فأجيبت رغبته.

وكان فصله عن إدارة الرائد في سنة 1298 ولم يرتض هذا الفصل وأحب أن يواصل العمل في الرائد استمراراً على إدارته ولذلك اشتد غضبه وقوي حنقه فغادر البلاد في رحلة طويلة قصد بها الاستفادة من فوائد السفر، وفي ضمن ذلك أداء الركن الخامس من أركان الإسلام فأدى فريضة الحج.

وخروجه من تونس في الرحلة لم يتسبب في انفصاله من عمله في إدارة الأوقاف الذي كان منضمًّا إلى عمله في إدارة الرائد.

وإنما انفصل عن العمل في الأوقاف حيث كان كاتب سر إدارتها في 1302 حين اشترك في قضية النازلة التونسية وهي النازلة الاحتجاجية على أعمال البلدية وشركة ماء زغوان كما سنذكره عند الحديث عن عمله الوطني في تلك القضية الشهيرة.

---

(1) النازلة التونسية (ص 197).

(2) أركان النهضة الأدبية (ص 30).

4) في المجلس المختلط، وهو وظيفه الرابع

تأسس هذا المجلس لتسجيل العقارات وكان تأسيسه سنة 1302/ 1888 أي بعد نصب الحماية بسبع سنوات وصدر قانونه العقاري سنة 1302.

واقتضى الفصل العشرون (أن العقارات التي تسجل تصير لنظر المحاكم الفرنسوية وحدها، وانتقالها هذا يكون نهائياً حتى أنه إذا وقع خلاف في حدود عقارين متحادين في ما لهما من حقوق الجوار، وكان أحدهما مسجلاً، والآخر غير مسجل لا يجوز النظر في الخلاف المذكور إلا للمحاكم الفرنسوية، ويكون فصله بمقتضى هذا القانون)[1].

فهذا القانون يقتضي تجنيس الأرض التونسية بانتقال أحكامها من المحاكم العدلية التونسية إلى المحاكم العدلية الفرنسوية.

وبعد رجوع المؤلف السنوسي من المنفى في قابس تعين كاتباً للمجلس المختلط هذا، وكان تقلده خطة كاتب بهذا المجلس المختلط العقاري سنة 1302 ،وانخرط في سلك موظفيه بمجرد صدور قانونه الذي صدر في التاسع عشر من رمضان سنة 1302 وإلى كونه انضم إلى المجلس المختلط بمجرد تأسيسه أشار في خلاصة النازلة التونسية:

ولما تأسست إدارة الدفتر خانة وتعيَّـن كاتب المجلس المختلط قال لي وزير فرنسا نفسه إن هاته الخطة تقتضي أن جميع نـوازل العقار التي بين التونسيين تتولاها أنت بالتلقي اللازم، وهذا يعطيك برهاناً كافياً على الأمان الذي عندنا في معارفك وصدقك ثم بعد ذلك قابل الباي في سراية المرسى، وأتى على ما دار بينه وبين الباي والوزير الأكبر في خلاصة النازلة التونسية.

وفي صبيحة يوم الخميـس 14 من ذي القعدة قابلت الباي في سراية المرسى، وعند ذلك قال له الوزير إن الشيخ قدم من سفره، وهو يطلب رضا سيدنا.

---

(1) القانون العقاري الصادر في 1302 وفي 1888.

فقال له الباي: وأي شيء لي معه، وهو يعرف قلوبنا، لأنه محسوب واحد منا، ولكن الحمد لله على اللطف.

والمجلس المختلط سمي بذلك لأنه مركب من تونسيين وفرنسيين. وهيئته من رئيس وستة أعضاء، وشرط الرئيس أن يكون حاكماً فرنسياً، وتعينت مدة وظيفته بسنة كما تعين مرتبه وحكم تخلفه ومن ينوب عنه بالأمر المؤرخ في 14 رمضان سنة 1303.

وأما الأعضاء فعلى قسمين ثلاثة منهم تونسيون يولون باختيار الدولة التونسية، وانتخاب المجلس الشرعي ومعهم كاتب عربي.

وثلاثة فرنسيون توليهم الدولة التونسية بطلب المحكمة الفرنسوية ومعهم كاتب فرنسي[1].

فوظيفة الكاتب العربي أنه يتولى القضايا بين التونسيين التي تنشر في القسم التونسي المتركب من ثلاثة قضاة تونسيين.

وهذا ما أشار به إليه الوزير الفرنسي حين قابله المؤلف فإنه بيَّن له أن توليه تلقي القضايا المرفوعة من التونسيين يدل على الثقة الممنوحة له من الحكومة الفرنسية وهي ثقة مبنية على معارفه وصدقه.

وحين سمي بهذا المجلس أراد تحقيق رغبة جاءت في رسالة بسكال الذي كان أحد أعضاء مجلس الشورى الفرنسي المرسلة إلى رئيس جمعية البحث عن أحوال المستعمرات.

وإلى تحقيق هذه الرغبة أشار في مقدمة مطلع الدراري:

«ومن عجيب الموافقات أني لما كدت أن نستكمل هذا الغرض، قياماً بواجبه حين اعترض، وقفت على رسالة (بسكال) الذي كان أحد أعضاء مجلس الشورى في باريس، وكتبها مدة جولاته، وأرسلها إلى رئيس جمعية البحث عن

---

(1) المجموعة الرابعة في منتخبات الرائد الرسمية (ص 264).

أحوال المستعمرات بتاريخ 31 مايه سنة 1886، وجعل عنوانها (طريق الاستعمار في المملكة التونسية) فرأى فيها لزوم إيجاد كاتب عربي يوضح للإفكار ما عنته الدولة من مصلحة العقار ونوه بهذا الشأن ولزومه بعد أن نوه بنفس الموضوع، ولذا رأيت من المناسب أن نذكر ما يهم من هذه الرسالة»[1].

وبعد أن نشر ما يهم من ترجمة الرسالة المشار إليها قال:

(ولا شك عندي أن ملحوظات هذا الكتاب المدقق حاصلة ضمن مقصدنا من هذا الكتاب ولا عجب في اتفاق الخواطر إذا كان المقصد مقبولاً)[2].

وكانت خطة الشيخ السنوسي بالمجلس المختلط أنه كاتب معاون كما في النزهة الخيرية[3].

5) الإنشاء بالعدلية التونسية:

أشار المؤلف نفسه إلى ولايته خطة الإنشاء المذكورة في طالعة كتابه: (نظام المدنية المفيد. لكُتَّاب العصر الجديد).

الحمد لله. كانت ولاية المؤلف خطة الكتابة في رتبة منشىء بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 14 ذي القعدة الحرام سنة 1304 .

وتعين منشئاً بقسم الأمور المدنية بمقتضى قرار الكاتب العام في 2 أغشت سنة1887 وهو وظيفه الخامس.

وحين طبع مطلع الدراري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري كان منشئاً بالعدلية التونسية وكان يحلي نفسه بأنه منشىء بالوزارة كما في أول مطلع الدراري تأليف... المدرس بالجامع الباشي الحفيد الشيخ السيد محمد السنوسي المنشىء بالقسم المدني من الوزارة السامية.

---

(1) مطلع الدراري (ص 20).

(2) مطلع الدراري (ص 22).

(3) النزهة الخيرية السنة (14) (1304) (ص 81).

وكان منشئاً بالقسم الثاني من الوزارة الكبرى قسم الأمور المدنية وكان يرأس هذا القسم الشيخ أحمد الهوام وكان من أعضائه: حسونة حافيز ـ بكار الدريدي ـ وحافظ المكاتيب: علي النيفر ـ محمد شاكر ـ محمد السنوسي ـ الحاج محمد المسعودي[1].

6) الشهادة بالعدلية الفرنسية:

وتقلد خطة إضافية وهي الشهادة على بيوعات العدلية الفرنسية وقد ذكر تاريخ ولايته هذه بقوله:

وتعين شاهداً على ما يباع من الأملاك بواسطة التريبونال الفرنسي بمقتضى الأمر العلي في 23 ذي الحجة سنة 1304.

وتقلده لخطة الشهادة المذكورة بعد توليه خطة الإنشاء بالوزارة، وهنأه بخطة الكتابة المذكورة الأديب الشيخ محمد بن الخوجة:

هنيئاً للكتابة إذ أتاها ... مُحَسِّنُها وغاية مبتغاها
همام سيد حبر زكي ... ومُفْتَخَر البراعة بل بهاها
عنيت به أخي ذاك السنوسي ... ومن بيديه مقوله يباهى
لقد أربت فضائله وجلت ... وسن شبابه ما أن تناهى
أقر بنبله وبما حواه ... من العلياء من عدم السفاها[2]
أديب العصر من غير ارتياب ... إذا هز اليراعة لا يضاهى

كما هنأه بهذه الخطة الأديب الشيخ مصطفى بن الخوجة:

دَسْت الكتابة قد تقلد جيده ... مننا بها جادت أكف مَحمد
ذاك السنوسيُّ الذي قد أحيا من ... بعد الدثور مفاخراً لم تَخْمُد
فاهنأ أبا عبد الإله بخطة ... لازلت فيها ذا سمو سرمدي

كما هنأه جمع منهم الأديب الشيخ حسين بن الخوجة، والأديب

(1) النزهة الخيرية السنة (15) (ص 62).
(2) السفاه: الجهل.

الشاذلي بن فرحات بقصيد طويل الذيل، وهنأه ببيتين لطيفين:

قد أنشد القطر والأهلون أجمعُهم الحمد لله حاز القوس باريها
إذ البلاد التي تسعى لصالحها لك البشارة، أنت اليوم منشيها

كما هنأه الأديب البشير الأكودي.

وكذلك الشيخ الأديب عثمان الحشائشي.

والكاتب الشيخ محمد الرياحي رئيس الدائرة الثانية من القسم الجنائي.

تدل هذه الإنشادات على أن الأدباء في ذلك العصر لما نال الحفيد السنوسي النفي تأثروا لذلك غاية التأثر، فلما رجع إلى وظيف أرقى من وظيفه الذي كان فيه سُرُّوا سروراً بالغاً، وتسابقوا إلى تهنئته بتلك الإنشادات لأنه لم تجر العادة بتهنئة المنشئين بمثل ما هنىء به إلا لما ذكرنا.

ثم هناك أمر آخر، وهو أنه لما كان مشرفاً على الرائد التونسي توطدت علاقات عديدة بينه وبين أولئك الأدباء فلما تقلد خطة الإنشاء بالوزارة التونسية، وهي من الخطط الرفيعة عبر الأدباء عن شعورهم نحوه بما ذكر ويزيد شعورهم ارتياحاً أنه كان نجماً لامعاً بين المنشئين الذين كانوا بالوزارة لما اتصف به من حيوية، وقلم سيال غير مقصور على العمل الإداري إذ له مقالات في الرائد التونسي كما له مؤلفات جمة.

7) حاكم بمجلس الجنايات:

وانتقل من القسم المدني إلى القسم الجنائي بصفة حاكم به: وهي خطته السابعة، وإلى ارتقائه لهذه الخطة أشار في طالعة كتابه نظام المدنية المفيد:

ثم تعين حاكمًا بالقسم الجنائي بمقتضى قرار الكاتب العام المؤرخ في 10 فبراير سنة 1889.

وبالتاريخ العربي تكون ولايته حاكماً بالمجلس الجنائي في ذي الحجة سنة 1307 كما جاء في النزهة الخيرية[1].

(1) النزهة الخيرية السنة (18) (ص 45).

مجلس الجنايات

الرئيس الشيخ سيدي يوسف جعيط.
الحاكم السيد محمد السنوسي المنشىء من الرتبة الثانية.
الحاكم السيد الشاذلي الكبادي المنشىء من الرتبة الثانية[1].
وبقي في القسم الجنائي إلى سنة وفاته كما جاء في النزهة الخيرية.

محكمة الوزارة

القسم الجنائي:

الرئيس الثقة الأكمل الشيخ السيد يوسف جعيط حامل الصنف الأول من نيشان الافتخار[2].

الأعضاء:

السيد محمد السنوسي.
السيد أحمد جابر[3].

هذه حياة المترجم الوظيفية درج في سلمها من خطة كاتب معاون بالمجلس المختلط حين استأنف حياة الوظيف إلى أن وصل حاكماً أول بالمجلس الجنائي بالوزارة حيث لم تؤسس وزارة العدل التي قامت في المحرم سنة 1340، وفي 24 أفريل سنة 1921.

تأثره:

تطالعك كتابته بأنه تأثر أولاً بالشيخ محمود قابادو فهو أُستاذه في فنه الذي امتاز به عن بقية معاصريه وهو الأدب، ويكفي ترجمته للشيخ قابادو في

---

(1) وهو والد الشيخ العربي الكبادي الشاعر الفحل.
(2) المقصود بالنيشان الوسام.
(3) النزهة الخيرية لسنة (1318).

المسامرات بأن تحكم عليه بأنه متأثر به، ومكترع من مشربه في الشعر ومن شدة ولوعه بشيخه المذكور أنه اعتنى بديوان شعره دون بقية الأدباء الشعراء الذين ترجم لهم في مجمع الدواوين التونسية المسمى (بشفاء النفوس السنية بمجمع الدواوين التونسية).

وهو وإن جمعه بإشارة من الوزير الشيخ محمد البكوش فهو متأثر به غاية التأثر لأنه في جمعه لذلك الديوان قد أظهر ما للشيخ قابادو من الإحسان وأبدى فيه وأبدع مما يدل على رغبة وافقت رغبة الوزير المذكور، ولولا تعلقه به لما أتى ذلك الديوان على تلك الصورة البديعة.

ويبدو تأثره بالشيخ قابادو أنه أراد أن يحاكيه ويعارضه في بعض قصائده منها أن الشيخ قابادو لما أنشد قصيدته الاجتماعية الشهيرة لما تأسس عهد الأمان التي يقول فيها:

العدل عهد خلافة الانسان ومِداد ظل الأمن والعمران
وتمدُّنُ البشر اقتضى إيلافهم بتعاضد من دائن ومدان
فتقرر السلطان ضربة لازب لنظامهم بالعدل والإحسان
والشرع قانون متين محكم ما فيه للتبديل من إمكان
سجدت له الألباب سجدة مذعن وتقاصرت عنه يد المطعان

ويقول في عهد الأمان:

حتى تناهى ألفةً وتَرُتُّباً فدعاه حينئذ بعهد أمان
هو ذلك القانون والعهد الذي أوتيتم من قبل بالأيمان
أمضاه سيدنا وكان لحكمه هو أول الراضين بالإذعان
جعل الورى فيه سواسية فلم يترك لناء عنه بنت لسان
قضاه دستوراً يسيراً علمه سهلاً على قاصيهمُ والداني
لم يعد فيه فقه مذهب مالك إلا لفقه إمامه النعمان
لكنه انتخب الذي هو لائق بزمانه ومكانه والشان
حكم به رفع الخلاف وشاد بنـ ـيان الوفاق به على أركان

أراد المترجم أن يعارضها بقصيدة تكون متأثرة بالعُمران الحضاري سواء كان اجتماعياً أو تقنياً فإن قصيدة الشيخ قابادو عبرت عن النهضة السياسية التونسية المتمثلة في إقرار عهد الأمان، وقد أبدع فيها بالأفكار الخلدونية فجاءت قصيدة عصماء فأراد المترجم أن يعبر عن المدنية التقنية في القطار البخاري، والحاكي، والتلغراف فجاء بقصيدة على بحر قصيدة قابادو، وهو الكامل، وقافيتها النونية وهي:

أرأيت كيف تقـاربُ الـبلدان بالمزجيات[1] جرت على القضبان
يمتد من سكك الحديد ممرها بالأرض وهي جوالب العمران

ورغم أن أغراض القصيدتين مختلفة فإنه يمكن أن نرى تأثير قابادو على المترجم حيث أراد كل منهما أن يظهر الحضارة في قصيدته فقابادو في التنظيم السياسي والمترجم في الحضارة التقنية.

ومع تقارب الغرضين فإن قصيدة قابادو في بلاغتها قد حلقت في أجواء الإبداع والفصاحة، وسمت حتى بلغت عنان السماء بينما قصيدة السنوسي من الشعر المتوسط العادي.

هذا تأثره من الناحية الأدبية أما من الناحية الفكرية فإنه متأثر بمحيطه الاجتماعي التونسي الذي أخذ يتفتح على الحضارة الغربية بسبب ما نشأ في عهد المشير الأول أحمد باي من تحاك بين تونس والعالم الغربي الذي سار أشواطاً في المدنية مما دعا هذا الأمير أن يدخل إصلاحات عديدة على الدولاب التونسي، وأن ينشىء مدرسة باردو التي استفاد من الإشراف عليها الوزير خير الدين، فكان إشرافه خير معين له على أن تتفتح أمامه الأفكار الإصلاحية.

وقد أثر هذا الوزير على المحيط فتأثر المترجم بالوثبة التونسية الأولى وقد أخذ عن محمد بيرم الخامس الذي كان من أكبر أنصار الوزير خير الدين،

---

(1) أراد بالمزجيات القطار.

واستفاد كثيراً من وجوده في إدارة الرائد التونسي، ووجوده معه في جمعية الأوقاف التي هي من مؤسسات خير الدين.

ويلاحظ تأثره بمحمد بيرم الخامس في تقليده في رحلاته، فحين ألف بيرم الخامس صفوة الاعتبار ألف هو رحلته الحجازية.

ونجده كالظل في المؤسسات التي يرأسها محمد بيرم الخامس (1256 ـ 1307) فهو معه في جمعية الأوقاف التي تركيبها كما في النزهة الخيرية:

جمعية الأوقاف:

الرئيس الشيخ سيدي محمد بيرم.
الكاهية[1] أمير الألاي السيد أحمد بن عياش.
الأعضاء الأول السيد أحمد الورتاني، الثاني السيد محمد بن الأمين.

المشائخ الكتبة:

الأول السيد محمد النقبي، السيد محمد السنوسي.
السيد محمود الجيلاني.
أمين المال السيد الحاج محمد الشاذلي السنوسي[2].
وكان المترجم ضمن الكتبة.

ولم يفارقه كذلك في المطبعة فإنه كان معه حسبما جاء في النزهة الخيرية.

المطبعة العامرة:

المكلف الشيخ سيدي محمد بيرم رئيس الجمعية.
المصحح الشيخ محمد السنوسي.
السيد الحاج حسن لازغلي[3].

---

(1) الكاهية: الوكيل.
(2) النزهة الخيرية السنة الثالثة (ص 50).
(3) نفس المصدر (ص 55).

نتج عن هذا التلازم في المؤسستين جمعية الأوقاف، والمطبعة العامرة، وهي التي صارت تعرف بالمطبعة الرسمية تقارب واتصال.

وتأثره ببيرم الخامس كان محدوداً إذ أن المترجم كان في كل آثاره أديباً بخلاف بيرم الخامس فإنه إلى السياسة أقرب منه إلى الأدب، فكتب السنوسي البارزة تغلب عليها الناحية الأدبية مثل مجمع الدواوين التونسية، والمسامرات، وأما الطابع السياسي السائد في كتابات بيرم الخامس فبعيد عن المترجم حتى أن أثره السياسي وهو خلاصة النازلة التونسية لم يأخذ المنهج السياسي كما هو عند صاحب الصفوة.

وأما التأثر الديني السياسي الذي نادى به جمال الدين الأفغاني فإنا لا نعثر له على أثر البتة، بل إن دعوته للنهضة كانت من ناحية التقنية كما في قصيدته (أرأيت كيف تقارب البلدان) وهي التي سماها (الفريدة في المخترعات الجديدة) ويوضح دعوته إلى النهضة في آخر القصيدة.

ومفاخر العصر الجديد معارف ... فيمن يقوم بخدمة الإنسان
وبمثل ذاك تقدم المتسابقو ... ن إلى العلى في واسع الميدان
فانشط ولا تَكُ عند قِرنك عبرة ... لإضاعة الأزمان بالخسران

رحلاته

نشأ المترجم على عادة أهل البلاد في أول حياته من عدم التنقل ولو في البلاد القريبة حتى أنه في تنقلاته في المملكة التونسية حينذاك لم ينتقل إلّا في بلاد قليلة حسبما حكاه عن نفسه في رحلته فإنه حين ذكر سفره بقصد الحج، وما تقدم ذلك من دخوله إلى إيطاليا، ودخوله إلى دار الخلافة وحجه وما تبع رحلته الحجازية ذكر سفره في البلاد التونسية قائلاً وذاكراً ما هي البلاد التي دخلها.

(وإني وإن كان تقدم وتأخر لي خلافة، وسافرت أولاً للساحل، والقيروان والوطن القبلي وبلد باجة.

وسافرت أخيراً إلى قابس، وفي طريقها دخلت إلى صفاقس).

فرحلته في البلاد التونسية تنقسم إلى قسمين الأول ما قام به قبل رحلته الحجازية وهي رحلته إلى الساحل والقيروان والوطن القبلي وبلد باجة ورحلته كما يبدو لتفقد فروع إدارة جمعية الأوقاف.

ويقصد بالساحل البلاد الساحلية سوسة والمهدية والمنستير والقرى المنبثة على الساحل التونسي[1] مثل القلعة الكبيرة والقلعة الصغيرة ومساكن وجمال وزار القيروان بوسط البلاد التونسية، والوطن القبلي وهو شبه الجزيرة وبه سليمان وحمام قربص، وسيدي داود، والهوارية، وهذه على الساحل وتعرف بدخلة المعاوين وبالساحل الشمالي الشرقي إقليبية ومنزل تميم ومنزل حر، وقربة وتازركة وبني خيار والمعمورة، ودار شعبان، ونابل والحمامات.

وهناك من قرى الوطن القبلي غير القرى الساحلية، قرنباليه، وتركي، ونيانو، وبلي، وبني خلاد، ومنزل بوزلفة، والصمعة.

وأما بلد باجة في داخل البلاد التونسية شمالاً.

والثاني سفره إلى قابس، وذهب إليها منفياً في سنة 1302 وكان ذلك لمدة ثلاثة أشهر حسبما قصه في كتابه خلاصة النازلة التونسية، وكان دخوله إلى صفاقس في ذهابه إلى قابس.

رحلته الحجازية:

ابتدأ هذه الرحلة في 8 رجب سنة 1299 بعد فصله عن تحرير الرائد الرسمي والمطبعة الرسمية بسنة كاملة.

وابتدأ هذه الرحلة بركوبه الباخرة من حلق الوادي قاصداً إيطاليا 8 رجب سنة 1299، وكان خروجه بقصد السفر من جبل المنار (سيدي أبي سعيد) 6 رجب من سنة 1299 ولم يتم له السفر في ذلك التاريخ بسبب تأخر البابور

---

(1) جغرافية تونس للمرحوم البشير صفر (ص 112).

(الباخرة) وهي الباخرة برانس دي نابولي، وهي باخرة تربط بين تونس وإيطاليا ومكثت الباخرة في البحر ليلتين ويوماً، وكان وصوله إلى مدينة (نابلي) في جنوب إيطاليا عاشر رجب سنة (1299)[1].

ومن نابولي إلى رومية (رومة).

وقد خصص الجزء الأول بالكلام على إيطاليا.

وانتقل من أوروبا إلى آسيا الصغرى فانتقل من إيطاليا إلى الأستانة. ومنها إلى جدة ولم يدخل مكة إلا في شهر ذي القعدة أواخر سنة 1299. وأقام بالحجاز إلى مفتتح سنة 1300.

ودخل دمشق بعد الحج وزيارة المدينة المنورة كما حل ببيروت.

ثم ذهب إلى مالطة ومنها رجع إلى تونس في 26 ربيع الأول 1300.

وسبب هذه الرحلة كما يراه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور أنه لما هاجر الشيخ محمد بيرم الخامس إلى الشرق واندمج في حياته السياسية دعا ذلك المترجم أن يحذو حذوه في تكييف حياته.

وهناك التقى بأستاذه محمد بيرم[2].

لكن إذا نظرنا إلى الرحلتين وأثارهما في الرجلين نرى أن التأثير السياسي في محمد بيرم الخامس تأثير ظاهر جلي، ويبدو ذلك في الجزء الثاني من رحلته صفوة الاعتبار كما أشرنا إليه في تعاليقنا على ما كتبه المترجم.

أما المترجم فإنه بدأت عليه التأثيرات الإصلاحية فانضم إلى (النازلة التونسية) قضية الاحتجاجات البلدية لكنه سرعان ما انسجم مع الوضع وظهرت الآثار فيما كتبه ونشره، مما يدل على تحول جذري.

ثم إننا إذا نظرنا إلى ما كتبه في رحلته عن دوافع الرحلة في قوله الآتي

---

(1) الرحلة الحجازية (ج 1 ص 41).

(2) أركان النهضة الأدبية بتونس للمرحوم الشيخ محمد الفاضل بن عاشور (ص 30).

يتضح أن الدافع أداء فريضة الحج وهو (هذا وللعبد الضعيف، المكتفي بالموضوع عن التعريف، منذ عقلت قضيته الاجتماع، وأدركت سر الله في التعاون لتجاذب الانتفاع، رغبة تدعوه في كل وقت للسياحة، للحصول على النظر الذي حمد الدين نجاحه، إلى أن أتاحت لي الأقدار تيسيراً فنلت خلسة من الدهر وكان ربك قديراً. خرجت فيها لحج بيت الله الحرام، وزيارة خير الأنام، على التياث الأحوال، في كثير من الجهات وتضعضع الأركان من الجبال الراسيات، فأداني ذلك السفر الذي أولاني مطافه إلى بعض بلدان إيطاليا، ثم ساقني إلى دار الخلافة، وبعد قضاء الفرض، وتنعم بزيارة الشفيع يوم العرض، أتيت على دمشق الشام. مصاحباً للركب في الطريق العام، وركبت البحر من بيروت إلى جزيرة مالطة، فكان ذلك للحصول على مزية الأسفار أعظم واسطة)[1].

وذكر بعد ذلك أن له تشوقاً إلى الحج والزيارة قبل الشروع في هذه الرحلة: (وقد كنت ليلة عرفات من عام ثمان وثمانين 1288 نظمت قصيدة جاريت بها القاضي عياض في الاشتياق إلى سيد المرسلين تنبىء عما انطوى عليه الفؤاد، من الشوق لخير العباد، وهي قولي:

شوقي يسوق تصعد الزفرات لحمى فؤاد موقد الجمرات[2]

أراد بمجاراته للقاضي عياض ما ذكره في الشفا في القسم الثاني فيما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ في الباب الثالث في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره في الفصل الذي عقده في إعظامه ﷺ وإكباره من قصيده الذي ختم به الباب الثالث.

يا دار خير المرسلين ومن به هُدِيَ الأنام وخُصّ بالآيات[3]

فإن القاضي في هذه الأبيات ذكر لوعته للسلام عليه ﷺ.

---

(1) الرحلة الحجازية (ج 1 ص 40).

(2) الرحلة الحجازية (ج 1 ص 65).

(3) شفاء القاضي عياض (ج 2 ص 623).

عندي لأجلك لوعة وصبابة وتشوق متوقد الجمرات
وعليّ عهدٌ إن ملأت محاجري من تلكم الجدران والعرصات
لأعفرن مصون شيبي بينها من كثرة التقبيل والرشفات

فمجاراته للقاضي عياض تؤيد أن هذه الرحلة سببها التشوق إلى البقاع المقدسة وحب الاستطلاع السياحي فليست هناك دوافع سياسية.

الاستطلاعات الباريسية:

قام بهذه الرحلة مبتدئاً لها يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة الحرام سنة (1306) الموافق للرابع من يولية سنة 1889 على الباخرة (لافيل دوران) أي مدينة وهران، وهي باخرة تربط بين تونس ومرسيليا وأقلعت الباخرة على الساعة الخامسة مساء، وكان الوصول إلى مرسيليا يوم الأحد على الساعة الثالثة مساءً. واصطحب معه ابنه محيي الدين.

وزار مرسيليا، وباريس.

ولما رأى باريس أعجب بها أيما إعجاب، فحين وصفها قال:

«باريس هذه حاضرة المعمور، ومركز الحضارة، ومَنْزَهُ الجائلين وأُعْجوبة الأمصار، وكنز الثروة، ما تركت من عظم الشأن ووفور العمران وآثار النعمة والسلطان شيئاً يختص به غيرها من البلدان، فهي مسكن الأغنياء ونزهة الأفكار ومدرسة العلوم ودار الصناعة، ومظهر المعارف، وسوق التجارة وحصن الحروب ومتحف الآلات والاختراعات، ومنتدى السياسة، ومهب رياح الحرية، وحديقة اللطائف والآداب، ومنبت الظرفاء البارعين من ذوي الألباب، إذا رآها المتدبر الحكيم، علم كمال قدرة الله الخلاق العليم. فسبحان المتفرد بالإيجاد المختص بالإمداد لا إله سواه»[1].

وكان دخوله إلى باريس على الساعة العاشرة صباحاً يوم الثلاثاء 12 ذي القعدة 1306 الثامن من يوليه سنة 1889.

(1) الاستطلاعات الباريسية (ص 10).

ورتب هذه الرحلة على أربعة مناظر.

المنظر الأول الأصول السياسية والحُكْميّة والبلدية.

المنظر الثاني في اجتماعات الأهالي العمومية والزيارات الشخصية، ومنافعهم الخيرية.

المنظر الثالث في أحوال المعارف بالمدارس والمكتبات والمتاحف والمجامع العلمية.

المنظر الرابع في المعرِض والمعروضات.

وشاهد في هذه الرحلة احتفال باريس بالرابع عشر من جويلية، وذلك في سنة رحلته 1306 وكان رجوعه إلى تونس في سادس ذي الحجة من سنة 1306.

وقد دامت رحلته شهراً قضاها في زيارة معالم تلك المدينة والاتصالات التي تمت له في أثناء تلك الرحلة وقد اصطحب معه في رحلته ابنه محيي الدين وعمره اثنتا عشرة سنة ليطلعه على التمدن الغربي الذي افْتُتِنَ به المترجم وعبّر عنه في مناسبات عديدة.

السنوسي السياسي:

أعطى السنوسي حياته السياسية في كتابه خلاصة النازلة التونسية وابتدأ حديثه عن هذه القضية في الباب الأول:

اعلم أن السبب الوحيد في هيجان التونسيين واجتماعهم إنما هو صدور الرائد التونسي صبيحة يوم الخميس السادس عشر من جمادى الأولى[1] سنة اثنتين وثلاثمائة وألف متضمناً قانون المجلس البلدي، وفي ضمنه وصايا دفن الأموات والتثقيل في استخلاص متأخرات خروبة الأملاك ـ أي الأداء البلدي على الأملاك ـ ومعلوم النظافة وأداء الطرقات.

مع ما سبقه من تغيير أثمان ماء زغوان، إلى ما سلب من حقوق مالكيه، ونوازل أخرى كدرت على الأهالي.

(1) الصواب أن صدور هذا القانون كان في 15 جمادى الثانية (1302).

فتجمعوا في يومي الخميس والجمعة، وأجمعوا على مقابلة الباي في المرسى للشكاية مما صدر به أمره رجاء تخفيفه.

مشاركته في هذه القضية:

ثارت هذه القضية عن جمع من أعيان تونس لما صدر القانون البلدي وخاصة ما جاء فيه مما يتعلق بالأموات ودفنهم، فإنهم أرادوا إبطال ما جاء فيه مع ما نال الوضع التونسي من استحواذ الفرنسيين على السلطة وانتزاعها من يد التونسيين.

ومما دعا إلى هذه القضية أن التجارة التونسية دخلتها المضايقات مما سيؤدي إلى العجز التام بسبب الإجراءات وبسبب المزاحمة الرأسمالية المنقضة على التجارة التونسية الضعيفة.

ويبدو أن الحركة ابتدأت بالاجتماع الذي أشار إليه المترجم، وهو اجتماع كَوّنه الأعيان التونسيون المعبر عنهم بالبلدية، ولم يحضره المترجم.

وفي مقدمة هؤلاء الشيخ الحاج محمد الرياحي مقدم الطريقة التجانية وعضو جمعية الأوقاف والحاج حمدة الجبالي أمين العطارين.

وقد رأى المتزعمون لهذه الحركة إدخال المترجم في حركتهم فأرسل أمين العطارين مع مقدم الطريقة التجانية بطاقة استدعاء إلى المترجم محمد السنوسي لينضم إلى حركتهم، بمقصورة النواورية بجامع الزيتونة ولما اتصل بتلك البطاقة استشار رئيس جمعية الأوقاف حينئذ وهو الشيخ أحمد الورتاني لعدم سابقية دخوله في النوازل البلدية[1].

وبعد الاستشارة قبل المشاركة وبعد اطلاعه على الرائد التونسي، والمسودات التي حررها الشيخ الصادق الشاهد، والشيخ عمر الغربي حرر معروضاً قرأه عليهم عند الزوال في مقصورة النواورية بجامع الزيتونة واقترحوا عليه زيادات وأجمعوا على أنه يتولى قراءته على شخص الباي.

---

(1) النازلة التونسية (ص 79).

وقابل الوفد علي باي (1299 ـ 1320) يوم السبت 19 جمادى الثانية 1302، وعُبِّر عنه بوفد الأعيان، وقرأ المترجم العريضة وهي تشتمل على ستة مطالب وقَبِلَها الباي باكياً[1].

إن انضمام المترجم إلى وفد الأعيان هو منطلقه السياسي.

وبعد تقديم هذه العريضة قدم مكتوب إلى الوزير الأكبر العزيز بوعتور (ومدة وزارته من سنة 1300 إلى سنة 1325) واستفتى القائمون بهذه الحركة علماء جامع الزيتونة فكتبوا فتوى أمضى عليها جميع العلماء من المذهبين المالكي والحنفي، وهي في الأصل من قلم المدرس الشيخ محمد النجار ووقعت فيها زيادات[2].

وتشتمل على مقدمة وأربعة مباحث فيما يخص أحوال الميت.

وذيلت بإمضاءات المدرسين من المالكية والحنفية وهم:

المدرس الشيخ سيدي حسين بن أحمد بن حسين.
المدرس الشيخ سيدي محمد الطيب النيفر.
المدرس الشيخ سيدي محمد النجار.
المدرس الشيخ سيدي الصادق الشاهد.
المدرس الشيخ سيدي الطيب السبعي.
المدرس الشيخ سيدي عثمان الشامخ.
المدرس الشيخ سيدي الطاهر جعفر.
المدرس الشيخ سيدي محمد البناني.
المدرس الشيخ سيدي الحاج علي بن الحاج.
الشيخ سيدي عمّار بن سعيدان.
الشيخ سيدي محمد المكي ابن الشيخ الولي السالك سيدي مصطفى بن عزوز.

(1) النازلة التونسية (ص 81).
(2) النازلة التونسية (ص 115).

الشيخ عبد العزيز تاج.
الشيخ حمودة تاج.
الشيخ السيد محمد الطاهر النيفر[1].
الشيخ السيد الحاج محمد النيفر.
الشيخ السيد محمد المسعدي.
فهؤلاء هم العلماء من المالكية.

وأما العلماء من الحنفية فهم:
الخطيب المدرس الشيخ سيدي محمد الأمين بن الخوجة إمام المحلة.
المدرس الشيخ سيدي محمد بن مصطفى بن الخوجة الخطيب.
المدرس الشيخ سيدي الشاذلي بن القاضي.
المدرس الشيخ سيدي محمد بيرم.
المدرس الشيخ سيدي محمد بن مسعود.
المدرس الشيخ السيد أحمد بن مراد.
المدرس الشيخ السيد مصطفى بن خليل.
المدرس الشيخ السيد حسونة بن القاضي.
المدرس الشيخ السيد محمد بن يوسف.
المدرس الشيخ السيد إسماعيل الصفائحي[2].

وفي هذه الحركة بدأت المقاومة التونسية لفرنسة الإدارة التونسية من أجل تعريب إدارتها.

فقد جاء في العريضة المقدمة للوزير محمد العزيز بوعتور فيما يخص القلم الفرنسي: الإيالة عربية ولم تترشح لتمحيض اللغات الأجنبية ولا يعوز الدولة أن تجعل للقمرق كاتباً عربياً، يقبل من التجار قائمتهم بخطوطهم حتى

---

(1) هو الحاج الشيخ محمد الطاهر بن محمود النيفر (ـ 1339)، وإمضاؤه هنا يفند أنه طلب وظيف الشيخ الورتاني.
(2) الشيخ إسماعيل الصفائحي تولى القضاء وتوفي بالأستانة (ـ 1337).

يكون تصحيحهم أي إمضاؤهم على ما يفهمون وتحصل لهم طمأنينة، ولإدارة القمارق ترجمة ذلك فيما بعد وهكذا تذاكر الرسوم في الأبواب وغيرها مما يأخذه المسلمون حجة لهم فيما دفعوه[1].

وقد أمضى هذه العريضة المقدمة للوزير كافة أقسام تونس وهي المدينة، وربض باب الجزيرة وربض باب سويقة.

وقد عاقبت الحكومة العناصر البارزة في القضية المذكورة وكان ذلك في اليوم الخامس من شعبان سنة (1302) بما يأتي من العقوبات.

عزل الشيخ الحاج الورتاني من التدريس ورئاسة الجمعية ونظارة المستشفى ووكالة مخاصمة ابن إسماعيل في حق الدولة.

وعزل الشيخ الصادق الشاهد من التدريس والتعليم بالصادقية.

وعزل مَحمد السنوسي من كتابة الجمعية خاصة.

وعزل كل من الشيخ الصادق العنابي والشيخ العربي العنابي من العدالة وكتابة الجمعية.

وعزل الشيخ عمر الغربي من العدالة وشهادة أوقاف المدارس.

وعزل حسن بن دخيل من وكالة أوقاف المساجد.

وعزل الحاج مصطفى ميمان من وكالة أوقاف جوامع المالكية.

وعزل الشيخ محمد الأصرم من العدالة.

وعزل الشيخ الهاشمي الشاهد من العدالة.

وعزل الحاج حمدة الجبالي من أمانة العطارين.

وعزل عثمان الفياش من أمانة السراجين.

وعزل شيخ المدينة اللواء محمد الدلاجي من خطته.

ونفي المترجم إلى قابس يوم السبت المذكور.

كما نفي السيد حسونة بن مصطفى إلى الكاف.

---

(1) النازلة التونسية (ص 141).

وتركزت ظنون الدولة في ثلاثة من القائمين بالحركة المذكورة وهم:

السيد محمد الدلاجي.
والشيخ أحمد الورتاني.
والشيخ مَحمد السنوسي.

العفو عن أعضاء الحركة:

عند العفو عن الحركة استدعى الوزير الفرنسي الشيخين الصادق الشاهد، وأحمد الورتاني اللذين أرجعا إلى خطتهما.

ورجع السنوسي وابن مصطفى من المنفى في منتصف القعدة من سنة 1302، وقابلا الباي بإثر ذلك وقابل الحفيد السنوسي الكاتب العام (موريس بونبار)، وهو أول اجتماع له بموظفي تونس من الأروبيين.

ومما تحادث معه فيه ما يخص تأخره عن التحرير بجريدة الرائد التونسي وذكر أن ترجمان السفارة أخبره بما ذكرناه سالفاً من أن تأخره لإرضاء الحاج حسن لازغلي.

وبإثر ذلك سمي كاتباً بالمجلس المختلط العقاري وقابل بعد ذلك الوزير المقيم الفرنسي.

الانخراط في الوظيف:

ابتدأ الحفيد السنوسي حياة جديدة حين انخرط في الوظيف ويدل على تغير مجرى حياته كتبه التي كتبها بعد ذلك حتى أنه أراد مسايرة الحركة الاستعمارية بكتابه (مطلع الدراري).

وكذلك الاستطلاعات الباريسية فإنها لفرنسا مَدُّ يَدٍ.

ومن ذلك الوقت طوى المراحل للوصول إلى حاكم بالقسم الجنائي، وكانت تلك الوظيفة من أسمى الوظائف والوصول إليها أعز من بيض الأنوق.

وقد ذكر الشيخ الصادق بسيس ما يفيد تراجع الشيخ السنوسي في حياته

السياسية فقال «عثرت في ملف السنوسي الإداري على رسالة طويلة بخطه يهنىء فيها كامبون بجمعه بين السلطتين السياسية والعسكرية، وبعد أن صورت لي آثرت عدم نشرها غفر الله له»[1].

أحسن الشيخ المرحوم الشيخ الصادق في عدم نشرها، وأنا على أثره حتى لا نسيء للمرحوم الحفيد السنوسي في وضعه ذاك، وخاصة أن الفكرة السائدة في تلك الحقبة كان فيها اليأس هو الغالب على الأفكار فأروبا قوة كبرى وعالمنا العربي في ضعف لم يستطع معه أن يقاوم الاحتلال.

مؤلفاته:

ابتدأ المؤلف التأليف في سن مبكرة حيث شرع يؤلف سنة 1287، وسنه إذ ذاك عشرون سنة وسنأتي على تآليفه حسب قيامه بها.

1) شفاء النفوس السنية بمجمع الدواوين التونسية. وهو باكورة أعماله حيث ابتدأ في جمعه سنة (1287) ويعرف هذا الكتاب بمجمع الدواوين التونسية وقد ترجم فيه لنيف وثمانين شاعراً من شعراء الدولة الحسينية، وانتهى من تأليفه سنة (1292).

وقال: إنه جمع فيه جميع أشعارهم ونثرهم، وقد بلغ عشرة أجزاء وطريقته أنه يترجم للشاعر ثم يأتي بشعره فإن كان له ديوان كالورغي وابن عبد العزيز يأتي بدواوينهم ومن لم يكن له ديوان التقط شعره.

ونذكر نموذجاً من تراجمه، ترجمة الوزير ابن عبد العزيز.

أتى أوّلاً بترجمته تحت العنوان الآتي:

الشيخ أبو محمد الحاج حمودة بن عبد العزيز.

ثم يقول:

رئيس جَهَابِذَة ديوان الإنشاء، المُتَصَرِّفُ فيه كيف يشاء، الحُلَاحِل الماجد، المبرّز في ميادين الإجادة على الأماجد، وهكذا.

---

(1) النازلة التونسية (ص 201).

والتزم في تراجمه السجع كالنموذج المتقدم.

وبعد أن يأتي بشعره يختم القسم الخاص بشعره بذكر وفاته.

ولم يزل رحمه الله في عزه رافلاً، وبمحاسن فِقَر آدابه حافلاً، إلى أن وَفَدَ عليه وافد القضا، وعاجله بما ارتضى، بسبب وجه بارود أطلق عليه حال ركوبه، من بعض السفهاء القاصدين إظهار كروبه، فأسقط بسبب ذلك رجله، وبقي في عناء ذلك إلى أن قضى أجله.

ثم يأتي بمرثيته:

يا ضريح عمتك بالخير سحب حين حصلت جسم هذا الكريم
نجل عبد العزيز حمودة الأسـ ـمى أخو الجاه والفؤاد السليم
كان للخلق ملجأً وملاذاً بغية المعتفى وكنز العديم

إلى أن يأتي على القصيد كله وبيت التاريخ

ثم أرخه حين أعلى وزير كان قَطْرَ الندى وبَحْرَ العُلوم

وهذا الكتاب عاثت فيه يد الضياع ولم يبق منه إلّا بعض أجزاء اشترتها المكتبة الخَلدونية ثم لما جمعت الكتب بدار الكتب الوطنية نقلت تلك الأجزاء الباقية إليها وهي:

أ ـ الجزء الأول تحت رقم 16628.

وبه ترجمة الورغي وديوانه.

وترجمة الحاج حمودة بن عبد العزيز وديوانه.

ب ـ وهناك جزء آخر وهو الثاني بالنسبة للأول، وبه.

الشيخ بيرم الرابع.

الشيخ الخضار.

أبو عبد الله محمد المناعي.

الشيخ مَحمد السنوسي الجد.

محمد بن سلامة.

محمد بن الخوجة.

ورقمه هو المتقدم وعليه خط مؤلفه، وليس هذان الجزآن الأول والثاني بالنسبة للمجمع، وإنما هما أول وثان بالنسبة لارتباطهما.

ج ـ وجزء آخر رقم 16632 به:

عبد اللطيف الطوير.

أحمد سمية.

أحمد العصفوري.

محمد الدرناوي.

محمد بن عبد الكافي بوعتور.

محمد السنوسي السوسي.

محمد بن سعيد.

محمد خليفة المشرق.

محمد الشحمي.

الشيخ صالح الكواش.

الشيخ أحمد بن عمّار الجزيري.

د ـ وجزء آخر تحت رقم 16633 به مقدمة لترجمة الغراب وديوانه.

ما طبع من مجمع الدواوين:

خص المترجم من شعراء الدولة الحسينية الشاعر الفحل محمود قابادو (ـ 1288) بطبع ديوانه، وإنما خصه بالطبع لما أشار إليه في مقدمته:

«وقد كان جمعي لديوان شعر هذا الهمام، بسبب إشارة من صديقه علم الأعلام الصهميم[1] الذي تسامى بمفاخره على كل شهم، والمصقع النافذ السهم، الهمام الذي في تحلية هذا الديوان باسمه ما يغني عن تعداد مفاخره

---

(1) الصهميم: السيد الشريف.

الفرائد، التي يُعَنْوَنُ عليها قولي مخاطباً له من بعض[1] قصائد:

فجمعت شمل المكرمات بأسرها وغدوت شمس الفضل منتشر السنا
تختـال بين ريـاسـة وكيـاسـة وسيـاسـة أَوْلتْـك غـايـات المنى

أَلاَ وهو المجهز لآماله من حزمه أفخرَ الجيوش، الهمام الأفخر أمير الأمراء أبو عبد الله الشيخ سيدي محمد البكوش، لا زالت مساعيه ناجحة، وموازين آرائه بالصواب راجحة، فإنه لما ملك رِقِّي بملاطفته ووداده، وتخللت مودته من جسمي بسويداء فؤاده، وأشار علي بهاته الإشارة التي أظهرت من مزايا قطرنا شموس فخره وأقماره بادرت هاتيك الدعوة بالتَّلْبِيَةِ مجيباً، مرتباً تلك الفرائد على منوال الأحرف المعجمية[2] ترتيباً، والله ولي الإعانة على جمعه، والمسؤول أن يرينا مقاصد نفعه. إنه ولي ذلك، وهو حسبي ونعم الوكيل[3].

ويقع هذا الديوان في جزأين طبع الأول سنة (1294) كما جاء تاريخاً في قول الشاعر المبدع الباجي المسعودي.

ومـنـذ نـظمـت ارتـجـالا تـاريـخـه (جـا شـريـف)
1294

وطبع الجزء الثاني سنة (1295).

وأرخ طبعه الشيخ محمد المكي بن مصطفى بن عزوز.

قـل إن تـؤرخ خـتـمـه ديـوان مـحـمـود طـبـع

وكان تبييض هذا الديوان الذي أشار بجمعه محمد البكوش سنة (1289).

2) **تنقيح الدواوين**، بمدائح أعلام دولة بني الحسين:

وهو اختصار تأليفه مجمع الدواوين، ترجم فيه لملوك الدولة الحسينية وذكر فيه مدائحهم فبلغ نحو ثمانين كراسة.

---

(1) في الأصل من بعد.
(2) في الأصل الأعجمية.
(3) مقدمة الديوان (ج 1 ص 15).

وعلى هذا يكون عدد صحائف هذا التأليف (640) صفحة إذا جعلت الكراسة ثماني صفحات، ذكره في مقدمة ديوان الشيخ قابادو.

3) **رسالة صغيرة**: أجاب بها على الطاعنين على الإمام سلالة الأشراف الشيخ محمد الشريف حيث يقيم مدة المصيف بجبل المنار، ويأتي يوم الجمعة إلى تونس العاصمة ليَؤُمّ يوم الجمعة بالمصلين لصلاة الجمعة بأن إمامته غير صحيحة لإقامته خارج البلد التي تقام به الجمعة، وخلاصة جوابه أن الشيخ بلده تونس والمسافر إذا دخل بلده انقطع سفره، ولو لم ينو إقامة أربعة أيام.

ثم إن الشيخ لَمَّا كانت إقامته لأجل التنزه لا تعتبر إقامة لأنه من سكان العاصمة وكتب هذه الرسالة بجبل المنار في أوائل رجب سنة (1291). ومنها نسخة بخزانة كاتبه.

4) **سموط الدرر، في لطائف السفر**.

تأليف خصه برحلته إلى وطن الساحل ومدينة القيروان، والوطن القبلي أوله:

حَيَّا الله معالم السفر، إلى البدو والحضر.

ابتدأه بمدح الوزير خير الدين الذي تقلد مهام الوزارة الكبرى سنة 1291، وأنشأ جميعة الأوقاف، وقَنّن قوانينها، ونوه برئيسها الشيخ محمد بيرم الذي وصف فيما بعد بمحمد الخامس وذكر أن سبب رحلته إلى الجهات المتقدمة أن رئيس الأوقاف لما تأسست الجمعية رأى مراقبة أعمال سائر النواب بالمملكة التونسية آنذاك، وعين المترجم إلى تلك الجهات للغرض المذكور.

وتأليف هذا الكتاب في حدود سنة 1292 بعد رجوعه من رحلته وتوجد من هذا الكتاب قطعة في مكتبة كاتبه تشتمل على كراستين كل كراسة ذات 20 صفحة، والكراسة الثانية مبتورة الأعلى بسبب الندى.

وهذه القطعة تحدث فيها عن سوسة، وذمها غاية الذم، وقد بقي بها شهراً وذكر فيها مكاتيب من كاتبوه وهو بها.

5) قصديته: **الأجنة الدانية الاقتطاف بمفاخر السادة الأشراف**. ومطلعها:

إن المـودة في القـربى هي الأمـل يجـري بها ويفـوق الأجـر والعمـل

ونظم المترجم هذه القصيدة تقرباً للنبي ﷺ، وصَدَّرها بذكر فضائل آل البيت.

وابتدأ في سلسلة الأشراف بـالشيخ أبي عبـد الله محمد بن أحمـد بن محمد بن عبد الكبير الشريف:

واليـوم تـاجهم القـرم الهمـام أبـو عبد الإله الـذي طـابت بـه الحُلل
إمـام جـامعهـا المفتي بهـا وأخـو الـذكـر الـذي ليس عنـه ينعـزل
فكم لـه من مـزايـا غيـر قـاصـرة على الورى قد غدت في القطر تنهمل

وطبعت هذه القصيدة سنة (1296).

كما نشرها في المسامرات في ترجمة الشيخ المذكور الذي ختم به تراجم أئمة جامع الزيتونة وكتب الترجمة في حياته، وتوفي الشيخ المـذكور سنـة (1307).

6) **درة العروض**: نظم في العروض أوله:

بُـدّرةِ الحمد نـظامي نَهْتَـدِي مصلياً على الرسـول الأمجد
والآل والصحب الكرام الحُكَمَا مـا نُثِر الفصيـحُ أو ما نُـظِمَا
وبعـد فالشعـر لسـان العـرب بـه دَرَوْا إعجـاز خيـر الكتب
وللخليـل فيـه علم مُنْضَـبِطْ يُدْرَى به ما ليس بالشعر ارتبط
لـذاك رمت خيـر نـظم وافي يعنى به[1] العروض والقوافي
وفيـه من آداب فرض النـظم مـا ربمـا يـروق أهـل العلم
يُضْبَطُ من ذا أحسنُ المطالب ويحسن الحفظ بـه للطالـب
والله أسـتـعـيـن إذ أقـول قـولاً به يستحصـل المـأمـول

(1) به ساقطة من الأصل.

وعدة أبيات هذا النظم (270) بيتاً وأشار هو إلى عدد أبياته في قوله:

نظماً بفضل الله جاء محكما بمـائتي بيت وسبعيـن سمـا

وانتهى منه سنة (1297).
ومنه نسخة في خزانة كاتبه.

7) شرح هذا النظم المسمى **بكشف الغموض، في شرح درة العروض.**
8) **مسامرات الظريف** وهو الكتاب الذي حققناه.
9) **نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل**

10) **الرحلة الحجازية**: هي رحلة ابتدأت بإيطاليا، وانتهت بمالطة، دفع إليها ما حكاه المؤلف في طالعتها من أنه كان مشتاقاً لزيارة الحرمين الشريفين وتلك رغبة جالت في نفسه منذ سنوات قبل الرحلة سنة 1288 أي قبل الشروع في الرحلة بإحدى عشرة سنة، واستمرت معه إلى أن تحققت الرغبة.

ووقت الرحلة ووقت كتابتها مختلفان فإنه ابتدأ الرحلة إذا اعتبرنا خروجه من سيدي أبي سعيد إلى حلق الوادي لركوب الباخرة إلى إيطاليا كان الابتداء يوم الثلاثاء السادس من رجب (1299) ولكن السفر تأخر بسبب تأخر الباخرة المسافرة إلى إيطاليا إلى يوم الخميس الثامن من رجب (1299) الموافق 25 ماي (1882) وانتهت رحلته برجوعه من مالطة إلى تونس، وكان رجوعه يوم 26 ربيع الأول سنة (1300) ـ 5 فيفري (1883).

لكن الشروع في الكتابة فيها تأخر فإنه أراد أن يشرع في الكتابة في سنة (1302) لكن لما وقع نفيه وحجزت أوراقه من منزله تأخرت كتابته للرحلة كما أشار إليه:

وعندما أخذت بالإياب قراري، تعاطيت جمع ما وعته أسفاري، غير أن الأشغال والأشغاب وما في غضونها من أتعاب كادت أن تحول[1] بيني وبين ما

(1) في الأصل أن تحيل ولا معنى له هنا.

قصدت وخشيت أن يغيب عني ما رصدت إلى أن امتدت الأيدي إلى مسودات التقاييد، بما حجبها عني إلى زمن مديد، على حين انتزاع الأشغال، وإفراد الوجهة إلى الكبير المتعالي[1] وأستحيي المروءة أن تراني أبث هنا من النازلة بثها، والمقام يضيق عن أن يعِيَ نفثها، لكن نشرت صحف الأخبار في سائر الأقطار رنة من رجف حديثها، وريعت عموم البلاد من مزعج حثيثها وتطورت فيها الأطوار على أهل الاعتبار، بما يتلى حديثه آناء الليل وأطراف النهار وتمدح بها أقوام وذم آخرون (والله بصير بما يعملون) حتى أعاد الله لي ما مضى، بعد التثبت والتصبر والرضا، والاحتساب لله في شكر الصابرين، والله لا يضيع عمل العاملين [2] .

أشار المؤلف إلى أنه حجزت أوراقه لما وقع نفيه وتفتيش بيته وبعد الاطلاع والتثبت في القضية وقع الرضا عنه وأعيدت إليه أوراقه.

وعندما وقع إرجاع تقاييده وجملة أوراقه شرع في كتابة رحلته هذه وقد أشار إلى أنه سلك فيها مسلكاً غير المسلك الذي سلكه من تقدم من أصحاب الرحلات وإلى ذلك يشير بقوله:

(بحيث أني اجتنبْت ما رأيت عليه الرحلات في جميع الحالات وفرعت طريقة عـذرا. ولم أرجح مما وقفت عليه طريقة على أخرى، ولست أُريد بهذا ثلماً لما رأيته من الرحلات، الموفية بأغراض مؤلفيها على اختلاف الاعتبارات، ولكن (قل كل يعمل على شاكلته) من غير توقف على مماثلته (وكل حزب بما لديه فرحون) والجميع في مخضلّ الأرض يمرحون [3] .

وكان ابتداؤه في كتابة رحلته في سنة (1303) بعد أن استقر حاله وأسندت إليه وظيفة أخرى بعد أن أقيل من وظيفته إثر القضية التونسية سنة (1302).

---

(1) الأولى حذف الياء للسجع.

(2) الرحلة الحجازية (ج 1 ص 42).

(3) الرحلة الحجازية (ج 1 ص 43).

ورتب هذه الرحلة على أربعة أقسام.

أ) أنموذج في مزية السفر.

ب) الجزء الأول فيما شاهده في إيطاليا، وقد خصها بجزء خاص لأن إقامته فيها مكنته من مشاهد كثيرة بسبب الجنرال حسين الذي ذكر أنه ذهب معه مثلاً إلى ليفورنو (قرنة)، فهو قد مكنه من أشياء كثيرة بإيطاليا.

ج) الجزء الثاني في الأستانة وآسيا الصغرى، ومنها الحجاز.

د) الخاتمة للتعريف بمن جمعهم به السفر، فقد ترجم فيها لثلاثة وعشرين من رجال القرن الرابع عشر الهجري والتاسع عشر المسيحي.

وقد طبع الجزء الأول المختص بإيطاليا بتحقيق الدكتور علي الشنوفي الأستاذ المحاضر بكلية الآداب بتونس سنة (1396 هـ وسنة 1976 م)[1].

11) **تحفة الأخيار بمولد المختار** ﷺ ألفه سنة (1302).

12) **مطلع الدراري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري.**

وأتمه تحريراً في مبيضته في منتصف صفر الخبر من سنة أربع وثلاثمائة وألف[2].

ورتب هذا الكتاب أوّلاً على مقالتين:

الأولى في وصلة الرومانيين بالتوراة.

الثانية في كمال التوسع الذاتي للشريعة الإسلامية ورسوخ أصولها أدام الله فخرها.

ورتب الكتاب بعد ذلك على قسمين:

القسم الأول في كليات تسجيل العقار، والنظر في أحكامها وتفاصيل أعمالها.

---

(1) وتم طبعه بعد سنوات.

(2) مطلع الدراري (ص 3).

وهذا القسم الأول في تسعة فصول.

القسم الثاني في شرح القانون العقاري الصادر في التاسع عشر من شهر رمضان سنة (1302).

وظهر مطبوعاً في تلك السنة.

وطبع مطلع الدراري في سنة 1305.

وقد انتقد هذا الكتاب كما في عنوان الأريب ونصه:

إن كثيراً من مسائله التي رام تطبيقها على أحد المذهبين المالكي والحنفي انتقدت عليه وفوقت بسببه سهام الاعتراض عليه[1].

13) تأليف جمع فيه من وقف عليه ممن كتب على المختصر الخليلي أوله: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين فهذا تلخيص في تراجم من حضرتني أسماؤهم من علماء الأندلس ومصر وفاس وتونس ممن قام بخطة شرح مختصر الشيخ خليل الجندي في فقه مذهب مالك رضي الله عن جميعهم وقد جمعته لإجابة طلب من رغب في ذلك والله ولي الإعانة والتوفيق.

وجملة الذين ذكرهم ثلاثة وسبعون ابتدأه بابن الفرات وختمه بترجمة الشيخ محمد عليش المتوفى سنة 1299.

وانتهى من تأليف هذا الجمع في شعبان سنة (1304).

ومنه نسخة في خزانة كاتبه عليها خط مؤلفها وقد ألحقت بها ما وقفت عليه من شروح أو حواش على المختصر الخليلي.

14) رسالة في الحبس ألفها سنة (1303) وقدم لها وطبعها الأستاذ محسن زكرياء سنة (1348) تحت عنوان الروض الزاهر في إسناد الحبس للإسلام الباهر.

---

(1) عنوان الأريب (ج 2 ص 146).

15) **نظام المدنية المفيد لكتاب العصر الجديد.**

أوّله:

إن الله يأمر بالعدل والإحسان، لحفظ النظام البشري في دائرة العمران. وذكر أن سبب كتابته هذا التأليف أن بعض أبناء العصر استدعاه إلى شرح معنى المدنية، وقد سبق له تحرير في التمدن نشرته جريدة الرائد التونسي، ونقلته الجوائب التركية.

وتأليفه هذا أوضح فيه حدود المدنية واستكمله بتحرير التراتيب في المملكة التونسية وبين في هذا التأليف هيأة تركيب القسم المدني ورتبه على مقصدين المقصد الأول مرتب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول في هيأة قسم الأمور المدنية.
الفصل الثاني في صلاحية قسم الأمور المدنية.
الفصل الثالث في أصول المرافعة.
المقصد الثاني في الكتابة، وفيه ثلاثة فصول.
الفصل الأول في الكتابة.
الفصل الثاني في صياغة التحقيق.
الفصل الثالث فيما يتعلق بالاستئذان في الحكم.
وتم تبييضه في ثاني الجمادين من سنة 1305.

16) **المورد المعين**، ألّفه سنة 1308.

17) **الاستطلاعات الباريسية**، دعاه إلى الرحلة إلى فرنسا إقامة المعرض (1306 هـ) و (1889).

ورتبها على أربعة مناظر كما أشرنا إليه سابقاً، واستطرد فيها استطرادات كثيرة منها أنه ذكر ترجمة ولي العهد في تلك الفترة الطيب باي وترجمة وزير القلم والاستشارة محمد جلولي إلى غير ذلك.

وانتهى من تأليف هذه الرحلة غرة ذي القعدة من العام السابع بعد الثلاثمائة والألف (1307).

وانتهى طبعها سنة (1309).

وجاء في أولها:

الاستطلاعات الباريسية في معرض سنة (1889).

إن أهمية هذا الكتاب في المقابلة بين الحالة الراهنة في باريس، وبين حضارة الإسلام بما اقتضته الأحكام والتواريخ والآداب والعوائد دعت الدولة التونسية إلى الإعانة على طبعه شكر الله سعيها وحق الطبع والترجمة مصون بسياج القانون.

وصدره بتقريظ الكاتب العام للدولة التونسية (روا).

18) **رسالة المجبى** (1312).

19) **رسالة في المرأة** تسمى تفتق الأكمام.

20) **نشر البساط في نازلة الفسفاط**.

وفاته:

ابتلي بمرض ضعف أعصاب القلب ونتج عن ذلك احتباس النفس، واشتد به الأمر مما أقعده عن الأعمال ولازمه المرض شهرين ونصف إلى أن توفي ليلة السبت 24 من رجب سنة 1318/ 17 نوفمبر 1900.

وأرخ وفاته ابنه زين العابدين السنوسي سنة 1317 في كتابه الأدب التونسي في القرن الرابع عشر في الجزء الأول منه.

والصواب أن وفاته في سنة 1318: وهو ما أرخ به عصريه الشيخ محمد النيفر في كتابه «عنوان الأريب».

(وفاجأه الحمام في رجب 1318).

ويدفع كل ريب ما جاء في جريدة الحاضرة التي نشرت تأبينه في 28 رجب سنة 1318 في سنتها الرابعة عشرة.

مسامرات الظريف

ألّف السنوسي المسامرات أواخر القرن الثالث عشر وجاء أنه ألّفه سنة 1297، ولا أظن أنه ألّفه في سنة واحدة بل ألّفه على فترة كما هو واضح من التأليف نفسه.

القصد من تأليفه:

يقصد من تأليفه التعريف بفقهاء الدولة الحسينية كما أشار إليه في قوله (وبما طالعته من أخبار الممالك ورجالها، وتطور الدول وأحوالها، حملتني الغيرة الوطنية، والحمية العلمية على التعريف بعلماء الشريعة الحنيفية، في الحاضرة التونسية، من مبدأ الدولة الحسينية لا زالت تاج جبين هاته البلاد، على مرور الآباد حيث رأيت أن تطاول الأعصار، كاد أن يطمس ما لعلمائها من محاسن الآثار.

ولما كان أصحاب الخطط الشرعية بين مفتين وقضاة، من الحنفية والمالكية أصحاب الخلال المرتضاة، تعين تقسيمهم إلى أربعة أقسام)[1].

فالمقصود هو التعريف بعلماء المذهبين المالكي والحنفي من قضاة ومفتين، وبدا له أن يقدم على تلك الأقسام الأربعة قسماً عرف فيه بالأئمة كما أشار إليه (بقسم آخر في التعريف بمن ولي بجامع الزيتونة خطة الإمام)[2].

فهذا التاريخ إذا نظرنا إليه في محتواه نراه رامياً إلى تاريخ الزيتونة، ففيه تاريخ المؤسسة الزيتونية المباركة باختصار، ثم ركز تاريخه على أعلامها وقدم على هذه الأقسام مقدمة في تاريخ الدولة الحسينية وختم كتابه كما ذكر بخاتمة ذكر فيها عائلته ومشائخه.

فانحصرت مباحث الكتاب فيما يلي:

المقدمة في التعريف بالملوك الحسينيين.

---

(1) المسامرات (ج 1 ص 80).

(2) المصدر نفسه.

القسم الأول في التعريف بأئمة جامع الزيتونة.
القسم الثاني في التعريف بالمفاتي الحنفية.
القسم الثالث في التعريف بالمفاتي المالكية.
القسم الرابع في التعريف بالقضاة الحنفية.
القسم الخامس في التعريف بالقضاة المالكية.
الخاتمة في التعريف بآبائه وشيوخه.

افتتح المقدمة بتاريخ فتح تونس وطوى عصر الولاة وابتدأ بدولة المهالبة، وأتى بعد ذلك بالأغالبة، وبالفاطميين وبالصنهاجيين، وبالحفصيين ثم بالاستيلاء العثماني وبقيام الدايات واكتفى في تاريخهم بإشارة مختصرة لا تتعدى بضعة أسطر ثم ذكر منظومة بيرم الثاني في أسماء بايات تونس التي انتهى فيها بذكر محمود بن محمد الرشيد الذي استلم الإمارة بعد مقتل عثمان أخي حمودة باشا.

وانتهى السنوسي في المقدمة بتاريخ الصادق باي في سنة 1297.

القسم الأول:

أتى في هذا القسم على تاريخ أئمة جامع الزيتونة وابتدأه بولاية الشيخ إبراهيم بن عبد الرفيع المتوفى سنة (733).

وختم هذا القسم بترجمة الشيخ الإمام محمد بن أحمد الشريف، وكتب ترجمته وهو بقيد الحياة وتوفي الإمام المذكور سنة (1307).

القسم الثاني:

خصه بتراجم المفاتي الحنفية وابتدأه بترجمة رمضان أفندي.

وختم هذا القسم بترجمة المفتي الشيخ حسونة عباس، وكتب ترجمته وهو بقيد الحياة.

القسم الثالث:

خص هذا القسم بتراجم المفاتي المالكية ذاكراً أن الإفتاء كان متصلاً بإمامة جامع الزيتونة ثم انفصل الإفتاء عن إمامة الزيتونة.

وقدم في هذا القسم بحثاً يتعلق بالإفتاء المالكي في تونس وأول من ترجم له ترجمة موسعة الشيخ أبو الفضل المسراتي المتوفى في سنة (ـ 1085).

وختم هذا الفصل بترجمة الشيخ الإمام أحمد بن حمدة الشريف الذي تولى رئاسة الإفتاء المالكي بعد عزل الشيخ الشاذلي بن صالح سنة (ـ 1303) وترجم له وهو بقيد الحياة، وكانت وفاة الشيخ أحمد الشريف بعد صاحب الترجمة سنة (ـ 1337) إذ وفاة صاحب الترجمة سنة (ـ 1318).

القسم الرابع:

خصه بتراجم القضاة الحنفية ابتدأه بأول قاضٍ حنفي قدم من بلد الخلافة العثمانية، وهو علي أفندي، وختم هذا القسم بترجمة الشيخ محمد بن مصطفى بن محمد بن حسين بيرم، وكتب ترجمته وهو بقيد الحياة وهو في خطة القضاء أيضاً.

القسم الخامس:

خصه بتاريخ القضاء بإفريقية، وتراجم القضاة من المالكية في العهد الحسيني وقد جعل هذا القسم خمسة رياض.

الروض الأول: روض الأفنان فيمن ولي قضاء إفريقية بالقيروان.

الروض الثاني: الروض المونس فيمن ولي قضاء إفريقية بتونس.

الروض الثالث: الروض الذي عوابق أفنانه مذاعة فيمن ولي بتونس خطة قضاء الجماعة.

الروض الرابع: الروضة المرضية فيمن ولي نيابة القاضوية.

الروض الخامس: الروض الذي عنده تنتهي الآمال، في معرفة من ولي الخطة بعد تمييزها بالاستقلال وابتدأ هذا الروض الأخير بترجمة الشيخ محمد الوافي بعد ترجمتين تقدمتا للشيخ محمد سعادة والشيخ حمودة الريكلي.

وختم هذا الروض بترجمة الجد الشيخ محمد الطاهر النيفر، وهو أحد

شيوخه، وكانت وفاته سنة (ـ 1311) وقد ألحق وفاته بخطه لأنه كتب ترجمته حال حياته، ولما توفي ألحقها بخطه لأن الكتاب نسخ بخط غيره.

الخاتمة:

يبدو أن المؤلف لم يكتب الخاتمة أو كتبها وضاعت والأقرب الأول[1]، وإنما لم يكتبها اكتفاءً بترجمة جده وعائلته في القسم الخامس، وكذا شيوخه فإنه ترجم لهم في القسمين الرابع والخامس.

تقسيم الكتاب ونشره:

قسم المؤلف كتابه إلى جزئين.

النصف الأول به المقدمة والقسمان الأول والثاني.

النصف الثاني به الأقسام الثلاثة.

ابتدأ المؤلف في نشر كتابه بالرائد التونسي فنشره تباعاً به إلى سنة (ـ 1299) بعد انفصاله عنه وتقديم الحاج حسن لازغلي مديراً له حيث إنه انفصل عن إدارة الرائد التونسي سنة 1298.

واستمر النشر تباعاً باتصال في سنة 1299 في سنة الرائد التونسي الثالثة والعشرين إلى العدد الثامن والعشرين من السنة المذكورة.

وآخر ما نشر بقية ترجمة المفتي الحنفي الشيخ عبد الكبير درغوث، وأول ترجمة المفتي الشيخ علي الصوفي في العدد المذكور بتاريخ 14 رجب من السنة المذكورة.

والظاهر أن انقطاع متابعة نشره بالرائد من أجل شروعه في رحلته الحجازية التي في تاريخ انتهاء نشره بالرائد التونسي.

وقد نشر ما خرج في صحيفة الرائد التونسي في جزء خاص، عند إيقاف نشره بها وذلك في سنة 1299.

---

(1) كتبت هذه المقدمة قبل الظفر بالجزء الرابع، ثم من بعد ظفري به كما كتب في مقدمة هذا الجزء. وبإتمام الجزء الرابع تم الكتاب مسامرات الظريف كما أشار إليه مؤلفه في آخر الجزء الرابع.

عملنا في الكتاب:

قسمنا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء.

الجزء الأول: المقدمة والقسم الأول.

الجزء الثاني: القسم الثاني والقسم الثالث.

الجزء الثالث: القسمان الرابع والخامس[1].

أما الجزء الأول الذي نقدمه الآن فقد قمنا فيه بتعليقات على المقدمة حررنا فيها القول فيما أتى به من تاريخ قد كتب في ظرف خاص حيث إنها كتبت في وزارة مصطفى بن إسماعيل لأنه في وزارة خير الدين لم ينشر شيئاً من المسامرات طبعاً لأنها ألفت سنة 1297 ـ وحتى في وزارة محمد خزندار لم ينشر منه شيئاً في الرائد التونسي فهذه السنة التاسعة عشر منه التي في وزارة محمد خزندار، وبداية وزارة مصطفى بن إسماعيل لم ينشر فيها شيئاً منه.

كما أتينا بمباحث تاريخية محررة وموضحة لما أشار إليه المؤلف من تبيين معالم وشرح حوادث إلى غير ذلك كما وضح في التعليقات.

وذيلنا المقدمة بتتمة ذكرنا فيها تاريخ السنوات التي سبقت الحماية بنشر ما وعد به الشيخ محمد بيرم الخامس صاحب صفوة الاعتبار، وهو الذيل للجزء الثاني من الصفوة.

وأتبعنا هذا بتاريخ تونس من سنة 1297 إلى سنة 1367 (1879 إلى سنة 1957) فأتينا بإجمال على تاريخ الفترة حتى الاستقلال.

وتاريخ مدة الاستقلال يحتاج إلى إفاضة لأنه تمت فيه إصلاحات جمة، وتطورات عديدة تحتاج إلى الوقوف عليها.

وأتممنا ما بدأ به المؤلف من عناوين للوزارات التونسية إلى يومنا الحاضر.

وسرنا على غرار المقدمة في التعليق على القسم الأول متبعين تلك التعليقات بذكر أسماء من أتى بعد آخر من ترجم له المؤلف من أئمة جامع الزيتونة.

---

(1) يضاف إلى هذه الأجزاء الثلاثة الجزء الرابع الذي ظفر به بعد كتابة هذه المقدمة.

التحقيق:

لما لم يكن لدينا إلا ما خلفه المؤلف إما بوقوفه على طبعه، وهو المقدمة والقسم الأول، وإما بما نُسِخَ له وعلق عليه، وهو بقية الأقسام فالاعتماد على ذلك لكن لم نكتف بذلك بل حررنا ما طبع بإشرافه، وما كان فيه من زلات أشرنا إليها.

فما يحتاج إلى الإشارة أشرنا إليه في التعليق وما تكرر اكتفينا بالإشارة إليه مرة واحدة.

وقد كان في الحسبان أن نشكل ما يحتاج إلى الشكل، لكن تعذر ذلك في الطبع فأدى إلى إلغاء الشكل.

وقد رجعنا إلى مصادر عديدة فيما يخص تحقيق نص الكتاب لما فقدنا نسخاً أُخرى نعتمد عليها، فما نقله من شعر أو غيره من النثر تتبعنا ما نقله وأثبتنا الاختلاف، فمثلاً شعر الشيخ إبراهيم الرياحي، وبعض آثاره اعتمدنا فيه على مصادر أخرى كتعطير النواحي وغيره مما وقعت فيه العناية بنقل آثار الشيخ الرياحي وخاصة في بقية الأقسام التي لم تطبع فإننا رجعنا إلى ما نقل منه المؤلف، من كتب تاريخية ترجمت لمن ترجم لهم المؤلف مثل التراجم المهمَّة للخطباء والأئمَّة للشيخ محمد بيرم الثاني، وتراجم المفتين له.

واعتمدنا على ما أمكن الوقوف عليه من الكناشات المعتنية بالآثار الشعرية، وحتى النثرية للعلماء والأدباء القريبي العهد، وهم من العصر الحسيني، وبذلك أمكن أن نتدارك الأخطاء الموجودة في هذا الكتاب.

قيمة المطبوع من المسامرات:

يمثل المطبوع من كتاب المسامرات ما دون الثلث، وهذا المطبوع نشر تباعاً في صحيفة الرائد التونسي، وبالطبع أن المؤلف أشرف على تصحيحه ثم لما جمع ونشر في جزء خاص كذلك أشرف عليه مؤلفه فضلاً عن كونه حين قدمه المطبع أعاد النظر فيه.

فالنسخة المطبوعة تعد نسخة المؤلف، وكأنها بخطه لما قام به من إشراف كما قدمنا.

ومع أنها من إشرافه المتكرر لم تخل من زلات، مثل كتابة لفظ سدا في المقدمة بالألف مع أنه يكتب بالياء كما هو مرسوم في كتب اللغة: السدى المهمل للواحد والجمع، وفي الكتاب الكريم ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ (36) القيامة.

فهو في رسم المصحف، والرسم القياسي يكتب بالياء وكذلك في المقدمة بعد ما تقدم بسطر جاءت هذه الفقرة (هل من خالق غير الله فيستحق أن يحمد لذاته) مع أن العبارة (هل من خالق غير الله يستحق أن يحمد)، لأن يستحق خبر للخالق، والخبر لا يقرن بالفاء.

وقوله اقتباس من قوله تعالى:

﴿ **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ (3) فاطر.

وكذلك جاء في المقدمة (الواجل من اليوم المخوف) مع أن الصواب الوجل بصيغة فعل، جاء في الوسيط (وَجِلَ - بكسر الجيم - يَوجل وَجَلا ومَوْجَلا خاف وفزع، فهو أوجلُ ووَجِلٌ - بكسر الجيم، ج وجال، وهي وَجِلة، ولا يقال وَجْلاء).

ثم إن القياس علاوة على السماع أن اسم الفاعل من (فعل) بكسر العين على وزن فعل كفرح قال ابن مالك:

وهو قليل في (فعلت) و (فعل) غير معدى بل قياسه (فعل)

انظر شرح الأشموني (ج 2 ص 353).

وقد تتبعنا هذه الزلات القلمية إلا ما شذ عن النظر.

وسنتدارك ذلك إن شاء الله بحسب الإمكان.

قيمة المخطوط:

إن الجزأين المخطوطين، وهما الأقسام الأربعة الباقية الشاملة لتراجم المفتين من الحنفية والمالكية والقضاة كذلك، وإن كانا نسخة المؤلف يشتملان على خطأ كثير. مثلاً ما جاء في مرثية الشيخ علي الصوفي:

نفدت فتاويه وما نفدت بتـ ـولة التي هلا المعارف توفي

وصواب البيت:

نفدت فتاويه وما نفدت فُتُوَّ تـه التي بعلى المعارف توفي

فهنالك كلمتان محرفتان في بيت واحد لم يشر إلى تصحيحهما.

وهما بتوله، وصوابها فتوّته.

وهلا وصوابها بعلى. والتصحيح من تراجم المفتين للشيخ محمد بيرم الثاني.

وهذه الأخطاء منتشرة في الجزأين مما كلفنا عناء المراجعة والبحث، وهو ما يدل على أن المؤلف لم يرجع إليهما بالتصحيح.

ثم إنه لا شك أن الجزأين هما نسخة المؤلف لأن خطه عليهما في تتمات تراجم من ترجم لهم حال الحياة ووقعت وفاتهم في مدة حياته فإنه يذكر وفاتهم إكمالاً بخطه كما في ترجمة الشيخ أحمد بن الخوجة الذي ختم ترجمته بتقريظ له على رسالة ألفها في حكم الانتفاع بشواطىء البحار ومعظم الأنهار أطلعه عليها، فإنه بعد ذلك حين توفي الشيخ أحمد بن الخوجة ذكر وفاته في الهامش بخطه، فقال:

وتوفي بمرض لازمه عدة سنين، لم يترك فيها في فرص راحته الاشتغال بالعلم والإفتاء إلى أن أتاه محتوم الأجل بعد زوال يوم الأربعاء الخامس من ذي الحجة عام 1313 (ثلاثة عشر وثمانمائة) (كذا) وألف، ودفن صبيحة الاثنين بالزلاج، وحضر الأمير مشهد جنازته وصلّي عليه ببطحاء القصبة، عليه رحمة الله.

ومزج بين التاريخين الهجري والميلادي فثلاثة عشر من التاريخ الهجري، وثمانمائة من التاريخ الميلادي مع أن صواب تاريخ الوفاة المذكورة بالهجري سنة 1313، وبالميلادي سنة 1895.

فالجزآن يعتبران كأنهما نسخة ذلك الناسخ لإهمال مراجعة المؤلف، وإن كان هو الدافع لهما للنسخ من خطه في بعض المواضع، وفي بعض مما نقله الناسخ من المصادر، ويظهر هذا في القصائد المنقولة.

مُسامرات الظّريف بحسن التّعريف

تأليف

الشيخ أبي عبد الله محمّد بن عثمان السنوسي

تحقيق وتعليق

الشيخ محمّد الشاذلي النيفر

عميد الكليّة الزيتونيّة سابقًا

بسم الله الرحمٰن الرحيم
وصلّى الله على سيدنا محمد

إلى سبحات وجهك اللّهم نَحْدُو المطايا. وبساحات فضلك نُنِيخُها حيث تتوفر بك العطايا. تقدست من مهيمن أحصى كل شيء عددا. ولم يترك الخلق سدى[1]. فمنح وهدى. ومنع وأودى[2]. وإليه المرجع والمبدا. أبدعت صنع الإنسان في أحسن تقويم. واصطفيت منه من هديتهم إلى الصراط المستقيم. فلم يكن في الإمكان أبدعُ من خلق الحكيم العليم. وقد تنادت الأكوان من سائر الجهات بلسان حالها «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[3]. هل من خالق غير الله يستحق[4] أن يحمد لذاته. وماذا عسى أن نؤدي له من محامده والحمد نفسه من عطياته. فحسب المفكر في باهر قدرته. الخبير بعجز فطرته. أن يحمده بالاعتراف بالعجز عن واجب حمده. الذي يستحقه لذاته فضلاً عن واسع رفده. وإنما نقول بلسان معترف بالعجز والتقصير. في حمد من هو الخالق وإليه المصير. «الحمد لله رب العالمين» حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده. على

---

(1) في الأصل سدا، وصوابه ما أثبتناه لأنه من سَدَى الثَّوْبَ، ومعنى سُدى باطل قال الحريري:
«فارْبَأْ بعُمْرك أن يَمُرَّ مُضَيَّعاً فيها سُدَى».

(2) هكذا في الأصل.

(3) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه، وختم به كتابه:
كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. (البخاري ج 9 ص 290).
وقد استعمل المؤلف الاقتباس في هذه الخطبة وأشرنا إلى ذلك بجعله بين معقفين.

(4) في الأصل: فيستحق ولا يصح لأنه خبر.

سوابغ آلائه العديدة. والصلاة والسلام على من أرسله رحمةً للعالمين. وعلى آله وأصحابه وأتباعهم الذين شادوا الدين. ما ذر شارق. ووقب غاسق.

وهنا يقول راقم هاته الحروف. الوجل[1] من اليوم المخوف. راجي مواهب الامتنان. الحفيد السَّنوسي مَحمد بن عثمان. أخذ الله بيده. وأسبغ عليه عوارف مدده. إن من نظر في هذا العالم بعين الاعتبار. رأى ما أودع الله في خلقه من الأسرار. التي لا يدخلها انحصار، ولا يحدد لها مقدار. فيرى ما يحار دونه العقل في اختلاف توجه الهمم إلى سائر الطرق المستعمله، «وكل ميسر لما خلق له». فمن الناس من اصطفاهم الله لمعرفته فبلغوا فيها مراقي العارفين. وصاروا من فيض فضل الله من الغارفين. وهو الذي بمعرفته قد أمدهم وسرهم. أولئك[2] رجال لو أقسموا على الله لأبرَّهم[3]. منهم الرسل والأنبياء. والصديقون والأولياء. وأناس استعملهم الله في هذا العُمران. يباشرون ما يحتاج إليه نوع الإنسان. فمن رجال أبطال. تحزموا للحرب والنزال. وحماية الذِّمار. والدفاع عن الأهل والديار. ومن عقلاء لهم من الرأي أي إكسير[4]. اعتضدوا للتدبير. وأعملوا في المصالح العامة كل عمل شهير. فاعتزت بهم الممالك بين أمير ووزير. ومن أعلام شدوا لقطع مهامه العلوم كل قَتَب. واستلذوا في خدمة العلم كل نَصَب وَوَصَب. حتى أدركوا من العلوم الشرعية غاية الأرب. وأجالوا ثاقب أفهامهم في كل عويص وسهل. وبلغوا إلى مدين[5] التحقيقات بدون مَهَل. ووضعوا عن أنفسهم وعن كل متعلم إصْر الجهل. وهؤلاء منهم قضاة العدل. وأئمة الفضل. يقضون زمانهم بين فصل ووصل. ومطالعة يحصلون بها من التحري لدينهم على أكمل خَصْل. ومنهم المكبُّ على مطالعة المسائل.

---

(1) في الأصل الواجل والصواب الوَجِل لأنه من وَجِل يوجَل فهو وَجِلٌ.

(2) في الأصل أولائك.

(3) إشارة إلى الحديث وهو قوله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم عليه لأبره». أخرجه البخاري ومسلم.

(4) الإكسير ما يلقى على المعادن الرخيصة ليصير ذهباً.

(5) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ (23) القصص.

وإعمال النظر لتحريرها بأكمل الوسائل. فيقضي زمانه بين بحث وتنقيب وتحقيق وإصلاح تحريف. وأكملهم من يسر الله له طريق التأليف. فأصبح معدوداً في علماء الدين الحنيف، أو تراه يقضي عمره النفيس. في التعليم والتدريس. يرمي بصائب السهم. في أغراض دقيق الفهم. ويمليه بغاية الإفصاح. وأكمل الإيضاح. إلى أن يصل بين يديه التلميذ. إلى تحقيق ما ألقاه عليه أُستاذ الأساتيذ. ومنهم من عني بالفصاحة والبلاغة. فأتى من سبائك عسجد النثر والنظم بأبهج صياغة. وهم بين شاعر وكاتب. قد حصلا على أعز المراتب. وآخر ينظم الكلام. ويحسبه من الشعر الذي تبتهج به الليالي والأيام. وآخر قد عني بالإرسال. وأطلق فيه عِنان قلمه السيال. فأدار رحيق فصاحته السلسال. إن خطب استلان صَلْدَ الأحجار. وإن قص أدار بمحادثته كؤوس العُقار. تستلذ حديثه النفوس. ولا تستبدل مفاكهته بألذِّ الكؤوس. وتتفاخر بكتائبه سطور الطروس. حتى يقول مطالع صحفه «لا عطر بعد عروس». وهنالك أمم متزاحمة يستقون من أودية الصنائع والحرف. ويجيدون في إبداع الآلات والتحف. ويأتون من عمل الأيدي بما تقف دون إدراكه الألباب. ويخرجون[1] من ذلك مزايا تأتي بالعجب العجاب. وأمم عنيت بالفلاحة والزراعة. إلى أن وصلوا في ذلك إلى حد الاستطاعة. وأمم قد أظهروا التباهي والاستطالة. بالثروة والبطالة[2]. وآخرون فيما بين جميع تلك الأحوال يمرحون. «وكل حزب بما لديهم فرحون». وأنى لطويل الباع ومديد القلم. أن يُحصيَ أطوار الأمم. وهم ببواعثهم وآمالهم ما تَنَاهَوْا[3]. «وما يعلم جنود ربك إلا هو». وفي تخليد الآثار. ما يدل على توحيد الرب القهار. إذ يرى الإنسان في اختلاف الأطوار. بعجائب الأخبار. ما يفتح له مجال الاستبصار. في الليل والنهار. ومن ثمة كانت مزية

---

(1) في الأصل وسيخرجون، والأقرب ما صوب به، وإن كان ما في الأصل يصح على معنى المستقبل.

(2) البطالة بكسر الباء بمعنى التعطل والتفرغ من العمل، وأما البطالة بالفتح كما هو شائع على ألسنة الكثرة فهي بمعنى آخر وهو الشجاعة.

(3) يبدو أن المؤلف ينطق بتناهوا بضم الهاء قبل الواو بدليل السجع مع أن الهاء هنا مفتوحة فتبقى على فتحها حين الاتصال بواو الجماعة.

التاريخ مشكورة بكل لسان. محمودة عند كل إنسان. لا كما يراه من وقعت عقولهم في مَهْوَاةِ السخافة. فظنوا أن التاريخ من حديث خُرَافة. ولا يضر الشمس رمد الناظر. وإن ذمها في المحاضر. وللتاريخ مذاهب محفوظة. وبعين الاعتبار ملحوظة. فقد اختلفت مشارب المؤرخين اختلافاً. وكل واحد نال من نفسه على حسب ما رآه إسعافاً.

وبما طالعته من أخبار الممالك ورجالها. وتطور الدول وأحوالها. حملتني الغَيْرَةُ الوطنية والحمية العلمية. على التعريف بعلماء الشريعة الحنيفية في الحاضرة التونسية. من مبدأ الدولة الحُسَيْنِيَّة. لا زالت تاجَ جبينِ هاته البلاد. على مرور الآباد[1]. حيث رأيت أن تطاول الأعصار. كاد أن[2] يطمس ما لعلمائها من محاسن الآثار.

ولما كانت أصحاب الخطط الشرعية بين مفتين وقضاة. من الحنفية والمالكية أصحابَ الخلال المرتضاة. تعين تقسيمهم إلى أربعة أقسام. مبدوءة بقسم آخر في التعريف بمن ولي بجامع الزيتونة خطة الإمام. غير أني لما انْجَرَّ بي الكلامُ في آخر القضاة والمفتين. إلى مشايخي الذين أخذت عنهم ما يسره رب العالمين. ختمت الأقسام الخمسة بخاتمة أتممت فيها التعريف بأساتذتي الأعلام. بعد أن استوعبت ذكر بيوت آبائي الكرام[3]. وقدمت بين يدي ذلك كله التعريف بأُمراء هاته الدولة الرفيعة الشان. التي قد أحيت من عز الإسلام في هاته الأرض ما يبقى ذكره ما تجدد الملوان. سالكاً في جميع ذلك مسلك الاختصار. على طريقة لا تسأمها نفوس الأحرار. ولذلك سميت هذا الأنموذج «مسامرات الظريف بحسن التعريف» فكان تفصيل ما احتوى عليه. من المبدأ

---

(1) انتهت مدة الدولة الحسينية بإعلان الجمهورية في 26 ذي الحجة سنة 1376 وفي 25 جويلية سنة 1957.

(2) كاد أن يطمس، الأفصح كاد يطمس.

(3) لم يكمل المؤلف الخاتمة المذكورة كما أشير إليه في المقدمة حسبما وقفت عليه من نسخته التي اعتمدت عليها. والصحيح أنه أكمله تأليفاً. كما سيأتي في أول الجزء الرابع.

إلى غاية ما انتهى القلم إليه. هو المقدمة والخمسة الأقسام. والخاتمة التي هي عنوان التمام. وتفصيلها:

- المقدمة في التعريف بالملوك الحسينيين.
- القسم الأول في التعريف بأئمة جامع الزيتونة.
- القسم الثاني في التعريف بالمفاتي[1] الحنفية.
- القسم الثالث في التعريف بالمفاتي المالكية.
- القسم الرابع في التعريف بالقضاة الحنفية.
- القسم الخامس في التعريف بالقضاة المالكية.
- الخاتمة في التعريف بالآباء الكرام والشيوخ الأعلام. وما ألحق بهم في هذا المقام.

وقد رتبت رجال كل قسم من ذوي الدراية. على حسب تقدمهم للخطة باعتبار تاريخ الولاية. ومن الله جلّ جلاله نستمد الإعانة والتوفيق. والهداية إلى سواء الطريق. ونسأله سبحانه أن يحفظنا من زلة القلم. وأن يعيذنا من شر التحامل على أهل الفضل والكرم. بجاه خير العرب والعجم. صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.

(1) أتى المؤلف بجمع المفتين على المفاتي وهو جمع غير مسموع في اللّغة.

المقدمـــة

في ذكر الملوك الحسينيين
خلد الله ملكهم إلى يوم الدين

اعلم أن المملكة التونسية قد فتحتها دولة الإسلام على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأرسل إليها أخاه من الرضاع كاتب الوحي أبا يحيى عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري، فسار إلى إفريقية ودخلها سنة سبع وعشرين من الهجرة، ووقع افتكاكها من الإفرنج والبرابرة، ولم يزل صدر الإسلام يستولي عليها والحروب متوالية فيها[1] من غير أن تستقيم فيها دولة متصلة إلى أن وليها يزيد بن حاتم بن قَبيصة بن المهلب على عهد المنصور، واستمر بنو المهلب ومن خلفهم بالقيروان إلى أن أرسل الرشيد بتولية إبراهيم بن الأغلب في منتصف سنة أربع وثمانين ومائة، واستمرت دولة الأغالبة إلى أن تغلب عليهم أبو عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي بن محمد

---

(1) أجمل المؤلف ها هنا الكلام على الفتح الإسلامي الذي رأى أطواراً مختلفة وصراعاً مريراً وقد فصل ذلك تفصيلاً يشفي الغليل ابن عذاري المراكشي في كتابه (البيان المغرب. في أخبار الأندلس والمغرب ج 1 من ص 8 إلى ص 78) مستوفياً ذكر ولاتها والأحداث المصاحبة لذلك وما ذكره المؤلف من عدم استقامة الدولة إلا عند قيام دولة المهالبة لم ينصف حسان بن النعمان فهو الذي تمهدت على يديه الدولة الإسلامية بهذه الديار كما أشار إليه ابن عذاري:

وفي هذه السنة ـ أي سنة 82 ـ استقامت بلاد إفريقية لحسان بن النعمان، فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية، وعلى من أقام معهم على دين النصرانية.

وأقام حسان بعد قتل الكاهنة لا يغزو أحداً، ولا ينازعه أحد (البيان المغرب ج 1 ص 38).

ولعلّ المؤلف يرى أن اختلاف الولاة لا تستقيم فيه دولة متصلة لأنه يرى أن ذلك لا يتم إلا بالملك الوراثي، وفي الحقيقة أن لكل وجهة هو موليها.

ووقع هنا اسم فاتح إفريقية عبد الله بن سعد بن سرح والصواب ما أثبت وهو ابن أبي سرح.

الحبيب[1] بن محمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فبايع أهل إفريقية لمخدومه واستقر برقادة من القيروان مستقلاً بملك إفريقية.

ثم في سنة ثلاثة وثلاثمائة بنى المهدية ونقل ملكه إليها فصارت إفريقية مملكة مستقلة للعبيديين.

ولما تنقلوا بملكهم إلى مصر استنابوا فيها الصِّنهاجيين، ثم قطع دعوتهم منها المعز بن باديس الصنهاجي، واستقل بها هو وبنوه إلى أن تسلط عليهم النصراني رجير الأَنطاكي[2]، ودخل المهدية سنة ثلاث وأربعين بعد الخمسمائة. وصارت عدة جهات من المملكة فوضى لا حاكم لها إلى أن غزاها الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي سلطان المغرب واستولى عليها سنة خمس وخمسين وخمسمائة، واستخلف عليها بتونس بعض بنيه، ثم إن حفيده الناصر استخلف عليها بتونس أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى المصمودي الهنتاتي[3] دفين داخل القصبة، واستقل بها ابنه الأمير أبو زكرياء يحيى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب الأصب سنة خمس وعشرين وستمائة. وصارت تونس قاعدة خلافة الإسلام على عهد محمد المستنصر الحفصي فأتته مبايعة شريف مكة المشرفة الحسن[4] رضي الله عنه

---

(1) ما ساقه المؤلف من نسب عبيد الله المهدي هو خلاف ما ذكره ابن خلكان وقدّمه بأنه عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال ابن خلكان قبل أن يسوق هذا النسب: وجدت في نسبه اختلافاً كثيراً، ج 3 ص 117 ط الثانية وما ذكره ابن خلكان نقله المؤرخان التونسيان ابن أبي دينار والوزير السراج.

وجاء في الخلاصة ما هو مخالف لما ساقه ابن خلكان.

(2) جاء هنا رجير والمعروف في كتب التاريخ روجار كما في الحلل السندسية والمؤنس.

(3) المعروف في نسب الشيخ عبد الواحد أنه أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص.

(4) وقع المؤلف في غلط وهو تسمية شريف مكة الذي وصلت بيعته إلى المستنصر الحفصي بأنه الحسن والصواب أنه أبو نمي مع عمه كما ذكره ابن خلدون في الجزء السادس ص 634.

ونصه:

الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية.

كان صاحب مكة، ومتولي أمرها من سادة الخلق وشرفائهم ولد فاطمة ثم من ولد ابنها الحسن =

وبيعة يعقوب المريني سلطان فاس سنة سبع وخمسين وستمائة إلى سنة تسع وخمسين، وتلقب بأمير المؤمنين. واستمرت سلطنة بني أبي حفص إلى سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فالتأثت أمورها وعند ذلك أرسل السلطان سليم الأول في افتكاكها بواسطة خير الدين[1] أولاً ثم تم افتكاكها من بين يدي بني أبي حفص والإسبانيوليين سادس جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة على عهد الغازي السلطان سليم الثاني على يد وزيره سنان باشا ففتح الحاضرة عنوة وأقام بها أمير لواء لضبط الوطن وجباية المال. ولقبه بالباي، وهو رمضان باي، وجعل النظر على العسكر إلى الآغا. وخطب يومئذ باسم السلطان سليم الثاني، وضرب السكة باسمه وأقام عساكر لحراسة البلاد، وجعل على كل مائة منهم أميراً يلقب بالداي. وبعد سفر سنان باشا تغلب الدايات واستبدوا على الباي

= صلوات الله عليهم أجمعين، أبو نمي وأخوه إدريس، وكانوا قائمين بالدعوة العباسية منذ دخولها إليهم بمصر والشام والحجاز صلاح الدين الأيوبي ابن أيوب الكردي.

وأمر الموسم وولايته راجعة إليه، وإلى بنيه ومواليه من بعده إلى هذا العهد.

ووقع في هذا الغلط قبله المسعودي في الخلاصة النقية ونصه:

ثم وافت السلطان سنة 657 بيعة أهل مكة المشرفة وشريفها الحسن ابن أبي نمي من إنشاء عبد الحق بن سبعين (الخلاصة ص 62).

وسرى الغلط إلى صاحب الخلاصة من قول ابن خلدون من ولد ابنها الحسن، واختصر عبارته المؤلف على غلطها.

والمعروف ما ذكره ابن خلدون لأمرين الأول أن الحسن الأول شريف مكة من ولد أبي قتادة، وأما أبو نمي فهو ابن الحسن بن علي بن قتادة، فقد عكس الأمر.

الثاني أن الحسن بن قتادة انتزعت منه إمارة مكة سنة (620) والحسن بن علي بن قتادة وليها سنة (647) وقتل سنة (651) فليس هو المرسل للبيعة.

وفي خلال سنة سبع وخمسين كانت إمارة مكة بين إدريس وابن أخيه أبي نمي وهي سنة إرسال البيعة من مكة.

وأبو نمي هو محمد بن الحسن بن علي بن قتادة وتوفي سنة (701) وولي إمارة مكة بعده ابناه حميضة ورميثة.

(شفاء الغرام للفاسي ج 2 ص 202 و 203).

(1) استيلاء خير الدين لا يعتبر فتحاً لأنه كان عبارة عن محاولة أولى لإدخال تونس تحت الخلافة العثمانية.

وقد بسط القول في أعماله الكتاب المعنون (بغزوات عروج وخير الدين) المعرب عن التركية.

وامتدت يدهم ثم ضرب على أيديهم واضطرب بهم الأمر مدة إلى أن تناقصت سلطتهم وانقطعت هاته الخطة من البلاد، وقد ألمّ بذكر أمراء جميع هاته الدول الشيخ محمد الباجي المسعودي في كتابه «الخلاصة النقية. في أمراء إفريقية» فكانت أنموذجاً لطيفاً[1]. وقد نظم أسماء من ولي الإمارة التونسية منذ فتحتها الدولة العثمانية ـ خلد الله عزها ـ الشيخ محمد بيرم الثاني بقوله[2]:

[الكامل]

بَايَاتُ تُونِسَ إن تَرُمْ عَدًّا لهم ... فالست معْ عشر لهم أعداد
(رمضان) أولهم وثان بعده ... مولاه ذو الصيت البعيد (مراد)
ثم ابنه (حمودة) الباشا الذي ... أيامه بين الورى أعياد
ثم ابنه المبْتَزُّ للدايات ما ... لهمُ من الملك الكبير (مراد)

---

(1) الخلاصة النقية في أمراء إفريقية خلاصة في تاريخ تونس انتهى مؤلفها في دولة المشير الأول أحمد ابن الأمير مصطفى باي، وقد طبعت طبعة أولى سنة 1283 ثم أعيد طبعها سنة 1323 بعد وفاة مؤلفها.

وصاحب الخلاصة هو محمد الباجي ابن الكاتب محمد المسعودي بن محمد المجذوب البوبكري تولى كتابة بيت خزندار، ثم كتابة الإنشاء.

توفي سنة (1297).

(2) ووقفت على هذه الأبيات التي نظمها الشيخ محمد بيرم الثاني في كناشة ذكر صاحبها فيها أن الشيخ بيرم الثاني نظمها في دولة حمودة باشا، والبيت الأخير من قصيدته ما يأتي مع البيت الذي قبله.

فيهم (علي باي) أخوه وبعده ... ابن له مَن سعده يزداد
(حمودة الباشا) أعين على الذي ... فيه صلاح للورى وسداد

ثم وقعت الإضافة على القصيدة:

ولما توفي حمودة باشا سنة (1229) وتولى أخوه عثمان باشا ذيل الناظم نظمه بقوله:

وأخوه (عثمان) تلاه ودون أر ... بعة الشهور ضمه الألحاد

ولما توفي سنة 1230 وتولى بعده ابن عمه محمود باشا ذيله فقال:

فأتى ابن عمهما أمير زماننا ... (محمودُ) مقروناً به الإسعاد

ولما توفي محمود باشا (1239) تولى ابنه حسين باشا ذيله أيضاً فقال:

فأتى (حسين) نجله من بعده ... فبه ربوع المكرمات تشاد
لا زال في حصن الحماية مرشداً ... والخير في أيامه يزداد

والبيتان الأخيران زائدان.

ثم الثلاثة من بنيه (محمد) (وعلي، ورمضان) هم الأطواد
ولقد تخلل بين ذلك عمهم (بمحمدِ الحفصي) الشهير يراد
وكذا (ابن شكر) صهرهم وعتيقهم من حركته لحربها[1] أحقاد
(ومراد بن علي) الآتي من الأ سواء ما فُتَّتْ به الأكباد
ثم الشريف (بَرَاهِمٌ) وبه قد انـ ـقطعت على من قبله الأمداد
ثم استقر (حسينٌ بن عَلِيْ) الذي لم تعر في أيامه أنكاد
من بعد ذاك (علي) حسين عمه وابن الحسين (محمد) ويزاد
فيهم (عَلِي بايٌ) أخوه وبعده ابن له مَنْ سعدُه يزداد
(حمودة الباشا) أعين على الذي فيه صلاح للورى وسداد
وأخوه (عثمان) تلاه ودون أر بعةِ الشهور ضمه الألحاد
فأتى ابن عمهما أمير زماننا (محمودُ) مقرونا به الإسعاد
لا زال في حصن الحماية مرشداً والخير في أيامه يزداد

وها نحن نذكر هنا تراجم الأمراء الحسينيين على نحو ما وعدنا به وعلى الله الاعتماد. في البلوغ إلى المراد. إنه كريم جواد.

(1) في نسخة لحربهم، ووقع هنا الأحضاد عوض الأحقاد وهو تحريف مطبعي.

1 ـ المولى حسين باشا باي
[1080 ـ 1153]

هو الأمير أبو محمد حسين بن علي تركي. كان مَقْدَمُ والده من بلد كندية من جزيرة قريد[1] أوائل دولة بني مراد، وتقدم للخدمة حتى ولي قيادة أزِمَّةِ الأعراب، توفي سنة ثلاث ومائة وألف. وولد ولده صاحب الترجمة سنة ثمانين وألف[2]، ونشأ باعتناء والده، وتقدم في خدمة الدولة وتقلد الوظائف المعتبرة مثل قيادة عمل الأعراض والجريد، وتقدم كاهية دار الخلافة على عهد الباشا إبراهيم الشريف باي داي. ولما انهزم مخدومه بمحلة الجزيريين عند الكاف على يعد عِشِّي حسن وأسروه وأوثقوا أخاه رجع كاهيته صاحب الترجمة طالباً مَنْجَاتَه إلى أن وصل إلى زاوية الشيخ سيدي حسين السيجومي[3]، فأرسل إلى

---

(1) قريد هي جزيرة كريت، ويقال لها كريد، وأما قريد بالقاف فلعلّه مأخوذ مما يسميها به العرب وهو اقريطش.

وهي جزيرة كبيرة بين اليونان وتركيا، وسكانها نصف مليون نسمة وقد ألحقت منذ سنة 1912 باليونان (انظر الموسوعة العربية ص 618).

(2) في ذيل بشائر أهل الإيمان أنه ولد سنة (1086) كما في (ص 17) ونقل ذلك في التاريخ الباشي، وذكر عقب ذلك أن ابنه علي بن حسين كان ينكر ذلك، ويرى أنه قبل تلك المدة.

ولعلّ المؤلف اعتمد رواية أخرى غير رواية البشائر، لكن مؤلف البشائر من رجال دولة حسين بن علي تركي فهو أعرف الناس بحياته.

وما اعتمده صاحب ذيل بشائر أهل الإيمان اعتمده الشيخ الوزير أحمد بن أبي الضياف فإنه حين حديثه على والده علي تركي قال:

ثم تزوج ـ أي علي تركي ـ امرأة من عرش شارن أولدها ابنه حسيناً صاحب الترجمة سنة ست وثمانين وألف (1086 هـ) على ما نقل حسين خوجة. الإتحاف: ج 2 ص 85.

(3) زاوية السيجومي هي زاوية قرب السبخة التي تسمى بالسيجومي وتوفي الشيخ حسين السيجومي سنة (674) انظر (مناقب رجال الأربعين) مخطوط و (الحقيقة التاريخية للتصوف ص 246).

الحاضرة يطلب أهله للفرار بهم، ولما تحقق أعيان الحاضرة انهزام المحلة وأسْرَ إبراهيم الشريف اجتمعوا على مبايعة كاهيته حسين بن علي، فخرج إليه أهل الحل والعقد وأكرهوه على ذلك بعد الامتناع ورجعوا به إلى الحاضرة وبايعوه بالديوان المقابل لباب القصبة بحاضرة تونس صبيحة يوم الاثنين موفى عشرين من ربيع الأول سنة سبع عشرة ومائة وألف. واطمأن الناس ببيعته وعندها أولى محمداً الأصفر دايا[1]، وأخذ يستعد لمدافعة الجزيريين، ولما قدموا إلى الحاضرة ردهم على أعقابهم خاسرين، ولحق بهم وهم على أسوإ حال، والعرب تنتهب أطراف محلتهم، وهم يتركون مجاريحهم وأثقالهم في كل مكان[2].

وبينما هو يمهد السبل وإذا بمحمد الأصفر أخذ يستعيد استبداد الدايات بالمظالم التي لم يتحملها الباشا حسين باي حتى خرج إلى الفحص، وحين اشتدت وطأة الداي على الأهالي ونفرته العساكر خرجوا لطلب استرجاع الباشا حسين وعزل الداي فعزله وأولى مكانه قاره مصطفى دايا وقدم الباشا حسين إلى الحرايرية[3]. وطلب إخراج محمد الأصفر من البلاد قبل دخوله فأخرجه الجند وحملوه إلى الباشا غير أنه قتله أحدهم قبل الوصول إليه.

وعند ذلك دخل الحاضرة وجددت له البَيْعة سابع عشر رمضان سنة سبع عشرة ومائة وألف وسكن بدار حمودة باشا المرادي التي بالقصبة ثم تنقل إلى

---

(1) جاء هنا الداي محمد الأصفر وهذا تبع فيه صاحب الخلاصة النقية، والذي في ذيل البشائر الداي محمد الأشقر، ومثل ما هنا في تاريخ الوزير ابن أبي الضياف، وفي الحلل السندسية الداي محمد الأزعر.

والظاهر أن المعروف من اسمه أنه يسمى بمحمد، ولما كان أشقر وصفه كل كاتب حسبما سمع.

(2) فصل السراج في الجزء الثالث من الحلل السندسية دفاع الأمير حسين بن علي تركي عن البلاد التونسية.

(3) والحرايرية مكان قرب تونس يبعد عنها ببضعة أميال.

وقبل وصوله إلى الحرايرية أولى دايا قاره مصطفى المتوفى سنة 1139.

بساتين باردو[1] فعمر قصوره وأحيا مسجده وجعل له منارة وصيره جامعاً وأقام له قاضياً لتوقف صحة الجمعة عليه.

وأول من تقدم لقضاء باردو والمحلة معاً الشيخ علي شعيب أحد علماء باجة[2]. ثم إن الباشا أخذ يمهد السبل ويَرُمُّ ما خربه من قبله فأقام مباني القيروان، وأحيا رسوم العلم في سائر جهات المملكة. وبنى المدارس بالقيروان وصفاقس والجريد وجربة، وأقام بها العلماء والمؤدبين للتعاليم الدينية زيادة على إحيائه مساجد الله وزوايا أوليائه. وكف المظالم، وهدم حانات الخمارين بالحاضرة، وشاد الجامع الحسيني العظيم البناء[3] والتربة الملاصقة له التي أعدها لدفنه والمدرسة التي إلى جنبه[4] هنالك. وبنى المدرسة الضخمة التي قرب ساباط عجم[5] وقدم لمشيختها الشيخ محمد الخضراوي مدرس جامع محمد باي وبنى المدرسة ذات النخلة التي قرب جامع الزيتونة[6] وأوقف على جميعها الأوقاف الكافية وأجرى جراية بيت المال على علماء جامع الزيتونة.

---

(1) باردو من تأسيس الحفصيين وكان يعرف ببساتين باردو وكان ذلك في الأيام القريبة من الأخيرة للدولة الحفصية.

وقد اعتنى به الأمراء المراديون، ثم إنه في الدولة الحسينية وقعت العناية به أكثر وكانت به دواوين الحكومة إلى آخر القرن الثالث عشر الهجري.

(2) الشيخ علي شعيب لم يترجم له في ذيل البشائر، وإنما ذكره عرضاً حين ترجم لبعض تلاميذه عثمان الأوراسي، ومحمد التواتي، وابنه إبراهيم بن علي شعيب فذكر أنهم تلقوا عنه.

وفي ترجمة ابنه ذكر أنه تولى منصب القضاء، ولازم الأمير بالمحلة، (انظر ص 149).

وهو في زمن تأليف الذيل كان حياً، وذلك سنة (1137) وقد ترجم له الوزير في الحلل ترجمة حافلة وقد ذكر أنه تولى قضاء باردو وكانوا يصفونه بالشدة في أحكامه وقد اجتمع به صاحب الحلل.

(الحلل ج 1 ص 501).

(3) الجامع الحسيني هو الجامع المعروف بالجامع الجديد، وتم بناؤه سنة (1139) (معالم التوحيد 131).

(4) تعرف هذه المدرسة بمدرسة الجامع الجديد وبنيت مع الجامع المذكور.

(5) تعرف هذه المدرسة بالحسينية الصغرى، وكان إحداثها سنة (1128) وكتب عن مآثر حسين بن علي الشيخ ابن أبي الضياف (ج 2 ص 99).

(6) مدرسة النخلة قرب جامع الزيتونة من شرقي قبلته وكان تأسيسها سنة 1126.

وأجرى السقايات وبنى الجسور. وعدل وتحرى لدينه في قتل النفس ما أمكنه بحيث إنه لا يقتل إلا بحكم المجلس الشرعي. وساعده البخت بخِصْب المملكة فتوالت النعم على عموم المملكة وأعظمها نعمة الأمن.

وله في خاصة نفسه اعتناء برواية الحديث بين يديه وكان يرويه له إمامه الشيخ الحاج يوسف برتقيز[1]. وله شغف زائد بدلائل الخيرات وحَسَنِ الأذكار وعمل البر والمحافظة على أوائل أوقات الصلوات إلى غير ذلك من مكارمه التي عد كثيراً منها المؤرخ حسين خوجة في تاريخه «بشائر أهل الإيمان».

وقد اتخذ كاهيتَه أوّلاً علي بن مامي ثم عزله وأولى عوضه مملوكه أحمد شَلبي واتخذ خزنداره أولاً حَمَّدَ ثم عزله وأولى مكانه محمود السرايري الأندلسي، واتخذ كاهية دار الباشا مملوكه الحاج سليمان كاهية، وكان باش كاتب الشيخ بلحسن الوسلاتي. ولما توفي أولى عوضه الشيخ قاسم ابن سلطانة.

وقد تبنى أولاً ابن أخيه علي بن محمد إلى أن رزقه الله كرام البنين وهم محمد الرشيد باي وعلي باي ومحمود باي ومصطفى باي. ولما شبّ بنوه قدم ابن أخيه للباشية بدار الباشا التي هي أعظم من ولاية الأمحال ورجا أن يكون الملك لأبنائه وعقبهم فخرج عليه ابن أخيه وترامى لدى مملكة الجزائر وانتصر بهم على عمه، وفي أثناء ذلك فَقَدَ أصغر بنيه وهو مصطفى باي فسار إلى رحمة الله تعالى، ثم وردت المحلة الجزائرية، ولما قاربت الحاضرة خرج لها الباشا حسين باي متجهزاً في عسكره ونزل بسمنجة [2] لمدافعة ابن أخيه، وتلاقى الجيشان، ووقع القتال بينهما يوم الأحد سادس عشر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين، وصدق الجزيريون ومن انضمَّ إليهم من الأعراب القتال، ونجا الباشا حسين وأبناؤه إلى القيروان، واعتصموا بها، وحاصرهم ابنُ أخيه بعد حروب

---

(1) يوسف برتقيز ولد سنة 1091 ترجم له في ذيل البشائر ص 257.

(2) سمنجة بوسط البلاد التونسية مما يلي الشرق في طريق الفحص، وقد كانت بها محطة ينتقل فيها المسافرون إلى زغوان في قطار آخر.

باشر أكثرَها ابنُه يونس. ولما طال الحصار نجا أبناؤه الكرام ومن انضم إليهم إلى الغرب وخرج الباشا حسين باي بمن بقي معه لمدافعة حفيد أخيه، وهو يونس باي ووقع قتال استشهده[1] فيه الحفيد المذكور قِبْلِيٌّ مدينة القيروان يوم الجمعة سادس صفر الخير سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف وحمل ودفن بتربته الرفيعة[2] عليه رحمة الله.

(1) هذه العبارة غير سليمة لأنه قال استشهده فيه الحفيد المذكور مع أن معنى استشهده طلب منه الشهادة وصواب العبارة استشهد ـ بالبناء للنائب ـ من قبل الحفيد المذكور.

(2) التربة المذكورة قرب جامعه وهو المعروف بالجامع الجديد وتعرف هذه التربة بتربة سيدي قاسم السبابطي.

2 ـ المولى علي باشا باي
[1100 ـ 1169]

هو الأمير أبو الحسن علي بن محمد بن علي تركي، لما لم يكن لعمه حسين بنون تسلمه من أخيه وتبناه واعتنى بتربيته وأحضر لتعليمه من العلماء أولاً الشيخ محمد التونسي [1] فتهذب به، وصار به عالماً، ثم أحضر له الشيخ محمد الخضراوي للإقراء والمجالسة، وضم إليه من ذوي الرأي الخَبِيرِين من يكتسب منهم حسن التربية ونشأ على تلك الحال حتى بلغ مبالغ الرجال.

ولما ولي عمه الملك أولاه سفر الأمحال في صفر الخير من سنة ثماني عشرة ومائة وألف، وزوجه بابنة كاهيته علي بن مامي فأُوتي منها بأبنائه يونس ومحمد وسليمان، ثم زوجه ابنته، وأَمَل بذلك أن يرث الملك من بعده.

ولما رزقه الله الولد طلب له من الدولة العثمانية الفَرَمان السلطاني والقفطان العثماني على العادة، وذلك على عهد السلطان الغازي أحمد خان الثالث [2] . وقدمه لخطة الباشية بدار الباشا سنة سبع وثلاثين ومائة وألّف وأسكنه بدار رمضان باي بتونس، وعند ذلك أَنِف من صنيع عمه به، وتَحَفَّز للوثوب للطيران وخرج بابنه يونس هارباً غروب شمس يوم الجمعة عاشر رجب سنة أربعين ومائة وألف، وتحصن بجبل وسلات [3] مدة ثمانية عشر شهراً أجلاه في

---

(1) محمد التونسي هو والد الشيخ أحمد التونسي كان من علماء القراءات، وقد أخذ عنه ولده وتوفي أوائل القرن الثاني عشر.

(2) أحمد خان هو الخليفة العثماني المولود سنة 1083، وتولى الخلافة سنة 1115، وتوفي سنة 1149 معزولاً.

(3) جبل وسلات بوسط البلاد التونسية بين كسرة والقيروان، وقد استعمله الثوار كثيراً.

آخرها عمه إلى الغرب بعد قتالات عديدة فدخل الجزائر وأقام بها عدة سنين يطلب الإعانة على قتال عمه حتى أمده حاكمها إبراهيم باشا[1] على شروط تواعدوا عليها. وانفصل بالمحلة الجزائرية في حجة الحرام سنة سبع وأربعين ومائة ألف، ونازل عمه في سمنجة حتى استولى على محلته وأصبح مقيماً بسمنجة إلا أنه لم يدر خبر عمه ولا خبر أهل الحاضرة. ولما تحقق أهل الحاضرة نجاة العم المذكور وأبنائه أحضروا مراداً ومحمود أخوي علي باشا وأخرجوا أباه محمداً باي من السجن الذي وضعه فيه أخوه حين رآه مظاهراً لابنه فأخذ عليهم البيعة لابنه علي باشا باي وأركبوا لتلقيه ابنيه محمداً وسليمان فأعلماه بما وقع، فأرسل ابنه يونس ودخل الحاضرة يوم الثلاثاء، وجلس بالقصبة، ووفدت عليه الأهالي للتهنئة. ثم أقبل الأمير علي باشا إلى الحاضرة يوم الأربعاء تاسع عشر صفر الخَيْر سنة ثمان وأربعين ومائة وألف وتمت له البيعة يومئذ، وانقلب الجزيريون لبلادهم بعد لدد ومشاغبة وأخذوا ما وعدهم به، وبعد أيام توفي أبوه محمد باي فجأة[2]. ولما استقل الباشا المذكور أرهف الحد في شيعة عمه، واشتدت سطوته، وصادر الأمة بالمال كثيراً، وعرضت في مدة ولايته محاربات فاز فيها بالظفر.

وكانت رجال دولته المقربون لديه باش كاتب الشيخ عبد اللطيف السهيلي وقد وليها بعد عزل الشيخ بوديدح، وكاتبه المقرب عبد الرحمن البقلوطي[3] وعامل الأعراض الحاج مصطفى بن متيشة[4]، وآغا باجة عصمان المملوك.

---

(1) إبراهيم باشا لما تولى إبراهيم بايا بعد عبدي باشا، أفرج عن علي باشا ووسع عليه، ثم تجهزت محلة الجزائر في مدة حكومة الداي إبراهيم الصغير.

(2) في الخلاصة النقية أن وفاة محمد باي والد علي باشا وقع فيها قيل وقال (انظر ص 123)، وكان محمد هذا أسن من أخيه حسين، ولكنه لم يكن ذا كفاءة.

(3) عبد الرحمن البقلوطي ذكر الكثير من أخباره ابن أبي الضياف في الإتحاف، ومما ذكره في تاريخه أن محمد بن علي باشا استماله لإيغار صدر أبيه على أخيه يونس، وأنه قُتِلَ علي باشا وهو معه مقيد.

وذكر أن الشيخ إسماعيل التميمي الفقيه المؤرخ كان ينقل عنه.

(4) الحاج مصطفى بن متيشة قتله سليمان بن علي باشا لأنه من المنحرفين عن أخيه يونس، وكان ذلك أثناء ثورة هذا الأخير في سنة (1165) (الإتحاف ج 2 ص 138).

وفي آخر أمره اختلف عليه بنوه وكابد منه ولده نصيره يونس باي عَرَقَ الِقْربَةِ حتى وثب للطيران إلا أنه تحزب على والده وتحصن بالقَصَبة هو ومن معه فدخلها ظهر يوم الاثنين تاسع جمادى الثانية سنة خمس وستين ومائة وألف وكان النصف القبلي من البلاد في نصرته، فأطلق المدافع ودافعه أبوه وأطلق الكور في وسط البلاد واستمر الحال على ذلك بعد توسط العلماء في إصلاح ذات البين ولم يغنوا شيئاً إلى أن نفدت ذخائر القصبة فخرج هو وكاتبه أحمد السُّهَيْلِي في لُمَّةٍ من مماليكه وأتباعه ضحوة يوم السبت الثالث من شعبان وأبقى أبناءه الثلاثة أحمد باي وإسماعيل باي ومصطفى باي وفر بمن معه إلى قسمطينة. وعند ذلك دخل أخوه محمد باي إلى الحاضرة وسلّط السيف على من قدر عليه، وأظهر ما في نفسه من الحقد واحتقار وجوه الناس وأبوه مرتض لصنيعه. ولم يزل يتمادى في سوء صنيعه حتى فوق سهمه لأخيه سليمان وخشي من ورائته الملك بعد أبيه لما يرى لأبيه من إيثاره عليه لما فيه من الأهلية فعاجله بالإطعام فمرض أسبوعاً وفاضت نفسه على حين لم يكن والده ليتوقع له ذلك، فتوفي ظهر يوم الجمعة من صفر الخير سنة ثمان وستين ومائة وألف، وترك ولده نعمان باي، فعلم أبوه بمكيدة ولده وسوء صنيعه بأخيه، وتحقق أن الله أذاقه بأس ولده محمد بإعدامه لعضدي نصرته يونس بالفرار وسليمان بالممات. وكان ذلك من مبادىء انتقام الله منه، والله عزيز ذو انتقام.

وقد كان علي باشا باي ـ مع سفكه للدماء وامتهانه للخاصة وإضراره للمملكة بمظالمه ـ معدوداً في العلماء، وشرح تسهيل ابن مالك النحوي شرحاً مهماً[1] اعتكف الناس على قراءته بجامع الزيتونة مدة دولته، وقرظه سائر علماء

(1) شرح التسهيل للباشا يحقق الوزير ابن أبي الضياف أنه له، وما ادعاه الوزير حمودة بن عبد العزيز من أنه ليس له لم يدعمه بنقل صحيح وأكد نسبته له بما يوجد له من هوامش على كتبه (الإتحاف ج 2 ص 121).

وسماه «بدفع الملم عن قرّاء التسهيل، بجلب المهم مما يقع به التحصيل» وتوجد منه نسختان بدار الكتب الوطنية الأولى منهما تحت رقم 12360.

وعلي البارع الذي نقل أبياته المترجم هو أبو الحسن علي البارع الصفاقسي كان من تلامذة الشيخ الغرياني المتوفى سنة 1195.

عصره. وكتب عليه الشيخ أبو الحسن علي البارع قوله:

[الكامل]

لله شرح للأمير موضح ... لم يتصف بصعوبة التلويح
سهل التناول بالخفاء مصرّح ... قد فاق في التسهيل والتصريح
فإذا افتقرت إلى كتابٍ موضح ... فكتابه المغني عن التوضيح

وقد كان الباشا مع علمه ولوعاً بالكتب واكتسابها، وبنى تربته التي بالقشاشين ومدرسة الباشية، وقدم لمشيختها الشيخ محمد المحجوب الحنفي[1]، وبنى المدرسة التي نسبها لولده سليمان، وقدم لمشيختها العالم الرباني، الشيخ محمد بن علي بن خليفة الغرياني[2]. وجميع هاته الأبنية كانت حول الجامع الأعظم. وبنى مدرسة بئر الحجار وقدم لمشيختها الشيخ مسعود المغراوي الباجي[3]. وبنى مدرسة حوانيت عاشور وقدم لمشيختها الشيخ

---

(1) وهي المعروفة بالمدرسة الباشية بالقشاشين تقابل الحمام المعروف بحمام القشاشين وكان من أشهر الحمامات بتونس. وبها تربته وهي على يسار الداخل من باب المدرسة بالقشاشين وكان تأسيسها سنة 1166 كما جاء في العجز المتضمن للتاريخ:

منازل فتح حلها أيمن السعد.

والظاهر أن المراد بالقشاشين غير المعنى المعروف في اللّغة.

والشيخ محمد المحجوب المتولي بها ستأتي ترجمته في المفاتي الحنفية.

(2) تعرف هذه المدرسة بالمدرسة السليمانية بالشارع المعروف بنهج المدرسة السليمانية، وشيخها الشيخ محمد بن علي الغرياني أصله من طرابلس واستوطن تونس، وله بها عقب وتعرف عائلتهم بعائلة الغرياني له فهرست حافلة في خزانة كاتبه. توفي سنة (1195) (شجرة النور ج 1 ص 349).

أسست هذه المدرسة سنة 1168.

(3) مدرسة بئر الحجار تمت هذه المدرسة سنة (1170) بعد وفاة مؤسسها علي باشا وقد أتمها صهره رجب بن مامي، وقد أرخها بعضهم بقوله:

وقد تمت لسبعين وألف ... ومعْ مائة ومن غير ارتياب

ونقش هذا البيت مع أبيات أخرى على واجهة سبيلها، وهي بالشارع المعروف بنهج الباشا.

والشيخ مسعود المغراوي الباجي ذكره العياضي في مفاتيح النصر فذكر أنه ولد بباجة والمظنون أنه ولد سنة (1113) ثم انتقل إلى تونس سنة (1141) للتضلع في العلوم، فقرأ على جهابذتها كأبي عبد الله محمد سعادة. ودخل المشرق حاجاً، وأقام بمصر وأخذ عن علمائها انظر كذلك (عنوان الأريب ج 2 ص 23).

عبد الله السوسي[1]. وجميع هاته المدارس أوقف عليها أوقافاً من الربع والعقار تَخْرُجُ منها جراياتٌ كافية للشيوخ والتلامذة إعانة على طلب العلم الشريف. واعتنى بتحصين البلاد، وجهز الثغور، وأجرى السقايات العظيمة النفع، وهدم حانات الحفصية، ومنع بيع العنب لمن يعتصر الخمر، وبنى المباني الضخمة ببباردو. ولما امتلأ مكياله ولاقى من عقوق بنيه ما صنعه لعمه وقيدته هموم فقد ولديه ـ بعد أن جمع جميع أموال المملكة بين يديه ـ دهمه الخبر بتجهيز أبناء عمه بالمحلة المنصورة من الجزائر تحت رئاسة حسن باي[2]، فوردت المحلة إلى الحاضرة مع من حشد إليهم من الأعراب حتى نزلوا قبلي الحاضرة، ولج الباشا هو وابنه محمد في القتال حتى انهزما معاً، وقتل ولده محمد قرب الملاسين، وترك ولدين، وهما محمود باي ويوسف باي. واستؤسر الباشا بمحلة الجزيريين وأقام في الأسر عند حسن باي الجزيري على حال سيئة أياماً تعادل أعوام تملكه. ثم أمر بقتله فقتل أواسط ذي الحجة الحرام سنة تسع وستين ومائة وألف.

وقد استكمل استقصاء خبره مع عمه وخبر أبناء عمه المؤرخ الشيخ محمد ابن يوسف الحنفي الباجي في تاريخه المسمى: «المشرع الملكي، بدولة أبناء علي تركي»[3] بما يشفي الغليل. وقد دفن حيث دفن ولداه بتربته. ـ عليه رحمة

---

(1) مدرسة حوانيت عاشور هي أولى المدارس التي بناها علي باشا وكان تأسيسها سنة (1159).
والذي تولاها هو الشيخ عبد الله السوسي كما جاء هنا وفي نزهة الأنظار للشيخ مقديش وفيها ما نصه:
فبنى ـ أي علي باشا ـ أولاً مدرسة بحوانيت عاشور من تونس ورتب فيها شيخنا أبا محمد سيدي عبد الله السوسي رحمه الله تعالى.
ثم ذكر أن الشيخ عبد الله السوسي امتنع عن أخذ مرتب شيخ المدرسة لما مرض وطال مرضه ولما أعلم الباشا بذلك أرجعه إليه بعنوان هدية وحين ذلك قبله منه وتوفي الشيخ عبد الله السوسي سنة (1179) لا سنة (1169) كما في شجرة النور الزكية.

(2) حسن باي المعروف (بحسن العشي) صاحب قسنطينة ذكر الوزير ابن أبي الضياف أنه توفي إثر الحملة التي قام بها على تونس لقتل علي باشا، وكانت وفاته سنة (1170) فإنه دخل قسنطينة مغمى عليه، فمات بها، (الإتحاف ج 2 ص 155).

(3) (المشرع الملكي في دولة علي بن تركي) لمحمد الصغير بن يوسف الحنفي الباجي. =

الله ـ وأرخ وفاتَه كاتبُه الشيخ محمد الورغي[1] بقوله:

[طويل]

مضت دولـةُ الباشـا عليٍّ كـأنـه ... من الدهر يوماً في البريَّة[2] ما عاشا

أتتـه المنايـا وهو في عُـظم قوة ... وجيش كثيف مثله قط ما جاشا

فصـار دفيناً بعـد ما كـان دافنـاً ... فقلت وقـد أرختـه: دفن البـاشـا

[1169]

= وجاء في الإتحاف:

لم يذكر الوزير الكاتب أبو محمد حمودة بن عبد العزيز هذا الخبر ـ أي قدوم محمد باي ابن حسين باي من الجزائر، ومقتل علي باشا.

وألم به وبأخبار الباشا محمد الصغير بن يوسف الحنفي الباجي في تاريخه، وكان بقيد الحياة في ذلك العصر (ج 2 ص 145).

فالمؤلف نقل عبارة الإتحاف.

(1) هو الشاعر الفحل الذي كان من شعراء دولة علي باشا.

وكان الوزير ابن أبي الضياف معجباً بشعره كما جاء في تاريخه حيث يقول:

وإنما نقلنا هذه الأشعار، وهي منافية لما ذكرناه من الاختصار في هذا العقد لأن بعض الأدباء يتزلف بعدم نقلها.

والعجب من الوزير ابن عبد العزيز مع ولوعه بالأدب لم ينقل شعره ونقل ما هو دونه بمراتب، اللّهم إلا أن يقال: إن الغرض في كتابه مدح مخدومه وهو القصد الأول (ج 2 ص 134).

لم يخل الوزير ابن عبد العزيز تاريخه الباشي من شعر الورغي وها هو ما قاله في تقديم بعض قصائده.

وقال الفقيه الأديب الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورغي يذكر يومهم وقد ذكر له عدة قصائد.

والورغي كما قال ابن عبد العزيز كان فقيهاً كاتباً شاعراً.

وترجمته في (العنوان ج 2 ص 36 والشجرة ج 1 ص 348).

وقد ذكر ابن عبد العزيز قصيدته التي يقول فيها:

أكـذب الـحسـن بجمّـال وقـد ... كـان مـشهـوداً كيـوم الـجمـل

فتـح الحَيْـن لـهـا إذ فـتحـت ... بـارتكـاب الخلف بـاب الـزلـل

كما ذكر له قوله:

حـاجـة الـمـدح لـحلو الـغـزل ... حـاجـة الـصب لأولـى الـقـبـل

ومن الطريف أن قصيدته التي ذكرها صاحب الإتحاف إشار إليها ابن عبد العزيز ومطلعها.

هو العز في سمر القنا والقواضب ... وإلا فمـا تغني صـدور المـراتب

وتوفي الورغي سنة (1190).

(2) في الديوان المطبوع: في الولاية.

3 ـ المولى محمد الرشيد باشا باي
[1122 ـ 1172]

هو الأمير أبو عبد الله محمد الرشيد بن حسين بن علي تركي، ولد في ذي الحجة الحرام سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف، فاعتنى والده بتربيته وتعليمه وحنكه بما أهَّلَه إلى المراتب العالية، واختصه بإمامه الشيخ الحاج يوسف برتقيز، فاعتكف على إقرائه العلوم العقلية والدينية إلى أن بلغ خمس عشرة سنة، فأجمع رجال الدولة على طلب تقديمه لولاية الأمحال ليكون وارثَ الملك بعد والده، وألحوا بالطلب على والده، لما رأوا فيه من الأهلية لذلك فأجاب مطلبهم، وقدمه لولاية الأمحال[1] أوائل سنة سبع وثلاثين ومائة وألف، وظهرت فيه الكفاءة لذلك مع ملازمته لقراءة العلم. وأكثر ولوعه بالعلوم المعقولة، وعلى الخصوص الأدب، فقد نسج فيه على منوال ملوك الأندلس، وأبدع رقيق الشعر باعتناء قاضي محلته وأستاذه الشيخ محمد بن محمد الشافعي الشريف [2] ومن

---

(1) في الإتحاف أن الشيخ زيتونة المتوفى سنة (1138) استشاره الباي حسين بن علي تركي في تقديم ابنه للسفر بالمحال فقال له الشيخ:

إن هذا أمر مهم يجب فيه التأني والتثبت وربما يكون سبباً في فتنة المسلمين.

فقال له الباي:

لا تخش فإن إفريقية كسجادة طويتها وجلست عليها.

فارتعد الشيخ فَرَقا من هذه المقالة، وقال له الآن خفت عليك حين اعتمدت على حولك وقوتك، وأعجبت بنفسك (الإتحاف ج 2 ص 104).

وفعلاً وقع ما أشار إليه الشيخ زيتونة، وهذا ما طواه المؤلف.

(2) محمد الشافعي بن محمد بن القاضي أصله من باجة اختص بابني حسين بن علي تركي في الجزائر اثنتين وعشرين سنة. =

انضم إليه من الأدباء. ولم يزل مدة تملك والده في اعتناء عظيم بالعلم والأدب. ولما انقضت دولة والده وخشي سطوة ابن عمه خرج من القيروان بعد طول الحصار هو وأخواه علي باي ومحمود باي ومعهم الموفون بالعهد من أشياخهم وكتابهم وأتباعهم أوائل صفر الخير سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف فقصدوا الجزائر، وطلبوا من حاكمها نصرتهم على ابن عمهم. وبعد طول المقام جهزهم بمحلة خرجوا بها في ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومائة وألف. وكان أمير المحلة حسين باي قسمطينة[1] فوصلوا بها إلى الكاف، وامتدت أعناق الآمال إلى الإسعاف، ووافتهم نجوع العرب بالمدد، وواصلوهم بالرجال والعُدَد، لولا ما غدر به أمير المحلة فردها بدون كبير قتال، وغره في ذلك ما وصله من المال، وتفرقت جموع الحاشدين، وأسِفوا من شماتة الحاسدين، حتى أتى الأسف على أخيهما محمود باي ففاضت نفسه بقسمطينة في الحادي عشر من شوال سنة تسع وخمسين، ولازم الأخوان الصبر مع قوة الرجاء في الله جلّ جلاله.

ولم يكن هذا الأمير في جميع هاته المدة يعلق آماله بغير الله وأوليائه حسبما يعلم ذلك من مطالعة ديوان شعره[2] المملوء بالتوسلات التي حقق الله إجابتها. ومن أعز ما رأيته في ذلك مكتوبه الذي وجهه إلى الولي العارف بالله

= فلما آلت الدولة إلى محمد الرشيد امتزج به أشد امتزاج مع امتناعه من الدخول في الوظائف المَخْزَنيّة.

وقد كان أولاً قاضي محلته وكاتبه الخاص حين الغربة، ثم لما رجع إلى تونس عكف على تأليف كتابه:

إبداء النكات في شرح المحركات.

أي محركات السواكن إلى خير الأماكن.

ولما آلت الدولة إلى علي باي الثاني أخي محمد الرشيد خرج الشافعي مشرقاً ومات حين ذلك.

انظر: الرسالة الخاصة التي كتبتها في ترجمته و(عنوان الأريب ج 2 ص 27).

(1) في الإتحاف أن هذه الحملة تعرف عند أهل تونس (بخطرة الجزيرية الكذابة) لوقوع الحرب على بعد من العاصمة (الإتحاف ج 2 ص 129).

الخطرة المرة، تقول ما ذكرته إلا خطرة، لكن في العرف لها استعمال آخر، هو الحرب.

(2) ديوان شعره منه ثلاث نسخ في خزانة كاتبه إحداها قلمية والأخرى مصورة عن دار الكتب الوطنية رقم 198 ر 2 م والثالثة ذكرها في سلافة العناصر.

الشيخ أبي العباس أحمد بن باباس وهو من إنشاء شيخه الشريف الشافعي، ولأهمية هذا المكتوب في واقعة الحال التزمت إثباته منقولاً من خطه المختوم بختم الأمير وهذا نصه[1]:

[الطويل]

رفعت إليك الحال يا نجل باباس[2] وليس لهذا الأمر غيرُك من آسيْ
فأنت نهاراً كوكب النور في الدنا[3] وبالليل نبراس السما أيُّ نبراس
فكن فارساً حامي الذمار بسيفه وجئني بعباس وجئني بمرداس[4]
يحاربني قوم بأصناف مكرهم وجاءوا بأنواع الحروب وأجناس
وما علموا أني بعزك عائذ فأنت لهم يا أيُّهَا الجبل الراسي[5]
وخذ بيدي لله طال تفكري وضربيَ أخماسي زمانا بأسداسي[6]
أجب دعوة المظلوم وَلْتَكُ ناصراً له حين لاذوا النصر يوجد في الناس
وجُلْ جولةً تمحو بها كل ماكر وما كان من ضر وما كان من باس
رجوتك تكسوني من المجد حلة فأنت لأبناء السبيل هو الكاسي[7]
وأحظى بما أرجوه فيك من المنى ويذهب إيحاشي ويُقْدِم إيناسي

---

(1) هذا المكتوب المرسل إلى الرجل الصالح أبي العباس أحمد بن باباس أثبته لنفسه محمد الشافعي في إظهار النكات، كما هنا وإن كان جاء على لسان محمد الرشيد.
وهنا بعض اختلافات بين ما هنا وما في إظهار النكات نشير إليها.

(2) في الإظهار عوض (رفعت إليك الحال يا نجل باباس).
إليك رفعت الحال يا نجل باباس.

(3) في الإظهار عوض (فأنت نهاراً كوكب النور في الدنا).
فأنت نهار نير الكون في العلا.

(4) في الإظهار عوض (وجئني بعباس وجئني بمرداس).
وجئني بعمرو في الوغى وبعباس.

(5) في الإظهار عوض (فأنت لهم يا أيها الجبل الراسي).
فأنت لها يأيها الجبل الراسي.

(6) في الإظهار عوض (وضربي أخماسي زماناً بأسداسي).
وضربي أخماسي لذاك بأسداسي.

(7) في الإظهار عوض (فأنت لأبناء السبيل هو الكاسي).
فأنت إذا أعرى الزمان هو الكاسي.

عليـك سـلام ليت حـامله الصَّبَـا إليـك فلا أحتـاج فيه لقـرطـاس[1]
ولـو أنني اسْطَعْتُ المسيـر لجئتكم فطوْراً على عيني وطوراً على رأسي[2]

أقـول بعد حمـد الله الذي بـه تنجلي الكربـات، وتكشف البليات، وتَسْري[3] النكبات، وتدرأ[4] الرزيات، والصلاة والسلام على نبيّه ومصطفاه، وحبيبه ومجتباه، صلاة تمحو آثار الكرب، وتَهْزم كتائب النُّوَب، إني لما زحف إليّ الزمان بمحاله، وسقاني صِرف كؤوس أهواله، وأجلاني من مَقَرِّي، وكسا بجلباب الخسوف بَدْرِي، وكـرَّ عليَّ بجيوش الكمد، وأعدمني الوالد والولد، فاستنسر عليَّ البُغَاث[5]، وفقد المستصرَخ والمستغاث، لم أزل أستجير من ظلمه فلا أجد مجيراً، واستنصر عليه ولا أوافي نصيراً، فأنا في غمار تلك الحـال، ضجيع أوحـال وأوجال، نـاداني الفكر المـطاع، بما لَبَّـثَهُ القلوب والأسماع، يا هذا لقد جئت شيئاً فريا، ونسيت من لم يك منسيا، أيا هذا الإنسان، المغمى عليه من تداول الأشجان والأحزان، حتى غَفَل عن الملاذ بذوي العرفان، الآسي ما تقرَّحَ مِنْ جِرَاحِ الزمان، تالله لقد حِدْت عن الباب، والتمست الزكاة من غير مالك نصاب، وطالبت الضامن والمضمون حاضر، وتحيرت والأمن ظاهر، أين أنت عن أصفياء الله، وذوي الحمية والجاه، أين أنت عن المولى الذي ربضت الفضائل بناديه، ولبى المنى لمناديه، وعرّجت الآمالُ بأرجائه، وآب قاصده برجائه، وانتشرت معارفه في الأقطار، ووكفت عوارفه كصيبات الأمطار، وكُتِبَتْ على صفحات الزمان مفاخرُه، وصفت بواطنه

---

(1) في الإظهار عوض (إليك فلا أحتاج فيه لقرطاس).
مباشرة كي لا يمس بقرطاس.
(2) في الإظهار عوض (فطوراً على عيني وطوراً على رأسي).
لسرت على عيني أَجَلْ وعلى رأسي.
(3) في الأصل وتتسرى.
(4) في الأصل: وتدرء.
(5) البغاث بالتثليث، وفي المثل (إن البغاث بأرضنا يستنسر).
فسره بعضهم بأن من جاورنا عز بنا، وبعضهم قال: يضرب مثلاً للئيم فيرتفع أمره، والمقصود هنا هذا الثاني.

وظواهره، سابق فَبَرَّزَ، ونال من المحاسن غايتها وأحرز، فأي عبارة تفي بعَلياه وأي رام يطمع في بلوغ مرماه، هيهات هيهات ما هو إلّا غرّةُ هذا العصر، وحسنة من حسنات الدهر، تطلب المجد جاهداً، وتناول النَّيِّرَيْن قاعداً، الجامع بين الشريعة والحقيقة، المتخذ الأتباع رفيقه وفريقه، فانتبهتُ لنداء الفكر من نومتي، وأفقتُ من غفلتي، علمت أني ظمِئت والماء أمامي، وضللت وبجنبي إمامي، وأن المعنيَّ بالخطاب، والموجه إليك ذلك الجواب، وحامل لواء العرفان بلا ارتياب، الآتي من دقائق العلوم ورقائق الفهوم بالأمر العجاب، بقية أهل الإملا، والمدخر للجلى[1]، حامي من بحماه احتمى، مُرْوِي صدى من أتاه على ظما، عمدتي وعياذي، وعُدتي وملاذي، ومنبع إيجاري وإنقاذي، ومقصد تعريجي ولِواذي، نتيجة قضايا الحجا ولا ريب ولا التباس، ومجمع أصناف الذكاء فأنى يضاهيه إياس، مظهر أساس العرفان حين تلاشت[2] الأساس، لابس حلل التربية التي فيه حين نبذ ذلك اللِّباس، مولاي وأُستاذي أبو العباس، سيدي أحمد بن باباس، لا زال مُهْتَصِراً من المعارف والعلوم أفناناً وأيَّ أفنان، آية من آيات الزمان، ناشراً لسنة عنصر آل عدنان.

أما بعد فأيها السيد الجليل، ذا الفخر العريض الطويل، أهدي إلى حضرتكم سلاماً أشهى من البرء للعليل، وأنفع من الماء للغليل، ورحمة الله وبركاته. وأشكو إليك جوى فؤاد عولت عليك أفلاذه، وأعْوَلَ طويلاً وأنت مالكه وأُستاذه، وفارقه وَسَنُهُ، ورافقه حزنـه وشَجَنُه، وهام في طرقات همه، وأمسى أمسه خيراً[3] من يومه، وارتدت على أعقابها آماله، وغدا شذر مذر[4] حاله. وموضوع قضيتي مطال، وشرح قصتي تكل عنه الأقوال، وقد اقتضى الحال سرد بعضها على حضرتكم، وعَرْض أمري على سُدَّتِكم، ليتضح من ينسب الظلم

---

(1) في الأصل للجلا.

(2) هكذا في الأصل تلاشت والصواب تلاشى.

(3) في الأصل خير.

(4) شذر مذر اسمان جعلا اسماً واحداً وبني على الفتح كخمسة عشر، ومحله نصب على الحال، ومذر إتباع، ومعناه التفرق في كل وجه.

إليه. ويظهر الباغي والمبغي عليه، وذلك أن والدنا رحمه الله لما قلد بطراز الولاية، ورشح لهذه الرعاية، اتفق على ولايته أهل الحل والعقد، ورضيه ذوو الاختبار والنقد، ولم يزل راغباً عن الإمارة، راهباً من ورطة النفس الأمارة، إلى أن وَلَّوْه بالرغم عليه، حيث توسم الناس الخير فيه، فقام في ذلك المقام، أحسن قيام، وعامل الناس بالرفق، وسلك سبيل الحق، واجتهد في إعلاء السنة المحمدية، وإحياء الشريعة الأحمدية، حتى غدا عصره أحسن عصر، ومصره أجمل مصر، والناسُ بحسن سيرته في أمن وعافية، وعيشة راضية، ولعلّه بلغكم ما فعله من الخيرات، وسوابغ الحسنات، ولولا الحرص على تعريف حضرتكم بالحال، وشرح المقال، لما سَطَّرت يمناي في هذه التزكية حرفاً. ولا أعملت في ميدانها طِرفاً[1]. ثم إن والدنا رحمه الله لما جرته الأقدار إلى موقف الملك، وانتظم في ذلك السلك، كان له ابن أخ رباه صغيراً، وسقاه من صنوف الإحسان سلسلاً نميراً، فرأى أن الأقارب أحق بالتقريب، وصلة الأرحام من أحسن ما سعى إليه اللبيب، فقرب ذلك الربيب وأدناه، وخصصه واجتباه، وولاه الولايات. ورَأَّسَه على الجبايات، وصاهره بكريمته، وأسنى في قيمته، وقدمه على الأجناد، وفعل معه ما لا يفعله إلا الوالد مع الأولاد، إلى أن أضحى بالعيون مرموقاً منظوراً، ولم يكن شيئاً مذكوراً، فلما شبّ وازدهى، واقتعد السهى، نبهوا والدنا عليه، وقرروا عنده ما يجنح إليه. وأغروه به، وعلى الاستراحة من نصبه وتعبه، فرأى والدنا رحمه الله أن هذا محض ظن ووهم، وإن بعض الظن إثم، وأن الإقدام على الحد بغير ثبوت شرعي يسخط الرب، ويدخل في ظلمات الذنب، فأعرض عنه إعراض من ثبت لديه بغيه، وما يرتاده سعيه، وتغافل عما يبدو منه وأغضى، واختار الرضى بالقضا، فلم يلبث إلا قليلاً وفر ذلك الربيب ومال إلى بعض الجبال، وجمع عليه أهل البغي والضلال، وأفسد الطرقات، ومنع المعيشات، ورماح بغيه على المسلمين شُرَّعٌ، وأموالهم نهب يوزّع، ولم يزل والدنا يقاسي في حسم ذلك الفساد، والبلاء النازل على

---

(1) الطرف الكريم من الخيل، وهو بكسر الطاء.

العباد، إلى أن أُجلي من تلك الأقطار، و عاد الأمن إلى ما كان، وحسن الزمان، وسرت البلاد والعباد، وانمحى البغي والفساد، وحين وضعت الحرب أوزارها، وراجعت العافية دارها، رأى والدنا أن تأخير الحج المفروض المحتم، كتأخير رأس مال السلم، فعزم على الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه السلام، وأن يلازم ذلك المحل، إلى أن تتلاشى روحه وتضمحل، وعمد أن جمع مجلساً عاماً حضره العلماء الأخيار، والفضلاء الأبرار، وعهد إليّ بالولاية، وقلدني بالملك والرعاية، وبايعني الناس عامة على السّنة المألوفة، والطريقة الموصوفة، وهذا العدو إذ ذاك بالجزائر يفسد في نفوس حكامها، وولاة أحكامها، ويحسن لهم القيام علينا، وإضرام نار الحرب في نواحينا، حتى استزلهم بدهاه، وبلغ من ذلك مناه، وكان ما في علمكم، وتقرر عندكم، وآل أمره إلى أن جرع والدنا الحِمام بيده. وتولى ذبح مربيه ووالده، وغصب لنا ملكنا، واستحل هلكنا، وأقبل على الخلق قتلاً وصلباً، ونهباً وسلباً، وبُدِّلَ الناسُ البأسَ بالعيش الأول، وأفعال الله لا تعلل.

[الخفيف]

هــذه قصتي وهـذا حــديثي وإذا كنت خـاذلي من يجيـر

وقد قصدت جنابك، وطرقت بابك، ويممت فناك، وأملت دعاك، وتوسلت إليك بسيد البشر، الشفيع المشفع في المحشر، أن لا تتركني سدى، ولا تشمت بي الأعدا، يا بدر الصالحين، يا تاج العلماء العارفين؛ جئت إليكم مستجيراً، فالله الله في هذا النازح الوطن، المحالف الشجن، المفارق الألف والسكن، ناشدتك الله لا تنبذني ظهرياً، ولا تتركني نسياً منسياً، أيخيب القاصد حماكم، أيرمى المتمسك بدعاكم، وأنتم أهل الله لا يخيب من بكم استجار، ولا يخشى صولة الأذعار، حَنَانَيْك أي هذا الإمام، جوارك يا علم الأعلام، لألو لك[1] أن تعرض عمن بكم لاذ، وبسواكم استعاذ، وبحرمكم استظل، وبفيض كرمكم أمّ وأمِل، ألا راحمٌ لغربتي، ألا ساد لخلتي، ألا منفس لشجوي

(1) كذا بالأصل ومعناها لأحلف لك، المعنى عليه لا يستقيم تمام الاستقامة.

وكربتي، أليس عاراً عليكم، ضيعة القاصد بعزمه إليكم، فلا تتركوني مضاعاً، وفؤادي ملتاعاً، وقلبي شعاعاً، وأشجاني أجناساً وأنواعاً. كيف أُضام وإليكم قصدت، كيف أحرم وبكم وثقت وتعلقت، كيف لا أظفر بمرادي، وأنتم مخيم ودادي، ومواليَّ وأسيادي. وعليكم اعتمادي، وبهمتكم إمدادي وإسعادي، وإني أتوسل إلى حضرتكم بالله الذي لا إله إلا هو الرحيم الرحمٰن، الرؤوف المنان، وبالأنبياء والمرسلين، وبمحمد الصادق الأمين. والسادة صحابته، والأخيار قرابته، وبالمهاجرين والأنصار، والأقطاب والنجباء والأخيار. وبجميع الأولياء والصالحين، والعلماء الراسخين، أن لا تحرمني من دعاكم، والتوجه بهمتكم، إلى خديم سدتكم، حتى أظفر بمأمولي، وأبلغ غاية سؤلي، فلا خاب من إليكم انتسب، وعليكم أكب، فأغيثوا هذا المظلوم، الكثير الكُلوم، الغريب الديار، المقلب على الجمار، كلا فإني لما وفقت لقصدكم، واشتملت بودكم، وانتميت لذلك المقام، واعتززت بذلك الذمام، ظفرت بالأمل المطلق، ونزلت على المحلق[1]. فمثلكم من يحمي جاره. ويبلغه أوطاره. لا زلتم موقف الآمال، ومحط المجد والنوال. وعائد السلام عليكم، كما بدا من ابنكم المنتمي إليكم، الطالب فضلكم ورفدكم، الفقير إلى رحمة ربه ولطفه محمد باي ابن حسين باي ابن علي. وكتبت بتاريخ أواخر جمادى الأولى من عام 1161.

هذا والغيب قد هيأ لهؤلاء الأمراء أعز السعادة المستدامة إلى أن تخلصوا خلوص التبر، وحنوا إلى وطنهم وساعدهم القدر. وأعيا الناس ما لاقوه من ابن عمهم، وكاتبوهم يستنهضونهم، فجهزهم حاكم الجزائر بمحلة منصورة تحت رئاسة حسن باي أزرق عينه[2]. وأقبلوا مع من حشد إليهم من نجوع الأعراب الذين أعياهم الجلد وقاموا بإمدادهم إلى أن تغلبوا على عدوهم، واتصلوا بتراث أبيهم من غاصبه، واقتص الله لهم دم أبيهم ودخلوا الحاضرة في يوم مشهود، خفقت فيه الرايات والبنود، وهو يوم الخميس سادس ذي الحجة الحرام سنة

(1) يشير إلى قصة الأعشى مع المحلق الذي مدحه بقصيدته المشهورة:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشق

(2) الصواب أنه حسين باي.

تسع وستين ومائة وألف، فهرعت الخاصة والعامة إلى بيعتهم واطمأنت الأنفس وقرت العيون.

[الطويل]

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

وأقام الجزيريون أياماً كدروا بها صفو مشرب الباشا محمد الرشيد باي من إعناتهم وجَرَاءَتِهم وإضرارهم بالأهالي إلى أن أراحه الله من إقامتهم على ما هو مبسوط في كتاب «المشرع الملكي، بدولة أولاد علي تركي» وأقبل الأمن على الأهالي بعَوْدِ الدر إلى معدنه وتنادى الناس بالفرح المديد، من ولاية محمد الرشيد، فاقتعد دست الملك التونسي وعم بإحسانه كل من وفد عليه سائلاً، وأنشأ من حماسة عزةِ نفسه الملوكية قائلاً[1]:

[الطويل]

أيشبهنا في العالمين قبيل ونيل علانا ما إليه سبيل
أرى العز لا يأوي سوى بيت مجدنا ولا في حمانا يُسْتَذَلُّ ذليل
وأعراضنا بين الأنام جواهر وجوهرنا في الخافِقَيْن يسيل
ترى السعد والأيام ملك يميننا تميل على العِلات [2] حيث نميل
صوارمنا تطغى[3] على طول دهرنا لها في رؤوس الدارعين صليل
إذا استقبل الأعداء[4] صارمَ سيفنا فماضيه بالنصر العزيز كفيل
وإن نحن سرنا في كماة جيوشنا وللخيل وقع في الثرى وصهيل
تكاد جبال الأرض من عظم بأسنا تذوب على سطح الثرى وتميل

---

(1) هذه القصيدة لم ترد في ديوانه الذي جمعه بنفسه وإنما وردت في ديوانه الذي جمعه حفيده الأمير محمد الناصر، وهو الموجود في سلافة العناصر.

(2) العلات ـ بالكسر ـ الحالات المختلفة، والشؤون المتنوعة، ومنه (جرى على علاته) أي على كل حال.

وفي سلافة العناصر على العالات ولعلّها محرفة على الحالات.

(3) في السلافة تصغى.

(4) في الأصل الأعداء مشكولة بالرفع، والأولى النصب.

لنا مستباح وِرد كل قبيلة ... ومواردنا لم يستبحه قبيل
دع الجبن والإحجام في طلب العلا ... فللموت وقت ليس عنك يحول
فما العار فيمن مات للعز طالباً ... وليس حياة بالحراز[1] تطول
لنا دوحة المجد التي فرعها سما ... وقد طاب أعراق لنا وأصول
ولم يرضنا رأي الورى وعقولهم ... وإن كان آراء لهم وعقول
وكل عليم في الزمان أضفته ... إلى عقلنا في العالمين جهول
لكل خليل في الورى رأي خله ... وليس لنا غير الحسام خليل
وليس سوى نهر المجرة يشتفي ... لنا إن ظمئنا للورود غليل
ولم نَدَّرِعْ شيئاً سوى الصبر وحده ... فليس لنا في الدهر منه بديل
ولم نعتمد إلا على الله وحده ... له العروة الوثقى إليه نؤول
فسقنا إلى الغايات في كل مطلب ... عزيز حسام العز منه كفيل [2]
بنا أصبح التاج المعلى بتونس ... وظل حماها مربع ومقيل
ونحن بنو الباشا حسين مقامُنا ... عليٌّ على كل الأنام جليل
لنا الشِيمة الحسنى لنا الحلم والوفا ... لنا الشرف الأسنى فليس يزول

وعند ذلك استعمل من الحلم وكرم النفس ما استبقى به عز دولته حتى اجتمعت عليه القلوب، فمن حسن صنائعه التي اصطنع بها الرجال ما قيل من أنه لما دخل إلى الدولة جمع جميع ما وجدوه عند ابن عمه من المكاتيب وجمع لها رجال الدولة وأعيان العرب والأهالي وأمر بحرقها بين أيديهم حتى لا يعتقد أحد أنه اطلع منه على سوء، وطرد الوشاة والسعاة واستعمل العدل والإنصاف والرفق والحلم، وأبقى فضله على عُدَاتِه وغيرهم حتى أصبح جميع الأمة له بقلوبهم. ورأوا أنهم نالوا به غاية مطلوبهم.

وأعاد على الدولة ما كانت عليه مدة المقدس والده بميله الكثير إلى

(1) بالحراز يقصد به الحرز والاحتراس لكن لم يرد الحراز بالمعنى المذكور، لأن الحراز المفاكهة التي تشبه السباب.

(2) حسام العز منه كفيل أي كفيل به لأن الكفالة لا تتعدى بمن وإنما تتعدى بالباء يقال تكفل به لا منه.

عوائدها التي كانت عليها تلك المدة، وساعده البخت فأخصبت البلاد، وأعلن أصحابه ومن كانوا بمعيته بأفراحهم فاستعملوا الآلات المطربة للأنس بعد طول غربتهم، وجرى معهم في ذلك الميدان غيرهم . حتى كانت أيام تلك الدولة كأنها أعراس، وفاقت به وسطى دول بني العباس، ولا سيما وقد أكرم الله هذا الأمير بولديه أبي الثنا محمود باي وأبي الفداء إسمعيل باي اللذين جعل الله الملك مخلداً في عقب أولهما جزاءً من الله على حسن طوية هذا الأمير.

وكان عالي الهمة عزيز النفس ضخم الدولة مشيداً لدعائم شارات الملك وتعظيم شأن الدولة والميل إلى المعالي وحب العلم والعلماء وهو منهم، له ديوان شعر بديع جيد النظم والنثر والتوشيح[1] . وقد نظم قصائد نبوية وتوسُّلِيَّة تدل على حسن وثوقه بالله وأوليائه.

أما قصيدتاه الميمية والقافية فهما آية الله في الإبداع. وقد سمى أولاهما «مُحَرِّكات السواكن، إلى أشرف الأماكن» وهي التي يقول في مطلعها:

[الكامل]

هل زَوْرَة تَشْفِي فؤاد متيم يا أهل مكة والحطيم وزمزم

وشرحها أُستاذه الشريف الشافعي بجزأين ضخمين[2] التزم في شرح كل

---

(1) وديوان شعره حسبما يبدو من النسخة التي بدار الكتب الوطنية أنه من جمعه حيث يقول في تقديم الديوان:

وبعد فيقول عبيد ربه الراجي منه غفران ذنبه المرحوم برحمة رب العالمين محمد باي أمير المؤمنين ابن المرحوم برحمة الصمد العلي أمير المؤمنين حسين بن علي.

انظر الصفحة الأولى والثانية من نسخة دار الكتب الوطنية.

وقد امتلكها أوّلاً علي بن أحمد بن حسونة الحداد وامتلكها ثانياً محمد الصادق بن مصطفى باي.

وأما النسخة الثانية فهي من جمع محمد الناصر بن محمد باي كما في سلافة العناصر.

وهذه النسخة تنقص كثيراً عن النسخة الأولى ولا تزيد عليها بشيء إلا بالقصيدة اللامية المتقدمة.

(2) شرح الشريف من أحفل الشروح، وقد ملأه بكثير من الفوائد أوّله بعد الحمدلة والصلاة على أشرف المخلوقات. =

بيت منها خمسة فنون؛ وهي اللغة والنحو والمعاني والبيان والبديع عدا حاصل المعنى وسمى شرحه المذكور «إظهار النكات، من خبايا المحركات» فكان شرحاً مشحوناً علماً وأدباً حيث اعتكف به مؤلفه على استخراج الدر من بحرها العميق إذ أنه لما استقر به النوى ورجع مع تلميذه ومخدومه إلى أرضه التونسية التزم الإقامة بجبل المنار تاركاً جميع علائق الدولة. وكان الأمير يرسل له ليلة كل جمعة فرسه الأشهب، ولم يمتطه غير أُستاذه المذكور فيحضر عنده ببارادو للمبيت ومن الغد يرجع الفرس المذكور موصولاً بجميل الصلات، ووافر العطيات، وهو في رغد العيش من إقبال السعد، بإنجاز الدهر لجميل الوعد، يرصع تيجان تلك القصيدة، بالجواهر النضيدة، حتى أظهر ما احتوت عليه من النكات، بالآيات البينات، فرحم الله الناظم والشارح، إذ أخصبا تلك المسارح.

وأما القصيدة الثانية القافِيَّة فقد شرحها الشيخ محمد الكواش[1] وقيل شارحها والده الشيخ صالح الكواش غير أني لم نطلع عليه.

وقد عمّ فضل هذا الباشا سائر المُوفين بعهده من أصدقائه ومن أدركهم من رجال دولة والده إلى أن مرض نحو العشرة أيام[2] وأدركته المنية ليلة الاثنين الرابع عشر من جمادى الثانية سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف، ودفن بتربة والده عليه رحمة الله. وقد رثاه الشيخ محمد الورغي بقصيدة كتبت على قبره وهي قوله:

= هذا وإن محمداً الملقب بالشافعي بن محمد بن القاضي يقول:
لما حُمَّ الاغتراب والاعتراض، ولم ير للدهر عن ذاك إضراب ولا إعراض، إلى آخره.
ومنه نسخة بخزانة كاتبه وهي تامة في جزأين.

(1) شرح القافية تردد المؤلف هنا في نسبة هذا الشرح إلى الشيخ محمد بن صالح الكواش أو إلى والده الشيخ صالح والصحيح الثاني كما جاء عن الشيخ ابن أبي الضياف وغيره.
وهذا الشرح يوجد منه الجزء الثاني وقد امتلكه الوالد المرحوم محمد الصادق النيفر المتوفى سنة (1356) وهو الآن عند ابنه الأكبر شقيقي الشيخ أحمد المهدي النيفر حفظه الله.
والشيخ صالح الكواش توفي سنة 1218 وابنه محمد توفي سنة 1232.
وقد اختصر هذا الشرح الشيخ أحمد بن حسين القمار المتوفى سنة (1285) كما ذكره في العنوان ج 2 ص 66.

(2) في الأصل: العشرة الأيام.

[الكامل]

هـذا ضـريـح للإمام[1] الأمجـد ... نجمِ الملوك السيـد ابن السيـد
علم غــدا للقَاسِمَيْن[2] مجــاوراً ... فأضا أمامهمـا [3] ضياء الفَـرْقَــد
لاقى بــرأفتــه الـعبــاد فــربــه ... يلقـاه بـالغفــران يـوم المــوعـد
عم الأنــامَ الهـديُ في أيَّــامِـه ... إحكـام حكم قـل من لم يهتـد
فـالحلم شيمتـه وحليتـه الـرضـا ... والخيـر فيه لمن يـروح ويغتدي
يـا واقفـاً بضـريحـه سـل ربـه ... كــرمــاً يمتـعــه بحــور نُـهَّــدِ
واقــرأ لـه أم الكتــاب هـديــة ... فعسى يفـوز بـرحمــة لم تنفـد
بشرى له إذ جـاء في تاريخـه: ... (يا حسن حـور زينت لمحمد)

[1172]

(1) في الديوان المطبوع: للهمام.
(2) في الأصل القابسين والتصويب من الديوان.
(3) في الأصل: فأضاء بينهم والتصحيح من الديوان.

4 ـ المولى علي باشا باي
[1124 ـ 1196]

هو الأمير أبو الحسن علي بن حسين بن علي تركي ولد سنة أربع وعشرين ومائة وألف، ونشأ بين يدي والده في التدريب والتهذيب وقراءة العلم الشريف على الشيخ الحاج يوسف برتقيز، وأكثر ميله إلى العلوم الدينية لا سيما الحديث النبوي، ونشأ على ذلك إلى أن غاب غيبته ورجع رجوع الدر إلى معدنه صحبة أخيه يوم الخميس سادس ذي الحجة الحرام سنة تسع وستين ومائة وألف وتمت البيعة لأخيه فقلده هو ولاية الأمحال ولازم السفر بالأمحال لاستخلاص الجباية مدة.

وبعد انتقال أخيه أجمع أهل الحل والعقد على تقديمه للإمارة فبايعوه يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الثانية سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف، ووفدت عليه الوفود بالتهنئة، واستقر على كرسي المملكة وأقرَّ رجال دولة أخيه على مناصبهم وقرر الأمور على ما كانت عليه واستعمل من الرفق والحَنَان ما جلب به جميع القلوب.

واصطفى لمجلسه العلماء ودخل في زمرتهم مع ما له من الذكاء والمشاركة في العلوم وحب المحاورة وملازمة رواية صحيح البخاري بنفسه يستحضر للمبيت عنده كل ليلة طائفة من العلماء للمسامرة على العلم وسرد الكتب المهمة والمحاورة فيها، وكثيراً ما يورد عليهم المشكلات، والإشكالات من توقُّفاته ويديرون في ذلك كؤوس محاضراتهم ومحاوراتهم ويجزل عطاء المُجِيد منهم. ومن ذلك توقفه في مسألة إجزاء أداء النذور في وقت الكراهة مع

أنه وقت إثم، وقد كتب له في المسألة شيخ الإسلام البارودي[1] كتابة حرر فيها إشكال الأمير والنصوص التي توقف في الجمع بينها بما يدل على رتبة الأمير في العلوم الدينية.

وقد اتفق له أيضاً أنه كان يقرأ تفسير القاضي البيضاوي والعلماء بين يديه فمرت به عبارة فيها مخالفة بين الضمير ومفسره في التذكير والتأنيث فسأل عن وجهها فلم يحضرهم الجواب ثم أجابه الشيخ عبد الكبير الشريف[2] بأن ذلك لمراعاة الخبر فاستحسن جوابه وأجزل صلته حتى قال بعض الحاضرين: إن هذا الجواب الذي أجاب به الشيخ مشهور مسطر تحت كل ورقة فقال له الأمير: وهلا أجبت أنت بهذا الأمر المشهور؟ ثم قال لهم: إني لم أُعْظِمْ جائزة الشيخ استغراباً لما أجاب به وإنما قصدت بذلك إظهار تعظيم أهل العلم وترغيب الناس في تعليمه والحث عليه. وبمثل ذلك كان العلماء لا يتخلفون عن مجلسه وهو يوسعهم براً وكرماً، مؤدياً لحقوق احترامهم الواجب، حتى أنه لم يشرب الدخان في مجلس اجتماعهم، ويتكلف في ليالي الشتاء الخروج لإجل التدخين حتى لا يرتكب ذلك بينهم. ولما راوده بعض العلماء على عدم الخروج متعللاً له بعدم الفرق بين دخان الاستنشاق المستعمل عند جميعهم وبين التدخين، أجابه بأن عموم كراهة رائحة التدخين فَارِقٌ بينهما وأنه يجتنب ذلك قياماً بواجب حق علمهم.

وفي مجلسه العلمي كان اجتماع الشيخ محمد الشحمي[3] مع الشيخ

---

(1) ستأتي ترجمته في المسامرات.

(2) عبد الكبير الشريف هو عبد الكبير بن أحمد الشريف أخذ عن والده وأخذ عنه أعلام منهم ابناه الشيخ حسن ومحمد والشيخ صالح الكواش.
وتوفي الشيخ عبد الكبير الشريف سنة 1206.
وقد حكى ابنه الشيخ حسن الشريف في حواشيه على قطر الندى ص 17 أنه كان الوحيد في جواب عن مسألة نحوية بمجلس الباي.

(3) الشيخ محمد الشحمي التونسي أبو عبد الله كان أحد المبرزين في العلوم العقلية، وقد ظهرت مقدرته حين اجتماعه بالشيخ لطف الله العجمي الذي زار تونس في عهد الأمير علي الثاني فإنه أقرَّ له بالتقدم حتى قال له وقد وضع يده على بطنه: ملئت علماً لا شحماً لأن الشيخ كان جسيماً. =

لطف الله الأعجمي[1] شارح أسماء الله الحسنى حين وفد على تونس عام ثمان وسبعين ومائة وألف ووقعت بينهما محاورة في علوم حِكْميّة اعترف في آخرها بفضل الشيخ الشحمي، وكان جسيماً فوضع الشيخ لطف الله يده على بطن الشيخ الشحمي، وقال له: إنها ملئت علماً لا شحماً. وهكذا كان الأمير يجمع بين يديه العلماء وتقع بينهم المحاورات وينثر بينهم نثار الذهب، ويتحلى من اجتماعهم بأحسن حُلِيّ الأدب، ويوسع جميعهم براً وعطاءً. يرجو به من الله جزاءً، ويرجعون من بيته الرفيع ولسان حالهم ينشد:

[الطويل]

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

بل هذا البيت أنشده بين يديه لسان مقال أحد الجلة الحاضرين في بعض الليالي عندما أجزل لهم العطاء من نفائس اللآلي فأصبح تضمينه مجالاً لتسابق فصحاء الشعراء وضمنه جميعهم في قصائد بديعة، من أجلها تضمين الشيخ الحاج حمودة ابن عبد العزيز[2] في آخر قصيدة يخاطب الأمير بقوله:

= وكان ذلك في مجلس الباي المذكور وكانت وفاة الشيخ الشحمي بعد (1190) (شجرة النور ج 1 ص 349).

(1) الشيخ لطف الله هو لطف الله بن محمد الأرضرومي الحنفي، دَارَ الأقْطارَ إلى أن استقر بحلب وتوفي بها سنة (1202).

له:

اختصار المواقف للعضد.

تفسير القرآن.

شرح أسماء الله الحسنى، ومنه نسخة عند كاتبه.

المطالب الموعودة وغير ذلك.

(هدية العارفين ج 1 ص 840).

(2) الحاج حمودة بن عبد العزيز هو الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز (1202).

ترجمت له ترجمة حافلة مع تحقيق ديوانه، وأبياته التي نقلها هنا هي من قصيدة مطلعها:

إليك وإلا ما تشد الركائب ومنك وإلا ما تنال الرغائب

وقد ذكر هذه القصيدة في كتابه (الباشي ج 1 ص 192).

[الطويل]

إذا زارك الـوفد انثنـوا وجميعهم ... من البحر ذي التيار للدر جالب
فيشكرك الركبان من كثرة الجِبـا ... وتشكوك من ثقل العطايا الركائب
ومذ صدوراً ـ والعيس كالنخل إذْرها ... سـألناهمُ كيف العـلا والمنـاقب
«فعاجوا فاثنوا بـالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب»

وقد ثار عليه ولد ابن عمه إسماعيل بن يونس باي وكفاه الله أمره بعد محاربات طويلة في جبل وسلات فمات حتف أنفه بقسمطينة وخلف ولداً اسمه حسن مات بعد ذلك.

ثم إن الأمير حارب الدولة الفَرَانْسَاوِيَّة وانفصل معها بصلح سنة أربع وثمانين. وأعان السلطان مصطفى خان[1] على محاربة الموسكو سنة خمس وثمانين.

وضم ابني أخيه إلى أبنائه حمودة وسليمان وعثمان والمأمون في التعليم والختان والتدريب على أحوال الدولة حتى جهز لجميعهم محلة وجعل الحكم فيها على التناوب بينهم جميعاً.

وقد شاد من المباني والمفاخر ما بقي ذكره، فبنى تربته الشهيرة والمدرسة المجاورة لها[2]. وأقام مكتباً لتجويد القرآن العظيم لصق جامع والده[3] وأسس

(1) السلطان مصطفى خان هو السلطان مصطفى خان الثالث ابن أحمد (1129 ـ 1187) وتولى الخلافة سنة (1171) وفي أيامه اشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الروسية في عهد كاترين الثانية إمبراطورة روسيا.

(2) التربة هذه تقع في الشارع المعروف الآن بتربة الباي، وبقرب هذه التربة المدرسة التي أسسها، وتعرف بالحسينية الكبرى فرقا بينها وبين الحسينية الصغرى التي بجوارها، وهذه الأخيرة من تأسيس أبيه حسين ابن علي التركي وإنما قيل للمدرسة التي أسسها علي باي الثاني الحسينية لأنها من تأسيس أحد رجال الدولة الحسينية، وقد بسط القول على هذه المدرسة ابن عبد العزيز (الباشي ج 1 ص 299).

(3) هذا المكتب بنهج الصباغين مدخله على يمين الداخل في مدخل المدرسة عند باب سقيفتها. وقد تحدث عنه ابن عبد العزيز في (الباشي ج 1 ص 301).

التكيتين لإيواء الفقراء من الرجال والنساء[1] وإطعامهم وكسوتهم وفراشهم وأوقف على جميع ذلك أوقافاً مهمة أجرى بها التعاليم والصدقات الجارية إلى هذا اليوم، وعطل الخمر، وهدم الحانات، وأجرى كثيراً من السقايات، وأقام الجسور، وجدد كثيراً من الزوايا والمساجد، وبنى المباني الباذخة ببارد.

وكان عالماً عادلاً، ذا صيانة وعفاف وفروسية ونجدة وتقى وحلم وكرم، أقام في دولته سوق العلوم والأدب، فكثرت فيها الشعراء وتنافسوا في مدائحه بدواوين من الشعر وأَوْلاَهم من الجوائز والصلات ما بعثهم على الاعتكاف على مدائحه.

وكانت له في منطقة حُبْسَة أبدع حامل لواء شعراء تلك الدولة في وصفها بما يتمنى به أشهر فصحاء الملوك أن يكون له مثلها فيوصف بجميل أوصافها التي وصفه بها هذا الشاعر البليغ، وهو الكاتب الشيخ محمد الورغي إذْ رَصّع إحدى عيدياته يخاطب الأمير بقوله[2]:

[الطويل]

وما فتن الألبابَ مثلك ناطقاً ... بأسهل ألفاظ على المطلب الوعر
وَقَتْكَ أذى المعيان في ذاك حبسة ... ترد على أعضائه شهقة المكر
وعُوِّضْتَ منها في جنانك فُسْحَةً ... يغيب بها ما في الحضيض إلى النسر
وسعت لها تأميل كل مؤمل ... وآويت في أكنافها كل ذي ذعر
وما ضر أن كانت لجودك آية ... كما أن غيم الجو من آية القطر
إذا ما شفعت الميم أتبعت منحة ... أو الباء جاء البر منك على الإثْر

---

(1) التكيتان إحداهما للرجال بشارع القصبة وهي الآن مقر لجنة التنسيق والثانية تكية النساء وراءها بالشارع المعروف بنهج الجلد.
وقد بسط القول على التكية ابن عبد العزيز في (الباشي 1 ص 302).

(2) وهي من قصيدته التي مطلعها:
تنعمت في الأضْحى بأحظى من الفطر ... كذاك تَرَى حاليك في أطول العمر
انظر ديوانه (ص 55 خط). (وص 159 ط. الدار التونسية للنشر سنة 1975).

ولـولا الحيـا والعلم أنـك صـالــح لقلنـا بفيكِ العـذبِ فَـأُفَـأَةُ السحـر
وفيـك وفيهـا رحمــة حين ينـزوي أمـامـك ذو ذنب أو الـطالب البـر
فيــأخـذ هــذا عـن عتابك [1]مهـلة ويـطنب ذا فيمـا يقــودك لـلأجــر
وإن زدت فيهــا عنـد ذاك تبسمــاً فتلك لعمــر الله مَـنْقَـبَــة الفـخـر
كـذلـك فلينعتـك من كـان مغـرمـاً بحبـك وليصدع بمـا فيك من سـر

وقد أفرد له كاتبه المقرب الشيخ الحاج حمودة بن عبد العزيز تاريخاً[2] جمع فيه مفاخر مملكته ودولته واستوفى من خصاله الحميدة وقصائد مديحه ما لم يحط به غيره من المؤرخين.

ولما شاخ هذا الأمير قدم ولده حمودة باي على ابن أخيه محمود باي الأكبر سناً فجعل ولده ولي عهده وأجلسه لتعاطي الحكم بين يديه والسفر بالأمحال ثم توالى على الأمير المرض إلى أن حضر أجله فتوفي يوم السبت الثالث عشر من جمادى الثانية سنة ست وتسعين ومائة وألف ودفن بتربته التي أحدث بناءها قرب ساباط عجم عليه رحمة الله.

---

(1) في الأصل: من غنائك والتصويب من الديوان المطبوع.

(2) التاريخ الباشي هو تاريخ خاص بدولة الأمير علي باي الثاني، وفي ضمن ذلك أدخل الكثير من تاريخ تونس، فهو أشبه شيء بتاريخ العتبي وقد طبع الجزء الأول من الكتاب بتحقيق الشيخ محمد ماضور سنة (1970).

5 ـ المولى حمودة باشا باي
[1173 ـ 1229]

هو الأمير أبو محمد حمودة بن علي بن حسين بن علي تركي. ولد ليلة السبت ثامن عشر ربيع الثاني سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف، وتربى في حِجْر مُلْك والده المعتني به غاية الاعتناء فقد ضم إليه من المربين العارفين بفنون السياسة من لهم عنده ذكر. وقدم لإقرائه العلوم المعقولة والدينية العالمين الشيخ الحاج حمودة بن عبد العزيز، ومن ذلك السلم ارتقى إلى رتبته العالية التي بلغها في الدولة، والشيخ حمودة بن باكير[1] فقرأ عليهما ما أهله لكل كمال، حتى أنه لما استكمل السبع عشرة سنة وأراد والده تقديم خليفة لملكه أجمع نصحاء الدولة على اختياره، فأرسل إلى الدولة العثمانية بطلب تقديم ولده المذكور فأسعفته بذلك على عهد الغازي السلطان سليم خان الثالث[2]، ووجهت له الخلعة العثمانية وأحضره والده بالديوان بالحاضرة وقلده الولاية وتمت بيعته غرة المحرم سنة إحدى وتسعين ومائة وألف، ووفدت عليه الوفود بالتهاني من كل فج وجلس للحكم والأوامر تصدر بختم والده وباشر السفر بالمحلة شتاءً وصيفاً.

وظهرت منه الكفاءه والخبرة وحسن الفراسة؛ أتته امرأة في أحد[3] أسفاره تشكوه افتقاد غلة تينها منذ إبّان إثماره كل يوم لا تجد ما نضج منه مع أن ذلك هو قوت أولادها فأحضرها في خلوته، وأمرها أن تجعل في أسفل كل تينة

---

(1) حمودة بن باكير هو حمودة بن حسين بن ملا باكير قدم جده ملا باكير من بلاد الترك وهذا الحفيد كان عالماً فاضلاً ثقة خيراً قدمه الأمير علي باي الثاني إماماً بسراية باردو، وأوكل إليه إقراء ابنه الأمير حمودة وتوفي حمودة باكير سنة 1220.

(2) سليم خان الثالث (1175) ـ (1223) وقد خلع سنة (1222) وكان توليه الخلافة سنة (1203).

(3) في الأصل: إحدى.

أشرفت على النضج شعيرة، وأمر من الغد بجمع التين الذي يؤتى به لسوق البلد ليطعمه العسكر. ولما حضر بين يديه التزم التأمل في ذات الغلة بنفسه لينظر جيدها من رديها حتى رأى وعاء ملآنا من التين الذي في أسفله الشعير فأظهر استحسانه للغلة، وطلب صاحبه يسأله عن سانيته وعن خدمته لها وضايقه في السؤال حتى تبين منه أنه اختلسه للمسكينة فسجنه وأحضرها وأمره أن يحاسبها على جميع ما استغله من سانيتها.

ولما توفي والده استقل بالمُلك وشمر عن ساعد الجَدِّ في فك أسر البلاد من سلطة الجزيريين، فبنى سور البلاد وأتم بناءه عام سبعة عشر، وأقام سائر الأبراج المحيطة بها والأبواب الشاهقة. وكان تمام بناء الأبراج عام اثني عشر. وأقام القشل الخمس التي في المدينة وهي قشلة البشامقية وقشلة سوق الوزر، وقشلة سيدي عامر، وقشلة العطارين، وقشلة طريق سيدي المرجاني[1]. وأسكن بها من عساكر الترك نحو الأحد عشر ألفاً وأكثر من الاحتفاء بهم والتزيي بزِيِّهم حتى أنه اتخذ لنفسه بيتاً بينهم في قشلة البشامقية وعاوض دار حمودة باشا المرادي التي بالقصبة وبناها لمساكنة جنوده بالحاضرة[2]. وأقام عدة فنادق بالأرباض لسكنى زواوة. واعتنى بعمل المدافع في الحفصية[3] والبارود في

---

(1) القشل هي الثكنات بضم الثاء وهي مركز الأجناد ومفرد القشل قشلة، وهي مأخوذة من قشلا التركية بكسر القاف بالتفخيم وهي منزل العساكر.
وتنطق القشلة في تونس بكسر القاف كذلك لكن بدون تفخيم.
والقشل الخمس هي:
قشلة البشامقية هي المستشفى الصادقي سابقاً، والآن مستشفى عزيزة عثمانة.
وقشلة سوق الوزر استعملت للتعليم.
وقشلة سيدي عامر استغلت لمصالح متعددة.
وقشلة العطارين استعملت بعد ذلك سجناً، وهي الآن دار الكتب الوطنية.
وقشلة طريق سيدي المرجاني استعملت أولاً المدرسة الصادقية، ثم جمعية الأوقاف، ثم الجامعة الزيتونية، ثم الكلية الزيتونية، وأخيراً أُلحقت بدار الكتب الوطنية.

(2) دار حمودة باشا التي بناها في مكان الدار التي لحمودة باشا المرادي هي الدار المعروفة اليوم (بدار الباي) بالقصبة وقد أُضيفت إليها إضافات.

(3) معامل المدافع بالحفصية قد اتخذ بعضها محلاً للجمعية الرياضية الناصرية.

القصبة. وأحضر جيد الأسلحة وأعمل التطلع على أحوال الجند والبر بهم حتى كان ذلك هو غاية شغله يركب إليهم في أكثر أوقاته. وبنى أبراج حلق الوادي[1]. وجدد أبراج الكاف وسورها وجهز جميعها بما تحتاج إليه.

وأرسل وزيره يوسف صاحب الطابع[2] إلى دَارِ الخلافة العثمانية فأحكم وصْلَتَهُ معها سنة عشر.

ولما استكمل جِهازه حشد الأمحال الضخمة وأوعبها أبطال جنده وأرسلها تحت رئاسة سليمان كاهية الأول سنة إحدى وعشرين فنزل بها على قسمطينة ورماها بالكور والبونبة وطال بها الحصار نحو الأربعة أشهر إلى أن أشرف على فتحها فخرجت منها محلة عظيمة للدفاع عنها آل أمرها إلى هزم المحلة التونسية. ثم جهز الأمير أمحالاً أخرى حشد بها جنوده المجندة وأرسلها تحت رئاسة صاحب طابعه يوسف خوجة ووقع النزال مع الجزيريين في سراط[3] فانتصر التونسيون انتصاراً هائلاً، واستولوا على سائر ما احتوت عليه محلة الجزيريين من العدد الحربية وغيرها، ورجعت المحلات المنصورة غانمة في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف. وزينت البلاد وتوالت الأفراح ومن ذلك اليوم نزعت البلاد أطمار مهانة الجزيريين ولبست ثياب العز وأصبحت رافلة في جلابيب أمنها.

وكان قبل ذلك حارب البلنسيان[4] سنة أربع، وبعد الطول انفصل معهم على صلح كان أواخر سنة تسع بعد المائتين والألف.

وثار عليه عسكر الترك ليلاً في شعبان سنة ست وعشرين ومكّنه الله منهم فقمع ثَوَرَانَهم، وأطفأ نيرانهم.

---

(1) أبراج حلق الوادي هي التي بها الآن جامع الخطبة.

(2) هو الوزير الشهير يوسف خوجة صاحب الطابع وقد استشهد سنة (1230) انظر (ج 7 ص 89 من الإتحاف).

(3) سراط واد من فروع واد ملاق ويمر بحيدرة التي هي قرب الحدود الجزائرية.

(4) البلنسيان في الإتحاف وفي سنة 1204 وقعت الأسباب المفضية لحرب الفنسيان وهم أهل فينيزيا. وجاء هنا أن الصلح سنة تسع وفي الإتحاف سنة ست.

ومن مفاخر دولة هذا الأمير الأساطيل التي اتخذها في البحر وغنم بها وسبى وانتصر بها على الجزيريين لما اقبلوا عليه من البحر بأسطول عظيم إلى حلق الوادي سنة ثمان وعشرين فعطب كثيراً من أجفانهم وردهم.

وقد أغاث بقوة جنوده ابني باشا طرابلس لما استنصروا به على عدوهم فجهز لهم المحال تحت رئاسة وزيره وصهره الحاج مصطفى خوجة سنة تسع بعد المائتين والألف،فانتصر بالمنشيةوفر المستولي هارباً فأجلسهم على كرسي إمارة طرابلس وعقد لهم البيعة ورجع غانماً فائزاً بهذا الفخر الذي خلّده لمخدومه وكان من رجال دولته الفائزين بالقرب منه.

وأما بقية رجال دولته فهم: سليمان آغا كاهية المحلة، وخير الدين كاهية دار الباشا وليها بعد سليمان السابق الذكر، والحاج حسن خزندار، والشيخ محمد الأصرم باش كاتب.

وكان الأمير ولوعاً بإكرام الوافدين عليه من ملوك الجهات بحيث إنه خلف للبلاد مآثر ومفاخر لا يحصيها عدد بسبب ما عنده من الغَـيْرة والحمية الوطنية وإعمال الفكر في أمن البلاد وثروتها، وله في ذلك أخبار لا يفي بها غير تاريخ مستقل. وقد تصدى الشيخ إبراهيم سيالة لتأليف تاريخ في مفاخر دولة المذكور وقفت على قطعة منه غير أنه لم يستكمله[1].

ومن منقولات أخباره في الحرص على نفع البلاد أنه كان لا يلبس إلا طَيْلَسان بلد جربة واتفق له أن لبس الطيلسان الكشمير فلم تمض عليه مدة حتى رأى جميع رجال دولته مثله فَفَطِن لكساد صناعة البلاد ورواج السلع الخارجية، وعند حضور موكب العيد أقبل عليهم لابساً طيلساناً من صناعة جربة، وفي ذلك اليوم ترك جميعهم الطيلسان الكشمير، ولبس مثل لبس الأمير.

ومن فرط نباهته أنه وردت إليه حجة في نازلة ادعى المحتج عليه بها أنها

(1) إبراهيم سيالة هو صاحب الثبت المسمى بمنتخب الأسانيد وهو ثبت جمعه لشيخه أحمد بن عمّار الجزائري، وقد أتمه سنة 1204 ومن هذا الثبت نسخة عند الشيخ الكتاني عليها خط ابن عمّار المجيز.

مزورة عليه مع أنها كانت بعقد عدلين لا رِيبة في عدالتهما وهما ميتان والرسم قديم، لكنه مع ذلك رأى من تَلَهُّفِ المدعى عليه بها ما تشكك به في ثبوت ذلك عليه، فأخذ الكاغذ الذي كتبت فيه الحجة وأحضر بعض الإفرنج العارفين بتواريخ إنشاء الكاغذ، وكشف الغيب على أن تاريخ كتابة الرسم كان قبل إنشاء أصل الكاغذ بسنين كثيرة وبالاختبار تبين أن الرسم مفتعل وأن الشهادة مزورة على شهيديها.

وكان متخذاً القبة الحمراء أمام باردو لقبول جواسيسه عشية كل يوم يعلم منهم جميع ما وقع ذلك اليوم حتى انفرد بمعرفة حقيقة ما عليه البلاد وأهلها. وبالجملة فإن هذا الأمير تصرف في المملكة تصرف الأب الشفوق في أبنائه وأحيا لها ذكراً، وفك لها أسراً.

وبنى المسجد الذي قرب القصبة[1] وأقام به الأحزاب الجارية إلى هذا اليوم بما أوقفه عليها.

وكان شهماً حازماً غيوراً، عاليَ الهمة، عزيزَ النفس أبِيَّ الضيم حامياً للذِّمار، غير متحمل للعار، خبيراً بسياسة البلاد، نصوحاً لها، حسن التدبير، محباً للعلماء والصالحين، يباشر المُهِمّات بنفسه مقتصداً في شخصياته، حافظاً لأموال المسلمين عن غير مصالحهم، لا تأخذه في الحق لومة لائم، صادق الفراسة التي كاد أن يطلع بها على الغيب، بحاثاً عن الأحوال، كاظماً للغيظ، أُصيب بفقد ولده محمد المأمون باي فدخل عليه الشيخ صالح الكواش يعزيه وقال له في تعزيته: إن الله ما بولدك ابتدا، ولا عليك اعتدى، فإن رضيك ذلك فيا حبذا، وإلَّا فعليك بذا ثم بذا، وأشار إلى الحائطين بميمنته وشِماله، فاسترجع الأمير ولازم صبره. ولم يزل على اعتنائه بشأن ملكه إلى أن فاجأته المنية بعد مغرب ليلة الجمعة مفتتح شوال سنة تسع وعشرين ومائتين وألف، ودفن بتربة والده عليه رحمة الله ورثاه الشيخ إبراهيم الرياحي بقوله[2]:

---

(1) المسجد الذي قرب القصبة هو مسجد صغير يعرف بمسجد حمودة باشا الحسيني.

(2) هذه القصيدة لم يذكرها صاحب تعطير النواحي. وجاءت في الديوان ص 100.

حكم المنية نافذُ الأحكام ... والدار ما جعلت بدار مُقام
كم فتتت كبداً وكم أبكت دماً ... ولرب عرش ثل بعد نظام[1]
ولربما هان المصاب وفيك يا[2] ... حمودة جلل على الأيام
يفنى الزمان ورُزْءُ فَقْدِك حادث ... يُتْلى على الأفواه والأقلام
إن تَسْخُ جامدة العيون بدرِّها ... فلطالما رَوِيَتْ بكأس منام
أو تلبس الدنيا عليك حدَادَها ... فغروب شمسك مُؤْذِنٌ بظلام
لكن مآثرك التي خلدتها ... أبقت سناك وأنت تحت رِجام
السور ما سوَّاه إلَّا عَزْمُه ... وَمُشَيِّدُ الأبراج تحت ضرام
أما الثُّغور فإنها غُصَصُ العِدى ... وشِفا الصدورِ بآية الإسلام[3]
ولكم سقيت الرعب من شق العصا ... ومزجت كأس سروره بحِمام
من بعد ما بَالَغْتَ في إرشاده ... وغَضَضْتَ جَفْنَ الحِلْمِ غَضَّ كِرَام
حتى أطاعك فيهمُ النصر الذي ... خضعوا به قَسْراً خضوع لِئام
وبلغْتَ أنّك إن رأوا لك عسكراً ... هزموا بلا طعن وسل حُسَام
وغدت بذلك تونسٌ تَفْتَرُّ في ... حلل الهنا عن ثغرها البسَّام
محسودة كعقاب جوٍّ مَنْعَةً ... بشموخها وكَمِيِّها الضِّرغام
والآن فهي لفقده محزونةٌ ... تبكي عليه بكل طَرْفٍ دام
فكأنما عين الحواسد فَوَّقَتْ ... لجمالها عن قوسه بسهام
لما دعا داعي الرضا فأجابه ... مستسلماً للّه في الأحكام
فافسح له اللَّهُمَّ عندك منزلاً ... واسمح له بزيادة الإنعام
ولقولتي حقق بفضلك فيه إذ ... أرَّخْتُ: قِيلَ: ادْخُلْ لَنَا بِسَلَامِ
[1229]

(1) في الديوان: ورفيع عرش ثل بعد نظام.
(2) في الديوان: وأنت يا.
(3) في الديوان: لأمّة الإسلام.

6 ـ المولى عثمان باشا باي
[1230 ـ 1176]

هو الأمير أبو النور عثمان بن علي بن حسين بن علي تركي، ولد ليلة الجمعة الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وسبعين ومائة وألف، وتربى في حجر اعتناء أبيه وعزّ دولة أخيه إلى أن توفي أخوه فاجتمع خاصته ورجال دولته للمشاورة فيمن يقدمونه للولاية حيث إن الملك يستحقه ابن عم أميرهم وهو أكبر الموالي سناً ونفوسهم منبعثة إلى غير ذلك فاجتمع هنالك صهر الأمير المفتي الشيخ الحاج أحمد البارودي، ووزيره يوسف صاحب الطابع، ورئيس الكتاب الشيخ محمد الأصرم، ومن حضر هنالك لموكب ليلة العيد، وعند اجتماعهم استقدموا الموالي الكرام، فجلسوا على حسب مراتبهم، وكان أبناء صاحب الترجمة وشيعته متقلدين سلاحاً خفياً وهم متأهبون للحرب، وقَدِم ابنا عمهم وبنوهما على حالة أمن، ولما انتظم مجلس اجتماعهم بادرهم الوزير يوسف صاحب الطابع بالتعزية والتسلية، ثم استشار جمعهم فيمن يقدمونه للولاية، فأجابه أكبرهم سناً وأعلاهم مجلساً وصاحبها استحقاقاً المولى محمود باي بقوله: إن الأمر واضح، وإنما الخيار بأيديكم في المبايعة، فانتهزها منه فرصة وقال: إنما يرث الميت أخوه، وعجل بالبيعة إلى صاحب الترجمة، وتبعه على ذلك شيعته وتمت له البيعة.

وأصبح على كرسي المملكة بذاته والتصرف بيد بعض المسارعين لبيعته حتى آل الأمر إلى استبدادهم عليه، وكاد أمر الدولة أن ينحل غير أن مدة ولايته كانت خصبة وكثر فيها الرخاء والأمن. وعندما رأى أبناء عمه أشراف الدولة على

خطر الانحلال أجمعوا على خلعه فخرجوا إليه ليلاً مع من قام بنصرتهم، وما الله مريد ظلماً للعالمين، فدخلوا عليه واستشهد بعد هرج أطار نوم تلك الليلة. ومن الغد قتل ابناه صالح باي وعلي باي. وسجن مولوده تلك الليلة محمد باي. وكانت ليلة قتل الأمير المذكور ليلة عاشوراء من المحرم الحرام سنة ثلاثين ومائتين وألف ودفن هو وابناه بتربة والده عليهم رحمة الله[1].

(1) فصّل حادثة مقتل عثمان باشا باي باش حانبه عبد الوهاب فيما نقله على عبد الوهاب في كتابه عن تاريخ عائلته «عبد الوهاب»، في الفصل المعنون مقتل عثمان باي.
صورة فوتوغرافية من المخطوط.

7 ـ المولى محمود باشا باي
[1170 ـ 1239]

هو الأمير أبو الثناء محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي تركي، ولد سنة سبعين ومائة وألف وتربى في حِجْر عناية عمه مضموماً إلى بنيه، وكان هو أكبرَهم سناً وهو المقدم عليهم في استحقاق الملك غير أن عمه آثر لوراثة الملك من بعده ولده أبا محمد حمودة باشا فغض الطَرْف عن ذلك حياءً من عمه وكظم غيظه. ولما انقضت دولة ابن عمه المذكور لم يحتسب أن في رجال الدولة من يؤثر الحيف فكان من أمرهم ما كان في تقديم أبي النور عثمان باشا وعند ذلك أيقن أن المآل هو غَصْب حقهم في ملك أبيه وجده، ثم رأى من اختلال الدولة ما أكد له تهمة اغتيال الدولة حيث رأى أنها صارت طُعمة لكل متناول فجمع أمره ونهض هو وأخوه معتضداً بابنيه وتسلم حقه في ملك أبيه بعد استشهاد ابن عمه ووقعت له البيعة صبيحة يوم عاشوراء سنة ثلاثين ومائتين وألف ولم يختلف اثنان في مبايعته فباشر أمور الدولة بلين ورفق وحسن صنع.

وحيث إن الإمارة أتته على كِبَر السن واعتراض المرض فوض الأمر لابنه وتخير الإقامة جوار سيدي أبي سعيد الباجي بجبل المنار والتنزه في المرسى وأحدث فيها أبنية. وقد ثار عليه جند الترك سنة إحدى وثلاثين واجتمعوا ببطحاء القصبة، وقدموا أحد أشقيائهم فتهاون الأمير بشأنهم وتركهم في ظلماتهم يَخْبِطون فلم يستكملوا اليوم الثاني حتى اجتمعوا لديه، وقتل منهم من استحق القتل وأدرك من خرج وعمّ الباقين بحلمه وعفوه وكفى الله المؤمنين القتال.

وقد بنى الأبنية الباذخة، وشيد من فضله القواعد الراسخة، فأقام كثيراً من

المشاهد والزوايا وأنفق الأموال العظيمة في جلب الأقوات الكافية لسد خلة المملكة في مجاعة عام ستة وثلاثين وعقد الصلح مع الجزائر بشروط مرضية وتمّ انعقاده في جمادى الثانية سنة ست وثلاثين.

ومن رجال دولته سليمان آغا كاهية المحلة والحاج حسن كاهية دار الباشا والشيخ محمود الأصرم باش كاتب أما عمدة الدولة ووزيرُها لديه فهو الشريف العربي زروق خزندار وكان من أبناء أعيانها، المتغذين بعذب لبانها، وهو أبو عبد الله محمد العربي[1] بن محمد بن أحمد بن عمر زروق بن أبي القاسم بن علي بن أبي رياح فرج بن أحمد بن أبي عمران بن موسى بن عبد الله بن علي بن فرج بن محمد بن عبد الله بن داود بن سليمان بن إدريس بن محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. قدم جده أحمد بن عمر زروق من الغرب إلى حاضرة تونس صحبة الأخوين والده عمر وعمه الشيخ محمد زروق صاحب زاوية رَبَض باب السويقة على عهد المقدس الباشا حسين بن علي ونال عنده الحُظوة وحج بيت الله الحرام. ولما رجع امتحنه الباشا علي وفر ولده محمد والتحق بالموالي إلى أرض الجزائر، ونال منهم القرب حتى أنهم لما عزموا على العود إلى الحاضرة استودعوه الحريم هناك إلى أن أخذوا قرارهم فاستقدموه بمن معه من حريمهم وكلفوه بمهمات وجرت على يده أبنية باردو المعمور. ولما توفي أقيم في خدمته ولده المذكور وجرى على يده إصلاح حصون الكاف وغيرها من أبنية الأمير حمودة باشا ولما أفضت الدولة إلى صاحب الترجمة الأمير محمود باشا استخلصه للوزارة فأحيا به خطة خزندار وأولاه إياها

---

(1) أجمل هنا حياة محمد العربي زروق التي أفاض فيها الوزير ابن أبي الضياف في (الإتحاف ج 7 ص 130 إلى 133).

وأفاد هنا شيئاً لم يذكره الوزير ابن أبي الضياف وهو سلسلة نسبه التي يبلغ بها إلى سيدتنا فاطمة البتول.

والعجب من المؤلف أنه لم يذكر أنه مات مقتولاً وإلى ذلك أشار بعض مؤرخيه من الشعراء. تاريخه: وافى علاك شهيداً.

ثالث ربيع الأول سنة ثلاثين ولم يزل في خدمة الدولة إلى أن ناهز من العمر السبعين سنة وأدركه الحِمام ثالث عشر صفر سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف.

وكان هذا الأمير المحمود الأخلاق، الطيب الأعراق، المشتهر بالحلم في سائر الآفاق، لَيِّناً سمحاً كريماً سهل الجانب قنوعاً، ذا بر وحنان تعاطى الشعر غير أنه لم يصل فيه للنسج على منوال والده، يحب الخير للعموم ولا يرضى السوء لأحد، كثير العفو كريم النفس.

قضى مدة دولته في أمن وخفض عيش وجذل قلب وسرور إلى أن حضرته المنية فتوفي ثامن رجب الأصب سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف ودفن بتربة عمه عليه رحمة الله. وقد رثاه الشيخ إبراهيم الرياحي بقوله:

[الكامل]

ما مات من يبقي الثنا ذكراه ... ويمينه ظفرت بكل مناه
كالسيد الباشا الرضا وهو الذي ... طيب اسمه يُهْدي شذا معناه
ملك إذ عد الملوك فإنما ... هُو صالح قد فاق في تقواه
أحنى على الضعفاء من لين الحشا ... وأمنُّ مِنْ أرواحهم رُحْماه
وهو الذي بسط الهناء بيُمْنه ... فالهرج ما ناب الورى بدجاه
سبحان من جمع الكمال لمفرد ... لم يحكه في ذاك إلّا ابناه[1]
ثم اختفى كالشمس قُرْصاً لا سنا ... فابناه في فلك الحياة سناه
قل للأُلَى سفكوا دماء عيونهم ... أأسىً بما قرت له عيناه؟
لم ينتقل إلا لخير وافر ... فيرى جزا ما قدمته يداه
ولذا بحسن الظن قلت مؤرخاً: ... (كان التحيةَ والسلامَ قراه)

[1239]

(1) جاء هذا البيت في الأصل محرفاً كما يأتي:
سبحان من جمع الكمال بمفرد ... لم يحكه في ذا سوى ابناه

ورثاه أيضاً الشيخ أحمد الكيلاني بقوله[1] :

[البسيط]

هي المنيـة لم تـرهب ولم تَهَـب ... تعدو على الأسْد والأقيال في الحجب
كم من قلوب غـدت منها ممـزقـة ... ومن جفون تُفيض الدمع كالسحب
هيهـات لا سـوقـةً تُبْقي ولا ملكـاً ... كـل يصاب بهـذا الحـادث الأشب
فليسـع ذو بصـر فيـمـا يقـربـه ... إلى النجـاة ويحميه من العـطب
كما سعى في طريق الرشد مجتهداً ... نجل الرشيد جليل القـدر والحسب
(محمود) من حمدت في الناس سيرته ... زعيم آل حسيـن شـامـخ النـسب
بيت الفخـار الذي طـالت دعـائمـه ... حتى ارتقت شرفاً عن مركز الشُهُب
هذي الجدود وقد أغناه مـا كسبت ... يمينه من علا عن قـول: كان أبي
دعـاه داعي المنايـا فـاستجـاب لـه ... ولـم يبـال بـمـلك لا ولا نـشـب
وسـار في أثـر الإسـراء محتفـلاً ... بمـا يؤمـل للمخلوق في العقـب
لله يـا رمس كم واريت من شرف ... ومن عفـاف ومن مجد ومن حسب
فـاسعـد بجسم مليـك راق منـظره ... وطـاب مخبـره في العجم والعـرب
لمـا قضى نحبـه أنشـا مؤرخـه: ... (محمود حن لفوز الخلد في رجب)

[. . 1239 . .]

---

(1) الشيخ أحمد الكيلاني هو أبو العباس أحمد بن محمد الكيلاني تلقى عن شيوخ عصره، واشتغل بالتوثيق، ووظف شاهداً على دار البارود بالقصبة، ومع اشتغاله بالإشهاد كان أديباً وأشعاره تبلغ مجلداً كما قال في الإتحاف.

وتوفي سنة (1272) في سن التعمير (الإتحاف ج 8 ص 99).

وهو من الذين ألحقنا تراجمهم بعنوان الأريب.

8 ـ المولى حسين باشا باي
[1192 ـ 1251]

هو الأمير أبو محمد حسين بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي تركي، ولد سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف، وتربى في حِجْر اعتناء والده، وهو في نفسه عالي الهمة. ولما استقل بالملك والده أولاه إمارة الأمحال، فسافر بالمحلة حتى اطلع على سائر حال المملكة، ورتب أحوالها ثم تولى أمر الدولة فباشر الحكم وإدارة أمور الدولة بتخلي والده له، وقام لها قيام الزعيم معتضداً برجال الدولة مثل صهريه حسين خوجة باش مملوك وشاكير صاحب الطابع ومن انضم إليهما من رجال دولة والده، وأحسن التصرف في المملكة والرعايا.

ولما احتضر والده عهد بالولاية إليه، فاستقل بالملك صبيحة الثامن من رجب سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف، ووفدت الوفود من أعيان سائر جهات المملكة للبيعة والتهنئة، فجرى على سننه المستقيم. ولم يَرُعْ الدولةَ والأهاليَ إلا فقدُ شخص والده. فابتدر إلى إنشاء أُسطول تألف من عدة سفن وكَبَحَ ثوراتٍ كثيرةً أخذت تمد أعناقها لروع أمن دولته فصد جميعها بحزمه وعُدَدِه.

واحتفل لعرس أكبر بنيه المولى مَحمد باي احتفالاً بَعُدَ العهد بمثله بحيث إنه أظهر فيه من بذاخة الملك وارتفاع شأن الدولة وبسطتها وعزها ما لا يحيط بوصفه القلم.

ولما أقبل المهاجرون من الجزيريين أوائل سنة ست وأربعين[1] قابلهم بإحسانه وفضله وأحلهم محل الأمن.

---

(1) كان احتلال الجزائر في المحرم سنة (1246) والخامس من جويلية (1830) وقد بسط أخبار هذه =

ثم إنه اتخذ العسكر النظامي من أهل المملكة[1]، ووفدت عليه الخلعة النظامية في جمادى الأولى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف صحبة الداي مصطفى البلهوان كبير حوانب الترك والشيخ أحمد بن أبي الضياف أحد أعيان الكتاب فلبسها في يوم مشهود وتبعه في اللباس المذكور سائر رجال دولته، واعتنى بالنظام وأسس ترتيبه، وابتنى لسكنى العسكر النظامي قشلة المركاض[2] التي لم يعهد لها مثل في الاتساع وإحكام البناء وحسن التنظيم.

وأقام بناء البرج العظيم الذي قرب السيدة المنوبية قرب باب القرجاني[3] وما حوله من السور، وأقام أبنية كثيرة ببارد وحمام الأنف[4] وغيرهما، وبنى عدة زوايا للأولياء بالحاضرة وغيرها لا زال اسمه مخلداً على بنائها، إلى غير ذلك من المفاخر التي غرست حبه وحب ذريته في قلوب كافة أهل المملكة التونسية ولا سيما أهل حاضرتها فإن دولته معدودة عندنا من مواسم الأيام.

وهو الذي أطلع أقمار ملوكها شموساً في دياجي الظلام، فكان بنوه في الخضراء هم زينة أُفْقِها، الراكبون أعز بُلْقِها، وهم الملوك العظام، والسعداء

= الحادثة الوزير ابن أبي الضياف في (الإتحاف ج 3 ص 163).

وأشار إلى هذه الحادثة محمد فريد بك في تاريخ الدولة العثمانية ولكنه ذكر أن فرنسا تذرعت بقضية حسين باي لاحتلال الجزائر (تاريخ الدولة العلية ص 232).

والمتتبع يجد بين كلامه وكلام الوزير ابن أبي الضياف بوناً حيث إن ابن أبي الضياف ذكر تلومات كثيرة لفرنسا تجنباً لاحتلال الجزائر في قوله، ولكن باي الجزائر ركب رأسه، ولم يصغ للنصح مما أدى إلى احتلال هذا الوطن العربي.

(1) العسكر النظامي هو الجيش الذي أُريد اتخاذه على الطريقة العصرية عند ذلك، وكان ابتداء ترتيب العسكر النظامي سنة (1246) و (1832) وكان نظر العسكر النظامي للوزير شاكير صاحب الطابع.

وكان ذلك اقتداءً بالدولة العثمانية حيث تمّ إلغاء الإنكشارية واتخاذ العسكر النظامي على يد الخليفة محمود خان الثاني، وذلك سنة (1241) و (1826).

وفي الحقيقة إن الدافع الأول هو خوف الأمير حسين باي من الخليفة لما كان حجر عثرة في سبيل إنقاذ الجزائر من الاحتلال.

(2) قشلة المركاض هي المبنية في مكان المصلى الذي أسسه أبو زكرياء الحفصي وكان تأسيس المصلى سنة 627 وتاريخها سنة 1244.

(3) برج القرجاني اتخذته الشرطة أيام الحماية مركزاً، ثم هدم أوائل الاستقلال..

(4) بناءات حمام الأنف أتمها سنة 1244.

الكرام. مَحمد باي، والصادق باي، وحمودة باي، وعلي باي، والمأمون باي والطيب باي، والطاهر باي، والعادل باي، ومحمود باي، ومراد باي، وهم الذين ذاع على أردانهم عابق النشر، وعوذهم الله بعدد العشر.

أما محمود ومراد فقد توفيا في الصغر، وأما العادل باي فقد توفي سنة أربع وثمانين، وأما المأمون باي فقد توفي سنة ثمان وسبعين، وأما الطاهر باي فقد توفي سنة سبع وثمانين وأما حمودة باي فقد بلغ إلى ولاية الأمحال وتوفي سنة خمس وثمانين ومائتين وألف، أسبغ الله على جميعهم الرحمة والنعيم، وأدام عز الملك بمن بقي من أصلهم الكريم.

وكانت ولادة المرفع أبي الحسن ثامن عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وارتقى إلى ولاية الأمحال بعد وفاة أخيه أبي محمد حمودة فهو اليوم ولي العهد، أدام الله به ابتهاج ذلك المجد. وكانت ولادة المرفع الطيب الغراسة في ثامن ذي القعدة الحرام سنة سبع وثلاثين بعد الألف والمائتين، أدام الله به للملك أكرم جفن قرير، في ظل دولة مولانا المشير.

وقد تزينت البلاد في دولة صاحب الترجمة مرتين سروراً بسلامته أحداهما حين سلم من عثار كروسته[1]، والثانية لما نَقِه من مرضه[2]، وفي كلتيهما أظهرت البلاد من مفاخرها ما لا حد له من الفُرُش والآلات والتحف والأكسية مما يدل على كمال علو همة أهاليها وغاية لطفهم وودهم لأميرهم.

وكان شهماً هماماً وقوراً، عالي الهمة، محباً لأعالي الأمور، محافظاً على شارات الملك، كريم النفس لطيف الأخلاق، شجاعاً مهيباً، سمحاً كثير

---

(1) كان عثار الكروسة سنة 1235 كما في الخلاصة النقية والإتحاف والكروسة مركوب من اختراعات الإفرنج يجره في الغالب حصانان وهي بأربع عجلات، ولكن عربة الأمير يجرها ستة.
وذكر الشيخ ابن أبي الضياف في دولة حمودة باشا أن الكروسة كانت من اختصاصات الأمير وقتئذ (الإتحاف ج 3 ص 39).
والكروسة لفظة فرنسية (Carrosse) وهي العربة الفاخرة، ثم بعد ذلك لم تبق الكروسة من اختصاصات الباي.

(2) والزينة الثانية بمناسبة الشفاء سنة (1250) وهذا منقول من (الخلاصة النقية للمسعودي).

العطايا، محباً لخير البلاد وأهلها، حليماً، أمنت في دولته البلاد والعباد، وهو بين بنيه قرير العين جذلان الفؤاد. إلى أن حضر أجله فصار إلى جنة المأوى في الحادي والعشرين من المحرم سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف ودفن بالتربة عليه رحمة الله ورثاه الشيخ محمد الخضار بقوله:

[الكامل]

أيقظ فؤادك لات حين منام ... وابك الرسوم بكل طرف هام
وانظر إلى الأيام ماذا أنزلت ... من شاهق لا دَرَّ للأيّام
أخليْن من كسرى محل سريره ... وسلبن تاج الملك من بهرام
وأرَعْن بالحدثان كل مملك ... ونبذن بالجزعان كل إمام
أمم حدا بهمُ الحمام فأسرعوا ... وتبددوا كالعقد بعد نظام
وحواهمُ سلك الفناء كما حوى ... هذا المملَّكَ بعد عز مقام
رحل ابن محمود حسين وانطوى ... كالبرق أسرع في ظلال غمام
فهوى به عيش المكارم واكتسى ... وجه الزمان عليه ثوب ظلام
إنْ ما تحاماه[1] الحمام فإنه ... نَمَّى الحماة لشوكة الإسلام
ولكان[2] حباب الأمور مجربا ... بادي البشاشة سابغ الأنعام
خمدت بدولته الحروب وأخصبت ... فيها الذرى للناس والأنعام
يا واقفاً بضريحه استغفر له ... بعد السلام عليه ألف سلام
وعليه من منن المهيمن رحمة ... موصولة تقضى له بدوام
ما قال لما اقبروه مؤرخ: ... يا قبر أُلقي فيك بدر تمام

[. . . 1251 . . .]

---

(1) هكذا جاء صدر هذا البيت والأصوب أن يكون هذا الصدر كما يأتي:
هلّا تحاماه الحمام فإنه

(2) هكذا جاء هذا الصدر والأصوب أن يكون هكذا:
قد كان نقاد الأمور مجربا

ولعلّ ما رأيناه أصوب هو الذي في شعر الخضار لأن ما ورد هنا هو من تحريف النقل لأن الخضار كان شاعراً فحلاً.

9 ـ المولى مصطفى باشا باي
[1253 ـ 1201]

هو الأمير أبو النخبة مصطفى بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي تركي. ولد عام واحد ومائتين وألف، وتربى في حِجْر اعتناء والده، ولما فوض والده أمر الدولة لإخيه قدمه هو لولاية الأمحال فتولى سفر الأمحال غالب دولة والده وجميع مدة دولة أخيه، فكان أعرفَ الناس بأحوال أطراف المملكة وأحوال الأعراب وأهل المدن والقرى.

ولما توفي أخوه تقدم للملك فبايعه الناس البيعة الخاصة بمجرد وفاة أخيه في الحادي عشر من المحرم الحرام سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف، وبعد ذلك هرع الناس لبيعته وتهنئته. فابتدأ الأمر من حيث انتهى إليه أخوه ولم يغير شيئاً على الدولة، وأعاد المجلس الشرعي للاجتماع بين يديه على عادته السابقة يوم الأحد[1]. ووفد عليه من الدولة العثمانية نيشان أمير الأمراء، فلبسه في اليوم العاشر من شعبان سنة إحدى وخمسين ومعه سيف محلى، فهو أول من لبس النيشان المذكور في ذلك اليوم المشهود، وهو أول يوم ضربت فيه النوبة النظامية.

---

(1) أراد بذلك ما أشار إليه الوزير الحاج حمودة بن عبد العزيز في التاريخ الباشي (ج 1 ص 226).
وهو أن القضايا المعضلة لا يفصلها القاضي الشرعي بمفرده، وإنما يؤخر النظر فيها إلى اجتماع المجلس الشرعي وهما مجلسان.
أحدهما: يقع يوم الأحد عند الباي بقصر باردو يحضره المفتون والقضاة القاضي المالكي والقاضي الحنفي، وقاضي باردو وهناك تفصل القضايا المعلقة على نظر المجلس.
وإن وقع إشكال، أو خلاف أرجىء النظر في القضية إلى اجتماع آخر وقد تطول بعض القضايا إلى أكثر من أشهر حتى يتقرر فيها ما يوضح وجه الحكم.
وأما المجلس الثاني فهو بمحكمة الداي ولما تأسست المحكمة الشرعية نقل إليها.

واعتمد على مصطفى صاحب الطابع وصهره مصطفى آغا وجرى على سَنَنِ أخيه في الاعتناء بالعسكر النظامي وأتم بناء قشلة المركاض وحشد إليها كتائب العساكر في سنة اثنتين وخمسين وهو أول من صاغ نيشان الافتخار ونقش عليه اسمه بالألماس. وقد بنى زاوية الشيخ حسن بن مسيكة. وأحيا مسجد الطراز[1] ورتب به قرّاء ومحدثين. واستناب كبير أهل الشورى من العلماء المالكية الشيخ إبراهيم الرياحي في حج بيت الله الحرام. وكان برًّا بأخيه المقدس وبنيه الكرام مع أن له ولدين وهما أحمد باي، ومحمد الأمين باي. أما الثاني فقد توفي سنة ثلاث وتسعين، وأما الأول فكان ولي عهد والده ومع ذلك جعل ولاية الأمحال يتناوبها ولده ولي عهده المذكور وأكبر أبناء أخيه مرة بعد مرة.

وقد عرف بالرأفة وكرم النفس والذهن الوقاد في فهم ما يرد عليه من النوازل إلى غير ذلك من الخصال الحميدة التي نالها بكرم أصله. وكانت أيام دولته أيامَ راحة وسكون إلى أن أتاه أجله فسار إلى رحمة ربه يوم الثلاثاء عاشر رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف، ودفن بالتربة عليه رحمة الله ورثاه الشيخ محمد الخضار بقوله:

[الكامل]

جـد الـرحيـل إلى أشط قـرار ... والـركب شـد حيـازم الأكـوار
والـدهـر يعبث بـالكـرام وينتقي ... قـبـل الأراذل أنـفس الأحـرار
لم ينـج من حدثـانه ذو مـوكب ... حفـل ولا ذو جحـفـل جـرار
آلى الـزمـان بحِلْفـة مبـرورة ... أن لا يغض الجفن عـن دَيَّـار
منـع البقـاءَ ولا بقـاءَ لـراحـل ... يـطوي سـواد الليـل إثـر نهـار

---

(1) مسجد الطراز لا يزال هذا المسجد إلى اليوم بشارع الشيخ أحمد بن عروس وقد عبثت به أيدي بعض المتسورين على المساجد ولكنه أعيد مسجداً.
وأول من تولى إمامته بعد تجديد عمارته الشيخ محمد البارودي وهذا المسجد يروي به البخاري والختم به ختم حقيقي وذلك في اليوم 18 من شهر رمضان.

نـزل الحمام بسـاحة من دونهـا ... شهب الـدجى ومنـازل الأقمـار
فلذا همت ديم الدموع زواخـرا ... تبكي الـدفين بـوابـل مـدرار
والملك السلطان ليس لـذي يد ... في الـدهـر بـل للواحـد القهـار
هذا الضريح لمصطفى بن أبي الثنا ... نـاهيك من مَلِك عـزيـز الجـار
قـد كـان بَـرًّا بـالـرعيـة رافعـاً ... لـلشـرع أعـلى رتبـة ومنـار
ذا عفـة ونبـاهـة وسـمـاحـة ... وجـلالـة وسـكـيـنـة ووقـار
يعفـو عن الـزلات بعـد تمكن ... فضـلاً ويقبل من ذوي الأعـذار
فعليـه من منن الإلـه عـواطف ... تسقي ثـراه بـرحمـة الـغفـار
لـمـا مضـى لسـبيـله أرخـتـه: ... ماضي له الفـردوس أكرمُ دار[1]

[. . . 1253 . . .]

(1) أثبت الياء في ماض مع أن حقها الحذف، وذلك من أجل إكمال عدد تاريخ الوفاة.

10 ـ المولى المشير أحمد باشا باي
[1221 ـ 1271]

هو المشير أبو العباس أحمد بن مصطفى بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي تركي. ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف، ونشأ بين يدي والده بتربية مصطفى صاحب الطابع إلى أن أتت الدولة إلى والده فتناوب سفر الأمحال مع ابن عمه.

ولما توفي والده تقدم للولاية وأجلسه على كرسيها ابنُ عمه وإخوتُه وتمت له البيعة يوم الثلاثاء عاشر رجب الأصب سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف. فنهض للمملكة نهوضاً لم يسبق له نظير وأرسلت له الدولة العثمانية الخِلْعة السنية ونيشان المشيرية صحبة أرياله بك ومصطفى البلهوان باش حانبه ومن بمعيتهما، وذلك على عهد السلطان محمود خان. فتقلد لباس المشيرية في موكب مشهود صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين من صفر الخير سنة أربع وخمسين ومائتين وألف. وعند ذلك نظم دولته وجمع رجالها، فكان مربيه مصطفى صاحب الطابع هو ذا اليد العليا والمرجع في الأمور، واستوزر مملوكه مصطفى خزندار، وجعل أمر الحرب لنظر مصطفى آغا صاحب الزغاية، ونظارة البحرية لمحمود كاهية، والتنفيذ للداي كشك محمد، وأمور الخارجية لنظر النصراني جوزاف راف[1]. وجمع كتائب العساكر، وبنى الرباطات والأبراج،

---

(1) جوزاف راف أهمل تاريخه الكاتبون وإنما هناك فقرة تشير إليه وقد كان من أصحاب أسرار الباي وترجمانه، وقد وصل إلى رتبة وزير.

وقد جاء في حقه في مكتوب إلى كبير القساوسة بتونس (على يد صاحب أسرارنا الموقر المحترم =

فبنى قشلة الطوبجية سنة ست وخمسين[1]، وأتم بناء قشلة الخيالة سنة ثمان وستين، وبنى رباطات المُحَمَّدِيّة وقصورها وحصونها التي أتم بناءها سنة تسع وخمسين.

واعتنى بالعساكر فجمع تحت رايته المنصورة من العسكر النظامي ما ينيف على الثلاثين ألفاً، واعتنى بتنظيمهم غاية الاعتناء يحضر مواكب تعليمهم بنفسه، وله بجميعهم برور تام مع شدة في الحكم العسكري ووقوف في مقتضيات القوانين العسكرية حتى انتهى في ذلك إلى أخبار يضيق النطاق عن حصرها. وقد أحيا ثغر غار الملح وعمره بالعدد والعدد، وشحن القشلة الكبرى وأبراج حلق الوادي[2] بالرجال والمدافع والأسلحة النارية حتى طار له بذلك صيت عظيم.

= الوجيه الثقة المقرب ابننا الكورير جوزاف راف فهو عم الباي من الرضاع. وقد ذكر الشيخ ابن أبي الضياف استعفاءه ونصه:

وفي أيامه استعفى وزيره في الأمور الخارجية وهو خادم أبيه وعمه من الرضاع الكنت جوزاف راف لمكالمة وقعت بينه وبين قنصل الدولة الفرنساوية الكولير (دي لاقو) فظهر له أن يسلم في الخدمة ويسافر لباريس لمحاكمة القنصل فاستعظم الباي طلب الإعفاء وكاد يعده ذنباً (الإتحاف ج 4 ص 79 و 100 و 177).

(1) قشلة الطبجية جاء هنا أنها سنة 1256 وفي الإتحاف أنها سنة 1255 ونصه:

وفي ذي الحجة سنة 1255 تمت قشلة الطبجية بالمحل المعروف بالقنديل من الفدان خارج الحاضرة وجاءت كأحسن ما رأى راء، ودخلها العسكريون يوم الجمعة ثالث الشهر (ج 4 ص 30).

(2) غار الملح بلد على الساحل الشمالي التونسي ويسميها الإفرنج (بورتو فارينا) أي مرسى الدقيق وقد وقعت العناية بهذا المرسى قبل الحماية الفرنسية، وحين نصبت فرنسا حمايتها على تونس انصرفت العناية الكبرى إلى بنزرت من أجل بحيرتها وقد اعتنى بها من قبل يوسف داي.

وإنما توجهت العناية إلى غار الملح لأنه في خليج صغير يمكن للسفن أن تحتميَ به. وقد أشار في الإتحاف إلى هذه العناية بغار الملح.

ومن مآثر أحمد باي قشلة غار الملح وتوابعها من المباني.

ثم هذه المباني اتخذت بعد ذلك سجناً يسمى (بكراكة غار الملح) والكراكة يقصد بها سجن للأعمال الشاقة.

وحلق الوادي من ضواحي تونس في فم بحيرتها ولعلّ ذلك هو وجه التسمية به وهو أنه حلق البحيرة، وعبّر عنها بالوادي، وقد اعتنى به الحسينيون فأسسوا به القصور وغيرها.

والعناية الحربية بدأت في حلق الوادي من زمن الحملة الإسبانية حيث أقاموا هناك حصوناً. =

ولما لم يكف لذلك مدخول البلاد وَظَّف مُكوساً وأرباعاً وأداءات على الأشياء المبتاعة تَوَفَّرَ بها دخل الدولة. وتقدم لها محمود بن عياد [1] فاستخلصها مضاعفة وهو المصدق في كل دعوى وتكلف بشؤون العسكر من طعام ولباس وغيرهما، فكان هو القابض والدافع، وجميع مداخيل الدولة له وجميع مخاريجها من تحت يده مدة خمس عشرة سنة.

وأقام معمل الملف الذي قرب طبربه[2] على يده وأتم بناءه سنة ستين ومائتين وألف. ولما سافر محمود بن عياد إلى باريس خلفه في قبض الأموال ودفعها في الدولة اليهودي نسيم شمامة[3].

= جاء في المؤنس وفي أيامه ـ أي السلطان سليم ـ تملك النصارى حلق الوادي وبنوا فيه حصارهم المشهور.

ـ الحصار الموضع الذي يحصر فيه الإنسان وهو الموضع المحمي ويراد به هنا الحصن ـ وشيدوا فيه بناءهم الذي لم يشيده شداد. في إرم ذات العماد. وابتدأوا بناءه سنة سبع وثلاثين وتسعمائة، وهدموا أكثر أقواس الحنايا التي كانت لقرطاجنة وأخذوا أحجارها لبنيانه، وجعلوا الرمية على أهل البلاد ـ الرمية أصلها المرة من الرمي، أو الزيادة، والمراد بها هنا الإتاوة المضروبة على أهل تونس ـ من الجير والجص وحصنوه حصانة لم يكن لها نظير، وأداروا به خندقاً وأدخلوا له ماء البحر إلى أن دار به دور السوار وملؤوه بآلات الحرب والرجال وما يحتاجون إليه بحيث صار غصة الحلق ولعلّ هذا هو وجه التسمية له بحلق الوادي (المؤنس ص 175).

وقد بنى به الداي أحمد خوجة برجاً ثانياً لدفع ضرر فرسان النصارى عن مرساه وهم الفرسان بمالطة (ذيل بشائر أهل الإيمان ص 94).

وقد اهتم بحلق الوادي الأمير حسين بن علي تركي حيث فتح بوغازه لدخول الصنادل والمراكب الصغار للبحيرة (ذيل البشائر ص 154). ولكن أحمد باي زيادةً على العناية بتحصينه، أنشأ به قصراً.

(1) محمود بن عياد استحوذ محمود بن عياد على المشير الأول أحمد باي بما يقدمه له من أموال إلى أن دبر حيلة لفراره في سنة 1268.

(2) معمل الملف تحدث عنه بإطناب الوزير ابن أبي الضياف في تاريخه فذكر أن السنة المذكورة تمّ فيها إتمام دار الملف حذو قنطرة محمد باي بطبربة، وكان بناؤها على يد محمد بن عياد ـ محمود ـ.

وقد أرخها شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع بقصيدة جاء في تاريخها.

فجئتُ بـه مـع وصف حـال مؤرخـاً (مصـانـع مـا فـوق البسيـطة نـدهـا)

(الإتحاف 4 ص 76)، ثم إن هذا المعمل تعطل إلى اليوم.

(3) نسيم شمامة قد صنع مثل صنيع سلفه، فألفت في قضيته رسالة خاصة. =

ولما استكمل المشير استعداده خرج بنفسه لتفقد حال أطراف المملكة في جيشه الكثيف في ربيع الأوّل سنة ست وخمسين، واستصحب في سفره قاضي حاضرته الشيخ محمد بن سلامة، وباش كاتب الشيخ محمد الأصرم، وكاتب سره الشيخ أحمد بن أبي الضياف وغالب رجال دولته فطاف الناحية القبلية ودخل

= خلف نسيم شمامة رئيس القباض ومدير المال بتونس محمود بن عياد، وتوفي نسيم شمامة ببلاد قرنة من إيطاليا ـ في 24 يناير سنة 1873.

وترك نسيم شمامة وصية كتبها بخط يده أوصى بها إلى عزيزة زوجة موسى شمامة وإلى ابنها نسيم بنصف مخلفه وإلى ابن أخيه يوسف بربع مخلفه وإلى حفيده للأخ ناتان بن هوده شمامة بالربع الباقي وبالوصية المذكورة حرم من الميراث ابن أخيه وهو القائد مومو شمامة.

وإنما حرمه من الميراث من أجل أن الدولة التونسية مطالبة للقائد مومو شمامة بمطالب مالية تستغرق ما يرثه.

كما أن الدولة التونسية مطالبة للقائد نسيم شمامة بمطالب مالية استولى عليها من الخزينة التونسية وقد دعت الضرورة التي هي ابتزاز أموالها من قبل نسيم شمامة، والتحيل في وصيته الدولة التونسية إلى أن تقوم بقضية ضد هذا المبتز والمتحيل نسيم شمامة وأوكلت أمرها إلى الجنرال حسين مستشار القسم الثاني من الوزارة الكبرى.

وكان ذلك في 15 خمسة عشر من ربيع الثاني من سنة 1290 الموافق ليونية من سنة 1873.

وفي أثناء هذه القضية التي طالت وقد آلت الوزارة إلى محمد خزندار جرت محاولات حثيثة لعزل الجنرال حسين عن المرافعة في هذه القضية، ولكن الوزير محمد خزندار أبَى ذلك.

ولما آلت الوزارة إلى مصطفى بن إسماعيل وقع التدخل لديه لإنهاء القضية على وجه صلحي بما قدره مليونان على أن الوزير ابن إسماعيل تعطى له خمسمائة ألف فرنك إذا وافق على ذلك فلما بلغ الخبر إلى الجنرال حسين أراد التعرض لتلك الصفقة الخاسرة فبادر بالإعلام بأنه يبيع حقوق الدولة بستة ملايين من الفرنكات مع زيادة خمسمائة ألف فرنك ولضمان هذا الثمن اتصل الجنرال حسين بشركة فرنسية (مرسليز) في شراء دين الدولة التونسية على نسيم شمامة فأوفدت الشركة محاميها للاطلاع على دفاتر الدولة، ودفاتر القائد نسيم فثبت لديها أن حقوق الدولة ثابتة لكن وقع تدخل من طرف الموصى لهم من نسيم شمامة حتى لا تشتري الشركة المذكورة الدين الذي على القائد نسيم.

ولما خاف الجنرال حسين من تقلب الوزير ابن إسماعيل قصد تونس من قرنة وصادف وصوله قيام العلماء علي علالة بالزي والوزير ابن إسماعيل حاميه في تلك القضية التي أثارها القاضي العادل الجد محمد الطاهر النيفر القاضي المالكي المتوفى سنة (1311).

فخاف الوزير ابن إسماعيل من قدوم الجنرال حسين في ذلك الظرف فأسعفه بمطلوبه على أن يرجع إلى قرنة في الباخرة التي جاء فيها حسماً للقضايا والمشاكل التي أثارتها وزارة ابن إسماعيل.

وقد اشتبكت هذه القضية أيما اشتباك مما أدى إلى تشعب فيها وتدخلات شتى وقد ألف فيها رسالة (الياه المماليح) رامياً من ذلك جر النفع إليه. وطبعت هذه الرسالة 1307 هـ.

الوطن القبلي وعمل الساحل وصفاقس وقابس وفيها قتل القاتلين لآخذي المكوس التي رتبها وركب البحر ودخل إلى جربة وعاد إلى حاضرته، وبذل في سفره المذكور مالاً عظيماً. ولما رجع أبطل جميع أداء الزيت والزيتون وجعل على شجر الزيتون قانوناً يؤديه سنوياً وأصدر بذلك منشوره الشهير المؤرخ بالرابع من جمادى الأولى سنة ست وخمسين. وأبطل بعد ذلك ملكية العبيد في 28 المحرم الحرام سنة اثنتين وستين[1].

وسافر إلى باريس لمقاصد سياسية فخرج من الحاضرة صبيحة يوم الخميس الرابع عشر من ذي القعدة الحرام سنة اثنتين وستين مصحوباً بخاصة رجال دولته ورجع يوم الأربعاء الثاني عشر من المحرم الحرام سنة ثلاث وستين.

وأقام بناء باب البحر بناء في غاية الضخامة والإحكام، وأتم بناءه سنة أربع وستين[2].

وفي أثناء مدة دولته شيد رسوم العلوم، ببنائه المحكم المعلوم، فجمع آلاف المجلدات من الكتب وأوقفها بجامع الزيتونة[3] وجعلها في صدر الجامع

---

(1) ذكر صاحب الإتحاف ما يتعلق بإبطال ملكية العبيد. وما كتب به المشير الأول إلى شيخي الإسلام المالكي والحنفي وما أجابا به.
وذكر الرسالة المشبوه فيها التي دارت في البلاد.
وكيف وقع التدرج في العتق حيث كان أولاً يتناول بيع الرقيق في السوق كالبهائم.
ثم ثانياً منع خروج العبيد للتجارة فيهم.
ثم ثالثاً أن المولودين بتونس أحرار.
ثم رابعاً تحجير الملكية مطلقاً.

(2) باب البحر هو الباب الموجود إلى اليوم وعليه قصيدة تتضمن تاريخ إتمام البناء حسبما جاء هنا من أنه سنة 1264.

(3) المكتبة العامة في الزيتونة مصدر ثراها مكتبة حسين خوجة المبيعة عليه في الدين الذي تخلد بذمته وسجن في باردو من أجله، وأضاف الباي إليها غيرها.
ولما جمعها أمر أهل المجلس الشرعي بالاجتماع في الجامع الأعظم جامع الزيتونة وأمر الشيخ ابن أبي الضياف بإيصال الكتب من قصره إلى الجامع، وقد حمل الكتب الجند على ترتيب نظامي ثم وقع تطبيق الكتب على دفترها ثم وضعت في الخزائن العشرين، وكتب على كل كتاب منها التحبيس، ورتب لها وكيلين لمناولة الطلبة وكان ذلك في رمضان سنة 1256. =

في عشرين خزانة، وكان إدخالها للجامع في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة ست وخمسين، وأقام بجامع الزيتونة ثلاثين مدرساً انتخبهم من علماء عصره؛ منهم خمسة عشر من المالكية، ومثلهم من الحنفية، ويقرىء كل واحد منهم درسين في الجامع[1] من أي فن شاء ويأخذ ريالين. وعين لإجراء الجراية المذكورة مدخول بيت المال وكان ذلك في السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف. وجمع الأوقاف الموقوفة

= ولم تنقطع عناية المشير الأول بهذه المكتبة فكلما ظفر بكتب اشتراها وضمها إليها.

وكما اشترى لها كتب حسين خوجة اشترى لها كتب الشيخ إبراهيم الرياحي الذي توفي سنة 1266 ونص في تحبيسه على أنه أجرى ثوابها على الشيخ إبراهيم الرياحي صاحب المكتبة.

واستغل الشعراء هذه الالتفاتة إلى جامع الزيتونة الذي كان مصدر إشعاع قبل الحملة الإسبانية، فلما جاءت هذه الحملة المشؤومة أتت على كتبه، وعلى ما فيه حتى تركته بلقعاً، فقد حكى صاحب المؤنس أن سوق النواوريين الذي قرب جامع الزيتونة كان لا يمر المار إلا على الكتب لأن الأسبان ألقَوْا بها في الطريق. وإنما ألقوها بسوق النواوريين لأنه السوق الذي تشرف عليه مكتبة السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي.

وقد خلّد تأسيس هذه المكتبة الأحمدية شيخ الإسلام المالكي إبراهيم الرياحي حيث أنه ألقى خطبة في التحريض على العلم، مبيناً أن أسبابه الآن تسهلت بما في ذلك توفير الكتب لذويها.

وقد سجل هذه الخطبة صاحب الإتحاف في كتابه.

ومن الشعراء الذين امتدحوا الباي على تأسيس هذه المكتبة العلاّمة الأديب الشيخ محمد الطيب الرياحي ومن عيون هذه القصيدة هذا البيت:

فأهدى إلى البيت الكريم خزائناً ... من العلم يفنى الدهرُ، وهي له ذكرُ

وكذلك مدحه على ذلك الشيخ محمد بيرم:

وأنال مَسْجِدَها المعظَّمَ رِفْدَهُ ... وسَقَى مُصَوِّحَ نَبْتِه بِزلاته

وحباه من كُتُبِ العلوم نفائسا ... تزري بنفح الرَّوْضِ في آصاله

(1) هذه عناية ثانية هادفة إلى اتخاذ هذا المسجد العتيق معهداً للعلوم الشرعية.

وفي الإتحاف:

في 27 رمضان سنة (1258) رتب الباي ثلاثين مدرساً، نصفهم من المالكية، ونصفهم من الحنفية، وحبس عليهم دخل بيت المال، وهو وارث من لا عاصب له وكتب في ذلك منشوراً بالذهب وختمه بطابعه وعلقه عند باب الشفاء (ج 4 ص 65).

وهذا المنشور لا يزال إلى اليوم في إطار مذهب عند الباب المذكور، وهو الباب الذي يفتح عند المجنبة الشرقية.

وقد خصصنا ملحقاً لهذا الترتيب التدريسي بالزيتونة.

على الدروس بجامع الزيتونة، وجعلها لنظر وكيل ورتب منها اثني عشر مدرساً[1] ستة مالكية ومثلهم حنفية يأخذ كل واحد منهم ثلاثة أرباع كل يوم عن درسين يقرئهما بالجامع.

وجعل طابعاً للقاضي المالكي[2]. وأجرى على أهل المجلس الشرعي من المالكية جراية دار الباشا التي كان اختص بها المشايخ الحنفية، وذلك في الثاني

---

(1) هؤلاء طبقة دون طبقة من تقدمهم في العلم، وكان ترتيب هذه الطبقة في الاثني عشر مدرساً سنة (1265).

(2) كان الأمر في طابع الأحكام ـ أي الختم الذي تختم به الحجج والأحكام ـ أنه مخصوص بالقاضي الحنفي.

فالقاضي المالكي تجري على يديه الأحكام لكن طبع ذلك يتوقف على طابع القاضي الحنفي، وسنقدم من ذلك نموذجاً في الملحق الختامي.

وكذلك كانت جراية دار الباشا مخصوصاً بها أهل المجلس الشرعي من الحنفية دون المالكية.

وقد أحدثت هذه المساواة بين المالكية والحنفية اهتزازات حركت القرائح الشعرية وإلى ذلك يشير في الإتحاف:

وفي العشرين من ذي الحجة في السنة (1255) أمر الباي بجمع أهل المجلس الشرعي من المالكية والحنفية أمام محراب جامع الزيتونة بين الظهرين، وأرسلني إليهم بمكتوبه الذي مضمونه أنه جعل للعلماء المالكية مرتباً مع الجند النظامي مثل مرتب الفقهاء الحنفية مع جند الترك دفعاً لما عسى أن يتوهم من الحيف في عدم التسوية.

(وكلهم من رسول الله ملتمس).

وقرأ المكتوب على المشايخ إمام المحراب شيخنا صدر المالكية أبو إسحاق إبراهيم الرياحي، ولم يحضرني لفظه.

ولما حَصَلَتْ هذه التسوية المجبول عليها الطبع البشري وقعت في المملكة الموقع الحسن، وعلقت في أعماق بنيها المنن، وأظهرت ما في نفس ملكهم من حب الوطن، وللناس ما ظهر، والله ما بطن.

حتى اهتز لذلك طود العلم، وموضع التقوى الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الرياحي وكاتب الباي بما نصه:

جبرت بإحسان لمذهب مالكِ ... قلوباً كَوَاهَا الكسر يا خَيْرَ مَالِكِ

الأبيات:

وقال العالم الأديب القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة:

نظمت القوم في سلك النظام ... فشغر المالكية بابتسام

إلى آخر الأبيات (الإتحاف ج 4 ص 35).

عشر من ربيع الأول سنة ست وخمسين. وبالجملة فقد صرف جانباً عظيماً من همته في الاعتناء بالعلم والعلماء حتى رأى ثمار غراسته في دولته وأصبحت تونس كثيرة الفحول، من حفظة المعقول والمنقول.

وهو أول من اتخذ عمل المولد النبوي بإحياء ليلته والحضور لقراءته صباحاً بجامع الزيتونة في موكب يحضُره جميع رجال الدولة بملابسهم الرسمية ويحضُره جميع العلماء وأمر بإطلاق المدافع تبشيراً به[1]. وهو من العمل الذي لا يضيع له عند الله.

وحين وقعت الدولة العثمانية في الحرب مع الروس جهز لها من عسكره النظامي آلافاً تحت رئاسة رشيد، وشحن بهم وبعُدَدِهم ومونتهم مراكب عظيمة وَجَّهَها إعانة لخلافة الإسلام على عهد السلطان عبد المجيد خان.

---

(1) الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من الأمور التي اعتنى بها المسلمون منذ أحقاب، فليس أحمد باي أول من اتخذ عمل المولد النبوي كما تبادر لبعض الأذهان بل هو سُنة متبعة وإنما الباي المذكور أعطاها طابعاً خاصاً جرى فيه على سنن الملوك الذين لهم عناية خاصة بالمولد النبوي.

والذي سبق إليه أحمد باي إنما هو عمل ذلك بجامع الزيتونة بحضوره كما أفاده السنوسي وقد فصل تاريخ احتفال هذا الأمير بالمولد النبوي الشريف صاحب الإتحاف وكان ذلك في ربيع الأول من سنة (1257) (الإتحاف ج 4 ص 53).

وحكى لنا ابن خلّكان في وفياته العناية بالمولد الكريم في ترجمة كُوكُبوري.

ذكر ابن خلكان أن كوكبوري هذا هو أبو سعيد كوكبوري ابن أبي الحسن علي بن بُكْتِكِين الملقب الملك المعظم.

وكان له موقف مشهود في موقعة حِطّين الشهيرة التي خضدت شوكة الإفرنج وكانت سبباً في فتح بيت المقدس، وجرت موقعة حطين سنة (583) هـ في شهر ربيع الآخر، ولم يُصَبْ الإفرنج إصابة قاضية منذ خروجهم إلى الشام سنة (491) مثل موقعة حطين كما أفاده أبو الفداء في تاريخه. وذكر ابن خلكان احتفاله بالمولد وعظمته وأما احتفاله بمولد النبي ﷺ فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به (ج 4 ص 113).

وكذلك ابن خلدون يحيى بن محمد في كتابه (بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد) في تسجيله لحياة السلطان أبي حمو (ج 2).

وتكلم على الاحتفال بالمولد حسب السنين التي أرّخ فيها حياة السلطان أبي حمو، وفي احتفاله بالمولد يقول محمد بن يوسف الأندلسي:

أفاض في المولد المختار نائله ... فانظر إلى مُلْتَقَى حُسْنٍ وإحسان

وكان شهماً حازماً، ذا صولة عظيمة، عاليَ الهمة، وافيَ الكرم، يعطي العطايا الباهظة، ولوعاً بتعظيم شأن الدولة، لا يهاب المخاطر، خصه الشيخ محمد بن سلامة بتاريخ ضمنه كثيراً من قصائد مديحه[1].

ولم يزل في صولته إلى أن أصابه فالج عطله مدة وأدركته المنية فتوفي بحلق الوادي ليلة الخميس السادس عشر من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف ودفن بالتربة عليه رحمة الله.

---

(1) تاريخ الشيخ ابن سلامة وصفه الشيخ محمد النيفر في كتابه (عنوان الأريب):
بأنه حذا فيه حذو التاريخ الباشي للوزير الحاج حمودة بن عبد العزيز فقد افتتحه بمقدمة تعرض فيها لتقسيم العلوم وتعاريفها وقال في آخر هذه المقدمة ولعمري إنها تربو على مقدمة ابن خَلدون.
قال الشيخ النيفر:
وددت أن هذه العبارة تمحى من المقدمة (عنوان الأريب ج 2 ص 101).
وإنما قال ذلك صاحب العنوان لأن مقدمة ابن سلامة لو قيست بمقدمة ابن خلدون لاتضح أنها لا تساوي هذه المقدمة الخَلدونية التي كانت أول خَطوة في علم الاجتماع ولا تساويها في قليل ولا كثير.

11 ـ المولى المشير مَحمد باشا باي
[1276 ـ 1226]

هو المشير أبو عبد الله مَحمد بن حسين بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي تركي، وأمه فاطمة بنت محمد بن عثمان بن علي بن عثمان وفاطمة هاته أمها شَلبيـة بنت علي بن مصطفى الشريف ممن عرفوا بالشرف ويلبسون علامته بحاضرة تونس. أما عثمان الأعلى جد فاطمة المذكورة فوالدته تركية بنت حسين خوجة صهر الداي أسطى مراد، ويقال: إن لها شرفاً من قبل أمها، وعلى كل حال فإن المشير المذكور له شرف يتصل به.

وقد ولد سنة ست وعشرين ومائتين وألف، ونشأ في بذاخة عز دولتي جده وأبيه. وزوجه والده بابنة شيخ الإسلام البيرمي الثالث، وأقام له العرس الفاخر الذي جرى على نسق أعراس الملوك العباسيين. وأولم له بدعوة الجفلى[1]، وأظهر فيه من ضخامة الملك ومآثر الفضل والبذل ما لا يدخل تحت حصر، وكان زِفافها إليه ليلة الخامس عشر من شعبان سنة تسع وأربعين ومائتين وألف.

وسافـر في الأمحال على عهد تملك عمه فجعلها عمه بينه وبين ولده يتداولانها إلى أن توفي عمه، فاستقل هو بولاية الأمحال، وباشر خفي الولاية وجليها.

ولما توفي ابن عمه قبل هو البيعة العامة صبيحة يوم الخميس السادس عشر من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف. ووفدت عليه الوفود للبيعة والتهنئة، فزان ملك آبائه وأجداده كابراً عن كابر، وأقر سائر الوزراء

(1) في الأصل الجفلا بالألف.

على وظائفهم، فكان مصطفى خزندار وزير العمالة والمال، ومصطفى آغا وزير الحرب. وجعل خير الدين وزير البحر، والنصراني فيلسين راف وزير الخارجية، وجعل التنفيذ بيد الداي محمد، وأقام صهره إسماعيل السني صاحب طابعه[1]. واستدرك حال المملكة وضنكها، فأمر بتسريح جموع العساكر التي وجدها ولم يبق من عشرات آلافها المتآلفة إلا من بهم الحاجة للحراسة وحفظ شارات الملك، وأجرى على من أبقاهم فيوضاً من الإحسان، وهواطل من امتنان، زيادة على تخليص جراياتهم التي يستحقونها، واستصحبهم معه في تنزهاته وخروجاته الشهيرة، وأطعمهم أعز الطعام من اللحوم والطيور والفواكه والمصنوعات السكرية البديعة، فأصبحوا في نعيم التنعم، وخلد بذلك لنفسه ذكراً حميداً بين جموع السلامة من آلاف العساكر التي انتقاها، ولحفظ الراحة تخيرها وأبقاها. ولما وردت عساكر الجهاد الذين كانوا في دار الخلافة العثمانية أكرم قبولهم وأثنى على صنيعهم الحميد وتلقاهم بغاية البر والإنعام وجازاهم بزيادة الخُمُس في مرتب جميع العساكر النظامية، وكان ذلك في ذي الحجة الحرام سنة اثنتين وسبعين.

وقد أسقط غالب الأداءات التي وجدها مضروبة على المبيعات من الحيوان وغيره مما ضاق به ذرع المكاسب العمومية. وأزال عن الأعراب وسكان القرى جميع ما كانوا فيه من ضيم المكوس وأداءاتها وضرائبها وخطاياها، وفك أسرهم من ذلك كله وعوض للدولة من جميع ما أسقطه وأزاله أداءً معيناً على الرجال القادرين من الأعراب وسكان القرى قدره ستة وثلاثون ريالاً سنوياً لا يكلفون بغيرها، وأصدر بذلك منشوره الشهير المؤرخ بأواسط شوال سنة اثنتين وسبعين، وذلك بعد أن أطلق المقَيَّدين في العسكرية. فاطمأن الناس عموماً وأقبلت الأعراب وسكان القرى على شأن الفلاحة آمنين على كسبهم من الخطايا والضرائب. وساعد البخت بحصول الخِصب العظيم، فأثْرَتْ المملكة ثروة بَعُدَ العهد بمثلها

(1) إسماعيل السني قتل في إمارة الصادق باي سنة (1284) في ثورة العادل باي أخي الصادق المذكور وقد كان لمقتله مع الوزير رشيد تأثير بالغ في الأوساط سواء منها ما هو في دائرة الباي أو في الدوائر الخارجية انظر (الإتحاف ج 6 ص 97).

مع الأمن العام، وكثر التبايع وتعاطي الأسباب، وحَصَل الرخاء وتحسن المعاش، وأباح بيع اللحوم على تراضي المتبايعين، فتنافس القصابون في اختيار الغنم والبقر التي يذبحونها.

وباشر الملك بنفسه، وأحيا وظيفة الحسبة[1] بالاحتساب العام على مصالح البلاد والرعية والأوقاف بحيث أن محتسبه العام قائم في سائر الحقوق العامة بتفقد السجون وإعادة النظر في استحقاق المسجونين، ومن وجده مظلوماً أخرجه، وأقام من خواصه حارسين على تصرف العمال وجواسيس في سائر الأعمال مع ما له هو من الاهتمام بالبحث عن حال الرعية، يخرج للصيد، فينفرد عن الجموع الذين يخرجون معه، ويتقصص أحوال العمال من الأعراب العابرين السبيل. وتشدد في عزل من يشكوه أهل عمله من العمال وإن كان من أقرب الناس إليه، واقتص لهم منهم ما أمكنه حتى حال بين العامل والمعمول، بما فوق المأمول.

واجتهد في تأمين الرعية في الحواضر والبوادي فأعمل السيف في قطاع الطرق والمحيرين لراحة السكان بكثرة السرقة. وقَتْلُهم سياسة شرعية، حتى انقطع المتعاطون للسرقات، واطمأنت العباد والبلاد، وعدل بين الرفيع والوضيع وقبل الشكايات في مجلس حكمه بآحاد رجال دولته وأنصف المظلومين من غير محاباة. وكان محباً لآل بيت رسول الله ﷺ ويعظم العلماء فأبقى على جامع

---

(1) وظيفة الحسبة ـ وهي بالكسر لا بالضم كما يجري على ألسنة الكثرة ـ تكلم على إحداثها في مدة هذا الأمير محمدِّ باي الوزيرُ ابن أبي الضياف، ورام هذا الباي إجراء الناس على السذاجة المتقدمة، وعادات المسلمين، وإن خالفها في نفسه وحاشيته وذويه فقدم صهره مصطفى بن محمد بن محمد بيرم محتسباً فرام تغيير المنكر، وحمل الناس على ما رآه من الحق جملة ولا يخفى أن ذلك كان متعذراً في الصدر الأول، فضلاً عن هذه الأعصار (الإتحاف ج 4 ص 188).

والحسبة إحدى الولايات (أي الوظائف الإسلامية) التي جاء بها الإسلام، وهي كما قال ابن تيمية قد تتداخل مع غيرها من الوظائف.

ليس للولايات حد في الشرع، فقد يدخل في ولاية القضاء في بعض الأمكنة والأزمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر، والعكس وكذلك الحسبة وولاية المال (الحسبة في الإسلام ص 10).

الزيتونة ما تأسس فيه، وأجرى عمل المولد النبوي، واعتنى بتنظيم المجلس الشرعي، فبنى دار الشريعة[1] المعمورة وجعل الحكم فيها يومياً يحضرها القاضيان المالكي والحنفي، ويحضر مع كل واحد منهما في كل يوم مفت من شيوخ مذهبه.

---

(1) دار الشريعة هي المحكمة الشرعية، وهي أول محكمة تضم رجال القضاء الشرعي، فإنهم قبل إحداث هذه المحكمة كان القضاة من الحنفية والمالكية يحكمون ببيوتهم، والمفتون من الصنفين تعرض عليهم الفتاوى وهم في بيوتهم فيبدون آراءهم فيما يعرض عليهم، وفي ذلك من أسباب المراوغة ما يكون مدعاة للتطويل والتزوير، فالقضاء مشتت، وأسباب التحيل ممهدة، والمتقاضون في عناء وشدة وإن كان هناك تنظيم إلا أنه غير كاف.

ودفعاً لهذا كله أحدثت المحكمة الشرعية لينتصب بها القضاة لتلقي الخصومات وللتشاور بين العلماء فكان القاضيان المالكي والحنفي يجلسان كل يوم من الساعة التاسعة إلى الواحدة بعد الزوال فمدة جلسات الحكم أربع ساعات يومياً ما عدا أيام العطل وهي يوم الجمعة، وثلاثة أيام في كل عيد، وهما الأضْحى والفطر، وما عدا يومي الخميس والأحد لحضور المجلسين كما يأتي وفي أيام حضور القاضيين بالمحكمة الشرعية يحضر معهما مفتيان أحدهما من المالكية والآخر من الحنفية.

وخصص يوم الخميس لاجتماع الهيأة الشرعية المتركبة من رئيس المفتين والمفتين والقاضي من المالكية وكذلك من الحنفية، فهناك مجلسان مالكي وحنفي وتركيب كل منهما حسب الصورة المتقدمة.

ويتصدر المجلسين الداي الذي وضع له كرسي خاص به، ووضعت أماكن جلوس المجلس الحنفي عن يمينه وأماكن جلوس المجلس المالكي عن يساره.

وخصص يوم الأحد لاجتماع الهيأة الشرعية بصنفيها بباردو بمحضر الباي.

وافتتحت المحكمة الشرعية في يوم الخميس السادس عشر من ربيع الأول سنة (1273) هـ. وجاء هنا أنه الخامس عشر من ربيع الأول وذلك حسب التقويم القمري بمحضر الباي المشير الثاني محمد باي.

وخطب في ذلك المجلس شيخ الإسلام الحنفي محمد بيرم الرابع (1220 ـ 1278) خطاباً من إنشائه كتب في إطار وعلق في صدر بيت اجتماع المجلسين.

والمكان الذي خصص للمحكمة الشرعية هو ديوان الترك بعد إجراء إصلاحات عليه من أوقافه وتولى الإشراف على ذلك شيخ الإسلام المذكور (الإتحاف ج 4 ص 211 و ص 220).

وقد نقل الشيخ ابن أبي الضياف في تاريخه نص الخطاب الملقى من قبل منشئه وملقيه الشيخ بيرم الرابع، والمعلق بدار مجلس الشريعة.

وقد كانت أنظار رجال دار الشريعة عامة تتناول كل القضايا بدون تخصيص غير ما يحكم فيه الباي مما رخصت فيه السياسة الشرعية من الاعتماد على القرائن وشهادة الحال مما يفعله صاحب الشرطة أو الشكايات من العمال. =

ويجتمع جميع المجلس الشرعي في كل يوم خميس لفصل نوازل الخلاف بمحضر الداي فكان هو المؤسس لديوان الشريعة المطهرة، وقد فتحه صبيحة يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف، وحضر يوم فتحه بنفسه اهتماماً بشأن الشريعة الإسلامية أدام الله عزها.

= أما نوازل المعاملات والقصاص فإنها راجعة إلى القضاة، والمحاكم الشرعية.

ويرجع إلى نظر الداي نوازل الغصب على خلاص الحقوق الثابتة فهو أشبه بأعوان التنفيذ.

ثم إنه في سنة (1896) تأسست المجالس العدلية، ومنذ ذلك الوقت انقسمت المحاكم إلى قسمين شرعية وعدلية.

واختصاصات الأولى بمسائل الزوجية والمواريث والاستحقاق وبقيت على ذلك إلى أن وقع إلغاؤها.

واختصاصات الثانية الجنايات والجنح والديون وغير ذلك من القضايا التي لا تتناولها المحاكم الشرعية من بقية أحكام المعاملات.

ومن الاصطلاحات التونسية أن لفظ القاضي اختص بالحاكم الشرعي، وأن الحاكم اختص بالحاكم العدلي حتى أنهم يقولون القضاة الشرعيون، والحكام العدليون.

ويرجع ذلك إلى أن لفظ القاضي المتعارف في البلاد الإسلامية أنه من الحكام الذين يعتمدون على الأحكم الشرعية فلما أحدثت المحاكم العدلية بجانب المحاكم الشرعية حافظوا على لقب القاضي، ولم يعطوه للذي يعتمد في أحكامه على القوانين المستمدة من المجلات.

ثم بعد ذلك صار يقال: قاض شرعي وقاض عدلي.

النقلة من المحكمة الأولى الشرعية:

ثم إنه في وزارة البكوش الثانية من سنة (1371) إلى سنة (1373) وقعت إصلاحات المحكمة الشرعية ونقلت من المكان المعروف بالديوان إلى دار تكية العُجَّز، ونقلت تكية العجز إلى ضواحي البلد.

ثم إنه في سنة (1376) و (1958) وقع ضم اختصاصات المحاكم الشرعية إلى المحاكم العدلية وبذلك وقع إلغاء المحاكم الشرعية.

وجه تسميتها بدار الشريعة:

وإنما سميت حينذاك بدار الشريعة لأن قانونها القانون الشرعي المستمد من الفقه الإسلامي، والاعتماد في الفقه الإسلامي على المذهبين الحنفي والمالكي وإنما كانت المحكمة الشرعية منقسمة إلى محكمة شرعية مالكية ومحكمة شرعية حنفية لأن القطر التونسي أغلبيته مذهبهم المذهب المالكي، وهو الذي كان معتمداً وحده في سائر البلاد التونسية فمراعاةً لمذهب الأغلبية التونسية اعتمد المذهب المالكي.

وأما إحداث محكمة شرعية حنفية فمن أجل وجود الجالية التركية ومنها حكام البلاد فلذلك أحدثت المحكمة المذكورة.

وأتم الجسر العظيم الذي ابتدأه والده على وادي مجردة في طريق بنزرت، فكان إتمامه بغاية الإحكام. وأقام جسراً بين سوسة والمنستير قطع به سعي الثعابين الجارية، والمزالق السارية، فتواصل ما بين البلدين، بدون أين، وأصلح قنطرة وادي أبي حميدة بالفحص قرب زغوان. وبنى زاوية الشيخ سيدي مدين التي ببطحاء سيدي المِشْرِف[1] وأتقن بناءها ويسر بها مرتفقات السكنى لأهل الحرمين الشرفيين، وأقام بها أحزاباً وأوراداً أوقف عليها أوقافاً لم يزل ثوابها جارياً عليه.

وأمر بجلب ماء عين زغوان العظيمة الماء المنهمر لكفاية البلاد مؤونة العطش، فجلب الماء في الأنابيب الحديدية الضخمة من بلد زغوان إلى تونس[2]، إلا أن وصوله كان بعد انتقاله إلى جنة النعيم. وأقام المجلس

(1) زاوية الشيخ أبي مدين هو أبو مدين اللعلاعي وهي الآن بالشارع المعروف بالحجامين من ربض باب الجزيرة وقد اختلفت عليها الأيدي مما عرضها للخراب.

والشيخ أبو مدين له أحباس في بيت المقدس، وله زاوية هناك واللعلاعي لعلّه نسبة إلى لعلع على غير قياس وهو منزل بين البصرة والكوفة. وربما كان اتصاله بالمشرق لأنه أو أحد آبائه من المشرق.

(2) ما عده المؤلف من حسنات المشير الثاني في جلب ماء عين زغوان نظر إليه من جهة واحدة وهي كفاية البلاد من الماء عده الشيخ الوزير ابن أبي الضياف ورآه نكبة وذكر أن جلب ماء زغوان بلية كبرى على البلاد.

وإنما رأى ذلك من أكبر البلايا من أجل أن مهندساً فرنسياً اسمه (كولان) تعلق بقنصل فرنسا العام في تونس وهو ليون روش ورشاه بالمال ليخضع الباي إلى إرادته وفعلاً حسن إليه جلب ماء زغوان حتى وعده الباي بإتمام مرغوبه.

فلما استشار في ذلك وزراءه أجمعت كلمتهم على عدم فائدة ذلك إلا الوزير مصطفى خزندار الذي حسن له ذلك لما رأى من أن عزمه شديد على إتمام رغبة القنصل الفرنسي، والوزير خير الدين الذي لازم السكوت، ولعلّه اتخذ هذا الموقف لأنه كانت له ميول فرنسية فلم يرد أن يقف في وجه مشروع لممثل فرنسا الذي له رغبة ملحة فيه، وإن كان قال له بعد أن أبان الأمير أنه أعطى كلمته للقنصل فلا رجوع: أي فائدة لجمعنا حيث أعطيت كلمتك.

واختلاف النظرتين بين السنوسي وابن أبي الضياف هو أن الأخير نظر إلى أن الماء جلب بديون أدت إلى خراب الخزينة التونسية كما أن العقد لم يتم على وجه تحفظ به تونس حقوقها، أما السنوسي فهو يرمي إلى سرد المحاسن ولذلك اقتصر على أن الماء كان سبباً لإزالة عطش البلاد.

وجلب ماء زغوان لولا أن الحكومة التونسية تداينت لإجل جلبه لكانت له منفعة ملحوظة وزاد الطين بلة أن الاتفاقية تصرف فيها الممثل الفرنسي بصورة أضرت بالميزان المالي التونسي.

البلدي[1] لتنظيم البلاد والنظر في عامة مصالحها، وجعل أعضاءه من أعيان أهل البلد تحت رئاسة مستشار خارجيته حسين فكان هو أول واضع لهذا النمط الكفيل بمصالح البلاد في ربيع الأول سنة خمس وسبعين ومائتين وألف. وكانت مدة دولته أحسنَ من الابتسام في ثَغْر الأيام.

وُلِعَ بسكنى المرسى[2]، وأقام فيها الأبنية الفاخرة الدالة على علو همته، ولازمها في أغلب أحايينه، وضرب حول أبنيته الضخمة فسطاطه الضخم المتسع الرائق الكسو والابتهاج، وجعله محكمته يجلس فيه عند الحكم، ويحضُر به رجال الدولة وأرباب الخِدمة، وخيام العساكر الحارسة مضروبة حوله وقلوبهم

---

(1) انظر الملحق عدد 1.

(2) المرسى التي بنى بها المشير الثاني كانت تعرف في القديم بمرسى عبدون، ثم عرفت بمرسى جراح باسم الرجل الصالح الشيخ جراح، واشتهارها بمرسى جراح لملازمته الحراسة بالمرسى المذكور.

وبها مقبرة الأشياخ: وقد ذكر من قبر بها من الأشياخ الزركشي في (تاريخ الدولتين ص 52 طـ 2) ومن أشهر الأشياخ المقبورين بها:

الشيخ عبد العزيز المهدوي (ـ 621).

والشيخ حسن الزنديوي (ـ 686).

وقد اعتنى بسكناها الأمير الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود الذي دام ملكه من سنة (899) إلى (932) فأنشأ بها القصور الشاهقة والبساتين الشهيرة (الخلاصة النقية ص 84).

وعرفت من أجله بالعبدلية وبقايا قصره تعرف الآن ببرج السلاسل.

واعتنى ببناء قصر المرسى المتحدث عنه أوّلاً الأمير محمود بن محمد الرشيد الحسيني الذي تولى الإمارة من سنة (1230) إلى سنة (1239) واتخذها مسكناً لطيب أرضها وهوائها ومائها (الخلاصة ص 140).

وبعد اعتناء أخيه محمّد باي كما ذكر المؤلف اعتنى بقصرها الأمير علي بن حسين الثاني الذي تولى الملك من (1299) إلى سنة (1320).

ثم اتخذها من بعده من أمراء الدولة الحسينية وهم:

ابنه الهادي باي (1320 ـ 1324).

الناصر باي (1324 ـ 1340).

محمد الحبيب باي (1340 ـ 1347).

وهجر سكنى القصر المعبر عنه بقصر التاج الأمير أحمد باشا الثاني (1347 ـ 1361).

ومنذ ذلك لما فقدت العناية به تداعى للخراب فآل إلى الهدم.

جذلانة مطمئنة بالسرور والاستبشار. وخرج إلى حمام الأنف الشامخ، فَتَوَجَّهُ بالأبنية الضخمة التي ثبتت على قديم بنائه الراسخ، وزاد فيه أبنية كثيرة وضرب حولها الخيام، وأقام فيها عساكره الكرام، وقضاها أياماً يقصُر اللسان عن وصفها بذل فيها العطايا والتكرمات، ونفيس المطعومات والمشروبات، ولازم به الطِراد والصيد مصحوباً بآحاد أهل الرماية، وإن برز على جميعهم بما له من الإصابة والدراية، كثيراً ما يكون راكباً في كروسته فيرى الطائر فيتناول مكحلته ويصيبه حالة كون كروسته سائرة. ولربما عين ريشة من أحد جناحيه قبل الرمي فلم يخطئها ويجعل الخاتم غرضاً فلا تخطىء رصاصته حلقته. وكم له في هذا الباب من خبر مع أنه فارس الفرسان، لا يجاريه في مضمار الفروسية والرماية إنسان. وقد أبدع الشيخ علي الرياحي[1] في قصيدته الطِرادية التي امتدحه بها في بعض خروجاته للصيد إذ قال في أثنائها:

---

(1) علي الرياحي هو علي بن إبراهيم الرياحي نَشَّأه والده تنشئة الصلاح والعلم فنبغ كأخيه الشيخ الطيب الرياحي ولما توفي أخوه هذا رشحه زملاؤه إلى خطة التدريس التي كانت بيد أخيه ورفع الأمر إلى الأمير أحمد باي فتداخل الشيخ ابن سلامة لدى الأمير بأن هناك من هو أحق بالتدريس منه فصدر إذنه بإجراء مناظرة على خطة أخيه فرفع زملاؤه تقريراً إلى الأمير كتبه الشيخ صالح النيفر ووقّع عليه البقية بأنهم يرونه هو المستحق لها فصدر الإذن بإسناد خطة التدريس إليه.

وكما ولى مدرساً بالزيتونة أسندت إليه إمامة جامع أبي محمد الحفصي بالحلفاوين عوض أخيه أيضاً.

ومن مؤلفاته جمع خطب والده للعام الأول الذي تولى فيه والده إمامة جامع الزيتونة.

وجمع ديوان والده الشيخ إبراهيم الرياحي وله تقارير نفيسة على كتب عدة من العلوم المقروءة بالزيتونة وتوفي رحمه الله يوم الجمعة في 13 من ذي الحجة سنة (ـ 1268) (عنوان الأريب ج 2 ص: 107).

والقطعة التي ذكرها ها هنا ثلاثة عشر بيتاً ذكرها حفيد الشيخ علي الرياحي عمر بن محمد الرياحي في تعطير النواحي واحداً وعشرين بيتاً.

وهذه القصيدة قالها في المشير الثاني لما كان ولي العهد، ولما تأمل فيها والده الشيخ إبراهيم الرياحي قَبْل إرسالها للممدوح بها وهو المشير الثاني محمد باي قال لولده صاحب القصيدة إن السياسة لا تسمح بأنك تمدح ولي العهد من غير تعرض للملك فلا بدّ من مدحه.

ولكن ها أنا أُضيف للقصيدة بيتين يحصل بهما الغرض وأملى عليه ما نصه:

وبقيت محروس المعالي وادعاً ... في ظل سلطنة المشير الأكمل

أبقى الإلٰه عليه دولة عزه ... وأدام عسزه في رضاهُ الأجمل =

[الكامل]

ملك تعـود بـالـنـوال فكـفـه ... تنهـلُّ وَاكِفَـةً بمـا لم يـسـأل
حتى أضاف الوحش في فلواتـه ... وسقى دم الرِئْبَال بنت الجَيْأَل[1]
في يوم صيد هاج حرب هياجه ... لله مـن يـوم أغـر مـحـجـل
نفسي الفداء لمن حوى فيه المدى ... وأبـان آيـة مجـده المتـأثـل
مـا عَنَّ فيـه واقـع أو طـائـرٌ ... إلا رمـاه بـالـقضـاء الـمُنْـزَل
يـرمي فيُصمي مـاشيـاً أو راكبـاً ... متـأمـلاً أم ليس بـالمتـأمـل
فـإذا نـظرت إلى مجـال طِـراده ... لم تلف غيـر معَقَّـرٍ وَمُجَـدَّلِ
عجبـاً كـان ثقيـله ذا فـطنـة ... أم كـان فيـه مغنـطيس المقتـل
لو ساعدته إلى المطار سبوحه [2] ... شن الإغـارة بـالسمـاك الأعـزل
كـرمت فكـانت للكـريم وقلمـا ... تجد الشبيه لغيـر مشبهه ولي[3]
يـا فارس الفـرسان غيـر مدافـع ... وأجـل من نيطت حـلاه بمحمل
يا ابن الحسين محمد المولى الذي ... ورث السيادة أفضلاً عن أفضـل
إن الفـراسة والـرمـايـة دون مـا ... لك من حلى المجد الأعز الأطول

وقد بنى بين قصور باردو المعمور قصراً تحار دونه الألباب، أتى فيه من بدايع الأبنية بالعجب العجاب[4]. وكان مع ذلك وَلُوعاً بكثير من دقائق الصنائع

= قال الشيخ ابن أبي الضياف: بلغ للباي ما قاله الشيخ في حقه فابتهج سروراً، وقال: إن الشيخ كما هو رئيس العلماء هو رئيس السياسيين أيضاً. هذه عبارة أحمد باي (تعطير النواحي ج 2 ص 45).

(1) يقصد ببنت الجيأل الضبع أي أنه أضاف الوحش فسقيت دم الأسود بنت الضبع. وفي التعطير: دماً، بالجمع.

(2) السبوح الفرس السريع الذي لا اضطراب في جريه.

(3) في الأصل لغير مشبه بدون إضافة إلى هاء الغيبة وعلى ما أثبت في الأصل لا يستقيم الوزن.

(4) قصر محمد باي الذي تأنق فيه كان تحفة من تحف البناء التونسي، ودلالة على الصناعة التونسية، وإلى ضخامة بنائه وتأنقه فيه أشار الشيخ الوزير ابن أبي الضياف:
«وبنى الدار التي بباردو لسكناه، ولم يبن مثلها في المملكة».
ثم أشار إلى أن المشير الثالث اتخذها مقراً لسكناه، وهي الآن مسكن ملك العصر (الإتحاف ج 4 ص 267). =

بحيث أنه استخدم عنده لعمل نفسه معامل كثيرة في الصياغة والسبك والخرط والتمويه وعمل التحف من الأواني ومستقطرات العطور الفائقة وعمل العنبر الرفيع مما كان به في دولته رواج المصوغات والأحجار الثمينة وأنواع الطيب الرفيع ورقائق الصنائع الفاخرة حتى أنه أرسل إلى فرانسا وجلب المعامل والآلات.

وفي أثنائها جلب أحرف الطبع وآلات الطبع الحجري واستعمل المطبعة في الحفصية[1] لطبع التذاكر الخفيفة العمل فهو أول من أدخل المطبعة إلى البلاد.

وهو أول من ضرب سكة الذهب والفضة والنحاس باسمه في أحد وجهي المسكوك واسم صاحب السلطنة العثمانية بالوجه الآخر وكانت قبل ذلك مسكوكات الفضة والنحاس لا غير إنما يضرب فيها اسم صاحب السلطنة العثمانية، ويذكر في الوجه الثاني اسم تونس فقط. وفتح لذلك دار السكة التي بباردو واعتاد ضرب جميع أنواع السكة عند رأس كل سنة وتوزيع سائر أنواعها

= واتخذها المشير الثالث مقراً لسكناه قبل بنائه القصر المعروف بالقصر السعيد.

وكنت أسمع من جدي والد والدتي المرحوم الشيخ محمد عزوز أن الأمير المذكور كان يأخذ عصاه التي يتكىء عليها ويجربها على بَلاط القصر فإن وقفت في مكان ما عاقب البَنَّاء الذي بَلَّط ذلك المكان.

وتوفي الشيخ محمد عزوز شيخ الزوايا العزوزية في سنة (1343) وقد كان معاصراً للباي المذكور.

ومن شدة حرص الباي علي ذلك القصر كان من أهم الأبنية التونسية البديعة وهو كما قال الشيخ الوزير ابن أبي الضياف:

فريد من بين الأبنية التونسية يكاد في بداعته يحاكي قصر غرناطة ولكن شتان بين القصرين.

ولهذا في عصر الحماية اتخذ متحفاً وافتتح هذا المتحف رسمياً في سنة 1305.

وسمي بالمتحف العلوي بباردو نسبة إلى الأمير الذي جُعل هذا القصر متحفاً في عصره، وهو علي باي الذي تولى الملك من سنة (1299) إلى سنة (1320).

وبسبب اتخاذه متحفاً حافظ على رونقه وبنائه وبقي كما هو متحفاً يضم الآثار، هو في ذاته متحف للصناعة التونسية في البناء وغيره. وهو الآن يسمى «متحف باردو القومي».

(1) المطبعة الحجرية في الحفصية، وهي التي تعرف بحفصية المدافع وسيأتي للمؤلف أنه طبع بها عهد الأمان.

على آل بيته ووزرائه ورجال دولته فهو أول من أجرى هذه العادة التي تنبىء على حسن بذله وكرم فضله.

ومن ولوعه بدقائق الأشياء أنه أرسل إلى النمسا في جلب تحف الأواني الثمينة وقد تيسر له التوسع في أبواب الترف مع إتقان تنظيم منزله الرحب العامر بتنزيل كل واحد من حاشيته وأتباعه منزلته. وما منهم واحد إلا وهو يرجوه ويخشاه، حتى كان قصره على أحسن حالة من التنظيم والسكون وغاية إتقان وضع الأشياء في مواضعها مما يُتْلى حديثه في علو الهمة والبذاخة ولطف المأكل المتنوع الرفيع والملبس المتجدد الفاخر، والتطيب بما لا حَدَّ له، وحسن المركب على الخيل المُسَوّمة والسروج الملوكية المرصعة. وتنعم في رغد ذلك العيش سائر آل بيته وخواصه ورجال دولته حيث كان ملتزماً لاستصحابهم اصطناعاً لهم، ومع كمال تودده، جميعُهم يخشى سطوتَه لعلمهم بعدم مبالاته في الحق وإن كان آية الله في الوفاء والحنان مع الكرم الحاتمي الذي كفى به كثيراً من الناس وجلب به قلوب الخاصة وأثّل به الصيت الشهير في الممالك الأجنبية.

قدم على عهده ولد ملكة انكلترا فأكرم نُزْله وأراه من بذاخة الملك ولطف الصنيع ما لم ير مثله في ممالك الدنيا، وأهدى إليه من النفائس الدرية والتحف العنبرية والملابس المنوعة والسروج المرصّعة ما عظم به شأن المملكة، كل ذلك كان بما جبل عليه من كرم النفس وسعة ذات اليد وعلو الهمة. والأهالي في أثناء ذلك كله متواصلو[1] الأمن والأفراح، وجميع أرباب الصنائع والفلاحة أصبح السعد مساعدهم بمساعدته لصاحب مملكتهم.

---

(1) في الأصل متواصلوا الأمن بالألف بعد الواو علامة الجمع مع أنها لا تثبت في الاسم كما تثبت في الفعل.

ذكر أبو النجا في حواشيه أن الألف المتطرفة الزائدة تزاد بثلاثة شروط الأول أن تكون الواو واو جمع.

الثاني أن تكون في الفعل.

الثالث أن تكون متطرفة.

ولما مهد السبل أصدر عهد الأمان[1] لسائر السكان في حفظ النفس والمال والدين والعرض، وعمّ بذلك سائر أهل الملل المختلفة وبناه على إحدى عشرة قاعدة هي أصول قوانين الجنايات، وكان صدور المنشور المذكور بتاريخ عشرين من المحرم سنة أربع وسبعين، وطبع بالطبع الحجري يومئذ وجمع أعيان علماء البلد ورجال الدولة للمفاوضة في العهد المذكور ليضعوا قوانين الجنايات المبنية على ذلك الأساس.

أما كرام بنيه فهم سعيد باي، وحسين باي، ومحمد الناصر باي، وإسماعيل باي، والهادي باي، ومحمود باي، أما الثلاثة الأخيرون فقد أسرعوا إلى النعيم على حين الصغر. وأما أكبر بنيه فقد أدركته السعادة في السابع والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة ثمانٍ وسبعين. وكانت ولادة حسين باي في الحادي والعشرين من ربيع الثاني سنة خمس وخمسين. وكانت ولادة الناصر باي في الثامن والعشرين من شوال سنة إحدى وسبعين. واليوم هما ـ أعزهما الله ـ من أكمل كواكب أفق الملك، وأجمل درر ذلك السلك. وقد كان أبوهما صاحب الترجمة شهماً ثبتاً، حازماً بحاثاً عن الرعية، سليم الطوية، دمِثَ الأخلاق، لين العريكة، جذلان القلب، متمتعاً بأمن المملكة ونضارة عيش أهلها إلى أن أدركته السعادة فسار إلى رحمة ربه ليلة السبت السادس والعشرين من صفر الخير سنة ست وسبعين ومائتين وألف ودفن بالتربة ورثاه الشيخ محمد بيرم الرابع بقوله:

[الطويل]

عجبت لهذا الدهر يسلب ما يسدي ... ويلحم من نسج ابن آدم ما يسدي
ويورده محض السراب مخادعاً ... ويمزج في إطعامه السم بالشهد
ومصداق ذا هذا المُوَسَّد خده ... ثرى الرمس معتاضا من الدَّسْت باللحد
تزخرفت الدنيا إليه وأوسعت ... له أملاً لم توفه فيه بالوعد

(1) انظر الملحق عدد 2.

وغـالته مقـظوم[1] الأماني مسـارعـاً لقد سل سل السيف من أوسع الغمد
طـوته كمـا يُطْوى الـرداء ولم يكن بقـاء لغيـر الـواحـد الـدائم الفـرد
ألا أنــه البـاشــا المشيــر مَحمــد سليـل الملوك الشم سلسلة المجد
مليـك لـه من نفسـه الفخـر وافـراً وقـد ضم موروثـاً من الأب والجد
لقـد كـان ذا بشـر وصـدر مـوسـع رحيمـاً بريئـاً من مصـاحبـة الحقـد
وكم فاه عن حسن الطويـة مفحصاً فيرجو الثواب الجزل عن حسن القصد
تـولى أمـور النـاس فـانتعشت بــه نفـوس وحلت منـه في كنف رغـد
ولكنــه لم يؤت في المـلك مــدة سوى حِجَج لم تكمل الخمس في العد
ولمـا أتى الحكم المحتم لم يكن لإرجـاع محفـوظ الـوديعـة من بـد
مضى فبكت حتى المعالي[2] تأسفاً ومنـه اشتكت فقدان واسـطة العقد
فَعِيـلَ إذا صبـر وســالت مـدامــع لَوَ أنَّ مسيل الدمع عن واجد يجدي
وأنّ جميــل الــظن فـي الله أنــه يسـامحه والـرب ذو الـرفق بـالعبـد
كمــا دلنــا طـيب الـثنــاء فــإنــه دليـل إلى حسن المصير لـه يهدي
وحينئــذ جــردت عنــه مخــاطبــاً وإن كان منظوما بسلك ذوي البعد
وقلت استمع ما الله أجرى بخاطري وأرختــه: مـأواك في جنــة الخلد
[. . . 1276 . . .]

---

(1) جاء في مرثية الشيخ بيرم الرابع:

وغــالتـه مقــظوم الأمــاني مســارعــاً لقد سل سل السيف من أوسع الغمد

مقظوم الأماني بالظاء المشالة والصواب بالضاد الساقطة لأنه من القضم وهو الكسر بالأسنان وهذا البيت فيه مؤاخذات أخرى.

(2) ومما يؤخذ على هذا القصيد قوله:

مضى فبكى حتى المعــالي تــأسفــاً ومنــه اشتكت فقـدان واســطة العقـد

هكذا جاء هذا الصدر أن بكاء المعالي غاية للبكاء مع أن مقام المدح يقتضي أن تكون المعالي هي أول باكية عليه.

ويمكن تخريجه على وجه مقبول وهو أن الأنام كلهم بكوه مع المعالي.

ولو أردنا حذف حتى لكان الصدر هكذا:

مضى فبكت غـر المعــالي تــأسفــاً

أو:

مضى فبكت عين المعــالي تــأسفــاً

12 ـ المولى المشير محمد الصادق باشا باي
خلد الله بقاءه
[1299 ـ 1229]

هو المشير أبو الوفاء محمد الصادق بن حسين بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي تركي، يتصل بشرف والدته السابقة الذكر في ترجمة شقيقه المشير الثاني، وهو ثاني عشر ملوك آل بيته العظام، وخامس آبائه الذين تجملت بتاج ملكهم عروس الأيام. ولد في الثاني عشر من رجب الأصب سنة تسع وعشرين ومائتين وألف، وتربى في حجور عز دولتي جده وأبيه. وحصل من اعتناء والده به ما بلغه إلى الشأن النبيه. وقد تقدم إلى ولاية الأمحال أواسط شهر رمضان المعظم سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف. وخرج في أول محلة فأوقع ببُغَاة عمدون حيث وجدهم متخبطين في أشراك بغيهم، فأوقع بهم. وظهر منه في تلك المحلة من حسن السعي والتدبير ما حُمِدَ به خبره حيث أنه بعد أن قهرهم استعمل معهم الرفق والحلم واصطنعهم للمملكة.

ولازم السفر بالأمحال مدة دولة المقدس أخيه إلى أن اشتد المرض بأخيه وكان هو مسافراً بالمحلة في باجة فأرسل إليه أخوه واستقدمه على جناح طائر فحضر مشهد جنازة أخيه. وقبل البيعة العامة من كافة رجال الدولة والأهالي صبيحة يوم السبت السادس والعشرين من صفر الخير سنة ست وسبعين. ووفدت الوفود لبيعته وتهنئته فأقر سائر رجال دولة أخيه على مناصبهم ووردت إليه الخِلْعة العثمانية صحبة وزير البحر خير الدين ورئيس المجلس البلدي حسين فتقلد السيف الخاقاني صبيحة الثامن والعشرين من جمادى الثانية سنة ست وسبعين. وأعمل الحزم في إنجاز مشروع أخيه بإتمام القوانين المبنية على عهد الأمان،

وجمع لها خاصة العلماء والأعيان، فاستكملوا وضعها وأجملوا صنعها[1].

وخرج إلى مملكة الجزائر[2] حين قدم إليها إمبراطور فرنسا نابليون الثالث لإحكام علاقة المجاورة التي بين المملكتين وكان ركوبه من الحاضرة صبيحة السبت التاسع والعشرين من صفر الخير سنة سبع وسبعين. ووصل إلى مرسى الجزائر بوصول الإمبراطور فأكرم نزله وأحسن تلقيه واستصحبه في سائر المشاهد والملاعب والطِرادات التي هيئت له. وقلد كل منهما صاحبه نيشانه، وقضاها ثمانية أيام بديعة، لخص ما وقع فيها مستشار الخارجية حسين في رسالة مطبوعة.

---

(1) انظر الملحق عدد 2 الخاص بعهد الأمان.

(2) تدخل زيارة المشير محمد الصادق إلى الجزائر لما أتى إليها الإمبراطور نابليون الثالث في المصلحة السياسية كما جاء في المنشور المذكور.

وهو أن المصلحة السياسية تقتضي أن يتوجه لملاقاته بنفسه معللاً ذلك بأنه لا مصلحة عنده أهم من تقوية أسباب الهناء والعافية للوطن ولهذا استعمل السياسة لراحة الأمة التونسية لتأكيد أسباب العمران للبلاد.

تكلم على هذه الزيارة مؤرخان الشيخ السنوسي قائلاً:

إن هذه الرحلة لإحكام سياسة الجوار.

والشيخ الوزير ابن أبي الضياف بما يشبه ما ذكره الشيخ السنوسي لكنه كالمتبرىء حيث نسب ذلك إلى المجلس الذي شاوره الباي.

وليت الشيخ السنوسي كتب ما كتبه ابن أبي الضياف وصنع صنيعه سواء اطلع على تاريخه أو لم يطلع عند كتابة ما كتب.

ويحق للواقف على كلاميهما أن يعجب كيف لم يَخُطَّ أحدهما كلمة تنبىء بالشفقة على الجزائر التي تعاني الأمرَّيْن بسبب الاحتلال الفرنسي لها، والتي أُخْمِدت فيها ثورتان ثورة عبد القادر وثورة الزعاطشة فنظرة المؤرخين نظرة قاصرة اكتفي فيها بأن زيارة الأمير المذكور لتوطيد أواصر روابط حسن الجوار.

وقد أبان الواقع أن تلك الزيارة لم تأت بشيء نافع لأن فرنسا بمجرد ما وَطَّدَت أقدامها في الجزائر التفتت إلى تونس وأدخلتها تحت حمايتها.

إن الحمية الإسلامية كانت مفقودة في نفوس الأمم المتجاورة في ذلك العصر، إذ لو كانت هناك حمية إسلامية لما استساغت الحكومة التونسية أن تتلقى في شخص أميرها ووزرائه غاصباً لأمّة إسلامية غصب منها أرضها وحريتها، وداسها بأقدام جنده الذين يعتبرون أنفسهم فاتحين.

يا ليت تلك الزيارة لم تقع، ولم يكتب عليها المؤرخان بما كتبا.

ورجع ثامن ربيع الأول وجرى على قويم منهجه في حث رجال القانون على إنجاز عملهم فاستكمله ونظم المجالس القانونية وتزينت لذلك البلاد زينة لم يسبق لها نظير ليلة الأحد منتصف شوال سنة سبع وسبعين، وفي صبيحة الأحد كان مبدأ اجتماع المجالس فوضعت على الترتيب الآتي، وهي المجلس الأكبر، وله رئيسان، وهما: مصطفى صاحب الطابع، ومصطفى خزندار، وكاهيته خير الدين، والمجلس الاعتيادي، ورئيسه محمد خزندار، وكاهيته حسونة بن أحمد الحداد الأندلسي، ومجلس التحقيق، ورئيسه صاحب الطابع إسماعيل السني، وكاهيته الشيخ محمد الشاهد، ومجلس الجنايات، ورئيسه فرحات آغة الكاف، وكاهيته الشيخ صالح النيفر. وباشرت المجالس الحكم على مقتضى القانون وأظهرت الأمة حرية آرائها في الأحكام والعوائد واستمر حكم القوانين نحو ثلاث سنين إلّا أن المجلس الأكبر رأى توفير مداخيل الدولة بجعل مال الإعانة على ست مراتب أدناها ستة وثلاثون وأعلاها مائة وثمانية ريالات تعم أهل الحواضر والقرى وأَعْراب المملكة ويقع تعيين ذلك عليهم على حسب كسبهم، وصدر معروض المجلس الأكبر في ذلك بتاريخ عاشر شوال سنة ثمانين. ثم جعلت اثنين وسبعين ريالاً على عموم الأفراد. وصدرت بذلك أوامر الدولة. وحين انتشر هذا الخبر اختلف صنيع أهل المملكة فأما عقلاء الحواضر والأعراب فقد رفعوا شكاياتهم وتلطفوا في طلب التخفيف، وأما أجلاف الأعراب ولا سيما أهالي الجبال فإنهم تجمعوا وأشهروا السلاح ومنعوا الطرقات وتعمدوا البغي، وجمع كيدَهم أحدُ أجلافهم وهو دعي أصله من ماجر يسمى علي بن غذاهم[1]. فخرج لهم فرحات آغة الكاف بسرية قاصداً ناحيتهم فتلقته عروش ونيفة وقاتلوه إلى أن قتلوه. واشتطت حمقاهم فنادوا بطلب إبطال القوانين، وعند ذلك صدرت الأوامر العلية بإيقاف أحكام القوانين صبيحة الرابع والعشرين من ذي القعدة الحرام، سنة ثمانين، ومن الغد صدرت الأوامرُ العليةُ في إسقاط ما زاد على الستة والثلاثين. ونودي بذلك في سائر أطراف المملكة في الخامس

(1) انظر الملحق عدد 3 المخصص لهذه الثورة.

والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة ثمانين ومائتين وألف، وخرجت المحال المنصورة[1]، فتوجه إسماعيل السني صاحب الطابع إلى الجبل بمحلة مركبة من

(1) من الألفاظ المستعملة في القطر التونسي المحلة بمعنى الجيش الذي يخرج تحت قيادة قائد يسير به. وتخرج المحلة إما لجباية الأموال أو للتهدئة.

ومن المصطلحات التونسية أن هناك أميراً تكون له الولاية على الجيوش المنتقلة يعرف بباي الأمحال أي أميرها.

وباي الأمحال هو ولي العهد.

ونشأت هذه الحال بسبب أن الجند التركي لما أنقذ تونس من الأسبان جاء بنظام وهو ما جعلت به البلاد ولاية.

وكان الوالي الباشا وهو المتصرف في أحكام البلد وله السلطة العليا، ولفظ الباشا مركب من (با) أي قدم، ومن (شا) أي الملك. فمعناه قدم الملك هذا أصل معناه، ويراد منه السيد والمولى، والوالي والوزير.

انظر (الألفاظ الفارسية المعربة ص 16 وكنز اللغات ص 71).

لكن الباشا لم يبق له النفوذ كما جاء في المؤنس: وهو- أي فاضلي باشا - آخر باشا كان مقامه بالقصبة ولم يحكم بها أحد بعده من الباشوات وكان بعد العشرين والألف.

وتحكم في البلد الداي وأولهم عثمان داي بعد ثورة الجند وتفصيل ذلك أن أصل هذا اللفظ كما قال ابن أبي دينار في (المؤنس ص 199 طـ 1).

إن هذه اللفظة - أي الداي - معناها خال باللسان العربي.

وفي ذيل بشائر أهل الإيمان أن مقدمي العسكر الأربعين الذين انتخبهم سنان باشا يسمى كل واحد منهم باسم الداي وهو كناية عن أصحاب الشجاعة والخصال (ذيل بشائر أهل الإيمان ص 3 طـ أولى و 80 طـ ثانية).

وهؤلاء الدايات هم البلكباشية وهم أهل الديوان الذي يرجع إليه أمر العسكر ولكن لما استبدوا على الجند هجموا عليهم وهم في اجتماعهم وقتلوهم ولم ينج إلا من لم يظفِروا به فصار الأمر فوضى كما أشار إليه في المؤنس مدة من الزمن إلى أن تغلب الداي المذكور عثمان داي.

وذكر ذلك في سنة سبع وألف (1007 هـ) قائلاً فإنه لما تغلب على منافسه صفر داي هابه الناس، وقد أخذ بالحزم حتى أن الذين أرادوا اغتياله اطلع على مؤامرتهم فقتلهم شر قتلة (المؤنس ص 191).

وأمير الأوطان الباي وهو المتولي للجباية وضبط الأموال لتصرف في مرتبات الجند وشيئاً فشيئاً استبد الباي على الداي إذ ظهرت نجابة محمد باشا باي فتأسست الدولة المرادية ثم جاءت الدولة الحسينية.

وكان الأمير من الدولتين يسمى بايا أيضاً.

والفرق بين الباي الأمير والباي باي المحلة أن الأمير يسمى باي الكرسي وولي العهد يسمى باي الأمحال.

ومعنى لفظ المحلة في العربية المنزل وتجمع على محال. =

نحو خمسة آلاف من العسكر وباشر الأمور بلين وسكّن حمق الأعراب بمواعيد الدولة وتأمينها وتفرقت كلمتهم ورجع عقلاؤهم على سفهائهم بعد وقوع أضرار كثيرة بالفلاحة ونهب بين الأعراب، وكاد سكون الفتنة أن يستتب. فرجع صاحب الطابع مريضاً من المحلة المذكورة وسافر عوضه للترؤس عليها وزير العمالة رستم.

ثم أعاد رئيس البغاة علي بن غذاهم الكرة وأخذ يجمع إليه القبائل ورام الملكَ لنفسه وجعل له وزراء ينادونه الباي علي بن غذاهم وجعل طابعاً وكَتَبَة، وأصدر أوامر نفذت بين البغاة. وسرى ذلك الداء من الجهة الغربية إلى الجهة القبلية من المملكة وخرج وزير الحرب أحمد زروق لجهة الساحل بمحلة مركبة من خمسة آلاف من العسكر، وحضر إبان خروج المحلة الاعتيادية إلى الجريد فخرج الأمير علي باي بمحلته مركبة من خمسة عشر ألفاً وظهر الفساد في أكثر البلاد، وتوجه وزير العمالة رستم في طلب رئيس البغاة علي بن غذاهم وأخذ في أثره بمحلته المنصورة وقاتل جموعه الأعرابية بين راكب وراجل واستنجد محلة الأمير علي باي فأدركته الأعراب بمكان يقال له تاجموت، وكان على أهبة لقتالهم فأمر الفرسان بملاقاتهم ريثما اصطفت المدافع ولما أقبل سيل البغاة تأخرت فرسان المحلة وراء المدافع وتلقتهم المدافع فاغرةً أفواهُها السود فأوقعت بهم حتى رجعوا على أعقابهم خاسرين بعد أن تركوا الأرض محمرة من دمائهم وقتلاهم ملقون على الأرض، وسارت الخيالة في أثرهم وحين رأى ذلك الشقي رئيس البغاة ما حل به وعلم أنه مأخوذ فر إلى خارج حدود المملكة، ودخل بين اللمامشة فقبض عليه قائدهم في الرابع عشر من شعبان الأكرم سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف بعد أن كسرت المحلة أنصاره، وسيق إلى محبسه الذي مات فيه بحلق الوادي.

= واستعملت بمعنى الجيش المسافر لجباية الأموال أو التهدئة منذ القرن الحادي عشر، ومما جاء من ذلك ما في تاريخ المؤنس:

فانكسرت محلة تونس.

ذكر ذلك حين الكلام على تاريخ يوسف داي (ص 196).

وأما محلة وزير الحرب أحمد زروق فقد أتت على بغاة الساحل فنزلت بحلق المنجل وانضم إليها جلاص وأهل بلد القلعة الكبرى واقتربت المحلة من البلد المذكور حين بلغها تجمع بغاة الساحل تحت رئاسة أحد أشقيائهم الدهماني البوجي[1] من بلد مساكن فهاجموا المحلة واعتضدت بمن انضم إليها يوم الجمعة أول جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وانتصرت جيوش المحلة ووقع القبض على الدهماني وكبراء أنصاره وقتل جميعهم وعند ذلك سكنت فتنة الساحل وانقاد العسكر من أهل الساحل للخدمة، ونزلت المحلة حول سوسة حيث إنها لم تتجاسر على العصيان ورجعت جلاص بعد أن هجم بعضهم على القيروان وكادوا أن يوقعوا بعاملها رشيد كاهية. ولما تمّ القبض على زعماء البغاة الأشقياء جالت يد أنصار الدولة في القبض على أعضاء الثورة ومن تشيع إليهم وهز عصا الشقاق ونال كل واحد منهم ما ناله من القتل والسجن أو الضرب

---

(1) يذكر هنا الشيخ السنوسي أن محلة وزير الحرب أحمد زروق أتت على بغاة الساحل.

وهو منه طمس للتاريخ وقلب للحقائق فهذه المحلة ذكرها أحد المؤرخين من المنستير وهو الشيخ محمد بن محمد مخلوف (ـ 1360) الذي يجري في قريب من مهيع المؤلف إذ يقول: وانتصر على البغاة في حديثه عن محلة الوزير أحمد زروق، لكنه لم يستطع أن يغطي على شنائعه بالساحل فيقول: وحكّم يد النهب في الأموال، وتفنن في سلبها، حتى بلغ السكينَ العظمَ، والسيل الزبى، فكأنه مأمور بإيقاد فتنة من جمر رمادها.

(التتمة لشجرة النور الزكية ص 175).

فأفعال أحمد زروق لا يسوغ أن يقال فيها إنها إتيان على البغاة بل هي قضاء على أمة.

وأحمد زروق هذا ليس من عائلة زروق وهي عائلة الوزير أبي عبد الله محمد العربي زروق، وهذه العائلة من أشراف باجة.

وإنما أحمد زروق أحد مماليك عم أحمد باي وتولى عمل الجريد وعبّر الشيخ الوزير ابن أبي الضياف عنه بالأحزم حين عدد أعضاء المجلس الأكبر.

واشتهر عن أحمد زروق هذا بأنه شديد الوطأة على أهل الساحل.

وبرأه من تبعة ذلك الشيخ الوزير ابن أبي الضياف بأنه مأمور بذلك فذكر:

(وبالجملة فجميع ما نسب وما ينسب في هذه الوجهة إلى الأمير أحمد زروق إنما هي نسبة تنفيذ لأنه مقيد التصرف بما يرد له من الأمر في كل نازلة).

ومما سمعته من جدي محمد عزوز أن أحد الأطباء الإيطاليين بتونس لما سأله عن مرض أحمد زروق الذي طال وكان مباشراً له قال: إنه مريض بمرض الساحل أي أنه يقاسي ما يقاسي من أجل ظلمه لأهل الساحل غفر الله له.

واشتدت الوطأة على كثير من الأشقياء بطلب مغارم الثورة وضربت تلك المغارم على الأعراض وجربة وصفاقس وعموم بلدان الساحل عدا أهل سوسة والقلعة الكبرى لتقدم طاعتهم ورجعت محلة الأمير علي باي مصحوبة بمن قيدتهم من البغاة ودخلت الحاضرة يوم الخميس ثاني ذي الحجة الحرام سنة إحدى وثمانين.

وفي يوم السبت وزع جناب المشير نيشاناً جديداً خصّه بمن باشروا هاته الحرب جعله على صنفين من ذهب وفضة، فقلد لأخيه أمير المحلة نيشاناً ذهباً أعطى منه لأصحاب الرتب العالية ثم وزع النيشان الفضة على سائر العساكر وهكذا صنع مع رجال محلة وزير الحرب ورجال محلة وزير العمالة التي تأخرت بجبل باجة للحراسة وكان قدومها يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الثانية سنة أربع وثمانين ومائتين وألف. وأفاض المشير محاسن إنعامه على رجال دولته، وصنع نيشاناً جديداً مزججاً سماه عهد الأمان وقلده رؤساء المحال وخاصة رجال الدولة وتدارك عموم الرعايا من البغاة وغيرهم بحلمه، ونهض لمباشرة الحكم بنفسه، وأمر بإصلاح الأبراج، وبنى قنطرة وادي الزرقاء على طريق الرحيات وأتمّ بناء قشلة القيروان [1] التي كان ابتدأ بناءها المشير الأول، وفتح لها باباً ثانياً وكان تمام بنائها سنة ثلاث وثمانين، وحسن قشلة الطوبجية، ووقع استبدال مدافع سائر الأبراج من نوع النحاس بمدافع أخرى. واجتمع شمل العساكر وقام الأمير بعدله وإنصافه وأحسن الصنع مع الأهالي، وحفظ شارات الملك بما يلزم حتى منع تقبيل اليد لغير الملك[2].

---

(1) للعائلة الحسينية عناية بالقيروان لأنها صمدت مع جدهم الأمير حسين بن علي التركي فلهذا ترادفت العناية بقشلة القيروان ـ أي ثكنة القيروان ـ وهذه الثكنة لا تزال إلى اليوم.

(2) قد تهكم الشيخ الوزير ابن أبي الضياف على قصر تقبيل اليد على الملك:

وبينما الناس في زلزلة الساعة من هذه الشدة ـ أي شدة المطالبة حين ضربت سكة النحاس ـ إذ صدر أمر من الباي في التاسع عشر من صفر سنة 1283 لكبراء العساكر في شأن تقبيل اليد.

ثم إن ما جاء هنا من أن هذا الأمر في التاسع من صفر غير صحيح لما أرّخه صاحب الإتحاف من أنه في التاسع عشر.

والشيخ السنوسي ها هنا قدم أمر منع تقبيل اليد على الأمر بضرب سكة النحاس مع أن الشيخ =

وأصدر الإذن بذلك تاسع صفر الخير سنة ثلاث وثمانين، وأعمل يعملات حزمه غير أن تلك الثورة أعقبت تناقصاً عظيماً في الفلاحة بسبب الغارة وإفساد الزرع حتى عظم تناقص المكاسب، وقلت الدراهم في البلاد فاضطر الحال إلى تكثير الدراهم، وجلبت سكة جديدة من النحاس ذات قيمة نصف الريال والربع والثمن والخروبة ضربت في الخارج من نوع سكة البلاد، فاستكثر الصرافون قيمتها وأبخسوا ثمنها وغلت الأشياء من ذلك غلواً لم يعهد وبلغ صرف مائة الريال من الفضة أو الذهب إلى ثلاثمائة ريال من سكة النحاس المذكورة وبذلك بلغ سعر الويبة من القمح إلى خمسة وخمسين ريالاً، والمَطَر[1] الزيت إلى مائة وعشرة ريالات كل ذلك كان أوائل عام ثلاثة وثمانين فأسقط الأمير من قيمة السكة المذكورة نصفها في الحادي عشر من شعبان سنة ثلاث وثمانين. ثم في الخامس عشر منه أسقط من قيمتها نصف الباقي فصارت قيمة النصف الريال السابق ثُمُناً وعلى نسبته ما دونه، وبذلك اعتدل الصرف وتنازلت الأسعار. غير أن مواسم الأمطار تخلفت أيضاً في تلك السنة وجاهر أهل جبل باجة بالخلاف أول عام أربعة وثمانين فخرج لهم وزير الحرب أحمد زروق في محلة من العسكر النظامي والطوبجية والخيالة وزواوة وحشد معه كلاً من الهمامة ودريد. ثم أدركهم أمير المحلة علي باي في منتصف جمادى الأولى، وسكن الفتنة بعد أن سد منافذ ظهورها وكرّ راجعاً فدخل إلى باردو المعمور في الثامن عشر من جمادى الثانية بعد أن تقدمه أخوه العادل باي بستة أيام. ورجعت محلة وزير العمالة رستم التي خرجت منذ الثورة السالفة وعند ذلك زال الخلاف، واجتمعت القلوب على الإسعاف، غير أنه في زمن الشتاء ظهر مرض الحمى وانتشر ذلك المرض في سائر الجهات، وتكاثرت الأموات تكاثراً وبائياً، واجتمع على الناس

= ابن أبي الضياف ذكر الأمرين على حسب التاريخ فإن ضرب سكة النحاس كان في شهر المحرم.
وكأن الشيخ السنوسي أراد تقديم الحسنات على السيئات فإنه لما تفاقمت الحال في سنة 83 وما بعدها ذكرها الشيخ السنوسي مستعظماً لها، ولكنه تدارك الأمر بعبارات لطيفة تخفيفاً لهول تلك الأحداث.

(1) المَطَر مكيال للزيت ولعلّه مأخوذ من المَطَرة وهي القربة وجاء في الوسيط أنه استعمل في الإداوة ونحوها.

كل من المجاعة والمرض في آخر عام أربعة وعام خمسة وثمانين. وامتلأت الطرقات بالأموات والأعراب السائلين المصابين بألم الجوع، وانتهبوا الخبز من الباعة واستغاث الناس في دفع الكروب التي اعترضت الأمة. وأعمل المشير غاية وسعه في جلب القمح من الممالك الأجنبية، وفتح فابريكة الخبز، ووزع في كل يوم آلاف الخبز على كل راغب. وتولى المارستان دفن الأموات الغرباء على كثرة أعدادهم وتكاثر ورودهم من سائر ضواحي البلاد بحيث أنه يقضي بياض النهار في قبول الأموات وتجهيزهم ودفنهم. ثم لما حضر إبان الزرع مع قلته في أول صائفة عام خمسة وثمانين أتى عليه الجراد المنتشر حتى اتخذه ذو الفاقة بدلاً عن النعمة، وجمعوه للبيع في الأسواق بعد طبخه في الأفران.

ثم تراجع الأمر ونقِهت البلاد شيئاً فشيئاً بعناية الأمير وبذل وسعه في مساعدة ذوي الفاقة وتدارك المجاعة. ولم يزل بعد ذلك يَرُمُّ ما تداعى من مباني المملكة، ويتدارك عليها ما بقي، وعندما أخذت المملكة مأخذها في التراجع إلى كمالها الأول نهض لتدارك ما أبقته الست السنوات في التجهيزات العسكرية، وتدارك خطر المملكة من الديون التي تراكمت على الدولة مع ضعف الدخل في المملكة. وأقام جمعية لضبط ما ترتب على الدولة من الديون وموازنتها بالدخل فجعل كومسيوناً مركباً[1] من الأهالي والأجانب الذين عينهم أرباب الدَيْن تحت رئاسة خير الدين، وأُدخل لتصرفه جميع مداخل الدولة عدا المجبى وبعض مداخيل أُخرى أبقاها لإقامة إدارة الدولة وكان انتصاب الكومسيون المالي في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ست وثمانين ومائتين وألف فضبطت المداخيل وانحصرت الديون في نحو مائتي مليون وتعين لازم فائدتها السنوية: 12,932,925 من الريالات التونسية.

ثم أعمل الرأي في المجبى بالنظر لأحوال الرعية فجعلها خمسة وعشرين ريالاً، وترتفع بالتدريج بخمسة ريالات في كل سنة إلى أن تصل إلى الأربعين ريالاً فتستمر عليها. وكذلك جعل أعشار الفلاحة سبعة مكايل نصفها قمح

(1) انظر الملحق عدد 4.

ونصفها شعير وترتفع بزيادة ويبة في كل سنة إلى أن تصل إلى عشر مكايل أنصافاً بحيث يكون ارتقاء ذلك على حسب ترقي الفلاحة وجعل ذلك منضبطاً بقانون صدر بتاريخ السابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ست وثمانين. ثم أسقط عن كافة من بقيت عليهم بقايا من الأعشار أو القوانين الثلثين منها مراعاة لفاقتهم مدة وجوبها، وأُسقط النصف من قانون مراجع الوطن القبلي تنشيطاً للفلاحة وخفف قانون زيتونه وصيره ثمانية نواصر على كل عود، وأقام مجلساً لمحاسبة العمال في سائر الأعمال عما جالت فيه أيديهم من أموال الرعية. وأصدر الأمر العلي برفع ظلامة كل من صودر في شيء من المال أو الدواب أو الحبوب، فأقبلت الناس من كل فج وظهر للعيان ما جالت فيه أيدي العمال وانتزع جميعه منهم بدون مبالاة، واستعمل على الساحل مَحمد خزندار[1] لضبط أحواله وضبط ديون أهله التي ارتكبوها في تلك السنوات وأعمال وجوه مع أرباب تلك الديون ففك بذلك أسر أهل الساحل قاطبة. كل هاته الأعمال أجراها في شهر شعبان ورمضان من سنة ست وثمانين استدراكاً لما بقي، فعالج المملكة معالجة الطبيب الحاذق وأعاد عليها شرخ الشباب.

ولما استتم ضبط أحوالها على الوجه الأكمل غير إدارة الدولة[2] فجعل

---

(1) مَحمد خزنه دار ـ محمد بفتح الميم ـ كل المؤرخين يثنون عليه الثناء الجم كما جاء هنا من أنه فك أسر أهلها. وهذا هو المعروف عنه.

ولم أر من انتقده إلا محمد القروي بما أثبته في آخر نسخته من الإتحاف من أنه كان رجلاً متملقاً لا ضمير له يحتقر أهل البلاد ويقول فيهم:

(أولاد تونس زكايط لا يصلحو لشيء).

وهذا من محمد القروي تحامل لا مبرر له فإن الرجل مواقفه محمودة مشكورة، من ذلك أنه لم يوافق الفرنسيين على الاستحواذ على السلطة فلذلك أقيل وعوّض بالوزير محمد العزيز بوعتور.

(2) ما نسبه هنا إلى الأمير أسنده صاحب الصفوة إلى الوزير خير الدين ووضح ما أجمله هنا.

ووظف الوالي ـ أي الأمير ـ الوزير خير الدين وظيفة سماها بالوزير المباشر فرتب أشغال الوزارة على الصورة الآتية:

الوزارة الكبرى وتنحصر فيها جميع شعب الإدارة إلاّ الوزارتين الآتيتين، بمعنى أن الوزير الأكبر ثم الوزير المباشر هما اللذان يباشران جميع المصالح إما بواسطة أو بدونها.

ثم قسم إدارة هاته الوزارة إلى أربعة أقسام: =

الوزارة الكبرى مركبة من وزارة المال ووزارة العمالة ووزارة الخارجية، ولها النظر على الحرب والبحر، وكان الوزير الأكبر مصطفى خزندار، ووزير الحرب رستم، ووزير البحر مَحمد خزندار، وجعل لمسمى الوزارة الكبرى أربعة أقسام القسم الأول لسياسة المملكة والقسم الثاني للواردين من المتوظفين، والقسم الثالث للنوازل الشخصية، والقسم الرابع لأمور الخارجية، وجميعها تحت رئاسة وزير مباشر. وفي كل قسم مستشار أول فكان الوزير المباشر خير الدين، ومستشار القسم الأول الشيخ محمد العزيز بوعتور باش كاتب، ومستشار القسم الثاني حسين، ومستشار القسم الثالث الشيخ أحمد بن أبي الضياف، ومستشار القسم الرابع النصراني فليكس راف. وكان ذلك في منتصف شوال سنة سبع وثمانين.

= (فالقسم الأول) تحت رئاسة مستشار وترجع إليه الأمور السياسية العامة وأحوال المالية الخاصة بدخل الحكومة وخرجها دون ما يتعلق بالكومسيون المالي.

وهذا القسم كما ذكر المؤلف هنا مستشاره الشيخ محمد العزيز بوعتور باش كاتب.

(والقسم الثاني) تحت رئاسة مستشار ويرجع إليه ما يتعلق بشكايات الرعية من المتوظفين والعكس.

ويذكر المؤلف أن مستشاره الجنرال حسين.

(والقسم الثالث) تحت رئاسة مستشار ويرجع إليه ما يتعلق بالحقوق الشخصية وهذا القسم الثالث اتحد مع القسم الثاني.

ويذكر المؤلف هنا أن مستشاره الشيخ أحمد بن أبي الضياف.

(والقسم الرابع) تحت رئاسة مستشار، ويرجع إليه ما يتعلق بالخارجية وذكر المؤلف هنا أن مستشاره النصراني فيليكس راف.

وختم هذه الفقرة في صفوة الاعتبار بما يأتي:

كما جعل - أي خير الدين - كلاًّ من وزارتي الحرب والبحر مستقلة بنفسها كل منهما لها وزير خاص غير أنه تحت نظارة الوزارة الكبرى.

وهذا التنظيم الذي فكر فيه الوزير خير الدين وأجراه له الأمير محمد الصادق باي أخذت به البلاد التونسية نظاماً محكماً راقياً لا يقل عن أنظمة أروبا إذ ذاك.

ولو تمكن هذا النظام من السير كما خط له لأصبحت تونس من الدول الراقية وإنما لعبت الأيدي لعبها ولم تبق على هذا النظام يعمل عمله المثمر.

والذي زاد الأمر تعكيراً هو أن هناك دولتين يتنازعان النفوذ في تونس فرنسا وإيطاليا، وكل منهما يتداخل لإحراج الأمر من جهة، ومن جهة أخرى تكوين الصنائع لتبرير تدخله في تونس وجعلها ضمن أملاكه الاستعمارية.

فمن أجل التدخلات لم يتمكن النظام الجديد من قيامه كما نظم وأريد من إجرائه.

وأرسل إلى الدولة العثمانية في طلب تجديد الفَرَمان العالي الشأن في حفظ الإمارة وإجرائها على نسق الإمارات الممتازة في الدولة العلية لإحكام الوصلة وربط العلاقة بينه وبين الدولة وحفظ الأمن على البلاد فجددت له الدولة العثمانية فَرَمانها العالي، وأرسلت له سيفاً مع النيشان المجيدي صحبة خير الدين، واحتفل لذلك موكب تلاوة الفَرَمان، ولبس النيشان صبيحة خامس شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف، وتزينت لذلك تونس وسائر بلدان المملكة زينة لم يسبق لها نظير استمرت بقية شهر رمضان، وأكثر شهر شوال.

ولما وقعت الحرب للترك مع الروس فتح دار الباي بتونس وأذن بجمع إعانة تطوعية فصدر الأمر العلي بذلك سادس رجب سنة ثلاث وتسعين. ودفع هو ورجال دولته ما نشط الأهالي فأقبلت الأمة من كل فج، واجتمعت من ذلك إعانة كافية مالية بلغت إلى د 004,663,433,09 ريالات تونسية فضة أرسلها للدولة العثمانية، ثم جمع لها من الخيل والبغال التي تطوع بها الأعيان مقداراً معتبراً وأرسله إعانة لدولة الإسلام.

وهو الذي أقام خزنة مكاتيب الدولة ورسومها وغير ذلك[1] على وجه بديع يسهل معه تناول أي بطاقة من علائق الدولة في طرفة عين وقد حسن كثيراً من الأعمال، فغير نوع السكة التي كانت جلبت خلل الصرف، وضرب سكة من النحاس بقيمة لا تقبل التغيير ذات ثمن وخروبة ونصفها، فدارت السكة المذكورة صبيحة يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين.

---

(1) ويعرف بقسم خزانة المكاتيب العامة وظيفة هذا القسم حفظ أوراق الدولة.
البحث عنها.
ترتيبها.
جمع الجرائد.
جمع المطبوعات التي تظهر وقتئذ بالمملكة.
وكان من رؤسائها محمد القروي صاحب التعليقات على إتحاف أهل الزمان وكانت وفاته سنة (ـ 1359) بعد أن عُمِّر طويلاً.

وفتح دار السكة لقبول السكة القديمة بقيمتها وتعويضها بالسكة الجديدة وعند ذلك طبع كثيراً من سكة الفضة بقيمة أربعة ريالات وريالين وريال ونصف ريال، ثم لما تكاثر نوع السكة المذكورة في البلاد أراد الصرافون أن يعيدوا فتنة الصرف فتدارك الأمر وأسقط من النوع الذي قيمته أربعة ريالات ثلاثة أرباع الريال. وهكذا جرى الإسقاط في بقية الأنواع على تلك النسبة وصدر الأمر بذلك في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة خمس وتسعين.

وقد أقام كثيراً من المجالس والقوانين لضبط فروع الإدارات وتحسينها، فأقام مجلس النظافة تحت رئاسة رئيس المجلس البلدي الشريف محمد العربي زروق للاعتناء بتنظيف البلاد ورفع المزابل في كل يوم على مقتضى قانون تألف من تسعة عشر فصلاً صدر بتاريخ الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين، ووظف على كل محل قدراً معيناً يدفع بعد كل ثلاثة أشهر بعد أن وظف أداء الخروبة على قيمة كراء الأملاك من الديار وغيرها من الرباعات كخروبة الأكرية. وأصدر بذلك قانوناً مؤرخاً بالتاسع والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وذلك بعد أن عمم تضريس[1] البلاد من غالب جهاتها وأزال أوحالها، وحسنها تحسيناً يشهد له بغاية حبه لها، وخرج بالتحسين إلى ما حول الحاضرة فحسن طريق باردو ومنوبة من باب الخضراء وباب سيدي عبد السلام وباب سعدون وباب حومة العلوج وباب سيدي عبد الله الشريف وضرس جميع تلك المسالك وحفها بالشجر عن اليمين وعن الشمال وسوى البطحاء التي أمام باردو وزانها بالفوارة الضخمة وجدد باب باردو، وكذلك مهد طريق حمام الأنف من باب عليوة بعد أن بنى هو ذلك الباب. وأدار على مقبرة الزلاج سوراً

---

(1) أنشىء مجلس النظافة سنة 1290 بجانب المجلس البلدي الذي تأسس سنة 1275.
ومجلس النظافة هذا كأنه شعبة من المجلس البلدي.
لكنه يزيد عليه بدخول أعضاء من الأجانب لتيسير أداء الأجانب ما يلزم للنظافة وحصل منه شيء من النظافة الضرورية.
وجاء هنا لفظ التضريس بمعنى تبليط الطرقات ومعنى ضرس عربية بنى البئر بالحجارة ولعلّ المستعمل في تونس مأخوذ من ذلك على وجه التمجز.

لحمايتها من الدواب. وجعل قشلة العطارين سجناً[1] مقسماً إلى فروع كثيرة لمجرمي الأهالي والأجانب، وجعل له حفظة لتنظيفه، وأجرى عليه مونة كافية بعد أن كانت المساجين يسجنون في دهليز من العذاب وربما مات من تطول إقامته فيه، وجعل له قانوناً يشتمل على أربعة وعشرين فصلاً مؤرخاً بالتاسع عشر من ربيع الأول سنة إحدى وتسعين. وأقام مجلساً للتحفظ ركبه من الأهالي والأجانب الأطباء وغيرهم للنظر في الواردات البحرية وصحة أهلها يجري عمله على مقتضى قانون مؤلف من عشرين فصلاً بتاريخ الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين.

وأقام في هذا التاريخ مجلساً مختلطاً أعضاؤه مركبون من سائر الدول التي لها رعايا كثيرة في البلاد تحت رئاسة أحد الأهالي للحكم في النوازل المالية التي بين الأجانب والأهالي. وأول رئيس انتصب عليه حسونة بن أحمد الوزير الأندلسي أمين الشواشية.

وضبط سياسة الدولة مع سائر الدول الأوروباوية التي لها رعايا بتونس بمعاهدات يجري التعامل بمقتضاها فكان الاتفاق المنعقد مع دولة إنكلترا مؤلفاً من سبعة عشر شرطاً بتاريخ يوم السبت السادس والعشرين من ربيع الثاني سنة ثمانين، ثم حرره باثنين وأربعين شرطاً بتاريخ يوم الاثنين السادس عشر من جمادى الثانية سنة اثنتين وتسعين. والاتفاق الواقع مع دولة إيطاليا يتألف من ستة وعشرين شرطاً. وأكد الاتفاق الذي كان عقده أخوه مع دولة النمسا المتركب من عشرين شرطاً المؤرخ بغرة جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين. وبذلك أتم سياج السياسة الخارجية.

وضبط الفلاحة في داخلية المملكة بقانون يحتوي على ثلاثة وسبعين فصلاً في ضبط أحكامها ومصالحها بتاريخ الخامس والعشرين من صفر سنة إحدى وتسعين.

(1) قشلة العطارين بناها الأمير حمودة باشا وكلّف ببنائها أمين العطارين الحاج علي الشفي. ثم ابنه محمد العابد الأمين بعده ثم استعملت سجناً مدنياً والآن استعملت داراً للكتب الوطنية بعد أن كانت تسمى المكتبة العامة.

وضبط خدمة العمال والمتعينين للأعراب وغيرهم بقوانين تجري عليها إدارة خدمة العمال ومقدار ما يأخذه المتعينون من المجرمين مع التشديد على من يتجاسر على أخذ شيء زائد فكان قانون خدمة العمال مؤلفاً من عشرة فصول وقانون خدمة المتعينين من تسعة عشر فصلاً وكلاهما بتاريخ أوائل ربيع الثاني سنة ثلاث وتسعين.

وأسقط قانون زيتون الوطن القبلي وصيره عُشْراً شرعياً على الزيت لما رأى من ضعف الزيتون المذكور عن أداء القانون في الرابع والعشرين من شوال سنة تسعين وبذلك تضاعف أمن المملكة واستكمل فخرها حتى أمنت فيها السبل واطمأن أهاليها عموماً فكان هو المجدد للدولة وله فخر تجديدها.

ولم يكفه هذا التجديد، الجاري على مناهج الرأي السديد، بل ترقى في حفظ أمن البلاد وتحسين إدارة الدولة فأقام مجلساً[1] شورياً تحت رئاسة الوزير الأكبر للنظر في مهمات نوازل الدولة الداخلية والخارجية. فكان أول اجتماعه صبيحة يوم الاثنين الثامن عشر من رجب الأصب سنة ست وتسعين بسراية حلق الوادي، ورئيسه الوزير الأكبر الحالي وأعضاؤه وزير الشورى مَحمد خزندار الوزير السابق، ووزير الشورى الشيخ محمد العزيز بوعتور باش كاتب، ووزير الشورى حسين المكلف بالمعارف العمومية والنافعة، ووزير البحر أحمد زروق، ووزير الحرب سليم، ومستشار الوزارة الخارجية الشيخ محمد البكوش، ومستشار القسم الثاني محمد المرابط، وكاهية باش كاتب الشيخ محمود بوخريص، والمدرس الشيخ مصطفى رضوان رئيس كتاب الكومسيون. ثم ضمّ إليهم رئيس المجلس البلدي الشريف محمد العربي زروق، ورئيس جمعية الأوقاف المدرس الشيخ محمد بيرم، وعند سفره وليها عوضه رئيس كتاب القسم الثاني الشيخ يوسف بن أحمد جعيط، فكان لجميعهم تعاون على مصالح البلاد. وذلك من أعظم مآثر هذا الأمير الفائز بالسبق على سائر الأمجاد.

أما اعتناؤه بالعلوم وأربابها لقذف الروح في جسد المملكة فحديثه في هذا

(1) انظر الملحق عدد 5.

الباب طويل الذيل ونقتصر منه على الأمهات، فنقول: إنه بإثر استوائه على كرسي المملكة أمر بإرجاع جميع أرباب خطة العدالة إلى خطتهم التي كانوا عزلوا منها، وكذلك أرجع سائر المؤذنين بعد أن كانوا عزلوا أيضاً اقتصاداً في العدول والمؤذنين فنال بذلك من الدعاء الصالح ما لا حد له.

ثم لما رتّب المجالس وكان من مقتضياتها أن الحجج لا تمضي لديها بدون ختم شرعي أذن جميعَ أرباب الخطط الشرعية من القضاة والمفتين بوضع أختام بعد أن كان الختم خاصاً بالقاضيين لا غير.

ثم لما انقضت السنون التي أتت على المملكة وأهلها بما تناقصت به جميع المداخيل ولم يبق لبيت المال دخل يقوم برواتب المدرسين بجامع الزيتونة وحدث بعض فتور في العلم أمر بجمع المدرسين وأهل المجلس الشرعي بجامع الزيتونة، واستنهض همتهم العلمية وعين لأهل الرتبة الأولى ثلاثة ريالات يومياً تخرج من الدولة زيادة على ما لهم في بيت المال. وجعل لأهل الرتبة الثانية ريالاً يومياً زيادة على ما لهم من وقف المدرسين. وأبرز بذلك منشوراً قرىء بجامع الزيتونة بمحضر جميع العلماء في غرة رجب الأصب سنة سبع وثمانين ومائتين وألف. وعين أربعة من رجال الدولة لتفقد أحوال الجامع وتقريرها لدى الدولة، وهم: الشيخ محمد العزيز بوعتور باش كاتب، وحسين مستشار القسم الثاني من الوزارة الكبرى، والشيخ أحمد بن أبي الضياف، والشيخ محمد البكوش.

وأبطل وظيفة الحسبة التي كانت تجتمع لنظرها جميع أوقاف المملكة لصرف فواضلها لأرباب الخطط الشرعية فوزع مهمات أوقاف المملكة على المشايخ أهل المجلس الشرعي كل واحد يقوم بشعائر الأوقاف التي لنظره ويستقل بفاضله واستمروا على ذلك أكثر من ثلاث سنين غير أن دخل الأوقاف ضعف وتناقصت جراية الدولة عن المدرسين، فاستدرك الحالة بقانون علمي [1]

(1) الترتيب المذكور لجامع الزيتونة ترتيب ثان بعد ترتيب المشير الأول أحمد باشا باي الصادر في 27 رمضان سنة 1258.
=

مؤلف من سبعة وستين فصلاً مؤرخ بالثامن والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة اثنتين وتسعين، قد اجتمع على تأليفه أعيان علماء العصر، فكان أكمل أنموذج

= ونوه بهذا الترتيب الأول صاحب الإتحاف بعد تقدمة بيّن فيها عناية المشير الأول ونصّ تنويهه:
وفي هذه الأيام ظهر عز العلم وتجدد شبابه.
وما ذكره كانت له آثار حسنة في المستقبل لهذا التنظيم.
والقانون المنوه به في هذا التأليف من مبتكرات الوزير خير الدين حتى أنه يعرف عند الناس بقانون خير الدين، وإنما أمضاه المشير الثالث محمد الصادق باي.
وطبع هذا القانون في السنة نفسها التي صدر فيها، وهي سنة 1292 والفنون التي تدرس به هي:

1) علم التفسير.
2) علم الحديث.
3) علم التوحيد.
4) علم القراءات والتجويد.
5) علم المصطلح.
6) علم أصول الفقه.
7) علم الفقه.
8) علم الفرائض.
9) علم التصوف.
10) علم الميقات.
11) علم النحو.
12) علم الصرف.
13) علم المعاني والبيان.
14) علم اللغة والأدب.
15) علم السير والتاريخ.
16) علم الرسم والخط.
17) علم العروض.
18) علم المنطق.
19) علم آداب البحث.
20) علم الحساب.
21) علم الهندسة.
22) علم الهيئة.
23) علم المساحة.

وهذه الفنون موزعة على مراتب ثلاث عالية، ومتوسطة، وأخيرة ومقسمة على سنوات ويظهر من الفنون المقررة أنها جمعت ثلاثة أمور:
ثقافة دينية.
ثقافة عربية.
ثقافة اجتماعية جمعت فنوناً تؤهل التلميذ تهيئة اجتماعية.
وأتبع ذلك القانون المتضمن ترتيب جامع الزيتونة الصادر في 28 ذي القعدة سنة 1292 بقانون آخر في ترتيب أعمال نظارة العلوم بجامع الزيتونة وصدر في 5 ذي الحجة سنة 1292 وهو مشتمل على اثني عشر فصلاً.
وأتبع ذلك بدفتر شهادات التلاميذ لحضورهم بالدروس وذلك سنة 1293 على مقتضى الفصل 24 من الترتيب المذكور.
والعجب من الشيخ محمد بيرم الخامس أنه لم يعط هذا القانون ما يستحقه من تأريخ إذ كتب عليه بضعة سطور مع أنه في جمعية الأوقاف وغيرها أطنب الإطناب الكلي.
وما كتبه على هذا القانون لا يخرج عن ثلاثة أسطر في (ج 2 ص 67).

يجري عليه نظام التعليم بجامع الزيتونة مع تعيين مائة كتاب وستة عشر كتاباً منتخبة من ثلاثة وعشرين فناً تدرّس بجامع الزيتونة. وحفظ نظارة العلم بمستشار من الدولة، وأول من تقلد هاته النظارة حسين المكلف بالمعارف العمومية وجعل له نائبين من أعيان المدرسين يباشران النظر على أعمال الجامع كل يوم. وعين الامتحان العام لسائر طبقات التلامذة في شهر ماية الأعجمي من كل سنة، وقرىء منشور ذلك بجامع الزيتونة أول المحرم من سنة اثنتين وتسعين، فتكاثرت الدروس والمدرسون، وأقبل الطلبة على العلم حتى بلغ عدد الدروس التي أُقرئت بجامع الزيتونة في سنة أربع وتسعين إلى أحد وعشرين ألف درس ومائتين ودرسين من الكتب التي اقتضاها الترتيب. وبلغ الآن عدد المتصدرين للإقراء تطوعاً إلى ثمانية وخمسين عالماً زيادة على الذين يستحقون الجرايات المعينة وقد منح المتأهلين للإقراء بإجازة الامتحان التقديم لخطة العدالة على مقتضى الإلحاق الصادر بتاريخ الثاني والعشرين من صفر الخير سنة سبع وتسعين، وأصدر بذلك منشوراً قرىء بجامع الزيتونة بعد صلاة الظهر من يوم الأربعاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور ترغيباً في العلم، وقد بلغ عدد التلامذة بالجامع الأعظم إلى أكثر من سبعمائة تلميذ، وحسبك بذلك مزية لهاته الدولة.

وقد جمع[1] جميع أوقاف الحاضرة وسائر بلدان المملكة لنظارة جمعية

---

(1) أحدثت جمعية الأوقاف بالأمر الصادر في سنة 1291 .

وتحدث عن جمعية الأوقاف صاحب صفوة الاعتبار تحدث عارف بها في بسطة ضافية جاء في أول تلك البسطة.

ومن تصرفاته - أي الوزير خير الدين - بعد ذلك إنشاء جمعية الأوقاف بأن جعل نظر الأوقاف مطلقاً في جميع أنحاء القطر لجماعة من أعيان الأهالي مركبة من:

رئيس.

ونائبه.

وعضوين.

وكانت جمعية الأوقاف من حيث تنظيمها تمول جهات كثيرة وتقيم بمصالح متعددة.

- تعطي مرتبات أئمة الجوامع والسدنة وما يتبع ذلك من مفروشات وغير ذلك.

- تمويل المدارس المعينة للتدريس بعنوان خاص مع سكنى الطلبة.

وعناية الأوقاف بما ذكر غير مقصورة على الحاضرة إذ تشمل كل جهة في القطر وبلغت =

تجعل من تحت تصرفها وكلاء يقومون بلوازم شعائر الأوقاف، وما يفضل من ذلك يدخل لإدارة الجمعية تدفع منه مرتباً للمشايخ أهل المجلس الشرعي بالحاضرة قدره ثمانية آلاف ريال في السنة لكل واحد من شيخي الإسلام وستة آلاف لكل واحد من بقية الشيوخ وثماني عشرة مائة ريال لكل واحد من قضاة حواضر المملكة و 1440 ريالاً لكل واحد من مفتيي بلدان المملكة، و 1080 لبقية قضاة البلدان، ويدفع منه من مرتب المدرسين المقدار المعين على الدولة. وأصدر بذلك ترتيب أعمال الجمعية المشتمل على أربعة وعشرين فصلاً المؤرخ بالمحرم الحرام سنة إحدى وتسعين فأخذت الجمعية في ضبط الأوقاف ومداخيلها وأموال ما عوض منها مما جرى تأمينه تحت يد أفراد معتبرين البالغ قدر ذلك إلى ما يقرب من الثلاثة الملايين لتستخلص منه ما يمكن خلاصه

= الإصلاحات (3330) للمساجد والمدارس وغيرها.
إجراء مرتبات أهل المجلس الشرعي.
مرتبات المدرسين.
جرايات الحكام الشرعيين في سائر بلدان القطر التونسي.
بناء الأسوار والأبراج تحصيناً للبلاد.
تمويل المدرسة الصادقية.
كانت جمعية الأوقاف مركزاً ممولاً لجهات متعددة ومصالح مختلفة وأول رئيس لها هو:
الشيخ محمد بن مصطفى بن محمد بيرم الثالث المتوفى 1307.
وبقيت جمعية الأوقاف مصدراً ممولاً لما يرجع للأمور الدينية الإسلامية إلى أن أدركها الهرم بسبب أمرين:
● الأول هو إنزال الأوقاف، وكان الجشع أكثر فأكثر من المعمرين الذين استحوذوا على أراضي الأوقاف العامة الخصبة بأثمان بخسة وظهر هذا الغبن الفاحش بعد الحرب العالمية الأولى حيث استحوذ المعمرون على كل أراضي الأوقاف بكراء قار، وقد ارتفعت الأسعار وانحطت قيمة العمولة.
فكان المعمر يدفع للأوقاف في مقابلة مئات الهكتارات ما لا يساوي قيمة هكتار واحد.
والإنزال وإن استفاد منه البعض من التونسيين فإنه لا يذكر أمام ما استفاده المعمِّرُون.
● ثاني الأمرين أن جمعية الأوقاف أصبحت تعج بالموظفين فوق حاجاتها بأضعاف مضاعفة حيث أن الوظائف سدت في أوجه التونسيين لاستحواذ الفرنسيين عليها فكان الثقل محمولاً على الأوقاف.
وبقيت جمعية الأوقاف قائمة إلى أن أُلغيت الأوقاف العامة.

وتعاوض به أوقافاً واجتمعت الأوقاف أحسن اجتماع بلغت به مداخيلها من ثمن الغلال والأكرية والإنزالات إلى ك 01,678,016 ريالات فضة في سنة خمس وتسعين وبذلك وقع استدراك ما أتى عليه الخراب من الموقوف والموقوف عليه في الحاضرة وسائر بلدان المملكة. وأقيمت شعائر جميعها بإجراء لوازمها مع مرتبات أربابها السنوية البالغ لازم ذلك إلى ما يقرب من الستمائة ألف ريال فضة. وأصلحت جميع جوامع الخطب بالحاضرة، وفتح باب جامع القصبة من السور في رمضان المعظم سنة إحدى وتسعين[1] فانتفع به عموم المسلمين. وأحييت المساجد والزوايا حتى بلغ الآن عدد القائم من مساجد الحاضرة إلى مائتين وخمسين مسجداً أغلبها وقع فيه إصلاح له بال فضلاً عما أُعيد أصل بنائه منها وأُصلحت جميع المدارس وأحييت كثير من الأوقاف بعد أن لم تكن منتفعاً بها. ووقع مثل ذلك في أغلب الزوايا والمكاتب وأصلح سور الحاضرة من عدة جهات وسور صفاقس، كذلك سور بنزرت وسور القيروان، وتجدد سقف جامعها الأعظم الذي هو من وضع الصحابة. وهكذا عمّ الإصلاح سائر جهات المملكة وأصلح أيضاً كثيراً من الأبراج. وأُعيد بناء برج حمة قابس بحيث إن نحو ربع المدخول في هاته السنين صرف في الإصلاحات المهمة لإحياء الأوقاف زيادة على إجراء الشعائر على وجهها على مقتضى نصوص المحبسين. ثم إن فاضل الدخل أُجريت منه المرتبات المعتبرة الكافية لجميع أهل الخطط الشرعية والمدرسين بالحاضرة وبلدان المملكة البالغة إلى 234,525 ريالاً فضة في كل

---

(1) فتح باب جامع القصبة من السور لأنه كان جامعاً خاصاً بمن في القصبة ففتح له الوزير خير الدين بابا على الطريق حتى عمر بالمصلين.
وقد كان من قبل لا تكاد تصح فيه جمعة لقلة العدد لأن القصبة أُخليت من سكانها.
وهذا الجامع أسسه أبو زكرياء الأول من ملوك بني حفص وفرغ من بنائه يوم الجمعة السابع لشهر صفر الخير من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة (633).
وكان الابتداء في بنائه سنة تسع وعشرين وستمائة (629).
وجدد رسوم القصبة حين بناء الجامع.
ولما كملت الصومعة في رمضان سنة ثلاثين وستمائة (630) صعد إليها الأمير أبو زكرياء الأول وأذن فيها بنفسه (الزركشي ص 19 ط 1).

سنة تدفع لهم مشاهرة على حسب اختلاف القدر المعين لهم وما يفضل تقام به مصالح عمومية في البلاد، كل ذلك من البر الذي حسناته في صحيفة هذا الأمير أبقاه الله.

وقد عين قشلة طريق سيدي المرجاني[1] فجعلها مكتباً عاماً أوقف عليه أوقافاً لها بال وأجراه على نظام المكاتب الجديدة لتعليم أبناء الأهالي العلوم الدينية واللغوية واللغات الأجنبية والمعارف الإفرنجية من الرياضات وغيرها وجعل لذلك قانوناً اجتمع على ترتيبه أعيان علماء العصر فكان مؤلفاً من اثنين وثمانين فصلاً صدر بتاريخ خامس ذي الحجة الحرام سنة إحدى وتسعين ففتح

---

(1) مكتب قشلة طريق سيدي المرجاني: ـ القشلة أي الثكنة ـ من مؤسسات حمودة باشا وهي إحدى الثكنات الخمس التي أسسها الأمير المذكور وهذا المكتب يعرف (بالمدرسة الصادقية).

والقصد من إنشاء المدرسة الصادقية هو تعليم العلوم الشرعية والقراءة والكتابة والقرآن والحديث والعقائد والفقه المالكي والحنفي والنحو والصرف والأدب والتاريخ والخط والمعاني وتهذيب الأخلاق وتعليم اللغات التركية والفرنسية والإيطالية وتعليم الفنون الرياضية كالحساب والهندسة والهيئة والجبر والجغرافيا.

وكان تأسيس المدرسة الصادقية بأمر علي في 5 ذي الحجة سنة 1291.

وكان بها مائة وخمسون تلميذاً؛ خمسون تقوم المدرسة بشؤونهم كلها من مبيت وأكل ولبس وأما المائة فإن المدرسة تقوم بأكلهم نهاراً وبالتعليم المجاني.

وقد جعل لكل التلاميذ لباس خاص وهو جبة وشاشية تونسية.

وقد صرفت العناية لهذه المدرسة وتحدث الرائد التونسي عن امتحانها كما وقعت الإشادة بالمتفوقين فيها.

من ذلك ما جاء في العدد الأول من الرائد سنة 1294.

المدرسة الصادقية.

قد تمّ بالحمد لله امتحان تلامذة المدرسة الصادقية أمس التاريخ.

وكانت مدة الامتحان أربعة عشر يوماً لأن يومي الجمعة من الأسبوعين الفارطين لم يقع فيهما امتحان.

ثم وضح تفصيل العلوم التي أجرى فيها الامتحان ومنها مبادىء اللغتين الفرنسية والطليانية أما التركية فلم تذكر من بين اللغات.

ومما جاء في مقال امتحان الصادقية الإشادة بالنبوغ التونسي:

(وقد رأينا من مهارتهم ما يشهد بحسن فطرة أبناء الصقع التونسي حيث أن أمد تعلمهم لم يبلغ العامين لكن العناية الإلٰهية قد حفتهم فأدركوا على حين صغرهم قبل إبان بلوغ الشبيبة ما عزّ على الكهول غيرهم).

المكتب المذكور بعد إتقان تقسيمه وتحسينه وأجرى به مونة الطعام لعموم التلاميذ والكسوة والفراش للمقيمين به خاصة وأقام بـه معلمين من علماء الحاضرة والترك والإفرنج وظهرت منه نشأة بارعة وحضر بنفسه في مـوكب امتحانهم السنوي.

وأوقف كتباً كثيرة ملأت ست خزائن جعلها بصدر جامع الزيتونة أواسط سنة إحدى وتسعين. وأعاد ترتيب تلك الخزنة بتحرير أسماء كتبها البالغة نحو عشر آلاف[1] مجلد ووضع أعداداً متوالية على تلك المجلدات بعد تحرير قيمتها التي لم تزل اليد جائلة في إتمامها.

وقد جمع جميع كتب المدارس والجوامع الأُخَر وضمّ إليها كتباً أُخرى وجعلها مكتبة عامة بالمحل الذي بناه أبو عبد الله الحفصي بجامع الزيتونة[2] عند

---

(1) ابتدىء في تأسيس مكتبة جامع الزيتونة سنة (1256) حين أوقف المشير الأول كتب المكتبة الأحمدية في عشرين خزانة موضوعة على يمين المحراب وشماله.

وأضاف المشير الثالث ست خزائن مع إجراء التنظيم عليها.

والكتب الموقوفة من المشير الثالث التي إشار إليها هنا هي مجموعة من خزانتين وهما:

خزانة كتب الوزير الأكبر مصطفى خزندار فإنه لما نكب بعزله من الوزارة وإجراء محاسبته أخذت الدولة خزانة كتبه وهي مشتملة على كتب بديعة.

وخزانة كتب الشيخ الوزير أحمد بن أبي الضياف التي باعها في قائم حياته وكان عدد كتبه 1798.

أوقف المشير الثالث الخزانتين مع ما انضم إليهما من كتب أوقفها أهل الخير من الوزراء والأعيان وبذلك تضخمت المكتبة التي داخل بيت الصلاة من جامع الزيتونة.

وتعرف تلك المكتبة بالمكتبة الأحمدية.

(2) المكتبة الثانية بجامع الزيتونة المشار إليها هنا أشار إليها صاحب صفوة الاعتبار: ومنها ما أنشأ بأمره ـ أي خير الدين ـ من إحداث المكتبة الصادقية حول جامع الزيتونة وجعل لها ترتيباً لم يسبق في البلاد على نحو التراتيب الجارية في الأستانة والممالك المتمدنة بحيث لا يخرج الكتاب من المحل، ويستنفع المريد بما شاء من الكتب، بأنواع الاستنفاع مع تحسين هيأة المكان، وإحضار فرشه، والمحابر والأقلام وساعة للإعلام بالوقت.

والرسم بأن كل الأوامر الرسمية العامة العمل يحفظ منها بتلك المكتبة نسختان لكل من أراد مراجعة ذلك.

وانتظام وضع الكتب وترتيبها على نسق يسهل الانتفاع بها ومناولتها وأوقف عليها جميع كتبه العربية وكانت تبلغ نحو ألفي مجلد.

كما جمع بها سائر الكتب التي كانت مفرقة في الجوامع والمدارس وتلاشتها أيدي التلف حتى =

صحن الجنائز وخصّه بالمطالعة والنسخ هنالك من غير إخراج كتاب إلى خارج المكتبة فكانت المكتبة المذكورة تشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف مجلد تحتوي على عشرين فناً من خط اليد الجميل وليس فيها من الكتب المطبوعة أو الرديئة الخط إلّا ما ندر، وقد عمّ بها النفع للغرباء والمحتاجين بالمطالعة والنسخ اليومي فيها. وجعل بها ثلاثة قيمين تستمر إقامتهم سائر اليوم كله وأجرى عليهم الجرايات الكافية على مقتضى قانون رسمه في صدر أزمة المكتبة يحتوي على ستة عشر فصلاً بتاريخ الثاني عشر من ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين.

ووضح ترتيباً قانونياً لتنظيم ديوان الشريعة المطهرة[1] اجتمع على تأليفه

= ضاع أكثرها فإن خزانة الكتب الحنفية بالمدرسة الحسينية وجد بها مكنسة، ولم يوجد بها ولا ورقة مع أنها كانت تشتمل على مئات من المجلدات.

وهكذا أغلب الخزائن مع عدم النفع بها إلا لمن كانت بيده وهم أفراد قليلون يعسر عليهم وجدان الكتاب الذي يريدونه لعدم ترتيب وضعها وضبطها بدفتر وأعداد، فضبطت وعمّ النفع بها لكل مريد من المسلمين حتى قال بعض من كانت بيدهم تلك الخزائن أقسم بالله إني الآن أنتفع بما كان تحت يدي من الكتب أحسن مما كان عندي (صفوة الاعتبار ج 2 ص 67).

والمكان الذي وضعت فيه هذه المكتبة كان أسس به مكتبة الأمير الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود وتعرف إذ ذاك بالمقصورة الشرقية لأنها في شرقي الجامع ومن أجل أنه أنشأها عرفت بالعبدلية.

وتولى الأمير ملك تونس (899 ـ 932). وفي أيام هذا الأمير آذنت دولة بني حفص بالانقراض.

وحين اتخذها الوزير خير الدين مكتبة اعتنى بها وأثثها أثاثاً يتناسب مع قيمة تلك المكتبة.

ثم نقلت المخطوطات من المكتبتين الأحمدية والعبدلية إلى كلية الآداب وبقيت المطبوعات بالمكتبتين.

ثم نقلت المخطوطات من مكتبة كلية الآداب إلى دار الكتب الوطنية بسوق العطارين.

ونقلت المطبوعات إلى الكلية الزيتونية مع خزائن الكتب التي أقامها بالمكتبة العبدلية الوزير خير الدين.

(1) أحدث هذا الترتيب للمحكمة الشرعية تتميماً للعمل المتقدم من المشير الثاني محمد باي الذي تقدم الحديث عنه.

والفرق بين الترتيبين أن الأول ترتيب على الطريقة القديمة وهي كتابة منشور يعلق في المكان المراد ترتيبه مثل جامع الزيتونة في النظام الذي وضعه المشير الأول أحمد باي.

وفي النظام الذي وضعه المشير الثاني محمد باي للمحكمة الشرعية حيث كتب المنشور المرتب للمحكمة الشرعية وتعرف بالديوان معلقاً في صدر قاعة الجلسات للمجلسين الحنفي والمالكي، ويتصدر تلك القاعة كرسي لجلوس الداي. =

شيوخ المجلس الشرعي وتألف من ستين فصلاً أصدره بتاريخ موفي ثلاثين من ربيع الثاني سنة ثلاث وتسعين. وتعينت به مراسم خطة القضاء ورسوم خطة الإفتاء والأعمال التي يجري عليها الوكلاء والأعوان والخصماء. وجعل يومئذ طابعاً يخص ديوان الشريعة لختم حجج الأحكام الشرعية زيادة على ما كان عينه من كون سائر حجج العدالة لا يصح كتبها إلا بالرقاع المختومة بالختم المسمى بالتانبر منذ ذي الحجة الحرام سنة أربع وثمانين.

ووضع قانوناً[1] لضبط حجج الإشهاد يجري عليه عمل الشهود في الحاضرة وسائر بلدان المملكة، وجعل لجميعهم دفاتر لا تشذ عنها شهادة، كل ذلك بعد إحصاء سائر الشهود، وتعيين الاقتصار على عددهم الموجود، إلى أن يتناقصوا بما دون الحاجة. وعين العدد المحتاج إليه في كل جهة فضبط بالقانون المذكور كيفية تحمل الشهادة وأدائها وقد تألف من ستة عشر فصلاً أصدره بتاريخ موفي ذي القعدة الحرام سنة إحدى وتسعين كل ذلك اعتناء بالمعارف وأربابها ومحافظة على الحقوق الشرعية فكان هو الذي أسس هاته الأساسات المُحكمة البناء.

وزاد اعتناؤه بحفظ الصحة فعين قشلة البشامقية وجعلها مستشفى[2] نقل

= والأمر الضابط للمحكمة الشرعية انتظمت به المحاكم سواء منها ما كان في العاصمة أو بقية بلدان المملكة.

وقد كان القضاء الشرعي في تونس آخذاً في انتظام لتوالي الالتفات إلى تنظيمه، فلم يكن في طريق الإهمال، ولا الإغفال، وإنما كان يتدرج في التنظيم شيئاً فشيئاً شأن كل التنظيمات المتطلبة الالتفات إليها بالإصلاح والتسديد.

(1) قانون الإشهاد هذا القانون من حسنات خير الدين كما في صفوة الاعتبار حيث عدّ من حسنات خير الدين فذكر منها:

إنشاء ترتيب لأعمال العدول المنتصبين للشهادة فأفاد باختصار ما أفاده هنا.

(2) تعيين البشامقية مستشفى.

البشامقية جمع بشامقي نسبة إلى صناعة البشامق. والبشمق كلمة تركية تكتب هكذا ـ باشمق ـ والبشمق معناه الخف والحذاء والنعل. انظر (كنز اللغات ص 71).

وكان لبس الحذاء البشمق منتشراً في تونس وخاصة للذوات العلمية وبقي لباساً رسمياً لأهل العلم بتونس إلى قبيل الاستقلال. =

إليه مرضى المارستان وأقام به أطباء ومرافق وتحسينات مع الاعتناء بالنظافة وأفرز فيه قسماً للنساء خاصة وأقام به حفظة وقيمين وأحضر له آلات جراحية غريبة حتى كان في غاية التنظيم وإتقان الوضع الجاري على أحد وأربعين فصلاً من قانونه المؤرخ بيوم الأحد السادس والعشرين من المحرم سنة ست وتسعين. وحضر بنفسه يوم فتحه صبيحة يوم الاثنين الثامن عشر من صفر السنة المذكورة في موكب حضره جميع رجال الدولة. وباشر سائر الغرباء المرضى هنالك فرداً فرداً فخلّد بذلك ذكراً جميلاً وجرت إقامة جميع لوازم المستشفى بدخل وقف المارستان على أكمل نظام، وأتقن إحكام.

وأما اعتناؤه بالأشياء التحسينية التي خلّدها في المملكة فمن أعظمها فتح دار المطبعة ونشر صحيفة الرائد[1] لتعليم أهل المملكة أحوال الدول وما يتعلق

= وقد أحسن خير الدين وغيره في استغلال القشل ـ الثكنات ـ في مصالح عامة وبذلك استطاعت هذه الآثار أن تحافظ على وجودها.

فقشلة البشامقية لا تزال إلى اليوم قائمة الذات بسبب أنها جعلت مستشفى وحتى في عهد الحماية حافظت على طابعها وإن كان هناك تغييرات إلا أنها لم تخرج بها عن طابعها الخاص، وكذلك المدرسة الصادقية والسجن وهو قشلة ـ ثكنة ـ العطارين.

هذا المستشفى هو المسمى بالمستشفى الصادقي والمؤسس سنة 1296.

وقد كان نظره لجمعية الأوقاف لما كانت تدر عليها أوقافها الأموال الطائلة لكن الاستعمار تركها هزيلة وانضاف إلى ذلك أنها أصبحت كالمأوى للموظفين المنهالين عليها مما هو زائد على ما تتطلبه من الموظفين.

وهذا ما جاء في النزهة الخيرية.

(المستشفى الصادقي تحت نظر جمعية الأوقاف).

وكان المستشفى المذكور تحت رئاسة رئيس جمعية الأوقاف.

ثم لما ضعفت الأوقاف صار يتقاضى إعانات من جمعية الأوقاف المتوكلة على أوقافه ومن الحكومة التونسية، وهو مستشفى خاص بالتونسيين حينذاك.

وفي عهد الحماية كانت إدارته لأحد الأطباء الفرنسيين.

ثم بعد الاستقلال سمي بمستشفى عزيزة عثمانة وأخذ بعد ذلك نظاماً خاصاً، وإنما سمي بذلك لأن أكثر أوقافه من تحبيسها.

(1) فتح دار المطبعة ونشر صحيفة الرائد.

أول إدخال الطباعة إلى تونس كان من المشير الثاني كما تقدم ومن تاريخ المطبعة الرسمية بعد ذلك: =

بالسياسات الداخلية والخارجية تمديناً لهم. وكان ابتداء نشره أواخر عام سبعة وسبعين.

= أن الأمير محمد الصادق باشا باي أسس المطبعة الرسمية وذلك سنة 1277 كما في إتحاف أهل الزمان.

والقصد من هذه المطبعة هو إنشاء صحيفة تتولى نشر الأخبار، والمواضيع المختلفة مع الأوامر الحكومية ومناشيرها، فصدرت الجريدة باسم (الرائد التونسي).

وكان ذلك في فاتحة سنة (1277) وهي صحيفة أسبوعية إلا أنها تخللتها ظروف جعلتها لم تصدر في الإبان.

وقد أرّخ الشيخ المفتي محمود قابادو نشر الرائد التونسي مع مدح له بقوله:

يا طالباً للخبر الصادق ... أنعم بهذا (الرائد الرائق)
يأتيك بالأخبار من نفسها ... منتخباً للفائد الفائق
روض من الآداب أزهاره ... تحسن للناظر والناشق
زان به الخضراء مالكها ... دامت به تحمى من الطارق
يفصح عن فحواه تاريخه ... أنبَا بخير رائد الصادق

[1277]

وقال مؤرخاً له ومخاطباً الوزير الشيخ محمد البكوش:

رائد سوف تراه مثلاً في الناس سائر
زائر البكوش أرّخ رائد بالخير زائر

وقد نوّه الشيخ الوزير ابن أبي الضياف بفائدة المطابع: (ولا أقول إن المطابع من التحسين بل هي في درجة الحاجي، ولا يخفى أنها من فوائد العمران لأنها تفيد آداب النفوس وتسهل وجود الكتب النافعة التي كانت مقصورة على الأغنياء.

ولمصر اليد البيضاء في إخراج الكتب من حيز العدم إلى حيز الوجود.

وبالمطابع تقدم من تقدم من الأمم حتى صارت في مدن الحضارة كالأمور الضرورية وربما كانت سبباً في إطفاء نار فتنة، لأن الملوك تنظر بمرآتها إلى مطامح أنظار العامة فتعالج سقيمها بالأدوية النافعة إلى غير ذلك من فوائدها التي لا تحصى.

وأرجو أن يلهم الله للاعتناء بها أهل بلادنا حتى يتحققوا حسن الحسن، وقبح القبيح، وما يجب عليهم في مجاري العادات وما يجب لهم من الحقوق الإنسانية.

وجعل نظر هذه المطبعة للألمعي الثقة أبي عبد الله حسين رئيس المجلس البلدي.

وكتب له أمراً لا يتجاوزه، ومحصلة أن لا يطبع إلا ما ينفع الناس ولا ينافي السياسة والآداب الإنسانية، على قدر حضارة المملكة واستعداد غالبها، ونحو ذلك.

ولا يخفى أن المطابع تنطق بلسان ممالكها، واختلاف حالاتهم في التمدن والحرية وقد تنطق مطبعة بمقال لا يضر بلادها، لما في طباع أهلها من العراقة في التمدن، واستوائهم في معرفة الحقوق الواجبة لها وعليها. =

وواصل بين المملكة التونسية وسائر ممالك الدنيا[1] بسلك البرق الذي يبلغ به الخبر في طرفة عين ومد سكة الحديد[2] بين تونس وحلق الوادي

= وربما كان ذلك ضرراً في بلد آخر بالنظر إلى طباع أهله ومقدار ما عندهم من المعرفة بما لهم وما عليهم.

واختلاف طباع البشر، وعادات البلدان من لوازم النوع الإنساني ولو شاء الله لجمعهم على الهدى).

يرمي الشيخ الوزير ابن أبي الضياف إلى أن الجرائد في فائدتها ليست على وتيرة واحدة وإنما هي مختلفة باختلاف الأقطار بحسب العراقة التمدنيّة. فالأقطار البعيدة عن التمدن يكون إعطاء الحرية الصحفية لها نسبياً إبعاداً للقلاقل وتعكير الأجواء بخلاف الأمم المتمدنة والعريقة فيه لا يؤثر فيها إلا ما كان مركزاً صحيحاً، فلا تصبح كريشة في مهب الرياح، ونظرته للصحافة نظرة عميقة.

(1) استعمال البرق في تونس تحدث عنه الشيخ الوزير ابن أبي الضياف فبيّن كيف أن دَخْل البرق كان في أوروبا وافراً بسبب أخذهم في أسباب التمدن بخطوات طبيعية بينما في المملكة التونسية إذ ذاك كان دخله لا يفي بمصاريفه، فعوض أن يكون من أسباب التخفيف أصبح كلاً على الدولة.

(2) تحدث المؤلف على إنشاء السكة الحديدية في تونس تحدثاً لم تبن فيه الحقيقة التاريخية مع أن قضية إنشاء السكة الحديدية في تونس أخذ دوره في الأفكار وهو مما انتقد على الوزير خير الدين، وجاء الانتقاد من جهتين.

الأولى أن مد السكة الحديدية في الجهة الغربية المتاخمة للجزائر مؤد إلى تعبيد الطريق لغزو الجنود الفرنسية للبلاد التونسية فيكون عبورهم على القطار بين الجزائر وتونس.

الثانية أن إعطاء شركة فرنسية حق مد الخط الحديدي في جهة هي أخصب ما في البلاد التونسية مؤد إلى التدخل السياسي لفرنسا في الشؤون التونسية تذرعاً بأن لها مصالح جمة في البلاد التونسية.

إن الانتقاد الثاني له وجاهته على الوزير خير الدين لأن النفوذ الفرنسي في السياسة التونسية وتدخل قناصلها لدى الأمراء ومساسهم بكرامة الدولة مما لا يشك فيه فمنح الشركة الفرنسية حق مد السكة الحديدية يزيد في نفوذها في البلاد التونسية، والنفوذ الفرنسي ليس مقصوراً على مجرد التدخل، بل وراءه غاية أخرى وهي الاحتلال الذي هو امتداد لاحتلال الجزائر.

ومرمى الفرنسيين في احتلال تونس وقع التمهيد له بتمهيدات سياسية، فالتدخل في شؤون الحكومة التونسية وتغذية الثورات ضدها أمر واضح والخلاصة أن النفوذ الفرنسي يتغلغل يوماً فيوماً في تونس فأي عمل يقومون به في تونس ليس المقصود منه نفع تونس بل المقصود منه تقوية النفوذ الفرنسي وتمتين عراه تمهيداً للاحتلال.

ومن البديهي أن مد خط من العاصمة إلى الحدود الجزائرية يستدعي أموالاً طائلة ويستدعي حراسة حفاظاً على الخط الحديدي وعلى العربات، والحراسة على كل ذلك تستدعي أن يكون الحضور الفرنسي ضرورياً على أرض الوطن التونسي.

وهو ما تمّ بعد بضع سنوات من فتح هذا الخط الحديدي. =

وباردو، وأوصلها بعد ذلك من تونس إلى أطراف الحدود الغربية وأصدر الأمر العلي بذلك في اليوم الثاني عشر من ربيع الثاني سنة ثلاث وتسعين على اتفاق تألّف من ثمانية وعشرين شرطاً تصل به السكة المذكورة من حاضرة تونس إلى جندوبة خاصة على أن يجري عمل السكة على نحو ما تحرر في التسعة والأربعين فصلاً التي عينتها الدولة، وجرى ذلك على الوجه الأتم مع شركة تسمى الباتينيون ثم منح لشركة عنابة وقالمه مد السكة من محطتها بدخلة جندوبة إلى طريق الجزائر على ستة شروط تحررت بتاريخ الثالث والعشرين من المحرم الحرام سنة خمس وتسعين. وقد ابتدأ سير الأقطار صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة ست وركب في ذلك القطار الأمير وسائر رجال الدولة وتلقته أعراب تلك الجهات بالملاعب والسرور وعاد مسروراً بسرورهم.

= وما وقعت الإجابة به في تخليص الوزير خير الدين لم يرفع اللوم عنه لأن منح الشركة ذلك الامتياز بمد الخط الحديدي له أثره السيء سواء كان ذلك منه عن حسن نية أو غير ذلك.

والخط الحديدي في الجهة الغربية طلبته أوّلاً شركة إنكليزية ووقع الاتفاق بينها وبين الحكومة التونسية في سنة (1291) ولكن الشركة عجزت عن إتمام الاتفاق فطلبت من الدولة التونسية أن تتعهد لها بربح خمسة في المائة على ما تصرفه ولو في صورة عدم الربح بأن تتولى الدولة ذلك من مالها، فلم تقع الإجابة عن مطلبها مما أدى إلى فسخ الاتفاق معها.

فتقدمت شركة فرنسية وطلبت أن تحل محل الشركة الإنكليزية فتمّ لها ذلك سنة (1293) وتمّ فتح هذا الخط كما ذكره المؤلف هنا سنة (1295).

وقد أطال الكلام الشيخ محمد بيرم الخامس إطالة غير معهودة منه في صفوة الاعتبار تبريراً وإيضاحاً لفائدة مد الخط الحديدي المذكور.

وعلى كل فالنية وإن كانت حسنة لتقريب المسافات ولنقل المنتوج الزراعي إلا أن منفذي المشروع من الفرنسيين لهم مرامٌ بعيدة في إدخال تونس تحت الحماية الفرنسية وهو ما ثبت في الأيام القريبة حيث دخلت تونس تحت الحماية الفرنسية سنة (1298).

وأول خط حديدي مدّ في تونس كان سنة (1288) وكان امتداد هذا الخط بين الحاضرة وحلق الوادي.

وذكر المؤلف بعد حديثه عن سكة الحديد أن تنوير البلاد بالغاز كان على يد شركة إنجليزية وهو ما أشار إليه صاحب صفوة الاعتبار.

ومنها ـ أي من مآثر الوزير خير الدين ـ إنشاء معمل الغاز بيد لجنة إنكليزية في الحاضرة (ج 2 ص 74).

وكان تنوير الطرق بالغاز في تونس سنة (1291) كما جاء هنا، وفي مصر سنة (1285).

وقد أجرى نور الغاز الهوائي في الأنابيب لإيقاد البلاد وتنويرها بهذا النور الساطع وكان ابتداء جريانه أواسط ربيع الثاني سنة إحدى وتسعين بعد أن عمم سائر حومات البلاد بساقيات ماء زغوان وأجراه في سائر منازلها ومنازهها.

وأقام الخزنة الضخمة البناء التي عند باب سيدي عبد الله الشريف مجتمعاً للماء الوارد من المنبع المذكور. وأقام فوقها الفوارة الضخمة[1] الدائمة الانهمال، وعمّ سقيها بساتين منوبة ومنازه حلق الوادي وبساتينه. وكان وصول الماء المذكور إلى الحاضرة سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف.

وقد وسع كثيراً من المناهج[2] بواسطة مراسم المجلس البلدي، ومن أعظمها طريق البحيرة المقسم والنهجان الموصلان إلى محطتي سكة الحديد[3] وذلك بعد هدم سائر الأبنية القديمة التي كانت أمام باب البحر. وهدم فندق الغلة القديم، وسوى هنالك مركزاً لكراريس الكراء سنة اثنتين وتسعين. وأقام الجنينة التي أمام باب البحر والجنينة التي جعلها في القصبة مع تسوية بطحائها وسائر منافذ طرقها المتسعة وتمهيد الطريق الواصلة من باب البنات إلى باب سويقة بعد أن كان مهدها من باب السويقة إلى باب الجزيرة خطاً واحداً في غاية الاتساع والاستواء بالضرس، وهدم ما تداعى من السور المحيط بالمدينة حيث

---

(1) الفوارة المشار إليها بقيت إلى عهد قريب، وكانت في حديقة صغيرة.
وأما خزنة المياه ـ والصواب خزانة الماء ـ فلا تزال إلى اليوم لكنها لم تبق وحدها بل ضُم إليها غيرها بسبب اتساع العاصمة وتكاثر السكان.
ومن أهم هذه الخزانات الخزان الموجود خارج باب القرجاني فإنه يمد البلاد بالماء النمير.

(2) استعمل المناهج جمعاً لكلمة نهج بمعنى الشارع، وجمع النهج على نهجات ونهج ونهوج.
وأما المناهج فهو وإن كان جمعاً للمنهاج، وهو الطريق الواضح إلا أن كلمة المنهاج اسماً للشارع غير مستعملة في تونس والجمع المستعمل في تونس للنهج هو الأنهج.
ثم أن استعمال النهج بمعنى الشارع هو استعمال تونسي والمستعمل هو الطريق، أو السكة وهي الطريق المستوية.
وأما استعمال السكة في القضبان الحديدية فاستعمال محدث.

(3) ما فصله المؤلف هنا من هدم الأبنية القديمة وإحداث طرق عصرية ناسباً له للمشير الثالث أجمله صاحب صفوة الاعتبار عادا له من حسنات الوزير خير الدين.

لم يكن به نفع مع وجود السور الخارجي وبقي خرابه كلاً على البلاد فأزاله ووسع بمحله الطرق وسواها بحيث أزال باب قرطاجنة وباب السويقة وباب البنات وما بينهما من السور، وأزال باب سيدي علي الزواوي وباب الجزيرة حيث أن جميعها في وسط البلاد وعلى البلاد السور الخارجي الضخم الأبواب، وأعاد بناء باب الخضراء [1] وحسن مسالكه سنة اثنتين وتسعين. وقد عين جرايات كافية للالتزام بإصلاح ذلك على الوجه الحسن وبموجب القيام بمصاريف تلك الطرقات وظف أداء على الكراريس والكراريط بحيث أن كروسة المالك تودي خمسة ريالات وكروسة الكراء تؤدي أربعة ريالات والكرطون[2]

---

(1) سمي هذا الباب بباب الخضراء أي باب تونس لأنه مفتتح البلاد. هذا هو المشتهر عند الكافة، ولذلك يقال تونس الخضراء وتغنى بذلك بعضهم في أنشودة تقريباً لمجيء الألمان لتونس لأنهم حلفاء الدولة العثمانية في حرب (1914 ـ 1918 م).

(يا تونس الخضراء علاش حزينة كانك على الألمان غدوه يجينا)

وفي ظني أن الباب سُمي بذلك لأنه يقابل الجهة الخضراء من البلاد التونسية فالمقصود الجهة التونسية الخضراء لأن الشأن أن الأبواب تسمى بما يقابلها كباب قرطاجنة أي الباب المقابل لمدينة قرطاجنة العتيقة.

وباب الجزيرة أي الباب المقابل لجزيرة شريك، وهي المعروفة اليوم بدخلة المعاوين بالوطن القبلي.

وباب السويقة أي الباب الذي يفتح على السويقة.

وباب تونس بالقيروان، وهو الباب الذي يتجه منه إلى تونس.

وتسمية هذا الباب بباب الخضراء تسمية متأخرة لم تكن مذكورة عند المؤرخين.

ومما يدل على أن التسمية حديثة أن الشاعر الورغي في قصيدته التي وصف فيها معالم تونس وأبوابها لم يذكر باب الخضراء، وإنما ذكر غيره مثل قوله في باب سعدون:

باكر صبوحك ليس الوقت بالدون واجعل صبوحك عند باب سعدون

وقوله في باب البحر:

واحضر عشية باب البحر مغتبطاً فربما نفست عن كرب محزون

وقوله في باب المنارة وباب الجديد:

وادفع إلى البيت من باب المنارة أو باب الجديد إلى سوق الرياحين

(2) جمع الكروسة على كراريس والأولى في جمعها أن يقال كروسات، والجاري على الألسنة الكرارس، وكأنه جمع كروسة على كراريس كما تجمع الكراسة من الأوراق التي هي جزء من الكتاب على كراريس.

وأتى بكراريط جمع كرطون، وهو جمع غريب لأن كرطون يجمع على كرطونات ولعلّه جمع =

يؤدي ريالين جميع ذلك مشاهرة يستوي فيها الأهالي والأجانب وأصدر بذلك قانوناً مؤلفاً من أحد عشر فصلاً مؤرخاً بالثاني عشر من ربيع الأول سنة ست وتسعين.

وأما أبنيته الفائقة فأولها بناؤه لدار باردو المعمور ثم بنى الأبنية الفائقة في قصر البرطال الذي حول باردو وسماه القصر السعيد[1] فأبدع إحكام بنائه ونضد فرشه، وسكنه أواخر سنة ست وثمانين ورصَّع جبهته بعد ذلك بسراية فاخرة سماها مقر السعادة، فكان من أعظم أبنية البلاد، وكذلك أبنيته التي شادها بحلق الوادي فقد شيد به السراية وأحدث بيت البحر من أضخم البناء وأَرْوَقِه وأحيا جامعه وأقامه أكمل إقامة بعد تجديده، ومن ذلك تحسينه لبناء جامع باردو وفتح بابه الضخم وبناء سوق القصبة والعلو الباذخ الذي قبالته[2] على دار المولى حمودة باشا المرادي التي عاوضها حمودة باشا الحسيني في غرة شوال سنة تسع عشرة. وجدد بناءها على الوجه الأتقن، وبنى حولها سوق الباي المشهور فكان هذا العلو الصادقي كالتاج على جبهة ذات الجمال وتسمى اليوم بسراية المملكة. وبنى[3] زاوية الشيخ سيدي محرز بن خلف البناء العظيم وشيد قِبابها

= لكريطة لأن اللسان الدارج يستعمل كرطون وكريطة فكأنه أتى بالجمع من استعمال ثم جاء بالمفرد بالاستعمال الآخر.

(1) قصر السعيد تحدث عن هذا القصر وتاريخه العدد الثامن والعشرون من السنة العاشرة من الرائد التونسي في سنة 1286.

وبهذا القصر وقعت معاهدة الحماية الفرنسية للبلاد التونسية وذلك في (12 جمادى الثانية سنة 1298) وفي (12 ماي سنة 1881).

وبهذا القصر توفي المشير الثالث محمد الصادق باي في أواخر سنة 1299.

(2) العلو الذي بني في عهد الصادق باي هو العلو المشرف على ساحة القصبة وهو مع جملة البناءات صار يعرف بدار الباي، وهو مقر الحكومة التونسية، وبه الآن الوزارة الأولى ووزارة الخارجية.

(3) زاوية الشيخ محرز بن خلف من أشهر الأمكنة في تونس وهذه الزاوية بها قبر الولي الصالح والزعيم الديني محرز بن خلف بن رزين الصديقي المتوفى سنة (ـ 413 هـ) رحمه الله تعالى ورضي عنه ودفن بداره بتونس.

ومناقب محرز بن خلف جمعت في تأليف أبي طاهر الصقلي الذي كان حياً سنة (430) انظر ص 143.

الهائلة البديعة النقش بعد أن جدد بابه الخارجي سنة تسع وسبعين وجدد قبة زاوية الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي[1] وأحضر لها عملة نقش حَدِيدة فأتى بها أغرب صنع وقع في البلاد وأتم تجديدها سنة خمس وتسعين في أعلى شاهد على دقة مصنوعات البلاد وعلو همة صاحبها فمن علم منه هاته المآثر الجمة والمفاخر المهمة، صح له أن يلقبه «بفاتح عصر التمدن في البلاد التونسية».

فقد باشر الحكم بنفسه بإنصاف وتحر فيه وتثبت مع كمال فطنة واستحضار النوازل وما سبق فيها، وشدة التحري في قتل النفس بحيث إنه لا يأمر بالقتل إلا بعد حكم الشرع العزيز، ولربما بذل من عنده الفداء إلا إذا تشدد أولياء المقتول في طلب الاقتصاص، وبالجملة فإنه فارس المحكمة ولذلك جميع أصحاب النوازل يترصدون بنوازلهم يوم حكمه الفصل، وله أعظم حزم في الذب عن حقوق المملكة والاعتناء بحفظ الدين يليق بعراقة مجده وغيرته على مملكة آبائه وأجداده.

وله شغف بحب الأولياء وتعظيم الأشراف والعلماء واعتبار أعيان المملكة حتى خلد بذلك أعظم مودة له في نفوس جميع الأهالي.

ومع ذلك قد حصل بعناية الله على تحسين حال المملكة وتقديم أهلها إلى مسالك التمدن حتى أصبح في خفض عيش وحسن تمتع ببلوغ الآمال. يسكن القصر السعيد حول باردو وأغلب السنة عدا زمن الحر في المصيف فإنه يسكن في سراية حلق الوادي وبيت البحر. وقد خرج أواخر عام ثلاثة وتسعين في زمن الشتاء إلى حمام الأنف وأحدث به هنالك أبنية.

وأقامت العساكر النظامية حول أبنيته في أخبيتهم مدة تلك الإقامة، ولما ورد وارد إقبال رأس العام وهو مقيم في تلك المنازه هنيت جنابه بقصيدة سميتها «مورد الهناء المعين. بعام أربعة وتسعين» فقلت:

---

(1) زاوية الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي هي زاويته المعروفة الكائنة بحوانيت عاشور، والشارع الذي هي فيه اليوم يعرف بنهج الشيخ إبراهيم الرياحي.

عـام انتـزاه الصـادق المنصـور ... وافَى ببشـر ليس بـالمحصـور
فـأتى إليـه وخلفـه الأعـوام سـا ... عيـة لمعهـد فضله المشكـور
كـل لعـزه وافـد كي يـلتقي ... بجمـال طلعتـه ممـر عصـور
لكن هـذا العـام جلى بينهـا ... فـأتى كـإخـوتـه بكـل سـرور
وسترتقي من بعده الأعـوام في ... درج اقتبـالـه في أجـل حبـور
إذ أنـه الملك الـذي أحيـا لنـا ... رَبْع المعارف بعـد محض دثور
إذ أنـه الملك الذي أسـدى لنا ... نعمـاً تـريـه سعـادة المقـدور
إذ أنـه الملك الـذي أيـامـه ... قد أطلعتْ في الأفق خيرَ بدور
إذ أنه الملك الذي قد ضُمِّخَتْ ... أخبـار دولتـه بـطيـب عـطور
إذ أنه الملك الذي قـد سددت ... أعمـالـه فـأبـاد كـل فجـور
إذ أنـه الشهم المشير المـرتضى ... مجري سيوب الفضل مثل بحور
الصـادق العَلَم الحسينيُّ الـذي ... بـه تونسٌ حيـطت بأعـظم سـور
فهـو المُسَهِّـد جفن عـدل آمن ... بـه كان حفظ الغـافـل المغـرور
حاط المحاكم والشعـائر والمعـا ... رف والـزروع بغيـر مـا منشـور
فغـدا براحـة مـأمن الأهلين في ... نِعَمِ الهنـاء يجـر ذيـل فَخُـور
وارتاح راحة حـازم ما سيم غيـ ... ـر حـراس صارم رأيـه المشهور
يَفْرِي مَضَاءُ غُـرَابِه الـدُّهْمَ التي ... هـالت بصعب مُـبْهَـم منكـور
فـالتاج[1] لـلأمن المحيط بمنـزه ... يـزهـو بفـاضـل ذيله المجـرور
وسعى له بحلي تهان جملة الـ ... أعيـان زاهيـة بيمـن خُيـور
فكـان يـوم وصـولـه عيـد الهنـا ... وكـأن وفـده مجمـع المحشـور
فـأتى إلى إكـرامـه الحيـوان مِنْ ... نَـعَـم ووحْش شـارد وطـيـور
والـكـل بيـن مضـرج ومـعفـر ... ومـجـنـدل ومـعـقـر مـنـحـور
فلحـومها كـانت قِـرَى لجيـوشـه ... وحـديثُهـا يـرويـه كـل شكـور

(1) في الأصل فالتاح بالحاء.

كرمٌ جزيل قد أعِّدَ لوافدٍ ... أو نازلٍ بجواره مبرور
فالناس من طرب وحسن تنزه ... خلعوا عذارا واجْتَلَوْا بسرور
يدعون ربَّهُمُ ببُقْيا مجده ... شمساً تنيرهمُ بكل بكور
ولذا أتى العام الجديد مهنئاً ... برخي عيش رائق مشكور
وافى إليه غداة حل منازهاً ... حيطت بجيش بالعلا مذكور
فَلْيَهْنَ هذا العام إذ[1] ألفاه في ... حمام أنف شامخ مَعْمُور
فأتى إليه مهنئاً يبغي به ... طهراً وتوشيحاً بكل فخور
ليكون بين يدي علاه مطهراً ... من ماء عدل كماله المشهور
إذ أنه الملك الذي أجرى لنا ... يَنْبُوعَ عَدْلٍ ساكب موفور
فاعْجَبْ إلى الأيام حيث تلطفت ... لعلاه في إهداء عام بشور[2]
فغدا بذلك منبئاً بمديد عُمْـ ... ـر بالسعادة والهنا مأثور
وله بذا فخر على الأعوام إذ ... قد جاء يرفل في ثياب حبور
فمتى تحاول وصفه أرخ وقل: ... عام انتزاه الصادق المنصور

وقد قرظ هاته القصيدة أمام أيمة البراعة والإنشاء الجهبذ النحرير الفاضل الشيخ محمد الباجي المسعودي [3] رئيس كتبة القسم الثاني من الوزارة بقوله:

[الكامل]

زارت تجرر ذيلها الدَّيْجُوري ... فانجاب صبح الوصل للمهجور
وأتت تذكر عَهْدَ أُنْسِي بالمَهَا ... وزمانَ لهْوِي بالظِبَا والحور
مياسة الأعطاف تحسب أنها ... نشوى براح من كؤوس مدير

(1) في الأصل إن.

(2) بشور يقصد بها جمع بشارة أو بشرى وهو جمع غير صحيح إذ البشارة تجمع على بشارات أو بشائر والبشرى تجمع على بشر بضم الباء وفتح الشين.

(3) الباجي المسعودي ترجم له المؤلف في مجمع الدواوين التونسية ولد سنة 1225 وتوفي سنة 1297 وله التأليف المشهور: وهو (الخلاصة النقية في أمراء إفريقية وذيلها) وقد طبعت مرتين الأولى في حياته سنة (1283) والثانية بعد وفاته سنة (1323) وهي التي معها الذيل.
وترجم له ترجمة خاصة الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة.

تشدو بلحن «المَوْصِلي» و«معبد» و «مُخَارِق» في نغمة المأخور
فتعيد مَيْت الصد حياً مثل ما أحيا «السنوسي» النظم بعد دثور
جر اليراع فضم أشتات العلا نصباً لناظرها لنفخ الصور
وسما لتخليد المآثر والحِلى للغابرين وشُهَّدٍ وحضور
وتقلدت منه البلاد نفائساً وفرائداً بـ(الرائد) المشهور
تُزرى بأزهار الرياض، وحسنُها في عين كل محقق وبصير
أمحمَّدُ وابن الذين علاهمُ في القطر مثل «يلملم» و «ثبير»
شرفتني بفريدة أبدعتها «عام انتزاه الصادق المنصور»
فَظَلْلت من طرب أميل كأنني نشوان ماء الكرمة المعصور
وكأنَّ ما نتلوه من أبياتها نظمُ «الفرزدق» أو نِظَامُ «جرير»
فنظمت ما يرجو المحب قبوله من كاسد للعجز والتقصير
داعٍ لكم بسعادة أبدية وإعانة ومبرة وسرور

وقرظها أيضاً الدراكة النحرير الماجد الشاعر الفاضل المدرس الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن الخوجة [1] بقوله:

[الكامل]

زارت تجر مطارفاً من نور ولها الفخار على الحسان الحور

---

(1) الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن الخوجة كان من مدرسي الطبقة الأولى وتقدم إلى تلك الخطة سنة (1297) ثم تولى الفتيا، ولم يترجم له المؤلف لأن وفاته متأخرة عن وفاة المؤلف وكان تقلده لخطة الفتيا سنة 1315 وتوفي سنة 1325.

وترجم له الشيخ النيفر في (عنوان الأريب ج 2 ص 176).

وقد كانت بينه وبين المؤلف الشيخ السنوسي مودة وصداقة. وأشار إليها ابن الخوجة في أبيات راسل بها المؤلف فيقول:

شُكْراً لَكُمْ مِنْ أخٍ بَرٍّ حبيت به أنزلته من فؤادي في السويداء

ولمحمد بن أحمد بن الخوجة مرثية في الشيخ صالح النيفر نشرها المؤلف في الرائد التونسي سنة وفاة الشيخ صالح النيفر في سنة 1290.

فلما نشرت بالرائد التونسي خاطب الشيخ محمد بن أحمد بن الخوجة المؤلف بأبيات مطلعها:

بوأتني محض فضل نُزْل عليا والحب يفضي لإسهاب وإطراء

وستأتي قصيدته المرثية وأبياته التي خاطب بها المؤلف في آخر ترجمة الشيخ صالح النيفر من أئمة جامع الزيتونة.

بـــدويـــة الأعـــراق إلا أنهـــا حضرية في لـطفها المشكـور
قسماً بمُحْكم نسجها لو أنها في العُرْب قام بها لسان فخور
قسماً بظَرْف حديثها إني بهـا لمـا أتيحت مـع ألـذ سميـر
ملكت قلوب مطالعيها[1] بحسنها فـاسْتَوْصِهَـا بفؤاديَ المأسـور
حلت بها شتى المحاسن مثل ما حلت بوصف وليها المشهـور
ذاك الذي جمع الفضائل بعد ما كانت طرائق في بني المعمور
ذاك «السَنوسي» الذي ملك العـلا وعـلا على كـرسيهـا كـأميـر
إن قلت كل الصيد في جوف الفَرا فهي الفضائل في حمى المذكور
قُسٌّ الفصاحة حِلْفُ كل فضيلة مبدي البدائع وهو غير فَخور
منـح المعـارف للنهي لكنـه راعى التلطف فـاكتنى بمديـر
فذٌّ على سن الحداثة قد سما وحوى من العلياء كـل عسير
ما السن يُلحِق بالصغير نقيصة ولقد يكون الشيـخ غيرَ كبيـر
مهـلاً أبـا عبـد الإلٰـه فـإنني في حصْر فضلك منتم لقصور
وإليك من جهد المقل وليـدة جـاءت لتخدم سِتَّهـا بسُـطُورِ

وقرّظها الأديب المحقق النحرير الماجد الزكي الشيخ محمد بن حمودة بن أحمد جعيط[2] وكتب قبله قوله:

---

(1) في البيت خطأ وهو زيادة ساكن في آخر قوله مطالعيها.

(2) محمد جعيط هو الشيخ محمد بن حمودة بن أحمد بن عثمان جعيط أخذ عن أعلام وقته من المشائخ مثل الشاذلي بن صالح وعلي العفيف ومحمد الطاهر النيفر وحمدة الشاهد، وصالح التبرسقي، وسالم بوحاجب.

تولّى الإفتاء سنة 1331 وتوفي سنة 1337 وله تآليف عديدة منها:

- حاشية شرح التنقيح في مجلدين وهي حاشية حافلة أكثر فيها من الأنقال مما فكك به ما خفي من الشرح المذكور.
- وذكر له الشيخ مخلوف في شجرة النور الزكية اختصار أجوبة عظُوم.
- وله شرح البردة.
- وتقارير على شرح مسلم.

ترجم له في (شجرة النور الزكية ج 1 ص 423).

[الخفيف]

أيها الخل إن أبكار فكري ... عطِشت لارتياد وِرد القرين
إذ أريتم فتانة الطرف لطفاً ... فأتوا «مورد الهناء المعين»

وهذا نص تقريظه:

[الكامل]

جاءت مسربلةً ثياب سرور ... وتذيع نَشْر ثنائها المعطور
باكورة العام الجديد تطلعت ... وتقلدت عِقد الهنا بنُحور
برزت ومُنْهَلُّ السرور تبثه ... فانهلت الأمطار مثل بحور
وأدارت الراح الحلال على الورى ... في كأس جوهر لفظها المسطور
في لطف «أندلس» وحسن جزالة ... تُزْري بأبكار «العراق» الحور
لا غرو أن شمخت بأنفٍ وهي في ... «حمام أنف» شامخ معمور
وكِناسها البيت الحسينيُّ الذي ... شمخت دعائم مجده المشهور
ومديرها الفذ «السنوس مَحمدٌ» ... حاوي على المنظوم والمنثور
ذاك الذي اقتنص المعارف عندما ... قد خاض يم العلم خوض بصير
فغدا يرصع تاج دهر فاغتدى ... يسمو بدر نفائس التحرير
ويفيض ينبوع القريض بمِقْول ... يزري بشعر «فرزدق» و«جرير»
فلذا أراك فريدة من لفظها ... ينهلّ موردُ للهنا كبحور
لله موقع لطفها في أذْن مَن ... قد كان بالأغراض خير خبير
لما سطت حسناً عليَّ جعلتها ... وسْطى لتاج الرائد المبرور
فبراعة استهلال مُطَّلِعيه قد ... جاءت بأن العامَ عامُ سرور
نشروا لمطويّ الثنا كل الورى ... لجميل لطف الرائد المنشور
عهدي به يرعى الهشيم فريثما ... وافيت جاء بلؤلؤ منثور
وغدا يثير عزائم الإسلام للنـ ... ـهج القويم بوعظه المسطور
وروته فرسان الطِّراد وزينوا ... صحفاً لهم بنسيجه المشكور
يوري إذا يروي رقيق حديثه ... أن الذي أنشاه خيرُ سمير

وهو المجلي لا يقاس بفارس رام النـــزال بمسلك مهجـور
دم أيها الخل الصديق مرفعاً واللطف حاط بكم إحاطة سور
تبدي البدائـع والإلٰه يُمِـدّكم بالعوْن منـه على ممر دهـور

ولو أردنا ذكر جميع مفاخرِ هذا الأمير، ومدائحِه الأدبية التي تزري بطيب العبير، وتفاصيلِ مآثره ونتائجِ أعماله، التي بلغ بها إلى غاية آماله، لضاق بنا غرض الكتاب، دون البلوغ إلى غاية الآراب. ولكن دلالة الآثار تغني البصير عن تفاصيل الأخبار، وفيما ذكرناه عنوان، على ما له من المزية وعلو الشان.

وقد استوزر هذا الأمير في الوزارة الكبرى أولاً وزير ابن عمه وأخيه مصطفى خزندار[1] وهو من مماليك المشير أحمد باشا باي، وقد صاهره بأخته واستوزره مدة دولته، فأقام على تلك الخطة إلى أن تجاوز فيها الثلاثين سنة

---

(1) مصطفى خزنه دار هـو السابع من وزراء الدولة الحسينية.

وقد أطال في ترجمته الشيخ بيرم الخامس في صفوة الاعتبار في المطلب الخامس من الفصل الخاص بتاريخ تونس. وقد أفاض فيها وأتى بتدقيقات مفيدة إلا أن أكثرها تحامل على الوزير المذكور.

وقد بينا أنه نسب لسوء تصرفه ثورة علي بن غذاهم مع أن صاحب إتحاف أهل الزمان استدل بأدلة قاطعة على نفي ذلك كما أثبتناه.

وتستغرق ترجمته من (الصفوة في ج 2 من ص 19 إلى ص 49).

وهذا الوزير لا شك أنه من دهاة الوزراء وأقدرهم على استيعاب الأُمراء في بُوتَقَتِه فقد كان وزيـراً للمشير الأول والمشير الثاني وأكثر مدة المشير الثالث.

كما أنه كان له المقدُرة الكافية في تصرفاته حيث استطاع أن يستحوذ على الأفكار إذا كان هناك تبادل آراء.

ولولا بعض تصرفاته المنحرفة لكان من الوزراء أهل القدرة على تدبير الأمور بحسب ذلك العصر.

ولولا أنه ينقصه التشبع بالمدنية التي دبت في أوروبا فأخرجتها من أنظمة بالية إلى أنظمة محكمة دقيقة خَطّتْ بها في الحرية ومهدت لها أسباب التقدم لجمع بين المقدرة على التمرس بالناس والأخذ بأسباب التقدم ففقدانه لمعرفة المدنية الحديثة في عصره قعد به في سياسة بالية فلم يأخذ بتونس في السير إلى التقدم.

وقد طالت وزارته خمساً وثلاثين سنة من سنة (1256) إلى سنة (1290) وبعد إقالته من الوزارة عاش إلى سنة (1295).

وتأخر عنها في موفي الثلاثين من شعبان سنة تسعين. توفي قبل زوال يوم الجمعة السادس والعشرين من رجب الأصب سنة خمس وتسعين.

وكان تأخيره بولاية صهره خير الدين[1]، وهو أيضاً من مماليك المشير المذكور وعلى عهده ولي أمير لواء على الخيالة وترقى في الخطط وسافر إلى باريس في محاسبة محمود بن عياد، وأقام هنالك عدة سنين وأنتج حسابه معه لدى المجالس هنالك كـ 27,238,337. ريالات تونسية وتمّ له الحكم بتاريخ رجب الأصب سنة ثلاث وسبعين وولي في وزارة البحر، وتقدم في رئاسات المجالس وألف «كتاب أقـوم المسالك في معرفة أحوال الممالك». وجرت على يده الإصلاحات التي كانت من مبدأ ولايته وزيراً مباشراً إلى أن استعفي من خطة الوزراة الكبرى.

وتقدم لها عوضة محمد خزندار[2] صبيحة السبت الحادي عشر من رجب

---

(1) خير الدين باشا يعد الوزير الوحيد في عصره الذي عرف أن ما عليه الممالك الإسلامية في عصره في حاجة إلى مسايرة ركب الحضارة وإلا فإنها ستصبح فريسة لأوروبا التي نهضت نهضة بوّأتها مكانة قيادة الأمم.

ومن أجل تدارك الأمر في تونس أزال وزارة صهره مصطفى خزندار ليحل محلها وزارة تخرج بتونس من حياة بالية، قضى بها عليها التخلف والجهل المخيم طَوال قرون لا سنين.

وفعلاً أنشأ من الأنظمة والمنشآت ما يؤهل تونس لأن تكون دولة عصرية لـولا اندسـاس مصطفى بن إسماعيل في السياسة التونسية واستحواذه على أمير عصره المشير الثالث محمد الصادق باي.

وهذا الوزيـر خير الدين عرفَ قدرَه أهل عصره مما بلغ به إلى الصدارة العظمى في الخلافة العثمانية.

وشأنه شأن البشر في كونه لحقته مؤاخذات منها ميله للسياسة الفرنسية، ومنها تغافله عن إعادة العمل بقانون عهد الأمان.

وترجم له في صفوة الاعتبار ترجمة محب مريد لإظهار مآثره وأعماله واستغرقت ترجمته من صفوة الاعتبار (ج 2 من ص 49 إلى ص 94).

وقلما مؤرخ لم يترجم له.

(2) وزارة محمد خزندار التي جاءت بعد وزارة خير الدين كانت جسراً لوزارة مصطفى بن إسماعيل فقد دامت من 2 رجب سنة 1294 إلى 26 شعبان سنة 1295 ثم تولى الوزارة ثانياً بعد ابن إسماعيل سنة 1298 وتوفي سنة (1300).

الأصب سنة أربع وتسعين وهو من مماليك المقدس حسين باشا باي وولي وظيفة خزندار على عهده وباشر القيادات المهمة مثل الأعراض والساحل وارتقى في الخطط وتحنك بالتجارب وباشر الحكم في القسم الثاني من الوزارة وباشر الوزارة الكبرى إلى أن استعفى فأقام على وزارة الشورى.

وقدم الأمير للوزارة الكبرى ابنَ تربيته مصطفى بن إسماعيل آغا[1] صبيحة يوم السبت السادس والعشرين من شعبان الأكرم سنة خمس وتسعين وذلك بعد أن رقاه في خدمته إلى رتبة أمير لواء العسة المنصورة في قصره، ثم رقاه في الخطط وولاه قيادة الوطن القبلي وخطة صاحب الطابع ووزارة البحر واستعمله على الساحل وصار وزير الشورى وباشر الحكم في القسم الثاني من الوزارة مدة وزارة من قبله.

وسافر سفيراً إلى إيطاليا لتهنئة ملكها بجلوسه على سرير الملك. وكان ركوبه صبيحة يوم الأربعاء السادس والعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين ورجع يوم الخميس الثامن عشر من صفر. ثم سافر إلى باريس عند افتتاح معرض سنة 1878 مسيحية صبيحة يوم السبت التاسع من جمادى الأولى ورجع يوم الثلاثاء السادس عشر من جمادى الثانية.

واستمر على مباشرة خدمته مع القيام بشخصيات مصالح مخدومه، ثم ارتقى إلى خطة الوزارة الكبرى والوزارة الخارجية ورئاسة الكومسيون المالي بعد استعفاء من قبله. وباشر التصرف في الخطط المذكورة على الوجه الأتم.

وحين أقبل عام سبعة وتسعين اجتمع بعض أعيان الأهالي على عمل

(1) تكلم المؤلف على وزارة مصطفى بن إسماعيل وترجم له ترجمة مطولة بلغت أكثر من صفحتين بينما ترجم لبقية الوزراء الثلاثة في أقل من صفحة.

وبعد وزارة محمد خزندار أتت وزارة مصطفى بن إسماعيل من 26 شعبان سنة (1295) إلى سنة (1298).

وكأن المؤلف أراد بكتابة تاريخ هؤلاء الوزراء أن يعرِّف بالوزير مصطفى بن إسماعيل وينفي عنه ما يرمى به بذكر ما تقرب به المتملقون لهذا الوزير.

مع أن عصره لم يحمده حامد عادت فيه الرشا وتعطلت الإصلاحات، وكل ذلك مهد للحماية الفرنسية لأن سياسته سياسة خرقاء.

مصحفين كريمين دفتاهما ذهب مرصع بالألماس وخرج يوم رأس العام وفد من أعيان الأهالي يقدمهم الشيخ محمد الشريف إمام جامع الزيتونة وتلقاهم الأمير بموكبه المحتفل بسراية باردو وعند انتظام الموكب خطب الشيخ خطبتين في الغرض الذي قدموا من أجله وقدموا المصحف الأول هدية للأمير والثاني هدية للوزير فخطب الشيخ محمد العزيز بوعتور باش كاتب على لسان الأمير خطبة هذا نصها:

«الحمد لله فياض ذوارف المنن، الذي أنبت في قلوبنا حب الوطن، النبات الحسن، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي فاز بطاعته المحسنون، وسعد باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وعلى آله وأصحابه صلاةً وسلاماً يتأرجان عن شذا الزَّهر، ويتبلجان عن سني الكواكب الزُّهر.

هذا ويا أيها الملأ الأعيان إن أسعد أماني وأقصى آمالي، تقدم البلاد ونجاح الأهالي، ولما انطوت عليه ضمائري من حب بلادي ومملكتي، ومنبتي ومنبت سلفي وعترتي، فلم أزل أخلص لله في وسائل أمنهم وراحتهم نيتي، وأعقد على جر خيرهم طويتي، فتخيرنا لكم من آثرناه لخدمتنا، وربيناه تحت كنفنا، وفي ظل نعمتنا» وأحللناه محل الولد، وفلذة الكبد، وهذبنا بالآداب خلقه، وعلم سبب العمران وطُرُقه، فجاء على قدر، وسبق إلى كل مكرمة وضاحة الغرر، مع حسن الطوية وخفض الجناح للمضطهد والمضطر، فما اخترت لمصالح البلاد إلا غَرْسي، ولا أحببت لها إلا من أحببته لنفسي، وهو الصدر العماد وزيرنا الأكبر ابننا مصطفى بن إسماعيل آغا. أسبغ الله تعالى على الجميع آلاءه إسباغاً.

هذا وإن مقدمكم أيها الملأ الأعيان، وقع مني موقع المسرة والاستحسان، وتلقيت هديتكم كتاب الله تعالى المجيد أمان الأرض، وشارع الشريعة وفارض الفرض، ومنار الهداية إلى سواء السبيل، بغاية من القبول والتعظيم والتبجيل، والله عزّ اسمه ولي الإعانة، على القيام بأعباء الأمانة».

القِسمُ الأول

في التعريف بأئمة جامع الزيتونة

أدام الله عمرانه

إعلم أن هذا البيت العتيق من المواضع المباركة في بلاد الإسلام، وصومعتُه كان يتعبد بها أحد الرهبان، وكانت إلى قربه زيتونة، وهنالك موضع سَيَّجَه الراهب صاحب الصومعة بسياج من الشوك حفظاً له، ولما أقبلت العرب على ذلك المحل سألوا الراهب عن سبب وضعه ذاك السياج في ذلك الموضع فأخبر أنه يرى في كل ليلة عموداً من نور متصلاً بالأفق فأراد حفظه من الأقذار. ولما قدم حسان بن النعمان الغساني الأزدي[1] على عهد عبد الملك بن مروان ووصل إلى تونس سنة تسع وسبعين من الهجرة وفتحها في أخبار مذكورة أسس عند تلك الصومعة هذا الجامع الأعظم وجعل المحراب في موضع عمود النور، وأبقى شجرة الزيتون فسمي بها. ثم لما قدم إلى تونس عبيد الله بن الحبحاب على عهد هشام بن عبد الملك بن مروان أتم بناء جامع الزيتونة سنة إحدى وأربعين ومائة فكان سقف بيت الصلاة مقاماً على أكثر من مائة وخمسين أُسْطُوَانة من الرخام وبعضها مرمر. وقد جاء تاريخه (اعلم 141) المرتسم على الأقواس التي فوق التوابت. ثم إن زيادة الله بـن الأغلب بنى فيه الأبنية الضخمة حين بنى سور الحاضرة التونسية ونقش في القبة التي فوق المحراب اسم أمير المؤمنين المستعين بالله العباسي بتاريخ سنة خمسين ومائتين فكان تأسيس هذا الجامع الأعظم على تقوى من الله في البقعة المباركة.

وفيه مواضع كثيرة معروفة بمحلات استجابة الدعاء وأماكن أخبر عنها أصحاب الكشف أنها محل لحضور رسول الله ﷺ أو لخاصة أولياء الله رضي عنهم أجمعين.

---

(1) انظر الملحق عدد 7 المخصص لتأسيس جامع الزيتونة.

وقد كساه وحسّنه أمير المؤمنين يحيى بن المستنصر الحفصي ووقع الفراغ من كسوه سنة ست وسبعين وستمائة.

وفي عام ستة عشر وسبعمائة أمر السلطان زكرياء الحفصي بعمل عوارض وأبواب من خشب لبيت الصلاة وكتب تاريخ ذلك في أعلى باب البهور ثم إن السلطان أبا عبد الله الحفصي أنشأ فيه المقصورة التي بابها مما يلي صحن الجنائز. وأوقف بها كتباً جمة وبنى السبيل الذي تحتها على رأس المائة العاشرة وجعل النظر على المكتبة لإمام الجامع يومئذ الشيخ محمد بن عصفور.

ثم إن الأمير محمد باي المرادي شيد منه أعلى صومعته وسقّفَها وأدار بها السياج المحيط بها، ووضع الرخامة لتحرير الوقت وكتب عليها اسمه ثم إن إمام الجامع الشيخ محمد تاج العارفين البكري بنى في صحن الجامع المجنبة الشرقية في ذلك العهد وكتب اسمه في سقفها.

أما التغيير في سقف الجامع وأبنيته فقد وقع بكثرة وقد أدركت تغييراً كثيراً من سقف بيت الصلاة وسائر بناء مجنبات الصحن وسقفها وبناء صحن الجنائز وسقفه إلى غير ذلك من الإصلاحات الجارية.

وقد أحدث به أميرنا المشير الثالث بيتاً بالمقصورة المسماة مقصورة النواورية المشرفة على الطيبيين وكان وضع البيت المذكور لخصوص اجتماع المشايخ النظار بجامع الزيتونة للمفاوضة في الأعمال العلمية التي اقتضاها الترتيب السابق الذكر.

ولم يزل أهل البر يوقفون على هذا البيت المعظم الأوقاف المعتبرة لإقامة شعائره وإيقاده وتحصيره على أكمل وجه.

وهو قائم الشعائر بإقامة الخميس والجمعة والعيدين على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه. ومع ذلك تجري به الدروس العلمية سائر أيام الأسبوع على ما سلفت إليه الإشارة في ذكر اعتناء الأمير بالعلم وأهله.

أما أحزاب القرآن العظيم التي تتلى به كل يوم فهي كثيرة على نوعين:

منها ما يتلى عن ظهر قلب بقراءة حزبين في كل يوم بحيث يكون تمام الختمة بشهر. ومنها ما هو بقراءة الأسفار بحيث تختم الختمة كل يوم وهي أحزاب أقامها أربابها من أهل البر بأوقاف جارية على من يتولى القيام بها من القراء، ونظر أغلبها إلى إمام الجامع.

وأعظم هاته الأحزاب حزب الأسبوع، وهو يقرأ تلاوة بعد صلاة الصبح كل يوم وقراؤه منقسمون إلى سبع دول كل دولة يحضر قراؤها يوماً من الأسبوع يقرؤون به سبعاً من القرآن العظيم أَمَام المحراب تلاوة، وتمام الختمة يحصل يوم الجمعة من كل أسبوع وعليه أوقاف لها بال ولا يتقدم للقراءة إلا من يشهد بحفظه شيخ مشايخ تلك الدول بالتلاوة بين يديه وأخذ التقديم منه بعد الحصول على تذكرة الأمير.

وأما بقية الأحزاب التي بالجامع فهي ثلاثة أحزاب بعد صلاة الصبح، وسبعة أحزاب قبل الزوال، وثلاثة أحزاب عند الزوال، وستة عشر حزباً قبل صلاة الظهر، وخمسة عشر حزباً بعدها، وثلاثة عشر حزباً بعد صلاة العصر، وحزبان بعد صلاة المغرب عدا تجويد شيخ الختمة وصاحب سجادة الجامع على كرسيه قبل الصلاة نسأل الله أن يديم عمرانه بدوام ذكره.

وحيث إن هذا البيت اختص بالمزايا الفاخرة، كانت خطة الإمامة به من أعظم خطط البلاد زيادة على تعظيمها الشرعي. وقد تقدم لها من جهابذة علماء الدين وحفاظ المذهب المالكي وصالحي الرجال أعيان كثيرون منذ صارت حاضرة تونس مستقراً لسلاطين إفريقية وأُمرائها، وذلك أواسط المائة السابعة من الهجرة على ما سبق ذكره في صدر المقدمة.

وهنا نقدم على المقصد أنموذجاً في ذكر من ولي هذه الخطة الجليلة من خطباء جامع الزيتونة وأيمته منذ ذاك التاريخ ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ

فممن ولي هاته الخطة قاضي الجماعة:

-1-

«الشيخ إبراهيم بن عبد الرفيع»[1] واتفق مدّة ولايته أن جُدِّد السقف الذي

(1) ذكر المؤلف ها هنا أئمة جامع الزيتونة من لدن ابن عبد الرفيع من العهد الحفصي ممهداً بذلك لذكر الأئمة الذين في العهد الحسيني.

وتقدمه إلى ذكرهم في العهد الحفصي إلى عهد إمامه الشيخ الإمام إبراهيم الرياحي ومن بعده الشيخ ابن أبي الضياف في الإتحاف في الجزء السابع معتمداً في ذلك على ما كتبه الشيخ إسماعيل التميمي مضيفاً إلى من انتهى إليه الشيخ إسماعيل التميمي غيره إلى عصره. وهم المشايخ حسن الشريف ومحمد الشريف، وإبراهيم الرياحي ومحمود محسن.

وأضاف إلى ما في الإتحاف المؤلف من تقدم على ابن عرفة وابتدأ بذكر ابن عبد الرفيع.

لكن استفدت من تولى قبل ابن عبد الرفيع وهو الفقيه الخطيب الصالح أبو مروان عبد الملك بن الغرغار وتوفي في سنة (701).

استفدت ذلك من الفارسية لابن القنفذ حين ذكر وفاته فإنه ذكر أنه كان خطيب جامع الزيتونة.

وابن عبد الرفيع هو إبراهيم بن حسن الربعي التونسي أبو إسحاق قاضي القضاة بتونس.

وله الكتاب المعتمد في فقه القضاء (معين الحكام) وتوفي سنة (734).

واستفيدت ولايته لإمامة جامع الزيتونة مما ذكره الونشريسي في شرحه لابن الحاجب.

وما ذكره الونشريسي نقله عنه الشيخ ميارة في شرحه الكبير على المرشد المعين وجلب نقله المذكور في بحثه على أن المسجد في الجمعة شرط من شروط صحة صلاة الجمعة ووجوبها، وهذا بحثه:

ولا يصح أن يقول أحد في المسجد إنه ليس من شرائط الصحة إذ لا اختلاف في أنه لا يصح أن تقام في غير مسجد، وفي شرح سيدي أحمد الونشريسي على ابن الحاجب ما نصه:

قيل والذي يظهر أن فتيا الباجي بمنع إقامتها فيه ـ أي المسجد المنهدم السقف ـ إنما هي إذا لم يظلل على السقف بستور وأما لو ظلل بها لنابت الستور عن السقف كما نابت عن الجدر في قضية ابن الزبير بل أحرى.

وكانت نزلت بتونس سنة جُدِّد سقف الجامع الأعظم، وخطيبه إذ ذاك أبو إسحق بن عبد الرفيع وغطيت المجنبة الأولى التي تحتها المنبر بالحصر وخطب، فقام الشيخ الفقيه المشتهر بالصلاح أبو علي القروي فأنكر عليه وأغلظ القاضي عليه في الرد وأفضت الحال إلى أن أمر القاضي بسجن الشيخ أبي علي.

وكان الشيخ ابن عرفة يقول: الصواب مع الشيخ أبي إسحق ـ أي ابن عبد الرفيع ـ ولا ينتهي الحال إلى أن تمنع الجمعة لأنه لو خطب تحت سقف دون تغطية بحصر جاز لأنه ليس من شرط الخطبة أن تكون تحت سقف إذ لو خطب بالصحن جاز وليس من شرط الجامع أن يكون كله مسقفاً.

(من الدر الثمين ص 202).

الديباج (ج 1، ص 270، طـ. 2) وتوفي سنة 733 هـ على الصحيح ـ وذكر في الحلل السندسية مرات متعددة. وترجمته في الدرر الكامنة (ج 1 ص 24).

تحته منبر الجامع، فأمر بتغطية ذلك الموضع بالحصر، وخطب فقام أبو علي القروي منكراً على الإمام خطبته بدون سقف وأغلظ عليه في القول بين العامة فأمر به فسجن. وكان ابن عرفة يقول ليس من شرط الخطبة أن تكون تحت سقف إذ ليس من شرط الجامع أن يكون مسقفاً كله فلو خطب الخطيب في الصحن جاز.

ـ 2 ـ

وقد تأخر الإمام ابن عبد الرفيع عن الخطبة، ثم وليها العالم الصالح «**الشيخ هارون الحميري**»[1] فكان إماماً وخطيباً ومفتياً بعد صلاة الجمعة بجامع الزيتونة إلى أن توفي في شهر رمضان سنة تسع وعشرين وسبعمائة.

ـ 3 ـ

وكان في مرضه استخلف عمدة المذهب **الشيخ محمد بن عبد السلام الهواري**[2] فبلغ ذلك إلى قاضي الجماعة ابن عبد الرفيع فمنعه. وقال: إن أهل تونس لا يولون جامعهم إلا لمن هو من بلدهم.

---

(1) هارون الحميري في نيل الابتهاج:

أبو موسى هارون الحميري التونسي إمام جامع الزيتونة الشيخ الإمام العلاّمة الصالح أخذ عنه الخطيب ابن مرزوق الجد وفيه توفي سنة (724)، (نيل الابتهاج ص 348) طـ. 1.

وفي تاريخ الدولتين للزركشي (ص 54) أنه توفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة وفي نسخة قلمية (26) وهي الصواب.

(2) محمد بن عبد السلام هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري التونسي قاضي الجماعة بتونس وعلامتها وشيخ الإسلام ذكره خالد البلوي في رحلته ونوه به غاية التنويه له (الشرح الجليل على مختصر ابن الحاجب الفقهي) وهو في أربعة أجزاء ضخام حرر فيه الفقه. وقد بلغ درجة الترجيح وهو عمدة خليل في شرحه على المختصر المذكور المسمى (بالتوضيح).

وتوفي ابن عبد السلام الهواري سنة (ـ 749) وترجمته في (الديباج ص 336) و (نيل الابتهاج ص 348) و (فهرس الرصاع 86) و (وفيات ابن القنفذ وفيها أنه من وفيات 750) و (تاريخ الدولتين ص 73) و (درة الحجال ج 2 ص 139) و (شجرة النور ج 1 ص 210).

ـ وإنما قال ابن عبد الرفيع أن أهل تونس لا يولون جامعهم إلا من كان من أهل بلدهم لأن ابن عبد السلام من مواليد المنستير.

- 4 -

واستخلف المدرس (**الشيخ محمد بن محمد بن عبد الستار التميمي**)[1] شيخ مدرسة المعرض. واستقل بالخطبة عند وفاة أبي موسى الحميري. وكان ورعاً يتعاطى الفلاحة بنفسه. يخطب يوم الجمعة بثياب صلاته وإذا كان من الغد لبس جبة خشنة وجعل على ظهر حماره الرَّشا وساقه بيده إلى جِنانه الذي كان يخدمه بيده ويتمعش منه. أما الفتيا بعد صلاة الجمعة فوليها الشيخ محمد بن محمد بن هُرون الكناني وكان الخليفة إمام الخمس على عهد ابن عبد الستار الحافظ الشيخ **أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن عبد البر التنوخي**[2] خطيب جامع القصبة. وكان عدلاً ذات سمت حسن له عناية بالتاريخ والرواية. اختصر ذيل السمعاني، واقتضب تاريخ الغرناطي، وألف تاريخاً على طريقة الطبري في ستة أسفار، وكان يجلس لرواية مقامات الحريري بدُويْرة جامع الزيتونة، واحتج ابن عرفة في مختصره الفقهي بصنيعه في ذلك مع ما في المقامات من المثالب. وتوفي في التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.

وولي بعده خليفة بالجامع **الشيخ إبراهيم البسيلي**[3]. ولم يزل الشيخ ابن

---

(1) محمد بن محمد بن عبد الستار ذكره في نيل الابتهاج ناقلاً ما حكاه خالد البلوي في رحلته من أنه ثاني أبي الحسن المنتصر في الفضل والولاية والعلم المتسع الراوية والعالم العامل.
وحين لقيه البلوي كان سنه أناف على التسعين ومع ذلك لم يضعف عن العبادة ووفاته في السنة التي توفي فيها ابن عبد السلام، وهي سنة (749).
النيل ص 236. الزركشي ص 73.

(2) في النيل أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن البراء فجده ابن البراء لا ابن عبد البر كما هنا وهو الموجود في النسخة القلمية من الزركشي.
ونقل صاحب النيل عمن لقيه: وهو خالد البلوي الذي اجتمع به حين دخوله إلى تونس قال:
وهو حفيد أبي القاسم بن البراء القاضي العلاّمة الشهير، ومراد البلوي بقوله وإمام ذلك الجامع أي جامع الزيتونة وخطيب الحضرة العلية أي القصبة حضرة الملك الحفصي.
وذكره الزركشي في وفيات سنة (737) النيل (ص 145) الزركشي (ص 61).

(3) إبراهيم البسيلي لم يتول خطابة الزيتونة رغم أن الشيخ ابن عبد الستار توفي وهو خليفة. وإنما تولاها الشيخ عمر بن عبد الرفيع وتوفي إبراهيم البسيلي سنة (- 755) كما في الزركشي (ص 80) =

عبد الستار خطيب الجامع وإمامه الأكبر إلى أن توفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

- 5 -

ووليها القاضي **الشيخ عمر بن عبد الرفيع** [1] قال الأبي في شرح مسلم: كان خطيباً بجامع الزيتونة الأعظم. ولا يقرأ في الخطبة آية ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً** ﴾ لعذر يمنعه من طول الوقوف إلى أن أمره حاجب السلطان الشيخ ابن تافراجين بقراءتها أو ترك الخطة فالتزمها.

- 6 -

ولما توفي الخليفة الشيخ إبراهيم البسيلي سنة ست وخمسين وسبعمائة تقدم عوضه لإمامة الخمس حافظ المذهب صاحب المختصر الفقهي **(الشيخ محمد بن محمد بن عرفة الورغمي**[2] ثم ولي خطيباً سنة اثنتين وسبعين

= لا كما هنا أنه توفي سنة (756) وقد اعتمد المؤلف ما ذكره الورغي في بيتيه اللذين ذكرهما في ترجمة ابن عرفة، وهو أن ابن عرفة تولى خلافة الإمامة في السنة المذكورة حين توفي البسيلي.

(1) عمر بن عبد الرفيع اعتمد المؤلف على ولايته خطابة جامع الزيتونة على ما ذكره الأبي في شرح مسلم والذي ذكره الزركشي في تاريخ الدولتين أنه تولى قضاء الجماعة وتوفي سنة ست وستين وسبعمائة (- 766 هـ). الزركشي (ص 102، طـ. 2).

(2) الشيخ ابن عرفة اعتنى بترجمته الكثير، ومنهم إبراهيم بن فرحون في الديباج وذكر أنه اجتمع به سنة حجه. قال ابن فرحون: وحج سنة (792) فتلقاه العلماء... ولما زار المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام نزل فبي بيتي (الديباج ج2، ص 331 طـ 2).

وذكر صاحب نيل الابتهاج أنه الذي أشار على ابن فرحون بإفراد مقدمة شرحه على ابن الحاجب بكتاب خاص فسماه ابن فرحون: (رفع النقاب الحاجب عن مصطلحات ابن الحاجب) (كما في ص 34، ط 2).

واحتفل بترجمته الشيخ أحمد بابا فنقل عن الرصاع تلميذ تلميذه البرزلي مجمل حياته مع ذكر شيوخه.

ونقل عن ابن الأزرق أنه وقف على مكتوب لابن عرفة فصل فيه قراءته على ابن عبد السلام ومن جملة ذلك التفسير ومسلم بقراءة ابن عبد السلام إلا القليل بقراءة غيره (النيل ص 463 طـ 2).

وسبعمائة، وكان يومئذ المفتي بعد صلاة الجمعة هو الشيخ أحمد الغبريني[1] إلى أن توفي سنة سبعين وسبعمائة، ودفن بجبل المنار، فوليها عوضه الإمام ابن عرفة. ولما خرج لحج بيت الله الحرام سنة اثنتين وتسعين استخلف للخمس والفتيا بجامع الزيتونة تلميذه، أبا مهدي عيسى الغبريني وللخطبة به الشيخ محمد البطرني [2] ولما عاد باشر خططه بنفسه على عادته.

وكان إماماً في العلوم، وصنف في كثير منها، واشتغل في آخر عمره بالفقه. وكان معتنياً بالمدونة ملازماً للنظر فيها محتجاً بها، صواماً قواماً كثير التلاوة لكتاب الله عزّ وجل، مجداً[3] في دنياه موسعاً عليه فيها مالاً وجاهاً ونفوذ كلمة، عاش سبعاً وثمانين سنة وتوفي في الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ثلاث وثمانمائة. ودفن تحت جبانة ولي الله المنتصر بالزلاج وقد جمع الشيخ محمد الورغي تواريخ ولادة الإمام ابن عرفة وإمامته وابتداء تأليفه المختصر الفقهي وانتهائه وحجته ووفاته في بيتين وهما قوله:

[الطويل]

ولادتــه: أرّخ ســروري[4] وأُمُّــهُ: **نثور**، وبدء الكتب: **فتْحكُمُ يدري**
[716] [756] [772]

وإكمـاله: **درع التمـام**، وموتـه: **خراب**، وكان الحج: **فاض من السر**
[786] [803] [797]

---

(1) هو أحمد بن أحمد بن أحمد أبو القاسم الغبريني من تلاميذ ابن عبد السلام.
قال في حقه البرزلي: الفقيه الراوية الصالح المسن.
وهو ولد أبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني صاحب عنوان الدراية توفي سنة (772). النيل ص 104. طـ 2، شجرة النور ص 224.

(2) محمد بن أحمد بن موسى البطرني أبو الفتح الأنصاري التونسي قال البرزلي المحدث المسن المقرىء الزاهد الصالح.
توفي سنة (ـ 793) وولد سنة (703).
(الوفيات ص 378 النيل ص 461 طـ 2).

(3) كذا في الأصل والصواب مجدوداً من جُدَّ بالبناء للنائب فهو مجدود.

(4) في الأصل: ولادته سرُّوَري.

وبعد وفاة ابن عرفة ولي عوضه إماماً وخطيباً ومفتياً بجامع الزيتونة بعد صلاة الجمعة تلميذه حافظ المذهب قاضي الجماعة (**الشيخ أبو مهدي عيسى الغُبريني**)[1] قال الشيخ عبد الواحد الغرياني: لما ولي شيخنا القاضي عيسى الغبريني إمامة جامع الزيتونة سألني هل عندك علم في مسند النقارة (طبلة صغيرة ينقر عليها) التي تهز بدُوَيْرة الجامع إعلاماً بإقامة الصلاة، فأخبرته: أن أبي حدثني عن شيخه عبد الله بن عبد البر أنه كان إذا أتى للجامع أكثر ما يجلس على إصطبل بإزاء باب الجنائز فإذا رآه المؤذن هنالك أقام الصلاة. وقليل جلوسه في الدويرة إلا لعذر أو رواية كتاب عليه بحيث ربما لا يعرف المؤذن هل هو هنالك أم لا فتجد خدمة الجامع يهزون تلك النقارة إعلاماً بحضوره على وجه الندرة، قال: فاستحسن إعلامي والتزم تركها. وكان يقول: لم أدرك وجهاً للخلاص في فعلها، واستعادها البرزلي اقتداءً بشيخه ابن عرفة. ثم اختلف حال الأيمة من بعده فمنهم من فعلها ومنهم من تركها كالإمام أبي الحسن اللحياني. ا هـ.

قلت: أما اليوم فقد انقطع استعمالها ولم يبق من آثار الإعلام بحضور الإمام غير مناداة قيم الجامع عند باب الدويرة المسماة اليوم «مقصورة الإمام» قبل صلاة الظهر خاصة بقوله «الصلاة حضرت يرحمكم الله» فينادي بها المؤذنون عند أبواب الجامع وهو إعلام حسن. وقد توفي الإمام الغُبريني في التاسع والعشرين من ربيع الثاني سنة خمس عشرة وثمانمائة ودفن بالزلاج.

---

(1) عيسى بن أحمد الغُبْريني أبو مهدي التونسي قاضي الجماعة.

قال أحمد بابا:

قاضي الجماعة بتونس وعالمها وصالحها وحافظها وخطيبها. ووصفه ابن ناجي بأنه ممن يظن به حفظ المذهب.

جاء هنا أنه توفي سنة (- 815) وهو ما في نيل الابتهاج، والأقرب أنه توفي سنة (- 813) كما في الزركشي لأنه العمدة في وفيات التونسيين.

(النيل ص 297 طـ 2)، (الزركشي ص 124 طـ 2)، (الفارسية ص 197).

- 8 -

ثم وليها عوضه شيخ مدرسة ابن تافراجين الفقيه الحافظ (**الشيخ أبو القاسم بن أحمد بن محمد البرزلي**)[1] فاجتمعت بيده الإمامة والخطبة والفتيا بعد صلاة الجمعة بجامع الزيتونة، ولازم القيام بالخطط المذكورة مثل شيخه إلى أن بلغ من العمر إلى مائة وثلاث سنين. وكان يلقب شيخ الإسلام. وتوفي في الخامس عشر من ذي القعدة الحرام سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة ودفن بالزلاج.

- 9 -

وولي في الخطط المذكورة عوضه قاضي الجماعة (**الشيخ أبو القاسم القسنطيني**)[2] وولي يومئذ الشيخ عمر القلشاني خطبة جامع التوفيق والفتيا به عوض قاضي الجماعة. وأما مدرسة ابن تافراجين فقد وليها بعد البرزلي الشيخ محمد بن عصفور[3] وأقام القاضي القسنطيني على الخطط المذكورة مع خطة القضاء إلى أن ضرب بمغروس وهو على سجادته عند باب البهور بعد سلامه من

---

(1) أبو القاسم بن أحمد البلوي القيرواني، ثم التونسي الشهير بالبرزلي الإمام الشهير.
كان مستحضراً للفقه، لازم ابن عرفة ما يُنيف على ثلاثين سنة وذكر في الفتاوي أنه لازم ابن عرفة أربعين عاماً.
اعتمد المؤلف هنا في وفاة البرزلي على بعض ما جاء في النيل من أنها سنة (ـ 843) مع أن الزركشي العمدة في ذلك ذكر أنها سنة (ـ 841).
(النيل ص 368 طـ 2)، (الزركشي ص 138 طـ 2).
وقد خصت ترجمته بكتابة مفصلة.

(2) أبو القاسم القسنطيني تحدث عنه الزركشي في مواضع من تاريخه وذكر وفاته قتيلاً في حوادث سنة (846)، وقد ربط الزركشي بين مقتل القسنطيني، وبين محاكمة الشيخ أحمد القلجاني بسبب مقالة نسبت إليه.
(الزركشي (ص 140 طـ 2)، (شجرة النور ج 1 ص 245).
وفي شجرة النور إثبات أن مقتل أبي القاسم القسنطيني بسبب أنه رام الحكم بقتل الشيخ أحمد القلجاني.

(3) أبو البركات محمد بن محمد عرف بابن عصفور، وهو مدرس مدرسة الوزير الحاجب ابن تافرجين.
وانظر ما يتعلق بابن تافرجين الفارسيةَ، وقد عبّر عنه ابن القنفذ بالشيخ الرئيس. وانظر خاصّة التعليق على الفارسيّة (ص 279).

صلاة الصبح يوم الأربعاء السابع عشر من صفر الخير سنة ست وأربعين وثمانمائة. وقتل ضاربه في الحين تحت صومعة الجامع، ورفع الشيخ إلى داره فكتب وصيته ومات في الليلة القابلة ودفن من الغد بالزلاج.

ـ 10 ـ

وتقدم عوضه (**الشيخ عمر بن محمد بن عبد الله القلشاني الباجي**)[1] شارح الطوالع ومختصر ابن الحاجب فولي خطة قضاء الجماعة وخطبة جامع الزيتونة والفتيا به بعد صلاة الجمعة. وأما إمامة الخمس فوليها الشيخ محمد بن عمر المسراتي القروي خطيب جامع القصبة. وتنقلت خطبة جامع التوفيق والفتيا به بعد صلاة الجمعة من الشيخ القلشاني إلى الشيخ محمد بن عقاب.

ولازم الشيخ عمر القلشاني القيام بالخطط المذكورة إلى أن بلغ من العمر أربعاً وسبعين سنة وأُصيب بالوباء، وطال به مرضه المتصل بوفاته ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وأربعين وثمانمائة ودفن بالزلاج.

ـ 11 ـ

وتقدم عوضه خطيباً بجامع الزيتونة (**الشيخ محمد المسراتي**)[2] وأما فتيا الجامع وقضاء الجماعة فوليهما الشيخ محمد بن عقاب مع خطبة جامع القصبة.

---

(1) عمر القلشاني هو عمر بن محمد بن عبد الله القلجاني من مواليد باجة القمح بتونس.
وصفه أحمد بابا بأنه الشيخ الإمام العلّامة المحقق النظار الصالح القاضي، كان من أكابر علماء تونس.
والصواب في نسبته القلجاني بالجيم لا بالشين كما هو متناقل في كتب التاريخ، وكما هو هنا، وذلك لأن في الخزانة الخاصة شمائل الترمذي منسوخة برسم الشيخ عمر هذا لما كان قاضي الأنكحة وجاء فيها ما نصه.
مما نسخ برسم الشيخ الفقيه المدرس المتفنن قاضي الأنكحة بتونس المحروسة أبو علي عمر ابن الشيخ الفقيه المدرس القاضي أبي عبد الله محمد القلجاني سدده الله وأعانه.
كتبها عبيد الله إبراهيم بن أحمد شهر بأبي عريان عفا الله عنه برحمته.
انظر ترجمة عمر القلجاني في (النيل ص 305 طـ 2)، (والزركشي ص 141 طـ 2).

(2) محمد المسراتي قال الزركشي الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد المسراتي (الزركشي ص 142 ط 2).

وتوفي الشيخ محمد المسراتي يوم الجمعة الثامن عشر من شوال سنة خمسين وثمانمائة ودفن من الغد بالزلاج.

ـ 12 ـ

وتقدم عوضه للإمامة والخطبة قاضي الجماعة (**الشيخ محمد بن محمد بن عقاب**)[1] فاجتمعت لديه الخطط الثلاث مع خطة القضاء. وتنقلت خطبة جامع القصبة مع التدريس بالمدرسة التوفيقية إلى الشيخ أحمد بن محمد القلشاني. وتوفي الإمام ابن عقاب بعد العشاء من ليلة الاثنين السابع عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وثمانمائة. ودفن من الغد بجبل المنار بجبانة سيدي أبي سعيد الباجي.

ـ 13 ـ

وتقدم عوضه للإمامة والخطبة بجامع الزيتونة (**الشيخ محمد بن أبي بكر الونشريسي**). وأما الفتيا بعد صلاة الجمعة فوليها قاضي الأنْكحة الشيخ محمد البحيري خطيب جامع أبي محمد بباب السويقة في الثامن من المحرم سنة اثنتين وخمسين فكان يصلي الجمعة بجامع أبي محمد ويأتي للفتوى بجامع الزيتونة. وقد توفي الإمام الونشريسي عند العصر من يوم الأربعاء خامس ربيع الثاني سنة ثلاث وخمسين ودفن من الغد بالزلاج[2].

ـ 14 ـ

وتقدم عوضه للخطبة (**الشيخ محمد البحيري**)[3] يوم الجمعة سابع الشهر المذكور مع الفتيا به بعد صلاة الجمعة. وأما إمامة الخمس فوليها **الشيخ أبو**

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم. انظر الزركشي ص 142 طـ 2، والنيل ص 525 طـ 2.
(2) ما ذكره من الزركشي (ص 143 طـ 2).
(3) محمد البحيري: الزركشي (ص 143 و 148 طـ 2).

الحسن بن محمد اللحياني [1] ومات الخطيب البحيري عشية الاثنين خامس ذي القعدة الحرام سنة ثمان وخمسين ودفن من الغد بالزلاج.

- 15 -

وولي عوضه في الخطبة والفتيا بعد صلاة الجمعة **(الشيخ أحمد بن محمد القلشاني)** [2] مع مشيخة المدرسة الشماعية منتصف رجب وهو شارح المدونة ومختصر ابن الحاجب والرسالة. ولما توفي إمام الخمس اللحياني تقدم عوضه خليفة الشيخ أبو الحسن الجباس [3]. ومات في الثامن والعشرين من المحرم الحرام سنة إحدى وستين.

وتقدم عوضه خليفة لإقامة الخمس بجامع الزيتونة **الشيخ أحمد بن عمر المسراتي** أوائل صفر. وتنقلت منه خطبة جامع أبي محمد والفتيا به إلى قاضي الأنكحة الشيخ أحمد القسنطيني [4]. ولم تزل فتيا جامع الزيتونة وخطبته بيد الشيخ أحمد القلشاني إلى أن توفي عند غروب شمس يوم الأحد ثامن شعبان سنة ثلاث وستين وثمانمائة ودفن من الغد بالزلاج. وبعد وفاته بعشرة أيام خرج السلطان بمحلته ثم أرسل بتأخير الشيخ أحمد القسنطيني من قضاء الأنكحة وخطبة جامع أبي محمد والفتيا به.

---

(1) أبو الحسن اللحياني: من الزركشي (ص 143).

(2) أحمد القلشاني: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله القلجاني فقيه تونس وعالمها العلّامة الحافظ المحقق الحجة قاضي الجماعة.
وشرح ابن الحاجب في سبعة أسفار، وهو كما قال أحمد بابا:
وهو مفيد جداً في أبحاث مع ابن عرفة وغيره.
وله شرح الرسالة في جزأين ومنه نسخة قيمة من أملاك الوالد، وهي الآن في خزانة شقيقي الشيخ أحمد المهدي النيفر رحمه الله.
احتفل بترجمته صاحب النيل (ص 116 طـ 2).
والزركشي في مواضع متعددة وذكر وفاته (ص 151 طـ 2).

(3) أبو الحسن الجباس من الزركشي (ص 150) و (ص 151) طـ 2.

(4) أحمد القسنطيني. الزركشي (ص 150) و (ص 151) و (152) طـ 2 وتوفي سنة (864).
وما في شجرة النور (ج 1 ص 259) غير المذكور هنا.

ـ 16 ـ

ومن الغد تقدم **الشيخ أحمد بن عمر المسراتي**[1] إلى خطبة جامع الزيتونة مع الإمامة، وتقدم قاضي الجماعة الشيخ محمد بن عمر القلشاني خطيباً بجامع القصبة ومفتياً بعد صلاة الجمعة بجامع الزيتونة، وتقدم الشيخ محمد الزنديوي[2] للخطبة والفتيا بجامع التوفيق ومشيخة المدرسة الشماعية وتقدم الشيخ محمد الغافقي[3] للخطبة والفتيا بجامع باب الجزيرة ومشيخة مدرسة ابن تافراجين. واستقرت إمامة جامع الزيتونة وخطبته بيد الشيخ أحمد المسراتي. وهو الذي صلّى على جنازة الغوث الشيخ سيدي أحمد بن عروس[4] ـ رضي الله عنه ـ ثاني صفر الخير سنة ثمان وستين وتوفي الإمام المسراتي سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة.

ـ 17 ـ

وتقدم عوضه قاضي الجماعة (**الشيخ محمد القلشاني**)[5] فجمع بين الخطط الأربع وهي القضاء وفتيا جامع الزيتونة والخطبة والإمامة إلى أن أقعده المرض أواسط صفر سنة ست وثمانين.

ـ 18 ـ

ولما توفي تقدم عوضه للخطط المذكورة (**الشيخ محمد بن بلقاسم الرصاع**

---

(1) أحمد بن عمر المسراتي
الزركشي (ص 150) و (ص 151) طـ 2.
وجاء هنا أنه توفي سنة (882) وفي الضوء اللامع أنه توفي سنة (889).
(الضوء اللامع ج 2 ص 59).

(2) محمد الزنديوي قاضي الأنكحة كما في الزركشي (ص 152 طـ 2) له مؤلفات.
شجرة النور (ج 1 ص 259) والزركشي (ص 143 طـ 1) وسقط من الطبعة الثانية.

(3) محمد الغافقي. الزركشي (ص 151 طـ 2).

(4) انظر ابتسام العروس ص 249.

(5) قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عمر القلجاني وتوفي سنة (890).
شجرة النور (ج 1 ص 259).

الأنصاري)[1] شارح حدود ابن عرفة، ثم تخلى عن القضاء. ولازم القيام بوظائف جامع الزيتونة إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وثمانمائة.

ـ 19 ـ

فولي عوضه **(الشيخ محمد بن محمد بن عصفور)**[2] وهو حفيد الأستاذ النحوي أبي الحسن علي بن موسى الحضرمي الملقب بابن عصفور الإشبيلي. ولد بإشبيلية سنة سبع وتسعين وخمسمائة. وتوفي بتونس ليلة الأحد الخامس والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة تسع وستين وستمائة. ودفن بمقبرة ابن مهنى قرب جبانة ابن نفيس. وقد تقدم حفيده أبو عبد الله محمد بن عصفور إلى ولاية نظارة الأحباس خامس شعبان سنة ثمان وخمسين وثمانمائة غير أنه صرف منها بولاية الشيخ محمد البيدموري أواخر سنة إحدى وستين وسبعمائة. وتوفي محمد بن عصفور في صفر سنة اثنتين وستين. وتقدم ولده محمد إلى مشيخة مدرسة ابن تافراجين ثم إلى الخطبة والإمامة بجامع الزيتونة بعد وفاة إمامه الأنصاري ولازم ذلك إلى أن توفي سنة أربع وتسعمائة.

ـ 20 ـ

وجميع هؤلاء الأيمة ملأ ذكرهم سائر تواريخ البلاد فَنَشَرَتْ من تراجمهم وحسن أخبارهم في العلم والفضل ما اشتهر به فضلهم، ولذلك اقتصرت على مجرد تواريخ ولاياتهم ووفياتهم غير أنه بعد ذلك توالت على البلاد طواعين

---

(1) الإمام الشهير الرصاع وهو أبو عبد الله محمد بن قاسم الرصاع ووالده قاسم الرصاع لا بلقاسم. وتآليفه متعددة من أشهرها شرح حدود الشيخ ابن عرفة.
وله فهرست طبعها صديقنا الأستاذ محمد العنابي.
وقد سرى غلط في وفاته فذكرت أنها سنة (894) تبعاً لصاحب نيل الابتهاج والصواب أنه كان حياً في تلك السنة لما ذكره السخاوي في الضوء اللامع من أنه كان على خطته سنة (894).
(الزركشي ص 143) طـ 1 وسقط من الطبعة الثانية، (الضوء اللامع ج 8 ص 287)، (نيل الابتهاج ص 560)، (شجرة النور ج 1 ص 259).

(2) محمد بن عصفور أبو البركات (إتحاف أهل الزمان ج 7 ص 65).

والتاثت أمور السلطنة ولم يوجد في البلاد من يؤرخ رجالها، ولذلك لم نقف على خبر للمتولين خطة الإمامة إلى أن وليها **الشيخ محمد بن إبراهيم الأندلسي الأنصاري**[1] فكان هو القائم بإمامة جامع الزيتونة سنة سبعين وتسعمائة.

- 21 -

ثم وليها (**الشيخ أبو الفضل بن أبي القاسم البرشكي**)[2] حفيد قاضي الجماعة إلى أن توفي سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة.

- 22 -

ثم وليها (**الشيخ محمد بن سلامة**)[3] الفقيه المفسر الواعظ إلى أن توفي في جمادى الثانية سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة.

- 23 -

ثم وليها (**الشيخ محمد الأندلسي**)[4] الأستاذ النحوي تلميذ العيسي ولازمها إلى أن توفي سنة سبع عشرة وألف.

- 24 -

وولي (**الشيخ أبو يحيى بن قاسم الرصاع الأنصاري**)[5] خطيباً وإماماً بجامع الزيتونة بعد أن استقال من الفتيا ولازم القيام بإمامة الجامع أكثر من سبع

---

(1) محمد بن إبراهيم الأندلسي أبو عبد الله الأنصاري.
في شجرة النور أنه توفي سنة (970) (شجرة النور ج 1 ص 282).

(2) أبو الفضل قاسم بن أبي القاسم البرشكي كذا في شجرة النور وفيها أنه توفي سنة (990)، (شجرة النور ج 1 ص 282).

(3) أبو عبد الله محمد بن سلامة التونسي (شجرة النور ج 1 ص 282).

(4) محمد الأندلسي، الإتحاف (ج 7 ص 66) وذكر في ذيل البشائر أنه تفقه به أبو يحيى الرصاع (شجرة النور ج 1 ص 292).

(5) أبو يحيى بن قاسم الرصاع (ذيل البشائر ص 185)، الإتحاف (ج 7 ص 66) شجرة النور (ج 1 ص 293).

عشرة سنة. ولما مرض قيل له: هل يصلح ابنك للإمامة؟ ـ وكان صغير السن بين يديه ـ قال: لا، فقيل له: هل يصلح الشيخ محمد براو[1]؟. وكان إماماً في العربية فقال: يصلح لها إلا أن أهل المدينة يأنفون منه لكونه ليس منهم، فقيل له: والشيخ محمد الغماد[2]؟ فقال: جوهرة عليها الران. فقيل له: والشيخ محمد تاج العارفين؟ فقال: جوهرة ما مستها يدان. وتوفي الإمام الرصاع يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة ثلاث وثلاثين وألف.

ـ 25 ـ

وتقدم عوضه (**الشيخ محمد تاج العارفين البكري**)[3]، واستمرت الإمامة في بيته بين بنيه مائة وثلاثاً وتسعين سنة. وفي أثنائهم كان مبدأ الدولة الحسينية خلد الله عزها، ولذلك نذكر هنا الأيمة من عهد المقدس حسين بن علي تركي إلى الآن على شرطنا السابق فنقول وبالله نستعين:

الشيخ علي البكري[4]

هو الشيخ أبو الحسن علي بن أبي بكر بن محمد تاج العارفين بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر الأموي رابع من تقدم لخطة الإمامة الكبرى بجامع الزيتونة من السادة البكريين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وحسبه بذلك فخراً. ورث الفضائل كابراً عن كابر، ملئت بمفاخرهم الصحف والدفاتر. من ذرية الخليفة الثالث جامع القرآن، عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فهم عفانيون وجدهم الذي ينتسبون إليه هو (الشيخ أبو بكر) دفين المنيهلة[5] من غابة تونس وثروتهم أشهر من أن تذكر لسعة أوقاف بيتهم. قيل: إن هناشير أوقافهم خاصة

---

(1) محمد براو (ذيل البشائر ص 185)، في الخزانة الخاصة مختصر شواهد العيني بخطه.
(2) محمد الغماد (ذيل البشائر ص 188).
(3) محمد تاج العارفين الحلل السندسيّة (ج 2 ص 360)، (الإتحاف ج 7 ص 67).
(4) علي البكري (ذيل البشائر ص 214) و (الإتحاف ج 7 ص 67).
(5) تطلق على جهة في طريق بنزرت.

بلغت مائة هنشير وهنشيراً عدا العقارات، كلها هم المختصون بعشر زكاتها ليس للدولة معهم شيء منه.

وكان والد الشيخ تاج العارفين من أهل الله الكرماء ونشأ ولده (**الشيخ محمد تاج العارفين البكري العفاني**) إماماً في العلم والصلاح، وتقدم لإمامة جامع الزيتونة في الثالث والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة ثلاث وثلاثين وألف بإشارة أُستاذه الإمام من قبله الشيخ أبي يحيى الرصاع، وقام بالإمامة والخطبة وزان المحراب والمنبر بعلمه وعمله. قيل: إنه لم يخطب على منبر جامع الزيتونة من إنشاء غيره ولم يكرر خطبة قط، مع ما فيه من المعرفة بالله جلّ جلاله وفصاحة اللسان وثبات الجنان، ومع ذلك له من الحزم والدراية ما ليس لغيره، ولذلك لما وقعت المشاغبة بين تونس والجزائر واشتد القتال بين العسكرين في واقعة عام الشطار في شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وألف خرج الشيخ محمد تاج العارفين ومعه ولي الله الشيخ إبراهيم الجديدي[1] والشيخ عبد النبي[2] خطيب جامع القصر ومن معهم لعقد الصلح بين الفريقين وتعيين الحدود، فكان الحد الذي تعين بين المملكتين هو وادي سراط بحيث أن غربيه للجزائر وشرقيه لتونس. وكتب رسم التحديد[3] بشهادة المفتي المالكي الشيخ قاسم البرشكي والشيخ محمد بن أبي الربيع الحنفي ورمضان أفندي خطيب الجامع اليوسفي[4] وعلي آغة كرسي الجزائر ورجع الشيخ محمد تاج العارفين بإتمام الصلح وقرار الراحة.

وهو زينة جامع الزيتونة يومئذ يقرىء صحيح البخاري دراية ودروساً في

---

(1) الشيخ إبراهيم الجديدي وصفه الوزير السراج في الحلل بأنه الشيخ البركة إبراهيم الجديدي. وانظر فيما يتعلق بهذا الرجل الصالح الحلل ج 2 ص 361 ـ 362 وزاويته قرب بلد زغوان، وهناك حمام طبيعي يعرف بحمام الجديدي، وخدمه الشيخ أبو الغيث القشاش وبه تخرج. خلاصة الأثر (ج 1 ص 140).

(2) عبد النبيء القصري (ذيل البشائر ص 188).

(3) رسم الصلح الذي بشهادة البرشكي ومحمد بن أبي الربيع الحنفي أورده صاحب (الحلل ج 2 ص 361).

(4) رمضان أفندي (الذيل ص 169).

علوم الدين وله في النثر يد، ورأيت من إنشاءاته مراسلة أرسلها من قصر جابر مكاتباً بها صديقه الشيخ عبد الكريم الفَكُّون[1] وهذا نصها:

الحمد لله الذي أطلع شمس الطلعة الفكونية من الأفق المغربي ويا عجباً من طلوعها أماناً للعالَم، وجمع فيها ما افترق من شتات العلوم في كل نحرير عالِم، وأزاح بها سحب الإشكال، وأراح بها من سحب الجهالة المخدرة لوجوه المعاني والأشكال، وقيد شوارد العلوم، وقرت بها على طريقة التحقيق بين المنطوق والمفهوم، أحمده حمد من رغب إليه في استصواب الصواب، وأشكره شكر من علم أن شكره سبحانه هو غاية المرغوب والثواب. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد محقق في إيمانه، مخلص في عرفانه وإيقانه، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله الذي أوتي من الكلم جوامعه، وعُمِّر به من كل سبيل صوامعه وجوامعه، اللّهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله أُولي الجد والتحقيق، وصحبه خير صحب وأكرم فريق، ما ذر شارق وأشرق غارب، وسكب هاطل وهطل ساكب.

وبعد فسلام يسابق النسيم، ويجاري برقته نفاسة التسنيم، يصافح الروض فيكتسب من بشره، ويفاوح الأزهار فلا تجد أذكى من نَشْره، يَسْتَرِقُ العنبر من عبيره، ويسترق المسك لفوته عنه في كثرة الشم وتكريره، كما قلت:

[المجتث]

أُهـدي إلـيـك سـلامـاً يـفـاوح الـنَّـدَّ نـشـره
يـلـقـاك مـن كـل فـج إذا تـلـقـاك بـشـره

أهديه إلى السيد الفقيه، العالم العلم النزيه، النحرير المتفنن الوجيه، من لنا إلى حبه ركون، سيدي عبد الكريم الفكون، كان الله له في الحركات والسكون، آمين.

---

(1) عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون (ـ 1073). (تعريف الخلف ج 1 ص 162)، (الأعلام ج 4 ص 179)، أعلام الجزائر (ص 97).

هذا واعلم أيها الصديق الحميم، أذاقنا الله وإياك برد الرضا والتسليم، أني رقمته والخجل في الوجنات يبدي حمرته، والوجل يظهر تارة صفرته، في منزل به خيام المَحَال، أسأل الله أن يجعل الإسعاد بها لا من المحال.

وقد تفاءلنا باسمه جابر[1]، وقد طاب منه مشربه الرائق الزاهر، منزل جبر الله فيه القلوب، ويسر الله فيه كل مرغوب ومطلوب، من إصلاح الله سبحانه بين عباده، ورد سيف المعاند والكائد في أغماده، أوجب الله لكم السعادة، ويسر لكم أسباب الحسنى وزيادة، وأن السيد الفقيه، المشارك الوجيه، سيدي أبا العباس أحمد بن الحاجّة، جعل الله حسناته في أسواق القبول رائجة، هو ومن معه من السادات الفقهاء الأعيان شنفوا أسماع الفقير، بما لا يسعه وضع لسان القلم وإملائه على التطريس والتسطير من محاسن أخباركم التي تراءت لنا منهم بكل وجه جميل، وكرروا علينا عائدها في البردين والمقيل. ولقد قلت في ذلك:

[الطويل]

شغفت بكم لما تشنف مسمعي وعشق الفتى بالسمع مرتبة أخرى

لا جرم كاتبناكم وأيدي الشوق تتلقف حبات القلوب، وقد شبّ عمرها عن الطوق، وكفى أن عَلِمَ ذلك علاَّمُ الغيوب. وأعلمكم أني لا أنساكم من الدعا، كما أني أطلب ذلك منكم لا سيما بإصلاح الوعا، فإن الدعاء بظهر الغيب مستجاب، والتحابُّ[2] في الله في هذا الزمان الصعب من العجب العجاب. ولا تَنْسنا من مكاتبتكم مع الواردين، كما أنها ترد إليكم منا مع الصادرين. سقاكم الله رحيق الوداد في كاسات الإخلاص، وأورد صحائفكم مبيضة الوجوه مع زمرة صحائف أهل الاختصاص، ومن معنا من الجماعة وهم: سيدي محمد العامري، وسيدي علي الشرفي، وسيدي محمد الأندلسي، وسيدي الحاج عون الله، يُهدون إليكم أطيب السلام، ويخصونكم بالتحية والإكرام، ويطلبون دعواتكم، في خلواتكم وجلواتكم، ومعاد عليكم منا ورحمة الله وبركاته.

(1) إشارة إلى المنزل الذي وقع الصلح فيه بين تونس والجزائر.
(2) في الأصل التحابب.

رَقَّمَه بأنامل التقصير، العبد العاجز الفقير، المذنب الجاني، محمد تاج العارفين العثماني. لطف الله تعالى به بمنه. بتاريخ أوائل ذي القعدة الحرام عام سبعة وثلاثين وألف بقصر جابر. جبر الله صدع قلوبنا، وغفر عظيم ذنوبنا، وجعل استعدادنا لمعاده ووفر دواعينا فيما ينجينا ويقربنا منه زلفى بمنه ورحمته. وصلّى الله على مسكة الختام، ولَبِنَة التمام، سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. اهـ.

- 26 -

[الشيخ أبو بكر البكري][1]

وبعد وفاة تاج العارفين تقدم لخطة الإمامة والخطبة ورواية الحديث بجامع الزيتونة ولده (**الشيخ أبو بكر**) وكان من رجال العلم والدين جلس لإقراء صحيح البخاري دراية بجامع الزيتونة وعمره سبع عشرة سنة وحضر درسه جميع علماء ذلك العصر عدا والده، فرأوا آية كبرى، وجزموا بأن ذلك كان بعناية ربانية زيادة على علمه وكانت أُمه ابنة الشيخ أبي الغيث القشاش[2] ومن بيتها انجر غالب أوقاف البكريين.

قيل إنه كان في صغره واقفاً عند باب دارهم فمر به الولي الصالح الشيخ علي دبوز وبيده إناء مملوء لبناً فيه رائحة كريهة وعرض عليه شربه فشرب جميعه، ولما دخل وأخبر والده الخبر قال له: ذلك مرادي. وقد قرأ بزاويتهم

---

(1) الحلل (ج 2 ص 611).

(2) أبو الغيث بن محمد المعروف بالقشاش العالم الولي الرحلة الكبير القدر، وكان آية من آيات الله الباهرة.

أطال في ترجمته المحبي في خلاصة الأثر.

وفيه يقول شيخ الإسلام يحيى بن زكرياء:

فهمته العلياء غيث به ارتوى ... رياض أمان اللائذين بأسرهم

(خلاصة الأثر ج 1 ص 140).

وله مناقب وهي من تأليف المنتصر ابن المرابط أبي يحيى القفصي منها نسختان في المكتبة الوطنية وترجم له في الحقيقة التاريخية (ص 288).

على الشيخ محمد بن عبد الله «الكبرى وتفسير الجلالين» ونسج في علمه وعمله وإقامة منار الجامع على منوال والده، وظهرت له مكاشفات وأسرار، نقل عن خليفته بالجامع الشيخ علي العامري أنه خرج معه مرة في زمن الربيع إلى زرع له فأعجبه خصبه فقال الشيخ لخليفته: أما أنا فلا آكل منه فكان عام وفاته. وفيه ختم البخاري دراية بملازمته لذلك في الثلاثة الأشهر المعظمة نقل عنه في يوم ختمه أنه كان كثير الاستظهار بحيث إنه سمع منه في ذلك الدرس عنوان المباحث بـ (قلت) كثيراً. وكان خليفته يومئذ في إقامة الخمس والخطبة بجامع الزيتونة الشيخ علي بن محمد العامري وهو شيخ القرّاء بالجامع وعمدة المدرسين به ـ رضي الله عنه ـ وكانت وفاة الإمام أبي بكر البكري بسبب طاعون أصابه فتوفي سنة اثنتين وسبعين بعد الألف وأرخه الشيخ محمد الوزير السَرَّاج بقوله:

[المتقارب]

أبو بكر أحزننا موته ... وكان لدينا رَواءَ الأُوام
وكان قديماً خديمَ الحديث ... فسار بعزٍّ لدار السلام
تقدم ممتثلاً للقضا ... وإن التقدم شأن الإمام
فَبَادِرْ بنَصْبِ الأكف دُعاً ... لجرّ النعيم ورفع المقام
فمسك أحاديثه عدها الـ ... ـهداة وقد أرخوه: الختام

[1072]

ـ 27 ـ

[أبو الغيث البكري][1]

وعند ذلك تقدم للإمامة والخطبة ورواية الحديث بجامع الزيتونة أكبر بنيه (الشيخ أبو الغيث بن أبي بكر بن محمد تاج العارفين البكري) ثالث الأيمة البكريين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. وكان شجاعاً فاضلاً قليل الكلام عزيز

(1) أبو الغيث البكري، انظر الشهب المحرقة للشيخ برناز فقد ترجم لجماعة من البكريين منهم الشيخ تاج العارفين وحفيديه أبي الغيث وعلي. وذكر أبا الغيث في مواضع منها ص 138.

النفس يروي الحديث الشريف بدون دراية بحيث أن تدريس الأيمة للحديث بجامع الزيتونة في الثلاثة الأشهر المفضلة انقطع به، وقد قال الرعيني[1] في تاريخه المؤنس: لم يكن بالديار التونسية من يوم حلّ بها العسكر العثماني من تعاطى الرواية والدراية إلا الإمام العالم الرباني، الشيخ أبو عبد الله محمد تاج العارفين العثماني، سقى الله ثراه من صوب الرحمة والرضوان. وكان مجلسه بالجامع من أجل المجالس وتحضره الأجلاء من أهل العلم وتدور بينهم المباحث الجميلة في العلوم الجليلة، ولا يخلو مجلسه من فوائد في الثلاثة الأشهر رجب وشعبان ورمضان إلى يوم الختم، وهو اليوم السادس والعشرون من رمضان. ثم تلاه ولده العلم الشهير، والعالم النحرير، الشيخ أبو بكر فسار بسيرة والده، وقام بعلم الحديث الشريف أحسن قيام، وشهد له بالدراية علماء الإسلام. فكان في هذا الفن نسيج وحده، وحصل له سر أبيه وبركة جده، إلى أن سار إلى رحمة ربه في سنة ثلاث وتسعين وألف (هكذا ذكر) فتغيرت تلك القاعدة وصارت رواية لا غير، وجرت بها العادة للتبرك، وانقطعت المادة من السير لأن ولديه لم يبلغا مبلغه ولا سعيا سعيه ا هـ.

وكان خليفته في إقامة الخمس والجمعة هو خليفة أخيه أعني الشيخ علي العامري هو شيخ المدرسة العنقية، وليها بعد وفاة الشيخ أبي الفضل المسراتي سنة خمس وثمانين وألف، وكان يقرىء بها الكبرى وعند وفاته تقدم خليفة عوضه أكبر ابنيه الشيخ أبو الفضل العامري[2] شيخ القرّاء أيضاً بعد والده. وبعد وفاته ولي عوضه أخوه الشيخ حسن العامري[3] فلازم إقامة الخمس ومشيخة القرّاء، وواظب على إقراء التجويد بالجامع، واستفاد منه خلق كثير إذ كان صاحب سجادة القراءة مجيزاً بالجامع والمدرسة المرادية. وقد أخذ عن الشيخ أحمد

---

(1) الرعيني هو محمد بن أبي القاسم الرعيني المشهور بابن أبي دينار كان من طبقة الآخذين عن الشيخ محمد فتاتة. ولي قضاء سوسة ثم القيروان، وله تأليف في الأدب منه نسخة في خزانة كاتبه، والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس طبع ثلاث مرات.

(2) أبو الفضل العامري اشتهر مثل بقية العائلة العامرية بكونه شيخ القرّاء.

(3) حسن العامري ترجمته في (ذيل البشائر ص 212).

التدغي، ولازم خدمة الجامع بإقامة الخمس والتلاوة،والإمام أبو الغيث البكري يقيم الجمعة والعيدين ورواية الحديث خاصة.

وعلى عهده جرت واقعة الشيخ حمودة فتاتة [1] وذلك أنه كانت له مودة مع رمضان باي لحسن محاضرته ولطف أدبه ووثوق علمه. وكان والده الشيخ محمد فتاتة يومئذ هو صاحب الفتيا بمذهب مالك وبذلك كانت وجاهة ابنه مع علمه عظيمة.

وكان لرمضان باي مغن يحسن ضرب الأرغنو يسمى مزهودا فتمكن بضرب الآلة من نفس سيده وتركه مشتغلاً بالملاهي. وأخذ يتصرف في الدولة وسعى في فصل مودة الشيخ حمودة فتاتة حتى منعه من الدخول إلى باردو، فرجع الشيخ إلى دروسه العلمية بجامع الزيتونة وتصدى لإقراء المختصر الخليلي والهمزية ثم ابتدأ درساً من صحيح البخاري دراية على حين لم يكن بجامع الزيتونة من يقرىء الصحيح دراية وكان راويه يومئذ هو الشيخ محمد زيتونة صاحب حاشية تفسير أبي السعود، فاجتمع على الدرس المذكور خلق كثير بين صلاتي الظهر والعصر وازدحمت عليه الخاصة والعامة حتى اضطر الأبعدون إلى سماع الدرس على حالة القيام ليتمكنوا من مشاهدة الشيخ وطار له بذلك صِيتٌ أحسَّ منه مزهود فأرسل إلى الإمام أبي الغيث البكري بأن يمنعَه من إقراء درس الحديث بالجامع إذ ربما يؤول به الأمر إلى طلب إمامة الجامع وإن رأى منه عدم الامتثال والتمادي يمتنع من الحضور للصلاة ليكون ذلك سبب بُعْدِه عن الجامع فأرسل إليه الإمام البكري بإبطال الدرس فلم يتأخر، ولما رآه جلس إلى درسه خرج من الجامع ولم يُقِمْ صلاة العصر ذلك اليوم بجامع الزيتونة. ولما رأى الشيخ حمودة فتاتة صنيع الإمام تنقل بدرسه إلى مسجد سوق البلاط وغص المسجد بالرواة ولم يزد ذلك مزهوداً إلا غماً وحسداً فأغرى به رمضان باي ومنعه من الخروج من

---

(1) حمودة فتاتة هو ابن الشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم فتاتة التونسي كان من أفراد عصره وكان شاعراً وتوفي سنة (1115).

الحلل السندسيّة ج 2 ص 684، شجرة النور (ج 1 ص320).

أما ابنه حمودة صاحب الحادثة التي أودت بقتله فإنه كان من العلماء وتوفي قتيلاً سنة (1109).

داره ولم يكفه ذلك حتى أرسل حرساً هجموا على دار الشيخ وأخرجوه بترويع أمه وأبيه، وأهله وبنيه، وأوقعوا به ما بلغ به إلى الشهادة، ولاقى من الله الحسنى وزيادة. ولم يشعر بذلك رمضان باي إلا بعد الفوات، وكان ذلك على الدين وأهله من أعظم الحسرات. لكن لم تمضِ غير أيام، وقد شتت الله شمل مزهود وسيده وأشياعه بعد الالتئام، فدارات عليهم الأيام، والله عزيز ذو انتقام. وحسبك أن والده مفتي الأنام قابل تلك المصيبة بالتوجه إلى سيِّد الأنام، حيث قال في ذلك المقام:

[الطويل]

إليك رسولَ الله وجهت آمالي ... وألقيت يا سُؤْلي ببابك أحمالي
وأدعوك يا أعلى النبيئين رتبةً ... أغثني فإني في مَضيق وأهوال
أغثني أغثني يا ملاذي ومَلْجَئِي ... فأنت عمادي في مُقامي وترحالي
أَلَسْتَ الذي أُرْسِلْتَ للخلق رحمةً ... ويُلْجَأُ في الضَّرَّا إلى بابك العالي
ألسْت الذي ما في سواك مؤمل ... وليس بمَرْجُوٍّ سواك لأَوْجَالِ
ألست ملاذ الخلق في كل شدة ... وفي كل مكروه أَلَمَّ وأوْبال
فكن لِيَ يا خَيْرَ الأَنَام وسيلة ... إلى الله كيما أن أُبَلِّغ آمالي
ويا رب أنت الله سؤلي وموئلي ... وغايةُ قصدي ليس دونك من والِ
بِعَيْنِكَ ما قد نالني من مهانة ... وما شَفَّنِي من سوء حال وإذلال
وجئتك مضطراً بقلب به أسى ... ودمع جرى في صفحة الخد هطَّال
فكن لي ولياً وانتصر لي وَوَالِني ... وَجُدْ لي بلطف منك يا خير مِفْضَال
وإن لم تكن لي ناصراً وموالياً ... فمن ذا الذي أرجو لتسديد أحوالي
وخذ ليَ حقي من ظَلوم أصابني ... بسوء وعجل ذاك يا رب في الحال
ومَزِّقْه يا ذا البطش كل ممزق ... على الفور يا جبَّارُ من غير إمهال
وسلّط عليه منك كل بلية ... تعاجله في النفس والأهل والمال
ودمره تدميراً وصيره مثلة ... ذليلاً حقيراً كاسف الذهن والبال
وكِدْه وشتت شمله وامْحُ ذكره ... وأَحْلِلْه في هون وبؤس وإذلال
بجاه أُولي العزم الكرام وفضلهم ... وجملة أصحاب النبي مع الآل

ولما ولي مراد باي ثامن شهر رمضان المعظم سنة عشر ومائة وألف وأرسل من قتل رمضان باي وأحرقه وألقى رماده وأعمل السيف في جميع شيعته كان من جملة أعماله في الحاضرة أنه عزل الإمام أبا الغيث البكري وبعد عزله خرج إلى حج بيت الله الحرام وأتم الحج والزيارة، وتوفي ليلة الخميس الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائة وألف.

- 28 -

[علي الرصاع]

والذي تقدم لإمامة جامع الزيتونة والخطبة ورواية الحديث به هو المفتي **(الشيخ علي بن حميدة الرصاع)** حفيد الإمام أبي يحيى الرصاع السابق الذكر.

- 29 -

[أبو الحسن البكري][1]

ولما أفضت الدولة إلى إبراهيم الشريف أواسط المحرم الحرام سنة ثلاث عشرة ومائة وألف أرجع الدر إلى معدنه فقدّم لإمامة الجامع رابع الأيمة البكريين وهو أخو البكري السابق: الشيخ أبو الحسن علي بن أبي بكر البكري صاحب الترجمة لفضله ودينه. يروى بين يديه صحيح البخاري والشفا، وهو زينة المحراب والمنبر. وقد أتقن حفظ القرآن وهو حسن الصوت والأداء، خطيب مؤثر، جهوري الصوت عالي الهمة، كريم وافر العطاء. وكان خليفته في إقامة الصلوات الخمس والخطبة، شيخ القرّاء الشيخ «حسن العامري» فناب عنه وعن أخيه السابق الذكر. وبعد وفاته ولي عوضه ولده العالم الشيخ حمودة العامري [2]

---

(1) ذكر قبله المؤلف علي بن حميدة الرصاع من أئمة الزيتونة ولم يذكر المترجمون له أنه ولي إمامة جامع الزيتونة وإنما يذكرون أنه تولى منصب الفتيا.

ففي الإتحاف توفي في سنة (1132) العالم الفقيه الشيخ المفتي أبو الحسن علي الرصاع.

وفي ذيل البشائر تولى منصب الفتيا. (ذيل البشائر 214) (الإتحاف ج 2 ص 103).

وأما علي البكري فهو علي بن أبي بكر بن تاج العارفين له ترجمة في ذيل البشائر (ص 214).

(2) في ذيل البشائر (ص 242) له ترجمة حافلة.

وقد ولد سنة ستين وألف وأخذ القراءات عن الشيخ «إبراهيم الجمل الصفاقسي»[1] وأخذ العلم عن الشيخ «علي العامري» والشيخ «محمد قويسم»[2] وتقدم بعد وفاة والده خليفة الخمس والخطبة وشيخ القرّاء بجامع الزيتونة ولازم القيام بذلك مع تدريس النحو والفقه والقراءات بالمقصورة مدة الإمام أبي الحسن البكري صاحب الترجمة الذي كانت وفاته أواخر ليلة الثلاثاء منتصف شعبان الأكرم سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف ودفن بزاويتهم من ربض باب السويقة مع سلفه عليهم رحمة الله وأرّخه الشيخ محمد الوزير السراج بقوله:

[المتقارب]

تُوفِّي علي ويا طالما ... على منبر الفضل إذْ ما خطب
وأمَّ الأنامَ كما أمه ... ذوو فاقة فانثنوا بالأرب
وإذ ما تَمَطَّى جواد الفنا ... وسار فأرخ تمام الخطب

[1123]

- 30 -
الشيخ حمودة البكري[3]

هو الشيخ أبو محمد حمودة بن علي بن أبي بكر بن محمد تاج العارفين البكري خامس الأيمة البكرين تقدم للإمامة صبيحة الثلاثاء منتصف شعبان الأكرم سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف، وكان عمره يومئذ دون الثلاثين سنة، فصلّى على والده بجامع الزيتونة وكانت العادة أن البكريين يصلون عليهم في بيوتهم. واستخلف خليفة والده الشيخ «حمودة العامري» فاجتمع حمودتان في خطة الجامع. وكان البكري المذكور عزيز النفس عاليَ الهمة رفيع الحسب إلى أن أدركته المنية فتوفي عليه رحمة الله.

---

(1) ذيل البشائر (ص 190).

(2) له تراجم منها ما في ذيل البشائر (ص 195)، وفي مجلة المنهل السعودية بقلم كاتبه بحث مفصل عن حياته.

(3) لم يترجم له في الإتحاف.

- 31 -

الشيخ أبو الغيث البكري [1]

هو الشيخ أبو الغيث بن علي بن أبي بكر بن محمد تاج العارفين البكري سادس الأيمة البكريين تقدم للإمامة بعد أخيه غير أنه لم تكن فيه أهلية لها وكان جليل الحسب والمقدار، رفيع النسب مرموقاً بعين الاعتبار، إلى أن أدركته المنية فتوفي عليه رحمة الله.

وكان صاحب السجادة على عهده الشيخ **«أحمد بن قاسم عزوز»**. ولد بتونس واشتغل بعلوم القراءات وأتقن العشر عن الشيخ «عبد الرحمٰن العصابي»[2]، وله مشاركة في كثير من العلوم، وكان خطيباً بجامع الحلق خارج الباب الجديد وصاحب سجادة التجويد بالجامع الأعظم والمدرسة المرادية إلى أن أدركته المنية وهو يتلو القرآن سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف عليه رحمة الله.

وكان شيخ الختمة بجامع الزيتونة يومئذ هو الشيخ **«علي بن محمد سويسي»**[3] شيخ شيوخ جامع الزيتونة وخطيب جامع سبحان الله بربض باب السويقة إلى أن توفي نحو سنة ست وأربعين ومائة وألف عليه رحمة الله.

- 32 -

الشيخ حمودة الريكلي [4]

هو الشيخ «أبو محمد حمودة الريكلي الأندلسي» ولد بتونس وتصدى لقراءة العلم على فحول أوائل المائة الثانية عشرة ثم اختص بعالم العصر الشيخ «محمد

---

(1) هو أبو الغيث الثاني ذكره في (الإتحاف ج 7 ص 68).

(2) أحمد عزوز، وشيخه عبد الرحمٰن العصائبي ترجم لكل منهما في ذيل البشائر.
أما أحمد عزوز ففي (ص 216).
وأما شيخه ففي (ص 189).

(3) ترجم له في (الذيل ص 239).

(4) ترجمته في (الذيل ص 261).

زيتونة المنستيري» - رضي الله عنه - فلازم دروسه وقرأ عليه معقول العلوم ومنقولها بجامع الزيتونة والمدرسة المرادية حتى عد من فحول العلماء. ولما أراد أُستاذه الشيخ (محمد زيتونة) السفر إلى حج بيت الله الحرام سنة أربع وعشرين ومائة وألف اختاره للنيابة عنه في المدرسة المرادية فأقام دروسها، ولما عاد الشيخ من حجته ورجع إلى القيام بوظيفته قدم الأمير «حسين بن علي التركي» تلميذه صاحب الترجمة مدرساً بجامع الزيتونة، وعين له مرتباً من جراية بيت المال فأفاد الطالبين وتخرج عليه كثير منهم. ولما أوقف محمود خزندار أوقاف التدريس بمسجد سيدي معاوية[1] اختاره مدرساً وأجرى له ولطلبته جراية الوقف فنفع هنالك أيضاً. ولما توفي شيخه صبيحة يوم الخميس الخامس من شوال سنة ثمانٍ وثلاثين وألف قدمه المقدس حسين باشا لمشيخة المدرسة المرادية التي بسوق القماش فكان هو ثالث شيوخها إذ أن مراد باي لما أتم بناءها أواخر سنة خمس وثمانين وألف قدم لمشيختها أولاً الشيخ «محمد الغماد»[2] ولما توفي ثاني رمضان سنة ست عشرة ومائة وألف تقدم عوضه الشيخ «محمد زيتونة» بمناظرة جرت عند باب الشفاء بجامع الزيتونة حضرها أمير العصر. ولما توفي تقدم لها صاحب الترجمة بعلمه، وأقرأ بها الدروس التي أفادت العموم وأوضح بها مسالك المنطوق والمفهوم. وانتصب للإشهاد فكان من موثقي عدول المدينة، وانتصب متصبه في الإشهاد ولداه «محمد وأحمد» فكانا أيضا في العدالة مثل والدهما - رضي الله عنهم أجمعين -. ثم إن علي باشا قدمه إلى خطة القضاء بالحاضرة فزانها بعلمه وعدله مع كمال عفة وتواضع حتى أنه لما توفي الشيخ أبو الغيث البكري وخلف ولدين صغيرين قدمه الباشا عوضه خطيباً وإماماً وراوياً للحديث بجامع الزيتونة، وخطب على منبره مُن إنشائه مدة إلى أن صلح للإمامة الشيخ عثمان البكري فارتجع الخطة منه باستحقاق الوراثة من آبائه الكرام وأقام صاحب الترجمة على خطة القضاء، وبث العلم في صدور الرجال. وكان عالماً عفيفاً صالحاً متقشفاً خمولاً قليل الكلام كثير المحاورة في العلم

(1) مسجد سيدي معاوية بنهج المنستيري بتونس.

(2) محمد الغماد ترجم له في (الذيل ص 188) و (الحلل السندسية ج 2 ص 698).

فصيح العبارة حسن التقارير متثبتاً، لا تأخذه في الحق لومة لائم يحضر مجالس الباشا العلمية مع أعيان العلماء.

قيل: إن الباشا المشار إليه ذكر لهم في بعض الليالي حسن معاملته للعلماء وتقريبهم من مجلسه مع ما كانوا يعانونه من الدول السالفة فسكت جميع الحاضرين وبعضهم شكر فضله. أما صاحب الترجمة فلم يتهيب أن قال له: إن ما كان يعانيه العلماء السابقون كان متسبباً عن وقوفهم مع أُمرائهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واليوم جميع الحاضرين لا تجد واحداً منهم ينكر عليك ما أنت فاعله. فلم يقدر الأمير على إجابته وتوقع بعض الحاضرين للشيخ ما توقع وزاد الأمير بعد انتهاء المسامرة أن أرسل إلى الشيخ بأن لا يرجع إلى تونس صباحاً فلم يشك الشيوخ فيما توقعوه، لكن من الغد أجزل الباشا صلته وشكره على حسن تنبيهه وأركبه في شريوله للإياب إلى الحاضرة فكانت منقبة جميلة لكل منهما. ولم يزل الشيخ على فضله وفخره في بث العلم ومباشرة القضايا إلى أن أدركته المنية فتوفي سنة إحدى وستين ومائة وألف ـ عليه رحمة الله ـ.

ـ 33 ـ
الشيخ عثمان البكري [1]

هو الشيخ أبو النور عثمان بن أبي الغيث بن علي بن أبي بكر بن محمد تاج العارفين البكري سابع الأيمة البكريين. لما توفي والده أخذ في اكتساب ما يؤهله للالتحاق بسلفه، فتعلم القرآن العظيم وتصدى لقراءة العلم الشريف على الشيخ «محمد سعادة» ولازم الدروس، لإحياء ما ذَوَى في أصوله من الغروس، إلى أن برقت على أساريره بروق النجابة، ولاحت غياهب الجهل عن وجهه منجابة، وكاد أن يحييَ ما عفا من مراسم بيته الرفيع، ويلتحق بأجداده فيكون زهرة في روض فضلهم المَريع. وعند ذلك أعمل الأسباب، وأمل من دهره نيل الآراب، فجرى ذكره بخير عند الباشا، وحسنوا عنده إلحاقه في إمامة الجامع

(1) عثمان البكري (الإتحاف ج 7 ص 68).

بآبائه حيث بلغ إلى ما شاء حتى تحول إلى رأيهم أو كاد، وقدمه لتلك الخطة إلحاقاً له بالآباء والأجداد. فباشر الخطبة والإمامة، وأظهر في ذلك غاية الزعامة، وكان مع ذلك ولوعاً بركوب الخيل المسومة، واتخاذ السروج التي بالطراز والتحلية مُعَلَّمة، مع ما له من الوجاهة والوقار، والحسب العالي المقدار، وجمال السمت الباهر، والكرم الوافر، بحيث أن زاويتهم لا تنفك عن الإطعام، في سائر الليالي والأيام، بل زاد على ذلك أن جعل عند باب داره سقاية من خالص اللبن، يستقي منها كل وارد إلى ذلك المشرب الحسن، إلى غير ذلك من آثار الفضل الكثير، التي يسرت لِأَعدائه الوشاية به لدى الأمير، حين ثار عليه ابنه يونس.

قيل: إن يونس ابن الباشا لما أراد الخروج عن أبيه مرّ بدار الشيخ عثمان البكري صاحب الترجمة فرأى عنده من الخيل المسومة وغضارة العيش وآثار النعمة وإقبال الدنيا ما تمنى به أن يكون من أبناء الزاوية البكرية. وقال: إنهم شاركونا في لذة العيش واستأثروا علينا بلذة الأمن.

- 34 -

وعندما وقعت الوشاية بالإمام البكري لدى الأمير أرسل بعزله وأولى مكانه خليفته العالم الشيخ «**غيث بن عبد الرحمٰن بن عبد السلام غلاب**»[1] إماماً أكبر بجامع الزيتونة وكان عدلاً ثقة يتعاطى الإشهاد في حدود النيف والخمسين بعد المائة والألف.

وبعد أشهر من ولاية إمامة جامع الزيتونة احتبس المطر وشاع عند العامة أن السماء لا تمطر إلا باستسقاء الإمام البكري لكمال اعتقادهم في بيتهم فأعاد الباشا الإمام البكري إلى إمامته واستمر الشيخ غيث غلاب على خلافته. وبقي الأمر كذلك إلى أن أعاد الله الدولة إلى أبناء المقدس الباشا حسين بن علي تركي واستولى على كرسيها الأمير محمد الرشيد باشا باي أوائل ذي الحجة والحرام سنة تسع وستين ومائة وألف.

---

(1) انظر (الإتحاف ج 7 ص 68).

وكان الأمير المذكور يميل إلى إجراء الأمور على عوائدها التي كانت عليها مدة المقدس والده حسين باشا فقيل له: إن من عادة جامع الزيتونة مدة المقدس الوالد أمر الجامع يكون بيد إمامه الأكبر يولي فيه من يشاء وعند ذلك فوض الأمير وظائف الجامع إلى الإمام البكري فعزل خليفته الشيخ غيث غلاب لولايته مكانه مدة الباشا واستمر معزولاً مدة ثم أعاده إلى النيابة بوسائط. واستمرت الإمامة بيد صاحب الترجمة وهو مرموق بعين احترامها، معدود في زمرة أعلامها، إلى أن أتاه محتوم الأجل سنة ست وسبعين ومائة وألف ودفن بزاويتهم عليه رحمة الله.

- 35 -

الشيخ حمودة البكري [1]

هو الشيخ أبو محمد حمودة بن أبي الغيث بن علي بن أبي بكر بن محمد تاج العارفين البكري ثامن الأيمة البكريين. وليها بعد وفاة أخيه المتقدم مع أنه بعد وفاة والده لم يتعاط شيئاً من اكتساب ما يتأهل به لولاية الخطة المذكورة وبقي في تنعم بيته بعد وفاة والده ومدة إمامة أخيه إلى أن توفي أخوه واستحق هو إرث الخطة المذكورة فقدمه إليها الأمير علي باشا باي الحسيني إماماً أكبر بجامع الزيتونة. قيل: إنه لما صعد على المنبر يوم الجمعة لم يقدر أن يفوه ببنت شفة وبقي حصة صامتاً إلى أن استنزله المزوار بهيئة ازدراء وخطب مكانه خليفة الجامع واستمر على خطته وجهله محترماً معظماً إلى أن توفي عليه رحمة الله. وكان خليفة الجامع يومئذ «الشيخ محمد بن علي سويسي»[2] يقيم الخطبة والخمس بجامع الزيتونة مع ما له فيه من الدروس العلمية. وشيخ الختمة ولده «الشيخ علي سويسي» فزان كرسيها بحسن تلاوته مثل جده سميه، وصاحب سجادة التجويد هو «الشيخ محمد بن أحمد عزوز»[3]، ولد سنة ست ومائة وألف

---

(1) (الإتحاف ج 7 ص 68).

(2) قاضي الجماعة توفي كما يأتي سنة (1204) أخذ عن والده علي سويسي وفي الخزانة الخاصة يوجد خطه على بعض الرسوم انظر (الإتحاف ج 7 ص 25).

(3) محمد بن أحمد عزوز له ترجمة في (الذيل ص 263).

وأخذ القراءات عن والده وأخذ معقول العلوم ومنقولها عن الشيخ «محمد زيتونة» والشيخ «علي سويسي» والشيخ «أحمد مجاهد». وتقدم بعد وفاة والده خطيباً بجامع الحلق، وتصدى للتجويد على سجادة جامع الزيتونة فنفع كثيراً إلى أن توفي عليه رحمة الله.

ـ 36 ـ
الشيخ أبو الغيث البكري[1]

هو الشيخ أبو الغيث بن حمودة بن أبي الغيث بن علي بن أبي بكر بن محمد تاج العارفين البكري، تاسع الأيمة البكريين، وليها بعد وفاة والده فخلف أباه وجده في عدم التأهل وأشرك معه قريبه «الشيخ تاج» واستمرت الخطة بيده وهو محترم باحترامها، وإليه مرجع الأمر والنهي في الجامع إلى أن توفي وصرف بوفاته قريبه المذكور، عليه رحمة الله.

وكان خليفة الجامع على عهده «الشيخ محمد سويسي» قاضي الحاضرة. وبعد وفاته سنة أربع ومائتين وألف أُقيم عوضه خليفة لإقامة الخمس والجمعة **الشيخ «محمد بن أحمد الطويبي»** قاضي الحاضرة وحيث أن الإمامين البكريين الأخيرين لم ينتفع منهما الجامع بإمامة ولا بخطبة ولا برواية الحديث زاد الأمير علي باي خليفة آخر إماماً ثالثاً لإقامة شعائر الجامع عند عجز الخليفة. وقدم لذلك الشريف «الشيخ علي بن أحمد محسن»[2] فكان الإمام البكري يحضر بذاته في الجامع وقت رواية الحديث وخليفتاه يرويان بين يديه صحيح مسلم والشفا للقاضي عياض ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ .

---

(1) أبو الغيث البكري هو ثالث البكريين الذين تسموا باسم أبي الغيث قال في الإتحاف وكان مثل أبيه أي في عدم القابلية (الإتحاف ج 9 ص 68) وخليفته الشيخ محمد الطويبي الإمام الثاني وترجمته في (الإتحاف ج 7 ص 42).

(2) علي بن أحمد محسن هو الشيخ علي بن أحمد بن محمد بن محسن ابن الشيخ أحمد الشريف إمام دار الباشا، فالجد الجامع لعائلتي محسن والشريف هو الشيخ أحمد الشريف إمام جامع دار الباشا، وتوفي الشيخ علي محسن سنة (1206) (الإتحاف ج 7 ص 28).

- 37 -

الشيخ علي البكري[1]

هو الشيخ أبو الحسن علي بن أبي الغيث بن حمودة بن أبي الغيث بن علي بن أبي بكر بن محمد تاج العارفين، عاشر الأيمة البكريين. وليها بعد وفاة والده مع عدم تأهله، وزاد على من قبله بالتغفل والبله حتى كان محجوراً عليه ونظره للوجيه أبي العباس «أحمد النوّي» وكان يمنعه من الخروج ستراً لحاله. وكان خليفته الإمام الثاني على عهده الشيخ «محمد الطويبي» قاضي الحاضرة والإمام الثالث الشيخ علي محسن. ولما توفي الإمام الثالث في السادس والعشرين من ذي القعدة سنة تسع ومائتين وألف تقدم عوضه بعدَ حين شيخ التجويد على الختمة العالم الشريف الشيخ «عمر المحجوب»[2] في غرة رجب سنة عشر. وتقدم للتجويد على كرسي الجامع الشيخ «محمد بن محمد الصفار القيرواني الرعيني».

ولما توفي الإمام الثاني ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من يناير الموافق لتاسع شوال سنة سبع عشرة قدم حمودة باشا يوم الثلاثاء السادس عشر من شوال عوضه الشيخ «عمر المحجوب» إماماً ثانياً، وأقام العالم الصالح الشيخ «محمد العيوني» إماماً ثالثاً، وكان يستند في تدريسه إلى الأُسطوانتين المتلاصقتين أمام الختمة وظهرت له في الجامع كرامة، وذلك أن الإمام الثاني اتفق له أن مرض ورام هذا الشيخ المبيت بجبل المنار فاستناب شيخ الختمة للصلاة وخرج لجبل المنار فاتفق للنائب أن اعترضه إسهال أول الليل حضر معه لصلاة العشاء بالجامع على غاية التعب. وتزايد به الأمر بعد ذلك، وبينما كان الشيخ العيوني مع مجالسيه بجبل المنار أواسط الليل قال لهم: إنه لا بدّ لي من أن أرجع الآن إلى تونس، وخرج في ذلك الحين راجعاً يستضيء بضوء القمر. ولما حان وقت

(1) هو آخر البكريين ترجم له صاحب الإتحاف وبمناسبة ترجمتهم ذكر ما نقله عن الشيخ إسماعيل التميمي. وترجمته في (الإتحاف ج 7 ص 60).

(2) عمر المحجوب هو عمر بن قاسم المحجوب الشريف. ترجم له في الإتحاف ترجمة حافلة (ج 7 ص 52) وتوفي سنة (1222)، وترجم له الشيخ البشير النيفر ترجمة موسعة في المجلة الزيتونية.

صلاة الصبح وأيِس وقّادُ الجامع من حضور النائب فتح الجامع وبقي محتاراً ينتظر ما يصنع وإذا بالشيخ العيوني أقبل على الجامع ـ رضي الله عنه ـ .

ولم تطل مدة إمامته بل إنه لم يلبث أن توجه إلى طريق الله وأعرض عن الدنيا وعلائقها على حين مرض الإمام الثاني فأرسل الأمير حمودة باشا بتولية العالم الفاضل الشيخ «عمر بـن علي المؤدب» فتقدم إماماً ثالثاً صبيحة يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الثانية سنة عشرين وأقام بجامع الزيتونة لإقامة الخمس والجمعة والتدريس بالجامع مدة حيث إن الإمام البكري عاجز والخليفة مريض ولم يزل الشيخ «محمد الصفار» شيخ الختمة في جلالة خطته واحترامها.

قيل: إن الأمير حمودة باشا لما بلغه خبر وفاة المنفرد بحسن الصوت الذي لم يأت بعده مثله في التجويد الشيخ «حمادة بن الأمين» المتوفى يوم الجمعة السادس والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة عشرين قال: كنت أتمنى أن نوليه على ختمة جامع الزيتونة غير أن الحياء من الشيخ الصفار منعني من ذلك، ولما تأخر الخليفة الإمام الثاني الشيخ «عمر المحجوب» قاضي الحاضرة من خططه يوم الجمعة التاسع والعشرين من صفر الخير سنة إحدى وعشرين أبقى الأمير الإمام الثالث على خطـته، وقـدم الشيخ «الـطاهر بـن مسعـود بن أبي بكر اليعسوي ـ كذا ـ الفاروقي»[1] إماماً ثانياً خليفة بجامع الزيتونة ـ رضي الله عنه ـ بعلمه وجلالته وهو عالم العصر، والمفرد العلم في هذا المصر، آية الله في التحصيل والذكاء. ولد بقبيلة أولاد سيدي عيسى من الناحية الغربية في بيت جده سيدي عيسى المذكور بيت العلم والصلاح والفضل من عهد جدهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقدم إلى تونس في طلب العلم ونزل بالمدرسة التوفيقية فقرأ المعقول والمنقول بجامع الزيتونة على الشيخ «صالح الكواش» والشيخ «أحمد بوخريص» والشيخ «محمد الطويبي» والشيخ «حسونة الصباغ» وقرأ «القطب» على الشيخ «حسن الشـريف» ونحو ربـع المختصر الخليلي على الشيخ «عمر المحجوب». وتصدى لبث العلم بما له من الذكاء والتحصيل والتحرير فانتفع به كثير من الفحول حملة المعقول والمنقول. وتقدم

(1) محمد الطاهر بن مسعود الفاروقي (الإتحاف ج 7 ص 108).

لمشيخة المدرسة السليمانية بعد وفاة شيخها الغرياني وأقرأ بها. وشَرَحَ الرسالة السمرقندية في علم البيان شرحاً بديعاً تعقب بـه شروح العصـام والملّوي والدمنهوري وسلك فيه مسلك التحقيق، فقاق على سائر شروحها السالفة. وقد كتبت على قطعة منه حواشي. والأمل في الله أن نبلغ المراد في إتمامها على الوجه المأمول ـ رضي الله عنه ـ. وقد استمر الخليفة المذكور على خطته وملازمة بث العلم إلى أن بلغ من العمر نيفاً وستين سنة فأصابه الطاعون في صلاة الصبح بمحراب جامع الزيتونة، وبقي ثلاثة أيام مريضاً وأدركته المنية بعد فراغه من صلاة العصر يوم الأربعاء الخامس والعشرين من صفر الخير سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف ودفن من الغد جوفي الزلاج، فكان هو رابع إخوته الدفينين بتونس، وهم: الشيخ محمد الكبير، والشيخ العربي، والشيخ العابد، وكلهم علماء قرأوا في بلادهم ولحقوا بأخيهم. وكانت وفاتهم بتونس ولهم ببلدهم أيضاً ثلاثة إخوة أُخَر، وهم: الشيخ الزين، والشيخ الطيب، والشيخ إبراهيم. وكان أبوهم صالحاً ذا كرامات ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

أما الإمام البكري صاحب الترجمة فلم يكن له في مدة ولايته من مباشرة خطة الإمامة بجامع الزيتونة إلا حضور جسده في وقت رواية البخاري وخليفتاه من العلماء الأعلام يتداولان الرواية بين يديه واستمر على ذلك إلى أن توفي بسانيتهم بمرناق في الحادي والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وعشرين ومائتين وألف.

وهو آخر الأيمة البكريين فاستمرت الإمامة في بيتهم مائة سنة وثلاث وتسعين سنة تخلفت عنهم مدة يسيرة في خلال ذلك غير أنهم ـ رضي الله عنهم ـ كانوا معتمدين في شرفهم وفضلهم على الخطة المذكورة إلى أن بلغوا إلى الغاية التي أخرجتها من أيديهم. وهذه عادة الله الجارية في بيوت الفضل والشرف من الملوك وغيرهم إذا تطاول عليها الزمان واعتمد عليها أبناؤها ولم يحصلوا على شرف لأنفسهم فلا يلبث بهم الاشتغال بالترف ونضارة العيش أن يهدم معاليَهم التي بناها آباؤهم وغفلوا عن تجديد رَمِّها رحم الله أعظم جميعهم. وسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

- 38 -

الشيخ حسن الشريف [1]

هو الشيخ أبو محمد حسن بن عبد الكبير بن أحمد بن محمد بن أحمد الشريف إمام مسجد دار الباشا ابن حسن بن علي بن حسن بن أحمد بن القاسم بن محمد بن قريش بن عيسى بن عبد الرحمٰن بن خلف بن علي بن فرج بن علي بن محمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. حبذا عقد سؤدد تناسقت جواهر آل البيت النبوي فيه اتساقاً، وأُفُق فخر طلعت بُدُورُه لا تختشي خسوفاً ولا محاقاً، نبغ فيه هذا الإمام، وطلع شمس هداية في دياجي الظلام، عِلْماً وشرفاً توارثهما من آبائه الكرام، وأجداده السادة العظام. أصل هذا الفرع النبوي من الهند، ومنه كان مقدم جدهم إلى حاضرة تونس، وهم من ذرية الشريف السيد علي ابن الشريف السيد محمد المكتوم جد الملوك العبيديين، ولا زالت فروع هذا الجد الشريف في نواحي الهند إلى هذا اليوم ببلد أجمير، وبها زاوية الشيخ علي المذكور قائمة المعالم والشعائر فهم أشراف هنديون ولذلك يقال لهم: بنو الشريف الهندي وإلى ذلك يشير شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن محمد بن الخوجة في مدح آل هذا البيت بقوله:

---

(1) الشيخ حسن الشريف شهير الذكر، رفيع القدر، إمام نحرير، تآليفه مسددة ومحققة.
أفاض المؤلف في ترجمته، وكذلك صاحب الإتحاف في (ج 7 ص 69)، وترجم له في عنوان الأريب (ج 2 ص 72)، وفي شجرة النور (ج 1 ص 367).
وله الكتابة المشهورة على شرح ميارة للزقاقية، وهي من عمد فقه القضاء، وهي في مكتبة الوالد.
وله معين المفتي لم يتمه.
وله حاشية القطر التي طبعت سنة (1281) بمطبعة الدولة التونسية.
وذكر في حاشية القطر أن له شرح شواهد المغني.
وكان المترجم جميل الخط على الطريقة التونسية.
ومما لم يذكره له المؤلفون.
اختصار حاشية البناني وهي في الخزانة الخاصة بخطه.
وله تـ اليق على شرح ميارة على العاصمية وهي في الخزانة الخاصة بخطه كما ترجم له غير واحد.

[الطويل]

ألا أن نــور الله بعــد محمــد بنو بنته الأطهار من وصمة الحقد
وكـلهمُ سـيـف فِـرنــده لامــع ولكنما الأسياف أشرافها الهندي

وكان ثالث أجداد هذا الإمام الشريف الحسيني (الشيخ أحمد الشريف)[1] الإمام بمسجد دار الباشا عالماً صالحاً. ولد بتونس وأخذ العلم عن الشيخ «ساسي بن محمد نوينة الأنصاري الأندلسي» وعن الشيخ «محمد جمال الدين القيرواني». وولع بكتب الأعاجم النحوية، وكتب الحديث والفقه، ولازم التدريس عند الفجر بمسجد دار الباشا وكان يقول: لي في إمامة هذا المسجد سبعة أجداد. وقد حجّ بيت الله الحرام أميراً على الركب التونسي. وكان جميل الصورة، نحيف الجسم، نظيف الشيب، يقبل يده كل من لاقاه قد تجمّلت التواريخ التونسية بذكر مناقبه ومآثر علمه وصلاحه، إذ كان شيخ شيوخ جامع الزيتونة علماً وفضلاً يقرىء الصحاح الست وسائر العلوم بالجامع.

وقد نقل عن معاصره الولي الصالح الشيخ «ابن خودانه» قال: إن الشيخ أحمد الشريف بلغ إلى القطابة وله كرامات محفوظة منها: إن بعض تلامذته ممن كان يسكن ربض باب السويقة قد تأخر في المدينة في قضاء حاجة له إلى أن غلق عليه الباب مدة عتو الترك في البلاد، فحضر لدار الشيخ بحوانيت عاشور وطلب منه أن يبيت عنده فأحسن قبوله، ثم لم يلبث الشيخ أن خرج إليه وقال له: إن والدتك كادت تتمزق كبدها من جهتك فلا بدّ أن تذهب إليها فقال له: يا سيدي إن الباب مُغْلَق وأنا أخشى سطوة الترك أن يقتلوني فقال له: اذهب ولا تخف، وإذا بلغت عند زاوية الشيخ سيدي محرز تجد هنالك رجلاً يذهب معك ليفتح لك باب السويقة ويبلغك إلى دارك، فكان الأمر كما ذكر الشيخ وأدرك والدته تتخبط في أشراك جزعها عليه، وله كرامة سيدنا يحيى فإنه قد هرم وآيست زوجه ولم يولد له، فاتفق أن آذاه بعض أقاربه بسبب عدم الولد فشكى

(1) أحمد الشريف إمام دار الباشا وبيد ذريته نقابة الأشراف، (الذيل ص 262)، (شجرة النور ج 1 ص 306).

ذلك إلى زوجه وكانت ابنة المفتي الشيخ «أبي الفضل المسراتي»، ولما كانت آيسة من نفسها خرجت تخطب له زوجة، وأخذت بكراً وجهزتها له وأحضرتها بنفسها رغبة في الولد. ولما كانت ليلة الدخول توضأ الشيخ وصلى وسأل الله جبر زوجته التي تركته يدخل على زوجة أجنبية وطلب أن تكون منها عمارة داره، ودخل بزوجه فلم تمضِ مدة حتى ظهر الحمل على كل من الزوجتين، وولدتا له ولدين سمى أحدهما الحسن وسمى ولد زوجته الأولى محسنا، ثم إن الزوجة الجديدة لم تحمل أكثر وعاد الحمل ثانية إلى الأولى، فولدت ولده محمداً جد صاحب الترجمة ولم يزل أبناء محمد وأبناء محسن يتقلبون في فضل فخره ودعائه وأبناء الحسن تناقلوا مع والدهم إلى ربض باب السويقة، ولم يزالوا هنالك مرموقين بعين اعتبار فضل شرفهم ـ رضي الله عنهم ـ .

وقد توفي الشيخ يوم الاثنين الثاني عشر من رجب سنة اثنتين وتسعين وألف، وصلي عليه بجامع الزيتونـة ودفن بجبل الفتح من الزلاج.

ونسج أبناؤه على منواله في العلم والتقوى حتى كانوا كعوباً متناسقة في الفضل وكراماتهم وآثارهم يَرْوِيها الخلفَ عن السلف. فولي ولده الشيخ مَحمد ـ بفتح الميم ـ عوضه في إمامة مسجد دار الباشا ومنه تنقلت إلى ابنه سميّ جده الشيخ أحمد مدرس الجامع الحسيني ونائب خطة القضاء بتونس وقد تداولوا نِقابة الأشراف وورثها بعد المذكور ولده «الشيخ عبد الكبير»[1] مع إمامة مسجد دار الباشا، ودرس جامع محمد باي المرادي، ودرسِ باب الشفا ودرسين آخرين بجامع الزيتونة كما ولي مشيخة مدرسة حوانيت عاشور بعد وفاة الشيخ «عبد الله السوسي»[2]. وولي خطبة جامع أبي مَحمد ثم تأخر عنها وكان عالماً صالحاً شاعراً جليلاً اجتمع بشمهروش الصحابي ـ رضي الله عنه ـ .

---

(1) عبد الكبير الشريف (شجرة النور ج 1 ص 365).

(2) عبد الله السوسي ذيل البشائر (ص 119) عنوان الأريب (ج 2 ص 20)، شجرة النور (ج 1 ص 345).

وذكر في شجرة النور أن وفاته سنة (ـ 1169) والصواب أنها سنة (ـ 1179) كما حققه كاتبه.

وذلك أنّه وقعت مرمة عندهم رأى فيها أحد الخدامين ثعباناً قتله فوقع صريعاً ثم رأى نفسه بين يدي قوم من الجن يَدَّعُون عليه قتل واحد منهم على يد شمهروش فسأله عن ذلك فأنكر القتل، وقال: إنما قتلت ثعباناً، واستشهد بالشيخ عبد الكبير الشريف فطلب منه الاجتماع به في خلوة وعند وقوعه سأله عن ذلك وبمجرد ما أعلمه الشيخ القصة قال شمهروش: قال رسول الله ﷺ «من تطور بغير صورته فقتل فدمه هدر» وعند ذلك خُلِّي سبيل الخادم المسكين.

ولما أقبل الجزائريون على نهب البلاد قصدوا داره فوضع الشيخ يده على بابه يقرأ عليه فبادره أحد أشقيائهم ببلطة ليضرب بها الباب فلم يشعر إلا وحديدها عاد عليه وخرّ من ضربتها ميتاً فصاح أصحابه يطلبون من الشيخ العفو وأتوا بصَنْجَق وضعوه على باب الدار، وأقاموا عليها حراساً منهم حموا بهم جميع أهل تلك الحومة.

على أنه آيةُ الله في تحصيل العلوم، والخبرة بمواقع المنطوق والمفهوم، مع ذكاء وميض، وبحث عريض، وقد سبق له ذكر في مجلس الأمير علي باي وكم له من ظهور على مجادليه، بلغ به في العلم إلى الشأن النبيه. وقد امتدحه في بعض ظهوراته تلميذه الشيخ محمد الغضبان[1] بقوله:

[المجتث]

أَمِنْ تَأَلُّقِ بَرْق ... في الدَّجْن لاحت غزاله
أم بدر تم تَبَدَّى ... حفته بالنور هاله
أم روضة العلم لاحت ... وَشَّحَتْها الجزاله
ببحث حَبْر جليل ... تاج الهدى والعداله
كبيرِ قدرٍ وعلمٍ ... وافِي الذكا والمقاله
يُعْزَى لخير البرايا ... من كَلَّمَتْه الغزاله
قل للمُجَادِل فيه ... قد خضتَ بحرَ الجهاله
إنْ عُدْتَ للحرب يوماً ... أَهْدَى إليك نباله

(1) محمد الغضبان له ترجمة في مجمع الدواوين التونسية.

وإن جنحت لسَلم تنجو على كل حاله
سلم لبحر المزايا لَبَّاس بُرْدِ الجلاله
كم مستفيد أتاه لنيل مجد فناله
من نحوه الشُّهْبُ ترمي لمن يروم مناله
لذا الأمير اصطفاه لقربه فاستماله
فراية العدل منه هالت مُضاهي مثاله
والسعد وافاه يسعى لمن يروم نِزاله
لا زال في المجد يرقى وأصلح الله باله
وحفَّه بسرور ومَجْدُه في استطاله
بحق من قد أتانا بالسيف ماحي الضلاله
عليه أزكى سلامٍ ماسح مزن سجاله

وقد اعتكف على بث العلم وانتفع الناس بعلمه إلى أن أدركته المنية فتوفي سنة ست ومائتين وألف وله من العمر خمس وثمانون سنة، وفخر علمه وفضله متلو بكل لسان.

وقد ولد ولده صاحب الترجمة عام ثلاثة وسبعين ومائة وألف ونشأ في حِجر تعاليم أبيه، صاحب الشأن النبيه، العالم الشهير ـ الشيخ «عبد الكبير»، وقرأ عليه المعقول والمنقول، والفروع والأصول، كما قرأ أيضاً على فحول المتقدمين من علماء تونس منهم أبو «عبد الله الشيخ محمد بن علي بن خليفة الغرياني الطرابلسي»[1]. ومنهم أبو محمد الشيخ «عبد الله السوسي» ومنهم أبو عبد الله الشيخ «محمد الشحمي» [2] وغير هؤلاء من فحول العلماء فلازم الأخذ مدة شبابه وتصدى للإقراء.

ثم إن والده قدمه عِوضَه لدرس باب الشفاء والدرسين الآخرين بجامع الزيتونة ومشيخة مدرسة حوانيت عاشور واعتكف على بث العلم، وله في الأدب

(1) محمد بن علي الغرياني (شجرة النور ج 1 ص 349).
(2) محمد الشحمي (شجرة النور ج 1 ص 349).

يد طَاوَل بها نجوم الأفلاك، حيث فاقت بدائعه على الدر في الأسلاك، مع فصاحة اللسان عند المحاورة، وغرابة اللطائف في المحاضرة، عاتبه العالم الشيخ «محمد القابسي» بقوله:

[الكامل]

يـا فاضـلاً حـاز الفخـارَ ذكـاؤُه ... فله بحـل المشكـلات تكفُّـلُ
لا زال ربع الدرس مـأهولاً بكم ... ولكمٍ بـنشـرٍ لِـلْعُلُومِ تـجمّـل
أَغْمِد سيوفَ الصدِّ والاعراض عن ... خـلٍّ وفـيٍّ مـا عـراه تـنـقـل
ثم السلام مِنَ أرْبعين م وخُمْسها ح ... مَعَ أَرْبعين م وعُشْرِها د لا يبطل[1]
يُهْـدى لسيدنـا الـذي أعنيـه في ... نـظمٍ بديـعٍ بالمحـاسن يَـرْفـل
من سدس عشر الثاني ضف لثلاثة ... أخماسَ سدس العشر الأوّل يحصل
وانسب لآخـر أولاً أيضـاً وقـل ... أخمـاس أربـاع لخمس يـافُـلُ
والسـدس من ثانٍ أخيـرٍ ثم في ... حُسْنٍ به صدر المفـاخر يكمُـل

فأجابه الشيخ «حسن الشريف» من شعره بقوله:

[الكامل]

لَكَ في المعالي المكرماتُ الكُمّلُ ... وسـواك من تلك المـآثـر أَعْـزَلُ
ولمثْلِكَ الهِمَمُ التي أدنـى مـرا ... تِبِهـا لهـا فـوق الثـريـا منـزل
ذو راحـة قد كنت أحسب أنهـا ... غـيثٌ ولـكنْ هـذه لا تَـمْحـل
حَبْـرٌ إذا جـالت قـرائحـه على ... حـلٍّ العويص أطـاعهن المُشْكِل
أَوْجَفْتَ خَيْلَ ملامةٍ نَحْوِي وقـد ... سَلْسَلْتَ عَتْبَك وهو عذب سَلْسَلُ
فـطرِبْتُ لمَّـا أَنْ تضمن ذكـرَكم ... وودتـه لـو كـان من ذا أطـول
إني لعَمْـرِي مـا تـركت زيـارة ... لك من جفا أو كنت عنكم أعدِلُ

---

(1) أشار بقوله: ثم السلام من أربعين إلى الميم، بقوله وخمسها وهو الثمانية إلى الحاء، وبقوله مع أربعين إلى الميم، وبقوله مع عشرها وهو أربعة إلى الدال، وهذا إشارة إلى اسمه محمد بحساب الجُملِ أي أن محمداً يقرئه السلام وهو محمد القابسي.
وأشار بقوله يهدي لسيدنا ـ الأبيات ـ إلى الشيخ حسن الشريف بحساب الجُمَّلِ.

لكنْ علمْتَ لكثـرة الشُغَب التي ... قد أذهلت يا ليت عذري يقبَلُ
أتظن أنْ أَسْلُو ولو كـاشفت عن ... ما بالضمير ظننتَ بِي ما يجمُل
ورأيت فيه من الوفاء لكمُ من الـ ... ـمثـل الذي ضـربـوه حقٌّ أمْثَـلُ
فعزمت في يوم الخميس أزوركم ... وأنـال من لُقْيَـاكم مـا آمَـلُ
لازلت في أُفْق العُـلا قمـراً بـه ... هُـدِيَ البـريـة مـا تـرنم بلبـل
وَعليـك أزكى تحيـة يـاذَا العُـلا ... ما صافحت زهر الحدائق شمأل

ولكمال براعته في حسن الإنشاء انتخبه الأمير حمودة باشا لخطة الكتابة، وقرّبه اهتماماً بشأن شرفه وخصّه بأسراره حتى أحسّ منه كاتب سره يومئـذ العزيزي فتجسس على بعض الأسرار المودعة عند الشيخ وأفشاها ناسباً روايتَها إلى الشيخ الذي أمانته ينبو عنها مثل ذلك، لكن على كل حال اتخذ كاتب السر المذكور ذلك وسيلة للتنديد على الأمير في تقريب الشيخ حتى عزله الأمير من خُطَّة الكتابة فكان عزله رحمةً للعلمِ وأهلِه. وأصبح الشيخ يملي الدروس العلمية واجتمع عليه فحول العلماء حتى كان شيخَ شيوخ العصر. وبعد برهة من عزله تحقق الأمير براءته مما نسب إليه، وعلم حقيقة ما جرى لديه، فبقي ينتظر ما يحسن أن يقدمه إليه، وهو ملازم للتدريس في معقول العلوم ومنقولها، مع فصاحة وحسن خلق، ولين مع التلامذة ومواظبة على الدروس، بحيث لا يتخلف إلا لعذر عظيم، وبذلك انتفع عليه كثير من فحول جامع الزيتونة لا يحصى لهم عدد، وكانت تلامذته لا يصبرون على مفارقة درسه وقد كان مرِض سنة ست وعشرين ومائتين وألف. ولما أن عوفيَ من مرضه قدِم إليه تلامذته وفي مقدمتهم الشاعر المُجِيد الدراكة الوحيد الشيخ «قاسم بن كرم»[1] وأنشده من رائق شعره البديع تهنئة لطيفة وهي قوله:

[البسيط]

بشرى فَذَا بارقُ الأفراحِ قـد ومضا ... وأشرق الأُنْسُ وانجاب الأسَى ومَضَى

(1) قاسم بن كرم في الإتحاف وشعره معروف بين أدباء الحاضرة، (الإتحاف ج 7 ص 111) توفي سنة (1234 ـ).

بالأمس كان الضحى كالليل حين دجا ... والآن أضحى الدجى مثل النهار أضا
أبدت محاسنها الدنيا وزينتها ... للناظرين، فأَحْمِدْ للمنى غرضا
وافى السرورُ ووفّى الأمنُ موعدَه ... والحمد لله أنْ دهرُ الأسى انقرضا
فهذه أنعمُ لله عمَّ بها ... كلَّ العباد فكان الشكر مُفْتَرَضا
اذِ الرضا الأشرف الأسمى الهمام أبو ... محمدٌ حسنٌ من سُقْمِه نَهَضَا
ذاك الذي شرَّفَ اللَّهُ العبادَ به ... فصاغه جوهرا مذ صانه عرضا
فلم نجد منه بُدًّا لا ولا بدلا ... فيهم ولم نُلْفِ عنه منهمُ عوضا
علا على طائر النسرين مرتفعا ... إذا نراه جناحا للورى خَفَضَا
مَوْلَى إلى اللهو لم ينفض قطُّ ولـ ... ـكن من يديه أمانِي النفس قد نفضا
وحَفَّظ اللَّهَ في سر وفي علنٍ ... وما ثنى الجد عن كسب الثنا حَفَضا
هو المعانيُّ مِنْ فرط الحجا وبه ... طِرْفُ العلا في بحار الجد كم ركضا
يأَيّها الأعلم الأعلى الأجل ومن ... له بكل كمال ذو الجلال قضى
فكان أكرم مخلوق وأشرف من ... مشى على الأرض أو من في فضا ومضا
شَفَاك ربُّك من داء الجهالة يشـ ... ـفي العالمين وثوب السقم عنك نَضا
أَضْنى بصحتك الله العباد وفي ... قلوبهم مرض قد زادهم مَرَضَا
يهنيك يا سيدي هذا الشفاء وإن ... كان به أبدا شانيكمُ جِرضا
إن غض ذو الجهل طرفاً عن سناك فلا ... غروَّ فذا النور نار للبغيض غَضَا
تَاللَّهِ ما ضدّكم آل النبي سوى ... مضلّل تائه، عنه الهدى رفضا
تَفْدِيك من كل مكروه نفوسُ فتى ... سر الإلٰه عليه حبكم فرضا
كم أبرد البرء من صدر وأثلجه ... فكان قبلاً يحاكي حره الرَّمَضَا
أحيا النفوسَ ورد البؤسَ طالعُه ... يا حبذا فرجٌ منه الضَّنا حبضا
يا أفضل الناس لكن ليس أفضل للتشريك فافخر بفضل ليس مُعْتَرَضا
وابسط يمينك كي تُشْفى الشفاهُ بها ... يا مَنْ على المجد والعليا بها قبضا
لا زلت ملجأً ذي الجُلَّى إليك على ... أن ليس إلَّاك إنْ ما حادث نقضا

---

(1) في الأصل كان.

فكم أمَطْتَ أذى في العين كان قذى وفادحا جللا جليت إذ بهضا
إليك حجَّتْ ذوو الحاجات وانصرفوا وكلُّهم وَطراً مما يروم قضى
كذا لكل المهمات الهمامُ فلا سواك أمرٌ أهمَّ المرْءَ اذْ عرضا
بنيت للدين والدنيا بناءَهما يُهْدي إليك لنيل الحامل الغرضا
قد أقرض الله قرضاً عنده حسنا مَنْ في محاسنكم شعراً له قَرَضا
حق علينا لكم حق الوفاء به وَحقِّكم ليس مَنْ أوفى كَمَنْ نَقَضَا
أَلَسْتَ سِبْط النبي المجتبى كرما من خالص النصح كل الخلق قد محضا
صلّى وسلّم مولاه عليه كما يحبه وعليهم معْ مزيدِ رضا

وكان له صلابة في الحق وغَيْرَة على حقوق الله بلغت غايتها.

اتفق له في بعض الأيام أن كان قادماً لجامع الزيتونة قبل الظهر ولما قرب من زاوية الشيخ سيدي أحمد بن عروس وجد جندياً من الترك ماسكاً بأطراف بنت وهي تستغيث ولا يتجرأ أحد على افتكاكها من يده فوقف الشيخ ونهاه فلم ينته فألقى برنسه وهجم عليه وأيده الله فافتك منه البنت وخلى سبيلها وأمسكه وسار به إلى الدريبة والناس من خلفه، ولما قرب من الدريبة تعرضت له الحوانب لأخذ الجندي من يده فلم يسلمه إلّا بين يدي الدُولاَتلي وأخبره بالقصة ورجع الشيخ إلى الجامع لإقراء دروسه فكتب الدولاتلي بذلك إلى الأمير حمودة باشا فأرسل الأمير في الحين مكتوباً بخط يده يأمره بخنق الجندي بالقصبة. وما هاته بأولى غيرته وهمته الهاشمية عليه من الله أزكى التحية.

ولم يزل ملازماً للتدريس إلى أن توفي الإمام البكري - رضي الله عنه - أواخر جمادى الأولى سنة سبع وعشرين ومائتين وألف فقدمه الأمير حمودة باشا إماماً أكبر بجامع الزيتونة، فزان المحراب والمنبر بعلمه وعمله وفصاحته، وخطب من إنشائه خطباً رائقة أطنب فيها ما شاء وأبدع، وجمعها ديواناً في غاية النفاسة ما زال يتداوله خطباء تونس.

وعلى عهده توفي الإمام الثاني الشيخ «الطاهر بن مسعود» فقدم الأمير محمود باشا الشيخ «عمر بن المؤدب» إماماً ثانياً، والشيخ «محمود بن علي

محسن» إماماً ثالثاً أواخر صفر الخير سنة أربع وثلاثين. ولم يزل الإمام الأكبر صاحب الترجمة قائماً بأعباء خطة الإمامة الكبرى وملازماً للتدريس بجامع الزيتونة مع التأليف بما تخلد في صدور الرجال وبطون الأوراق ومع ذلك لما توفي الشيخ «سويسي» في ذي القعدة الحرام سنة اثنتين وثلاثين قدمه المولى محمود باشا باي إلى خطة الإفتاء فصار مفتياً ثانياً وزان الخطة المذكورة، وأفاد المستفتين وتحرى لدينه.

وكتب في الفتاوى كتائب عزيزة من أهمها كتابه «معين المفتي» وكتب «حاشية جليلة على القطر» لابن هشام سلك فيها مسلك المحققين من علماء المعقول قد طبعت في المطبعة التونسية وقرأناها وأقرأناها فإذا هي عنوان علم واسع ومدرك شاسع، ومنها يستفاد أن له كتابة على شواهد المغني غير أنا لم نقف عليها، أما «حاشيته على لامية الزقاق» فهي كنز التحارير الرقاق[1]، وناهيك به من إمام شريف، تحلّى بالعلم والتأليف، وزين ذلك بحسن الأدب اللطيف، له غَيْرة وحميّة، وكرم نفس وإنسانية، وهيبة ربانية، رفعت مقامه على سائر أهل الروية. وله من علو المقدار وحسن الآثار، ما خلّد ذكره بكثير من الأخبار، الدالة على خلوص علمه وعمله بغير إنكار، ولم تزل الرجال تأخذ عنه طبقة بعد طبقة إلى أن أتاه أجله فتوفي ليلة السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف ودفن بتربة آبائه في أعلى الزلاج عليه رحمة الله. وقد رثاه الشيخ «أحمد الكيلاني»[2] بقوله:

[الطويل]

أيا عينُ فيضي واهطلي بسجامِ ... أمامَ ضريح ضم خير[3] إمام
ويا قلبُ كيف الصبر قد حال بيننا ... وبين غَمام الدين غيم حمام
فأَعْظِمْ به رُزءاً لقد حلَّ بالثرى ... وأمسى به في حيرة وهيام

(1) تأليف الشيخ حسن الشريف تقدم التعليق عليها.
(2) أحمد الكيلاني توفي سنة (ـ 1272) في سن التعمير، (الإتحاف ج 8 ص 99).
(3) في الأصل: أزكى.

وأظلم أفْق الجو واغْبَرَّ لونه ... متى هتف الناعي بنعي همام
إمامٍ جليلِ القدر من آل هاشم ... سليلِ فحول من بطون كرام
هو الحسن النَّدْب الشريف الذي رقت ... به زمرة الأشراف أعلى [1] مقام
فقد كان في دنياه أعذبَ مورد ... وقد صار مرجوًّا ليوم قِيام
وقد كان للدين الحنيفي صارماً ... وللعان والملهوف صوبَ غمام
وما كنت أدري قبل أن ضمه الثرى ... بأن الثرى يُخفي بدور تمام
فرَاح ولم تعرف له قط هفوةً ... وسار إلى فردوسه بسلام
فمن لدروس العلم أو لمنابرٍ ... ومن للقضايا عند نشر خصام
ومن لعويص القول من بعد سيد ... يحُلُّ من التعقيد كل كلام
تآليفه قد طار في الأرض صيتُها ... بتحرير أبحاث وحسن نظام
سيَنْدُبُه البيت العتيق ومن به ... ويبكيه طول الدهر كل إمام
ولا غرْوَ أن شحّ السماء بنَوْئِه ... وصار الثرى من فقده كرِجام
وماذا عجيب للذي كان علمه ... سراجاً منيراً في سواد [2] ظلام
فلا زلت يا فخر الزمان مخلدا ... لأرفع مجد في أعز مقام
ولا زلت يا طود العلوم مُرَقْرقاً ... على تربك المسكي فيضُ ركام
عليك سلام الله ما هبت الصَّبَا ... وما لاح برق من خلال غَمَام
مدى الدهر ما قد قال فيك مؤرخ: ... فلله من رمس لأسمى همام

[. . . 1234 . . .] [3]

- 39 -

الشيخ محمد الشريف [4]

هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكبير أخو الإمام المتقدم الذكر،

---

(1) في الأصل: بدر

(2) في الأصل دياجي.

(3) على حسب هذا التاريخ بحساب الجمل تكون وفاته سنة 1233 هـ لا سنة 1234 هـ كما جاء في ترجمته المنقولة في أوائل حاشيته على القطر ولو كان الصواب في وفاته كما في الإتحاف أنها سنة 1234 هـ.

(4) محمد الشريف الإتحاف (ج 7 ص 72) شجرة النور (ج 1 ص 386).

وناهيك به من جوهرة برزت من أصداف النبوة، وتقدم إلى التكريم والتبجيل في زمن الفتوة، ولد سنة خمس وستين ومائة وألف وتربى في عز بيته وتعاليم أبيه وجده، وأخذ عن والده والشيخ «صالح الكواش» والشيخ «محمد الغرياني» وعن خاله الشيخ «محمد الشحمي» والشيخ «محمد بن قاسم المحجوب» وغيرهم من أعلام جامع الزيتونة إلى أن بلغ في العلوم أشده، وظهرت عليه البراعة التي أضافت إلى شرفه ومفاخره مكارم مستجدة، وجلس للتدريس، وقلد الأجياد من در علومه النفيس. وتقدم لشهادة الديوان يوم الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة عشرين ومائتين وألف عوضاً عن الشيخ «حسونة بوكراع»، ثم قدمه والده عوضَه للتدريس بجامع محمد باي المرادي، ونقابة الأشراف، وإمامة مسجد دار الباشا فزان جميعها بعلمه وفضله. غير أنه عند وفاة والده تنقلت نقابة الأشراف من بيتهم واستمر هو في خدمة العلم لولا أنه شغلته خطة الإشهاد على أوقاف الديوان، وكانت من الخطط النبيهة في ذلك الأوان، بما يقتضيه التحري والوقوف على جزئيات مداخيل الوقف ومصاريفه كما هو شأن عدول الرضا أمثاله، ولذلك لم يبلغ في بث العلوم إلى غاية آماله. ومع ذلك كان يقرىء بجامع الزيتونة قرب باب الشفاء وأقرأ شرْحَ التاودي على العاصمية وغيرَه.

وعند وفاة أخيه الإمام الأكبر بجامع الزيتونة ـ قدس الله روحه ـ قدمه الأمير محمود باشا باي إلى خطة الإمامة الكبرى بجامع الزيتونة، وولاه مشيخة مدرسة حوانيت عاشور ودرس باب الشفاء عوض أخيه فزان المنبر والمحراب، وترنم في التلاوة فأتى من حسن تأثير صوته بالعجب العجاب، تتفجر الدموع من سامعيه انفجاراً، وتخشع القلوب من مواعظه وتتأجج إنذاراً. ومع ذلك لم يترك بالمرة التدريس بالجامع، بل كان يقرىء فيلقي الدرر اللوامع، وكان مع ذلك جانحاً إلى أخلاق الصالحين، في الزهد والقناعة ولين الجانب والأخذ بخواطر المساكين. وهو معتقد للخاصة والعامة ـ رضي الله عنه ـ.

أخبرني حفيده أنه كان في بعض الأيام قرع عليه البابَ رجلٌ غريب فخرج إليه الشيخ فطلب منه الدعاء، وقال له: إني رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ فطلبت منه

الدعاء، فقال لي: اذهب إلى ولدي محمد الشريف يدعو إليك فجئتك لذلك، فدعا له بما تيسر.

وأما واقعة الشيخ «أحمد بن الخوجة» القاضي الحنفي معه فهي شهيرة أخبرني بها حفيده شيخ الإسلام، وذلك أن الشيخ الإمام كان مطلوباً في نازلة عند الشيخ القاضي الحنفي فأرسل إليه فامتنع من القدوم عليه عدة مرات حتى تشدد عليه في ذلك فلما كانت تلك الليلة رأى رسول الله ـ ﷺ ـ يأمره بمساعدته، وقال له: إنه ولدي وعندما أصبح ذهب إليه بنفسه وبمجرد تلاقيهما أكبا على بعضهما يبكيان وتسامحا أحسن مسامحة، وعند ذلك بادر الشيخ إلى أداء ما عليه من الحق على أكمل وجه ـ رضي الله عنهما أجمعين ـ وقد أشرت إلى الواقعتين المذكورتين في قصيدتي «الأجنة الدانية الاقتطاف بمفاخر سلسلة السادة الأشراف» بقولي:

[البسيط]

كان المجابَ الدعا في غير حادثة ... وأهل عصره من ذا الباب كم نَقَلُوا
لذاك وافاه شيخ طالب أملاً ... بدعوة منه عنها ليس ينعزل
وقال: إن رسول الله أرشده ... لنجله ذاك وهو السيد الجَلَلُ
والمصطفى أمر القاضي ببره في ... فَصْل القضا حيث ما في حكمه جدل
فجاءه يترضى وهو سامحه ... مبادراً لأداء الحق يمتثل

وعلى عهده توفي الإمام الثاني الشيخ «عمر بن المؤدب» ليلة الأحد الثاني عشر من جمادى الأولى سنة خمس وأربعين. وتقدم الشيخ محمود محسن إماماً ثانياً والشيخ الشاذلي بن عمر بن المؤدب إماماً ثالثاً ولم يزل صاحب الترجمة في الإمامة الكبرى إلى أن بلغ عمره التسعين سنة فأصابه نقط جلدي عطله نحو شهر وتوفي ليلة السابع والعشرين من جمادى الثانية سنة خمس وخمسين ومائتين وألف. وتبرك الأمير والمأمور بمشاهدة جنازته ـ عليه رحمة الله ـ.

- 40 -

الشيخ إبراهيم الرياحي[1]

هو الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد الرياحي ابن الفقيه إبراهيم الطرابلسي المحمودي. قدم جده إبراهيم من طرابلس، ونزل بالموضع المعروف بالعروسة من عمل رياح، وكان يحفَظ القرآن، وله معرفة بسر الحروف فاشتغل هنالك بتأديب صبيان تلك الجهة، ثم تنقل ابنه أحمد إلى بلد تستور، وبها دفن هو وابنه عبد القادر، وبها كانت ولادة صاحب الترجمة عام ثمانين ومائة وألف وقرأ هنالك القرآن وكان هنالك الوليّ الشيخ «صالح بن طراد»، معروف بالجذب فأتى بحِلاب مملوء أطعمة مختلطة من أنواع كثيرة ووضعه على أُسْكُفَّة باب المكتب، فعمد إليه صاحب الترجمة واستف جميع ما حواه الحلاب وتركه في مكانه. فجاء الشيخ يسأل عمن أكل طعامه، فاعترف له، وعندما علم أنه هو الذي أكله صار يصيح به، ويلتفت إليه وإلى مؤدبه يظهر التعجب، ويقول له: أأنت أكلت الجميع ولم تترك شيئاً لأحد من إخوانك إنها لك عطية من الله. وبعد أن قرأ القرآن بتستور ارتحل إلى تونس في طلب العلم الشريف أواخر القرن الثاني عشر ونزل بمدرسة حوانيت عاشور مدة، ثم تنقل منها إلى مدرسة بئر الحجار، وأعمل يعملات اجتهاده في العلم ولازم دروس الفحول.

فقرأ النحو على عالم عصره الشيخ «حمزة الجباس»[2] كان يقرأ عليه في حانوت الإشهاد كتاب المغني لابن هشام. وكان الشيخ يقرىء بدون نسخة

---

(1) الشيخ إبراهيم الرياحي ترجمته ها هنا من أحفل التراجم وقد خصه حفيده وهو الشيخ عمر بن محمد بن علي الرياحي بتأليف خاص بترجمته سماه: (تعطير النواحي. بترجمة الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي).

وهو في جزأين طبع سنة 1320 بتونس. وله جزء ثالث منه نسخة في خزانة الوالد رحمه الله ونعمه.

وترجم له في الإتحاف (ج 7 ص 73) وله ترجمة في عنوان الأريب (ج 2 ص 90) وفي شجرة النور (ج 1 ص 386).

(2) الإتحاف (ج 7 ص 42).

وتلميذه يظن أنه نظر قبل حضوره حتى اتفق له ذات يوم أن اختلف تقرير الشيخ مع ما في نسخة التلميذ، ولما سرد عليه محل الاختلاف شك الشيخ في تحريف نسخة تلميذه فأمره أن يقوم إلى مرفع هنالك عليه كتب الشيخ قد سترتها الغَبَرة، وقال له: نظن أن نسختي في هذا المرفع فقام التلميذ فوجدها متلاصقة الأوراق بالزاج، فإذا هي الصحيحة والأمر فيها كما قرره على تطاول عهده به. وكان الشيخ حمزة المذكور مفرد علم العربية. وقد توفي سنة سبع عشرة ومائتين وألف، ودفن بالزلاج، وأرخ وفاته الشيخ «قاسم بن كرم» بقوله:

[الكامل]

أمـا الحيـاة فتلك ظـل زائـلُ ... تخفي الشمـوس وكلُّ بـدر آفلُ
طـوبى لمن طـابت يقينـا نفسُـه ... فـاختـار أخـراه وذاك العـاقـل
هذا أبو يعلى المعلَّى حمزة الـ ... ـجبـاس أُستـاذ الأنـام الكـامـل
قـد أبعد الـدنيا الـدنيئة إذ دنـا ... من ذي الجلال فنال مَا هُو آمل
فهو المتوج منـه بالـرضوان تشـ ... ـريفـاً وفي حلل السعـادة رافـل
مـولى بتقـوى الله مغـرى قلبـه ... وبعلمـه ـ والله يشهـد ـ عـامـل
أنسى (إياساً) في الذكاء وعنـده ... (سَحبان وائل) في الفصاحة (باقل)
يُبدي بسلك الـدرس كل نفيسة ... مـا إن لها من نـاقد بـل ناقـل
تبدي لمنتجع الهدى غيث الندى ... ويشيم برق السؤل منها السـائل
دَرَسَتْ ربوع العلم بعد دروسـه ... والـروض يبلى أن عداه الـوابل
فلطالمـا أجلى دجى جهـل كمـا ... ينجـاب بـالحق المبين البـاطـل
وتحلت العليـا بـعقـد وجـوده ... واليوم جيد المجد منه عاطل[1]
ولـذاك لـمـا أن مضى أرختـه: ... مات الرضا الملجا الهمام الفاضل
[. . . 1217 . . .]

(1) في الأصل لعاطل.

[الشيخ صالح الكواش][1]

وقرأ أيضاً صاحب الترجمة على الشيخ «صالح الكواش» وهو عالم البلد على الإطلاق، الورع الصالح صاحب العَلَم الخفاق، أبو الفلاح صالح بن حسين بن محمد الكافي. قدم جده محمد من بلد الكاف إلى تونس بعد المائة والألف ونقل عن الشيخ أن نسبهم ينتهي إلى الشيخ سيدي عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن المزوار بن حيدرة بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ فهو شريف حسني. وكان ارتحالهم من المغرب إلى الكاف، ومنها تنقل محمد الكافي إلى تونس، ونشأ بها ولده حسين في تعاطي الفلاحة وحج بيت الله الحرام. وكان كواشاً في كوشة سيدي المشرف. وقد ازداد ولده ليلاً في ربيع الأول سنة سبع وعشرين[2] ومائة وألف وكان في زراعة له، فسمع تلك الليلة هاتفاً ينادي: يا صالح (ثلاثاً) ولما رجع إلى أهله وعلم بازدياد ولده[3] سماه صالحاً واعتنى به في حفظ القرآن، فظهرت له نجابة كان بها مؤدبه يملي عليه ما يمكنه فيحفظه بالإعادة مرتين أو ثلاثاً، واتفق له في صغره أن مرّ على الشيخ عبدالله أبي العظام، فسقاه لبناً حامضاً امتلأ به حتى خشي عليه، وكان الشيخ «عبد الله المغربي» يقول له: يا شيخ المشرق والمغرب، فتوفي والده وتركه وعمره أربع عشرة سنة وتوجه إلى خدمة العلم الشريف، وقرأ بجامع الزيتونة على فحول العلماء فقرأ الأزهرية على الشيخ حسونة الترجمان، وقرأ علم الكلام والمنطق وقطعة من شرح العقائد النسفية بجميع حواشيه على الشيخ «محمد الغرياني» محشي الخبيصي، وقرأ على الشيخ «عبد الكبير الشريف» والشيخ «حمودة الريكلي» والشيخ «أحمد اللعلاع» والشيخ «محمد المنصوري» شارح المختصر الخليلي شرحاً يبلغ

---

(1) الإتحاف (ج 7 ص 44) عنوان الأريب (ج 2 ص 64)، شجرة النور (ج 1 ص 365).

(2) الذي في الإتحاف أنه ولد سنة 1137.

(3) استعمال ازداد بمعنى ولد مبنياً للنائب غير معروف في العربية.

أربعة عشر جزءاً في النصفي، والشيخ «عبد الله الغدامسي» معقـول العلوم ومنقولها، واجتمع مع الشيخ «محمد الشحمي» على نظر مختصر السَنوسي في المنطق وخرج إلى طرابلس في طلب العلم فأدرك بها الشيخ «محمد التاودي بن سودة الفـاسي» فختم عليه الشفا، وقرأ هنالك التفسير والحديث على الشيخ «نسوس المغربي»[1]، ورجع إلى تونس على أكمل حالة من التحصيل، إذ بنى علمه على أصل أصيل، له اليد الطُولَى في المعقول، وهو المرجع في الفروع والأصول، وتقدم لمشيخة المدرسة المنتصرية بعد وفاة الشيخ «إبراهيم المزاج الأندلسي» قاضي الحاضرة في ذي القعدة الحرام سنة خمس وسبعين ومائة وألف، وأقرأ بها دروسه الفائقة واعتكف على العلم والعمل، إلى أن بلغ في نفع العباد إلى غاية الأمل.

وقد رحل من تونس على عهد الأمير علي باي حيث أنكر على قراء الأحزاب أسلوب قراءة القرآن الذي أفضى إلى تغييره وشدد النكير عليهم في النهي حتى وقع اضطراب بين العامة فاضطره الأمير إلى الرحيل ورجع بعد حين، ونال به العلم وأهلُه قرة العين، إذ كان يلازم التدريس بجامع الزيتونة والمدرسة وهو شيخ شيوخ البلاد، وصالحُها الذي بلغت به إلى غاية المراد، متخلق بالزهد وملازم للتقشف لا تأخذ في الحق لومة لائم حاضر الجواب لا يتهيب فيما يخطر بباله، سواء عنده الأمير والمأمور في جميع الأمور.

استدعاه الأمير حمودة باشا لمنزله في بعض الليالي، ولما دخل إلى مجلسه أصابت شمعة ثوبه فتلا قوله تعالى: ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** ﴾. وقد ثقل عليه ضعف بصره في آخر أمره وبلغ من العمر نحو التسعين سنة وأدركته المنية فتوفي يوم الاثنين السابع عشر من شوال سنة ثماني عشرة ومائتين وألف. ودفن من الغد خلف ضريح الإمام ابن عرفة من الزلاج ـ عليه رحمة الله ـ ورثاه تلميذه شاعر البـلاد الشريف العـالم الشيخ «أحمـد

---

(1) نسوس لعلّه جسوس.

زروق»[1] قاضي المحلة بمرثية ميمية مثبتة في شعره أبدع فيها ما شاء، وأرّخ وفاته بقصيدة غراء سارت بخبرها الركبان وكتبت على ضريحه وهي قوله:

[الطويل]

لمثلك من خطب تنوحُ النوائحُ ... وترتاع في أغمادهن الصَّفائحُ
أُرِيقَتْ له دون الدموع دماؤُنا ... وشُقَّتْ له دون الجيوب الجوارحُ
هو القدر المحتوم يلقاه سانح ... ويرمي به في غامض اليم سابح
وأما وقد أودى الحِمام بصالح ... وقد عم ثلم في علا الدين واضح
هو العلم العلاّمة الفرد مَن غدا ... ولا فرد في أدنى معاليه طامح
هو المنهل الفياض ينبوع علمه ... بماء حياة بحره العذب طافح
إمام الورى الشيخ الهمام الذي له ... مآثرُ راقتْ في علاها المدائح
فتى كان أمّا فكره فهو معجز ... ذكاءً وأمّا علمه فهو فاضح
حوى فكره كلَّ العلوم فنقلها ... ومعقولها متن له وهو شارح
فمن لعلوم الدين من بعد صالح ... إذا نابها خطب من الغير فادح
كوى مصرعُ (الكواش) أكبادَ أهله ... ففي قلب كلٍّ من جوى الحزن قادح
حوى قبره معْ ضيقه من علومه ... رواسيَ قد ضاقتْ بهن الأباطح
حوى جامع العلم الذي انقاد لاسمه ... إذا ما تلا من مشكل العلم جامح
فما غاب حتى أدبرت أنجم الهدى ... وصاح بإدبار المعارف صائح
وقال الورى قد مات علاّمة الورى ... فأرّخ: يموت العلم إن مات صالح

[.... 1218 ....]

[محمد الفاسي][2]

وقرأ أيضاً صاحب الترجمة المذكور على الشيخ «محمد الفاسي» الذي كان وفوده إلى تونس قبل طاعون سنة تسع وتسعين ومائة وألف في سن

(1) أحمد زروق الكافي التونسي العالم الأديب توفي سنة (ـ 1246)، (عنوان الأريب ج 2 ص 83) (الإتحاف ج 7 ص 158).

(2) محمد الفاسي (ـ 1232) ومرثية الشيخ الرياحي له في تعطير النواحي (ج 1 ص 85) مع ترجمة له. =

الشبوبية بين العشرين والثلاثين، وقرأ على الشيخ صالح الكواش والشيخ حسونة بن خليل الحنفي، وقرأ المختصر الخليلي بمدرسة علي باي على الشيخ «محمد بن قاسم المحجوب»، إلى غير ذلك من الدروس التي لازمها، وطلع بدراً في هالاتها، حتى أصبح من فحول علماء تونس مع ما عنده من الخيرية والفضل والتصدي لنفع المتعلمين ومعرفة الأسرار الربانية. وقد اختصّ به الشيخ «محمد بن حسين البارودي» فكان يلازم بيتهم إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف، ودفن بتربة البارودي قرب كوشة المنتشالي ـ عليه رحمة الله ـ ورثاه تلميذه صاحب الترجمة الشيخ إبراهيم الرياحي بقوله:

[الكامل]

شرفُ الورى يا دهر كيف هدمتَه ... وقصدت عمدا للهدى فثلمتَهُ
يا ليت أنَّك والمنى ممنوعةٌ ... تَلوي على نقض الذي أبرمتَه
لَمْ تألُ[1] في سَوْقِ الخيار إلى الردى ... يا ليت شعري هل بذا أكرمتَه؟
أفَلَمْ يغب بغروب شمس محمدٌ ... فضلٌ سما عن أن تكون علمتَه؟
والعلمُ لو كانت لقلبك رقةٌ ... لبكيتَه من بَعْدِه ورحمتَه
لا غرْو أن نَثَرْ لآليءَ أدْمُعٍ ... وبفقده عقد القلوب فصمتَه
يا من إلى نور الكتاب وسرِّه ... يسعى لقد أخفقت فيما رمتَه
(كشافُ) أسرارِ البلاغة قد مضى ... ولسان (تلخيص) البيانِ عدمتَه
من للكلام إذا يدوَّن فخرُه ... مِنْ مبطلٍ شبه الضلال كلَمته؟
ومتى أتى بوساوسٍ متفلسفٌ ... أرهقْتَه وهُدَى الإلٰه أقمتَه
ولوَ أن أفلاطون ساعده اللقا ... لدرى بأن العلم ما عُلِّمْتَه
يا مُحْيِيَ (الإحْيا) ليَهنك مغنمٌ ... عُمُرٌ بإحْياءِ العلوم ختمتَه
لهَفِي عليك ولسْتُ فِيه بمفرد ... يا مفردا جمْع الكلام نظمتَه

= ورأيت في كنش الطواحني أنه دفن بتربة محمد البارودي بساباط المنشالي كما هنا (الإتحاف ج 7 ص 102).

وله الرسالة في المفردات الطبية التي حققها كاتبه مع الشيخ محمد محفوظ.

(1) في الأصل: لم مال والتصحيح من الديوان.

شمس بفاسٍ أشرقتْ وبتونسٍ ... غربتْ فيا أسفا عليك ضرمتَه
قسماً بمن أعطاك خَلْقاً كاملاً ... وثباتَ حلم في الأمور عزمتَه
لو تُفتدى لفداك من تحتَ السما ... وبقيت حيا ما تشاء أقمتَه
لَكِنَّ ما تلقاه من حسن القِرى ... خَيْرٌ وأبقى والذي قدمتَه
فله دَعَا داعِي الورى فأجبتَه ... وجميل ظنك بالرجا أحكمتَه
والله أحرى أن ينيلك كلَّ ما ... بجميل ظنك في الضمير كتمتَه
وَحَرٍ لمجْدك أن يناديَ زائر ... ومؤرخ: وَا رَمْسُ كيف ضممتَه

[.... 1232 ....]

فكانت قراءة الشيخ إبراهيم على هؤلاء الفحول قراءةَ جِدٍّ واجتهاد، أتى بها على فنون من المعقول بلغ فيها غاية المراد، وأخذ بها عنهم أعاليَ الكتب التي بلغ بها في العلم إلى أعلى الرتب، وقد قرأ أيضاً على الشيخ «عمر المحجوب» والشيخ «حسن الشريف»، والشيخ «إسماعيل التميمي» والشيخ «الطاهر بن مسعود» وغيرهم من علماء الحاضرة التونسية إلى أن ظهر عليه فضل العلم والعمل، وبلغ من تحصيله غاية الأمل، وأجازه الشيوخ فتصدر للتدريس، وشهد الخاصة له بالفخر النفيس.

قيل: إن الشيخ «الطاهر بن مسعود» كان يقرىء مختصر السعد في جامع الزيتونة وتلميذه صاحب الترجمة كان يقرىء المختصر المذكور أيضاً بِطَرَفِ الجَامِعِ، فاتفق أن سكنت زماجر العلماء، فسكت الشيخ الطاهر في أثناء درسه فسمع تلميذه المذكور يقرىء فألقى سمعه حصة ثم قال لمن حوله: ما أحوجنا أن يحضرَ جميعُنا في هذا الدرس، مشيراً إلى درس تلميذه الشيخ إبراهيم وكفى بذلك له شهادة في مبدأ أمره.

وأما معارفه الربانية وطرق وصوله إليها فإنه قد أخذ عدة طرق وانتهى إلى الطريقة الشاذلية سالكاً في ذلك مسلك أُستاذه العارف بالله الشريف الشيخ البشير [1]

(1) الشيخ البشير (الإتحاف ج 7 ص 145) (تعطير النواحي ج 1 ص 106).

ابن عبد الرحمٰن بن السعدي بن محمد بن أبي القاسم بن الحبيب بن العابد بن أبي عبد الله بن محمد بن عيسى بن عبد الكريم بن عبد الله بن محمد بن عبد السلام بن مشيش ـ رضي الله عنه وعن آله ـ، وكان باراً بأُستاذه المذكور ملازماً لخدمته وهو يدخله بيته بدون إذنٍ مستنزله منزلة ابنه وهو يستمد به المعارف الربانية والأسرار حسبما تدل على ذلك استغاثته الرجَزية في برء أُستاذه المذكور التي قال فيها بعد توسلات كثيرة:

[الرجز]

ثم بذاك الجاه والقدر الكبير نسأل في شفاء شيخنا البشير

وفي آخرها يقول:

ويسأل الناظم إبراهيم محبة بسكرها يهيم
والعطف من شيخ الصفا البشير والجمع في اليقْظة بالبشير
صلّى وسلّم عليهِ الله ما لا يفي العد بمنتهاه

ثم إنه في سنة ست عشرة ومائتين وألف رأى من عناية الله به في نومه أنه دخل جامع الزيتونة فوجد به رجلاً مغربياً بين يديه محفِل وكتاب متنه أكثر من شرحه وأنه قال له: يا شيخ إبراهيم عليك بالطريقة الأحمدية، ولم يسبق له في ذلك سابق، ولما دخل جامع الزيتونة من الغد تذكر الرؤيا فنظر فإذا الرجل الذي رآه في النوم جالس على تلك الحالة في الموضع الذي رآه فيه، فقصده وبمجرد رؤيته له ضحك، وقال له: اجلس يا شيخ إبراهيم فرأى آية كبرى من المعرفة بالله والصلاح. وإذا هو العارف الشيخ أبو الحسن على حرازم[1] أحد أصحاب الشيخ أحمد التجاني ـ رضي الله عنهم ـ فأعلمه أن ذلك منتهى سفره وأنه قدم من المغرب فطلب منه أن ينزل عنده في بيته بمدرسة بئر الحجار، فنزل عنده. ولم تزل الكرامات تظهر على الشيخ حرازم حتى اتفق في بعض الليالي أن أيقظه

(1) علي حرازم بن العربي برادة الفاسي التجاني صاحب جواهر المعاني في فيض أبي العباس التجاني (معجم المؤلفين ج 7 ص 57). دليل مؤرّخ المغرب لابن سودة (ص 238).

وقال له: قُم واطلب من الله ما تريد فكتب مطالب بلغ بها غاية الآمال، في جميع الأعمال، وقد وقفت على تقييدها منقولاً من خطه، وهذا نصه:

1) طلبت من الله تعالى دوام رؤية النبي ﷺ بلا شك ولا تلبيس.
2) وطلبت عليك يا رب التصرف بالاسم الأعظم.
3) وطلبت عليك يا رب المعرفة لك التامة على أن تكون مقاماً لا حالاً.
4) وطلبت عليك يا رب معرفة الكيميا ونتائج عملها بسهولة.
5) وطلبت عليك يا رب أن تتولاني بعجزي عن أن أتولاك.
6) وطلبت عليك يا رب امرأة على وفق المراد على سبيل الدوام.
7) وأبناءً صالحين.
8) وعمراً طويلاً بالخير معموراً بالطاعة.
9) ومشيخة في علمي الظاهر والباطن على وفق ما يرضيك ويرضي رسولك.
10) وأن تغني قلبي وكفي.
11) وأن تسخر لي الروحانية والجن والإنس.
12) وأن تبلغني في الآخرة والدنيا ما يليق بكرمك مما لا نعلمه ولا ندري كيف نسألك إياه.
13) وأن تفهمني عنك فهماً حقيقياً.
14) والموت على الإيمان الكامل. اهـ.

وقد أجاب الله مطالبه، وقضى له مآربه، حتى حصل على سعادة الدارين. ولم يزل رضي الله عنه في اتباع الشيخ مدة طويلة حتى خشي من ملازمته، وتوقع أن يعتريه الحال فطلب من الشيخ أن يُقيل عثاره فأخذه الشيخ وضمه إلى صدره وستره بثوبه، قيل: إنه عند ذلك رأى جميع ما كان ويكون، ثم أطلقه واستدعاه للطريقة الأحمدية التجانية فقال له: يا سيدي نرجو أن تتركني إلى أن نستأذن أُستاذي فأجابه لذلك وعند ذلك ذهب إلى دار أُستاذه الشيخ البشير، وكان من عادته الدخول بدون إذن وبمجرد قرعه للباب خرجت له أمة واستوقفته إلى أن تستأذن عنه وبعد برهة خرجت وقالت له: إن الشيخ يسلم عليك ويقول لك:

تمم ما أتيت من أجله. فأخذ ذلك الإذن منه وتلقى الطريقة التجانية عن إذن شيخه العارف بالله من الشيخ العارف بالله، وابتدر إلى مدح الشيخ علي حرازم بقصيدة جليلة نال بها جائزة جميلة، قد أثبتها في أثناء ديباجة غراء ذكر فيها اجتماعه بهذا الأستاذ وأخذه عنه هذه الطريقة ووظائفها من الذكر وبعض فضائلها المنقولة عن مظهرها الشيخ أحمد التجاني. وهذا نصها:

الحمد لله الذي منّ علينا بالاجتماع، مع شيخنا الإمام العلم الهمام رأس العارفين بلا نزاع، وقطب الواصلين بلا دفاع، ولي الله الذي هو في مراقبة الله وعبادته، مولانا ووسيلتنا إلى الله سيدي الحاج علي حرازم أبقى الله وجوده ونوره لائح الأسرار، وسره ساطع الأنوار، بحرمة سيدنا محمد ﷺ وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار. فأخذنا عنه والمنة لله الطريقة التجانية المنسوبة لشيخه أمير الأولياء، وخاصة الأصفياء الأظهر، العارف الأكبر، الكهف الأفخر، مركز دائرة أهل الله، ملجأ الكبراء من خلق الله، مولانا وسيدنا أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن سالم[1] العالم المشهور حفظ الله علاه، ولا زال بعين الرضا من مولاه، أواسط جمادى الأولى من شهور سنة 1216 (ست عشرة ومائتين وألف). فأجازني في الورد والوظيفة... ـ وهنا ذكر الورد والوظيفة وبعض فضائلهما.

ولما اشتد به وجدي، ولم يطق حمل أعباء شوقي ومحنتي به جهدي، أنشدته إنشادَ الهائم، وأنشأت له قصيدة مطرزة ببعض شمائله، ولم أَخَفْ فيه لومةَ لائم، فقلت، وعلى فيض سره عولت:

---

(1) الشيخ أحمد بن محمد بن المختار التجاني خصّه الكثير بالترجمة ومنها (جواهر المعاني)، وكذلك (بغية المستفيد) لابن السائح.

وقد اتصل به الاتصال الوثيق الشيخ إبراهيم الرياحي وألّف في الذب عنه (مبرد الصوارم والأسنة) في الرد على من أخرج التجاني عن دائرة أهل السنة) ومدحه بالقصيدة المشهورة.

صاح اركب العزم لا تخلد إلى الياس ... واصحب أخا الحزم ذا جد إلى فاس

من مصادر ترجمته غير ما ذكر تعطير النواحي في مواضع متفرقة. (شجرة النور ج 1 ص 378)، (معجم المؤلفين 2 ص 143).

كَـرُمَ الـزمـانُ ولـه يكن بكـريمِ ... وصفا فكان على الصَّفَاء نديمي
وأفـاض من نعمٍ عليَّ سـوابـغـا ... لله يشكـرهـا فـمي وصـمـيـمـي
عـظمت على الشعر البليغ وربما ... عجـز الثناءُ عن الـوفـا بعـظيم
وأجلها نـظري إلى (ابن حـرازم) ... وتـمـتـعي مـن وجـهـه بـنـعـيـم
وتـلذذي من خَـلْقـه بـمـحـاسـن ... وتـنـعُّـمـي مـن خُـلْقـه بـنـسـيـم
وتَـعَـرُّفي مـن عَـرْفِـه بـعـوارفٍ ... ومـعـارفٍ ولـطائـفٍ وفُـهـومِ
وتـعـزُّزي بـتـذلُّلِي لـجـمـالـه ... وتـشـرفي مـن نَـعْـلِه الـمـخـدوم
ذاك الـذي حملت خـزائن سـرِّه ... مـا لـو بـدا لارتـاب كـل حَليم
وهـو الذي مُنِحَ المعارف فارتقى ... منهـا لأرفـعِ سـرِّهـا الـمكْتُـوم
وهـو الـذي جعلتْ أسـرَّةُ وجهـه ... مـرآة إسـعـاد وبـرء سـقـيـم
وهـو الـذي نـال الـرضـا من ربـه ... وبـنـيـله إن شـاء غـيـر مـلوم
وهـو الـذي أذِن الـرسـول بـوصله ... وأَمَـدَّه مـن عـنـده بـعـلوم
وهو الذي (التيجاني)[1] أودع سره ... فـيـه وخَصَّ مَـقَـامـه بـعـمـوم
وهـو الذي وهـو الذي وهـو الذي ... وهـو الـذي معنـاهُ غيـرُ مَـرُوم
عـظمت لديـه مواهبٌ أضحت لهـا ... هِمَمُ الـورى تسعى بكـل سليم
وسـعت مـحـبَّـتُـه إلـى أرواحـهـم ... فـهي الـغِـذاء لـراحـلٍ ومقيـمِ
يـا سيـدي، ولَكَمْ دعـوت لسيـد ... حتى عـرفتـك فـاسْتَبَنْتُ رُجـومي
وعلمت أني كنت أرقُمُ في الهـوا ... وأسيـرُ خلفي والشـفـاء نـديمي
يـا مَـوْئِلي وكفى بفضلك مـوئـلا ... ومُؤَمَّلي عنـد التَـهـاب سُمـومي
هل أنت كاشِفُ كُرْبتي فلقد سَطَتْ ... وطغت عليَّ وسـاوسي وهـمومي؟
هـل أنت راحمُ شَقْـوتي فتـريحَني ... فخيـارُ[2] أهـلِ اللَّهِ خيرُ رحيم؟
هـل منقذٌ من قـد تحيـر لم يجـد ... من مُسْعِـد بجـلا الهمـوم زعيم؟

---

(1) على حسب نطق أهل تونس.
(2) في الأصل: بخيار.

فارحم دموعاً قد رأتك عيونها ... فتكرمت باللؤلؤ المنظوم
وجوانحاً جعلتك في سَوْدَائها ... وقد اصطلت وَتَكَلَّمَتْ بِكُلوم
وجوارحاً ضرعتْ إليك يقودها ... أصلٌ عظيمُ الشأن غيرُ هضيم
وسرائراً لو أنّها بَلِيت لما ... وجدت[1] سوى شوقٍ إليك أليمِ
ومتيماً لولا التذكر لم يكن ... بمجدِّدِ الأشواق غير رميم
لا تقطعَنْ أملي وقد وجَّهْتُه ... يسعى إليك وأنت خيرُ كريم
وقد اتخذتك في الأنام وسيلة ... وتوسلي بهواك غيرُ فصيم
وجعلت حُبِّي[2] عند فضلك ذِمّةً ... وتذممي بعُلاَك غيرُ ذميم
ورجوت من ربي بفضلك ما أنا ... أصبحت من معناه غيرَ عديم
يا مسندي يا مقصدي يا سيدي ... يا مُنْجدي يا موئلي وحميمي
أنت الذي ربي اصطفاك لسرِّه ... وحباك من فضلٍ عليك عميمِ
فلك الهناءُ فأنت سلطان الورى ... وليَ الهناءُ بأن تقولَ خديمي
ورسوله أَوْلاك ما اعترفت به ... لك أهل سرِّ الله بالتقديم
فسلام ربك كلما هبّت صبا ... يغشاك طيب مِزاجه المختوم

فلما أنشدت بين يديه، وقد اعتراه من الحال ما لا يذكر، وأسبل من الدمع ما هو من الوبل أغزر، فقال: هلم بمحبرة وقرطاس، ودفع بخطه[3] المشرف والناس جلاس، يقول لك رسول الله ﷺ: جزاك الله عني وعن نفسك خيراً، ولك مني المحبوبية ومن الله جلّ جلاله واتصل حبك بعروتي لا انفصام له ولك من الله ومني الرضا بما مدحت به خديمي والحق أنك مدحتني لأنه مني وإليّ ولك مني الرضا التام ولك بذلك معارف وأنوار وسرور والسلام عليك ورحمة الله. اهـ.

فكان صاحب الترجمة هو أول من تلقى الطريقة التجانية بحاضرة تونس،

---

(1) في الأصل: وجدوا.
(2) في الأصل: فضلي.
(3) في الأصل: بخطة.

وتعلق بها ونشرها، وأقام أورادها ووظائفها، وأسس لذلك زاويته الشهيرة قرب حوانيت عاشور[1]، وارتقى من ذلك إلى معارج الفتح والشغف بالحضرة النبوية، وحسبه من الفخر ما أبدعه وأجاده وهو «النرجسة العنبرية في الصلاة على خير البرية» وهي من أعز الصلوات البليغة التي كملت بأعزِّ صيغة، ولعزة هاته الصلاة التزمتُ إثباتها في تاريخ مفاخره المشهورة، وآيات فضله المشكورة، وهذا نصها[2]:

«الحمد لله فاتح خزائن الجبروت، في حضرة غياهب تجلي اللاهوت، والصلاة والسلام على سيدنا محمد مرآة الذات والأسماء والنعوت، وعلى آله الكارعين في حياض سر الناسوت.

أما بعد فهذه صلوات جيدات أنوارها قد أشرقت فيها من الأسرار ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت سميتها «النرجسة العنبرية في الصلاة على خير البرية»، قصدت بذلك خدمة حضرة سيد الوجود، ومعدن الحقائق والشهود. صلّى الله عليه وعلى آله جبال الدين الشوامخ، وأصوله الرواسي الرواسخ.

بسم الله الرحمٰن الرحيم[3] «إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً».

---

(1) زاوية الشيخ إبراهيم الرياحي هي الآن في الشارع المعروف بنهج سيدي إبراهيم الرياحي قرب حوانيت عاشور.

(2) هذه الصلاة النرجسية طبعت أوّلاً بفاس ضمن مجموع به:

1 - سرية الحق والانتصار في الذب عن أولياء الله الأخيار.

2 - الجيش الكفيل بأخذ الثأر ممن سلّ على التجاني سيف الإنكار كلاهما للشيخ محمد الصغير الشنقيطي.

3 - العضب اليماني، في الرد عن شيخنا سيدي أحمد التجاني للشيخ أحمد بن محمد بن القاضي العلوي.

4 - النرجسة العنبرية للشيخ إبراهيم الرياحي، طبع هذا المجموع بفاس سنة (1319).

كما نشر النرجسة العنبرية الشيخ عمر بن محمد بن علي بن إبراهيم الرياحي في تعطير النواحي (ج 2 ص 57).

(3) من قوله بسم الله الرحمٰن الرحيم مَبْدَأ الصلاة العنبرية وأما ما قبل ذلك فهو خطبة هذه الصلاة. =

لبيك اللّهم ربي وسعديك، امتثالاً لأمرك، ومحبة لرسولك، وتعظيماً لقدره، وتشبثاً بأذياله. صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

اللّهم إني أسألك يا الله يا الله يا الله يا أول يا آخر يا أحد بغيب الهوية الذي استأثرت بعلمه الذي هو اسمك الأعز أن تصلي على مستودع سرك، ومستقر أمرك، كنز الحقائق الحامل لتجليك الأعظم، أوّل ملب لدعوتك، وأسبق منقاد لأمرك، الحد الأوسط، روح كل كائن، النور الذي به ظهر وجودك، وانصدع فجر ليل الغيب في آفاق التنزلات إلى أن صار الأول آخراً، والباطن ظاهراً، صلاتك التي بدوامها يستمد القلم، ويجري في اللوح بما أنت به أعلم، صلاة بها تنبسط رحمتك التي وسعت كل شيء، على أسرارنا وعقولنا وقلوبنا وأرواحنا ونفوسنا وعلى كل شيء منا حتى نتأهل لرؤيته، ونغرق في بحار محبته، وعلى آله وصحبه.

اللّهم يا هو يا هو يا هو أسألك خاضعاً ذليلاً بالهوية التي هي قائمة بكل هوية، بل هي هـيَّة، أن تصلي على الحقيقة المحمدية، صلاة خصوصية قدسية، تمتد منها رقائق لطفانية إلى حقيقتي الروحانية، فتردها إلى حقيقتها الأصلية، رجوع البعضية إلى الكلية، حتى تفنى في محاسنها الجمعية، وتلتذ بأذواقها الشهدية الوصلية، وفي مَقَامَاتِهَا الصدقية الشهودية، لا إله ألاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

اللّهم مالك يوم الدين المؤمن المهيمـن ، صلِّ على سيدنا محمد صلاةً تملأ الأكوان أنوارها وتمد الأدوارَ أسرارُها، وتنبت المحبة والمعرفة في أراضي قلوبنا الجدبة[1] أمطارُها، صلاة من حضرة ذاتك، ونور أسمائك وصفاتك،

= ثم إن هذه الخطبة مختلفة بين ما هنا، وبين ما في الطبعة الفاسية ففي الفاسية ما نصه:

الحمد لله القدوس في غيب الهاهوت، المتجلي بالأسماء والصفات في حضرة اللاهوت، المعبود في عوالم الملكوت والجبروت والناسوت.

والصلاة والسلام على من انبسطت فيه هذه المراتب الخمس، وعلى كل من آمن به من جن وإنس.

(1) في الأصل الجذبة.

تنجذب بها إليه رقائقنا انجذاب الحديد للمغناطيس، وتنجلي عن لطائفنا ما غشيها من ظلم الحناديس، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

اللّهم يا سميع يا سريع يا سلام، أسألك بسر سيدنا محمد، وبعقل سيدنا محمد، وبروح سيدنا محمد، وبقلب سيدنا محمد، وبذات سيدنا محمد، وبجسد سيدنا محمد، وبشأن سيدنا محمد كله، أن تصلي على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، الصلاة التي أنت أهل إهدائها، وهو أهل قبولها، كما صليت عليه صلاة انتشر به الطي، وصار للوجود بها فَيّ، وتَدَرَّجُ في المظاهر إلى ذاته الذي هو عرش استواء الكمال فأعرب بجوامع كلم ليس معها عيّ، ولا ليّ، عن كل شـيّ، وسلم تسليماً.

اللّهم وأسألك يا قريب يا قيوم يا قدير، بما تعلمه من جلالك وجمالك وكمالك، وشأنك كله، أن تصلي على محبوبك الأول، ومحبك الأكمل، الذي اصطفيته لفتح أقفال جودك، واجتبيته لوضع أسرار وجودك، صـلاة جماليـة انبساطية تتشعشع في قلوبنا وأرواحنا ونفوسنا أنوارُها. وتمتزج بكليتنا وأسرارنا أسرارُها، وتنشلنا من الأحوال إلى مرتقى الكمال حقائقُها، وتجذب لطائفنا إلى الاستغراق في ذلك الجمال رقائقُها، حتى ننصبغ بالفناء في أحدية وجوده، ونستقر خالدين في جنة شهوده، الذي لا ظمأ بعد وروده[1]. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين وعلى آله وسلّم تسليماً كثيراً[2].

اللّهم وأسألك يا كافيء يا كفيل يا كبير، بكلمتك العليا التي برز عنها كل كائن بل بأحديتك التي لا ثبوت معها لسواك، إلا من حيث إثباتك، أن تصلي على مجلاك الأتم، المتلقي نور القدم، على ما فيه من الكمال الأعم، بإدامة إفاضة مددك، وعلى آله وصحبه صلاةً تحبها يدوم بها جودك، على كل أهل وجودك، ويستقر بها في مركز ظلمانية عوالمنا، وسفلية أطوارنا، جاذب نوراني،

---

(1) في الأصل ورده.

(2) في الأصل وتسلم كثيراً.

ومزعج شوقاني، إلى حيث يبقى الباقي، ويفنى الفاني. لا إله إلا الله يفنى العبد ويبقى الله (ثلاثاً).

اللّهم يا حيُّ حين لا حيَّ في ديمومية ملكه وبقائه، ويا حق ويا حكيم أسألك بك، ولا أعظم من سواك بك، أن تزيد الحقيقة المحمدية إمداداً يليق باسمك الجامع، وعطائك الواسع، حتى تتسع للإفاضة على الأنهار المستمرة، من عذب بحورها الممدة لأشجار العوالم بمعين رحمتك التي وسعت كل شيء، صلاةً نستعد بها[1] لإرواء قلوبنا العطاش من مشاهدة جمال وجهه الكريم، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

اللّهم وأسألك يا لطيف يا لطيف يا لطيف بلا إله إلا أنت أن تصلي وتسلم على الواسطة في سريان لطفك في كل عوالمك إذ أنت اللطيف الخبير وعلى آله وصحبه صلاةً وسلاماً نستحق بهما بمنك وكرمك لطفاً يستولي على لطائفنا وكثائفنا حتى لا نشهد إلا إياك كما أنه لا وجود لسواك. يا نور النور أنت منور أحلاك العدم بتجلي نورك، فأسرج نورك في سري وعقلي ونفسي وروحي وقلبي وجسدي وكلي وبعضي حتى لا أكون إلا نوراً، وفي نورك الأحدي مغموراً، كي أوحدك توحيد العارفين، وأعبدك عبادة المقربين، والأمر كله بك منك إليك، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

اللّهم وأسألك يا علي يا عظيم يا عليم بأحب ما به تسأل وأعظم ما به تجيب أن تصلي علي الحقيقة الكلية أمّ الحقائق بأسرها التي هي عين العين الجامعة لكل كمال اختصت به أو فصلته في مجاليك وفرعته في عواليك بعد ما أصلته بها فكان كل كائن على سبيل العموم الحقيقي راجعاً إليها ابتداءً وانتهاءً رجوع المستمد للممد[2] والبعض للكل والفرع للأصل ولذلك كانت حقيقة سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي أُرسل رحمةً للعالمين، وكان رسول الله وخاتم النبيّين، ونطق بعموم رسالته إلى جميع الناس لسان الكتاب

(1) في الأصل: نستد بها، وما صوبنا به هو ما في طبعة فاس.
(2) في الأصل: المدّ.

المبين، واستوت ذاته الجامعة على حذافر الخلق العظيم والحسن العزيز والكمال المتين، وجاء بمتسع بحر الشرع الزخار الذي امتدت علومه في جميع الأقطار ليعلم كل أناس مشربهم من عذبه المَعين، سبحان الحكيم الذي رمز بالشاهد على الغائب تلطفاً في إقامة البراهين، وعلى آله وصحبه صلاةً تعم وتخصنا بمناسبة جزئية للإفاضة من تلك الجمعية، حتى ينتظم الشمل المفروق، ويستولي المحبوب على المشوق، وذلك أقصى ما يرجوه المحب الصدوق، وتسلم تسليماً كثيراً.

اللّهم إني أتوسل إليك بـ يّس والقرآن الحكيم وبالم وبالم وبالمص وبالر وبالر وبالر وبالمر وبالر وبالر وبكهيعص وبطه وبطسم وبطس وبطسم[1] وبالم وبالم وبالم وبالم وبص وبحم وبحم وبحم عسق وبحم وبحم وبحم وبحم وبق وبن والقلم وبجميع سور القرآن وأسراره وأنواره ومبانيه ومعانيه وظاهره وباطنه ومَطْلَعِه ومَقْطَعِه وشأنه كله أن تصلي على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه صلاةً ينعكس شعاع شمسِ إمدادها على مرآة باطني ويمتد منه إلى ظاهري نوراً أستضيء به في سلوك صراطك المستقيم حتى أكون في جميع أحوالي على بصيرة منك وحتى تتولى أمري بيدك تولي الكرام عليك المحبوبين عندك لا إله إلّا أنْت سبحانك إني كنت من الظالمين.

اللّهم سيدي ومولاي أسألك يا صادقَ الوعد بص والقرآن ذي الذكر وبالصدق الذي توحدَّتَ به وكل صدق صادق فإنّه به ومنه أن تصدق عليك ظني وتحقق أملي في أن تتجلى عليّ بأكمل الحقائق برقائق سريانية تجلياً يأخذني عني مصحواً بلطف لطيف يستولي على لطائفي استيلاءً يتمحض لك فيه التوحيد الذي ترضاه وترضى به عني ويرتفع به البين الذي اقتضته حكمتك وانتظم به غامض قدرك. فصل اللّهم عليه وسلم صلاةً وسلاماً يوجبان رضاه الأكمل وعطفه الذي إياه أسأل كما أنهما منك أوجبا له تمام خَلْقه وخلائقه، فجاء كتاباً ما فرطت فيه من شيء وعالماً بسطت من حقيقته التي هي مادة الأكوان كل

(1) سقطت في الأصل.

عالم ولخصت في ذاته الذي هو مركز سرك الأكبر ما انبسط من حقيقته فكمل بها الجلاء والاستجلاء ثم عرجت بها إلى حيث كان قاب قوسين أو أدنى. فبحق هذا التنزل الخفي والعروج الجلي ارحمني بشهوده الذي هو شهودك فإن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله رحمةً تغسل باطني من نجاسة الإخلاد إلى أرض النفس وتُحَلِّي صدري بالانحياش الكلي إلى حضرة القدس وعلى آله وصحبه يا الله يا هو يا مالك يا سميع يا قادر يا كافي يا حكيم يا لطيف يا عليم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يا صادق القيل ومن أصدق من الله قيلاً، أنت الملك الذي لا يحتاج إلى وزير، والمدبر الغني عن المعين والمشير، والحاضر الذي كل غيب عنده شهادة والخبير الغني التعبير، أسألك بكمالك الذي لا يعلمه غيرُك وبكهيعص وحٰم عسق أغنني بك عمن سواك وتول أمري بيدك واجمعني بخير عبادك ﷺ وطهرني بأسرار قدسك حتى أصلح للوصل بعد الفصل وأعطني مع ذلك ما أنت أهله من كل ما لا يعلمه أحد من خلقك فإنك الواسع الموسع القادر المقتدر. وصلّى الله على سيدِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً أثيراً إلى يوم الدين والحمد لله ربّ العالمين .

[الطويل]

على باب خير الخلق أوقفني قصدي ... لعلمي بأن المصطفى واسعُ الرفدِ
وقد جئته لا علم عندي ولا تُقًى ... ولكنَّ كل الخبث يا سيدي عندي
فيا من وجود الكائنات بأسرها ... به، أترى غيي وعندكمُ رشدي؟
ونفحة جود منك يا أجودَ الورى ... لعمريَ وجد ما له بَعْدُ من فقد
توسلت بالصديق خلِّك والذي ... مراراً أتى التنزيلُ وفق الذي يبدي
وعثمان ذي النورين من حَيِيَتْ له ... ملائك فاستَحْيَيْتَ من وجهه الوردي
وحمزة والعباس والصحب كلهم ... ولا سيما آل خصوصا ذوي وِدِّ
أبا حسنٍ باب العلوم ومن أتى ... بنوه بحوراً عذبها دائم المد
بهم جئت يا خير الورى متوسلاً ... أرى أنني أَلححت في مطلبي جهدي
وحاشا لهم أني أخيب وقد أتى ... بأسمائهم نظمي فرائدَ في عقد

أدرت بهم أفلاك أمري كما ترى ... بروجاً ولكن كلها مطلع السعد
همَ حسن ثمَّ الحسين ونجله ... علي الذي زان العبادة بالزهد
وباقرُ علم وهو والد جعفر ... أبي الكاظم القَرم الهمام بلا جحد
عليُّ الرضا ثم الجواد محمد ... عليُّ التقى والعسكريُّ أبو المهدي
وسيدنا المهدي الذي سوف تنجلي ... به ظلمات الجَور والزيغ عن حد
فها أنا مُدْل يا كريم بجاههم ... وحاشا لهم أني أقابل بالرد
وصلّى عليك الله ما أنت أهله ... وسلّم تسليما تقدس عن عد
وآلك والأصحاب طراً وتابع ... وبعد فذا ذلي لجدواك يستجدي

الصلاة والسلام عليك وعلى آلك وأصحابك وكل من شهد أنك رسول الله إلى جميع الخلق يا سيدنا يا رسول الله من عين الذات حيث لا اسم ولا رسم.

الصلاة والسلام عليك وعلى آلك وأصحابك وأزواجك وذريتك وأنصارك وأشياعك وجميع أُمتك يا سيدنا يا رسول الله من الحضرة الجامعة لكل صفة واسم.

الصلاة والسلام عليك وعلى آلك وجميع أُمتك يا سيدنا يا رسول الله من حضرة الذات التي هي منقطع الإشارات على حقيقتك التي هي روح حياة الوُجود، المستمد منها القلم الأعلى الكاتب بإفاضة حقائق العوالم في اللوح الكلي جميع الرقائِقِ والدقائِقِ، وكل ما خلقه الحق وما هو خالق، ثم سرى ذلك المدد في المراتب على انبساط كثرتها إلى أن اجتمع تفرقه في ذاته الجامع الذي هو سبب الكون إرادةً وقصداً، ونتيجته التي نظمت مقدمات العوالم لأجلها عِقدا.

إلٰهي وسيدي ومولاي هب لسيدنا محمد أجلَّ ما تهب من التقريب، وامنحه أكبر ما تمنحه أهل التحبُّبِ والتحبيب، وزده مما يليق بواسع عطائك، ما لا يعلمه أحد من ملائكتك وأنبيائك، واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح النوراني والجسد الظُّلماني بحكمتك البالغة التي تدق عن أنظار الأذكياء، وقدرتك القاهرة

التي لا يتعاصى عليها شيء في الأرض ولا في السماء، إنك على كل شيءٍ قدير.

[الطويل]

وعدتَ الذي يدعو وها أنا سيدي ... دعوتك مُضْطَرًّا وأنت سميعُ
وحقَّقتُ يأسي من سواك لفقره ... وجئتك محتاجاً فكيف أُضِيعُ
ونـاديتُ والآمالُ فيك قويةٌ ... وقلبيَ من ضرب الذنوب وجيعُ
وفي عَمَلِي سقمٌ وعلميَ شهوةٌ ... وفي الصدر رَوْعٌ للحساب مَرُوع
أَتَطْرُدُنِي عن باب فضلك سيدي ... وروضك للعافي الفقير مَرِيع؟
وَكَيْفَ يُرَى ظني لديك مُخَيَّباً[1] ... وعندي على طردي إليك رجوع
وهل لي من مولىً سواك أَرُومُه ... تعاليتَ، وَصْلِي مِنْ سواك قطيع
وأيَّ نَوَالٍ غير فضلك يُرْتجى ... وأي حِمًى إلَّا حماك مَنيع
لئن حجبتني عن نوالك زلة ... تلظت لها مني حَشًى وضلوع
وأخْلَدَنِي منْها إلى الأرض شهوةً ... وقَهْقَرنِي وجدٌ بها ووُلُوع
فما بيدي حول ولا ليَ حيلة ... سوى أنني نحو الدعاء سريع
بإذنك توفيقي، وفضلك واسع ... إذا لم توفقني فكيف أطِيع؟
أَسَوِّف بالإقلاع قلْباً مُقَلَّباً ... وعالم حلم منك فيك طَموع
وقد صدَّني عن ذاك قلب مُغَفَّل ... له كل يوم في هواه وُقوع
عسى أثرُ العصيانِ بالذنب يَنْمَحِي ... ولله في أهل الرجاء صَنيع
وكم سعة وافت على حين شدة ... وقد يُرْتَجَى بعد الغروب طُلوع

ولم يزل الشيخ إبراهيم بعد سفر الشيخ حرازم ملازماً لشيخ تربيته الشيخ البشير ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ مع ملازمة زيارته والرجوع إليه في قليل الأمر وجليله، ورأى من عناية الله به ما بلغ به أمله وكم له من خواطر ربانية ظهرت عليه، ومن عنوان ذلك قصيدته النومية التي أنشأها في حال منامه وأملاها في يقظته من حفظه وهي قوله:

(1) في طبعة فاس مضيعاً.

[البسيط المخلع]

الحمد لله وهو حسبي ... وفاز من حسبُه الحسيبُ
يختص مَنْ شاء لا بشيء ... إلّا بجودٍ، لَهُ صبيب
ثم الصلاة على المنبا ... وآدم طينه لزيبُ
والآل والصحب والموالي ... من كل مَنْ في الهُدى نجيب
وبعد يا خالقي فإني ... أدعو بكل الذي تجيب
أن تجمع الشمل وهو فرق ... يجمعه المصطفى الحبيب
الفاتح الخاتم المُرجَّى ... لساعة هولُها مُشيب
السيد الكامل المُعلَّى ... الطاهر الطيِّبُ المُطِيب
كنزُ الكمال الذي لِكلٍّ ... - وإن علا قدره - نصيبُ
مَنْ مدحه في الكتاب يُتْلى ... ماذا عسى يمدح الأديب
هو الرؤوف الرحيم جَاءٍ ... في (توبة) نصه عجيب
فيا رؤوفٌ ويا رحيمٌ ... ما غيرُ وصلِك لي طبيب
إن لم تُدارِكْ حليفَ سُقْمٍ ... فعيشه بعد ذا غريب
هَذا بُكاء بَدَا مديحاً ... وذا اشتياق وذا نحيب
عليك مِنْ ذي العُلا صلاةٌ ... مِنْ عَرْفها مِسْكُنَا يطيب
كذاك يصحبها سلام ... لا ينذوي غصنه الرطيب

وقد كان ملازماً للتدريس غير أن دنياه ضاقت عليه، وسئم سكنى المدرسة وتطلب التزوج فعزم على الخروج من الحاضرة لعلّه يجد ما يبلغ به أمله في أيّ أرض من بلاد الله، وعند ذلك تداركه صاحب الخيرات يوسف صاحب الطابع فثبطه عن السفر، وأخذ له داراً جهزها له بجميع ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش وزوجه وأجرى عليه من عوارفه ما هو أهل له ليبقى زينة للبلاد وبذلك سكن خاطر الشيخ وأقام على بثّ العلم في صدور الرجال.

ولما وقعت مجاعة سنة سبع عشرة التزم الأمير حمودة باشا أن يَسْتَمِيرَ السطنة الغربية فتخير وفداً كان الشيخ في أولهم لطلب ذلك من السلطان الشريف

مولاي سليمان بن محمد[1] ـ رضي الله عنه ـ فخرج الشيخ في السفر لما ذكر سنة ثماني عشرة ومائتين وألف واستصحب معه مكتوباً بديعاً إلى وزير الدولة السلطانية من أُستاذه العالم الشريف الشيخ عمر المحجوب قاضي الحضرة يومئذ وهذا نصه:

المقام الذي اهتصر من العلوم غصونها، واقتطف من البدائع أزهارها وعيونها، وسام من رياض البلاغة فنونها، وفجر من ينابيع البراعة معينها، الخَيِّرَ الأَرْضى، العلاّمة الأحظى، الأود الأصفى، والمتحلي من الفضائل والفواضل بالرداء الأضفى، مقام أخينا في الله الشيخ سيدي عبد القادر بن شقرون، لا زال ميمون الطائر في الحركة والسكون، ولا برح محمود المساعي، مخصب المراعي، ووراء التحية المتعطرة بذكراه، والسلام الذي يفوح لنشره برَيَّاه، والبث الذي أعوزه حسن لقياه، لولا التعلل بإطالة محياه، إنا لنحمد إليكم الله تعالى الذي جلّت الآؤه، وغمرتنا على كل حال نعماؤه، ونفذ حكمه وقضاؤه، وبَهَرَ العَالَم سبحاتُه وسَناؤه، وننهي إليكم وصل الله تعالى حظكم وإسعادكم أنّا لم نظعن عن معاهد المودة، ولم نبرح عن الثناء على مقامكم من تلك المدة، ونسائل عنكم الركبان القادمين إلينا، ونبحث عن أنبائكم من السفر المجتازين علينا، رعياً لأواشج العلم والأدب، ومبرة للسلسلة التي هي أصح من سلسلة النسب، فننثني من أخباركم بما ينشط القلب والألباب، ويستخلص من الحمد والشكر خالص اللباب، وإنكم بحمد الله تعالى على الحالة التي يرتضيها كَمَالكم، وتبتسم بالإعجاب بها آمالنا وآمالكم، تحت الإيالة التي نسأل الله تعالى أن لا يقلص عن المسلمين ظلالها، وأن يسوغكم زلالها، وإلى هذا نُعرِّفكم عرفكم الله عوارفه، وأسبغ عليكم من الفضل مطارفه، أنّ حضرة إفريقية حاطها الله بعنايته الكافية، وأسبغ على أهليها رداء العفو والعافية، قد أعوزها الخصب في الأعوام المنفصلة، وتوالى عليها الجدب في سنين متصلة، لا سيما هذه السنة الشهبا، فإنها تلونت لأهلها تلون الحربا، وما كشفت النقاب عن عُوارها،

(1) السلطان سليمان بن محمد (ـ 1238) (الاستقصاء ج 4 ص 129) (فهرس الفهارس ج 2 ص 328) (الأعلام ج 3 ص 197).

ولا أوضحت لهم مكنون إعسارها، لكون الزرع قد استغلظ واستوى على سوقه، ولاحت لهم من الخصب واضحات بروقه، فما راع القوم إلّا إخلاف أنوائها، وتجهم أشد من الصحو لسمائها، قضاءً من الله تعالى مقدراً، وحكماً سابقاً في أم الكتاب مدبراً، ولم يجد القوم ملاذاً من هذا الأمر، ولا مفزعاً لأن يكشف الله سبحانه عنهم هذا الضر، إلا أنهم أنفذوا الأنفار المذكورين أعلاه للمشهور الأفخم، والنادي الأعظم، حضرة مولانا السلطان الشريف، ذي القدر المنيف، أعزّ الله سلطانه، وحرس بعين العناية أرجاءه وأركانه. وهؤلاء القوم وإن كان بأيديهم[1] مكتوب من أميرنا الباشي أيده الله تعالى في طلب ابتياع الميرة من ممالك مولانا السلطان نصره الله تعالى إلا أنهم في الحقيقة وفد هذا الرعيل من جماعة المسلمين، أوفدهم على حضرة السلطان ممتارين قائلين: «مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين». ولا جرم أنهم أصابوا المرمى واستبصروا، حين فزعوا لحضرة مولانا السلطان واقتصروا، وبهمته العالية على القحط استنصروا، وأرسلوا الأنفار المذكورين وفداً لطلب الميرة وانتظروا، ونعرفكم بأن الأول منهم وأرسلوا الأنفار المذكورين وفداً لطلب الميرة وانتظروا، ونعرفكم بأن الأول منهم هو الفقيه المتفنن البارع أبو إسحق سي إبراهيم الرياحي من نجباء الطلبة الذين أخذوا عنا، وميزه تحصيلة بمزيد الوصية عليه منا، ولعلّكم إن شاء الله إذا بلوتم نجابته واستنفضتم كنانته تحمدون في العلوم ذكاءه، وترضون توغله في معارجها وارتقاءه، لكنه ربما يتعسر عليه فيما هو بصدد سِفارته الانتاج، ويجهد في علله الأدواء[2] والعلاج، فالمطلوب من مقامكم ووافر عزكم واحترامكم أنْ تكون لهؤلاء الوفد معيناً، وأن تقر لنا ولهم بمعونتك عَيْناً، وتَهْدِيَهم للظفر بالمقصود سواء السبيل، وتوضح لهم كيفية الإنتاج في هذا الأمر على التفصيل، حتى

---

(1) في الأصل: وإن كانوا بأيديهم والصواب ما أثبت وهو ما في الإتحاف.

(2) ويجهد في علله الأدواء والعلاج جاء الأدواء في نسخة المؤلف مشكولة بالنصب، والصواب رفعها لأن الأدواء فاعل يجهد.

وكذلك الصواب الدواء لا الأدواء لأن أدواء جمع داء لا دواء.

تترتب لهم الأقيسة المنتجة، وتنفتح الأبواب المرتجة، ولكم مزيد الدعاء بألسنة الخصوص والعموم، والثناء بدلالة المنطوق والمفهوم، والثواب الجزيل في اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، والله تعالى يبقيكم، ومن طوارق الزمان يقيكم، ولا زال ظل مولانا السلطان ممدوداً، وإرفاده محموداً، وقطره مقصوداً، وبره معموداً مصموداً، بمنه وكرمه والسلام.

ولما بلغ الشيخ إلى حاضرة فاس، لاقى من إقبال فضلائها ما تعطرت له به الأنفاس، وقدم للحضرة العلوية السلطانية قصيدته الشهيرة التي هي من أعز كلمه، وقد وقفتُ عليها وعلى مواليتها مرقومتين بلسان قلمه فقال:

[الكامل]

إنْ عـزَّ مـن خيـر الأنـام مَـزار ... فـلنـا بـزَوْرة نـجـله استـبـشـارُ
أوَليـس نـور المصـطفى بجبينـه ... كـالشمس يـظهـر نـورَهـا الأقمـارُ
فـاشف الغليـل بقـربـه فلطالمـا ... شط الـمـزار وعـاقـت الأقـدار
واحفظ جفـونـك من سنـاه فـإنـه ... بـبـريـقـه تُـتَـخَـطَّفُ الأبـصـار
وإذا أنـامـله الـلِّطاف لـثـمـتَـهـا ... فـحـذار من غَـرْقٍ فَـهُـنَّ بـحـار
وافخـر على كـل الملوك بِلَثْمـهـا ... مـا بـعـده لـلمستـقـر فـخـار
وانبـذ بفخـر ابن الخـطيب فـإنـه ... لابن الخـطيب بفخـره المعشـار
شتـان بين ابن الـرسـول وغيـره ... أوَ يـستـوي لـيـلٌ دجـا ونـهـار
هـذا يَـزين الشِعْـرَ طيبُ حـديثـه ... حسـنـاً وذاك تَـزيـنُـه الأشعـار
هـذا الخليفـة وابنُ أكـرم مـرسـلٍ ... وسليـلُ من فخـرتْ بـه الأعصار
وخـلاصـة الأشـرَاف والخلفـاء مِنْ ... بـيت الـبتـول ومـن حـواه إزار[1]
وأعـزّ وارث ملك إسمـاعيـل من ... بـطل شـذا أخـبـارِه مِـعْـطَار
وأجـلُّ سـلطان وأكـرم مـالـك ... شـرفـت بمِلك يمـيـنـه الأحـرار
وأحقُّ مَنْ تحت السمـاء بأن يـرى ... مَـلِكَ البسيـطة والـورى أَنْـصـار
لـكـن إذا كـلُّ الـقـلوب تـحبُّـه ... فـلغيـره الأجسـام وهـي قِـفـار

(1) في الأصل مزار.

هذا سليمان الرضا ابن محمدٍ ... من أشرقت بجبينه الأنوار
هذا الذي رد الخلافة غضةً ... وسما به للمسلمين منار
وأعز دينَ الله فهو بشكره ... في أيْكها تترنم الأطيار
وحمى حماه بفصله وبنصله ... وهو الذي يحمى لديه منار
فلسانه يومَ الجدال صوارمٌ ... وسنانه يوم الكريهة نار
بمعارف وشهامة علوية ... من قبل أرهف حدها الأخطار
تخشى الضراغمُ بأسَه في غابها ... وتَصَاغَرُ الأبطال وهي كبار
ويخاف صولة عدلِه الدهرُ الذي ... مهما يَجُرْ يوماً فنعم الجار
وهو الذي يرجى لكل مُلِمّة ... ضاقت بحمل ضئيلها الأقطار
وهو الذي يُسعى إليه إذا دجا ... لَيْلُ الخطوب وساءت الأفكار
كمجيئنا نسعى إليه وقد سطا ... جدب وعم جميعنا إضرار
علماً بأنا إن رأينا وجهه ... زال العنا وتزحزح الإعسار
مولى رأى الدنيا بمقلة زاهد ... ودرى بأن جمالها غرَّار
فرمى بها متنزهاً وكذاك من ... كانت كرامَ أصولِه الأطهارُ
وتخير الأخرى بهمة عارف ... لم يرضها دون الجنان قرار
فرحت به الأخرى كما صلحت به ... الدنيا فطاب لأهلها استقرار
عمَّ البريئةَ حلمُه وحياؤُه ... وتواترت بسخائه الأخبار
مع ما له من مستلذ شمائلٍ ... نَمَّتْ بطيب نسيمها الأزهار
إن تلقه لاقيته متهللاً ... وله إليك هشاشة وبِدَار
متبسماً يجلو الظلام جبينه ... مستبشرا تجلى به الأكدار
من عصبة ورثوا العلا وتناسقوا ... فيها كما انتسقت بها أسطار
وتسابقوا في المَكْرُمَات فلن ترى ... منهم سوى مَنْ فضلُه مِدْرَار
صلحاء أبرارٌ أماجدُ سادةٌ ... علماء أخيارٌ تلتْ أخيارُ
خلفاء أشرافٌ كرام قادة ... سُرُجٌ بها للمهتدي استبصار
أُسُدٌ إذا حمي الوغى وإذا دجا ... ليل بكت لبكائها الأسحار
من كل أحزمَ يتقيه حِمَامُه ... شاكي السلاحِ له اليقين دثار

دَرِب[1] على طعن الأباهر والكُلى ... وعليه للحرب العوان مدار
قَرْمٌ إلى نهب النفوس إذا سَطَا ... فطِوالُ آمال العداء قصار
شد الإلٰه بهم معاقدَ دينه ... والله جلّ لدينه يختار
وأعزَّهم بعزيز نصرته التي ... رعب القلوب أمامها سَتَّار[2]
أفما رأيت الكفر ذلَّ لعزهم ... وسنانه لسواهم خطَّار
تهوى المشارق أن تكون مغاربًا ... ليعمها في الملتجين جوار
وتنالَ من عز الشريف كما رأت ... إذ كان فيها للخلافة دار
رد الزمان لصدره فكأنما «الـ ... ـفاروق» بين ظهورنا أمَّار
العدل يُبسط والنفوس سوامحٌ ... والدين يَظهر والعلومُ تُدار
والناس في رغَد الحياة بجنَّة ... تجري لهم من تحتها الأنهار
فليذكروا النِّعَمَ التي عمتهمُ ... الله يعلم أنّهن غِزار
ولْنسألِ استمرارَها ببقائه ... فبقاؤه لصلاحنا استمرار
الله يُبقي نصره مُتَأَيِّداً ... في عزة خضعت لها الأقدار
ويديمُ أملاك السماءِ تَحُوطه ... بعناية شيدت لها أسرار
والأرضُ قبضة راحتيه وأختها ... منها له تتنزل الأسرار
ما دمتمُ يا أهل بيت محمد ... حرماً يطوفُ ببيته الزوار
أوْ مَا ترنم منشدٌ بحلاكم ... وتزينت بحُلاكم الأذكار
ثم الصلاة على النبيء وآله ... ما ناف لي بمديحكم مقدار

قال الناظم: «ولما أنشدت بين يديه أيده الله بنصره ارتاب بعض الحاضرين في مجلسه أن يكون ناظمها هو العبدَ الفقير إذ رأى شدة وقوعها الموقع العزيز من قلب الممدوح زاده الله عزاً ونصراً فجاءني بعض كتابه وأخبرني وقال دفع هذا الريب أن تنظم قصيدة في اتفاق غريب وقع لمولانا السلطان خلّد الله ملكه وذلك أنه وقف يوماً في إقرائه للتفسير على قوله تعالى: ﴿ **وأعلموا أنما**

(1) في الأصل: ذَرِبٌ بالذال.
(2) في الأصل سيّار.

غنمتم ﴾ الآية صباحاً فاتفق أن جاءته غنيمة في مساء ذلك اليوم وتبارت الشعراء في البيان عن هذا الغرض العجيب والاتفاق الغريب. فإذا أحسنت في البيان عن هذا الشأن، ارتفع الريب وحُسِبت من فرسان هذا الميدان، فقلت معرضاً، ولخيام الشك مقوضاً:

[الطويل]

دلائلُ فضل الله فينا تُتَرْجِم ... وإن غفلت عنها طوائفُ نُوَّمُ
ومن أكبر النعمى ولايةُ مَنْ لَه ... علينا وفينا حكمة وتحكُّمُ
تلطف في إخفائها متستِّراً ... ومَن كملت فيه الولاية يَكْتُم
ولما أراد الله إظهار سرّه ... جرى الأمرُ في الإظهار من حيث يعلم
أَلَمْ تغتنمْ وقتَ المساء وغدوةً ... بدا الوقفُ في التفسير آيةُ: «واعلموا»
ليدري صحيحُ الذوق أن مليكنا ... له في طريق الكشف نهج مقوم
وأن لنا فيما قضاه مغانماً ... فَعَجِّلَ ذي بدءًا لما هو أعظم
فلا زالت الأيام تخدم سعده ... ولا زال مثلي في علاه يُنَظِّمُ

وأنشدت بين يديه أيضاً ولإثر إنشادها وقعت منه أبقاه الله وحفظه العطيةُ الجميلةُ والجائزةُ الجليلةُ، فجزاه الله الرضوان الأكبر الذي لا انقطاع لسببه، وجعل الخلافة كلمة باقية في عقبه» ا هـ.

ثم إن المولى السلطان الشريف أجاب طليبته[1] وقضى حاجته على أحسن حال وحصل من ذلك على الغنيمة الوافرة، وعظمت سعادة سفارته المذكورة بالاجتماع مع القطب الرباني الشيخ أحمد التجاني ـ رضي الله عنه ـ فأَنَالَه من الأسرار والكرامات ما هو أهل له، وقدمه لطريقته، وعدّ بذلك في أصحاب الشيخ الفائزين بمفازه ـ رضي الله عنهم وعن سائر أولياء الله أجمعين ـ أخبر أنه عند وصوله إلى حاضرة فاس قصد على البديهة دار الشيخ، ولما استفتح الباب سألته خادم: هل أنت إبراهيم التونسي؟ فقال: نعم، فأدخلته. واجتمع هنالك

(1) هكذا في الأصل طليبته ولعلّه طلبته.

بالشيخ العرابي، والشيخ علي التماسيني[1]، والشيخ علي حرازم، وغيرهم ممن فاز بحضرة الشيخ، ثم قُدِّم إليه قدح من لبن فشرب جميعه، ثم أقبل الشيخ من خلوته يعلوه غبار سفر، وبعد أن قبل تحية زائره قال له: عظم الله أجرك في شيخك الشيخ صالح الكواش، فقد كنا الآن في جنازته. فيكون ذلك اليوم هو يوم الإثنين السابع عشر من شوال سنة ثماني عشرة ومائتين وألف. وقد أعلمه الشيخ بعد ذلك بما سيلاقيه من الحضرة العلوية السلطانية وأرشده إلى ما فيه سدادُه.

ولم يزل يتردد عليه مدة إقامته إلى أن حصل على جميع آماله، مع نجاح أعماله، وفي آخر مدة إقامته قال له الشيخ: أقم عندنا أحداً وعشرين يوماً أُخر، وأنا نبلغك إلى زيارة ضريح الشيخ سيدي أبي الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ غير أنه لما قضى أمره الذي توجه فيه لم تمكنه زيادة الإقامة فاعتذر إليه وفاز بمغانمه السرية، والمالية والميرية، التي نالها من هذا السفر، الذي لاقى به كل يمن وظفر، وعظمت بذلك وصلته بالحضرة السلطانية العلوية، ولذلك تلا مديحها بكل لسان، ونال من جوائزها غاية الإحسان. حتى إنه لما اتفق للمولى السلطان أن قام عليه أحد أبناء عمه فظهر النفاق في السلطنة وظفر السلطان بالقائم عليه فهنأه الشيخ إبراهيم الرياحي بقصيدة بديعة وهي قوله:

[الكامل]

بُشرى الورى بالأمن بعد مَخَافِ ... وقفوا به في موقف الأعراف
قرت به عينُ الهُدى أما الهوى ... فلحزنه حزِنت بنو الإرجاف
أغفتْ جفونُ الرشد ثم تَنبَّهَتْ ... بلطائفٍ قد كنَّ تحت سِجاف
ما صحّ لولا ذاك في حق امرىءٍ ... رؤيا سليمانٍ بعين خلاف
وهو الذي عمّ البريةَ فضلُه ... فأحاط بالدنيا إحاطةَ قاف
والدين في عزٍّ به والناسُ مِن ... بركاته في جنةٍ ألفاف

---

(1) الشيخ علي التماسيني من أشهر أصحاب الشيخ التجاني وقد ألّف في أصحابه ومريديه الشيخ أحمد سكيرج تأليفاً حافلاً.

قل للمغارب: هل جهلت كمالَه ... وكمالُه في الكون ليس بخَاف
أضحكت سنَّ الشرقِ إذ أبكيتَ في ... ما قد أتيت مدامعَ[1] الإنصاف
رمْتَ القياس بغير معنًى جامعٍ ... وغرست لاستثمارِ غُصْنِ خلافِ
فأتيتَ بالخطأ الذي لا يُرْتضى ... حتى لأَحْمَقَ في المدارك جاف
إنَّ الكواكب في السماء كثيرة ... لكنْ ذُكَاءُ فريدةُ الأوصاف
وكذلك الأشراف كلٌّ جوهرٌ ... وأبو الربيع فريدةُ الأصدافِ
هل عمكم منه التقى فسئمْتُمُ ... نِعَمًا سوابغَ ستْرُهن ضَوَاف؟
أمْ علمُه أم حلمه أم عدله ... أمْ وكْفُ كَفٍّ يمينه المتلاف؟
أمْ رمتمُ بَطَراً وكم من قرية ... بطِرَت فجرّ بها إلى الإتلاف
فنقضتمُ العهد الذي قد أوثقت ... كفُّ الشريعة في يد الأسلاف
ونستيمُ يومَ الولايةِ وهو في ... كُرْهٍ لها والقوم في إلْحلاف
لم يَرْضَها لولا صلاحٌ رامه ... وتضرُّعُ العلماء والأشراف
حتى إذا استولى كما شاء الهُدى ... وبَشِمْتُمُ بالبر والألْطاف
قلتمْ نخالفه وأي فضيلة ... في منهل عذب الموارد صاف؟
لم يُرْضني[2] والعالمين بأسرهم ... إدٌّ[3] أتيتم للرشاد مُناف
تستوجبون بذاك لولا حلمُه ... ما استوجبته القوم بالأحقاف
لكن عفا والعفو فيه سجيةٌ ... وأتى بصفحٍ وافرٍ وعفافِ
لم يلتفت لنفاذ قدرته التي ... بالنون مُدَّ مديدُها والكافِ
لو شاء قَهْرَ عدوِّه لم يفتقر ... لقَعَاقِعِ الأرماح والأسياف
وأمدَّ من جند السماء وراثة ... من جَدِّه المختار بالآلاف
لكنَّ طودَ ثباته لم يهتزز ... بعواصفٍ من غيهم أصنافِ
ورعى حقوق الله والأرحام في ... قوم زعانفَ للضلال خِفاف
كرهوا الهُدى والحقَّ لما جاءهم ... جَنَفًا إلى الإهمال والإسراف

---

(1) في الأصل: مسامع.
(2) في الأصل: يرضنا.
(3) في الأصل: وإذا.

وَلَوِ انّما اتبع الهدى أهواءهم ... جاؤوا بسم للأنام زُعاف
يا خاتمَ الخلفاء لا تحفل بهم ... واصْدَعْ بأمر الله صدع مُصَاف
واصبر كما صبر الهُداة فإنها ... محنٌ يَلِذْنَ منائحَ الإتحاف
فاللَّهُ حسبُك والذين استيقنوا ... فتصامَمُوا عن ناعقٍ استخفاف
واحلم على المولى (السعيد) فإنه ... بَرُّ البنوة[1] صادقُ الإسعاف
أنت اليزيدُ وإن يقولوا عمُّه ... والابن قد يهفو وليس بجافِ
مثلُ اليزيدِ جفا فجاء بصارم ... في فيه للسلطان ذا استعطاف
فأنَالَه بالحلم واسعَ عطفه ... عطفَ الأبوّة سابغَ الأعطاف
لا تيأسِ القُربى حنانك بعدما ... فاضت سحائبه على الأطراف
ما همَّهَمْ نصْرٌ له لكنهم ... نصروا سخائِمَ في النفوس خَوافِ
ولك الثناءُ مخلَّدٌ في هذه ... والفتح والنصر العزيز مواف
يا مَنْ إذا تُلِيتْ محاسنُ مدحه ... طَرِب النُّهى من كأسها بسلاف
ومتى يرم مُثْن عليك بُلُوغَه ... في الأرض قال له المديح أُنَافِي[2]
دامت حياتك للقلوب مسرةً ... والله جلّ بنصره لك كاف
خذها جِنَاناً في عيون أجلةٍ ... ولها لهيبٌ في قلوبِ سِخَاف
قَصُرَتْ نِبَالي أن تُناضل دونكم ... فَبَرَيْتُ من نبع الجدال قواف
تَرمِي العُدَاة بكل معنى مصعقٍ ... وبكل لفظ مبرق خطَّاف
شكراً لأنعمك التي أسبغتها ... ولَوَ انه لعلاك غيرُ مُكاف
أُهدي إليك تحيةً عِطريةً ... تَغْشَى منازل آل عبد مناف
بعد اختصاص المصطفى بصَفِيها ... وتعمُّ نشراً كلَّ من هو قَافِ

ولما أن استناب المولى السلطان ابنه العلوي الشريف إبراهيم إلى حج بيت الله الحرام سنة ثمانٍ وعشرين وبلغ الخبر بأنه قاصد المرور على طريق تونس استحضر له الشيخ إبراهيم قصيدة ليتلقاه بها لكن تبيّن أنه رجع من حجه

(1) في الأصل: النبوة.
(2) في الأصل: أناف.

إلى حاضرة فاس فأرسلها إلى حضرة والده السلطان مولاي سليمان ـ رضي الله عنه ـ وهي قوله:

[الكامل]

هـذا المُنى فانعم بـطيب وِصال ... فلطالمـا أَضْنـاك طـول مِـطال
مـاذا وكم أوْلَيْتني يـا مُخْبِـرِي ... بـقـدومـه من مِنَّـةٍ ونـوال
بشـرتني بحيـاتيَ العُـظْمى التي ... قـد كنت أَحْسِبُها حـديثَ خيال
بشـرتني بابن الـرسول لَـوَ انمـا ... روحي ملكتُ بذلتُها في الحـال
بشـرتني بسـلالـة الخلفـاء مَنْ ... أَمْـدَاحُهم تـتلى بكـل مقـال
مَنْ حُبُّهُمْ [1] فَرْضُ الكتاب كما ترى ... (إلا المـودّة) حين يتـلو التـال
مَنْ ضمَّهم شَمْل العَبَاء وأذهبـوا ... رجساً فيا لـك من مقـام عـال
مَنْ قَـوَّمُوا أَوَد المكـارِم بعـدمـا ... شـادوا الهُـدى بمعـارفٍ ونبـال
لـولاهمُ كان الـورى في ظلمـة ... مـرَّتْ غَيَـاهِبُهَـا بكـل ضـلال[2]
آبَـاءَكَ الأَطْهَـارَ أَقْصِـدْ يـا أبـا ... إسحاق يا نجلَ المليك العـالي
يـا حِبَّـهُ وصفيـه من قـومـه ... وخيـارَه من سـائـر الأنـجـال
لَـوْ لَمْ تكن أَهْـلاً لصفْـوِ وِداده ... لم يَسْتَنِبْـك لجـده المفضـال
لكن تـوسم فيـك كـلَّ فضيلةٍ ... فحبـا يمينَـك رايـةَ الإقبـال
وأقام جودَك بل وجودُك زادَ من ... يـبغي بـبـيـت الله حَطَّ رحـال
أنْتَ استِطَاعَتُهم فما عـذرُ الذي ... تـرك الـزيـارةَ خِيفـةَ الإقلال؟
وبك المشاعرُ أُطْرِبَتْ طَرَب التي ... وَجَدَتْ على وَلَهٍ فَقيد [3] فصال
ووصلتَهـا رحِمـاً هنـاك قـطيعـة ... دهـراً مضى وَبـلَلْتَهـا بـبـلال
وتـأَنَّس الحَرَمـانِ منـك بـطلعـة ... أَغْـنَتْـهـمـا عـن وابـل هـطَّال
كَـرَمٌ لكُمْ أدريهِ يـومَ أفـاضـه[4] ... عـني سـليمـانٌ بـأي سـجـال

(1) في الأصل: مدحهم.
(2) في الأصل: ظلال بالظاء.
(3) في الأصل: وَلدٍ بِقَيْدٍ.
(4) في الأصل: إفاضة.

وهب الأُلوفَ وكان أَكْرَمَ مُنْزِلٍ ... يُسْلِي الغريبَ ببرِّه المُتَوالي[1]

يوم التشرّفِ لي بلثم يمينه ... وتمتعِي من وجهه بجمال

وتلذذي بخطابه المعسول إذ ... حفَّتْ به للدرس أيُّ رِجال

لَمْ أَنْسَهُ يوماً حسبت نعيمَه ... للذائذ الجنات ضربَ مثال

عجباً له يُحيي القلوبَ بِعِلْمِه ... ويُميتُ جند الفقر منه بمال

وإذا تقلَّب للوغى فحسامه ... تعنو الرقابُ له بغير قِتال

يتلوه بالفتح المبين عساكرٌ ... قد أرهفتْ بالنصر حد نصال

تخشى الملوكُ مقامَه ولذكره ... رعْباً، تطير فرائسُ الأبطال

وينال آملُه لخفض جناحه ... ما ليس يخطر قطُّ منه ببال

حتى سَقَى أصفَى مناهله الألى ... يسعى لمَرْوَتِهم ذوو الأثقال

وأتت لمغربه الشريف مشارقٌ ... والشمس تغرب لاقتضاء كمال

لما تكدَّر صفوُها بضلالة ... جاءته كيما ترتوي بزُلال

ومتى تخلَّف عاجزٌ فبقلبه ... يسعى لفعل شعائرِ الإجلال

أمنية وقعت أشرت لذكرها ... في مدحها قِدْماً بصدقِ مقال

تهوى المشارقُ أن تكون مغارباً ... لتنال من جدواه أيَّ منال

يا فخرَ دينِ الله منه بناصر ... وسعادة الدنيا به من وال

لا تفتخر «فاسٌ» ولا «مُرَاكِشٌ» ... بِوَلَائِهِ[2] كلُّ الأَنَامِ مُوال

أَوَلَيْسَ في كل البقاع ثناؤُه ... وِرْدَ البُكور وصحة الآصال؟

أَوَلَمْ يَشِدْ للدين والعلماء والأ ... شرَاف والصلحاء صرْحَ معالِ[3]؟

أَوَليس أحيا سنة العُمَرَيْن في ... زمن إلى بدَع الهوى مَيَّال؟

أَوَلَمْ يعمَّ بجوده أَقْطارها ... لا فرق بين جَنوبها وشمال؟

أَوَلَمْ تَسِرْ ركبانها بمحاسنٍ ... ضاءت لهم سُرُجاً بجنح ليال؟

شِيَمٌ يهزُّ الراسياتِ سماعُها ... وَيَفُحْنَ في أَنْفِ الزمان غوال[4]

---

(1) في الأصل: المتوالِ.

(2) في الأصل: بولاية.

(3) في الأصل: معالي.

(4) في الأصل: عَوَالِي.

أوصافُ والدِك الإمامِ المرتضى ... للدين والدنيا بحسن خلال
ذاك الرفيعُ أبو الربيع ومن به ... حَيِيَ الهُدى وشرائعُ الإفضال
فبه لك الفخر الكبير، وإنْ يكنْ ... لك في العلا نسجٌ على منوال
كُلُّ الكمالِ لَهُ وأَنْتُ مقرُّه ... والفرع عين الأصل عند مآل
يابن المليك ابن المليك ابن المليـ ... ـك ابن المليك سلالة الأقيال
أَنْسَيْتُمُ ذكر العبابسة الأُلى ... زالوا، وما زالوا بعين جلال
لكمُ الفخارُ بذاته وسواكمُ ... مستمسكٌ من فخركم بِظِلال
وليَ الفخارُ بأن نسجتُ مديحَكم ... حللاً تجدِّدُ كلَّ شيء بال
أمْلى معانيه عليَّ ودادُكُمْ ... فجرى به طبعي كما السلسالِ
وَلَوَ انني حاولت مدح سواكمُ ... عَقَل القريحةَ عنه أيُّ عقال
فكأنما طبعي شريفٌ حيثما ... لا يهتدي لسوى مديح الآل
أَوْ أَنَّهُ ورِعُ النظام فلم يكن ... بذْلُ المديحِ لغيركم بحَلَالِ
أَوْ قَدْ درى أَنَّ المَدِيحَ تعرُّضٌ ... وسواكم لا يُرْتضى لسؤال
أَبْقَاكُمُ كَهْفاً يُلاذُ بمجده ... مختاركم لإنالة الآمال
وأَدَامكم رُحْمَى فإنَّ بقاءكم ... من فيض رحمة سيد الإرسال
وأَدَامَ للإسْلَام والدك الذي ... هو رحمة وسعت بغير جدال
وعليكمُ وعلى الذي يهواكمُ ... أزكى الرضا من حضرة المتعالي
ما دام ذكركمُ بكل صحيفةٍ ... تَبَعاً لأَحْمَدَ سيد الإرسال
صلى عليه مسلماً ربُّ الورى ... وعلى مقدّم حزبه والتالي

قال الناظم: فأرسل إليّ السلطان مولانا سليمان خلّد الله بقاءه، وأدام في أوج سعادة الدارين ارتقاءه، جائزة يا لها من جائزة سَنية، مع قصيدة أحلتني والله يعلم أني لست بأهل مرتبة علية، وكتابٍ أطراني فيه بأسحار من البلاغة بابلية، أما القصيدة فهي:

[الكامل]

حيَّتْ فأَحْيَتْ قلب صبّ صال ... كيما تبشرُه بقرب وِصالِ

واستفتحت بعد التحية سورة الـ ـفتح المبين بقصد أخذ الفال
هيفاءُ ترفل في مطارفِ سندسٍ من نسج تونسَ لا تُسامُ بمال
مخضوبة الكفين والقدمين في طول القنا ملموزة بدَلال
بَيْنَا نُسَائل بعض أتراب لها إذْ أسفرت عن وجهها المتلالي
فتضاءلتْ لسَنَاه أقْمارُ الدجى والصبح أَصْبَحَ كالقميص البالي
فحسبتها الدرَّ الثمين ملاحةً أوْ بنْتَ فكرِ السيد المفضال
العالم العلَم الذي أهدى لنا درر المعاني بل عقودَ لآل
أدت قريحتُه وثاقب ذهنه ما أعجزَ البلغا لبعد منال
يا أهل تونسَ حزتمُ شرفاً بما أبديتُمُ من صالحِ الأعمال
يكفيكمُ أنَّ فيكم هذا الذي حلَّتْ بلاغته محلَّ كمال
حتى غدت أمداحُه ما بيننا تقرا[1] لدى الغدوات والآصال
فلربما أدّى البعيد بأرضه حقاً ولم يحتج إلى ترحال
فله علينا أيُّ فضل أيّها الشعـ ـراء إنْ أنصفتمُ في الحال
حيث اهتدى لمقاصد فافتض[2] من أبْكارها عذراءَ ذات جمال
يا حسنها من كامل في كامل أزرتْ بذات القُرْطِ والخَلْخَالِ
يا ما أُمَيْلِحَها تردد قولها هذا المُنَى فانعم بطِيب وِصال
فلذا غدت أرْواحنا تهتز من طرب استماع نسيبها المتوالي
فكأنما النشواتُ في أشباحنا نشوات سكرٍ لا بخمر دوال
لله در قصيدة حلَّى بها جيدَ البلاغة للمقام العالي
جاءت كأحسن ما رأيت بلاغةً وفصاحةً جمعت ثلاث خصال
حُسْنَ الصنيع وجودةَ اللفظ البديـ ـيع ودقَّةَ التفصيل والإجمال
أَنْسَتْ بلاغتُها قصائدَ من مضى وبدت بأُفق المجد بدرَ كمال
فاللَّهُ يجزيه جزاءَ عباده الـ ـأبرار فوق السؤل والآمال
حتى يُرى في جنة الفردوس من حزب النبي وصحبه والآل

(1) في الأصل تقرى بالياء والصواب أن يكتب بالألف لأن أصله تقرأ فخففت الهمزة.
(2) في الأصل فاقتض بالقاف والصواب فافتض بالفاء.

وأما الكتاب فهذا نصه. . . :

«هذا بحول الله كتاب كريم، يغني روض خطابه عن أزهار الجزاء العميم، من العبد المتوكل على ربه في السر والإعلان، أمير المؤمنين سليمان، عمه الله بالعفو والغفران، إلى الشيخ المجلّي في حلبات الأدب، على كل من لأسرار البلاغة انتسب، الشاعر المطبوع، الرابط بحبل أسلوبه البديع بين كل محمول وموضوع، العالم النقاد، السالك على سنن النساك والزهاد، تاج المفرق بالإقليم الإفريقي، أبي سالم السيد إبراهيم الرياحي، لا زالت نافحة محاسنه يضوع عبيرها بأقصى النواحي. ثم عليه من السلام، ما يسمو به في سماء العز سمو بدر التمام.

أما بعد، فقد وصلتنا قصيدتك الرافلة في أذيال البيان، المحتج بدلائل إعجازها على أدباء الزمان، فوقعت منا ومن أُدبائنا موقع الاستحسان، حتى خلناها نسجت على طراز حسان، مع إعرابها عن الود الصميم، في جنب أهل البيت الكريم، وبناء مطلعها على الأصل العجيب، لا على ما عسى أن يستحسن من الغزل والنسيب، فلله أنت من عبد شاكر، وحر لما سبق من الوصل ذاكر، إلخ ما تضمنه المكتوب من ذكر العطاء الجزيل، والثناء الجميل، فجزاه الله التمتع بوجهه الكريم، في دار النعيم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم». اهـ.

ومما اتفق له مدة إقامته بالديار المغربية في تلك السفارة التي أسفرت له عن كل كمال، وأحلته من كل مجلس محل الإقبال والإجلال، أن تحفة أدباء بلد سلا الشيخ محمد القرشي السلاوي[1]، وصف مجلس مولاي عبد السلام أخي السلطان بما طاب وراق، ثم استجاز الشيخ فساجله في ذلك فكانت أبيات الشيخ محمد القُرشي، هي قوله:

---

(1) محمد القرشي السلاوي: والقرشي بسكون الراء، وأتى بهذه المساجلة صاحب (تعطير النواحي ج 1 ص 32).

[البسيط]

ومجلسٍ رائقٍ من فضله سقيتْ أرواحُنـا بـرحيقِ العلمِ والأدبِ
من فيضِ صِنْو أميرِ المؤمنين ومَنْ يسمو السُّها منصباً في أرفع[1] الرتب
حتى رأينا غصون الـروض مائلة وتلثمُ الأَرْض أحيانا من الطرب

وكانت إجازة الشيخ إبراهيم الرياحي هي قوله:

والـوُرْقُ مُفْتَنَّـةُ الأَلْحَـانِ راقصـة والـزهرُ مبتسم عن ثغـره الشنِبِ
لا غرو أَنْ رقصت أرواحنا طرباً وجـر أذيالنـا فخراً على الشُّهُبِ
فإنما نحن عند الطاهر النسب ابن الطاهر النسب ابن الطاهر النسب

وقد زاره الشيخ محمد القرشي في منزله فتلقاه بقوله:

[البسيط]

قد أنعم السيد القُـرْشي بزورتـه فيا فؤادي بـذاك المنظر ابْتَهِـجِ
أَمَـا رأيت بـدورَ العلم طـالعـةً في أُفْقِه بيننا تغني عن السُّـرُجِ

فارتجل الشيخ محمد القرشي إجابته بقوله:

قد بشر القلبَ بالأفراح والفـرج والأمن من سطوة الأتراح والحرج
مهما نظرت محيـا الألمعيِّ أبي إسحق أغنى عن الإصباح والسُّرُج

واتفق أيضاً أن العالم الشيخ محمد بن الفقيه[2] كان إذ ذاك مقيماً ببلاد سلا بمرض الحمى ولم تمكنه زيارة الشيخ إبراهيم برباط الفتح فكتب من سلا يعتذر إليه بقوله:

[الكامل]

اسمـع أبا إسحق قـولي واعـذِرِ فَلِعِلَّةٍ قـد كـان عنـك تـأخُّـري
أَلَـمٌ وعـافـاك الإلـه يُلِمُّ بـي في كـل أسبـوع مـراراً يعتـري
مـا دَأْب مثلي أن يَغِضّ جفونَـه عن مثل سؤددك المُنيفِ الأشهر

(1) في الأصل بأرفع ولا يستقيم به الوزن.
(2) (تعطير النواحي ج 1 ص 32).

عندي إلى لُقْيا الأحبة مثلِكُم ... شوقُ الجديب إلى السحابِ الممطرِ
لا سيَّما من في العلوم مكانكم ... يَهْوَى السماك بلوغَه والمشتري
وإليهمُ علمُ القريضِ قد انتهى ... وأناخَ فيهم بالرحيب الأبهر
أخلاقكمْ تَحكي النسيم لطافة ... ووجودُكم مثل السحاب المسفر
شوقي إليك وإن نأيت مضاعفٌ ... لم يُحْكَ فيه تجلدي وتصبري
مذ راقني درٌّ نظمتَ فريده ... لأجلِّ جيد في الزمان وأفخر
الدر في جيد المليحة حسنه ... يسبي النهى قسراً بأبهج مَنْظَرِ
أَبْرَزْتَ من خدر البيان خريدة ... تختال في حلل البديع الأنور
يُربي على حسن الخرائد حسنُها ... وبهن في كل المحافل تزدري
أخريدةٌ لاحت لنا من خدرها ... في بهجة وتبرُّجٍ وتبخترِ؟
أم روضةٌ مطلولة قد رصِّعت ... بزبرجدٍ من نَوْرِها وبجوهر
من أحمرٍ قان وأبيضَ ناصعٍ ... يَقَقٍ وأصفرَ فاقعٍ ومعصفر
أرواحها تهدي لناشقها شذا ... نِسرينها وبهارِها المتعطر
بل حلة حيكت بأَطْرِزة النهى ... عن فكرة جادت وحسن تدبر
ما خسرواني الدمقس[1] وعصبِه ... ما حوك صنعاء الأنيق وعبقر
جمعت يواقيت الثناء فأَشْرقت ... أنوارها تُغْشِي نواظرَ مبصر
أوصافُ ميمونِ النقيبة سيدٍ ... ورث الخلافة أكْبَراً عن أكبر
قطب المفاخر والمآثر والنَّدى ... ومكارم الأخلاق سامي العنصر
سِبْط الرسول إمامنا العدل الرضا ... عون الضعيف ونصرة المستنصر
أودعتَها سحرَ البلاغةِ كلَّه ... وقلائِدَ العقيان غير مقصر
ما ابن الحسين بمحسن مهما تلح ... كلا ولا ابن نباتةٍ والبحتري
ريحانة الكتاب نفحة رائد الآ ... داب تحفة رائح ومبكر
لله درك من أميرِ براعةٍ ... لَسِنٍ لدى أهل القريض مصدّر
ليث القريض رئيس زمرة أهله ... وزعيمهم مهما القرائح تنبري

---

(1) في الأصل الدمشق.

وإذا بنـاديهـم حللت فـإنـهـم خُـرْسٌ شقـاشقهم وإن لم تَـزْأَرِ
لله تـونـسـك الـتي بـوأتـهـا كم أحـرزت بعلاكمُ من مفخـر
مني عليـك تحيـةً نفـاحـاتُهـا تُـربِي على مسكٍ يَفُـوح وعنبـر
مـا غَـرَّدَتْ قمـريـةٌ في دوحـةٍ وبـدا سنـا ذاك الجبينِ الأزهـر
وتـلا محبُّكمُ المخـلُّ بحقـكمْ اِسمَـعْ أبا إسحق قـولي واعـذِرِ

فأجابه الشيخ إبراهيم الرياحي عن ذلك بقوله:

[الكامل]

روحي فداك من الملمِّ المعتري ولَـوَ انـه يُبتـاع كنتُ المشتـري
وأنا الذي بتخلُّفي أصبحتُ فِـي نـدم فيـا وَيْـلاَه إن لم تَغْفِـر
يا خير من حسد العقودُ قـريضَه فتناثرت منهـا «صحاح الجـوهر»
وأجـلّ من دان القريضُ لـطبعـه وَبنَثْـرِه سَحَـرَ النهى إن يُـنْثَـر
وأرق من ساري النسيم إذا انبرى لـطفاً وأسـوغ من زلال الكـوثـر
أعني الهمام ابنَ الفقيه محمَّـداً شيـخَ الهـداة وقـدوةَ المستبصـر
ومـن العـلومُ بنـقـده وذكـائـه تَزْهُو[1] على الحور الحسان وتزدري
الـدرسُ لا يهوى سـوى تقريـره وسـواه لا تهـوى مـراقي المنبـر
وإذا لثـام الجهل غـطَّى مشكلاً كشف اللثامَ عن الجبينِ المسفر
ببـراعـةٍ من دون نيـل أقلّهـا حربُ البسوس وهولُ يوم المحشر
يا عاذلي في حبـه أَقْصِرْ[2] فمـا أنـا عن هـواه المستلِذِّ بمُقْصِـر
مـا كنت فيه مقلداً غيـر الهـوى فـأطِلْ مـلامك بعـد ذا أَوْ قصِّر
إن كنْتَ تسمع ما سمعت فإنَّني من حسنه أبصرتُ مـا لم تُبْصِر
تسليـك منـه فكـاهـة فكـأنَّهـا راحُ بـراحـةِ أَغْيـدٍ متبختـر
ليس الغـريب بأنْسـه في غـربـة بل مَنْ برؤية وجهه لم يَـظْفَر[3]

---

(1) في الأصل: تزهى.
(2) في الديوان: قصِّر.
(3) في الأصل يضفر بالضاد.

حيا معاهدَ أُنْسِه برقُ الحيا ... وسقى «سلا» صوبُ الأغرِّ الممطر
بلدٌ به سطعت لوامعُ نوره ... فغدا بوجهٍ ضاحكٍ مستبشر
لا زال منه الغربُ مَشْرق شمسه ... و«سلا» به أبهى وأبهج منظر
وعليه من محض الوداد تحية ... أَذْكى من المِسْكِ الفتيقِ وعنبر
ما قال ذو وَجْدٍ بحبك داعياً ... روحي فداك من المُلِمِّ المعتري

ومن متعلقات تعلّق أعيان المغرب به وحسن العلاقة التي ثبتت له معهم بسبب تلك السفارة المسفرة عن غرر آدابه أنه في أوائل سنة إحدى وأربعين قدم الشيخ محمد العربي الدمناتي[1] أحد كتبة الإنشاء بحاضرة فاس إلى حاضرة تونس مجتازاً لحج بيت الله الحرام غير أنّه لم يلاقِ مراده من الشيخ إبراهيم الرياحي بتونس، ولذلك كتب إليه مكتوب عتاب بناه على سبعة أسباب وهذا نصه:

[الطويل]

ولما أبيتمْ أن تزوروا وقلتُمُ ... ضعفنا فلم نقدرْ على الوَخَدان
أتيناكمُ من بُعْد أرض نزوركم ... وكمْ منزلٍ بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قِرى لنَزِيلكُم ... بملء جفون لا بملء جفان؟

السيد الذي لساني مرتهن حمده، وجفاني مستودع وده، سيدي إبراهيم الرياحي. بعد إهداء السلام، وأداء ما يجب لكم من الإعظام، فأقسم بمن فضلك على أبناء جنسك، وجعل يومك في الفضل مربئاً على أمسك؛ ما من يوم إلّا ولي فيه لعلاك ذكر، وحمد وشكر، وهم بلقائك وفكر، لما شرفت به من خلالكم، وبديع كمالكم، وكنتُ أبقاك الله لاغتباطي بولائك، وسروري بلقائك، أود أن أطوي لك المرحلة، وأجدد العهد بملاقاتك المؤلمة. ولم يكن همي مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، ومساعدة الأيّام والليال، إذا الشمل جميع، والزمن كله ربيع، والدهر مطيع سميع، إلا زيارتكم وأن أرى الأفق الذي طلعت فيه

(1) محمد العربي الدمناتي ذكر ما دار بينه وبين الشيخ في (تعطير النواحي ج 1 ص 97).

أنجم الهداية، وكانت إليه العودة ومنه البداية. فلما حم الواقع وحسنت منه المواقع، حجبتم بروقكم، ومنعتم عنه صبوحكم وغبوقكم.

[الوافر]

يـريـد المـرء أن يؤتـى منـاه ويـأبـى الله إلا مـا يـشـاء

وقد كنت على البعد ظمآناً لهذه الموارد، فها أنا الآن في جواركم رائد. فكيف انصرف انصراف الظمآن شارف العذب الزلال فلم يشرب، أو المحب نوى ساعة اللقاء فما أبان ولا أعرب. وقد كنت زمن تجمعني وإياكم الحضرة السلطانية على معرفتك متهالكاً، ونهج الإخاء سالكاً، لما يلوح على محياك من سيماء المجد والحيا، والشيم الدالة على العليا، والمحبة رعاكم الله لا تتوقف على طول مشاهدة طرف، ولا مباشرة حسن ولا ظرف. وفضلكم يأبى أن يقابل هذه الحجة بصرف، أو يُعْبد من إنكارها على حرف، وهي وإن كانت دعوى فلها إسناد، إلى قوله «الأرواح أجناد». وطالما قبض محبكم العنان، وزجر البنان، وأمل اللقاء وحوم، وعرج على طالب الصبر ويمم، ولم يجد إلا الصعيد فتيمم، فأصدرت هذه متوسلة بوسيلة الحب الصحيح، والتعريض إلى التصريح، قائلة: زيارة سيدي الشيخ أبقاه الله محط الآمال وقبلة الوجوه[1]. وبلغه ما يؤمله من فضله ويرجوه تَجِبُ من وجوه.

أولُها: أنك شيخ البلد، ومفتي الفئة التي أَنِسَتْ ببرورها الأهل والولد.

[**الطويل**]

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن ضيوفهم تـلام بنسيـان الأحبـة والـوطن

ثانيها: كوني ضيفاً، وممن لا يعد عند الاختبار زيفاً، ولا تجر مؤانسته حيفاً، فضلاً عن أن تشرع رمحاً أو تسل سيفاً.

ثالثها: رعاية الرحم بالصلة، التي هي لكل خير موصلة، وقاعدةُ الفضل قد قررها الحق وأصلها، والرحم كما علمتم تدعو لمن واصلها.

---

(1) في الأصل وقبته الوجوه.

رابعها: أن الاهتزاز للضيف يقتضيه القدر السمي، والخلق العِلْمي. وفضل متواتر نقله، عمن رضي دينه وعقله.

خامسها: أن اسمك الأسمى يقتضي الإكرام، ووصفك كفيل بنيل المرام.

سادسها: البدء في هذا الغرض[1]، وإن كانت الواو لا ترتب إلاّ بالعَرض، هو المشاركة في محبة المولى المرحوم، فلقد كنت منه كالولد البار، كما كان له بكم غاية الاحتفال والاعتبار.

سابعها: أن شأني ظريف، ومزاري خفيف، لا خبز ولا سديف، ولا عسل ولا رغيف، ولا قهر ولا صليف، إنما[2] هو أنس يبذل، ونفس في التقابض تعدل، ومذاكرة تهز دوحها، وتنشق روحها، أما القرى فقد كفى سيدنا الشيخ مؤونته الثقيلة، ولم يحوج لتشويش العقل واستخدام الفعيلة، فليت شعري ما الذي عارض هذه الأصول، ومنع السيد من الوصول، وما دليله في المحصول، اللّهم إلا أن يقول عمل أهل المدينة ينافيها، فهذا ربما يقنع النفس ولا يكفيها، على أن جل البلد منحسم الأمل، لا يرى مذهب العمل، أو يقول إني مشغول، وفي حبالة المطالعة موغول، قلنا فهلا جعلنا مولانا من جملة أشغاله، ومنح العبيد بنزر من نواله، وهلا إذ لم يتفضل سيدنا بالقدوم، أذن لنا في زيارة مقامه المخدوم، ولم يعتمد عذراً يقتضيه الكرم، والمنصب المحترم، فلم تزل ـ رعاك الله ـ الأفاضل إلى التماس البر ذات اشتياق، والعرف بين الله والناس باق، والغَيْرَةُ على المنصب مفروضة، والأعمال معروضة، والله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة. وكثيراً ما كنت أسأل عن زيارتكم لنا فأجمل المفسر، وألم بالكذب بما تيسر، وربما طرق من الاستحيا، واعتذر على ما بي من الإعيا، ولما ضاق مني العطن، وحان أوان الرجوع إلى الوطن، بثثت اعتقادي[3]، ونفثت في عقد ودادي، فإن قُضِي اللقاءُ حصل الكمال، واستوفيت

(1) في الأصل البدأ بالهمزة على الألف.

(2) في الأصل إنها عوض إنما.

(3) في الأصل بثيت اعتقادي.

الآمال، وتظافرت النيات والأعمال، وارتفع من سوء القصد الإهمال، وساجة نفس قُضِيتْ، وأحكام آمال ارتضِيتْ، وإن اتصل الفراق فعين على القذاء أغضيت، ومناصل ما وصل انتضيت، وبكل حال فالثناء جميل، وإن لم يقض من برك تأميل، وشكري لشكر الخلق فيك تبع، وإن لم يقع في جوارك ريٌّ ولا شبع، ولا تؤاخذ فالقصور باد إذا تؤمل، والإغضاء أول ما أمل، فإنما هي فكرة أخمدتْ نارَها الأيامُ، وغيرت آثارها من البين سهامُ، وما ألممت به إنما هو دعابة تخف على أهل النبل، ومن يسلك من السفر أوضح سبل، والله يمتع بعد بلقائك أمين، والسلام. متمم صفر عام 1241.

[الكامل]

إن العتاب صقالُ كل مودَّةٍ صديَت ومَغمدُ كل حقدٍ مُصْلَت
وهو المسيحُ يميتُ كل مخيلةٍ حَيِيَتْ ويُحْيِي كل ودٍّ مَيّتِ

وقد أجابه الشيخ إبراهيم الرياحي عن ذلك بما نصه:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهو الله في السماء وفي الأرض، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين، إلى يوم الدين.

[الطويل]

عجبت وهل ذا الدهر إلاَّ عجائبٌ لمن قال ذا عتْبٌ بحسن بيانِ
أتيناكمُ من بعد أرض نزوركم وكم منزلٍ بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لنزيلكم بملء جُفُونٍ لا بملء جِفان
أتأتوننا قصد الزيارة ثُمَّ لا توافوننا من بعد نيل تدان
وتَغْنَوْن بالإرْسَالِ عن وصل حِبِّكم وقد صار منك الوَصْلُ طوعَ بنان
لقد جلّ هذا الحب حتى كَأَنَّه سرابٌ تراءى لامعاً لعِيان
وساءلتمُ ملْءَ الجُفُونِ قِراكمُ أشرتم إلى بُخْلٍ بملء أوان

بعيشك ما صد الجفونَ عن القرى وما احتجبت في لقياه للوخـدان
وقد لاح لي في شرح ذاك ضمائر أُنَـزِّهُ عـن إعـرابهـن لـسـانـي

كتابك أيها السيد الذي بذَّ الأقران، وأَذْكَر بإحسان بيانه بيانَ حسَّان، لعلّه مجرد إبراز لإبريز البلاغة، ومحض حسن تخيل ببنان البيان صاغه، وإهمال المراقبة لأمر العاقبة أساغه، تبغي بنفثاته البابلية قلب الحقائق العقلية والنقلية، وإلاّ فكيف يسوغ في معقول أو منقول، قرب الحبيب وما إليه وصول، والقناعة عن ملء الجفون برسول بعدما ادعيتم من معاناة البعد البعيد، ومكابدة الشوق الطويل المديد، وقد قال القرب «هذا ما لدي عتيد»، أوْ أن حبكم مبني على غير أساس، أوْ لم يُعَذْ من شر الجِنّة والناس، فابتلي عَقْدُه بالفسخ، وقبل التبليغ وقع النسخ، ثم إنك لم تأل جهداً في السباب، وأتيت من فنونه بالعجب العجاب، ورمت ترويجه على أولي الألباب، باسم الدعابة والعتاب، وهل تخفى الشمس ليس دونها حجاب. فكنتم كهادم محل سكناه، أو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، ولو كان القلب ما زال تستفزه البروق، وصهباء الشباب بمزاج السرور تروق، لجريت معك في هذا الميدان، خليع العذار طلق العنان، وأثبت متشابه كتابك بأتم بيان، ولكن. -

[الطويل]

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعـري أفـراس الصبـا ورواحله

والله سبحانه يقابل جميعنا بالعفو، ويسامحنا فيما ارتكبناه من اللغو. والسلام.» ا هـ.

أما رجوع الشيخ إبراهيم الرياحي من سفارته، فقد شاد له أعلى المفاخر في ذاته وإدارته. إذ حسن موقع حُسْنِ مساعيه لدى الأمير والمأمور، وعد ذلك من السعي المشكور، وأضاف الشيخ بذلك لنفسه مفاخر[1]، عاد بها بحر حسن ذكره في أهل العلم زاخراً.

(1) في الأصل مفاخراً.

ولما عُزِل أُستاذُه الشيخُ عمرُ المحجوب من خططه استدعاه الأمير حمودة باشا لخطة قضاء الحضرة وأكرهه عليها بعد شدة امتناعه، فقبل الخطة ووليها صبيحة يوم السبت منسلخَ صفر الخير سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف وقبل التهنئة من الخاصة والعامة وقد سأله الشيخ أحمد بن الخوجة القاضي الحنفي يومئذ عما أعده من الكتب للخطة فقال له: أعددت كتاب ابن رحال[1] فعجب منه حيث أن ابن رحال له شرح على المختصر الخليلي، وهو يسأله عن كتب النوازل التي جرى العمل بما فيها بين القضاة بحاضرة تونس. لكن من الغد كشف الغيب على أن الشيخ خرج إلى زاوية تلميذه الشيخ محمد بن ملوكة[2] خارج باب القرجاني فبات بها وأصبح مرتحلاً إلى زغوان ونزل بزاوية الشيخ سيدي علي عزوز[3] ـ رضي الله عنه ـ فراراً من الخطة. فلم يكن اعتماده إلا على ابن رحال وأقام بزغوان إلى أن أولى الأمير الشيخ إسماعيل التميمي قاضياً بالحضرة فعاد عند ذلك إلى الحاضرة وثبت على طريقته في بث العلم، وانتفع خلق كثير بما أقرأه من الكتب. وعند وفاة أُستاذه الشيخ محمد الفاسي تقدم عوضه للتدريس بجامع يوسف صاحب الطابع مع مشيخة مدرسته، وأقام درسي تفسير القاضي البيضاوي وصحيح البخاري، وحضرهما كثير من علماء تلامذته. ولما قدم إلى حاضرة تونس الشيخ الطاهر بن عبد الصادق أحد تلامذة الشيخ أحمد التجاني سنة ثمان وثلاثين استصحب معه الشيخ إبراهيم الرياحي في رجوعه، فسافر صحبته إلى تماسين [4] للاجتماع بالخليفة في الطريقة التجانية، الشيخ الحاج علي التماسيني ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. فزار في طريقه مدينة

---

(1) كتاب ابن رحال كنى به الشيخ عن كونه ينوي الرحيل. وكتاب ابن رحال الشهير هو شرحه على المختصر، وابن رحال هو أبو الحسن علي بن رحال المعداني (ـ 1140) (شجرة النور ج 1 ص 334).

(2) محمد بن ملوكة هو الشيخ محمد بن صالح بن ملوكة (ـ 1276). شجرة النور (ج 1 ص 390)، وزاوية ابن ملوكة بباب القرجاني.

(3) الشيخ سيدي علي عزوز رحمه الله (ـ 1122)، ترجمته في مصادر مختلفة منها (ذيل البشائر ص 287).

(4) تماسين من بلاد الجزائر.

القيروان وقطع الصحراء، ووصل إلى تماسين، واجتمع بالخليفة وطلب منه مداواة أمراض النفس الباطنية فنال منه الدواء الناجع، والسر النافع، ورجع محصلاً على المراد، من حسن الإمداد، وخرج لحج بيت الله الحرام يوم السبت الثاني عشر من جمادى الثانية سنة إحدى وأربعين وامتحن في طريقه بفرقة من الإغريق اعترضوا المركب الذي ركبه الشيخ واستأسروا المركب وقادوه معهم فأخذ الشيخ يذكر «سيجعل الله بعد عسر يسرا»، «فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا» فتداركهم الله برحمة من عنده، ونجاهم بسبب ريح عاصف فرق ما بين المركبين، وحال بينهما الموج. وفي عشية الواقعة على الشيخ ظهر على أُستاذه الشيخ البشير حال عظيم منع به الداخلين عليه وصرّح في آخر أمره بالتأسف على ابن تربيته، حتى ظن الحاضرون وفاته وكادوا أن ييأسوا من قدومه وانجلى الغيب عن الواقعة المذكورة ولما قضى نسكه رجع إلى حاضرة تونس ثاني عيد الفطر سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف واتخذ العلماء مقدمه عيداً وهنأه تلميذه الوزير المؤرخ الشيخ أحمد بن أبي الضياف بقصيدة من مبادي شعره، وهي قوله:

[الطويل]

قَدِمْتَ وتُفدى بالنفوس مع الأَهْلِ ... كما جاء درُّ الغيث في الزمنِ المحْل
وإلا كما جاء المراد لطالب ... وإلاَّ كسيف الجِدِّ في منهج الهزل
وإلاّ كما بانت وجوهُ بشائرٍ ... تُخَلِّصُ غرقي في بحارٍ من الوحلِ
وإلا كصبح الوصل أشرق نورُه ... فأذهبَ ليلا قد تبدى من العزل
بعدنا عن التشبيه جهلاً وإنما ... لرؤية إبراهيمَ فضلٌ على الكل
فكيف ودر العلم قد جاءَ بحرُه ... وهل لمجيء البحر تُبْصِرُ من مثل؟
ففي حادث الأيام بعد أوانه ... فكيف أرى الأيام في غاية البُخل
سرى ذكره كالنَّيِّرَيْن معطراً ... وعمّ جميع الناس طُرًّا بلا مَهْل
وسار لبيت الله والعزُّ مُتْبَعٌ ... وشدد بالتقوى شديدَ ذُرى النزل
فحصَّل من تلك البقاع مغانماً ... مفاتيح فتح لا تُرام ولا تُمْلي
وجاد على الأقطار من وبل علمه ... فأينع غصن العلم من ذلك الوبْل

وقد شرف الأمحار[1] أخمص رجله ... ولله من عـز حوتـه من الرِّجْـلِ
وخَلَّف من زهـر الثنـاء منـاسمـاً ... يفوح شذاها في رياضٍ من القول
وآب كمـا آب الـزمـان لأهله ... وقد زادَ بالأضعاف فضلا على فضل
فكـان لنـا عيـدانِ عيـدُ قـدومـه ... وَعيدٌ لختم الصوم فأعجب لذا الشمل
فهـذا إمام الـدين أقْبَـل غـانمـاً ... ليهتز بالأفراح مَنْ كان ذَا عقـل
ولـو نظرتْ عينـاك يـوم قـدومِـه ... رأيتَ ثُغورَ الأرض تَبْسِمُ بالفعل
ألا أيهـا المولَى الـذي حسناتـه ... تزيد على الأمواج والقطر والرمل
هنيئـاً لجنـد العلم أقبَـل نصـرُه ... وبشِّرْ جُنُودَ الجَهْل بالطعن والقتل
بقيت على رغْمِ الحسودِ معظَّماً ... وطيبُ شذا علياك أَحْلَى من الوَصْلِ
ولاقـاك كل اليمن والخيـر حيثما ... قدمت وتفدى بالنفوس مع الأهل

ولما توفي أُستاذه رئيس أهل الشورى من المفاتي المالكية الشيخ إسماعيل التميمي طلبه الأمير حسين باشا باي قدس الله روحه، فأحضره ببارد، وأراد أنْ يقلده الرئاسة المذكورة ابتداءً ليزين الخطة الشرعية بعلمه وعمله، فامتنع من ذلك كل الامتناع، إلى أن قامت عليه شهادة في تعين الخطة عليه، وذلك أن الأمير لما أعياه أمره، وجه لمراودته لسان دولته وكاتب سره، فخاطبه لسان الدولة الشيخ محمد الأصرم بقوله: إن الخطة متعينة عليك، فكيف يسوغ لك عدم قبولها، فقال له الشيخ: ومن يشهد معك بتعين الخطة عليَّ؟ فشهد بذلك كاتب السر الشيخ أحمد بن أبي الضياف فقال الأمير: هل قبلت شهادتهما؟ فقال له: نعم، وعند ذلك قبل الخطة المذكورة، ولبس رداءها. وعند خروجه من مجلس الأمير ألقى على الأرض الكابة السوداء من أعلى كتفيه، لما فيها من الحرير. وكان ذلك أواخر جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف.

وتقدم بذلك على المفتي الثاني الشيخ محمد المحجوب، والمفتي الثالث الشيخ الشاذلي بن المؤدب، وقاضي الحضرة الشيخ محمد البحري، وقاضي

(1) الأمحار لعلّه الأمجاد.

باردو المولى الجد الشيخ محمد السنوسي. ولم يتغير واحد منهم لتقدمه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

وقد هَنَّأَهُ بالخطة المذكورة تلميذه الشيخ محمد بن سلامة بقوله:

[الكامل]

يا سعد لِمْ قد طال فيك الموعد ... ووثيق عهدك دائما يتجددُ

كم عَلَّلَتْني مِنْ عهودك نسمةٌ ... إن صادفت مني الرجا يتوقَّد

عهدي بأن الدهر قد باع الكرى ... وله غداً ثمن المبيع الإثمد

كيف التخلص من خوادع مَكْرِه ... وبلوغك الآمال فيمن تسعد

بشرى بَنِي هذا الزمان بمنةٍ ... شأن الزمان بمثلها لا يُنجد

شتان بين صنيعه فيما نرى ... ووقوع أمرٍ مثلُهُ مستبعد

ما كنت أحسب قبله حتى بدا ... أنَّ الجفون من الليالي ترقُد

فكأنه غض الجفون بمهجة ... من بعد ما قال طال منه تسهُّد

فزهت من الإنصاف وُرْق ذوي العلا ... وصفا من الأكدار شُربٌ يورَدُ

ولقي[1] البرية ما لقت من غرة ... من ذي الولاية أنعم لا تُجْحَدُ

مذ قيل قد لبس الرئاسةَ فاضلٌ ... جيد العلوم بفضله متقلد

وازداد في معنى الفتاوى مُذ غدت ... تاجاً على هام الجلالة يُعقد

يكفي المناصبَ عزةً في نيلها ... أنْ كُفْؤها دنْيا ودِيناً أوحدُ

أعني أبا إسحق مَنْ بذلت له ... مهر المعارف عكس ما قد يعهد

فسواه يلفي في الولاية رفعة ... وبه الولاية عزها يتأكَّد

خَطَبَتْه عَذْرَا خِطْبَة من نفسها ... علمت بأنه كفؤها المتفرد

فلها الهناء وقد غدا في أُفقها ... شمساً لها غضَّ الجفونَ الأرمدُ

وَهبتْ إليه المكرماتُ طريفَها ... وتليدَها وقْفاً عليه يؤبَّد

دنيا العلوم وعالم الدنيا ومن ... سندُ العلوم إليه وهو المسند[2]

---

(1) هكذا في الأصل لقي بفتح القاف والصواب لقي بكسر القاف لأنه من باب علم.

(2) في الأصل: مسند.

أضحى بسلك العلم وُسْطى عِقده ... وبــه بــدا علمُ السلوك ينضَّــدُ
معنى البيـان بيـان معنى فقهــه ... وأصــولــه ركـن إليــه مشيَّــد
شيخ الطريقـة والحقيقة والهُـدى ... بحرُ المعارف والمعـالي المزبِـدُ
ما جال في حرب العويصة فكرُه ... إلّا بــه جيش العــويص يبــدد
أَوَ مــا تشرَّدَ نــافــرٌ إلا غــدا ... وجميعُــهُ رهْنٌ لــديــه مقيَّــد
الفاضلُ النحرير من داعي الهدى ... بـرشـاده إن جـاز عني مـرشــد
فـاسعدْ بـه يا دهـر إنّـك عبـده ... واشـرُف به يـا سعدُ إنَّـك سيد
واعلم بـأنـك يـا كمـال هـلالـه ... بــدر اهتـداء نــزلــه لا يقعــد
مـا الفخر إلا مـا اكتسبت وإنما ... دُرَجُ المعالي بـعدكم لا تُصعـد
خذها كوجه الأفق وشّـاه الدجى ... وبهــامِـهِ عِقــدُ النجـوم منضَّــد
فكــأنمـا تلك الســطور مجــرَّةٌ ... وكـأن ذاك النقْطَ منهـا الـفـرقـد
وإذا رفيـعُ الشِّعْرِ بـاهى شعرَهـا ... فلهـا بمدحـك مدحـة لا توجـد
فســواك يعلو بـالقــريض ثنـاؤُه ... وبــك القـريض ثنــاؤه يتــأيَّــد
وإذا مــددتَ لهـا اليمين تحيــةً ... ورضيتهـا فهـو المنى والمقصــد
فابذل لهـا مَهَرَ القبـول ودم لها ... فبقــاك للمـوجــود عيشٌ أرغــد
وانحـل أباهـا دعوة من نحـوكم ... فبهـا على رغم الليـالي يسعــد

وقد قام بخطة رئاسة الفتوى، وزانها بالعلم والتقوى، وكتب في الفتاوى كتائب محفوظة بين أهل العلم، منها رسالة ألّفها أواخر سنة خمس وستين في الإعذار، رفع فيها الستار، وكشف النقاب عن دقائق الأنظار. ولذلك قرظها شيخ الإسلام الشيخ محمد بيرم الثالث بقوله:

[الكامل]

نُسِخَتْ بحكمـة حكمها الأنـظارُ ... رُفِـعَ النـزاع وحُقـقَّ الإعــذار
وخــزائن التحقيق مهمــا فُتِّحَتْ ... بــرزت لهـا من طيهــا الأنــوار
ما كنت أحسب قبل ذوق زلالها ... أنّ الـنهـى تبـدو بـهـا أقمــار
حكم الضميـر بـأنَّ نـاظم دُرِّهـا ... عُــدمتْ لـه الأشبــاه والأنــظار

لو ساغ إخراج الضمير لنسخة ... من حكمه ظهرت بها الآثار
لكننا في غنية عن ذاك إذ ... مطلوبنا فازت به الأنصار
فهو الإمام وكل فحل دونه ... علم الهدى للناس منه فخار
وهو الكبير يود كل موفق ... ختمت بنور علومه الأعصار

وَقرَّظها تلميذُه المفتي الثالث يومئذ الشيخ محمد بيرم الرابع بقوله:

[الكامل]

خضعت لعزَّةِ قَدْرِها الأَقْدَارُ ... وتضاءلت لسموها الأقمار
وبدت على هام العلا تاجاً له ... درر أجادت نظمها الأفكار
حسناء حسب ذوي النهى أن ينصتوا ... لحديثها الإذعان والإقرار
لكن وإن وصفت بكل فضيلة ... فوليها عُدِمَتْ له الأَنْظار
هو ذلك العلمُ الذي ركب العلا ... وله على صهواتها استقرار
جبل العلوم وبحرها ومنارها ... وزعيمها وسحابُها المدرار
يا من يجل عن[1] المدائح قدره ... ولَوَ أَنَّهَا درر غلت ونُضار
أَبَتِ المَعَالي أن ترى لك ثانياً ... وتكفلت بمرادها الأقدار
فلذاك لُحْتَ وأنت مفرد أُفقها ... ومنيرها الأعلى ولا إنكار
لا زال فكرك مبدياً لجواهرٍ ... في نيلها تتنافس الأحرار

ومن رسائله تحريره لمسألة إراقة خمر المسلم وتعقب الخلاف الذي وقع في تفصيل الحكم بالنظر لتطهيرها بالتخليل[2] ونحوه مما استدركه الشيخ أبو مهدي عيسى الغبريني على الشيخ الشبيبي - رضي الله عنهم -.

---

(1) في الأصل: على.

(2) مسألة طهارة الخمر إذا تخلل أفتى فيها الشيخ علي الأجهوري وإلى ذلك أشار الشيخ محمد السنوسي في نظمه (لقط الدرر).

وانظر فتاوى العالم الأجهوري ... عالم مصر الفاضل المشهور
في الخمر أن ثوباً أصابته فجف ... فاحكم عليه بطهارة تحف
إذ موجب التنجيس في الخمر انسلب ... من نشوة زالت كما زال الطرب

(لقط الدرر ص 263).

وله رسالة في تمكين من امتثل دفع بعض دين عليه وادعى في باقيه لدى قاضٍ مالكي من المطلوبية والتنقل بالنازلة إلى قاضٍ حنفي.

ورسالة في إثبات حق الحضانة للحاضنة ولو التزم الولي بالنفقة من مال نفسه.

ورسالة أجاب بها الشيخ محمد المسعودي قاضي رأس الجبل عن مسألة من اسْتُدْعِيَ للحلف على المصحف فقال: ائتوني به وأنا أعفس عليه بساقي وأنه لا تلزمه الردة، حيث إن مراده أنه حالف على الحق.

ومسألة مجاعلة وكيل الخصام بأجر معين على إتمام النازلة، وبسط في المسألتين بسطاً شافياً.

ورسالة في المَأْجَل المشترك.

وله أجوبة أسئلة كثيرة. منها:

جواب في شفعة شريك ادعى شريكه وقوع القسمة.
وجواب في الفرق بين الحمار الأهلي والحمار الوحشي.
وجواب في سطح الجامع وبيان ما يخالف فيه الجامع وما له حكمه.
وجواب فيمن نسي تكبيرات العيد ولم يأت إلا بتكبيرة الإحرام.

وجواب أجاب به الأمير حسين باي في جواز معاوضة العقار بالدرهم وجواز تحويل أبواب المساجد لمراعاة مصلحة.

وله أجوبة مسائل وردت إليه من غدامس، ومسائل وردت إليه من نواحي سوف[1]، ومسائل أجاب بها قاضي الحضرة الشيخ محمد بن سلامة، ومسائل أجاب بها كثيراً من قضاة المملكة وغيرهم من أفراد السائلين بحيث أن مجموعها يعد من عزيز الفتاوى وهو ـ رضي الله عنه ـ يميل في كتائبه للاختصار وتحرير ما به الحاجة في المسألة.

---

(1) غدامس من القطر الليبي، وسوف من القطر الجزائري.

ولما شاعت فتنة الوهابي، ووردت رسالته إلى الحاضرة، كتب هو رسالة في الرد عليه حيث يقول بمنع زيارة الأولياء، وهدم المشاهد والزوايا، وتحريم ذبائحها إلى غير ذلك مما فتن به العباد. ولحسن هذه الرسالة في الرد عليه قرظها شيخ الإسلام البيرمي الثالث بقوله:

[الكامل]

روض العلوم تدفقت أنهارُهُ ... وتفتقت بعبيرها أزهارهُ
لرسالة فاقت على نظرائها ... ما فاق عن زهر السما أقماره
وانجاب عن وجه الصواب بما حوت ... من حسن تحقيقاتها أستاره
لِمَ لا ومُنْشِئها أبو إسحاق مَنْ ... بين الأفاضل لا يشق غباره
ذاك الذي قد جد في طلب العلا ... حتى علا بين الملا مقداره
فغدا وتحقيق العلوم شعاره ... وبدا وحل المشكلات دثاره
وبذاك تحريراته قد أنبأت ... والحَبْر من شهدت له آثاره
لا زال في أوج المعالي راقياً ... ما انجاب عن ليل الشكوك نهاره

ولما وردت رسالة عالم مصر وصالحِها الشيخ محمد النميلي[1] التونسي الأصل التي سماها «الصوارم والأسنة»[2] ردّ بها على الشيخ أحمد التجاني في بعض كتائبه في صفة الكلام من علم التوحيد انتصر الشيخ إبراهيم إلى أُستاذه، وكتب رسالة في ذلك سماها «المِبْرَدَ». لكن لما بلغت رسالة «المبرد» إلى الشيخ النميلي كتب في الرد عليها نحو خمسة وأربعين كراساً في علم الكلام. غير أني لم أقف على كتابة واحد من الشيوخ الثلاثة في المسألة. وعهدي بأحد محققي شيوخنا ـ رضي الله عنهم ـ قرر لنا طرفاً من كلامهم في مدلول القرآن ومدلول صفة الكلام في درس العقائد النسفية. وغاية ما يمكن لي أن أقولَه الآن في أمثالهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ : إن كل واحد منهم إنما يتبع الحق،

(1) هكذا بالأصل وفي تعطير النواحي الميلي.

(2) الرسالة التي رد بها الشيخ إبراهيم الرياحي على رسالة الميلي المصري المسماة (مبرد الصوارم والأسنة في الرد على من أخرج الشيخ التجاني عن دائرة أهل السنة) نشرها حفيده في تعطير النواحي (ج 1 من ص 36 إلى ص 60).

ويقصد تأييد مذهب أهل السنة على حسب ما يراه مما قامت عليه الأدلة عنده، سيما ومشرب الشيخ التجاني ـ رضي الله عنه ـ باطني، على أن كل العلماء راد ومردود عليه إلا صاحب القبر الشريف عليه الصلاة والسلام.

وقد بلغني أن الشيخ إبراهيم لما خرج إلى حجته الأخيرة، واجتاز على مصر، أقام بها نحو خمسة عشر يوماً يطلب الاجتماع بالشيخ النميلي، كما هو شأن أمثالهما ـ رضي الله عنهما ـ ولما اطلع شيخ الإسلام البيرمي الثالث على رسالة «المبرد» كتب عليها مقرظاً بقوله:

[الطويل]

أَزَهْـر تبدى نـافحـاً من كمـائمِ ... أَمِ الدُّرُّ منظومـاً بنحر النـواعمِ
تيقـنت لا هــذا ولا ذا وإنـمــا ... جـواهرُ علم صـاغها فكـرُ عالم
وذاك أبو إسحاق من عز أن يرى ... ضَرِيبٌ له في العُرْب أو في الأعاجم
إمـام غَدَا التحقيقُ طـوعَ ذكائـه ... يُعَـدُّ إلى ذاك الذكـا من لـوازم
وناهيك مـا أبداه في هـذه التي ... غدت في يمين للعلا فَصَّ خاتم
أتت بـالتي لا مثلها من عجيبـة ... تقـاصر عن إدراكهـا كـل فـاهم
وأبدت من التحقيق ما جاء ناسخاً ... لليلٍ عريقٍ في الجهـالة فـاحم
فلا زال يأتي من جـواهرِ لفـظه ... ببـرهـان قـطع للتشكـك حـاسم
ينـظِّم منه الـدر تـاجـاً ويـزدهي ... ويغشى محيـاه طـلاقـة بـاسم

وله رسالة «دفع اللجاج في نازلة ابن الحاج» ألّفها حين خالفه قاضي الحضرة الشيخ محمد البحري في النازلة، ومع ذلك فإن الأمير مصطفى باشا رفع الخلاف بين الشيخين وأذن بالعمل بما رآه الشيخ القاضي، وقرظ الرسالة المذكورة ولده الشيخ علي الرياحي بقوله:

[الطويل]

قطعت لَجاج الحيف ميلاً إلى الحقِّ ... فأصبح نور الشرع متضح الطُّرْقِ
وقُمْتَ فَبَيَّنْتَ الصـواب فـأنكـروا ... ومالوا إلى الأهواء في واضح الحق
أَينكـرُ ضوء البـدر عنـد كمـالـه ... ويُجْحَدُ نور الشمس لو لاح بالأُفق؟

فلا زلت في الدنيا مؤيَّد شرعنا وجوزيت يوم الفصل بالمقْعَد الصدق
بجـاه رسـول الله خِيـرةِ رُسْله عليه صلاة الله ما دمت في الخلق

وقد تفاقم الخلاف في النازلة بين الشيخين وكثر فيها القيل والقال واختلف فيها ميل الناس حتى أنشد فيها المولى الجد الشيخ مَحمد السنوسي قاضي باردو يومئذ من شعره قوله:

[الوافر]

إذا اختلفتْ على البحر الرياحُ فلا يُرجى لراكبه نجاحُ
وساء لمن توسط بين هذا وهذا من مهالكه صباحُ
فللغرق المآل إذا تدانى وفي استعلائه كسر يُتاح
وكان الخيرُ في وسط يرجَّى وهذا في توسطه نِياح
وقد حُجِبَ الخصومُ عن التلاقي فلا فصل يكون ولا اصطلاح
ولا المحجوب يسلَمُ عند هذا فكان له من الغَرَقِ الفلاح
ولا جريُ الرياح لها سكون نُرجَّاه فيرتفع الجناح
ولا هول البحور له خمود به يرجى لعابره رواح

وحيث إن الشيخ محمد البحري من تلامذة الشيخ إبراهيم لم يرض منه تلك المخالفة التي أفضت إلى هدم سياج الاحترام، سيما وقد انتصر عليه بالأمير حتى أفضى الحال بالشيخ إلى الاستعفاء من خطته غير أن الأمير لم يقبل استعفاءه، ومكتوبُه الذي عرض به استعفاءه هذا نصه:

«المنة لله الذي اصطفى، لنصر الدين وإعزاز الملك سيدَنا مصطفى، ووصل به رَحِمَ الشريعة بعد القطعية والجفا، فها هو في رفع قواعدها كالساعي بين المروة والصفا، لا زالت موارد أعدائه في كدر وموارده في صفا.

أما بعدَ تقبيل يد القدر العلي، بشفاه الإجلال الصفي، والحب الوفي، فإن مُعَظِّم قدركم لم يطلب الإقالة إلا لما عيل صبري، وضاق ذرعاً أمري، فإني منذ توليتها وأنا حزين الفؤاد حتى وهن العظم مني، واشتد ضعف الكبر في سني، وهذا القدر كاف، في تفضلكم علي بالإسعاف، كيف وقد انضم إلى

ذلك ما لا صبر لأحد عليه وهو مواجهتنا على رؤوس الأشهاد، بإساءة الأدب في ذلك الناد، ممن كنا نُلَقِّمُه ثديَ التعليم، ويرعانا بعين الإجلال والتعظيم، ثم إنه لم يقنع بسنان لسانه، حتى شرع إلينا رمح بنانه، فهل بعد هذا التعدي من إذلال، وماذا بعد الحق إلّا الضلال؟ فإذا تفضل علينا سيدنا دامت معاليه، وسعدت أيامه ولياليه، برفع اليد عن رضا منه، فقد اطلع في شأننا على الكُنْه، ومَنَّ علينا بالعتاق، بعد شدة الوثاق، وإن رضي بالأخرى وأنا كاره، فرضاه جنّة الدنيا وحفت الجنة بالمكاره، والدعاء ببلوغ المرام، ختام الكلام والسلام».

وبعد أن انتهت النازلة على وفق مراد قاضي الحضرة الشيخ البحري طلب منه المسامحة حفظاً لحق المشيخة غير أن الشيخ إبراهيم لم يسمح له بالعفو، حتى أنه لما خرج للحج بالنيابة عن الأمير مصطفى باشا عرض شكايته به على الحضرة النبوية عليها من الله أفضل الصلاة وأزكى التحية، وقد ضمن تشكيه في القصيدة التي أنشدها في الروضة الشريفة وهي قوله:

[الطويل]

إليك رسولَ الله جئت من البعدِ ... أبثك ما بالقلب من ألم الوقْد
بغَى وطغَى مستكبراً متشبثاً ... بوهم يقود النفس للخطا المردي
وصار رقيباً مُبْغِضاً متجسساً ... يقصر طولَ الليل في الرد والنقد
وعبدك يا خيرَ البرية غافل ... ظننت به خيراً لما مرَّ من ودِّ
ترفّع للدنيا بخفضيَ جاهداً ... معاناً بأنذال عريِّين عن رُشْدِ
وبالغ في خفضي إلى أن غدا على ... لسان الورى يُتْلى جهاراً بلا جحد
ولم يرْعَ أيّاماً يرانيَ شيخَه ... ومرشدَه الهادي ومُنعمَه المُهْدي
ولا خاف لوماً في القطيعة لا ولا ... عقاباً من المولى على ناكث العهد
فهذا رسول الله إجمالُ مُكْرَهٍ ... وتفصيلُه يا سيِّدي ليس في جهدي
ألا يا رسولَ الله ضيفُك سائلٌ ... وهل ضيفُ أصلِ الجودِ يُكْرَمُ بالطرد؟
ألا يا رسول الله بَرِّدْ جوانحي ... بدائرة تسعى إليه بلا بعد
عليك صلاة الله ما لاح بارق ... وأزكى سلام دونه فوحة الند

وعلى كل حال فإن بلوغ النازلة بين الأستاذ وتلميذه إلى هذا الحد إنما كان بسعاية السعاة من الواشين، نسأل الله أن يرضيَهما بأعلى عليين، بجاه خير المرسلين.

وقد كان خروج الشيخ إبراهيم للحجة المذكورة على نفقة الباشا السابق الذكر، ليؤدي عنه الفريضة صبيحة يوم السبت الثاني من شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف، ورجع يوم الأحد الثامن من شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وأسرع الأمير لرحمة ربه بعد يومين من قدومه، فكانت وفاته إثر مغفرة الذنب والبرء من كُلومه. وبوفاة الأمير استحالت الحال على الشيخ القاضي المذكور، وأتاه محتوم الأجل بعد تسعة من الشهور، عامل الله جميعهم بالغفران، وأرضاهم في نعيم الجنان، بجاه سيد ولد عدنان.

يقال: إن المشير الأول أحمد باشا كان يقول: إنه لم يقتل والدي غير دعاء الشيخ إبراهيم، ولذلك كان يتحامى جانبه، ويجل مكانته، حتى إنه لما أراد أن يقدم خليطه العالم الشيخ محمد بن سلامة إلى خطة الفتيا لم يتجاسر على خطة الشيخ إبراهيم وأولاه مفتياً ثانياً فوق من عداه، وقد أحسّ الشيخ إبراهيم من ذلك حتى قال: شيئان لا يقعان في الدنيا؛ حفيدتي لا يتزوج بها ولد حفيز خوجة، وابن سلامة لا يقعد مقعدي.

وكانت حفيدته ابنة الشيخ الطيب أعطاها أبوها لأحد أبناء حفيز خوجة عن كره منه، فلم تمضِ مدة بعد مقاله ذلك، وإذا بالبنت توفيت قبل الزفاف.

وتقدم الشيخ محمد بن سلامة فتوفي قبله بسبعة وأربعين يوماً، قيل: إنه لما بلغه خبر وفاته قال: الآن طابت نفسي يعني للموت رحمه الله.

وقد تخيره المشير المذكور سفيراً لدار الخلافة العثمانية على عهد المقدس السلطان محمود خان[1] في طلب إعفاء الإمارة التونسية مما عينه عليها من الخراج السنوي الذي أرسل بطلبه، فسافر إلى الآستانة العلية صبيحة يوم السبت

(1) السلطان محمود خان وهو ابن عبد المجيد الأول ولد سنة (1199). وتولى الخلافة (1223) وكانت أيامه حافلة بالحوادث وتوفي سنة (1255) و (1839).

الثامن من ربيع الثاني سنة أربع وخمسين ومائتين ألف. واستصحب معه مكتوب[1] المشير إلى الحضرة السلطانية، وهو من إنشاء كاتب سره الوزير المؤرخ الشيخ أحمد بن أبي الضياف. وهذا نصه:

«اللّهم بالثناء عليك، نتقرَبُ إليك، يا فاتح أبواب القبول والإقبال، ومانح المنح التي لا تمر شواردها على البال، لا يقصد إلا وجهك بالمقاصد الزكية والأعمال، تنزهت في العظمة والجلال، ولم تُولِ عبادك الإهمال، بمحض الرحمة والإفضال، فأقمت لهم خليفة تعرض عليه الأحوال، ويدفع عنهم بإعانتك الأرسال، ويسوسهم لصالحهم في الحال والمآل، صلّى الله على سيدنا محمد خاتم الإرسال، والملجأ المنيع عند اشتداد الأزمة والأهوال، وعلى صحبه والآل، الذين ورثوه في الأقوال والأعمال، وسرت مكارمهم بهديه سَرْيَ الأمثال.

ونستوهب منك عزاً لا يُبْلَغ حدُّه، ونصراً يمضي في الأعداء حَدّه، لهذه الدولة العلية، والسلطنة العثمانية، والمملكة الخاقانية، التي ترفعت من الملة الحنيفية، وشَيّدَتْ من معالمها بنياناً، وأقامت للحق قسطاساً وميزاناً، وورث ملوكها الأرض وهم الصالحون سلطاناً يتبع سلطاناً، حتى استنار الوجود بخليفة الوقت الموجود، وهو مولانا السلطان الأعظم محمود. اللّهم أعنَّا على ما أوجبتَ له من فروض الطاعة، وتأدية الحق بجهد الاستطاعة، واحفظنا بعدله ورفقه من الإضاعة، واجعل الملك فيه وفي عقبه إلى قيام الساعة، وعَطِّف قلبه لسماع هذه الضراعة، من إيالة تونس ومن بها من الجماعة، على لسان (أحمد) عبدِ خِدْمتِه، ورِقِّ نعمته، المقيم على طاعته فيها، والمجتني من ثمرتها ما يلزمها ويكفيها، وطاعة سلطانك فرض على أهل الأرض، وهي عند الله أنمى قرض، فإذا لم يُعْرَضْ الحال لديك فَعَلى مَنْ العرض؟ وهذه عمالة تونس دار الجهاد، ومقر

---

(1) مكتوب أحمد باشا المشير الثالث إلى السلطان محمود ورحلة الشيخ الرياحي إلى تركيا تتعلق بعلاقة تونس بالدولة العثمانية.

وهذه القضية فصّل حوادثها الشيخ محمد بيرم الخامس في صفوة الاعتبار في المطلب الثاني في علاقة القطر التونسي بالدولة العثمانية (ج 1 ص 132) وتعرض لهذا المكتوب في الجزء نفسه (ص 138).

رعيتك والأجناد، ومرسى جَوارِيك الأعلام، وموضع شعائر الإسلام، غريبة ببعدها عن استمطار أياديك الجسام، ومساحة أرضها مسير نحو الخمسة أيام. شأن أهلها التمعش من الزيت والبر، والصوف والوَبَر، يعانون في تحصيلها ألم الحر والقرّ، هذا غالب ما يسد لهم الخَلّة، ويوجد غيرَه لكن على قِلّة، ومقدار زكاة ذلك لا محالة، بحسب اتساع العِمالة، فما يفضل من خصبها فهو للقحط عُدّة، وبذلك دام عُمْرانها لهذه المدة، لا فضل من ذلك للترف، ولو في سبيل شرف، هذا معظم دخل القطر، إذا جادت السحب بالقطر. ويلزمه ضرورةً لإقامة عمرانه، وحماية أوطانه، وتأمين سكانه، وإصلاح مراسيه وبلدانه، حماةً وأجناد، في كل وجهة وبلاد. لتأمين الجبال والوِهاد، وردع أهل الفساد، من العربان البواد، ويلزم العساكر الكسوة والإطعام، والمرتب على الدوام، ولا بدّ لهذا العدد، من آلات وعُدَد، وقوام هذا المال، وهو السبب في عرض الحال، فإن الـدّخل على قدر الإنفاق، وذلك بشهادة الله غاية ما يطاق، ولو كَلَّفْنا الرعية بالمشاق، ونزعنا الرفق والإشفاق، يكون لهم ذريعة للنفاق، وسُلّماً للشقاق، وربما هرعوا للدولة العلية شيوخاً وولداناً، وكهولاً وشبـاناً، يسـوقهم العجز ويقودهم الأمل، إلى من في طاعته النيات منا والعمل، فالسلطان ظل الله في أرضه يأوي إليه كل مظلوم، وهذا من الواضح المعلوم، وعبدك حسبه تأمين البلاد، وحفظها من طوارق الفساد، بما معه من الحماة والأجناد، سهرنا لإنامة أجفانها، وتعبنا لإراحة شيوخها وولدانها، واقتحمنا المخاوف لأمانها، وما تنتجه غلاتها تُسدُّ به خلاَّتُها، وعلى هذه السيرة ولاتُها، لا يقتنون لأنفسهم مالاً، ولو بسطوا لذلك آمالاً، إلا ما يقتضيه الحال من العادات المألوفـة، والمراسم المعروفة، يصدهم عن ذلك عدمُ اليسار، لا زهد الأبرار، والله المطلع على الأسرار.

وبما بلغنا من الإعلام[1]، وبسط الكلام في هؤلاء الإسلام، يظهر للقائم

---

(1) أتت هذه الفقرة هنا غير واضحة المعنى والأوضح ما ورد في الإتحاف لابن أبي الضياف وهو صاحب المكتوب ما نصه: وبما بسطنا من الكلام في حال هؤلاء الإسلام إلخ.

بمصالح الأنام، أن لا قدرة لهذه الإيالة على أداء المال في كل عام، إذ المصروف في طاعة الله وطاعته، والله حسبنا في إهماله وإضاعته. هذه ضراعة رعيتك، المستمسكين بطاعتك، المستجيرين بحمايتك، المستنظرين لرحمتك وحَنانتك، المرتجين لعنايتك وإعانتك، قمت بتبليغها بين يدي سلطنتك الخَاقَانية، وهمتك العثمانية، فتبليغها من الواجب في حقي، وهو ثمرة طاعتي وصدقي، والمأمول من تلك الهمة، النظر إلى بلادك بعين الرحمة، فإن هذا المال في خزائن الدولة العلية عمرها الله لا يزيد، وثقله على هذا القطر شديد، فارحم يا مولانا ضراعتنا، ولا تفرق بما لا نطيق جماعتنا، فإن الأمر جلَل، وما قررناه من بعض الأسباب والعلل، وقد أعيتنا الحِيَل، فلم نجد إتمام الطلب إلا بتنقيص عمل، يفضي إلى نقص وخلل، أو تثقيل على الرعية يقطع الأمل، ويضعف بسبب ذلك هذا العُمران، وتشتد الحاجة للاستمداد من مولانا السلطان، والله يُجيرنا من حوادث الأزمان. وهذه العِمالة وديعة تحت أقفالك، تلتجىء إلى همتك من إهمالك، وتنتشق من ريح عنايتك نَفْحَة، وتترقب من مُحيّا رضاك لَمْحة، هذه وسيلةُ مَنْ بَعُدت دارُه، ولم يُجْعَلْ بيده اختياره، على لسان حاضرتك تونس، مع عالِمها المونس، وصالح مصرها، وإمام عصرها، شيخ الجماعة ومفتيها، ومنفذ الشريعة وممضيها، الذي دانت له البلاد ببنيها، ونالت به الملة أقصى أمانيها، الساري ذكر تآليفه في جميع الأقطار والنواحي، الشيخ سيِّدي إبراهيم الرياحي، وجهته حالتنا وانتظرت، ومن سحائب رحمتك استمطرت، فإن العلماء ورثة الأنبياء، وأعلام الدنيا، وهداة الأمة، فعلى أيديهم تطلب الرحمة، وتدفع الخطوب المُدْلَهِمَّة، والدولة تأمرنا بإعزاز الدين وأهله، وتعظيم العلم ومحلِّه.

اللّهم أنت أعلم بنا منا، فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا، وارزقنا الرحمة من سلطاننا، وألهمه لإعانة أوطاننا، وأعنا على حوادث زماننا، إنك سميعٌ قدير، وبالإجابة جدير، وكتب في أشرف الربيعين سنة 1254 أربع وخمسين وألف ومائتين. ا هـ.

ولما بلغ الشيخ إلى دار الخلافة حصل له الاحتفال، ووقع تلقيه بالإجلال، وعظم لديه إكرام العلماء والأنجاد، وسَرَّه منظرُ البلاد، ولذلك أنشد فيها قوله:

[الكامل]

بلد الخلافة في الجمال فريدُ ... ولشأنه[1] غَرَضٌ مداه بعيد
من ظن يُحْسنُ وصفه فكأنما ... نحو الصعود إلى السماء يريد

وقد تلقته الحضرة السلطانية بالقبول، وأُحْظِي منها باللقاء المأمول، ولما دخل الموكبَ السلطانيَّ، افتتح حال دخوله يتلو قوله تعالى: ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ الآية بحسن صوته الجهوري الذي يلين له الحجر الصلد. قيل إن جميع من حضر في ذلك الموكب انسكبت دموعهم، ولاقى من الحضرة السلطانية غاية التكريم، وأنشد بين يدي السلطان قصيدته المديحية التي أبدع إيجادها وهي قوله:

[البسيط]

العزُّ بالله للسلطان «محمودِ» ... ابن السلاطين محمود فمحمودِ
خليفة الله ما أعلاه من شبه ... بآدمٍ ونبيّ الله داود
من آل عثمان سادات الملوك ومَن ... جاؤوا كعقد من الياقوت منضود
سادوا الأنام وشادوا الدين وافتتحوا ... مِن كل ما فيه خير كلَّ مسدود
هم السلاطين ما ذرَّت وما غَرَبَتْ ... شمسٌ على مثلهم في نصر توحيد
وجاء سلطاننا المحمود بعدَهمُ ... بكل رأي من الآراء مسعودِ
وربما جهل الإنسان مقصدَه ... فجاء فيه بقول غيرِ مقصود
لم يعطِهِ اللَّهُ ملكاً في خليقته ... إلا لمعنى من الأغيار مفقود
دانت لدولته الأعناق خاضعة ... من كل ذي ولد منهم ومولود
تخشى السلاطين من بُعْدٍ مواردَه ... لما له من جلال غيرِ مجحود

---

(1) في الأصل ولسانه.

وكـل بـاشـا وإن جلت مكـانتُـه ... فليس غيرَ فتى في الرقِّ مصفود
أعزَّ دينَ الهدى إنْ يَخْشَ منقصة ... بكـل قَرْم من الإسـلام صنديـد
وقوة من لدن رب العـلا بهرت ... بَـرًّا وبحـراً بنـظم غيـر معهـود
العُجْمُ تشهـدها والعُـرْبُ تعلمها ... شرقاً وغرباً من البِيضـان والسود
أنت المـذِلُّ لعبَّـاد الصليب وإن ... لـوى الـزمـان بـإنجـاز لمـوعـود
لا يُخلف اللَّهُ في نصرٍ مواعـدَه ... لكنْ إلى أجل في العلم معدود
أنت المؤمَّل في كل المهمِّ فَمَنْ ... أتى لبـابك قصـداً غيـرُ مـطرود
وقد أتيتك من أقصى البلاد وفي ... ظني الجميلِ بلوغي منك مقصودي
دامت معـاليك لـلإسلام مـرحمة ... وللطغـاة عـذابـاً غيـرَ مـردود
بحرمة المصطفى المُهْدي الإله له ... أزكى تحيتـه من غيـر تحـديـد
تعم أتبـاعـه في الـدين قـاطبـةً ... والخلفاءَ إلى السلطان محمود[1]

وبعد ذلك عرض طِلْبَتَهُ[2] على الحضرة السلطانية بقصيدته الثانية التي صرّح فيها بالغرض وهي قوله:

[الطويل]

ركبتُ متونَ اللجّ وهي لها رَجف[3] ... وأرواحها بالسابحات لهـا عَصْفُ
ولي منـه أهـوالٌ يـود رهينُهـا ... ـ وقدخشي الإغلاق ـ لَوْجاءه الحتف
ولكنَّني مـا زلت أمـزج مـرَّهـا ... بحلو رجاءٍ طاب منه ليَ الرشف
عسى مقلتي تَحْظَى بأنـور غُرّة ... على غرة الرائي سناها له عَطْف
خـليفـةِ رب الـعـالمـين وظـلِّه ... إذا اشتد بأسُ الدهر فهو له كَهْفُ
فإني صرفت الـوجه نحـو فِنائـه ... وأنزلت رحلي حيث يمتنع الصَّرفُ
إلى حضرة السلطان محمودٍ الذي ... ملوك الـورى رِقٌّ لدولتـه صِرف
أيـا عزَّةَ الإسـلام إن خاف ذلـة ... ويا مفزع الأملاك إن مسهم وَجف

---

(1) العجز في البيت الأخير فيه خلل في الوزن مع أنه جاء هكذا هنا وفي الإتحاف وفي الديوان.
(2) في الأصل طليبته.
(3) في الأصل وحف.

لك الأرض مُلْك والسماء مُؤَازِر ... وعون إله العرش رمحك والسيف
فما ثم فوقَ الأرض من لم يكن له ... رجاءُ أيادِيك الجليلة والخوفُ
يرجيك مسكينٌ ويخشاك قاهر ... فللأول الجدوى وللآخَر القصف
لك الحمد في كل البسيطة عابقٌ ... له مشرِقُ الدنيا ومغرِبُها أنف
بذكرك تهتزُّ المنابر بهجةً ... وباسمك أفواه الدعاء لها هتف
إذا ما دعوا بالنصر مُدّت ضراعةً ... أكفٌّ ونحو العرش مُدَّ لها طَرف
خصوصاً لدى البيت العتيق وروضةٍ ... لكون سحاب الجود منك لها وكْف
فأخصب بعد الجهد والجد[1] عيشُهم ... ومن بحرك الطامي تأتي لها غرف
وكم لك يا مولاي من حسن خَلّة ... تَوحَّدُ إن عدت وفي ضمنها ألْفُ
تذكر أسلافاً كراماً تقدموا ... سلاطينَ جاءتنا بأنبائها الصحف
بدولتهم جاء الكتاب منبهاً ... وفي الأنبيا عند الختام أتى الوصْفُ
وإن فاتح الأرض سليمان جنده[2] ... لهم دون أجناد الورى إرثها وقف
وفاتح إسلامبولَ جاء مديحُه ... عن المصطفى رفعاً وليس به وقف
مضوا ومزيد اللّطف لم يمضِ حيثما ... سليلهُم المحمود آثارَهم يقفو
نعم يا أميرَ المُسْلِمينَ وكَهْفَهَمْ ... إذا مسَّهُمْ ضر فمنك له كشف
أتيتُك ضيفاً مستغيثاً وشَأْنُكم ... إغاثة لهفان وأن يكرم الضيف
توالى علينا الضُّعف من كل جانب ... وما زال ذاك الضعف يتبعه ضعف
فجئناك نبغي العفوَ واللّطفَ والرضا ... وهل من سواك العفو يطلب واللطف؟
فَعِيشَةُ مَنْ تَرْضى عليه هنيئةٌ ... وكيف لعيشٍ دون عفوك أن يصفو؟
رِضاك رضا المولى لأنك ظله ... وللظل من أوصاف صاحبه وصف
أدام لنا المولى إضاءة شمسه ... وليس لها يوماً غروب ولا كسف
بجاه نبي الله سيدنا الذي ... له خلقٌ يقضي عليه بأن يعفو

---

(1) جاء في القصيدة الثانية التي صرّح فيها بالغرض قوله: فأخصب بعد الجهد والجد عيشهم.
لعلّ صوابه:
فأخصب بعد الجهد والجدب عيشهم.

(2) هذا الصدر مختل الوزن في الأصول كلّها.

عليه صلاةُ الله ما ذر شارق وما خُطّ بالأقلام في طرسها حرف
ولـلآل والأصحاب طيب تحيـة يفوح على الأتباع من نشرها عرف

وخاطب الصدر الأعظم بالدولة العلية يومئذ في طلبته بقوله:

[الكامل]

الصدر الأعظم مقصَد المتوسل وهو المؤمل في القضاء المُنْزَلِ
ولـذاك من أقصى البلاد أتيتُـه للفـوز منه ببـرء داء معضـل
يـا ملجأ الصلحـاء والعلماء والـ ـوزرا ومن في الناس ذو قدر علي
كالنَّد أو كالعطر أو كالمسك ما يحويه عِـرضك من ثنـاء أجمل
فبمـا حباك الله من خُلُق سرى كالراح في الأرواح لا في المفصل
وحباك من خلق كأن الشمس في شرفٍ تُرى في وجهـك المتهلِّل
اشفع لنا فيما دهى «ترشيش» مِن إلـزامهـا غُـرم الخـراج المثقـل
الفقـر يمنعهـا ومـا تخشـاه من شر الحوادث في الزمان المقبل
أرجو لك البشـرى بنيل شفـاعةٍ تأتيك من عندِ الرسـول الأفضل
دامت عـلاك لمن أحبـك جنـةً بنعيمهـا قلب الحواسـد مصطلي

وقد حصل من الحضرة السلطانية على إسعافه بتـرك طلب الخراج، ومنحت شخصه عطية فاخرة وهي حقة مرصعة برفيع الألماس. واجتمع هنالك بعالم الملة، وشيخ الإسلام الشيخ أحمد عارف[1] وتأكدت بينهما المخالطة وتَرَاسَلا بمراسلات شعرية منها أن الشيخ إبراهيم كتب إليه مستعيـراً كتاب «الجواهر» بقوله:

[البسيط المخلع]

يـا عـارفٌ منـه فـاح عـرفٌ في أنف أهـل الـوجـود عـاطـرْ
لـو لم تكن في العلوم بحراً [2] لم نؤت من عنـدك الجـواهـر

(1) شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت ولي مشيخة الإسلام في الآستانة (1262) وتوفي سنة 1275 (أعلام الزركلي ج 1 ص 138).
(2) في الأصل بحر والصواب بحراً لأنه خبر لم تكن.

فـوف بـالـوعـد مـع رسـولٍ أتـاك أنـي بـذاك شـاكـر

فكتب إليه الشيخ أحمد عارف يستدعيه إلى محله ليعطيه الكتاب المذكور بقوله:

يـا من غـدا نـظمـه الجـواهـرْ ونـثـرُه لـلآلـي نـاثـرْ
والـعـلم روض ذكـا شَـذَاه بـنشـر أنـفـاسـك الـعـواطـر
لـو لـم أكن فـي قيـود رسـم لـزرتـكـم مـن ورا الـزواخـر
فـاسمـح ولـح يـا سميـرَ بـدرٍ عـليّ إنـي لـذاك شـاكـر
لا تـأْبـه يـا مـحيط فـضـلٍ فـالبحـر يجـري على الجـواهـر

وقد استجازه شيخ الإسلام المذكور فأجاز له إجازة شعرية وهي قوله:

[الكامل]

حمـداً لمُكْـرِمنـا بـأيّ عـوارف شمخت عن الإحصا بأنف آنِفِ
وصـلاتـه وسـلامـه أبـداً على مُجْلِي الـرجا بصـوارم وعـوارف
ولكـل من والاه أغـدقُ رحمـةٍ ينهـلُّ دائمُهـا انهـلالَ الـواكف
هـذا ولما سـاقني القـدر الـذي ما في وقوع صروفه من صارف
نحـو «القُسَنْـطينيّـةِ» البلد الـذي لا يستـطاع جمـالـه للواصف
نفحت لـروحي نفْحـةٌ مسكيـةٌ كـانت مسكِّنَـةً لقلبي الـواجف
وأنـار لي منهـا ضيـاءٌ خـاطفٌ خِلْتُ البيوتَ سماءَ ذاك الخاطف
فسألت ما هذا النسيمُ وذا الضيا قـالوا ألمْ تسمـع بأحمـد عارف
ذاك الـذي أخلاقـه كالـراح في لـطف يَـلَذُّ مـذاقـه لـلراشـف
أوْ أنها «هاروت» في سحر النهى إن لم نقل سر سرى من «آصف»
وإذا رأيـتَ جـبـيـنـه مـتـهـلاً فعلى بـدور التَمّ لستَ بـآسف
وإذا سمعتَ علومه فاسمـع إلى تلك البحور طَمَتْ فهل من غارف
قسماً بما يحويه من حسب ومن نسب وفضـل لاحق أو سـالف
لـو أبصر النعمـانُ بهجةَ حسنـه لاهتز عطفاً كاهتزاز العَاطِف [1]

(1) في الأصل: بعاصف والتصويب من الإتحاف.

هــذا ومن عجبٍ رأيت سؤالــه ... مني إجــازتــه كشيــخ عــارف
كــلا وإنّي والـذي رفــع العـلا ... أحرى بأن أروي عليه صحائفي
لكنني لا أستــطيــع خــلافَــه ... وعليـه فيما شـاء لست بخـالف
فأقول إني قـد أجزت لـه الذي ... قد صحّ لي من تالد أو طـارف
مـوصًى لإبـراهيمَ منــه بـدعــوة ... يرجو الرياح[1] بها أمان الخائف

وكتب إليه شيخ الإسلام المذكورُ بقوله:

[الطويل]

جزى الله أُستاذي جزاءً مضاعفاً ... ومتعــه في جنّـة الخلد بــالنَّـظَرْ
وبلغــه من فضله مــا يــرومــه ... بحرمة طه الهاشمِي سيـد البشر
أيـا سيـدي إن المحب مقصــر ... بما مسّه في الجسم من شدة الضرر
ويرجو بظهر الغيب صالح دعـوة ... لعلّ بها مولاه يكشف ذا الكدر
وذكراك لي فضلاً على حسْب وعدكم ... ولا سيما والوعد ديْنٌ كما اشتهر

وكان قدومه إلى حاضرة تونس من دار الخلافة العثمانية يوم السادس عشر من شهر رجب الأصب سنة أربع وخمسين ومائتين وألف، وقد خلف في تلك الديار، صِيتاً ملأ الأقطار، وغَطّى على الشمس في رابعة النهار، فتليت آيات فضله بين المغرب والمشرق، وأضحى كوكب مجده بكل فخر يلمع ويُشرِق، وقد كتب إليه في هذا المقدم الميمون تلميذه الشيخ محمد بن سلامة بقصيدة أرسلها إليه أيـام إقامته بحلق الوادي في الكرنتينة قبل نزوله إلى الحاضرة[2]. وهي قوله:

[الوافر]

كتــابي نــاب عن تقبيــل كفٍ ... بــراحـةِ رَحبهــا نلتُ ارتيــاحي
إذا قَـبِلَتْ ومُــدَّتْ عـن قـبــول ... وحيتني بــأنفـاسِ «الــريــاحي»

(1) في الأصل الرياحي وفي ذلك خلل في الوزن والتصويب من المجمع.
(2) في الأصل إلى الحاضر.

وأزهـر كـاشـري منهـا شميم ... نـوافـحُ نشـره طيبُ النفـاح
فـأنعش عـرفـه روض الأمـاني ... وأخصب مـزنـه مـرعى بـطاحي
وسـاق صبـاهـا لي نصـراً ليبـرا ... فـأبـرا للضنـا مبـرا الـرمـاح[1]
لبست بـه المـآمن خيـر درع ... غـداةَ السُّقْمِ جـاهـر بـالكفـاح
بـإبـراهيـمَ أبـرانـي اعـتـلال ... وسـالمني على خفض الجنـاح
إمـامَ العـالمين إليـك عـذري ... بـدا برهـانُـه مثـلَ الصبـاح
إذا مـا الوصـل بالأحشـاء فرض ... ووصل الصوم من صـور المباح
فما يجزي التخلف من مـراض ... مـلاقـاة الكثيـر من الصحـاح
ولـولا السقم سرت إليـك حبـواً ... ولكن شـرعنـا رفـع الجُنـاح
فيهـنيـك الـقـدوم بخيـر أمن ... ويُمْنٍ تـم في عـقـد الصـلاح
أتيتَ بمـا بـه فَـرِح البـرايـا ... وصيـر جـاشهـا رحب المـراح
وسـاعـد حـزمـك المقـدورُ لمّـا ... صفا منك الضمير صفا القَـراح
مسـايـرة التـوكـل أي عـون ... بهـا ذو العـزم يهـدي للنجـاح
ومن عـرف الإلٰـه فـلا يبـالي ... لـدى العزم الصحيـح بقول لاح
عـرفـتَ الله أكبـرَ كـلِّ شيء ... فـأكْبـرك الملوك على سمـاح
عملتَ بمـا علمت فكـان معنى ... أمـورك كـلهـا نيـل الـرَّبـاح
فَـرَوْضُ العلم يثمـر كـل خيـر ... وتـقـوى الله عـنـوان الـفـلاح
بمـا قـد نلتُ من عَمـل وعلمٍ ... أعنّي بـالـدعـاء على الصـلاح
وأمطرْ من رضاك مجاح جسمي ... ليـزهـو جـدبـه بعـد الكـلاح

إلى مولى جليل، من ذهن فاتر كليل، رهين أسقامه، في لياليه وأيامه، لكنه مغفور الزلل إن كان مقبول العذر في كل مكان يقبّل الكفّين، ويستنشق شذا تينك الراحتين، بعد السلام الذي هو تحية الإسلام، ممن في اسمك له خير فال، كما في لقبه لمقامك دوام حال، هذا المأمول، وعلى الله تعالى القبول، والسلام».

(1) هذا البيت ضعيف جداً وكذلك القصيدة، ومثله البيت الثالث فإنه لا معنى لكاشري.

ولما توفي الإمام الشريف الثاني تحرى المشير أحمد باشا باي فيمن يقدمه للخطة المذكورة، فقدم إبراهيم الرياحي إماماً أكبر[1] بجامع الزيتونة أواخر جمادى الثانية سنة خمس وخمسين ومائتين وألف، وتقدم بذلك على خليفة الجامع الشريف محمود محسن ونائبه الإمام الثالث الشيخ الشاذلي بن المؤدب، ولم يتغير واحد لتقدمه عليهما، وبذلك جمع بين الإمامة الكبرى بجامع الزيتونة ورئاسة الفتوى، ولم تجتمعا لأحد قبله، وقد هنأه تلميذه الموثق الفرضي الأديب الشيخ الحاج محمد بن يونس[2] فقال:

[الطويل]

أَدِرْ ذكرَ نَعمانٍ وذكرَ غرامِه ... فعرف الصَّبا أهدى إلينا خزامَهُ
وأَرَّجَ أرجاء البطاح بنشره ... وسجّع في رند العقيق حمامُه
وهز غصون البان في دوحة النقا ... وأثر في الزهر الوسيم ابتسامُه
ولاح المنى والوصل والدهر مُسْعِد ... يُرنِّح للغصن القويم قوامُه
تمتع بذا واشرب مياه مَجَنَّة ... تنزَّهْ فوجه البشر حَطَّ لثامَهُ
وسرب العلا والفضل آنس أهله ... على باب إبراهيم ألقى خيامه
حوى السبقَ إبراهيمُ في خطط العلا ... وأصبح للبيت العتيق إمامَه
فوافاه في نور يزاد لنوره ... وشيد بالمعنى الزكي علامَهُ
فما حُقَّ ثوبُ الفضل إلا لأهله ... فإن مقام المرء حيث أقامَهُ
وأنت أبا إسحق قطب رحائها ... علوت من الفضل العظيم سنامُه
وأنت له أهل اذا جد جدُّها ... وطيب الثنا أهدى إليك زمامه
فضلت الألى سادوا بعلم ورفعة ... أرى كل ذي فضل سبقت إمامَه
إذا جرّ فن النحو فقت «خليله» ... تنير له المعنى الذي قد أقامه
إذا جرّ فن الفقه فقت «خليله» ... تبين فتواه وتجلي انبهامه
إمام علوم الدين طراً بأسرها ... همام بذكر الله حلّى كلامه
إمام الهدى والعلم والفضل والتقى ... وللفضل والتوفيق شدَّ حزامه

(1) في الأصل إماماً أكبراً.
(2) هذه القصيدة في تعطير النواحي (ج 1 ص 149).

يفيد الورى علماً وهـديـاً بحكمه ... ويهدي الحجا نفعاً نفى ما أضامه
على منبـر حيـا وأحيـا بـوعـظه ... فؤاداً بـه خَـطْب وأحيـا منـامــه
هنــاءً لــه أبقى الإلٰــه ثنــاءه ... وفي الجامع المعمور نال مـرامه
وأضحى له التاريخ: يسطع نوره ... فيـا فوز إبـراهيم حاز مقـامَـه[1]
[... 1255 ...]

وقد زان بعلمه وعمله المحراب والمنبر، وأطلق من عبير مواعظه المسك الأذفر، فخطب من إنشائه خطباً بليغة يلين لها الصَّلد، وتنسكب الدموع لها عند السرد، إذ تنثر بحسن نظامها لآلىء الدموع، وتسخّر الشرِسَ بلطفها إلى أحسن الذكر المسموع، مع صدأة صوته الجهوري، وتأثير عمله في نفس كل سميدع سري، وتلاوة تقشعر لها الجلود خشية ولياً، وتنذهل الألباب وتحن لها الأرواح حنيناً، وقد أنشأ خطباً لعموم أسابيع الحول، وزاد عليها خطباً أخرى في أغراض كثيرة عرضت فأطنب فيها القول، وجميع ما له من الخطب، معدود عند البلغاء من نفائس النخب، بل إن خطبة قد اتخذها خواص خطباء البلاد التونسية للاستعمال، وقل من بلغ في الاستحصال على نفائسها إلى غاية الآمال، وقد كان العالم النبيه، علي بنيه[2]، جمع منها ديواناً، حلاه بديباجة وأودعه نيفاً وعشرين خطبة برعت أفناناً. فكان من أنفس دواوين الخطب، التي يرغب فيها كل عارف بخبايا المواعظ ولطائف الأدب.

وهو أول إمام قرأ المولد الشريف[3] بجامع الزيتونة يوم الثاني عشر من ربيع الأول باحتفال يحضره الأمير والعلماء ورجال الدولة بملابسهم الرسمية أمام المحراب، وألّف لذلك مولداً لطيفاً، ما زال محفوظاً عند علماء المملكة التونسية

---

(1) هذه القصيدة علاوة على الإقواء في قوافيها هي من هزيل الشعر والعجب من المؤلف كيف أتى بها مع أنها لا تستحق الإثبات لضعفها.

(2) علي بنيه هو ابنه الشيخ علي الرياحي وستأتي ترجمته.

(3) وقد ذكر هذا المولد حفيدة عمر الرياحي في تعطير النواحي (ج 2 ص 2).
وذكر أن الذي طبع فيه تغيير واختصار.
وقد طبع هذا المولد الشيخ أحمد جمال الدين بتونس.

يتلى يوم المولد الشريف في جوامع حواضر المملكة لحسن إيجازه مع استيعابه لمهمات أخبار المولد الشريف وناهيك بما خلّده بهذا الصنيع الجميل.

وقد كان قائماً على حدود الله مع نفوذ وتأييد إلٰهي لا تأخذه في الله لومة لائم حتى أنه لم يؤد شيئاً من المكوس التي وظفتها الدولة إذ ذاك على الراعي والرعية، يقوم لله في حقوقه ولا يخشى في ذلك أحداً.

خرج يوم المولد النبوي لقصد التوجه إلى جامع الزيتونة، فوجد عند بابه أرملة وأولادها عيلة[1] رجل يسمى السعدي قد أقام في السجن[2] في الكراكة مدة فضجوا بين يديه ضجة واحدة وتراموا عليه يسألونه بجاه الله ورسوله أن يشفع لهم في السجين المذكور عند المشير، فأجابهم لذلك، ولما أتمّ قراءة المولد، وأخذ المشير يحادثه عرض عليه شفاعته في السعدي، فقال له المشير: إنه مؤبد، ولم يستكمل كلمته حتى استعاذ الشيخ بالله، وقال التأبيد لله ونهض يكررها قبل إتمام الموكب، وقد بهت المشير من ذلك بمرأى ومسمع من جميع الحاضرين، وعند ذلك قام على إثره الوزير ولسان الدولة يعتذران عن صدور تلك المقالة من الوالي وأعلماه بأنه أصدر إذنه بتخلية سبيل السعدي.

أما اعتكافه على بث العلم في صدور الرجال، فقد بلغ منه إلى غاية الآمال، وانتفع بعلمه جميع علماء البلاد، حتى كان شيخَ شيوخها في ذلك العصر، وأتى على أعالي الكتب ختماً بجامع الزيتونة وجامع صاحب الطابع وداره، إلى غير ذلك من الجهات التي كان يلازم التدريس فيها. وقد ختم صحيح البخاري بشرح القسطلاني بجامع يوسف صاحب الطابع، وكانت بداءته له عند تمام بناء الجامع سنة تسع وعشرين ومائتين وألف عند تقدمه لمشيخة مدرسته، وأقام على تدريسه أكثر من ثلاثين سنة إلى أن أتمّ ختمه بحضور ابنيه

---

(1) لفظ عيلة يقرأ هكذا عيله بكسر العين ممدودة وفي آخره هاء سكت، وهو استعمال عامي.
والفصيح عيل بفتح العين وكسر الياء مشددة، وأما العائلة فإنها لم تسمع.
ثم وقفت في شرح درة الغواص أن العيلة بسكون الياء مثل العيل، لكن بفتح العين.

(2) في الأصل: على السجن.

العالمين، ومن انضم إليهما من علماء تلامذته، وتبارى شعراء الدرس في مديحه في موكب الختام، وتناشدوا بدائع النظام، وقد وقفت على ديباجه من إنشاء طيب بنيه[1] في هذا الختم الميمون، ولذلك رأيت أن أُثبتها مع تلك القصائد التي تزري بالدر المصون. ونصها:

«حمداً لمن رفع مقام العلم وأهله، ووصل سبب انقطاعهم إليه بحبله، وأتمّ عليهم سابغ النعمة بفضله، وصلاةً وسلاماً دائمين متلازمين على فاتحة كتاب الوجود وأصله، وخاتمة أنبيائه ورُسْله، الجامع لخلال الكمال والمستولي على أمد خصله، وعلى آله وأصحابه الذين أكمل الله بهم دينه وجمع مفترق شمله.

وبعد، فلما كان ضحى يوم السبت العاشر من جمادى الثانية من عام واحد وستين ومائتين وألف، منّ الله بحضور مجلس ختم الجامع الصحيح للإمام البخاري بشرح الشيخ شهاب الدين القسطلاني، على أُستاذنا علاّمة الزمان، ومنار الإيمان، شيخ الشيوخ، وبقية أهل الاجتهاد والرسوخ، الجامع بين الطريقة والحقيقة جمع أُولي الصدق واليقين، ناصر الملة والدين، أبو إسحاق والدنا طيناً ودينناً سيدنا إبراهيم الرياحي متّع الله ببقائه، وأدام في أوج السعادة كمال ارتقائه. اهـ.

وأما القصائد التي أنشدت في ذلك الموكب فأولاّها من إنشاء ولده العالم الخطيب الشيخ الطيب الرياحي. وهي قوله:

[الخفيف]

غـرَّةُ السعـد أسفـرتْ بـابتسـام ... وتجلَّى نجمُ الهـدى في تسـام
والـزمـانُ المسيءُ تـاب وأبـدى ... لـبـنـيـه طـرائـفَ الإكـرام
نسـخ اليسرُ عسـرَه مثل مـا قـد ... نسـخ الصبـحُ آيـة الإظـلام

(1) طيب بنيه هو ابنه الأكبر محمد الطيب الرياحي المتوفى سنة وفاة أبيه كما يأتي سنة (1266). وقد كانت أختام الكتب من المجالس الحافلة.

وانبرت للمدى[1] أماني نفوس ... كن أسرى حوادث الأيام
منن لم يَجُلْن في الفكر لولا ... بركات المولى الجليل الهمام
ذلك السيد الإمام المرجَّى ... بسنا وجهه انسجام الغمام
صدر أعيان زمرة المجد حقاً ... وإمام الأيمة الأعلام
مالك العصر عالم المصر بالقصـ ... ـر وشيخ الشيوخ بين الأنام
حائز السبق في مدى الفضل حاو ... في اقتسام العلى مُعَلَّى السهام
عضدُ الدين (سعدُه) (ناصر المـ ... ـلة) بالحق (حجة الإسلام)[2]
نور عين الزمان علماً وحلماً ... وتُقًى في جلالة واحترام
حافظ السنة الزكية مُبْدٍ ... نورَ أسرارها بغير اكتتام
عمدة الفقه غاية السُؤْل فيه ... وشفاء الصدور في الأحكام
درسه نزهةُ البصائر حسناً ... بكمال التحرير والإحكام
وتقاريره الرياض ولكن ... تثمر الدُّرَّ في يد الأفهام
تتسامى ذُرَى المنابر منه ... ومحاريبها بخير إمام
ليس إلا بذهنه تسمع الصـ ... ـم وتحيا بصائرُ الأغتام
ليس إلّا بذهنه تتجلَّى ... نكتُ العلم في دجى الأوهام
ليس إلا بلفظه العذب تُتلى ... سورُ الذكر في دياجي الظلام
ليس إلا به اقتناء المزايا ... واقتباس الهدى وَبُرْءُ السقام
عالةً أصبح الأنام عليه ... طاعة النقض منه والإبرام
خضعت عنده الرقاب بما قد ... طوقتها يداه بالإنعام
منةٌ لا تزال تدرى وتروى ... لولاة الطروس والأقلام
لا ترى غير مهتدٍ بهداه ... أو محبٍّ أو لائذ بذمام

---

(1) في الأصل للمدا، وكذا في تعطير النواحي.
وكذا ما يأتي فإنه جاء في الأصل العلا، وهذا له وجه بأن يكون من الممدود وقصر.
كما جاء فيها ذرا هكذا بالألف وكذلك الندا جاء بالألف وكذلك القصيدة الثانية جاء فيها بالألف ما حقه أن يكتب بالياء، وهنا نكتفي بالإشارة دون التنبيه على كل لفظ.

(2) هذا البيت فيه توريات كثيرة بالعضد، والسعد، والناصر اللقاني وحجة الإسلام الغزالي، وهو من بدائع التوريات.

يـا إمـامـاً حـواه بـرِدُ المعـالي ... ورِدَا الفضـل قبل عهـد الفـطام
ياسميَّ[1] الخليل يـا وارث الرأ ... فـة والحلم من حـلاه العـظام
قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ ... دد والفضـل والنـدى من مُسـام
ففـداء لشِسْـع نعـليـك قـوم ... ولـدوا في العلى لغيـر تمـام
وهـنيئـاً لـك الـمفـاز بـختـم ... للبخـاري حـديث طـه التهـامي
جـاء بشـرى لكم بـإقبـال فتـح ... ووصـول إلـى قَصـيّ الـمـرام
ولـنـا مـنـه والـبـريـة طـراً ... أي رُحـمى ونـعمـة واغـتـنـام
ولعمـري ليستْ بـأول نعـمى ... كنت مـولي ظهـورهـا لـلأنـام
فـجـزاك الإلٰـه خيـر جـزاء ... مشـرق بـدؤه بحسن الـختـام
وابق يا بدر في سمـاء المعالي ... مـستدام الـسـنـا مصـون التمـام

والقصيدة الثانية من إنشـاء الشاعر الماجد الفصيح الأكتب الشيخ محمد الباجي المسعودي، وهي قوله:

[الكامل]

وجهُ التهانِي اليومَ أصبحَ مُسْفِـراً ... والكـونُ أشرقَ والفضـاءُ تعـطرا
والسعـدُ حيـا والمسـرَّة أقبلت ... والأفق كلَّله السـرورُ كمـا تـرى
وبتـونسَ الإيناسُ أسفـرَ صبحُـه ... واهتـزَّ روض الصالحـات ونـوَّرا
وبـدا بـإبـراهيمَ بُـرْءُ هُمُـومِنَـا ... شيخِ الشيوخ القطبِ مصباحِ الورى
ركنِ الشـريعـة فخـرِ ملة أحمـدٍ ... صدرِ الثقاتِ الكمَّل الشُّمِّ الذُّرى
علم الأُلى بثُّوا العلومَ وخيرِ من ... قَـدْ أَمَّ محـرابـاً ونـوَّرَ منبـرا
يجلو دُجَى الإشكال ثاقب فهمه ... فتـراه بعـد اليـأس أصبـح نيـرا
ويُجِيلُ في النكت العويصة ذهنَه ... فيشقُّ كـوكبُـه العجـاجَ الأكـدرا
ويبينُ أسـراراً تكـاد لحسنهـا ... حقـا تُبـاع بهـا النفوس وتشتـرى

(1) يـا سـمي الـخـلـيـل يـا وارث الـرأ ... فـة والـحـلـم مـن حـلاه الـعـظام
هذا البيت أبدع فيه غاية الإبداع حيث أشار إلى أن أباه إبراهيم سمي الخليل، ثم وصفه بأوصافه عليه السلام من الحلم والرأفة.
ووقع ها هنا تحريف ظاهر وهو أن قوله: يا سمي جاء باسمي بالباء.

أَشْهى على الأسماع من نيل المنى[1] وألذُّ في الأجفان من سِنَة الكَرى
كم قد لبسنا من مصوغ عقودها درًّا نفِيساً في الرقاب وجوهرا
وكمِ اقتطفنا من أزاهرِ روضِها حتى لبسنا العيش ثوباً أخضرا
وبدرسك (الجُعْفِيِّ) كم أوضحتَ من نكتٍ تَدِقُّ عن العيان فما تُرى
وسلكتَ منه مهامهاً وتنائفاً يُضحي الخبيرُ لبعضها متحيِّرا
وسريت ذا جِدٍّ لحل رموزه والآن حان بختمه حمدُ السُّرى
فلكَ الهناءُ مقدماً ولنا بكم ولمن يخصُّك بالوداد وللورى
وجزاكَ ربك خير ما جازَى به وأَطَال عمْرَك كيف شئت وأكثرا
وبقيت شمس ظهيرة تُجْلَى بكم شُبَهُ الضلال ودمْتَ غيثاً ممطرا
وإليك من جُهد المقلِّ مَحُوكة من خاطر منع العنا أن يخطرا
وقريحةٍ خمدت ودهر غالني من غَوْله ما صد عن أن نُبْصرا
بلغ الزّبى تياره فاسمح بما ينجي الغريق وكن أجلَّ مَنِ اشترى
فإذا مددتَ ودودَكم بدعائكم أعددتَ منه إلى المعاند عسكرا
وبلغتُ آمالي لصدقِ طويتي فيكُمْ، وعشْتُ مملئاً لن أحذرا
لا زلت في أفق السعادة نيِّراً تجلو[2] بهمتك المهم الأكبرا

والقصيدة الثالثة من إنشاء ولده العالم الأديب المدرس الشيخ علي الرياحي وهي قوله:

[الطويل]

تبلَّج في أُفق الهدى طالع السعد كُسي حللُ الإسعاد واليمن والرشدِ
وفاح شذا مسك يفوق ختامُه نسيم الصبا بالعطرِ أو فوحة الندِّ
أو الروض إذ يزهو بحسن ابتسامه فيحيا بريحان الأزاهر والرنْد
وأسفرتِ الأيام عن وجه بشرها كما أسفر المحبوبُ عن وردة الخد

---

(1) ورد المنى بالألف، ويحق للواقف على هذه القصائد أن يعجب كيف يكتب هؤلاء الشعراء الفحول ما حق كتابته بالياء بالألف.

(2) في الأصل: تجلو.

ذكـرتُ بذا عهـد الصِّبا وغـرامه ... وما قد رشفنا في الثغور من الشَّهد
رَعَى الله تلك الغانياتِ ولا أرى ... سوى أنهنَّ الحورُ من جنةِ الخلد
لهن جبينٌ كـالصبـاح بيـاضـه ... يلوح سنـاه تحت فـاحِمِ مُسْـوَدِّ
وحاجبهن السيفُ لكن إذا جنى ... فليس قصاص يلزمُ الحُرَّ في العبد
وقد نثر الخيـلان من حبر عنبـرٍ ... بديعَ جمال لم يكنْ خُطّ بالأيدي
لك الله ما أحلى التغزل في الهوى ... وأحسن منه مدحـة العَلَمِ الفَرْد
إمام أغر الوجه كالشمس في الضحى ... وكالزهرة الحسناء في دوحة المجد
إمام إذا ما كنت في روض درسه ... رأيت نفيسَ الدرِّ يُنظم في العِقد
إمـام لَـوَ ان الله يهـدي بنـوره ... لكن جميعُ الناس من نورِه مَهْدي
ترى رأيه كالسيف في كل حادثٍ ... ورأي سـواه لا يُعيد ولا يُبـدي
لـه رتبة لـو حـاول البـدر نيلهـا ... لكانت عن الإدراك في حيِّز البعد
غدا مَثَلاً بـالحلم والعلم والتُّقى ... كمالك والبصريِّ كالأحنف السعدي
ألا يا أبا إسحاق والفاضل الذي ... مزاياه قد جلَّت عن الحصر والعدِّ
إليك من السحر الحلال قصيدةً ... تـأنق في إتقان صنعتهـا جهدي
خـدمت بها يـوم الختـام لعلني ... أُقـابَلُ بـالرضـوان منـك وبـالـودِّ
ودمت مناراً في الشريعـة هاديـاً ... تُبلِّغُ من كل المنى منتهى القصدِ

وقرظ هاته القصيدة[1] الدراكة النحرير، وعلم الفتيا الشهير، المؤلف المشكور، الشريف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، بقوله:

[الطويل]

أحنُّ وأصبو كلما هبَّ من نَجْد ... نسيم بـريـاه يفـوق شـذا النَّـدِ
يمثل لي تلك الأباطح والربى[2] ... وعهداً مضى يا حبذا ذاك من عهد
فهاج لي الشوق الأثيل ولم أكن ... سلوت ولكن زاد وجْداً على وَجْد
سقى الغيث هاتيك الخيام وأهلها ... وإن أضمروا هَجْري ومَرُّوا على الصَّدِّ

(1) هذه القصيدة كما أنها تقريظ لقصيدة الشيخ علي الرياحي كذلك هي تهنئة بالختم.
(2) في الأصل الربا بالألف.

لهمْ مني الحب الصدوق ومنهمُ ... على مرّ أيام النوى كاذبُ الوعد
أيا حادياً يحدو المطيَّ مرنِّما ... ترفق إذا ما جئت حيَّ بني سعْد
بلغت المنى بلِّغْ إلى غاية المنى ... تحية صبٍّ في لهيب من الصد
وناد إلى ليلى وقل صادق الهوى ... مقيم على ما تعهدين من الود
زُرِيه ولو بالطيف في سِنَة الكَرَى ... نعم ما الكرى يستام مقلة ذي سُهْد
بكَمْتُ لساني يوم حمّ فراقها ... فلم يجر في مضمار مهل ولا عقد
وأصممتُ سمْعِي بَعْد طيب حديثها ... وليس استماعي غيرَ ذاك من الرشد
فاسمعني بالقهر قول مبشِّرٍ ... تبلَّج في أُفْق العلا طالع السَّعد
تَطَلَّبْتُ ما تحت البشارة فانجلت ... لوامعُ درٍّ في بهيٍّ من العقد
كؤوسٌ من الراح الحلال يديرُها ... على حانة الأسماع «نابغة الجعدي»
تضوَّع منها المسك لمّا تضمنت ... أحاديثَ فَخْرٍ عمّ من غير ما حدِّ
ختامٌ به الخضراء فازت وهكذا ... بفضل أبي إسحاق تسمو إلى الخلد
فخارِ بني الدنيا وذخرِ ذوي التقى ... وأعلمِ من تحت السماء بلا جَحْد
مآثره سارت سرى الشمس في الملا ... مفاخره من دونها منتهى العَدّ [1]
له الله من ختم وددت لَوَ انني ... بذلت له ما كان عندي من جهد
وإن فاتني ذاك الفخار فإنني ... عَلِقْت من العلياء بالجوهر الفرد
أبا الحسن الأسنى إليك خريدةً ... من السحر إلا أنها خالص النقد
خدمتُ بها علياك دامت بجودها ... وذلك عند الألمعي غايةُ القصد

ولما ختم شرح السعد التفتازاني على تلخيص القزويني، هنأه أحد تلامذة الدرس، وهو شيخ الإسلام الشيخ محمد بيرم الرابع، بقوله:

[الكامل]

جسمي بأشواق المحبة صالِ ... متفرَّق الأعضاء والأوصالِ
والنفسُ مني قد غدت مشتاقةً ... ترجو لذيذَ مودةٍ ووِصال
والوجد زاد لبارق قد بان مِن ... حي الأحبة منتهى الآمال

(1) في الأصل: العهد.

والدمع جاد بوابلٍ من مقلة ... ليست تحل بكثرة الإرسال
يا عاذلي هَوِّنْ عليَّ فإنني ... لا عذل ينفعني بكل مقال
إني شُغِفْتُ بحب ذات فواترٍ ... تغني بما تبدي عن الجريال
فالقد غصنُ البانِ غارَ لحسنه ... والوجه فيه بديع كل جمال
رامت تُضاهي حسنَها شمسُ الضحى ... فتداركتْ ما قد جرى في الحال
تلك التي قد أشعلت نار الهوى ... بفؤاد صب للقا محتال
وهي التي تركت متيم حسنها ... في حبها متراكم الأهوال
وسبتْهُ نفساً ما لها ذنب سوى ... تأميلِها لتآلف ووصال
عجباً لها أَتَسُوءُه ولقد غدا ... متشبثا بحواشِي الأذيال[1]
أذيال إبراهيم من قد أعلنت ... بمديحه كل الورى بكمال
ذاك الإمامُ العالِمُ العَلمُ الذي ... لم يأتنا دهر له بمثال
فبه لتونسَ مفخرٌ ولنا به ... فخرٌ عظيم لا يقاس بحال
وبمثله الأقطارُ تفخر إذ غدا ... يجني لعزٍ صالحَ الأمال
وله محال ترتجي مثلاً له ... قمر السما في العز والإجلال[2]
كشَّافُ ما خَفِيَتْ مسالك نيله ... مغني الأَنَام ومعدِنُ الإفضال
وهو الخُلاصة من رجال زمانه ... وهو المعدُّ لنقض كل عِقال
يَلقْى بثغرٍ باسم كلَّ الورى ... وتحية تأتي بكل مقال
إن رمت وصف مجالس لإمامنا ... غيثِ العلوم ومبلغِ الآمال
فأقول فيه وإنني لمقصر ... كالليث حف بمعظمِ الأشبال
يا سيداً قد حلّ كل عويصة ... بذكائه وبذهنه السيال
هذا الختام لقد أتاك مبشِّراً ... بدوام سعدٍ مشرقٍ مُتَلَالِ[3]
فلقد سُرِرْت بمجلس لقدومه ... ولقد شَرُفْت به على الأمثال
وأروم يا مولاي تجديد المُنى ... تَكسوه لي من حُلّةِ الإفضال

---

(1) أظهر كسرة الياء في قوله بالحواشي مع أنها مقدرة.

(2) في الأصل: في العزة والوزن لا يستقيم.

(3) متلال: عامل المهموز معاملة المنقوص.

وإذا الـقَضِيـةُ بيّـنٌ إنتـاجـهـا فلتـطوهـا في منتـج الأشكـال
وإليـك بكراً قـد أتت لا تبتغي إلا الـدعـاءَ لنـا بحسن الحـال
وبقيتَ تـرقى أَوْجَ آفـاق العلى مـتـلبِّسـاً بـالـعـزِ والإقـبـال

وهنأه ولده الخطيب المدرِّس الشيخ محمد الطيب الرياحي، بقوله:

[**الطويل**]

أَلاَ حدِّثَنْ عمَّنْ به القلب مـولع كَفَى طَرَباً ذاك الحديثُ المسجَّعُ
على ذاك حبَّسْتُ المسامع صبوة ولا لسـواهمْ في فؤاديَ موضـع
لقد ظعنوا والقلبُ يـزعم كتمهم ولي أدمعٌ كالنهـر تجري وتـدفع
فلله يـومٌ بـان إشـراق نـوره ولله يـومٌ فاض بـالدمـعِ مَدْمَـعُ
وأمسى كئيبَ الصدر بالبعد موحشاً وبات على جمر الهوى يتضجَّع
ويـا نسمـة سـارت إلينـا عشيـة مـقلِّةَ عـرف منهـمُ يـتـضـوعُ
فبـالله إلا مـا حملت إليـهـمُ تحيـةَ مشتاقٍ يـذِلُّ ويخضـع
لقـد خلّفـوني في الـوداد متيماً كئيبـاً سقيماً بـاكيـاً أتضـرع
أبيتُ وأفكـاري تؤمّـل شخصهم فـأُصْبِحُ لهفـاناً ومـا لي مـرجـع
ومهمـا بدا ركب أبـادرُ قـائـلاً: أحن إليهم بـالـفؤاد وأخـضـع
فيـا عـاذلي دعني فـإنّ مـلامَكُمْ هـراءٌ وإنّ الشَّهـد مـا أتجـرع
ففي مذهبي السلوانُ جاء محرماً فلم يبق للعـذّالِ عنديَ مـطمَع
وهل تختفي شمسٌ وفي الكون نورُها وهل يختفي برق وفي الجوّ يلمع
وهل يختفي علم الهمام الذي غدا لـه موضـع فوق الكـواكب أَرْفَعُ
هو الأَبُ عز الله أُصلي أنـا به فـطوبى لأجـدادٍ أَقـرُّوا وفَـرَّعـوا
إمـامٌ همـامٌ فـاضـل متعفـف شـريف جليل للفـواضلِ أجمـع
تقيٌّ نـقيٌّ زاهـد ذو سيـاسـة حليمٌ كـريمٌ للمكـارم مَنبَـع
هو البحر في أيِّ العلوم أَرَدْتَها جِحاه إلى نيل الـدقائق مُسْرِع
مشـارق أنـوار بـطلعتـه انجلت وصـار لها نـور يضيء ويسـطع
وفي أبحـر التدقيق حـاز دقائقاً يضـلُّ بها عقـل سـديـد وألمـع

فيا خيرَ ممـدوح، ولست مبالغـاً ... بل المرءُ باللذ قد تقفـاه أجمع
رعى الله طـوداً جئتـه بمقـالـة ... وليس لهـا رد ولا فيـك تُمْنَـع
ألا كل سمع غيرك اليوم بـاطلٌ ... وكـل مديـح في سـواك مضيـع
وهـذا دليـل بـالسعـادة نـاطق ... وأنك تحت العرش تحظى وترفع
وأفضـلُ خير قـد يكون غـدا به ... كتـابُـك مختـومـاً وأنت مشفـع

ولما ختم تدريس شرح المحلي على جمع الجوامع الأصولي هنأه بالختم المذكور أيضاً تلميذه شيخ الإسلام الشيخ محمد بيرم الرابع، بقوله:

[الوافر]

مـديحـك لا يحيط بـه النـظامُ ... وجـودك لا يقـاومُـه الغَمـامُ
وعلمـك مَنهـل للنـاس طُـرًّا ... ومجلسـك الأَعـزُّ لـه احتـرام
بـك الآفـاق قـد زادت سـروراً ... كـأنـك في فم الـدنيـا ابتسـام
فـأنت لأوج أُفق الـدهـر بـدر ... منـيـر لا يـفـارقـه الـتـمـام
وأنـت لعـز هـذا الـديـن تـاج ... وأَنْـتَ لـنَـصْـرِه أَبَـداً حسـام
وأنـت لكـل مـعضـلةٍ تُـرجَّـى ... وأنـت لـكـل مـشـكـلة إمـام
جمعتَ من المحاسن كلَّ وصف ... وكـل النـاس عن هـذا نيـام
وآيـات الفصـاحـة عنـك تُـرْوى ... وفـي كفٍّ لـكم مـنـهـا زمـام
فـلو قُسٌّ وسحبـانٌ جـمـيـعـاً ... كـذا أيضـاً أو الفتـح الإمـام
صغـوا يومـاً لمنـطقكم لقـالـوا: ... يفـوق الـدرَّ حـقـاً ذا الكـلام
أبـا إسحـاق أنت فـريـدُ دهـر ... وأنـت لقـطرك الـعلَمُ الـهمـام
هنيئـاً يـا إمـام العصـر يـا مَن ... له فـوق السمـا الأعلى مقام[1]
بختم قـد شـرحتَ بـه علومـاً ... وسُـرَّتْ من ضخـامتـه الأنـام
ختـام قـد جـلاَ عنـا ظـلامـاً ... ومـا أدراك مـا هـذا الختـام

(1) جاء هذا العجز كما يأتي:
لـه فوق السمـا الأعلـى مقـام
وفيه وصف السماء بوصف مذكر مع أن الأفصح في السماء التأنيث.
ولو قال: له فوق السما العليا مقام، لجاء هذا العجز على الفصيح من تأنيث السماء.

وهاك خريدةَ الأفكار جاءت ... يُصاحبها سرورٌ وابتسام
تؤمِّلُ حسنَ صفحٍ منك عما ... يقصر في مديحكمُ النظام
ويطلب ربُّها منكم دعاء ... يقيه من الحوادث إذْ يُضام
ولا زالت لك العلياء داراً ... تردّد مدحكم فيها الحمام

وهنأه بالختم المذكور ابنه الشيخ محمد الطيب الرياحي، بقوله:

[الوافر]

فؤاد لا يفيق من الغرامِ ... وجسم لا يبين من السَقامِ
وشوق ألَّف الأشجانَ حولي ... وفَرَّقَ بين جفني والمنامِ
ودمعٌ لا نفاد له، كأني ... أروم به مساجلةَ الغمامِ
وصبرٌ حاول الأسواء حتى ... علاها، فاستعاذت بانهزام
ألا لله نفس جشمتها ... مخامرةُ العُلى همم سَوَامِ
وفي كف الحضائر[1] أسلمتها ... عزائم تنبري مثل السهام
تقول أفيك للتقصير عذر ... وأنت ابن المفدَّى بالأنام
أبي إسحاق فائدة الليالي ... وبهجتها وواسطة النظام
همام أغربت فيه المعالي ... تُقدّمه المعارفُ كالإمام
أغر الوجه وضاح السجايا ... بريء[2] العرض من عيب ودام
ولو قسمت مكارمه البرايا ... فقدنا في الورى صنف اللئام
إذا استبق الكرام مدى رهان ... بدا وهو المجلّى في الكرام
أو اقتسموا على خطط المزايا ... يكون له المعلّى في السهام
غدا المثلَ الشرودَ تُقًى وعلماً ... وحلماً في وقار واحترام
تناسينا به ذكرَ ابن قَيْسٍ ... ومعروفٍ ومالك الإمام[3]

---

(1) في الأصل: الحظائر.

(2) في الأصل: براء.

(3) جاء هذا البيت وهو قوله:

تناسينا به ذكر ابن قيس ... ومعروف ومالك الإمام

على هذه الصورة التي تشتمل على مبالغة لا تقبل، وهي أن ذكر الشيخ الرياحي أنسانا ذكر =

تسامى للعلا طفلاً معنّى ... بكسب العلم لا كسب الحطام
فأحرز في الكمالِ مقامَ صدق ... تضاءلَ دونَه بدرُ التمام
وأصبحَ منه هذا الدين يسمُو ... بعزٍّ حمى تاجٍ فوقَ هام
وسيفٍ بالهُدَى أمسى محلَّى ... وبالعرفان أضحى ذا اتسام
بهمته تزول ذُرَى الرواسي ... وتنهلُّ الغمائمُ في انسجام
عذيري من أعاديه إذا لم ... يهابوا سطوةَ اللَّيْثِ المُحَامي
أَلَمَّا يُذعنوا لما تحدَّى ... بآياتٍ مُبيَّنَةٍ عظام
أَبَوْا إلاّ مكابرة فأمسوا ... يوازون الشوامخ بالإكام
ورامُوا أن يدانوه فكانوا ... مكان المَنْسِمَيْن من السَّنام
أمولى نعمتي وعمادَ مجدي ... ويا سندي ويا كلَّ المرام
إليك عقودَ أمداح جلاها ... صناعُ الفكر في حسن انتظام
خدمتُ بها مقامَك يوم ختم ... يفوقُ عبيرُه مسْكَ الختام
أدرتَ به علينا كأْسَ علم ... دهاقاً مزجه[1] سحرُ الكلام
وحلَّيْتَ النفوس بحَلْي فَضْلٍ ... به تزدان ما بين الأنام
أَلَا إنّ «المَحَلِّي» لو رآه ... لأعجب من فوائدك الجسام
ونال كتابُه عنكُمْ وأمسى ... يُفاخر منك بالشيخ الهمام
فَمُلِّئْتَ الهنا فيه وفيما ... يليه، وما يليه إلى القيام
تسر بما تروح به الأعادي ... وتغدو في مساورة الحِمام
ودمتَ وأنت في شرفٍ وأمن ... دوام الركن فينا والمقام

وقرظ هاته القصيدة أخوه الشيخ علي الرياحي، بقوله:

[الوافر]

أهذا الفجرُ أم بدرُ التمام ... أم الشمسُ العديمة للغمامِ؟
أم الوجه المهلل من فتاة ... تراءت في محاسنها العظامِ؟

= الإمام مالك رحمه الله تعالى ورضي عنه.
ومقام الشيخ الرياحي على جلالته لا ينسي مقام الإمام مالك.
(1) في هذا البيت عود الضمير على الكأس مذكراً مع أن الكأس مؤنث.

إذا مـا أعـرضت يـومـاً بصـدٍّ تجـر العـالميـن إلى الـحِمـام
إذا مـا أتحفتـك بِـريقِ ثَـغْـر يُخَـال الـريق من رَشْف المـدام
تحـاكي البـان قَـدًّا إذ تبـدت وتحكي السحرَ في لطف الكلام
لعمـرك مـا وجـدتِ لهـا سلوًّا سـوى جمع الجـواهر من إمـام
سـراج العلم والتقـوى تنـاهت إليـه المكـرمـات بـلا اكتتـام
إذا مـا فكـرُه أبـدى مـقـالاً فـإن القـول مـا قـالت حـذام
إليـك الفكر قـد أهدى مـديحـاً يقـابـل بـالقبـول لـدى الكـرام
ويـرعى الله مجـدك كـل حين دوامَ الـدّهـرِ من غيـر انفصـام

وأجابه عن هذا التقريظ أخوه الممدوح الشيخ الطيب الرياحي، بقوله:

[الوافر]

أنـاطَتْ إذ أمـاطـت بـالـلثـامِ بـأقمـار الـدُّجى سمـةَ احتشـام
عـقيـلةُ فـتنـةِ الألبـاب أزرت بـدائـعهـا بـأزهـار الـكـمـام
أعيـذُ جمـالهـا من كـل شَـوْب معـاذ كمـالـهـا من كـل ذام
شـهـدت بـأنّ مُنْـجبَـهـا عليٌّ عـزيـزُ المثـل مـا بين الأنـام
وكيف يكـون مذمـومَ المسـاعي فتى يُنْميـه قـطبُ رَحَى الكـرام
أَدَامَ الله طَـوْدَ عـلاه فـيـنـا وصـانـكَ يـا هـلالُ إلى التمـام

وقد كتب ـ رضي الله عنه ـ في علم النحو حاشية على شرح الفاكهي لقطر ابن هشام[1]، تزري مباحثها بحسن الابتسام، في ثغور الأيام، وقد سلك فيها أغواراً دقيقة، وأبدع فيها تحقيقه، مع سهولة مأخذها الذي سهل به صعاب المسائل أيَّ تسهيل، وأغنى بالتصريح فيها عن ارتكاب التأويل، فكان بها كشاف أسرار العربية، ورافع أستار المشكلات النحوية، تدل بما أودع فيها على ما له في العلوم من اليد الطولى، والغايات التي نال إليها وصولا.

(1) الفاكهي على القطر وهو في طالعة كتب علم النحو ومن أمهاتها، ومؤلفه جمال الدين عبد الله بن أحمد الفاكهي المكي (ـ 972) وقد طبع شرحه هذا. (وسمي بمجيب الندا، بشرح قطر الندى). وحاشية الشيخ إبراهيم الرياحي وقفت على بعضها.

وشرح أيضاً الخزرجية[1] في علم العروض، شرحاً قام لذلك بالقدر المفروض، فكان شرحاً وجيزاً بسيطاً، بجميع شروح الفن محيطاً، مع سهولة تقرير، ولطافة تحرير.

وأما نظمه لمتن ابن آجروم النحوي[2] فهو وإن جمع جميع ما احتوى عليه الأصل من المسائل، وسهّل حفظها لكل طالب وسائل، غير أنه فيما أظن من مبادىء نظامه، كما لا يخفى على مطالع كلامه، وإلا فإنه كان آيةَ الله في حسن الإنشاء، يتصرف في النظم والنثر كيف يشا، قد أبدع الآداب، وسبق في حَلْبَتِهَا على الشعراء والكتاب، وشعره أدل دليل على قوة عارضته، التي توقف فرسان اليراعة دون الوصول إلى معارضته.

وقد تحلت ترجمته هنا ببعض ما له من البدائع، المزرية بالكواعب الروائع، التي أخصب بها ربع الأدب، وتجملت بخيلانها صفحات حدود الكتب. وحسبه ما خلّده بجمع ولده في ديوان الخطب، الذي يبلغ البليغ به إلى غاية الأرب[3].

وأما شعره الرائق، ونظامه الفائق، فأحسب أني أول من تصدى لجمعه في كتابي مجمع الدواوين التونسية، فأحصيت منه نحو خمسة كراريس تزري بالحلل السندسية، حوت نحو الألفين من أبياته الفاخرة، التي طمت بها تلك البحور الزاخرة، وهو مبلغ يصلح لأن ينفرد به ديوان شعره، الفائق في سعره، وفي ضمنه من محاضراته ما ترتاح له النفوس، ويقول مطالعه لا عطر بعد عروس.

---

(1) الخزرجية متن منظوم في علم العروض أوسع شروحه شرح البدر الدماميني. والخزرجي الذي ينسب إليه هذا المتن هو أبو محمد عبد الله الأنصاري الخزرجي.

(2) نظم الآجرومية هذا ذكره حفيد الشيخ إبراهيم الشيخ عمر الرياحي في كتابه (تعطير النواحي ج 1 ص 64).

وأوله:

يقول إبراهيم عبد الماحي هو ابن عبد القادر الرياحي

وهذا النظم قد حطّ منه المؤلف السنوسي هنا مع أنه نظم سلس قصد به تقريب الآجرومية للحفظ فكان موفياً بالمقصود دون ضعف.

(3) ذكر جملة من خطبه حفيده في تعطير النواحي في الجزء الثاني (من ص 63 إلى ص 105).

فمن محاضراته أنه اجتمع في بعض الليالي بشاعر بلد سليمان العالم الشيخ محمد ماضور الأندلسي[1] في بيت صديقه الكاتب الشيخ محمد المسعودي واتفق في مسامرة تلك الليلة أن أدار القهوة على ذلك الجمع، وسيم لطيف الصنع، وحين دخوله يحمل فناجينها بأنامله، وطلوعه عليهم ببدر أشرق فيه بكامله، أصاب شمعة المجلس الموقودة، فانحنت انحناء من يروم سجوده، إذ رأت منه شمعة الجيد التي لا تقط، ولا تطفأُ قط، وأنشد الشيخ محمد ماضور في وصف الحال من لطائف المسامرات فقال [2]:

[الرمل]

ليلةٌ قد عظمتْ بين الليالْ ... فهي في جيد المُنى عقد اللآلْ
وأرتنا عجباً إذ جمعت ... بين شمس ثم بدرٍ وهلالْ
سعدت إذ أنزلتنا منزل المسـ ... ـعودي الشهم المفدى ذي الكمال
وبإبْرَاهيم أبدت منظراً ... هام فيه القلب إذ عز المثال
فارتياحي بالرياحيَّ غَدَا ... وكذاك السعد بالمسعود(ي) طالْ
ليلة جد بنا الأنسُ بها ... طرباً بين يمين وشمالْ
وأديرت قهوة البنِّ عَلَى ... جمعنا يسعى بها بدرُ الكمال
فانحنى الشمع منيباً ساجداً ... سجدةَ الشُّكْرِ لهاتيك الخلال
فهو والقهوةُ والفنجانُ في ... كفه يبدي غريبا في المثال
قمراً قد عَصَرَ اللّيلَ على ... صفحةِ الفَجْرِ فَضُمَّتْ باحتفال
مزج الحُلْوَ بمرٍّ فكأنْ ... قد أرانا القرب والبعد المُطَال
يا لها من ليلة قد جَمَعَتْ ... كل أُنْسٍ وبهاءٍ وكمال

وأنشد الشيخ إبراهيم الرياحي في ذلك من شعره قوله:

[الطويل]

تلقيت من أخباركمْ كلَّ طُرفة ... أنظِّمُها في جيد أسمارنا عقدَا

(1) محمد ماضور كتبنا عنه في العمل الثقافي بحثاً مستفيضاً وتوفي الشيخ ماضور سنة (ـ 1226).
(2) هذه الأبيات لم تذكر في ديوان الشيخ محمد ماضور.

وكنتُ بتشنيف المسامع أكتفي ... وأكبر بَشَّاراً بما قاله جهدا
ولما نما شوقي وزاد تولهي ... سريت لكم ليلاً أبثكمُ وجْدا
وما كان لي هاد سوى نورِ حسنكم ... إليكم، فلم أعدم بقولكمُ رشْدا
وحيث إلى المسعود(ي) كان انتهاؤنا[1] ... زجرت فكان الزجر يستنتج السعدا
فبت وما ليلي سوى لمح بارق ... وإن طال من دهري تنفسه الصعدا

ومن لطائفه أنه استجار به العدل الشيخ منصور الورغمي في لبس الملوسة[2] حين ألزمها الأمير حسين باشا باي لكافة العدول على نظر الشيخ محمد بيرم الثالث وكان دميماً، فاستهجن لبسها وخاف أن يتعاطاه الناس بسببها، فكتب الشيخ في ذلك إلى شيخ الإسلام البيرمي الثالث مستشفعاً بقوله:

[الكامل]

كبرت عليهم إنها لكبيرة ... منصوبة علَماً على التمييزِ
فتفرقوا أيدي سبا في فضلها ... والخلف بين الناس غير عزيز
فعلى فريق منهم هي مُثلةٌ ... ولبعضهم زلفى إلى التبريز[3]
أما «بنو ورغمة» ففقيههم ... لهم يجر مذهبه على التجويز
فلذاك رام حماك علماً أن من ... يأتيه في حرز هناك حريز
فأجِرْه من همزٍ ومن لمزٍ بها ... ما حالة المهموز والملموز
لا زلتُم كهفاً يُلاذ بعزِّه ... فينال فوق القصد كل عزيز

وقد أجابه عن ذلك شيخ الإسلام المذكور بقوله:

يا أيها العَلَمُ الذي حسناته ... شَرُفَتْ بطلعتها على الإبريز
وجَّهْتَ لي دررا يُقِرُّ بحسنها ... أهلُ الصياغة من أولي التبريز

---

(1) في الأصل كان انتهاءنا بدون واو الهمزة.

(2) تحدث عن إلزام لبس الملوسة للعدول في تعطير النواحي (ج 1 ص 96).
والملوسة هي نوع من العمائم على شكل مخصوص ولبسها خاص بالعلماء، وهي مأخوذة من الترك.

(3) في الأصل: التمييز.

فعـرفْتُ مطلبهـا، ونيْـلُ مـرامهـا سهـل يمين الله غيـر عـزيـز
فعليـه تـأخيـر العمـامـةِ بـرهـةً حتى يكـونَ القـولُ في التمييـز

ثم إن شيخ الإسلام المذكور أطْلع المولى الجد الشيخ مَحمد السنوسي قاضي باردو يومئذ على الطلب والجواب، واستجلى منه في النازلة عين الصواب، فكتب إليه بقوله:

[الكامل]

قـل للفقيـهِ المستجـاهِ بجـاهـهِ في رفْـعِ نصب حُقَّ للتمـييـز
إنّ النحـاة النَّصْب حتماً أوجبـوا في بـابـه وأبـوْا من التجـويـز
واستهجنَ الـدؤلي لحناً سـاقـه نـقـلاً من الأمـثـال للتبـريـز
وكذا، العمومُ إذا تخصص بعضه ضَعفـت دلالتُـه بـنَصِّ الجيـز
والـظن فيمن يستجيـرك أنـه منصـور دمت تفـوق كـالإبـريـز

واتفق أن شاع خبر فناء الخلق في هذا القرن[1] ونسبه أهل الأهواء إلى العالم الرباني، الأستاذ المربي الشيخ أحمد التجاني ـ رضي الله عنه ـ مع أن ذلك مما ينبو عنه مقام أدبه وسلوكه في الشريعة التي صينت من كل نقص، وكملها الله على يد خير خلقه بمحكم النص، وقد جاء في الآيات المتلوة في القرآن الذي أتمّ الله إبداعه. «وعنده علم الساعة». وهكذا الاعتقاد فيه وفي كل من ماثله أن لا يجريَ واحد منهم في جميع الأقوال والأعمال، إلا على ما وردت به شريعة خاتم الإرسال. ولذلك لا يجوز لنا أن نأخذ مما ينقل عنهم غير ما جرى على سنن الشرع القويم، إذ ذاك دليل صحة نسبته إليهم في حالة الصحو بالنظر لمقامهم العظيم. فهم أحفظ الناس لسياج الشريعة التي جمعت ما كان ويكون، ولا يتمسك بسواها إلا الجاهلون، وعند شيوغ ذلك الخبر سنة 1241 كتب الشيخ محمد بيرم الرابع يسأله عن صحة ذلك بقوله:

---

(1) مثل حدوث هذه الشائعة في القرن الثالث عشر، حدث في القرن العاشر، وألّف في ذلك السيوطي رسالة سماها: (الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف)، ردّ بها ما ادعاه المدعون من أن الأمة الإسلامية لا تتجاوز الألف سنة.

[الطويل]

أيا من رَقَى أوج المعالي وقد غدت ... إليه مقاليدُ العلوم تسلَّمُ
لقد ظهرتْ رؤيا لها نسبةٌ إلى ... إمام له بين الأنام تَقَدُّمُ
همام على دست المعالي وقد علا ... مراتبُه من موقع النجم أعظم
ملخَّصها أن الأنامَ جميعَهم ... لذا القرن تفْنَى دون ريبٍ وتعدم
أهل هو مما صحّ عندك نقله ... عن الشيخ أم للمين فيه توسم؟
أجبنا رعاك الله عن كنه أمرها ... فأنت لها من غيرك اليوم أعلمُ
لأنك ممن خاض لجَّةَ بحرها ... وأضحى بتحقيق لها يترنَّم
بقيتَ لنا كهفاً وللحق ناصراً ... وللصعب من دأب البغاية تَحْسِمُ
ويطلب رب النظم حسن دعائكم ... ألا وهو الداعي «محمدُ بيرم»

فأجابه الشيخ إبراهيم الرياحي مكذباً ذلك بقوله:

أيا من سَبَى الألباب لطف كلامه ... كما أنه في الأذكياء المقدَّم
أَتَتْنِيَ مِنْ سحر البيان قصيدةٌ ... وما هِيَ إلا عقدُ دُرٍّ منظمُ
تسائل عما شاع في الناس ذكرُه ... أَهَلْ لَهُ أَصْلٌ في الثبوت مسلم؟
نعم هو ريبٌ دون مين وما له ... ثبوتُ وأمرُ الشيخ أعلى وأعظم
جزى الله خِزْياً مُفْتِريه وذلةً ... ومأواه إن لم يعف عنه جهنم[1]
فهذا جواب للذي هو طالبٌ ... حقيقةَ هذا الأمر والله أعلم
ويسأل إبراهيمُ من فضل ربه ... لك الأمن في الدارين وهم يسلِّم

وكانت له معرفة بأسرار تليق بمثله من العلماء الأخيار، قدم إليه أحد الأفاضل وقد أضغطه غريمه، واشتكى إليه ما يلاقي من شر الافتضاح، فأذن له بذكر اسم من أسماء الله تعالى في خلوة، وأنه عند نهاية الذكر يجد مقدار دَيْنِه تحت بساطه، فوجده قطعاً غير مسكوكة. ولما أعلم الشيخ سأله عن كيفية ذكره، فوجد فيه خللاً وأذن له في تداركه، فتم له المراد، ونهاه عن العود لمثل ذلك.

وأتته امرأة تشكو إصابة ولدها بالجنون، وتلظت لديه، فأسعفها ببطاقة

(1) في الأصل قريباً له إن لم يصبه جهنّم.

تبلغها إلى ضريح الشيخ فتح الله العجمي[1]. ولعلّها تتضمن توسلات له، فعوفي ولدها بعد حين، وذلك من أدلة حسن اتصال علاقته بأولياء الله ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

وكانت له سانية في سفح جبل المنار تحت زاوية الشيخ الظريف ـ رضي الله عنه ـ يسكنها مدة المصيف، فاتخذ منها مسلكاً للزيارة ليلاً، وقد نقل لي عن صهره أنه سمع له حديثاً عند الضريح، يدل على ما له من الود الصريح.

أما وصلته مع العارف بالله العالم المربي الشيخ مصطفى بن عزوز النفطي أُستاذ الطريقة الرحمانية ـ رضي الله عنه ـ[2]، فكان يتجاذب معه أطراف الأسرار الربانية، وله فيه مدائح شعرية، ومكاتيب نثرية، وقفت على بعضها، وهي تدل على كمال تعلقه بأهل الله في كل ما يرجوه، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه، ومن لطائفها أبيات جعلها في طالعة جواب له مؤرخ بسنة خمس وستين ومائتين وألف وهي قوله:

[الكامل]

جاء الكتاب من الحبيب مبشِّرًا ... بقدومه يا مرحباً يا مرحبا
قد رد لي عهدَ المسرة مثل ما ... بقميص يوسفَ رُدَّ ما قد أُذْهِبا
أُهدي إليك تحيةً مِسْكيةً ... يا مصطفى يا منتقى يا مجتبى
مستودعاً منك الدعاء وأنت في ... حالٍ تراها للإجابة أقربا

ورأيت من مكاتبتهما كتاباً سرياً بخط الشيخ إبراهيم الرياحي يخاطب به الشيخ المذكور آثرت إثباته لما فيه من الإلماع بحال كل منهما وهذا نصه:

الحمد لله والصلاة على أفضل من صلّى عليه الرحمٰن.

يا ليت سيدنا وحبيب الله ورسوله صرّح لنا بما أشار به إلينا مرتين من قرب الأجل، المرة الأولى ونحن معك على البنك[3] في محل الحكم والصلاة في

(1) الشيخ فتح الله العجمي توفي سنة (847) وزاويته قريبة من جبل الجلود. الزركشي (ص 125).
(2) الشيخ مصطفى بن عزوز (ـ 1282) (شجرة النور ج 1 ص 391).
(3) البنك مقعد للجلوس يسع عدداً مخصوصاً حسب وضعه.

دريبتنا من قولك لي: رأيتك كأنك مت ولم توجد وأن روحك كالذبابة. والمرة الثانية ما ذكرت لنا في جوابك المبرور من قولك: إن الجنة مشتاقة إليك. ولولا ما خفت أن يعثر على جوابي غيرك لكتبت لك كلاماً آخر فيا ليت سيدنا ـ رضي الله عنك ـ رحمتني بالتصريح بما تريد أن تصرّح لي به، فلعلّ في ذلك تحريضاً على ترك المهلة، وبعثاً على التشمير لدار النقلة، أو غير ذلك مما يوجب الإعراض عن الفانية، والإقبال على الباقية، فإن المواعظ والنصائح إذا خرجت من أهلها كانت كالسهام لا تخطىء. هذا وما بشرتنا به من الحشر مع أولئك السادات أسأل الله أن لا يخيبنا ولا يرد كلامك فينا وإلا فالعبد الذليل لا تحدثه نفسه بما هو أدنى من ذلك، فضلاً عن الكون مع أولئك[1]. بل الإنسان على نفسه بصيرة، وليست لنا طماعية في ذلك الشأن، إنما لنا طماعية في الغفران. وإذا كان خليل الرحمٰن يقول: «والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين» فأين جاء طمع مثلي، فإنا لله وإنا إليه راجعون. نعم سيدي وقد غمني غماً عظيماً إرسالك لي السبولة العطرية[2].

وقد كنت أخبرتك بأن التعويض عما أرسلت إليك من الأمور المكروهة غاية عندي حتى استعذت من ذلك، وقصدت بذلك أن لا تهتم معي في مثل ذلك، فخالفتني في التعويض وإن وافقتني في تفضلك علي بالدعاء جزاك الله جزاء المحسنين. هذا ومما يَغُمُّني أيضاً ويثقل علي وصفك لي بأوصاف حميدة أكثرها ما في عبدك إلا ضدها، فلو أنك إذا خاطبتني خاطبتني بما يناسب حالي لسررت بذلك. ولكنك رأيت كمالك في عبدك فنسبت ذلك إليه، كما إذا ارتسمت صورة جميلة في صفحة مرآة فلما رأى المرآة إنسان ظهر له جمال المرآة وإنما الجمال للصورة التي انتقشت في المرآة. نعم سيدي ولا تنسني من دعائك، في وقت هجوم حالك، وطيب اجتناء الشهد من خمر وصالك، وسلم لنا على خاصة أولادك وتلامذتك وعامة المنتمين إلى شريف خدمتك وطريقك.

---

(1) في الأصل: آلائك.

(2) الأسبولة هي زجاجة العطر.

من الودود ومن أولادنا الطيب وعليّ وسائر من هو منا وإلينا. والحمد لله رب العالمين. من الفقير إلى ربه، المشفق من سوء كسبه، إبراهيم بن عبد القادر الرياحي» اهـ.

[ترجمة محمد الطيب الرياحي][1]

وقد امتحن في آخر أمره بفقد ولده الأكبر الشيخ محمد الطيب، وكانت ولادته سنة ست وعشرين ومائتين وألف، فنشأ بين يدي والده وقرأ معقول العلوم ومنقولها عليه، وعلى شيخ الإسلام البيرمي الثالث وغيرهما، وتقدم للتدريس في الرتبة الأولى بجامع الزيتونة عند وضع الترتيب الأحمدي أواخر شهر رمضان المعظم سنة ثمانٍ وخمسين ومائتين وألف، وقد كتب في أثناء إقرائه حواشيَ على شرح المحلي لجمع الجوامع الأصولي، وحواشيَ على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، تدل على رسوخ قدمه، واتقاد ذكائه. وتقدم إماماً وخطيباً بجامع أبي محمد الحفصي [2] وخطب فيه بعض خطب من إنشائه. وهو محقق، أديب، شاعر، ناثر، يقذف الشعر من أبحر اللطافة، وينتخب النثر من أزاهر الظرافة، كأنما أودع في إنشاءاته، محاسن أخلاقه وبدائع توشياته، وقد جمعت منه شذوراً في كتابي مجمع الدواوين، تدل على تقدمه في الآداب على الأندلسيين، وكان عالماً حيياً جميل السمت عاليَ الهمة ظريف المحيا لطيف المحاضرة. وقد عذبت منه في العلم جميع موارده، وعاد عليه فخر نشأته في رياض فضل والده، إلى أن أدركته المنية بين يدي والده في غرة ربيع الثاني سنة ست وستين ومائتين وألف بمرض الكوليرة العام، ودفنه والده بالبيت الذي على يسار الداخل لبيت الذكر من زاويته التي أسسها قرب حوانيت عاشور، وتلقى مصيبة فقده بغاية الصبر.

---

(1) الشيخ محمد الطيب الرياحي، ترجم له في عنوان الأريب ابن اخته الشيخ محمد النيفر (ج 2 ص 97).

(2) جامع أبي محمد الحفصي هو من تأسيس أبي محمد المرجاني (ـ 699) وهو بحي باب السويقة. ـ معالم التوحيد (ص 70).

أخبرني العالم المفتي الشيخ أحمد كريم أنه كان يحضر درس الموطأ على الشيخ بداره، فكان آخر عهده به في ذلك الدرس أنه لما أنهى القراءة وأراد التلامذة أن يقوموا أجلسهم وقال لولده المذكور ـ وكان مدون الدرس ـ هل رأيت شيئاً فيما يتعلق بالموت الفجائي؟ فقال له: رأيت أن رسول الله ﷺ استعاذ منه، فقال له الشيخ: قد اطلعت ولا أدري في أي كتاب على أنها ميتة حسنة وكررها وسكت. ثم نهض الجميع فلم تمضِ غير أيام قليلة وأُصيب ولده المذكور بالمرض العام ومات، عليه رحمة الله.

وقد كاتبه المشير أحمد باشا باي في التعزية به[1] فأجابه بأوجز مكتوب قال فيه بعد المفاتحة:

«أما بعد فقد وصلني كتابكم الكريم، المُسلِّي عن النبأ العظيم. وقد أَسْلَمْنا طيب الولد إلى الله بقلبٌ سليم، وقلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، والسلام.

ولم يستكمل الشيخ بعد ولده الستة الأشهر حتى طوته الليالي طي السجل، وأتاه محتوم الأجل، بعد أن تجاوز في العمر الثمانين سنة.

وكان آدمَ بسمرة يعلوه اصفرار، رقيقَ البشرة، أحجب بقصر أبلج أشهل بضيق غاير، أشم بانفراج، أسيلاً ما، قصير اللحية، يتخلل شيبه خيال من بقايا الشباب، ربعة لقصر، تلوح على وجهه سيماء الصالحين. قضى عمره في العلم والعمل لله رب العالمين.

[وفاة الشيخ إبراهيم الرياحي]

وتوفي بمرض الكوليرة العام يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر رمضان المعظّم سنة ست وستين ومائتين وألف، من الغد حضر مشهد جنازته الأمير

(1) ذكر في تعطير النواحي رسائل التعزية التي أرسلها المشير الأول أحمد باي وما أجابه به الشيخ (ج 2 ص 51).

والمأمور، وتبرك بتشييعه الجمهور، ودفن إلى جنب ولده السابق الذكر بالمقام المذكور، ضاعف الله لهما الأجور، وحباهما الفوز الأكبر يوم البعث النشور.

وكانت وفاته ـ رضي الله عنه ـ من آخر العهد بالمرض العام وإلى ذلك أشار تلميذه ومجاوره في المدفن الشاعر الأكتب الشيخ محمد الباجي المسعودي في رثائه بقوله:

[الوافر]

أرى بحر الخطوب طما وأَصْمَى ... وأَصْلَى غالب الأكباد جمرا
فلما استعظموه اغتالَ فَرْداً ... يقوم برُزْءِ كلِّهم ومرَّا
أما في فقد إبراهيم خطب ... يعمُّ جميع أهل الأرض طرا

[الشيخ علي الرياحي]

وقد عظمت مصيبة فقده على سائر أهل الدين، وتلقاها ولده الثاني الشيخ أبو الحسن علي[1] بالرجوع لله ربّ العالمين. وكان الولد المذكور أيضاً عالماً زكياً، أديباً بديع المحاضرة، محباً لأعالي الأمور، ينظم الشعر الرقيق، ويطلق من رياض إنشائه أطيب عبيق، ولد سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف. ونشأ في خدمة العلم بين يدي والده، وتقدم مدرساً بجامع الزيتونة في الرتبة الأولى بعد وفاة العالم الشريف الشيخ محمد بن عاشور في صفر الخير سنة خمس وستين، وتقدم خطيباً بجامع سيدي يحيى قرب دار ابن عسال. وتوفي قبل عصر يوم الجمعة الثالث عشر من المحرم الحرام سنة ثمان وستين ومائتين وألف ودفن بالركن الثاني من بيت مدفن والده فاجتمع بالبيت المذكور ثلاثتهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

وقد أُقيمت تلك الزاوية بالأحزاب والأوراد اليومية وشيّد بناءها المشير الثاني مَحمد باشا باي لإقامة الأوراد التجانية، بذكر الله تعالى، ثم إن الوزير

---

(1) ثاني أبنائه هو الشيخ علي وثالث أبنائه كما يأتي هو الشيخ محمد الطاهر المتوفى سنة 1341.

الأكبر خير الدين ثاني وزراء دولة المشير الثالث محمد الصادق باشا باي أراد إحياء صناعة النقش حديدة بالبلد، فآثر لذلك قبة الزاوية المذكورة، سيما وقد كانت إذ ذاك محتاجة إلى بعض تدارك فأتقن تشييدها بحضور بعض عملة نقش حديدة من المغرب، ونقشت قبة الزاوية نقشاً بلغ من الجودة والإتقان ما يحار فيه الناظر على مصروف الدولة، وعند إتمامها على الوجه الأبدع طلب مني ثالث أبناء الشيخ مقدم الطريقة التجانية بها يومئذ أن نؤرخ هذا الصنع فأجبته لذلك، وأرختها بقولي:

[الكامل]

لمقـام إبـراهيم فـادخُـلْ آمنـا ... تجلو بـه فضـلاً عـظيمـاً كـامنـا
واخلع حجـابَك بـالتجـرّد للذي ... سَـوَّاك من طين وردَّك كـائنـا
واخلص إليه من المناجاة الرجـا ... واركب بعزمك وابتهـالك صـافنا
ومتَى وصلت حمى الرياحي فَخر تُو ... نس فانزلنْه فلست تخشى الآحنا
والبس بـه من تاج تُجَّـان حُلًى ... واحْمَدْ بأَحْمَدِها السـري مواطنا
وانهج له في الأرض خيرَ طريقةً ... لله تُلْفِـه في القيـامـة ضـامنـا
ورد الزلال بورده العـذب الذي ... أَرْوَى وأجـرى خالصـاً لا آسنـا
واقنت لـربـك عـاكفـاً متبتـلاً ... في خيـر زاويـة لحفظ دُعـائنـا
واشكُـرْ مشيدَ بنـائهـا ومُعيـدهـا ... فيها من النقش المجيد محـاسنا
ذاك المشير الصادق الباشا الذي ... لله دانَ فنـالَ منْـهُ مـآمـنـا
وأقـامَ خيـرَ مـآثـرٍ لـه فضلها ... بين البـريـة قـاطنـاً أو ظـاعنـا
وأجلـهـا هـذا المـحـل وإنـه ... لأعـز كنـز قـد أعـاد معـادنـا
فبـه انجلى أمنٌ ويمْنٌ ظـاهـرٌ ... فـاسأل إلٰهـك فيه تُلْفِ ميـامنـا
فهـو الـذي لمؤرخيـه جـوابـه: ... لمقـام إبـراهيم فـادخـل آمنـا

[. . . 1295 . . .]

- 41 -

الشيخ محمود محسن[1]

هو الشيخ أبو الثنا محمود بن علي بن أحمد بن محمد بن محسن بن أحمد الشريف إمام مسجد دار الباشا، شيخ العلم والعمل - رضي الله عنهم أجمعين -، وهلم جرا، إلى استيفاء سلسلة هؤلاء الأشراف بالوصول إلى جدهم سيِّد الأولين والآخرين، عليه وعلى آله أفضل صلاة المصلين، وأزكى سلام المسلمين، فيا لها من سلسلة فاخرة، كانت مجمع بحور الفضائل الزاخرة، وقد توسل بجواهرها الثمينة كثير من أهل الشان، ونظموها في عقود الجمان، وقد اختص منها آباء هذا الإمام إلى الوصول إلى سيدِّ الأنام، الشاعر الأكتب الشيخ محمد التطاوني[2] فقال:

[الطويل]

أما آن أَنْ تستبدلَ الغَيَّ بالرُّشْد ... وتثني عنان الهزل منك إلى الجدِّ
إلى م التواني والأماني شرابها ... سراب تبدّى[3] فوق رابيةٍ صلد
فبادرْ ولا تُرْج الأمور إلى غد ... فربَّ غدٍ يأتي بما ليس في العَدِّ
وسابق إلى سُبْل السعادة والهدى ... وشَمِّرْ لإحراز العلى ذيلَ مشتَدِّ
وكن واثقاً بالنُّجح في كل مبتغىً ... مُؤَمِّلَهُ في فضل من جَلَّ عن نِدِّ
ولا سيما إن رمتَه بشفاعة ... مِنَ آل نبي خُصّ في الذكر بالحَمْدِ
خصوصاً ذوي الإحسان من آل محسن ... كرام السجايا كم يد لهم عندي
إليك بهمْ يا ربِّ قد جئتُ ضارعاً ... بحقِّهمُ لا تخجلَنِّي من الطَرْد
فمحمود الأرضى ووالده الرضا ... عليٌّ أبوه أحمدٌ نيِّرُ المَجْدِ
ووالده المحمود وهو محمد ... سليلٌ لمحسن بن أحمد ذي الرفد
وذا حسنٌ يدعى أبوه، وجدّه ... عليٌّ وفوز الابن بالأب والجد

---

(1) هو الشيخ محمود محسن ترجم له في شجرة النور (ج 1 ص 392).
(2) له كنش أدبي يوجد بإحدى الخزانات الخاصة.
(3) في الأصل يلوح ولا يستقيم به الوزن.

وبـ «الحسن» الأسمى أبيه ابن أحمد ... سليلُ الذي لا زلـت فضله أستجدي
أبي القاسم الميمون نجلِ محمدٍ ... هو ابن قريش نجل عيسى أخي الزهد
وهـو ابن عبد بـالعبادة قـد غدا ... مُضافاً إلى الرحمٰن أكرم بذا العبد
ومن خلف المدعو بابن علي الشَّـ ... ـهير اقتبسْ نورَ الهداية[1] والرشد
ومن فرج المدعو بابن علي الـ ... جليل التمسْ تفريج كربك عن حد
وسـل بأبيـه القـرم وهـو محمـد ... مرادك كي تحظى به دون ما ردِّ
ولا تَعْـدُ إسماعيـل والده الـذي ... أبوه يسمى جعفر الصادق الوعد
وبـالباقـر الأتقى أبيه محمـد الـ ... ـهمام الذي حاز السيادة في المهد
وهو ابن زين العابدين علي الـ ... إمام الزكي الأصل ذي السؤدد العِدِّ
سليـل حسينٍ نجل فـاطمةَ التي ... هي الزهرةُ الـزهراءُ أُمّ ذوي ودِّ
أبـوه علي وهـو صنـو نبيِّنـا ... عليـه صلاة الله تترى بلا حـد
بِجَـدِّهمُ اللّهم يا خـالق الـورى ... ويا ملجأً المضطر يا وجهةَ القصد
أنلني رضاكم يوم لا شيء غيره ... يقـربني زلفى إلى جنـة الخُلد
ويا رب فاشهـد أنني قد أحبُّهم ... لحبك إياهم وذا مـا لهم عندي
وأستنـزلُ الرضـوان منـك عليهم ... لترضيهم عني وذا منتهى جهدي
وصلِّ وسلِّمْ ثم بارك على الذي ... أتى رحمـةً للعالمين بـلا جَحْـد

فقد توارث صاحب الترجمة مفاخر عن أبيه وجده، فبلغ بها من الفضل غاية حده، وله في إمامة الجامع من سلسلة سلف، أخرجه إليها إخراج الدر من الصدف.

[الشيخ علي محسن]

فقد كان المُنعَّم والده الشيخ أبو الحسن (علي محسن) إماماً ثالثاً بجامع الزيتونة على عهد البكريين بفضله وحسن تلاوته، وكان معظماً عند الخاصة

(1) في الأصل الهدية.

والعامة علماً وديانة، إلى أن توفي في السادس والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة 1209 تسع ومائتين وألف.

وكانت ولادة صاحب الترجمة سنة 1193 ثلاث وتسعين ومائة وألف، فتربى في حِجْر عناية والده، وقرأ القرآن العظيم على الفاضل الشيخ حسن بن عمر، يروى أن مؤدبه المذكور انتهره في بعض الأيام لأجل القراءة، فلم يتحمل ذلك لعزة نفسه، وأخذته الغصة ولازمه البكاء من ذلك الوقت إلى أن رجع إلى داره عند الزوال، واستمر عليه ذلك في قيلولة ذلك اليوم، ولما نام مؤدبه في داره رأى رسول الله ﷺ في منامه واضعاً ولده المذكور في حجره وهو يأمر مؤدبه باسترضائه، فقام من نومه فزعاً وخرج من حينه، واشترى فواكه مما يُرضي الصبيان، وجاءه إلى داره فوجده باكياً، فانكب عليه وأخذ يقبل يده ويعطيه الفواكه، ويسترضيه إلى أن سكن جزعه، وقص رؤياه على والده ـ رضي الله عنهم أجمعين.

ثم بعد قراءته القرآن العظيم توجه إلى قراءة العلم الشريف فقرأ على ابني عمه الإمامين الشيخ حسن الشريف، وأخيه الشيخ محمد الشريف، والشيخ الطاهر ابن مسعود. وقرأ على غير هؤلاء. وتصدى للإشهاد فعد من ثقات العدول.

ولما توفي شيخه الشيخ الطاهر بن مسعود خليفة الجامع وقدم الأمير محمود باي الشيخ «عمر بن المؤدب» للخلافة تقدم صاحب الترجمة للنيابة إماماً ثالثاً في ربيع الثاني سنة 1234 أربع وثلاثين ومائتين وألف. وكان الإمام الأكبر يومئذ ابنَ عمه الشيخ حسن الشريف، فاستمر إماماً ثالثاً زينة لجامع الزيتونة، وأولاه شهادة الحرمين، وهي يومئذ من الخطط النبيهة الشأن، فقام بحقوقها، ولازم المعاينة بنفسه. ولما علم الأمير بذلك أهدى إليه فرساً اعتناءً بشأنه، واستمر مباشراً للإشهاد والإمامة إلى أن توفي الخليفة المذكور، فقدم الأمير ولده «الشيخ الشاذلي»[1] نائباً، وقدم صاحب الترجمة إلى الخلافة، كما هو مقتضى

(1) محمد الشاذلي بن المؤدب (ـ 1262)، (شجرة النور ج 1 ص 386) وفي خزانة كاتبه كنشه.

الاستحقاق، فتقدم خليفة لابن عمه الشيخ محمد الشريف سنة 1239 تسع وثلاثين ومائتين وألف، فعمّر الجامع بمواظبته وإقامة الصلوات في أول أوقاتها. ولما تنقل الشيخ الشاذلي المذكور إلى خطة الفتيا أبى المشي خلفه اعتماداً على خطة الإفتاء، وعظم الخلاف بين الخليفة ونائبه بسبب ذلك، فبلغ أمرهما إلى الأمير مصطفى باشا، فأرسل قاضيَه وكاتبَ سرّه للمصالحة بينهما مع المحافظة على ترتيب الجامع في تقديم الخليفة على الإمام الثالث وحسنت العلاقة بينهما، واستمرا على ذلك إلى أن توفي الإمام الأكبر الشريف فرأى المشير الأول أحمد باشا تعين تقديم عالم العصر الشيخ إبراهيم الرياحي إلى إمامة الجامع، ولم يأنف من ذلك صاحب الترجمة لحسن إنصافه وعلمه بكمال رتبة الشيخ إبراهيم، بل إن ذلك لم يزدهما إلا تآلفاً،وكثيراً ما يقدمه الشيخ إبراهيم على نفسه ويرغب مع ذلك في مؤانسته ومودته حتى أنه لما حضرته الوفاة أوصاه بصغار أولاده، ولما توفي نائبه الشيخ الشاذلي في صفر الخير سنة 1263 ثلاث وستين تقدم الشيخ «محمد البنا»[1] نائباً عن الخليفة المذكور. ثم لما توفي الشيخ إبراهيم الرياحي قدمه المشير الأول أحمد باشا إلى الإمامة الكبرى في التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة ست وستين ومائتين وألف وأولى خليفته الشيخ أبا عبد الله محمد البنا. وقدم للنيابة شيخ الختمة العالم المجود «الشيخ أحمد القروي»[2] بعد أن كان كثير النيابة عمن قبله عند عروض الأعذار، وكان في الثلاثة الأشهر المعظمة يجلس على الختمة لتجويد القرآن بعد صلاة الظهر، وبعد الفراغ يحضر مجلس الأيمة لرواية الشفا. وأقام الصبح والعشاءين مدة مديدة من قبل ولايته النيابة بإذن من الأمير.

وقام هذا الإمام الشريف بخطة الإمامة الكبرى بجامع الزيتونة أحسن قيام، وكان معتقداً للخاص والعام، فاضلاً كريماً، عزيزَ النفس، عاليَ الهمة، مهاباً معظماً، غيوراً، أولاه المشير الثاني محمد باشا وكالة زاوية السيد أبي زَمْعة

---

(1) محمد البنا (ـ 1283) (شجرة النور ج 1 ص 391).

(2) أحمد القروي اشتهرت عائلة القروي بكون رجالها من حذاق القرآن.

الصحابي بالقيروان[1]، فحاسب من كان قبله وأنتجت المحاسبة نيفاً وسبعين ألفاً، استأذن فيها الأمير، فامتنع الأمير من التداخل فيها وفوض أمرها إليه يفعل بها ما شاء من أكلها، والتصدق بها، أو ما يظهر له. فبادر واشترى بجميعها زياتين بمرناق[2] وديارا بتونس، وأوقفها على الزاوية. ولما جمع المشير الثالث جميع الأوقاف لاحتساب أمير الأُمراء رشيد لاطفه المحتسب المذكور في طلب الزاوية على لسان الأمير، فأنكر ذلك وتغير له، وقال له: إنه إذا عزلني عن الزاوية المذكورة فإني (نخرج من البلد)[3] وبمجرد بلوغ خبر ذلك للأمير أرسل إليه مع لسان الدولة يعلمه بأن المحتسب المذكور أتاه من قبل نفسه لا بإذن، وأنه كيف يعزل شيخه الذي أخذ عنه الطريقة التجانية، وإنما يرجو رضاه، وعند ذلك سكن غضب الشيخ ودعا للأمير بخير، ومن الغد قدم إليه لسان الدولة المذكور بسبحة من عنبر وثلاثة آلاف ريال، وأمر في تمليكه هنشير الديوان قرب مرناق جلْباً لخاطره، نال منه بذلك الدعاء الجميل. أدركته ـ رضي الله عنه ـ على هرمه لا يتخلف عن الرواية في الأشهر الثلاثة مع ضعف بصره، وكان مع ذلك ينسخ صحيح البخاري بخط يده بأحرف كبيرة تساعده على القراءة، ويصلي الظهر والعصر، ويخطب في الجمعة والعيدين والناس يتبركون بأذياله إلى أن عجز، فصار إنما يحضر الجامع بحسب مقدرته. وهو الذي جعل لسائر أبواب بيت الصلاة مراتج من بلور[4] وقاية من الريح والبرد فأحسن بذلك للمصلين والمدرسين.

ومن ورعه ـ نعّمه الله ـ أنه لما ورد ماء زغوان إلى الحاضرة ومروا به على ميضاة الجامع بعد أن أدخل إلى بعض ميضاوات غيره من الجوامع امتنع الشيخ

---

(1) زاوية أبي زمعة البلوي أُسّست في العهد المرادي وأبو زَمْعة عبيد بن أرقم توفي بإفريقية سنة (34) في غزوة معاوية بن حديج، (معالم الإيمان ج 1 ص 97).

(2) مرناق الآن اسم ضاحية من ضواحي تونس، وانظر فيما يتعلق بتاريخها رحلة التجاني ص (7) طـ الأولى.

(3) وإلاّ فإني (نخرج من البلد) قصد به حكاية لفظه وإلا فالتطابق بين المبتدأ والخبر فإني أخرج بالهمزة.

(4) أبواب البلور عوضت الآن بعد الاستقلال بغيرها.

من إدخاله إلى ميضاة الجامع لما يذكر فيه من الشبهة نظراً لاستحقاق أهل البلد الذي فيه منبع الماء.

وقد كان له ثلاثة أبناء وهم الشيخ (الطاهر) والشيخ (مصطفى) والشيخ (عبد الرحمٰن) توفي أولهم أوّلاً وتلقى الشيخ مصيبته بالصبر وتوفي ثانيهم ليلة الثلاثاء الثالث من ذي القعدة الحرام سنة 1284 أربع وثمانين ومائتين وألف، وصبر لذلك أيضاً غير أنهما خلفا له محمدين حفيدين له، ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

ثم توالى عليه الهرم والمرض واشتاق إلى لقاء الرحمٰن، فأدركته المنية وله من العمر سبع وثمانون سنة[1] وتوفي عشية الجمعة السادس عشر من رمضان المعظم سنة أربع وثمانين ومائتين وألف وتبرّك الأمير والمأمور بحضور جنازته وصلّى عليه الشيخ (علي العفيف)[2] أمام باب البهور بجامع الزيتونة بوصايته ـ عليه رحمة الله ـ وقد رثاه الأكتب الشيخ المختار شويخة[3] بقوله:

[البسيط]

وِرْدُ المنايا على الأيام مورودُ ... وشربُها المضّ بين الخلق مقصود
سيّان مَنْ عَزَّ أو هانت معاقلُه ... لا يفتدى والدٌ منها ومولود
تلك الليالي ـ وإن جادت بما وعدت ـ ... غطاؤها منك مسلوبٌ ومردود
ألا لعاً للأماني فهي مرحبة ... ولا لعاً لليالي فهي تنكيد
لا يفتدي امْرَأً ذا عزة أسفٌ ... إنّ المجد برَيْب الدهر مَجْدُود
لا تنقع الظامىءَ المصدور موجعة ... أو ينجع الفاقد المحزون مفقود
أظلّ[4] ذا الوجد من ذا الخطب مغتبطاً ... في الحي يرتاد طلقاً وهو مردود
سَلِ المنايا لمن ولت عزائمها ... وسددت سهْمَهَا؟ لا كان تسديد
بالفاضل المحسن المحمود قد نَشَبَتْ ... أظفارها فتولت وهو منجود

(1) الصواب في سن الشيخ محمود محسن أنها إحدى وتسعون سنة لأنه ولد سنة (1193).
(2) علي العفيف (ـ 1292) (شجرة النور ج 1 ص 395).
(3) المختار شويخة أحد الكتبة بالوزارة الكبرى له كنش حافل.
(4) في الأصل: أضلّ بالضاد.

من الألى فَرَض الرحمٰن حبَّهُمُ ... فـودُّهـم لأمـان الأرض إقليـد
شمٌّ معـاطسهم زهـرٌ مكـارمهم ... والكـل يصحبهم عـزٌّ وتمجيـد
فطب حديثاً وقل ما شئت من كرم ... فكل فضلٍ لأهـل البيت مشهود
قـد كان غيثاً هطولاً في فضـائله ... تـرى مزايـاه عِقْداً وهـو منضـود
ثنيتين من بعد خمسين سمت حججاً ... يؤمُّ وهو على الإجلال مـوطـود
يسدد القول عن أغراض موعظة ... لانت لمـوقعها الصمُّ الجَـلَامِيـدُ
ففي المنابر نحْبُ الآسفين وفي ... صـدر المجالس تـأويهٌ وتصعيـدُ
فلتغمضنَّ [1] جفون المجد عن أسف ... فـإنه في جفـون الأرض مغمـود
سقى لمضجعـه الأسنى وعـاوده ... غب الأصـائـل والأبكـار تـأييـد
مـا ظل ينشـد عنـوانـاً مؤرخـه: ... مأواك محسنُ في الفردوس محمود

[... 1284 ...]

- 42 -

الشيخ محمد محسن

هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن محمد بن محسن بن أحمد الشريف، إمام مسجد دار الباشا. وهلم جرا إلى الوصول إلى أصل الوجود ﷺ. ناهيك به من صفوة صفت مشاربه، وعزت مآربه، حفيد إمام جامع الزيتونة، وقد كان والده سميُّه عظيمَ القدر جليلاً فاضلاً، يغلب عليه الصلاح، تجاوز الثمانين سنة، واستدعاه المشير الثاني محمد باشا في مبدإ دولته وتبرك به وأخذ بيده حين وصوله إليه وشيعه حين خروجه من عنده، ونال منه الدعاء الصالح وأكرمه بمال عظيم، ثم اشترى له داراً كانت جوار داره بما أرضى صاحبها، وتوفي بعد دولة المشير المذكور. وأعقب فحْليْن من أولياء الله وهما: الشيخ أبو الحسن علي وأخوه صاحب الترجمة.

---

[1] في الأصل فلتغمظن بالظاء المشالة.

الشيخ علي محسن

أمّا الأول فقد ولد سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف ونشأ في فضل بيته وقرأ القرآن إلى أن وعاه حفظاً. وقرأ العلم الشريف بجامع الزيتونة على الشيخ علي العفيف، والشيخ محمد النيفر الأكبر، ثم سلك طريق أهل الله، وأخذه الجذب وكان في حدود الخمس والخمسين بعد المائتين والألف يحضر جامع الزيتونة، وينكر على المصلين السعال. وربما ضرب من أخذه السعال، فأمسكه عمه إمام جامع الزيتونة الأكبر في الدار، وقيده يوم السبت وكانت والدته تخرج في الليل فتجده يدور في وسط الدار، أو أنه يتوضأ حتى إذا جاء النهار أصبح في قيده. وفي ليلة الثلاثاء حضر لدار عمه ثلاثة أشخاص وقرعوا عليه الباب وطلبوا مقابلته في ذلك الوقت، فخرج إليهم فطلبوا منه فك قيد ابن أخيه وأعلموه أنه سيلازم الدار من يوم الجمعة القابل إلى أن يستكمل أربعاً وثلاثين سنة يكون فيها قطباً بأراضي السودان، ثم يخرج ويحسن سلوكه ويلازم جامع الزيتونة، وعند ذلك أرسل عمه في الحين بفك قيده، وكان الأمر كما ذكروا، فإنه لازم داره[1] التي قرب الجامع الحسيني، وتعاطى هدمها إلى أن خرج منها أهله، واستمر في هدم الديار المجاورة لها. وكان كلما وصل إلى دار أرسل الأمير إلى صاحبها ودفع له ثمنها وتركها له، إلى أن عظم البراح الذي أقام فيه. وقد أدركته وهو إنما يظهر من السطوح أحياناً أو أنه يُخرج التراب من كوة فتحها إلى أن استكمل أمده، فخرج في أواخر عام تسعة وثمانين ولازم التردد بين داره والجامع.

ولما توفي ولي الله الشريف الشيخ سيدي محمد الصوردي[2] يوم عاشوراء من المحرم الحرام عام تسعين ومائتين وألف، انتشر الشيخ بعد ذلك في الترداد على كثير من جهات البلاد، ثم لازم جامع الزيتونة مدة، وأكثر جلوسه ومبيته فوق دكانة سيدي منصور[3]، وتارة يبيت بمقصورة سوق القماش، وهو على

---

(1) دار الشيخ علي محسن هي زاويته الآن.

(2) زاوية الشيخ الصوردي قرب تربة البايات بتونس.

(3) الشيخ منصور بن جردان توفي سنة (904) الخلاصة النقية (ص 84).

أكمل حالة من الزهد في الدنيا، يلبس جبة من صوف ويتردى برداء، وعلى رأسه خرقة من الصوف وفي رجله بشمق، وتارة لا نعل في رجله. وهو مع ذلك من أعظم خلق الله هيبةً وكمالاً، مع غاية الأدب والتفاني في الله. وقد نقل عن بعض أهل الله أنه ولي غوثاً بعد القطبانية. وكراماته ـ رضي الله عنه ـ كفلق الصبح. ولم يزل أمر سلوكه وصحوه في تقدم وازدياد إلى أن أدركته المنية عن حال صحة آخر ليلة الثلاثاء العاشر من ربيع الأول سنة 1298 ثمان وتسعين ومائتين وألف، وتوفي على جرد حصير متوسداً حجارة، وحسبه بذلك فخراً لزهده ـ رضي الله عنه ـ. وأخرجت جنازته من دار حفيد عمه، وصلّى عليه بجامع الزيتونة عند باب البهور، وحضر مشهد جنازته الأمير وآل بيته والوزراء وجميع العلماء وكافة الأهالي حتى أن جامع الزيتونة وجميع رحابه غصت بمن لم يعهد اجتماعهم لمن سواه، ودفن بزاويته قرب الجامع الحسيني. وقد رثيته فقلت:

[الكامل]

ما للمشاربِ صفوُها لا يحسنُ ... هل فارق الدنيا عليٌّ محسنُ
إيهٍ لقد تاقتْ له الأخرى، لذا ... أخذته كي بكماله تتيمن
علمت بأنه بضعة المختار ذو الأ ... سرار مَنْ قد طاب منه المعدِنُ
فهو الذي نادته حضرةُ قدس خا ... لِقِه إلى إدراك ما هو ممكن
وسقاه من كأس التفاني فاحتسى ... صفوَ الشراب لأنَّ سُكْرَه يُزْمن
فغدا نديماً في خدور صيانة ... ولغير من يهواه ما أن يسكن
ورأى الجمال وشاهد الإجلال والإ ... قبال في قربٍ له مستوطن
وحوى جلَالاً من أجلِّ تعرّفٍ ... أبدا به فضلُ المعارف أحسن
لا يستفيق من الغرام ملازماً ... لتأدبٍ فيه يحار الأفطَنُ
يحيي الدياجي بالمناجاة التي ... أمسى بها في سره يتفنَّنُ
ولذا تبدَّى معرضاً عن كل ما ... في هاته الدنيا وإن هو يحسن
فالزهد فيها وصفُه بين الورى ... ومتاعُها أبدا عليه لَهيِّنُ
مع أنه ملك التصرف في القَطَا ... بة واغتدى بكمالها يتزين

ورقى إلى غَـوْثِيّةٍ يسمـو بهـا ... في مجمعِ التصريفِ وهو الأمكن
يُجري الإلٰه على يديه جميع ما ... في عـالم الـدنيـا غَـدَا يتكـوَّن
والأوليـاء جميعـهُمْ مـن دونـه ... وبـذاك أنبـا منـهمُ مَـنْ يُعْـلِن
ولـه بذا شَهِـدت كرامـات بَدَتْ ... متكـاثـرات حصـرهـا لا يمكن

فخـرٌ سما بـه من وراثـة جـده ... خيـر البـريـة شـامَـه المستيقنُ
فيـه اقتـدى بعَلِي أبيـه وجـده ... لـكـنـه أعـلاه سـبـقٌ أَيْـمَـنُ
ولَكَم لَهُمْ في بيتهم من سيـد ... في الأوليـاء تـراه وهـو يـلقَّن
ولَكَمْ بفضلهمُ استجار ذَوُو الرجا ... لله في خَـطْبٍ فصـار يُـهَـوَّن
ولكم بهم في تونسَ الخضراءِ يُسْـ ... ـتَسْقَى الغَمَامُ وما تَـريَّثَ يدمن
لله مـا شرفٌ على شـرفٍ سمـا ... شـرفاً، بـه الأشراف طُـرًّا تُعْلِنُ
فلْيَتَّعِظْ بمماتـه من قـد درى ... بمقـامه العـالي، فَفَقْـدُهُ محـزنُ
وليعتبـرْ أهـل النهى بكمـال من ... قـد شيَّعُـوه مَتى دعـاه المـوطنُ
ولئن يكن دفنـوه في قبـر سمـا ... بـالفخـر منـه ففضله لا يـدفن
فليعتقـده المستميـر منـاديـاً ... لـه بـاسمـه فله الإجـابـة ديـدن
وليستغث بـه من يناجي ربَّـه ... وليَسْتَجِـرْ بـه من تصبْـهُ الأعْيُنُ
ولـيـتـخـذه وسـيـلةً لله فـي ... مـا قد عرا فبه التـوسـل أعـون
وليتخـذ ذو النسـك عنـدَه خلوة ... فيهـا يـرى مـتبـتـلاً لا يُفْـتَن
فهـو الذي خلع الإلٰـه عليه من ... حـلل الرضـا خلعـاً بهـا يتـزين
وهو الذي قد نال سـابغ رحمـة ... عنـد الإلٰـه بهـا غـدا يتمكن
والله مـجَّـدَهُ فـقـلت مـؤرخـاً: ... في مجـد رحمتـه عليٌّ محسن

[... 1298 ...]

وأما أخوه صاحب الترجمة فقد ولد سنة 1226 ست وعشرين ومائتين وألف. وحفظ القرآن العظيم حفظ تثبت وجوده. وقرأ العلم الشريف على شيوخ كثيرين، منهم الشيخ أبو عبد الله محمد البنا، والشيخ محمد النيفر، ثم اشتغل بأحواله وتعاطى التجارة بسوق القماش وسوق العطارين الكبار مع ملازمته تلاوة

القرآن ثم إنه تقدم لمشيخة أحزاب الأسبوع لجامع الزيتونة عند وفاة الشيخ الذي قبله. ولما توفي نائب الخليفة الإمام الثالث الشيخ أحمد القروي قدّم المشير محمّد الباشا صاحب الترجمة للنيابة إماماً ثالثاً. وقدم الشيخ محمد بن سليمان إماماً للتراويح وشيخاً على الختمة، وكان خليفة الجامع يومئذ هو الشيخ محمد البنا والإمام الأكبر هو عم صاحب الترجمة الشيخ محمود محسن. فقام بالنيابة أحسن قيام، في كثير من الأعوام، ثم عند وفاة خليفة عمه قدمه المشير الثالث محمد الصادق باشا باي خليفة لعمه في أواسط المحرم سنة 1283 ثلاث وثمانين ومائتين وألف، وصادف ذلك هرم عمه وعجزه فقام متحملاً أعباء الخطة ولازم المحراب والمنبر وقام بالخمس والجمعة إلى أن توفي عمه فقدمه المشير المذكور لخطة الإمامة الكبرى بجامع الزيتونة أواسط شهر رمضان المعظم سنة 1284 أربع وثمانين ومائتين وألف. ولما توفي إمام التراويح وشيخ الختمة الشيخ محمد بن سليمان تقدم عوضه ولده الشاب الشيخ حمودة محسن، فرآه أبوه متقدماً بمحراب جامع الزيتونة، ونال مسرة ذلك. وكان عليه رحمة الله مصاباً بذات الرئة[1] اشتد به المرض بعد حين، ولازم الفراش في مبادىء عام تسع وثمانين حتى منعه من الحضور لعمل المولد الشريف.

وكان حسنَ الأخلاق حسنَ المحاضرة، تقياً بالله، لا تأخذه في الله لومة لائم. دخل في أعضاء المجلس الأكبر مدة القوانين، فظهر منه النصح للأمة والدين. وهو معتقد عند العموم تُجِلُّه الخاصة والعامة؛ أخبرني خليطه أبو عبد الله محمد بروطة[2] أنه في صفر الخير من عام وفاته مرّ على دار الشيخ علي محسن فرآه فقال له: هل تأتيني بأخي؟ فأجابه لذلك، وطلب من صاحب الترجمة الذهاب إلى أخيه، وكان يومئذ يجد ألم صدره، فأحضر له كروسة، وذهبا معاً إلى الشيخ، فلما رآه الشيخ قال له: أأنت أخي؟ فقال له: نعم. فقال له: وهل بقيت دارنا التي بها شجرة الحناء؟ فقال له: نعم، فقال له: أو إن الحناء الآن موجودة؟ فقال له: إن الشجرة قد ماتت. ثم سأله عن عمه فأخبره

(1) في الأصل ذات الريئة.

(2) أبو عبد الله محمد بروطة كان هو المتولي لأمر بناء القصر السعيد.

بوفاته، فسأل عمن تركه، فأخبره بأبنائه، فطلب إحضارهم فأحضروهم له في الحين، وبارك عليهم، وأمرهم بالرجوع من حيث أتوا ثم طلب من أخيه الإمام الأكبر صاحب الترجمة أن يدخل معه إلى داخل رحابه، فدخل وأقام معه منفرداً به نحو الساعة، ثم خرج وصحبته قفتان مخاطتان إحداهما بالجوز والأخرى باللوز، ورجع إلى داره. وفي تلك الليلة ظهر عليه حال واختلاج وأكثر التوسل لله مما لا طاقة له به. ولازم بيته على كماله وإجلاله والناس يتبركون بزيارته إلى أن توفي ثاني عشر ربيع الأول سنة تسع وثمانين ومائتين وألف وتبرك الناس بحضور جنازته، وأعقب في الجامع ولده. وكان مدفنه في تربة آبائه بالزلاج عليه رحمة الله آمين.

- 43 -

الشيخ صالح النيفر[1]

هو شيخنا أبو الفلاح صالح بن أحمد بن قاسم بن محمد بن محمد بن أبي النور النيفر. قدم جده أبو النور إلى حاضرة تونس من بلد صفاقس. وكان مقدم آبائه إليها من مصر القاهرة في تجارة. وهم يلبسون العمامة الخضراء علامة على شرفهم. وأخبرني بعض الشيوخ منهم أنهم من ذرية الشيخ الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ وهو مولاي أحمد[2] بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن أحمد بن إبراهيم بن

---

(1) الشيخ صالح النيفر ترجم له في شجرة النور (ج 1 ص 393).

وهو أحد أبناء خمسة للجد الجامع المرحوم أحمد النيفر المتوفى بمصر سنة (ـ 1281) وترجم له الشيخ البشير النيفر ترجمة حافلة.

(2) ذكر المؤلف هنا أن عائلة النيفر من ذرية الشيخ أحمد بن سليمان بن أحمد الرِّفاعي، وحقق الشيخ البشير النيفر في كتابته على آل النيفر أن الجد الرفاعي إنما هو محمد الرفاعي لا الشيخ أحمد الرفاعي.

وكلاهما لم يذكر ما هو الصحيح في ترجمة الشيخ الرفاعي، أما الشيخ السنوسي فإنه غلط في نسب أبيه حيث قال: إنه أحمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان إلخ مع أن الصواب أن الشيخ الرفاعي هو أحمد بن أبي الحسين علي بن أبي العباس ـ وانظر نسبه في خلاصة الإكسير (ص 40).

وكذلك غلط في وفاته حيث ذكر أنها (ـ 691 هـ)، والصواب أنها سنة (ـ 578 هـ) كما في ابن =

أبي المعالي بن العباس الرحبي البطايحي الرِّفاعي شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بمصر. كان صالحاً له قبول عظيم من أمراء الدولة وغيرهم وينتمي إليه كثير من الفقراء الأحمدية. وروى الحديث عن سبط السِّلَفي، وحدث. وكانت وفاته ليلة الاثنين سادس ذي الحجة الحرام سنة إحدى وتسعين وستمائة. ودفن برواقه المعروف به بحارة الهلالية خارج باب زويلة من مصر[1].

وأما آباء صاحب الترجمة الأربعة المذكورون فقد ولدوا بتونس، وتعاطوا صناعة الحرير والتجارة بسوق القوافي والعطارين، وساعدهم البخت فربحوا وأثروا مع ما فيهم من البذل والتصدق، وكلهم حجّ بيت الله الحرام.

وولد شيخنا المذكور سنة 1236 ست وثلاثين ومائتين وألف. ونشأ نشأة صالحة وشدّ إلى التعلم عزائمه، وتوجه لقراءة العلم الشريف بجامع الزيتونة، فقرأ على أخيه الأكبر الشيخ محمد النيفر المفتي المالكي كتب النحو من مباديها إلى أن أتى على ألفيّة ابن مالك. وقرأ عليه مصطلح الحديث ومختصر السعد، ونبذة من المطول، وتفسير القاضي البيضاوي، وقرأ على الشيخ أبي عبد الله محمد بن سلامة المفتي المالكي شرح التاودي على نظم ابن عاصم بحواشيه، وشرح الشفا للقاضي عياض، وقرأ على المولى الجد الشيخ أبي عبد الله محمد السنوسي المختصر الخليلي. وقرأ على شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد معاوية المطول. وقرأ على الشيخ أبي عبد الله محمد بن ملوكة رسالته المنطقية[2] وغيرها. وقرأ على غير هؤلاء من أعلام الشيوخ كالشيخ أبي إسحق إبراهيم الرياحي، وشيخ الإسلام الشيخ محمد بن الخوجة والشيخ أبي عبد الله محمد الخضار المفتي المالكي، والشيخ أبي عبد الله محمد البنا. وقد برع في

= خلكان (ج 1 ص 171) طـ ـ بيروت.

فالذي ذهب إليه السنوسي غيره.

وأما الشيخ البشير النيفر فغلط في اسمه إذ اسمه أحمد لا محمد.

(1) الشيخ الرفاعي لم يدفن بمصر، ولم يطأ مصر أصلاً وإنما دفن بها بعض مريديه، فلذلك اشتهر ذلك المكان بالرفاعي، وأما الشيخ الرفاعي فإنه توفي بأم عَبيدَة بالعراق.

(2) رسالة المنطق للشيخ ابن ملوكة وقفت على نسخة منها ببعض الخزائن نقلت منها بعضها.

المعقول. والمنقول، مع حسن العارضة، وجلس للتدريس بجامع الزيتونة، وتقلب في خطط علمية رفيعة الشأن، فتقلد خطة التدريس من الرتبة الثانية في الثاني عشر من ربيع الأول سنة 1265 خمس وستين. ثم في سابع جمادى الثانية من السنة الموالية لها ترقى إلى الرتبة الأولى، وأفاد الطالبين وختم كتباً مهمة ولما ختم مختصر السعد هنأه أحد تلامذة الدرس، وهو الموثق الفرضي المجود، المدرس الشيخ محمد البشير التواتي[1] بقوله:

[الطويل]

أبدر تمامٍ[2] حلّ في طالع السعد ... أمِ البرقُ يبدو من نواحي بني سعدِ
أم ارتفع الجلباب عن وجه بثنة ... فبانت ثنايا الدر في مجمع الشَّهْد
فآنستُ وجهاً أنه الشمس في الضحى ... وأن الحيا قد حاك ورداً على نجْدِ
وقد سدَّدَتْ نحوي سهامَ لواحظٍ ... لِيَفْعَلْنَ بي فعل المواضي من الهند
فبتُّ ونار الشوق وسْط حشاشتي ... ولم تَذُق العينان طعماً من البَرْد
وكم وعدت مقتولها بحياته ... فشاب ولم يظفر بمَائِسة القدِّ
وإني قنوع في الوصال بنظرة ... إلى الغادة الحسنا مُبَرَّزةِ النَّهد
فإن لَامني العذال فالقصد صالحٌ ... لدى الناس مثل النار ليلاً على بَنْد
تقيٌّ نقيٌّ ناسكٌ متورع ... هو الفاضل المحمود في القرب والبعد
إمام همام لوذعي وسيد ... من الشرفاء الطاهرين أُولي النجد
خلاصةُ أخيارٍ ومفتاحُ كنزهم ... وبحر محيط لا يغيض من الوِرْدِ
كمال لنا كشفٌ لكل ملمة ... خليل لطلاب العلوم أُولي الرشد
رياضُ علومٍ كأْس عذبٍ رحيقها ... أساس مبانيها يصول كما الرعد
كأنّه ليس في جيوش دروسه ... وفي معرك الألباب سيف بلا غمد
إذا ما تصدّى للبيان رأيته ... يصوغُ المعاني في البديع بلا جَحْد

---

(1) محمد البشير التواتي (- 1311) وفي كتاب بلوغ الأرب أنه توفي سنة (- 1302) وهو صاحب (الإفادة) في علم التوثيق، وهو كتاب متداول مشهور شجرة النور (ج 1 ص 415).

(2) في الأصل: التمام.

(3) في الأصل: لاح ولا يستقيم به الوزن.

وكم لهجت أنفاسه بجواهرٍ منظمةٍ كاللؤلؤ الدر في العِقد
يفوق الورى في كل أمر يسودُهم وإن ذكروا مجداً تقدم في العد
أَيا ماجداً قد حاز كل فضيلةٍ ويا سيداً دامت له سُبُلُ الودِّ
فدونك بنتَ الفكرِ قد تمّ حسنُها أتتك تهنّي في ختامك للسعد

وقد ولي مشيخة المدرسة المرادية في السابع عشر من ذي الحجة الحرام سنة 1271 إحدى وسبعين. وتقدم للإمامة والخطبة بجامع درب العسال[1] في السابع من ربيع الأنور من السنة الموالية لها، وتعاطى في مبدإ أمره المتجر، وكان حانوته بالعطارين الكبار يومئذ وجلس للإشهاد. وكان الولي الصالح الشيخ صالح المثلوثي[2] كثير التردد عليه، فأتاه مرة إلى حانوته، وقال له: يا شيخ صالح هات دفترك واكتب أنك ستولى خطة كذا وخطة كذا. وذكر له عدة وظائف رفيعة يعز اجتماعها. وكان الأمر كما ذكر الشيخ رضي الله عنه فقد قدمه المشير الثالث لخطة القضاء بالحاضرة منتصف ربيع الأول سنة 1277 سبع وسبعين ومائتين وألف. وتقدم في مجالس الجنايات عند وضعها، ثم في غرة صفر الخير سنة ثمانين ترقى إلى خطة الفتيا ثم في شهر شوال استعفى من خطته في مجالس الجنايات، وخرج لحج بيت الله الحرام ثانياً غرة ذي القعدة الحرام سنة 1280 ثمانين ومائتين وألف، فحج وزار ورجع إلى الحاضرة على خطة الإفتاء، وكان مفتياً سادساً، ولما توفي الشيخ محمد البنا صار مفتياً خامساً، ولما توفي الشيخ الطاهر بن عاشور صار مفتياً رابعاً، ولما توفي الشيخ أحمد بن حسين ترقى إلى رئاسة المجلس الشرعي، فولي خطة باش مفتي بتقدمه على المفتي الثاني يومئذ الشيخ الشاذلي بن صالح، والمفتي الثالث الشيخ علي العفيف. وكانت ولايته الخطة المذكورة تاسع شعبان الأكرم سنة 1285 خمس وثمانين ومائتين وألف بعد أن تقلد وظيفة الحِسْبة والنظر على بيت المال أواخر ذي الحجة الحرام سنة 1284 أربع وثمانين ومائتين وألف.

---

(1) جامع درب العسال: وهو الجامع المعروف الآن بجامع سيدي يحيى حذو باب العسل.
(2) الشيخ صالح المثلوثي له زاوية قرب سوق البلاط.

وقد كان فقيهاً عالماً، له حُسْن دراية، يضرب بها المثل، مع مزيد، التحصيل في الفروع والأصول، وحسن الجاه الذي لم يشاركه فيه أحد يومئذ، وله ولع بالتصوف والأذكار، وحب الصالحين، والزيارة لهم، ومواساة الغرباء أينما كانوا، وله حسن محاضرة لا تمل مع اقتدار كلي على إبراز الكلام في قوالب شتى.

وقد قرأت عليه الكفاية شرح الرسالة للشيخ سيدي عبد الله بن أبي زيد القيرواني، وكانت قراءته لذلك قراءة تحقيق بعد صلاة الصبح، ولما ولي رئاسة الفتيا تأخر عن الدرس المذكور، وكانت تقاريره ومباحثه تسحر الألباب، وأذكر منها أنه لما كان يقري قول الشيخ «ومما يجب اعتقاده أنه تعالى فوق عرشه، المجيدُ بذاته». وقد أورد الشارح الاستشكال على ظاهر العبارة بما هو مبسوط في محله من إشعاره بالجرمية والاستقرار بالذات نفسها، فاستظهر[1] رحمه الله أن الجملة مركبة من عقيدتين، وهما كونه تعالى فوق عرشه، وكونه تعالى مجيداً بذاته، بحيث يقرأ المجيد (بالرفع) خبراً ثانياً، لا بالجر على أنه نعت للعرش. قال: وهذا الوجه أخذته من قراءة الوقف على ذي العرش في قوله تعالى: ﴿ **ذو العرش المجيد فعال لما يريد** ﴾. وهو وجه يزيدك حسناً كلما زدته نظراً. وهكذا كانت أختامه ودروسه كلها في غاية حسن التقرير والتحرير، وأدعيته لطيفة الإنشاء، يبدع في تحريرها كيف شاء. وقد كتب أختاماً كثيرة على أبواب مهمة من صحيح البخاري، وتصدى لشرح[2] الموطأ فكتب عليها كتابة جليلة حين لازم إقراءها بجامع الزيتونة بلغ في الشرح المذكور إلى حيث بلغ في التدريس وتركه مُسَوَّدَة.

وأما تدرجه في مراقي إمامة جامع الزيتونة فقد تقدم للنيابة إماماً ثالثاً في الرابع عشر من صفر الخير سنة 1283 ثلاث وثمانين ومائتين وألف عند وفاة

(1) وإلى هذا الاشكال أشار أبو الحسن الشاذلي المصري المتوفى سنة 939 في شرحه كفاية الطالب الرباني (ج 1 ص 36).

وأجاب عنه بجواب غير هذا الجواب لكن جواب الشيخ صالح النيفر أمتن وأرشق.

(2) هذا الشرح في خزانة ابن عمنا ومحل أخينا الشيخ محمد الصالح النيفر حفظه الله.

الخليفة الشيخ محمد البنا، وأقام المغرب والعشاء والصبح مدة، وكان كثيراً ما يعتكف الليالي العديدة بجامع الزيتونة لأداء صلاة العشاء والصبح، وقد استصحب في ليلة النصف من شعبان تلك السنة للمبيت معه الشيخ محمود قبادو، فارتجل قصيدته[1] هنالك التي يقول في مطلعها:

[الطويل]

إلى بيتك اللَّهُمَ بالعزم أقبلنا حططنا به رِحل الضيافة فاقبلنا

ولما توفي المحسني المحمودي قدمه المشير الثالث خليفة أواخر شهر رمضان المعظم سنة 1284 أربع وثمانين ومائتين وألف، وخطب بالخطب البليغة، وواظب على إقامة الصلوات في أوقاتها، وقرأ المولد النبوي بالنيابة عن الإمام الأكبر قبيل وفاته إلى أن توفي إمام الجامع الشيخ محمد محسن فقدمه المشير الثالث إماماً أكبر بجامع الزيتونة في السادس عشر من ربيع الأول سنة 1289 تسع وثمانين ومائتين وألف، فحظي من دهره بغاية المراد، غير أن الخطة أتته على حين بلغ به ضعف البدن إلى حده، فخطب بعد ذلك جمعتين، ثم عجز ولم يخطب إلا في شهر رمضان، فخطب أربع خطب أُخرى ثم أقعده الضعف. ولما حضر المولد النبوي بعد ذلك طلب من الأمير أن يقتنع منه بسرد أدعية لضعفه، فأرسل له الأمير يأذنه بأن يريح نفسه وأنّ خليفة الجامع الشيخ محمد الشريف يقوم مقامه، فأعاد على الأمير الطلب بأنه يحضر الموكب بنفسه ويسرد المولدَ عوضه أخوه الأصغر المفتي الشيخ محمد النيفر[2]، فأعفاه الأمير من ذلك وأرسل إلى خليفته الشريف بإحضار المولد النبوي، ولم يحضر الإمام الأكبر صاحب الترجمة ذلك الموكب.

وكان مع ذلك آية الله في الذكاء والتقلب في الأمور ومعرفة وضع الأشياء في مواضعها، عالماً، لطيف الأخلاق، جميل المحاضرة، محصلاً أختامه، يرغب الناس في حضورها، لحسن ما ينتقيه ويحرره فيها من المسائل المهمة.

---

(1) قصيدة الشيخ قبادو لم تنشر في ديوانه.

(2) الشيخ محمد النيفر ستأتي ترجمته في القسم الثالث في تراجم المفتين من المالكية.

وقد قرّبه الأمير، لعلمه وحسن أخلاقه، حتى كان ذا جاه رفيع غير أن الأجل عاجله وكَدَرُ الدنيا لم يَتْرُكْ مشاربَه صافية، فتوالى عليه المرض واشتدّ به الضعف حتى لازم المِنْساة بعد الخمسين، ولم يزل المرض مصاحباً له، يضاجعه تارة وتارة يريحه، إلى أن لازمه أخيراً وأدركته المنية وعمره نحو خمس وخمسين سنة. فتوفي أواخر ذي القعدة الحرام سنة 1290 تسعين ومائتين وألف، وقد برّ به ولده فبادر لدفنه يوم وفاته عشية ذلك اليوم وشهد العموم جنازته، عليه رحمة الله.

وقد كتبت في ترجمته حين وفاته كتابة نثرية في الرائد التونسي هذا نصها:

في ضحوة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام افتقد هذا القطر التونسي شيخ الإسلام المالكي والإمام الأعظم بجامع الزيتونة صاحب النسب الذي هو في بيت النبوءة عريق، والعرفان الوثيق، وهو الهمام الذي عبقت الأرجاء من الثناء عليه بمسك أذفر، أُستاذنا أبو الفلاح الشيخ صالح النيفر، فهال خطب فقده على سائر الأمة وما هان، وأودع في أكباد الذين آمنوا أعظم الآلام والأحزان، إذ كان لمحاجر الشريعة نور، وملبسها من الفخر العز الموفور، فيا له من همام هم بإدراك المعالي فنالها، وسبق في تلك الحَلْبة رجالها، حتى عُقِدَتْ عليه في كل مكرمة سائر الخناصر، وباهت به مملكتنا سائر ممالك القياصر، فكسا أندية العلوم حلل المحاسن، وأجرى من أنهار معارفه ماء غير آسن، درسه يسحَر الألباب، وتقريره يزري بحسان فرائد الآداب، له في الأسلوب الحكيم، الاقتدار على تقليد اللبات بالدر النظيم.

أما حقائق الدقائق، وفائق الرقائق، فلا مطلعَ لشموسها، غير رياض دروسه، ولا موردَ لرحيقها، غير شفَّافِ كؤوسه، فكم أدار على أرواحنا من أعجب الأساليب راحا، فأودعها من ذلك نشوة وانشراحا، فهو كشاف المعاني، والمصباح الذي يستضيء بشهابه كل معاني، له اليد الطولى في المعقول والمنقول، وأحرز السبق في ميادين الفروع والأصول، قَدَمُه في سائر العلوم رَاسِخَة، ومعرفته الوثيقة لسائر الزيوف ناسخة، إن تكلم في المجالس أبهت

الناطق والصامت، وأضحى لبواتر الفصل الصالت[1]. إذ حنكته الفصاحة، ودرى كيف يأسو للدهر جراحه، وسبر بمسبار الألمعية أغوار الحدثان، وجابه يدها تجريبُه جباه الزمان، فعلم بمواقع الأمور، وجرى فيها بالسعي المشكور.

أما معرفته بمدارك مذهب مالك بن أنس، فهي التي نُصِبَتْ له المنصات فارتقاها وجلس، فقضى سنين قد انقضت كأنها سنات، وأتى فيها بالآيات البينات، أقام فيها قسطاساً لمنع الاعتساف، حيث تحلى ببدائع الأوصاف، وقام بأعباء الفتيا قياماً لم يعهد له مثيل، ورصع تاجها بمجده الأثيل، وأنار منبر الجامع الأعظم بأنوار هدايته، فاستلانت قلوب العالمين لرائق درايته، مواعظُه تجرح الأفئدة والقلوب، ولا سيما حيث كانت من خطبه التي أبدع في تنظيمها على أفخر أسلوب، فإذا قام في منبره أو محرابه فيا فوز من وعى، فإنه يُسمع الصُمَّ الدعا، فما ترى الحاضرين إلا وعيونهم تنهمر دمعا، إذ انصدعت قلوبهم من ذلك صدعا، وإذا روى عن جده خير البرية المصطفى، يلين له القلب الذي كالصفا، فكم هدى وأهدى، وأعاد من المزايا وأبْدى، إلى أن ألقت رئاسة الفتيا والإمامة أمرها لديه، وتوشح كلتاهما بالانتماء إليه، بعد أن ولي الحسبة ووظائف عديدة، قد قلّد بعقودها جيده، إلى أن أصبح شمساً تتلألأ في الأقطار التونسية، وتبتهج بها تلك المناصب السنية.

وزيادة على ذلك فقد تحلى بكمالات لا تحصى، ومزايا لا تستقصى، فهمته قد ضربت على السماك أطنابَها، ونصبت على الجوزاء قبابَها، حتى انتعل السها، وغدا إليه في كل مكرمة المنتهى، مع ما هو عليه من شرف الأعراق، ودماثة الأخلاق، بشاشته تملأ قلب ملاقيه حباً، وتوليه من التودد ما يختاره بعداً وقرباً.

وكان كثير الميل إلى علم القوم، لا يختشي في ذلك من لوم، وله مزيد ولعٍ بمن ينتسب للشرف النبوي والصلاح، من أهل الخير والفلاح، فسلك في

---

(1) في الأصل: صالت.

ذلك مسلك أُستاذه شيخ الإسلام المالكي أبي إسحاق. وكرع من مناهل الطريقة التجانية أعذب الأذواق، حتى كان في خِيسها ليثاً، وانسجم بمعارفها غيثاً.

ولذلك نَبَؤُه راع القلوب وفتت الأكْباد، وعمّ بالإصابة سائر العباد، فيا له من خطب أصاب أفئدة كانت لمودة هذا الهمام منسوبة، ورماها من نباله بأسهم مقشوبة، حتى عمّ الأسف سائر الأهالي، ونثرنا عليه من الدموع وطيب الثناء أحسن اللآلي. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعامله بالرضوان، ويجعله في جوار سيد ولد عدنان، فإنا لا نقدر على إيفاء حقه فيما ننثر وإن نظمناه، ولا يطيق أحد أن يبلغ في وصفه إلى ما يتمناه، ولذلك تربصت بنظم رثائية ريثما أجمع أشتات قريحة تقرحت برزئه الجليل، وصارت تنثر مع أدمعنا أمثال هذه الأقاويل، وقد انتهز الفرصة في ذلك العالم الماجد، المبرِّز ببراعته على سائر الأماجد، النحرير اليلمعي، والفهامة اللوذعي، فرع مشايخ الإسلام، الثلاثة الأعلام، المتطلعين غُرَراً في جباه الأيام، صديقنا الذي لم تزل طريقة والده وجده له منهوجه، الشيخ أبو عبد الله محمد بن الخوجة[1] أحد أعيان المدرسين بالجامع الأعظم لا زالت دوحة والده به في ابتهاج ونمـا كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهذا نصها:

[الطويل]

إلى الله من خَطْبٍ تداعت له رجْفَا ... رواسخ أحلامٍ وقد أُحْكِمت رصْفَا
تمطّى به ليلٌ من الوجدِ حالـكٌ ... يضل الكرى فيه فلا يعرف الطَّرْفا
صَلَى كلَّ قلب من لظاه بمُضْرِم ... يزيد إذا مـا الدمـع بَرَّدَه ضعفـا
يحق له شقُّ القلوب إذا اغتدى ... يشقُّ أخـو الأحزان أثـوابَه لهفـا
إلى الله نشكـوه عـظيمَ ملمـةٍ ... عسى فَـرَجٌ يـولي دُجُنَّتَـهُ كشفـا
ومَنْ مارَسَ الأيّام هان به الأسى ... فكم روَّعت سرباً وكم رنقت صرفا
وهل سالمت من عهد آدم واحداً ... فَيـأْمن مرتـاحٌ إلى ظلها الحتفا؟

---

(1) محمد بن الخوجة تقدمت ترجمته.

ويا ليتها ترعى ذِمام ذوي العُلا ... فَتُبْقِيَهم لكن أبى طبعُها اللطفا
وما ضر لو أبقت لنا الواحد الذي ... أعد به دين الهدى للورى كهفا
وما ضر لو أبقتْ لنا الواحد الذي ... يَمُرُّ ولا يبدي الزمان له خَلْفا
وما ضر لو أبقت لنا الواحد الذي ... يَبِيدُ به جيش الضلال إذا اصطفَّا
قَضى الله في قطب الرئاسة إن قضى ... فها أدمع الإسلام واكفة وكفا
فمَنْ لنوادي الفضل بهجةُ صدرها ... ومُلبسها من فضل أقواله شَنفا
فمن للقضايا المعضلات يَحلُّها ... بصارم فكر لا يفل ولا يحفى
ليَبْكِه ملهوفُ الجوانح غُلَّةً ... إلى عذب فُتيا كان منهلَها الأصفى
إذا أَمَّهُ المرتادُ أبصرَ جنة ... بدائعها تُدني لمن رامها قطفا
ترحَّلَ فاقتاد القلوب وراءه ... ولا غرو إذ تقفو المعارف والظرفا
بَني نيفرٍ صبْراً فهذا سبيل من ... يعيش ولو قد عاش في دهره ألفا
وما بيتكم في المجد إلا كعهده ... سَنَى عزّه إن شاء ربيَ لا يطفا[1]
على أنه قد فاز بالفضل والرضا ... وخلف ذكراً طاب ترديده عَرْفا
وبُلِّغ في الدنيا الذي شاء من علا ... ولم يُرْغم الأعداء من عزه أنفا
كفى أن سعت تلك الرئاسة نحوه ... تبادر أن تحظى بمفخره الأوفى
فألبسها من عدله وعلومه ... ملابسَ قد زانت لها الصدر والعِطْفا
عليه من الرحمٰن أزكى تحية ... تقر بها عيناه في جنة الزلفى
وحقق فيه الله قول مؤرخ: ... إلى خير مأوى على صالح قد زفا
[... 1290 ...]

وعندما أدرجتُ المرثية المذكورةَ في هذه الترجمة كتب إليّ جناب منشئها الأخ العالم بقوله:

[البسيط]

بوَّأْتني محض فضل نزل علياء ... والحبُّ يفضي لإسهاب وإطراء
طما ودادي لديكم فارتمت درٌّ ... من عذبه صعدت أنفاس أعداء

(1) في الأصل لا يطفى مع أن الصواب لا يطفا لأنه مهموز الاخر وخفف.

أهـديت أيَّ صنيـعٍ لن يـوفيَّـهُ شكـري ولو نَشَـرَتْهُ كـلُّ أعضاء
أودعتـه عنـد من يـدري بقيمتـه بـرّ شكور فقـل يا نجـح أسداء
أعرتني بعض أوصاف خصصت بها تفضـلاً وغضضتم أي إغـضـاء
شكراً لكم من أخ بر حبيت به أنزلتـه من فؤادي في السـويداء
إبريز من امْسَوِا اخْواني وعمدتهم وسيـد كم رقـى أوجـاً لعـليـاء
فيا له من صديق قد ظفرت به صينت صـداقتنا عنْ كـلّ أقـذاء

- 44 -

الشيخ محمد الشريف[1]

هو الشيخ أبو عبد الله محمـد بن أحمد بن محمـد بن عبد الكبيـر بن أحمد بن محمد بن أحمد الشريف إمام مسجد دار الباشا، وهكـذا سلسلته المنتهية إلى شجرة المنتهى محمد خير خلق الله صلّى الله عليه وعلى آله، فهو الإمام حفيد الإمام، مفخر آل البيت السادات الكرام.

[ترجمة والده]

أما والده فقد قرأ على عمه الشيخ حسن الشريف وعلى والده، وناب عنه في الإقراء بمدرسة حوانيت عاشور، وله مشاركة في كثير من الفنون، وكان ذاكراً شاكراً، محباً في الصلاة على رسول الله، له شغف بدلائل الخيرات، يحيي الليالِيَ بالذكر والصلاة، كثير الرؤيا لجده ﷺ، منها مرة رأى نفسه في حِجره ﷺ وهو يلثم يده الشريفة ويجد من لينها وريحها ما لم يعهد، وبقي أياماً وهو يقول: إنني الآن أجد طيب ريحها، وكان مهاباً محترماً، جميع الناس يطلبون منه الدعاء، وقد اتفق لبعض الناس أن افترى عليه في نازلة فدعا عليه فمات بقربٍ من ذلك. ولم يزل ملحوظاً بعين الإجلال، معدوداً في الصالحين من الرجال،

---

(1) (- 1307) (شجرة النور ج 1 ص 413).

إلى أن بلغ من العمر ستاً وأربعين سنة. وتوفي سنة 1251 إحدى وخمسين ومائتين وألف.

وخلف ولده صاحب الترجمة وكانت ولادته في العشرين من المحرم الحرام سنة 1234 أربع وثلاثين ومائتين وألف، وتربى في حجر عناية أبيه، فقرأ القرآن العظيم، وتصدى لتعلم العلم الشريف بجامع الزيتونة. فقرأ على مشايخ الإسلام البيرمي والخوجي ومعاوية، وقرأ على الشيخ محمد النيفر الأكبر، والشيخ الشاذلي بن صالح، وغيرهم من علماء الجامع، وولي في درسي جامع الزيتونة بعد وفاة عمه.

وحصل على إجازات كثيرة في كتب الحديث، وقفت منها على سنده في صحيح البخاري: عن شيخ الإسلام محمد بن الخوجة عن المفتي المؤلف الشيخ حسن الشريف عن والده الشيخ عبد الكبير الشريف عن والده الشيخ أحمد الشريف عن الشيخ عبد الرحمٰن الكفيف عن الشيخ سعيد الشريف الطرابلسي عن القطب الشيخ أحمد الشريف إمام مسجد دار الباشا عن الشيخ السراوي المصري عن الشيخ سالم السنهوري عن الشيخ نجم الدين الغيطي عن الشيخ زكرياء الأنصاري عن الشيخ أحمد بن حجر شارح الصحيح عن الشيخ التنوخي عن الشيخ أحمد الحجار عن الشيخ حسين بن المبارك عن الشيخ أبي الوقت الهروي عن الشيخ الدراوردي عن السرخسي عن الشيخ محمد بن موسى الفربري عن الحافظ الحجة الشيخ محمد بن إسماعيل البخاري ثم الجعفي رحمه الله تعالى ورضي الله عنه.

ووقفت أيضاً على سنده المحمدي، وأجاز لي رواية الصحيح المذكور بما له فيه من الأسانيد بعد أن رويت بين يديه نبذة منه ـ رضي الله عنه ـ غير أنه لم يجلس للإقراء إلا قليلاً، ولازم رواية الشفا والبخاري بمسجد سيدي أبي حديد[1] واجتمعت الجموع لأختامه. وهو ممن يظهر نعمة الله عليه، في نفسه ومن ينتمي إليه وله مع ذلك دعاء مستجاب، وخاطر ليس بينه وبين الله حجاب.

(1) زاوية الشيخ أبي حديد الأقرب أنه أحمد بن سليمان أبو حديد توفي سنة (ـ 751) له مناقب مخطوطة ضمن مجموع في خزانة كاتبه.

جلس مرة في جبل المنار قرب الناظور من الجانب الشرقي، ومعه جملة من الأعيان، فمرت بهم في البحر فلوكة بها جمع من كفرة الصيادين للسمك فقال له أحد الحاضرين: إن كنت شريفاً فادع على هؤلاء ليغرقهم الله، فظهرت غيرته، ودعا عليهم بجاه جده، فلم تلبث الفلوكة أن انقلبت بمن فيها في البحر، ومات جميعهم، وله من هذا الباب وقائع شتى.

وكان المشير الأول يتيمن برقيته ودعائه، وللمشير الثاني معه مودة واعتقاد، يتقرب به إلى رب العباد، عليه جرى المشير الثالث مع ما هو عليه من التعظيم عند الخاصة والعامة.

وعند وفاة الشريف محمد ابن الوزير العربي زروق عن وكالة زاوية الشيخ سيدي أبي سعيد الباجي[1] ـ رضي الله عنه ـ قدمه المشير الثالث لها مع النظر على جبل المنار في ربيع الأول سنة أربع وثمانين.

ثم لما توفي ابن عمه المحسني المحمودي قدمه المشير المذكور للنيابة إماماً ثالثاً بجامع الزيتونة في الثامن عشر من شهر رمضان المعظم سنة 1284 أربع وثمانين ومائتين وألف. ولازم الجامع للإمامة وواظب على رواية صحيح البخاري كل يوم ثم لما توفي ابن عمه المحسني المحمدي قدمه المشير الثالث خليفة في السادس عشر من ربيع الأول سنة 1289 تسع وثمانين. واستولى عند ذلك الشيخ أبو الحسن على العفيف نائباً عنه.

واستمر الخليفة المذكور قائماً بصلوات الجامع في أول الوقت، حاملاً أعباء الخطبة والإمامة مدة مرض الإمام الأكبر إلى أن توفي الإمام النيفري فقدمه المشير إماماً أكبر بجامع الزيتونة في التاسع والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة 1290 تسعين ومائتين وألف، وجعل خليفته الشيخ أبا الحسن علي العفيف، وقدم

---

(1) هذه الزاوية في الضاحية الشمالية لتونس وهي من أجمل الضواحي التونسية.
والشيخ أبو سعيد الباجي أحد الأعلام من أهل العلم والصلاح وهو خلف بن يحيى التميمي الباجي نسبة لباجة.
وكانت وفاة الشيخ أبي سعيد سنة (ـ 628)، وقبره بزاويته.

ابن عمه الشيخ أحمد بن حمدة الشريف[1] إماماً ثالثاً، فنهض الإمام الأكبر الشريف صاحب الترجمة للجامع، وشمّر على ساعد الجد في تنظيمه والبحث عن أوقافه، وأجرى الأمور على أحسن وجه، وقام بالخطبة قياماً كلياً بحيث أنه يحضر رواية البخاري كل يوم من الثلاثة الأشهر، وهو مقيم في جبل المنار في حر الصيف حتى تيسر له ختم رواية صحيح البخاري في 26 شهر رمضان سنة 1296 ست وتسعين، ومهما اتفق احتباس المطر وخرج للاستسقاء إلا ورجع بالبلل، وإن لم يصبها وابل فطل.

[قراءة البخاري عند الأزمة]

وهو أول من جمع الناس لختم البخاري في مجلس واحد للاستغاثة ودفع الكروب وذلك أواسط جمادى الأولى سنة 1298 ثمان وتسعين، فحضر بجامع الزيتونة عند باب الشفاء. وأحضر نسخة من صحيح البخاري مجزأة عشرين جزءاً في غاية الضبط والصحة، وجمع معه تسعة عشر مدرساً من علماء جامع الزيتونة ليرويَ كل واحد جزءاً كاملاً في ذلك المجلس، فحضرنا هنالك قبل الزوال بأربع ساعات. واستمر بنا على رواية الصحيح المذكور إلى مضي ساعة من الزوال فتمت روايته في خمس ساعات من يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى سنة 1298 ثمان وتسعين، وقد واظب الشيخ مدة على ذلك مع ذكر الاسم اللطيف وأدعية مدة استمرت إلى منتصف جمادى الثانية يحضر معه في كل يوم بعض المدرسين ويتلو بينهم في آخر المجلس استغاثات مناسبة للحال.

وقد تقدم في أثناء تدرجه في مراقي الإمامة إلى خطة الإفتاء بمذهب مالك، فتقدم مفتياً سادساً، تاسع شعبان الأكرم سنة 1285 خمس وثمانين ومائتين وألف ونقش على ختمه بيتين من نظمه وهما قوله:

---

(1) ستأتي ترجمته في قسم المفتين وهو القسم الثالث بإفاضة، وكان إذ ذاك بقيد الحياة فلم يذكر وفاته لأنها تأخرت عن وفاة المؤلف، مات سنة (ـ 1337).

[الرجز]

أدعوك ربي باسمك اللطيفِ ومن أتى بالشرع والتكليفِ
امنُنْ برشدِ عبدِك الضعيفِ محمدِ بْن أحمد الشريف

ولما توفي الشيخ محمود قابادو صار مفتياً خامساً، ولما توفي الشيخ صالح النيفر صار مفتياً رابعاً، ولما توفي الشيخ علي العفيف صار مفتياً ثالثاً، فهو اليوم إمام جامع الزيتونة والمفتي الثالث بالمجلس الشرعي، معتكف على القيام بوظيفته، ملازم لرواية صحيح البخاري في بيته، مع الاعتناء بتصحيحه وضبطه بشروحه، حتى ختمه مراراً كثيرة، كما ختم الشفاء كثيراً، وله مزيدُ تحرٍّ واعتناء بانتقاء بدائع الخطب وضبطها على الوجه الأتقن، وقد تقدم في الطريقة التجانية، ولَقَّنَها لكثير من المريدين، وقام بأورادها مع ما له من الأذكار، التي يلازمها بالليل والنهار، والتبتل للعزيز الجبار، على طريق الأخيار، من أصحاب الأسرار، رضي الله عنه.

وخليفته اليوم في إمامة الجامع هو ابن عمه الشيخ أبو العباس أحمد بن حمدة بن محمد الشريف إمام الجامع، ونائبه الإمام الثالث هو الشيخ أبو محمد حمودة بن محمد محسن إمام الجامع. وعلى عهده زيد في أيمة الجامع نائب ثانٍ وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الطاهر بن محمود محسن إمام الجامع، وإمام التراويح هو الشاب أبو عبد الله الشيخ محمد بن مصطفى بن محمود محسن إمام الجامع، وأما ختمة الجامع فهي بيد الشاب المذكور مشاركة مع عمه الشيخ عبد الرحمٰن بن محمود محسن، فخطط الجامع ولله الحمد اليوم بين آل الشريف رضي الله عنهم أجمعين. ولولا اشتراطي ذكر الأيمة لذكرت تفصيل حال هؤلاء السادات أبقى الله بركتهم أماناً لأهل الأرض، فبدر الإمام الأكبر اليوم محيطة به هالة من آل بيته، وقد تجمل به، والحالة هاته، صدر الجامع وابتهج، وافتخر المنبر بحسن خطبه التي ينتقيها، وبجهورية صوته وتأثيره يلقيها، بحيث أنه اليوم أخطب الخطباء بالحاضرة فصاحة وجهورية صوت[1] وأداء

(1) في الأصل صوة.

وضبطاً، وهو إمام فاضل، متفنن، نحرير دراكة، سخي النفس، غزير الدموع، سهل الجانب، رضي العيش، قدوة، محبب إلى الناس، كريم الأخلاق مهاباً معظماً، عالي الهمة، مقبول الجاه، محترم، يكرمه الأمير والمأمور، ويعتقده الخاصة والجمهور، يحضر الجامع في كروسة من كراريس الأمير، أهداها له الوزير.

وقد نفع بجاهه كثيراً من المستجيرين به رضي الله عنه، وفي هذا العهد أتاه الثقة المسن علي عباس يطلب منه الدعاء، وقراءة الفاتحة، وأخبره أنه رأى رسول الله ﷺ في منامه ببيت به جمع عظيم، ولما دخل بيتهم رأى مجلس رسول الله ﷺ مرتفعاً وإلى جنبه الشيخ متكئاً ثم إن المصطفى مسح على جنبه ووعده بالشفاء فكان صدق الرؤيا حيث إن الشيخ يشكو في هاته المدة ذلك لجنب نفسه، وقد أَمَل الشفاء ببركتها ولا تخفى دلالة الرؤيا على قرب اتصاله بجده عليه الصلاة والسلام.

وحيث إن مفاخره عظمت بالاشتهار، وغطت على الشمس في رابعة النهار، وكان وجوده بين أظهرنا من بركات هاته الأعصار، التي نتمتع بها آناء الليل وأطراف النهار، تقربت لجده المصطفى عليه الصلاة والسلام بقصيدة جليلة، اتخذها تاج المفاخر إكليله، صدرتها بذكر فضائل آل البيت، ووشحتها بذكر بعض مفاخره ومفاخر آبائه الكرام، إلى الوصول إلى خير الأنام وآبائه العظام. وسميتها «الأجنة الدانية الاقتطاف، بمفاخر سلسلة السادة الأشراف»[1].
وها أنا أجعلها خاتمة لهذا القسم تيمناً بفضل من ذكرتهم فيها، وهذا نصها:

[البسيط]

إنَّ المودةَ في القُرْبى هي الأَمَلُ ... يجري بها ويفوق الأجرُ والعملُ
قرابةِ المصطفى آل بهم شَرُفَتْ ... مفاخر بعلاها تُضْرب المُثُل
آل الرسولِ كفاهم منه وُصْلتهم ... به وقولُه: آلي إذْ هو الأمل

(1) طبع المؤلف هذه القصيدة مستقلة في رسالة خاصة سنة (1296).

أوصى بهم حيث قال الله أنشُدكم ... في أهل بيتي ثلاثا إذ به اتصلوا
دعـا بِسَتْـرِهِمُ إذ كـان جلَّلَهُم ... وفي مُلاءتِه دون الورى اشتملوا
وحـائط البيت والأَسْكُفَّـة ابتـدرا ... مُؤَمِّنَـيْنَ كتـأمين الأُلى عَـقَلُوا
فمن دَرَوْا حقهمْ في الفضل كان لهم ... بـه البـراءةُ من نـارٍ بمـا عَملوا
ومن أحبَّهُم جـازَ الصـراطَ بـه ... كالبرق لا يعتـريه البُطْء والثِّقَـلُ
ومن يواليهمُ نالَ الأمـان مِنَ الـ ... ـعذاب يومَ ذوات الطفل تنذهل
هم الأمان وما داموا على قُنَنِ الـ ... ـتبجيل لم يكتنفنا في الورى ضَلَلُ
همْ عِتْـرَةٌ طهَّرَ المـولى منـازلهمْ ... مُذْ أذهب الرجس عنهم عندما كَمُلوا
همُ الهـداة وبيْت الـوحي بيتهمُ ... لا يعتريه ـ بحول الخالق ـ الخللُ
بيتٌ على الدين قد قامت دعائمه ... ومن مَنَـاهِلِه كـل الـورى نَهِلُوا
بيتٌ قـد انتاب جبـريلُ منـازلَـه ... عن إذن ربّه والأملاك كم نـزلوا
بيتٌ تخيَّرَه الرب الجليل إلى الـ ... ـتنزيل والـوحي منه ليس ينتقـلُ
ما بعد جدهُم المختارِ من رجلٍ ... يـأتي فَتَتْبعـه الأمـلاك والـرّسـلُ
لهم سمـات وآيـات لهم تُلِيتْ ... في الذِّكْرِ لا يعتريها النسخُ والبَدَلُ
فمصدَرُ الدين همْ والدين حبُّهمُ ... وهُمْ سَرَاة الوَرَى ما مثلهم رجلُ
لا يـدخل القلبَ إيمـانٌ وحبهم ... لله لم يـك حتى يولـج الجمـل
قوم حياتهم في الأرض مـرحمةٌ ... بجاههم لم يَخِبْ في الخلق مُبْتَهِلُ
بيضُ الـوُجـوه لهـا بشـرٌ تهلله ... يرى الغزالـةَ ما إن مسهـا طَفَلُ
كريمةُ الحسن يُستسقى الغمام بها ... وتشتفي من مرائيها[1] لنا العلل
شم الأنوف ومأوى للضيوف، ومن ... يُوفي بإجـلالهم قد جـاءه النَّفَلُ
كواكبُ السَّعْد لاحت في منازلهمْ ... إذ أقمروا في العلى والكل مكتمل
الله أكبـرُ مـا أسنـى مقـامـهـمُ ... فكم بهم فاز عند الله مُضْـطَئِل
من ذا تمسك من أسبابهم فغدا ... بين الورى جِيده من حَلْيِهِمْ عَطَل
سلاسلٌ وفروع في البسيطة قـد ... مدت فكانت بأصل الفضل تتصل

---

(1) في الأصل من مراءيها.

بيـوتهمْ قـد أَبَتْ إلاّ مفـاخِـرَهم ... حتى استطالت فلم يبلُغ لها جَبَل
تَسْمُو بفضل اقترابٍ من أَعزِّ أبٍ ... لخيـر جدٍّ وكـلٌّ في العُلَى بُزُل
لكن أقـربهم من جـدهم نسبـاً ... لهم مـزيـةُ قـربٍ ليس تنفصـل
فالقربُ من خير خلق الله شرفهمْ ... بحق إرثٍ لدى الأشراف ينتحل
إذ من سواهُمْ محجوبٌ بقـربهمُ ... والكل نجمهمُ في الفضل مُنْصقل
فكلهـمْ بـرسـولِ الله متـصـلٌ ... يرتاب في فضلهمْ من قاده الزلل
وكل بيتٍ لهم يسمو بكـل عُـلا ... على سـواه ولا تدنـو لـه طِـوَل
تلك البيوت التي قد زاحمت شرفاً ... كـواكب الأفْق لما أهلُهـا فَضُلُوا
أشمُّهـا ما دنـا من أُفق جده إذ ... كان السِّوَى لم يصل ما كلهم وصلوا
لذا بيوتُ بني الأشراف قد ظهرت ... شمَّاءَ من دونها قد كَلَّت المُقَل
ما بين قَرْمٍ شريف قد سما وغدا ... بمحسن يتبـاهى حيثما يصـل[1]
فرعان أصلهمـا بيت سما شـرفا ... يزاحم الشمس حيث الفضل يشتعل
ومن غدا علما لفظ الشريف له ... حقـا له هـامـة النسـرين ينتعـل
آل الشريف ومن مثل الألى شرفوا ... بجـدهم وبفضـل ليس ينفصـل
آل الشريف أسودٌ خيسِ تونسَ قد ... أَمْسى بهم في أمان ليس يَنْقَهِلُ
آل الشريف عقود قد سَمَتْ نَسَقاً ... وُسْطَاهُمُ الجَوْهَرُ المكنون مكتمل
لهم كراماتُ أهل الفضل قد رويت ... وفي البسيطة قد سارت بها المُثُل
واليوم تاجُهم القَرْمُ الـهـمـامُ (أبـو ... عبدِ الإلٰه) الذي طابت به الحُلَلُ
إمام جامعها المفتي بها وأخو الـ ... ـذكر الذي ليس عنه اليوم ينعزل
فكم لـه من مزايـا غيرِ قـاصـرة ... على الورى قد غدت في القُطر تنهمل
وكم له دعوات قـد أجيبَ لهـا ... من المهيمن إن مـا قـام يبتهـل
يجاب مهما ابتغى من جده أملا ... جِدًّا وهَزْلا كأنْ من لفظه الجزل
وهو الذي اليوم يستسقَى الغمامُ به ... فيغتدي ـ بعد طول الجدب ـ يقتبل
نشاهد السُّحب من دعواه مرسلةً ... إنْ لم يكن وابل تأتي له الطِلَلُ

---

(1) في الأصل: كملوا.

أما كرامة برد النار من يده ... فالوردُ يشهد إن لم تشهد المُقَل
إذ مسّ ما عُدَّ للتقطير منه على ... نارٍ فكانت كأن قد مسّها بَلَلُ
وحين طال انتظار الطبخ أعلمهم ... فاستبدلوه فلم يعرض لهم مَهَلُ
وهكذا الفضل معهودٌ لوالده ... الصفوةُ المرتضى من بره العمل
أعني بذاك (أبا العباس أحمد) من ... له بكل جميل كاهلٌ عَبِل
أحيا الليالي بالذكر الحميد وبالـ ... ـشكر السديد وما إن رابه عَذَل
تبتُّلٌ وصلاةٌ عُمِّرت بهما ... أكناف خلوته إذ كان ينعزل
وبالصلاة على الهادي له شَغَفٌ ... لا يَعْتريه على تَكْرَارها مَلَلُ
له «الدلائل» وردٌ كل باكرة ... خمس المرار وما عن ذاك ينفصل
وقد رأى نفسه في حجر جَدِّه قد ... أعطاه أكرم كف فضلها جلل
فكان يلْثمها وعندها يجد الـ ... ـعبيق واللين لينا ما له مثل
ومرة يتوضا قد رآه فكا ... ن ذاك في يده المنديل يحتمل
حتى أتمّ وضوءاً ثم ناوله الـ ... ـمنديل يا فوز أبناءٍ بما عملوا
ومن غدا منكراً عنه عوائده ... في نفسه وهو لا يدري بما يصل
وافاه في النوم خير الخلق يأمره ... بأَنْ يُرَضِّيه كيما[1] يمحق الزلل
وعندما جاءه أعفاه مشترطا ... كتما إذا لم يواري[2] حين ينتقل
وفي استجابة ما يدعو به عَلَمٌ ... على القبول الذي أولى له الأزل
فإنه قد دعا يوماً على رجل ... عنه افترى فاغتدى بالموت ينتبل
وقد تبدت له في الكشف لائحة ... درى بها الناس ما قد حازه الرجل
فَقَبْلَ موته من يَومَيْن أعلمهم ... فكان ما قال إذ قد جاءه الأجل
هذا ووالده الشيخ الهمام (أبو ... عبد الإله) غدا بالفضل يكتمل
قد كان شهماً هُماماً عَالماً وله ... فخر النقابة سيفٌ دام ينصقل
بالجامعِ الأعظمِ المعمورِ كان يُرى ... هو الخطيب الذي تعنو له القُلَلُ

---

(1) في الأصل: كي.

(2) في الأصل: يوار ولا يستقيم به الوزن.

يـرتل الـذكر في محـرابه، وإذا ... يعلو بمنبـره الألبـابُ تنـذهِـل
كان المجابَ الدعا في غير حادثةٍ ... وأهل عصره مِن ذا الباب كَمْ نقلوا
لـذاك وافـاه شيـخٌ طالبٌ أمـلاً ... بـدعـوة منـه عنهـا ليس ينعـزل
وقـال إن رسـولَ الله أرشـده ... لنجله ذاك وهـو السيـد الجلل
والمصطفى أمر القاضي ببرِّه في ... فَصْلِ القَضَا حيث ما في حكمه جدل
فجـاءه يتـرضَّى وهـو سـامحـه ... مـبـادراً لأداء الحـق يـمـتـثـل
وذا أخو حسن المفتي الإمام ومن ... على تـآليفه قـد أُجْرِيَ العمـل
أما أبوه وذا (عبـد الكبير) فقـد ... كـانت له همـة ما نـالهـا الأوَل
نقابة السادة الأشراف قـد بلغت ... به إلى حيث لا يدني له الرمل
قد كان في العلم بحراً زاخراً وبه ... توارثَ الناسُ عـلـماً دام ينهمل
في مجلس العلم من بيت الأمير له ... مظاهـرٌ فُصِّلَتْ من كشفها[1] جُمَلُ
له المعارف والآداب قـد برعت ... ففـاق منه وراق الغَـزْلُ والغَـزَلُ
وفضل والده المفضال[2] (أحمد) قد ... أضحى على علَم كالنار تشتعـل
وهو الذي شاقه إصلاح سكة محـ ... ـراث بمطل الذي في صنعه مهل
فـأفتكها وهي محمـاة وسار بهـا ... حتى جميع الورى من خلفه قفلوا
لكنهـا حين عـادت للهيب فلم ... تمس بـالنـار إكـرامـا لـه يصـل
فضـل تـملَّاه من آثـار والـده ... (محمد) الأوحد المرضي له العمل
وذا أبوه (أبو العباس أحمد) من ... لـه منـاقب مـا إن فـوقهـا ظُلَلُ
الحجة الحافظ المحيي لسنة خيـ ... ـر الخلق لما جميع الناس قد ذهِلُوا
يروي الصِّحَاحَ جميعاً عن دراية ذي ... علم وفهم ولم يُعْرَف له كَسَـلُ
وذا الولي «ابن خود» قال أنه قد ... نـال القطابـة وهـو الآن مكتمـل
ومن كـراماتـه فتحُ لبـاب سُـوَيْـ ... ـقـةٍ بليلٍ وهـذا البـاب منقفـل
إذ حـال قَفْلُه بينَ ابنٍ ووالـدةٍ ... كادت بفرقتـه في الليل تَنْخَـزِل

---

(1) في الأصل وفي المطبوع: كشهفا.
(2) في الأصل: القاضي.

وكان حج أمير الركب فاعترضت ... له اللصوص فحالت دونهم حُوَل
رأوا على قومه سوراً فجاء له ... كبيرهم خاضعاً مُذْ حزبه جَهِلوا
وهو الذي امتحن الباشا[1] كرامته ... حتى رآها كصبح ليس ينفصل
إذ رام أن يمنع الأشراف راتبهم ... أو يأخذوه من النيران إن وصلوا
لذاك ألقاه في قدر النحاس به ... محميٌّ زيت على نار لها شُعُل
فجاء هذا النقيب المرتضى وغدا ... يعطي رواتب أشراف به دخلوا
يفضي بكفه للزيت الوقود فما ... يرى له أثر إلا بها بلل
وعندها أيقن الباشا بمفخره ... وأنّه عين أشرافٍ به فَضُلُوا
فأوقف الوقف مختصاً ببيتهم ... ودام يكرمهم ما سارت الإبل
فذا النقيب الذي طابت مفاخره ... وسيب علمه بين الناس ينهمِل
هذا الذي منه هذا الفرع طاب وكم ... طابت به من فروع ما له مَثَلُ
وهو الذي من بنيه محسن فغدا ... جَدًّا إلى المُحْسِنِين الشمّ إذ فَضَلُوا
هذا أبو محسن هذا أبو حسن ... وذا به نسب الأشراف يتصل
لله در كرام كان أصلهمُ ... هذا الذي به فَاق الحَلْيُ والحُلَلُ
هذا التقي ابن ذاك المرتضَى (حسن) ... نجل الزكي (علي) الفاضل الجَلَلُ
نجل الرضا (حسن) ابن الفذ (أحمد) ... نجل (القاسم) اللذ على مولاه يتكل
وهو الحكيمُ الذي شاعت فضائلُه ... وطِبُّه منْه كَمْ قد زالت العِلَلُ
نجل الإمام (أبي عبد الإله) وذا ... نجل (قريش) بن (عيسى) ما لهم مثل
بهم سما (عابد الرحمٰن) والدهم ... نجل الرضا (خلف) السامي به الأمل
نجل (عُلي) وذا نجل الرضا (فرجٍ) ... وذلك ابن (علي) من به جَمُلُوا
نجل (محمد المكتوم) من ظهرت ... به مفاخر أبناء به اتصلوا
وذاك جد العبيديين[2] مفخر من ... تملكوا وهم في المجد قد رَفَلُوا

---

(1) إبراهيم الشريف.

(2) إن قوله:

وذاك جد العبيديين مفخر من ... تملكوا وهم في المجد قد رفلوا

قد كان شيعته فازوا بكتمه مذ ... كانت ترى وبنو العباس تقتتل
فهو إمام جليل حيث قد كَرُمت ... له أبوة (إسماعيل) مذ كَمَلُوا
أيمة كلهم طابت مناقبهم ... ما فيهمُ من يُرى في بيتهم وغل[1]
عنهم فسل كل تاريخ وسل كتباً ... تلق العلا عن ذراهم ليس ينعزل
فانظر أخيرهمُ طابت أُخوته ... للكاظم المُرْتَضَى مَنْ فخرُه مثل
(وجعفر الصادق) المشهور كان له ... أَبٌ وقد طاب فيه العلم والعمل
ففي الحديث روى عنه الثقات وقد ... كانت له مَنْقَبَاتٌ ليس تنفصل
فخرٌ حواه من المفضال والده ... (محمد الباقر) اللذ أمرُه جلل
ذا باقر العلم من كانت له رتب ... في الدين منها جميع الأتقيا انتحلوا
ففي الحديث وفي القرآن كان له ... فضل تُدَكُّ به الأهْضابُ والقُلَلُ
وهو الذي كان أوصى بالسلام له ... خير البرية والإسناد متصل
رسالة جابر قد كان حاملَها ... له بخير حياة طولها عَثَلُ
أما أبوه علي فهو أصبح (زيـ ... ـن العابدين) بفضل دام يكتمل
له عبادة إخلاص إذا حضرت ... صلاته عن جميع الكون ينذهل
فمرة كان لم يشعر بفلذته ... إذ خرّ في البئر لما كان يبتهل
وقال كنت أُناجي من له عِظَمٌ ... ينسى البنين وإن في البئر قد نزلوا
وهو الذي قد تَنَحَّى الطائفون له ... في موقف الحج وهو الموقف الجَلَل
حتى تجاهل مَنْ قد كان يعرفه ... وهو الذي له فخر ليس ينجهل
وهوْ الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَه ... والبيت يعرفُه إذ تنزع السبل
أليس ذلك نجل الأوحد العلم الـ ... ـسبط (الحسين) الذي ما مثله رجل؟
أَعَزُّ درة أهلِ الأرض قاطبةً ... وإن يكن قَاتَلُوه عنه قد جهلوا

= ذهاب منه إلى أن العبيديين من ذرية البتول فاطمة رضي الله عنها، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون.

وقد شنع عليه في ذلك السخاوي.

(1) هكذا جاء وغل مرفوعاً مع أنه منصوب لأنه مفعول ثانٍ ليرى المبني حيث جعل المفعول الأول نائب فاعل.

سماه خير الورى عن إذن خالقه ... وقال «إنه مني» أين من عَقَلُوا؟
والله جل يحبُّ المخلصين له ... حبًّا كما قد أتى عمن له نقلوا
وهو الشهيد الذي في كَرْبَلاَءَ له ... بانت مفاخرُ صبرٍ ليس يُحتمل
نجل الإمام علي وابن (فاطمة) الـ ... ـزهرا البتولِ التي آياتها مثل
تلك المطهرةُ الغرا التي كرمت ... أرومة واغتدت بالفخر تكتمل
تلك التي قرن الله رضاه بما ... ترضاه حيث سما منها له العمل
أحبَّها خيرُ خلقِ اللَّهِ والدُها ... لزهدها ولفضلٍ ليس ينفصل
لها شمائل حسنٍ لم يفز أحدٌ ... بها وتلك من المختار تنتحل
تمشي كمِشيته الغرا ونور مُحَـ ... ـيَّاها يُري الليلَ صبحاً صانه الخجل
هاتي التي أخذت مهراً شفاعتها ... في المُذْنِبين إذَا أَرْدَاهُمُ الوحل
هاتي التي يوم تأتي الحُورُ تكنفها ... سبعون ألفاً يروا من حولها ظلل[1]
ويأمر الله من في الحشر أجمعهمْ ... بخفضِ أرؤسهم أو تغضض المقل
كيما تمر على ذاك الصراط ولا ... تراه إلا كبرق خطفه عَجِل
مفاخرٌ ما حواها غيرها فلها ... أقيم قسطاس فخر دام يعتدل
وهي التي حفظ الله بها عقب الـ ... ـمختار في الأرض حتى دام ينتسل
بها بدا الحسنان في سماء على ... كلٍّ كواكبه بالفضل تكتمل
بها قد امتد نسل الأشرفين إلى ... أقصى المشارق حيث الفضل يتصل
بها يباهي رسول الله حيث غدت ... بنوه منها بهم يبقى له عمل
ومن يكن خيرُ خلق الله والدَه ... له مراقي فلاح دونها القُلَلُ
وهاته بنته أكْرِمْ بها وبمن ... أضحوا لها خيرَ أبناء بها فَضُلُوا
شمس الكمال التي بانت مفاخرها ... غداةَ لاحتْ بنورٍ دام يشتعل
لاحت من المطلعِ الميمونِ والدِها ... أُفق العلا من به قد تمّتِ الرسل
(محمدِ) المصطفى المختار من نسب ... يسمو على الدر فخراً وهو مُنْصَقِل
السيد العروة الوثقى الذي كَرُمَتْ ... له السجايا بفضل ما له مثل

---

(1) هكذا جاء والصواب النصب.

خيار مَنْ خَيّر الله لهم كرماً ... بين البرية عنهم ليس ينتقل

الطاهر النسب المرضيُّ منذ بدا ... في الأرض آدم وهو الآن متصل

هذا الرسول الذي من نوره خلق اللّـ ... ـهُ العوالم، يا فوز الأُلَى عَقَلُوا

هذا الرسول الذي من قبل آدم قد ... حاز الرسالة حيث الفضل مقتبل

هذا الرسول جميع المرسلين به ... قد بشَّرُوا مُذْ بدت من فوقهم حلل

هذا الرسول الذي قد بشرت كتب ... به من الله لما جاءت المِلَلُ

هذا الرسول الذي قد أنْذِرَتْ أُممٌ ... بِهِ وقد أسلفتها الأعصر الأُوَل

هذا الرسول الذي في الجاهلية والإ ... سلام بانت له الآيات تتَّصِلُ

هذا الرسول الذي الإرهاص آذن مَنْ ... قِدْماً تَقَدَّمَه أن سوف يحتفل

هذا الرسول الذي أهل الكهانة قد ... تحققوه وما عن نجمه غَفَلُوا

هذا الرسول الذي من معجزاته ما ... يُتْلَى فلا يَعْتَرِي قرَّاءَه المَلَلُ

هذا الرسول الذي قد تابعته وُحُو ... ش والحجارة والأشجار والظِّلَلُ

قد عمَّمَ اللَّهُ في الأكوان بعثَته ... في الأرض أو في السما والكل ممتثل

فكان رحمةَ كل العالمين سوى ... قومٍ طغوا فغدا طغيانهم ضَلَلُ[1]

وكان أكرمَ خلق الله قاطبةً ... والكل من شرعه الجاري لنا نَهِلُوا

وكان فخر بنيه الأشرفين وهم ... أمان كلِّ الورى في الأرض مذ نزلوا

يا فوز عِقْدٍ غدت تسمو جواهره ... بكل قَرْم شريف ساد من فضلوا

إذ أنّ سلسلة الأشراف فيه غدت ... لها انتساق بنظمٍ دام يكتمل

أَسْمَاؤُهم نُظِمَتْ فيه فكان له ... بهم أعز فخار ما له مثل

إن كان عدُّهُمُ يُحيِي[2] فإنيَ قد ... أحييت من ذكرهم نظماً به اشتملوا

حَرَّرْتُهُمْ أيَّ تحرير سلكت به ... مشارعا طاب منها الشِّرْب والعَلَل

أحصيتهم من تواريخٍ ومن كتبٍ ... وعن بني بيتهم لا زال يحتفل

أتممت عدّهمُ بالمصطفى وبهِ ... سادت بنوه وآباء له أُوَل

---

(1) هكذا جاء والصواب النصب.

(2) جاء في النسخة المطبوعة من الأجنة الدانية تحت قوله: إن كان عدهم يحيي رقم 28 إشارة إلى سلسلة الأشراف التي نظمها في هذه القصيدة.

فـإنَّ نُـورَه معـروف بـأوْجُههِمْ ... إذ كان في طاهر الأصلاب ينتقل
نـورٌ بَـدَا فـي مُحيّـاهم، وكُلُّهمُ ... في الجـاهلية والإسـلام معتـدل
حتى أفـاده (عبـدُ الله) (آمنـة) ... وقـد رأته لـدى الميـلاد يشتعـل
فقد رأت به ما قَدْ نَاءَ وانخفضت ... لـه النجومُ وعنـه ارتَّدهـا الكلل
وقد تداعى له الإيوان وانخمدت ... نـارٌ وغاضت جفافا دونه المُسُلُ
وقد أحاطت به الأملاك تبصرهم ... مُشَمِّتِينَ الـذي في فضله رَفَلُوا
واستبشر الكلُّ من ميلاد أحمد إذ ... فـازت به أمّـه فوز الألى كَملوا
فلْيهنها ما رأت من يمن مـولده ... وليهننـا منـه فضـل دام ينسـدل
أكْـرِمْ بهـا وبعبـد الله والـده ... ومـا غدا لهمـا من فضله يصل
أحياهما الله بعـد الموت تكـرمة ... لـه وقـد آمنـا بـاللذ بـه حملوا
فخـر لـوالـده أمسى وذاك نجـ ... ـل (شيبة الحمد) من لله يبتهل
أجرى بزمزَم نـفـعاً لا نظيرَ لـه ... أجراه مـاءً به يجري له العمل
لِمْ لا وذاك (ابنُ عَمْرٍ وهاشم) العلم الـ ... ـرضى الذي عمّ نفعاً ربعه الخضل
نجل (المغيرة) ذا نجل (قصي) وذا ... نجل (حكيم كلاب) من به اعتدلوا
ذاك ابن (مرة) نجل الشيخ وَاعِظِهِمْ ... (كعب) ابن فخر (لؤَيّ) الأكرم الجلل
نجل الرضا غالب ذا نجل جدهم ... قريش فهو الذي سادت به الأول
ذا نجل (مالك) بن (النضر) نجل (كنا ... نـة) الـذي لقـراه الأمـة ارتحلوا
وأنه ابن (خزيمـة) بن (مدركـة) ... نجل الرضا (الْياس) من قد سادمن فضلوا
من صلبه سمعوا صوت النبي وقد ... صارت إلى حرم تهدى به البزل
نجل الرضا (مضرٍ) نجل (نزار) وذا ... نجل (معد) بن (عدنان) به كملوا
هم الألى قد غَدَوْا آباء سيِّد مَنْ ... في الكون يجري لنا من فضله العسل
قد فاح من عدهم طيب يروق شذا ... ما فاز من نفحه بالجـد مُنْتَضِل
هم الأسـود و(إسماعيـل) جدهم ... ذاك الرسول الذي طابت به الملل
هذا الذبيح ابن (إبراهيم) رافع ما ... قد شاد بالحرم المحمِي به الأمل
شـاد القواعـد للبيت العتيق وقد ... كان الخليل الذي ما شابه خلل

(1) في الأصل: شبه.

نجل النبيئين (شيث) نجل (آدم) من ... في الأرض قد بدئت من بعثه الرسل
صلّى عليهم جميعاً ربّنا وعلى ... آل وصحب بحفظ الدين قد وُكِلُوا
فإنهم أصلُ خيرِ الخلقِ أكرم من ... أبدى الصلاة عليه الكون والأزل
وذا أعزُّ عقود نُظِّمَتْ فغدت ... بأهل بيت رسول الله تكتمل
وسطاه خيرُ الورى المختار تَكْنُفُه ... أصولُه وفروعٌ ما لهم مثل
نَظَمْتُهُمْ مخلصاً لله نظمَهُمُ ... كي يغتدي منه شملي الدهر يشتمل
نظمتهم خدمةً للآل محتسباً ... فيها فحسبيَ منها ما اغتدى يصل
نظمتهم أرتجي من حزم غَيْرَتِهِمْ ... ما منه ينشط من قَدْ رِيءَ يُعتقل
عنايةٍ مِنهُم أن يشملوا عملي ... بها، فمني يفوز القول والعمل
وإن تكن لي فيهم ذمة فأنا ... أرجو بها الفوز مهما طاب لي أمل
أرجو بها مَخْلصي يوم المعاد إذا ... ضاق العباد وقد أضناهم الوَجل
وإنما ليَ في الدنيا بذكرِهِمُ ... تَبَتُّلٌ حيثما تُسْتَعْظَم العلل
نرجو بسردهم ثم الدُعَاءِ بما ... أَمَّلْتُهُ أن نُرى بالفوز نَغتلل
إذْ أن إكرامهم منه القبول لما ... ندعو به عندما لله نبتهل
فجاهُهُمْ خيرُ جاهٍ يستجار به ... عند المهيمن لا يُرْضَى له المهل
رب بجاههِمُ كن لي وعِذْنِيَ من ... شر الشرور إذا ما أنفق الدغل
ربِّ بِجَاهِهِمُ خُذْ بيدي فأنا ... مستضعف وعليك اليوم نَتَّكِلُ
بجاههم وبجاه المصطفى وبجا ... ه الأولياء نرتجي ما منه نكتمل
نؤمل الدين والدنيا وآخرة ... بها ننال مفازاً حين ننتقل
نرى السعادة في الدارين لي ولمن ... نرى مودَّتَه ما شابها خلل
لا سيما منهمُ من كان لي عَضُدا ... في النائبات بنصري الدهر محتفِل
فأسْبل إلهي عليه الحفظ ما طلعت ... شمسُ النهار التي نارت بها السبل
وأنعم علي بما أنت الجواد به ... نُعْمى بها الآن يأوي شمسيَ الحمل
وكُنْ وليِّي وحسبي في الحوادث لا ... أخشى لها طارقا يعرو به كسل
واضرب علي من اللطف الخفي فَسَا ... طِيطَ المعافاة حتى يذهب الوجل

لـطفاً وحفـظاً يعم الأقربـاءَ وأبـ ـنائي وأهْلَ ودادي حيثما وصلوا
وَجَـازِ عَـنِّي آبـائـي وشيـعَتَـهم وكُـلَّ أشياخنـا خيـراً بمـا عملوا
وجد لنا بمنى التوفيق حيث نرى مسالك الرشد لا يعرو بها زلـل
وامنُنْ علي بفتـح العـارفين فـذا وَرْدٌ شهي غدا من دونه العسـل
وارحم بفضلك ذلي إن ذنبيَ قد أضحى عظيما وما أن قله جبل
فتب علي وجـد بالعفـو عَنِّيَ إذ أصبحتُ ذا خطإٍ منه أنـا خَجِلُ
واغفـر لنـا ولكـل المؤمنين على طول الدوام، فإن الفضل مُنْهَمِل
واجمع قلوب جميع المسلمين على مصالح الدين والدنيا إذا اعتدلوا
وانصُـر جيـوشَهم بـالـرعب إنّهم إن لم يكن لهم رعب قد انخذلوا
وآرشـد لنـا أمـراء المؤمنين إلى خير العباد الذي تبقى به الدول
واقـرن بكل صـلاح مـا يـدبـره مشيرُ تونِسَ وهو الأحزم البطل[1]
وكن مسدِّدَ أعمالِ الوزير وشِـدْ مفاخِرَ القُطْرِ كي تسمو به الحلل
فهـذه دعـوات قـد رجـوت بهـا أعـزّ جـاه لآل البيت إذ فضلوا
يا رب أنت رجائي في إجـابتها بعـاجلٍ لم يَشُبْـهُ الرد والمهـل
وبـالصلاة على الهـادي وعِتْرَتـه مع السلام دعـائي اليوم يكتمـل

وقرظ هاته القصيدة العالم الأديب الشيخ محمد علي اليمني الهندي الوافد على تونس في ثاني ربيعي سنة ست وتسعين ومائتين وألف فقال:

[البسيط]

طـلا كـلامِـك من سَقَّيْتَـه ثَمِـلُ فقل أخمرُك ممـا مزجه العسل؟
وأنت للحمـد أهـل يـا محمّـده فالفضل لولاك[2] جيد شأنه العَطَلُ
لو كان للشعر ميدان، تجول به فرسان خيل فأنْتَ الفارس البطل
فعش محمد واسلم واحْيَ وابق ودم وقد أحاطت بك النعماءُ والجَذَلُ
ثم الصـلاة على طـه وعتـرتـه فكـالسوام الـورى لولاهُمُ هَمَـلُ

(1) سقط هذا البيت والذي يليه من الأصل.
(2) في الأصل: لولاكن.

وقرظها الشاب الوارد من مشرع النجابة أعذب موارده، المتواصل الفضل بجديه ووالده، الذي اشتهر فخر بيته النبيه، وتجملت اليوم خطتا القضاء والفتيا بعمه وعم أبيه[1] الشيخ محمد ابن العالم الشيخ الطيب النيفر[2] بأبيات هي أول ما رأيت من شعره وعمره نحو العشرين سنة نرجو من الله أن يرينا هلاله مقمراً، وهي:

[البسيط]

بمثل نظمك هذا يُضرب المثل ... ويركب الصعب كي يُرْواه والذُّللُ
ويرتجى كل مرمى شطَّ مطلبه ... حتى لقد تُركت من عزه الحِيَلُ
لئن غدا الشعر قد حالت مذاهبه ... بقصدكم قد تحلى جيدُه العَطَلُ
علمت أن امتداحَ الآل غاية أدْ ... نَى ما يجازى به في طيه الأمل
وبئسما استبدل النحريرُ عارفة ... تدوم منها بنزر دونه الأجل
فما تَرَيَّثْتَ أنْ أبرزتَ غانيةً ... في مدحهم ولها الإبداع مشتمل
يمل كل قريض ما عداها فما ... يعرو مسامعَنا إن أنْشِدت مَلَلُ
كأنها في قبول نسقت فبها ... عن كل مثلٍ لها أهل النهى شُغلوا
لازِلتَ في همة فوق السِّماك لها ... من فخركم ومعلى قدركم ظلل
ولا تزال ترينا خُردا غليت ... لمثلها ما اهتدت من قبلكم أول
من كل عذراء لم تُطْمَثْ يحللها ... بيان سِحْرِك لحفا قدره جلل
تُديرُ كأساً على أسماعنا فنرى ... كأننا من سُلاف كلُّنا ثَمِل

وقرظها الأكتب النحرير الشاعر المؤرخ الشيخ محمد الباجي المسعودي

---

(1) عم المقرظ هو جد والدي الشيخ محمد الطاهر النيفر آخر من ترجم له المؤلف في كتابه هذا، وتوفي الشيخ محمد الطاهر سنة (1311).
وعم أبيه هو الشيخ محمد بن أحمد النيفر وستأتي ترجمته وتوفي سنة (1312).

(2) الشاب محمد النيفر هو الشيخ محمد ابن الشيخ الطيب النيفر صاحب (عنوان الأريب عمن نشأ بإفريقية من عالم أديب).
وقد ترجم له ترجمة حافلة الأستاذ محمد بن الخوجة في مقدمة الكتاب المذكور وتوفي الشيخ محمد النيفر (1330).

رئيس كتبة القسم الثاني من الوزارة الكبرى المتوفى مساء الثاني عشر من شوال سنة سبع وتسعين ومائتين وألف عليه رحمة الله بما نصه:

[الوافر]

نـظامـك أيُّهـا العَلَم السَّنـوسي ... بـفضـلِ الآلِ تـاجٌ لـلرؤوسِ
يَفُـوقُ ـ وحَقّكم ـ عِقْد الـلآلي ... وَيْعلَقُ حين يُنشـد بـالـنفـوس
فقـد أبـدعتَ إذ أودعت فيـه ... مفـاخـرَ للفـروع ولـلأُسـوس
وصرت ـ وُقِيتَ ـ حَسّانـا وكَعْباً ... وهَـمَّـامًـا بـذا العَـلْق النـفيس
جـزاك الله أحسن مـا يجـازى ... بـه من أذكـر اللّذ قَـدْ تُنُوسي

سيـدي الآوي من ظل البلاغة إلى وارفه، الملتحف بتلاد المجد وطارفه، الساحب على أقرانه ذيل مطارفه، سليل العلماء الأعلام، ومشايـخ الإيمان والإسلام، نابغة الزمان، لا بني ذبيان، وحسان أهل البيت المشهود له بالإحسان، منشي الرائد التونسي، الشيخ سيدي مَحمد السَّنوسي، أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد. وبعد سلام يناجيكم لطفه وإحسانه، ويناجيكم بالمبرة والمسرة لسانه، فقد وصلني من بركم المترادف الألطاف، «الأجنة الدانية الاقتطاف، بمفاخر سلسلة السادة الأشراف»، فسرحت الطرف في رياضها فسعى وطاف، واقتطف من ثمراتها الدانية القطاف. فقال وأقسم بالآل، إنها أحسن من عقد اللآلْ، ومن عقد اللآل[1]، لما حوته من مناقب السادة الذين هم أمان لأهل الأرض. كما قاله سيدنا محمد المشفع يوم العرض، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم ما أقيم من واجب حقهم الفرض، وهنيئاً لكم بما خطر من هذا المهيع الوحيد بالبال، ونظمه درّاً نفيساً في جيد الأيام والليال ، وبقاء ذكركم به إلى بقية الأجيال، ومن علامات القبول والإقبال، ظهوره في أيام مولد سيدنا محمد سيد

---

(1) جاء في تقريظ المسعودي:

وأقسم بالآل إنها أحسن من عقد اللآل ومن عقد اللآل والمراد بعقد اللآل العقد المتعارف الذي يوضع في نحور الغيد، وكذلك المراد باللآل الجواهر، وأما عقد اللآل الثاني فالمراد به منظومة الشيخ قابادو في الأشراف التي سماها عقد اللآل وطبعت هذه المنظومة سنة (1301).

الإرسال، صلّى الله عليه وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً كما قال. ولو لم يكن شكر المنعم من الواجب ما أعملت في تقريظه الرواجب، إذ حسنه واضح جلل، والشمس تكبر عن حلي وحلل، تقبل الله تعالى سعيكم، ووالى حفظكم ورعيكم، وآنس هذا القطر التونسي بكم وبمثلكم، وأحسن للجميع العقبى، وجعلنا من أهل المودة في القربى، بمنه وفضله، حرره ودودكم محمد الباجي المسعودي في 10 ربيع الأنور سنة 1296 ست وتسعين ومائتين وألف.

الملاحـــق

ملحق (1) مشيخة المدينة بتونس.

ملحق (2) عهد الأمان.

ملحق (3) ثورة علي بن غذاهم.

ملحق (4) الكومسيون المالي.

ملحق (5) المجلس الشوري.

ملحق (6) تتمة للمقدمة تتضمن تاريخ تونس من 1297 إلى 1376 هـ، ومن 1879 إلى 1957 م.

ملحق (7) تاريخ تأسيس جامع الزيتونة.

ملحق (1)
مشيخة المدينة بتونس

المجلس البلدي لما تأسس في سنة 1275 كان نظره مقتصراً على ما ضمه سور الحاضرة من المساكن والطرقات.

ثم نظمت الإدارة البلدية سنة (1302) فاتسع نظرها وشمل العقارات البلدية، ولوائح إصلاح البناء، وإحداث الشوارع العامة والخاصة ومعاليم الطرقات، والأسواق، ومحلات التفسح، والدفن، والمواليد، ومصلحة الإطفاء، إلى غير ذلك مما هو من مهمات البلد.

وكانت البلدية خاضعة للوزير الأول، وهي الآن خاضعة لوزير الداخلية.

وهذه أسماء مشايخ المدينة في العهد الحسيني وعهدنا الحاضر عهد الاستقلال.

اسم الشيخ	تاريخ ولايته
الشيخ حميدة الغماد	1207
الشيخ حمودة العصفوري	1239
الشيخ محمد العصفوري	1265
الشيخ الحاج عميرة ثابت	1271
الشيخ محمد الزهار	1279
الشيخ إسماعيل معاوية	1281
الشيخ الحاج حميدة سيالة	1284

الشيخ الشاذلي الدلاجي	1285
أمير اللواء محمد الدلاّجي	1288
أمير اللواء محمد العصفوري	1302
أمير الأمراء محمد الصادق غيلب	1320
أمير اللواء مصطفى دنقزلي	1330
أمير الأمراء خليل بوحاجب	1333/ 1915
أمير الأمراء الشاذلي العُقْبِي	1345/ 1926
أمير الأمراء علي السقاط	1351/ 1932
أمير الأمراء عبد الجليل الزاوش	1353/ 1934
مصطفى صفر	1354/ 1945
محمد سعد الله	1360/ 1941
العزيز الجَلُّولي	1361/ 1942
الشاذلي حيدر	1362/ 1943
أحمد الزاوش	1376/ 1956
علي البلهوان	1377/ 1967
أحمد الزاوش ثانياً	1378/ 1958
حسيب بن عمّار	1383/ 1963
فؤاد المبزع	1389/ 1969
عز الدين العباسي	1393/ 1973
حسن الممي	1395/ 1975
صالح عويج	/ 1978
زكرياء بن مصطفى	/ 1980

وكانت رئاسة البلدية منفصلة عن مشيخة مدينة تونس حين تأسس المجلس البلدي.

وأول من تولّى رئاسة المجلس البلدي الجنرال حسين 1275 ـ 1858.

محمد قارة	1282 / 1865
محمد العربي زروق	1286 / 1869
حسونة المتالي	1298 / 1880
حسونة الوزير	1300 / 1882
محمد المبزع	1301 / 1883

وبقت كذلك منفصلة إلى أن تولى محمد العصفوري مشيخة المدينة فإنها جمعت له مع رئاسة بلدية تونس.

ثم استمر الحال على أن شيخ مدينة تونس هو رئيس بلديتها.

واللواء محمد العصفوري الذي جمع بين الأمرين تولى إثر الحوادث التي آلت إلى عزل الشاذلي الدلاجي.

ملحق (2)
عهد الأمان
(1274 ـ 1277 ـ 1280)

عهد الأمان أجمل القول فيه المؤلف عكس الشيخ الوزير ابن أبي الضياف فإنه تحدث عن عهد الأمان وعن سببه الذي دعا الأمير إلى إعلانه، وقد بسط فيه القول اعتناءً به، ومن عنايته بعهد الأمان أنه سمى كتابه:

(بإتحاف أهل الزمان، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان).

فهذه التسمية المعنون بها الكتاب تدل دلالة واضحة على ما للشيخ الوزير ابن أبي الضياف من عناية بعهد الأمان.

ومن المتأكد أن نذكر باختصار أسباب إصدار قانون عهد الأمان لأن المؤلف هنا يذكر أنه أصدره تلقائياً حيث يقول:

ولما مهد السبل أصدر عهد الأمان.

وجلية الأمر في إصداره هي قضية مقتل اليهودي المسمى باطو الذي كان يخدم على كَرَطون ـ ينطقها أهل تونس بفتح الكاف والـراء وضم الطاء الممدودة وهي الكريطة والمتعارف الآن كريطة ـ للقائد نسيم رئيس اليهـود بسبب شتمه لمسلم وسب دينه وكان اليهودي بحال سكر، وقد اعتاد ذلك.

وكان قتله من الباي تنفيداً لحكم المجلس الشرعي الذي حكم بقتله بدون استتابة على مقتضى المذهب المالكي وحكم عليه بالإعدام رغم تدخل القنصلية الفرنسية في القضية.

وبعد مقتل اليهودي أتاه القنصل ليون روش وحذره من مغبة استبداده بالحكم فجعل مجلساً للجنايات بدون إحداث قانون لذلك.

فلم يُرْضِ عملُه هذا اليهودَ بباريس فهاجوا وماجوا ورفعوا أصواتهم بالشكاية.

فأنتجت دعايتهم ضد الحكومة التونسية قدوم قطع من الأسطول الفرنسي والتهديد بقدوم قطع من الأسطول الإنكليزي الذي بمالطة، وهدد القنصل الإنكليزي بقدوم الأسطول العثماني.

فاضْطُرَّ الباي تحت هذا التهديد إلى إعلان قواعد عهد الأمان وهي إحدى عشرة قاعدة وتُلِيَ هذا العهد بالسراية الكبرى ببارد و.

وكان ذلك في 20 من المحرم سنة (1274) الموافق للتاسع من سبتمبر سنة (1857) فهذا هو سبب إصدار عهد الأمان.

وذكر الوزير ابن أبي الضياف ما دار حول قانون عهد الأمان من (ص 231 إلى ص 249 من ج 4 من الإتحاف).

المشير محمد الصادق باشا باي وعهد الأمان:

أجمل المؤلف إتمام عهد الأمان في مدة المشير الثالث في فقرة من أقصر الفقر فيقول:

(وأعمل الحزم في إنجاز مشروع أخيه بإتمام القوانين المبنية على عهد الأمان وجمع لها خاصة العلماء والأعيان فاستكملوا وضعها وأجملوا صنعها).

والموضوع طويل الذيل من أهم الأحداث بتونس كما ذكرنا سابقاً وقد تحدث عنه الشيخ الوزير ابن أبي الضياف.

بأن المشير الثالث محمد الصادق باي افتتح البيعة له بالإمارة بالتعهد بالتزام عهد الأمان ونصحه الوزير النصوح بأنه إذا لم يتعهد بذلك جر إليه غضبَ الدولة العلية وسائر الدول التي دعت إلى العمل بعهد الأمان.

وذكر نصه كما ذكره الشيخ محمد بيرم الخامس في صفوة الاعتبار ونصه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم:

تبارك من جعل الأمان أقوى أسباب العُمران، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد فيقول العبد الفقير لربه المشير محمد الصادق باشا باي وفقه الله لما يرضاه، وأعانه على ما أولاه: إني أقبل البيعة من الأعيان الحاضرين على مقتضى ما وقع الالتزام به في العشرين من محرم سنة 1274 أربع وسبعين ومائتين وألف من المرحوم المقدس أخينا المشير سيدي مَحمد ـ بالفتح ـ باشا باي، وهو عهد الأمان لسائر السكان على الأعراض والأموال والأبدان، وما حواه من القواعد اللوازم والأركان وحلفت وأحلف بالله وعهده وميثاقه على مقتضاه، وأن لا أخالفه ولا أتعداه.

وهذا الكلام صدر مني ونقله الناطق به عني وختمي وخطي فيه أقوى شاهد وأوضح إعلان، لكل من حواه الديوان، ولسائر الرعية والسكان.

وعلى مقتضاه عليكم السمع والطاعة، ويد الله مع الجماعة.

حرر يوم السبت الخامس والعشرين من صفر سنة (1276).

افتتح بيعته بهذا العهد يوم السبت الخامس والعشرين من صفر سنة (1276) حين اجتمع بالمجلس الشرعي ووجوه الحاضرة ورجال الدولة وأعيان العسكر وخرج للبيعة في آل بيته وألقى عليهم نص العهد المذكور وبعد تلاوته بدأت البيعة، فبايعه أهل المجلس الشرعي، وهو قائم، ثم جلس وبايعه كل الحاضرين وهو جالس على كرسيه على اختلاف طبقاتهم.

الحرص على إتمام قانون عهد الأمان:

تصفّح المشير الثالث أعمال المجتمعين لتحرير فصول قانون عهد الأمان وترتيبه، وحرّضهم على الاطلاع على قوانين الدول مع الحرص على عدم مخالفة الشريعة.

وقد انفصل العلماء عن المشاركة في التحرير المذكور، ولامهم في تاريخه الشيخ الوزير ابن أبي الضياف ملقياً عليهم تبعة عدم مشاركتهم في هذه المصلحة فقال:

وليت شعري ما أعد العلماء من الجواب بين يدي الحكم العدل، العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور عن تَجَنُّفِهم وتباعدهم عن هذه المصلحة الضرورية متعللين بأنها لا تناسب خططهم الشرعية في العرف، والحال أن الشريعة جاءت لمصالح الدنيا والدين وأوقعوا بهذا التجنف وصمة في وجه البلاد ونفرة بينهم وبين أهلها (الإتحاف ج 5 ص 38).

إن حمْلة الشيخ الوزير ابن أبي الضياف حملة سببها بعض العلماء المتصدرين من بعض أهل المجلس الشرعي دون غيرهم، فهناك كثرة من العلماء شاركوا، ففي مجلس التحقيق شارك:

الشيخ محمد الشاهد شيخ الجماعة فإنه كان من أكابر أئمة الدين.

والشيخ حميدة بن الخوجة الذي تولى مشيخة الإسلام وكان من نبغاء العلماء.

والشيخ محمد الستاري.

والشيخ محمد النيفر المفتي المالكي العلاّمة النحرير.

والشيخ حسونة عباس المفتي الحنفي.

وتركيب مجلس التحقيق كله من العلماء المذكورين، وإنما كان رئيسه من غيرهم وهو إسماعيل صاحب الطابع.

والسبب في ذلك أن رؤساء المجالس كان اختيارهم على قاعدة أن لا يكون من أهل البلاد لارتكاز الحكومة على غيرهم نظراً إلى أن الدولة ترتكز على صنائعها من المماليك والأصهار أما بقية الشعب وإن تقدموا علماً وتفكيراً فهم لا حظ لهم إلا إذا اضْطر إليهم.

وكذلك الحال في مجلس الجنايات فإن تركيبه من العلماء ومنهم الشيخ صالح النيفر أحد أفذاذ العلماء كما يقوله الشيخ السنوسي في ترجمته.

والشيخ أحمد كَريِّم الذي تولى مشيخة الإسلام.

والشيخ محمد المازري ابن الشيخ محمد الطاهر بن مسعود.

والشيخ الجد محمد الطاهر ابن الشيخ العالم محمد النيفر القاضي العلاّمة النحرير أحد قضاة العدل الأفذاذ.

والشيخ محمد ابن الشيخ المفتي حسين البارودي.

والشيخ محمد الشريف أحد العلماء الوجهاء.

وكذلك انضم إلى المجلس الكبير من العلماء:

الشيخ عمر بن الشيخ الذي تولى الإفتاء.

والشيخ سالم بوحاجب أحد نبغاء العلماء، وقد تولى رئاسة الإفتاء.

والشيخ الطاهر بن عاشور العلاّمة المؤلف والذي تولى القضاء والإفتاء.

والذي دعا الشيخ الوزير ابن أبي الضياف أن يحمل على العلماء ويقول:

(ما أعد العلماء من الجواب بين يدي الحكم العدل العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور عن تجنفهم وتباعدهم عن هذه المصلحة الضرورية متعللين بأنها لا تناسب خططهم الشرعية في العرف، والحال أن الشريعة جاءت لمصالح الدنيا والدين وأوقعوا وصمة في وجه البلاد ونفرة بينهم وبين أهلها) هو امتناع الشيخ محمد بيرم الرابع شيخ الإسلام فإنه يحمله تبعة الامتناع وكذلك المشايخ:

أحمد بن حسين باش مفتي المالكية.

ومحمد بن الخوجة المفتي الحنفي.

ومحمد البنا المفتي المالكي.

إن صاحب الإتحاف انتقد على شيخ الإسلام المذكور بأنه كان أسرع الحاضرين للإجابة مستنداً إلى الغضب الذي لا قدرة لنا على دفعه.

ثم قال:

وهو المشار إليه في تعاريب مكاتيب الوزير - وهو وزير الأمور الخارجية بفرنسا - من الذين قادوه بمشورتهم لأمور غير صالحة، وأوقعوا له الاختبال في عقله كم مرة. (الإتحاف ج 4 ص 239).

وقد ذكر صاحب الإتحاف محاورة دارت بينه وبين شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع: فقلت له أن القوم لم يصرحوا بالغضب، ولا آذنوا بحرب وإنما نصحوا.

فقال (أي شيخ الإسلام المذكور):

نخشى الغضب من الدولة العلية وأصول التنظيمات لا تخالف ديننا (الإتحاف ج 4 ص 239).

ثم إنه بعد ذلك يشير إلى امتناع شيخ الإسلام:

(تلكأ الشيخ محمد بيرم شيخ الإسلام عن الحضور لأمر يعلمه الله فقال له الباي:

قد أفتيتنا بالقبول من أول الأمر وأن التنظيمات الخيرية لا تعارض ديننا فما بالك تمتنع من الحضور الآن وألزمه الحضور.

وتحدث صاحب الإتحاف عن شيخ الإسلام كيف قبل ما جاء من تفسير القاعدة الأولى من عهد الأمان وهي:

تأكيد الأمان لسائر رعيتنا وسكان إيالتنا على اختلاف الأديان والألسنة والألوان في أبدانهم المكرمة وأعراضهم المحترمة إلا بحق يوجبه نظر المجلس المجلس بالمشورة ويرفعه إلينا ولنا النظر في الإمضاء أو التخفيف ما أمكن، أو الإذن بإعادة النظر.

فنقل عن شيخ الإسلام أنه قال:

يمكن لي أن أخطب يوم الجمعة بشرح هذه القاعدة الأولى المذكورة.

وفي هذا الجو الذي أقبل فيه أهل المجلس الشرعي على تفسير القواعد الأصولية بعهد الأمان أمر الوزير المصلح خير الدين الفقهاء الحاضرين أن يكتب كل واحد منهم على قواعد عهد الأمان ما يراه ويدين الله به، فأجابوه لمطلبه لما رأوا من توقد فكرته، وكمال فطنته، فكتبوا وتقاربوا في المرمى على قوس واحدة.

وجلّى شيخ الإسلام فيما كتبه بشهادتهم ولولا الإطالة لنقلنا ذلك[1].

استقالة الفقهاء من مجلس شرح قواعد عهد الأمان:

بعد مشاركة أولئك الفقهاء الأربعة طلبوا الاستعفاء متعللين بأن مناصبهم الشرعية وما عليهم من مهمات يجب القيام بها لا يمكن الجمع بينها وبين عملهم في المجلس المذكور.

وآخذهم صاحب الإتحاف في قَصْرهم أنفسهم على وظائفهم الشرعية.

وكان الظن بهم تقديم هذه الطاعة المتعدية على غيرها من الطاعات القاصرة.

وتعللوا بأن منصبهم الشرعي لا يناسبه مباشرة الأمور السياسية إلى غير ذلك من المعاذير التي لو لم نرها بقلمهم ما نقلناها.

وقبل الباي عذرهم، وأراحهم من تعب الحضور، ولسان حال المسلمين بهذه الإيالة المسكينة يقول:

وما يجب اعتقاده أن الله الذي دينه النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، ومن أوامره الواجبة على عباده تغيير المنكر ولو بالقلب، ومن شريعته السمحة ارتكاب أخف الضررين عند العجز عن السلامة منهما إلى غير ذلك من تيسير هذه الشريعة الصالحة لكل زمان، يسألهم عن ذلك يوم تبلى السرائر، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم)[2].

---

(1) الإتحاف (ج 4 ص 247).

(2) الإتحاف (ج 4 ص 248).

لعل له عذراً وأنت تلوم:

حمَّل الشيخ الوزير أحمد بن أبي الضياف العلماء كلَّهم مغبة عدم المشاركة في تحرير شرح قواعد عهد الأمان مع أن الممتنعين قلة وهم الأربعة:

الشيخ محمد بيرم الرابع.

والشيخ أحمد بن حسين.

والشيخ محمد بن الخوجة.

والشيخ محمد البنا.

أما الكثرة من العلماء فقد شاركت لما قامت المجالس المنبثقة عن تطبيق عهد الأمان بالأخص الشيخين وهما:

محمد الشاهد.

وصالح النيفر.

كما أن شيخ الإسلام الرابع كان من أعضاء مجلس الباي الذي جعله لخاصة نفسه للنظر فيما يحرره مجلس شرح قواعد عهد الأمان.

فالعلماء لم ينفضوا أيديهم من هذا المجلس، وإنما امتنع بعضهم من مجلس خاص وهو المجلس الذي يرأسه الوزير مصطفى خزنه دار.

ومن القريب جداً أن امتناع شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع كان من أجل أنه لم يوافق على أن يكون مرؤوساً للوزير مصطفى خزنه دار لأن الوضع كان في تونس أن شيخ الإسلام يقدم على الوزراء، وكذلك بقية أهل المجلس الشرعي.

ويدل على تقديم أهل المجلس على سائر رجال الدولة أن المكتوب الذي عين فيه الباي رجال المجلس المذكور قدم أعضاء المجلس الشرعي.

وهذا نصه:

أمرنا هذا للعلماء الأعلام الفقهاء الأعيان، الجلة الفضلاء من أهل مجلسنا العلي:

شيخ الإسلام سي محمد بيرم.

والشيخ سي أحمد بن حسين باش مفتي المالكية.
والشيخ سي محمد بن الخوجة المفتي الحنفي.
والشيخ سي محمد البنا المفتي المالكي.
والوزراء الأعيان النصحاء الأركان أُولي الرفعة والشان.
ابننا الأعز ووزير العمالة مصطفى خزنه دار.
ووزير الحرب أمير الأُمراء ابننا مصطفى باش آغة.
ووزير البحر ابننا خير الدين.
والوزير الأحظى أمير الأمراء ابننا إسماعيل صاحب الطابع.
والأحظى أمير الأمراء ابننا محمد ـ بالفتح ـ أمير الأعراض.
وكاتب سرنا أمير اللواء محبنا الشيخ سي محمد بن أبي الضياف، حرس الله جميعهم وأحسن صنيعهم.

وإننا أَمَرْناهم بالاجتماع في دارنا بالقصبة يومين في كل أسبوع، وهما الأربعاء والخميس للتفاوض في شرح الفصول المسطرة في عهد الأمان.

وكل واحد يتكلم بما يدين الله به على مقتضى آداب البحث في الأدلة وإيضاحها، ولا يخجل من لا تنهض حجته فالحق أحق بالاتباع.

وأمرناهم قبل ذلك بقراءة ما رتبته الدولة العلية العثمانية وغيرها من الدول لِيُجْرُوا التراتيب على ما يصلح بلادنا بعد استفتاء من ذكر من العلماء فيما تتوقفون فيه من الأمور وترفعوا إلينا عمل كل اجتماع لننظره ونمضي ما عليه أكثر رأي الجماعة.

ولا يلزم الفقهاء المذكورين الحضور إلا يوم الأربعاء لاشتغالهم يوم الخميس بالمجلس الشرعي بدار الشريعة والله تعالى وليّ إعانتهم وتوفيقهم على هذه المصلحة التي يعم نفعها بحول الله. والسلام.

وكتب في 16 أشرف الربيعين[1].

---

(1) الموافق 4 نوفمبر 1857. انظر الإتحاف (ج 4 ص 246).

فلما رأى أهل المجلس الشرعي تقدم الوزراء عليهم أنفوا من الجلوس في مجلس يترأسه الوزراء المماليك.

وزادِ الطين بلة أن هناك عداوة بين وزير العمالة صاحب النفوذ الوزير خزنه دار وبين شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع وعداوته شبيهة بعداوة الوزير المذكور مع إسماعيل السُّنِي صاحب الطابع فوجود شيخ الإسلام في مجلس يترأسه من يتربص به الدوائر دعاه إلى أن يستعفي هو وبقية أهل المجلس الشرعي من المالكية والحنفية.

وحسناً صنع شيخ الإسلام فإنه لو بقي معه في ذلك المجلس لاشتدت العداوة بينهما ولأفضت إلى ما أفضت إليه عاقبة الوزير إسماعيل السني الذي سعى أوّلاً إلى إصدار أمر الباي بإقامته الإقامة الجبرية، ثم سعى في قتله في بضع دقائق مع أمير الأُمراء رشيد وزير الحرب.

فشيخ الإسلام يخشى عاقبة كعاقبة هذين الرجلين السني والرشيد.

فالعلماء المستعفون من المجلس المكلف بإرساء قواعد عهد الأمان على علم لبعد أنظارهم بأن العهد الممنوح إنما هو منح اضطراري أدت إليه حادثة قتل اليهودي المتجرىء على الإسلام بشتم دين أحد المسلمين.

فالباي الأمير والكثير من حاشيته هو أهم في عدم وجود عهد الأمان، ولذلك لما وقعت ثورة علي بن غذاهم ارتكز عليها وزير العمالة وأبطل العمل بعهد الأمان، فهم على بينة من الأمر بأن العمل به كان تحت ضغط الدول الأجنبية.

ومن أعذار الاستعفاء:

أن تشكيل المجلس للنظر في إرساء قواعد عهد الأمان كان تشكيلاً غير متناسق فيما بين أعضائه إذ منهم الفقهاء الذين لهم مرانة سياسية مثل شيخ الإسلام بيرم الرابع الذي له اتصال بالأمراء واطلاع على خبايا نفوسهم فقد كانت له مصاهرة مع الباي المشير الثاني.

ومنهم فقهاء تطبعوا بطبيعة الفقهاء في التزام النصوص الفقهية مثل شيخ الإسلام المالكي أحمد بن حسين الذي هو من العلماء الفقهاء الممتلئين فقهاً ولهم محافظة شديدة على النصوص الفقهية.

وعلى هذا الغرار المفتي الحنفي الشيخ محمد بن الخوجة فإنه من فقهاء الحنفية.

وأما المفتي المالكي فهو من أهل الورع الشديد والبعد عن رجال السياسة حتى أن الأمير المشير الثالث لما أراد إعانته على بناء داره امتنع من أخذ أي شيء منه مع الفقه البارع وهو الشيخ محمد البنا.

فهؤلاء الفقهاء كان انسحابهم من مجلس الإرساء عن روية وعن معنى خاص أدركوا به أن عملهم سوف لا يثمر لأن الاتجاه الحكومي من قبل الوزارة مراميه بدأت تظهر حين تلك الاجتماعات وهو ما جعلهم بعد أن انضموا إليه استعفوا منه.

ثم إن الأفكار كانت غير متقاربة بل متباعدة غاية البعد لأن التشكيلة من حيث الفقهاء كما ذكرنا قابلتها تشكيلة أُخرى بعيدة عنها كل البعد، وهي تشكيلة سياسية متبصرة في بعض رجالها وهو الوزير خير الدين وتشكيلة أخرى نظرها في السياسة نظر مبني على معرفة قاصرة غير متمكنة من الدين كما أنها غير متمكنة من السياسة التي ظهرت في العالم الحديث.

فالفقهاء موقفهم حرج لأنهم أمام نظريات ليست من صميم الإسلام فلهذا نزعوا أيديهم من المجلس المذكور، فلو أنهم لا يريدون خدمة المصلحة العامة لما دخلوا أول مرة وإنما بدا لهم ما كانوا متخوفين منه.

بدت لي هذه النظرية بأنها هي الداعي الأصلي للانسحاب ثم وجدت ما يؤيدها من قبل الشيخ محمد بيرم الخامس في كتابه صفوة الاعتبار حيث ذكر:

ثم عقد الوالي مجلساً رئيسه الوزير مصطفى وزير العمالة وأعضاؤه: مصطفى آغة وزير الحرب.

وخير الدين وزير البحر.
والوزير إسماعيل السني.
والوزير مَحمد.
وكاتب أسرار الوالي أحمد بن أبي الضياف.

وأذنهم باستخراج أحكام سياسية تدور عليها أعمال الحكومة واستخراج أحكام فرعية في الحقوق الشخصية يجري بها الحكم في القطر.

وأذن أن يكون شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع أحد أعضائه فامتنع من الحضور دون مشاركة من العلماء الحنفية والمالكية.

واستقر الرأي على إضافة:
الشيخ محمد بن الخوجة المفتي الحنفي.
والشيخ أحمد بن حسين رئيس الفتوى في المذهب المالكي.
والشيخ محمد البنا المفتي المالكي.
وهؤلاء الأعلام الأربعة هم أكبر علماء العصر إذ ذاك.

فحضروا أوّلاً ثم امتنعوا بأن كتب كل واحد منهم شرحاً منفرداً على الإحدى عشرة قاعدة المار ذكرها[1] أبْدَوْا فيها الأحكام الشرعية المطابقة لتلك القواعد، واقتصروا على ذلك متعللين بأن الذي بدا لهم من مغزى الجماعة هو الميل البحت للسياسة السائِجَة من غير التفات إلى محاذاة الشرع بل ربما عرض ما يصادم القواطع.

وحيث كان عمل المجلس على ما يستقر عليه رأي الغالب لم يأمنوا أن يُسْنَدَ إلى المجلس ما يخالف الشرع، ويحمل على عاتقهم. وهو الذي تبين لكل من الفريقين فيما بعد لما ولدت الليالي من أن الصواب في غير مسلكه على ما يتحرر إن شاء الله تعالى في الخاتمة[2].

---

(1) يقصد بالقواعد الإحدى عشرة التي ذكرها في ص 2 من ج 2.
(2) صفوة الاعتبار ج 2 ص 14.

حملة في غير موضعها:

تبين بما ذكرنا وما نقلنا أن حملة الشيخ الوزير ابن أبي الضياف في غير موضعها.

أما أوّلاً فلما ذكرنا من أنها مقصورة على بعض أهل العلم وهم قدماء أعضاء المجلس الشرعي وأما غيرهم فانضموا إلى هذا المجلس، بل كان بعض المجلس متركباً منهم دون غيرهم إلا في رئيسه كما أسلفنا.

وأما ثانياً فإن انسحابهم من المجلس الشارح لقواعد عهد الأمان يرجع إلى أنهم بدا لهم أن الأغلبية ترمي إلى جعل فصول للحكم في بعضها ما لا يمت إلى الشريعة السمحة.

فاستغلال سماحة الشرع المنيف لا تؤدي إلى تحلل من نصوصه القطعية حتى يكون الحكم بغير ما أنزل الله.

فهم لا يريدون أن يتحملوا تبعة ذلك فلذلك اكتفى رئيسهم شيخ الإسلام بأن يكون في مجلس الأمير الذي هو الغربال لما يقنن من فصول.

عالِمُ الأدباء وقانون عهد الأمان:

لو كان العلماء متبرئين من عهد الأمان مغلِّبين للمصلحة القاصرة على المصلحة العامة ما أنشد العلامة الشريف محمود قابادو قصيدته الشهيرة في عهد الأمان منوهاً به، ومعرفاً بأنه من صميم الدين التي يقول في طالعها:

العـدل عَهْدُ خـلافة الإنسـانِ ومـداد ظـل الأمن والعُمْـرانِ
وتمدُّنُ البشر اقتضى إيـلافهم فتعـاضـدوا من دائن ومـدان
وتطامُحُ الخلطاء لاستبـدادهم بـالقتل داعيهم إلى العـدوان
فتقـرُّرُ السلطان ضربـةُ لازب لنـظامهم بـالعـدل والإحسـان

افتتح عالم الأدباء الشيخ قابادو قصيدته هذه بهذه الأبيات الأربعة منبهاً على ما ذكر ابن خلدون في مقدمته من أن الإنسان مدني بالطبع، واشتباك

المصالح مؤد إلى اعتداء البعض على البعض فلا بدّ من سلطة تمنع المعتدين وتكف ضراوة الضارين فهي مقدّمة لرأيه في عهد الأمان.

وأشار فيها إلى أن السلطان ليس قوة قاهرة بل هو سلطة رحمة وإحسان.

فما أتى به ابن خلدون في مقدمته في الباب الأول من الكتاب الأول في العمران البشري أتى به أديب العلماء بلا منازع العلاّمة الشريف محمود قابادو في تلك الأبيات النزرة.

وهذا يدل على أن الفقهاء من التونسيين كانوا على جانب عظيم من علم الاجتماع متأثرين بسلفهم العلاّمة المؤرخ عبد الرحمٰن بن محمد المعروف بابن خلدون (ـ 808) فكلهم من فيضه يغترف، ومن مناهله يرتشف، فعلماء تونس الفقهاء كانت معرفتُهم الاجتماعية تؤهلهم للنظر البعيد وللتفقه في الدين التفقه الصحيح، فما يرميهم به الرامون إنما هو لمرضٍ في النفوس وحسدٍ كامن في القلوب.

وقصيدته هذه أتى بها المؤلف في ديوان الشيخ محمود قابادو الذي اعتنى بجمعه وطبعه سنتي (1294 و 1295 هـ).

وقد ضمنها الكثير من تاريخ إنشاء المجالس لعهد الأمان ومن أبدعها قوله:

قانون **عـدل صادق عال** سمت أســاســه رجــبــا عــلى آســان

1277

ونقل عيونها الشيخ الوزير ابن أبي الضياف في كتابه إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان في الجزء الخامس صفخة 46.

ومن نصيحة الشيخ قابادو لأهل المجلس قوله مخاطباً أعضاء المجالس:

هـذي رئـاستُكم وعـزة مجـدكم نيـطت بكُمْ يـا معشــر الأعيـانِ
وإلى أمــانتكم وحسن وفــائكم وُكِلَتْ وغَيْــرتكم على الأوطـان

ولتعلموا أنِ الوفي لنفسه يوفي ومن ينكث عليها جاني
واللَّهُ ليس مغيراً إنعامه حتى يغيره ذوو الكفران
وتيقنوا أن الذي غلب الهوى والنفس يغلب كل ذي سلطان
هذا وإن الصادقية دولة خصت بتأييد من الرحمٰان
لما رأت مصباحَ شرعِ محمد بتلاعب الأهواء ذا خفقان
جعلت له القانون شبه زجاجة لتقيه هب عواصف الطغيان
فتدارسوه لما عَلِمْتُمْ بينكم عودا على بدء بغير توان
والله يشملنا ويشمل جمعكم بالعون والتوفيق والغفران

وبعد أن ذكر الشيخ الوزير صاحب الإتحاف أبياتاً من هذه القصيدة علق عليها بقوله:

وهذه الغانية على طولها أقصر من ليالي الوصال، وأعذب ما سمع من المقال، لو لم يأت بعدها ما ينافيها، والحر عبد إذا طمِع والعبد حر إذا قنع، ومن أعظم الذنوب تحسين العيوب، «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون» الشعراء 124 ـ 125.

يقصد الشيخ الوزير بالذي أتى بعد قصيدة الشيخ قابادو في مدح عهد الأمان قصيدته التي هنأ فيها المشير الثالث حين أخمد ثورة علي بن غذاهم.

وهي التي يقول في مطلعها:

سما للعُلا يقظانُ عين حديدُها فهيهات بعد اليوم تعدى حدودها
أضلّ عقاب الحزم أرجاءها كما أضل عقاب البأس فيمن يكيدها

ويقول فيها:

فيا وَيْحَها من عُصْبَةٍ قد تَهَافَتَتْ على نار بَغي ما سواها وَقودُها

ولا شك أنه يقصد قولَه فيها:

وإن فداء الكل بالبعض سنةٌ تواتر من شرعٍ وطبعٍ شهودها
وقد كان جلد البعض زجراً وأهدرت نفوس بجلد الزجر فاد جليدها

أليس من التعزير وهو مناهجٌ تناط إلى رأي الإمام حدودها
وقِدْماً قضى سُحنون في الدين ضارباً مراراً قضى نحبَ المدين عديدها
وأما عقاب المال فهو موسّع إذا عودت منه بشيء يعيدها
بحيث إذا لم تمتهن باستلابه رأت شوكة السلطان فَلّت حدودها
على أنه قد كان حط من الجَبَا وإعْوَازُ بيت المالِ مِمَّا يعيدُها

فهذه الأبيات فيها تبرير من الشيخ قابادو لأفعال الأمير في التعذيب والمطالب المالية المجحفة التي وضعت على رجال الثورة.

والشيخ قابادو لا أظن أن الحامل له الطمع كما يقول الشيخ الوزير وإنما حمله على ذلك أن هذه الثورة لو تمت لأتت على الأخضر واليابس والبلاد في حال ضنك تشتكي العجز.

فنظرته البسيطة هي التي أدته إلى أن يبرر تلك الأفعال، ولو نظر نظرة عميقة مثل نظرة الشيخ الوزير لما برر تلك الأعمال.

ثم إن تلك الثورة تسبب فيها سوء الإدارة والإسراف المالي المجحف المؤدي إلى نضوب الخزانة المالية مع التصرف الذي لم يكن على قاعدة ومع جولان الأيدي في أموال الحكومة.

وعلى كلٍّ فالشيخ قابادو يشيد بعهد الأمان، وإنما يرى أن الفوضى مؤدية إلى الانهيار فموقفه ليس موقف طمع لأنه كان أشبه الناس بالزهاد فحياته حياة الذين لا يعتنون بالمال.

وشاركه في الإشادة بعهد الأمان علّامة أديب شاعر وهو الشيخ أحمد كريم الذي تولى الإفتاء وكان من مشايخ الإسلام.

وأشار الشيخ أحمد كريم إلى أن الشرع نادى بما جاء به عهد الأمان في قوله:

تَيَقَّنَ أن العدلَ أبقى لملكه فأضحى لطُرْق الجَوْر ينسِفها نسفاً
أمولاي قد عاهدت عهداً مؤمناً فأوْفيت في عهد الأمان ومن أوفى؟

وأمّنت أهلَ القطر من كل ضائر ولولا وجوب الحتف أمنتنا الحتفا
جعلت أساس العدل فيهم أمانَهم على العرض والأبدان والمال مستوفى
وسويت في الأحكام بين جليلهم وبين ذليل كان في الحق يستخفى
وألزمت أحكاماً هي الفيصل التي تُوافِقُنا شرعا ونعتادها عرفا

وتبارى الأُدباء في اليوم الذي اجتمعت الهيآت لقراءته بدار المملكة حين طلبوا من الباي أن يحضر لديهم وذلك أواخر جمادى الثانية سنة 1277.

وفي ذلك اليوم أنشد القصيدان المتقدم ذكر البعض منهما وهو دليل واضح على أن الهيئة العلمية عبرت عن سرورها وإكبارها لتطبيق عهد الأمان، فتونس رجالها المثقفون بالثقافة الإسلامية لم يُحجموا عن مساندة القانون، فما يرميهم به الرامون هو من قبيل إلْصَاق تهم هم براء منها.

ومع أنهم نصروه هم مقصرون في الاستفادة من هذا القانون، وتقصيرهم يبدو في كونهم لم يقوموا بواجبهم نحو بقية الأمة في تفهيمهم محاسن القانون، وأن الدين يدعوهم لإرساء قواعد العدل في البلاد غير مبالين بما ينالهم.

لكنهم لم تبرح في نفوسهم هيبة الأُمراء أصحاب النفوذ المطلق فلذلك قصروا وأحجموا.

ملحق (3)
ثورة علي بن غذاهم

حط الشيخ السنوسي من ثورة علي بن غذاهم، ونعته بنعوت تُدلي إلى الحضيض وتحشره في جملة الأدنياء الحثالة، ووصفه بأنه دُعي والدعي المتهم في نسبه أو الذي يُدْعَى إلى غير أبيه.

ووصفه بأنه جلف، والجلف الرجل الجافي والظالم، ففي نظره أن ثورة ابن غذاهم ظلم صراح، ووصفه بأنه رئيس البغاة.

ويختم تسجيله لحادثة الثورة التونسية تلك برضاه عما وقع لأهلها فيقول:

ولما تمّ القبض على زعماء البغاة الأشقياء جالت يد أنصار الدولة على أعضاء الثورة، ومن تشيع إليهم وهز عصا الشقاق، ونال كل واحد منهم ما ناله من القتل، أو السجن، أو الضرب، واشتدت الوطأة على كثير من الأشقياء بطلب مغارم الثورة، وضربت تلك المغارم على الأعْـرَاض وجربة، وصفاقس وعموم بلدان الساحل عدا أهل سوسة والقلعة الكبرى لتقدم طاعتهم.

فعنده هذه المظالم المتنوعة من القتل والضرب والسجن في أشد السجون وضرب المغارم على أكثرية أهل البلاد ـ ومعنى ضرب المغارم افتكاك أموال الناس بالقهر ـ هي الجزاء الوفاق.

فالأمة أصبحت بسبب هذه المظالم المتراكمة والمتناولة لكل ما يملكه الإنسان من روحه وعرضه وماله أمة ميتة، وكل ما أصابها لم يُثِرْ في نفسه شعور الإنسانية حتى يرثي لهذا الشعب الرازح تحت السيف والسياط والسجن والتفقير بأنواعه.

ولنتبين الحق من غيره نأتي بما كتبه الشيخ محمد بيرم الخامس في صفوة الاعتبار.

وإنما أتينا بما كتبه لنزيل من الأذهان من أن ما للشيخ السنوسي له اتصال بالحقيقة بل هو بعيد عن الحقيقة، فالشيخ بيرم الخامس عاش تلك الأحداث فكتابته كتابة مطلع خبير.

جاء في صفوة الاعتبار.

(وخلا الجو لخزندار أي لما استعفى الوزير خير الدين ومن ومعه وأخذت السِّيرة في طور آخر جديد ورام أن يضاعف أداء الجباية على الأهالي ويصيرها اثنين وسبعين ريالاً على الرأس عوضاً عن الستة والثلاثين ريالاً التي أسسها محمد باشا، وطلب المجلس الأكبر ـ أي طلب خزندار بواسطة الأمير من المجلس الأكبر ذلك ـ فامتنع أعضاؤه واستبد هو ـ أي خزندار ـ بإمضائها مع تحذير العقلاء له فلم يلتفت إليهم مع أن الأهالي في ثورة من أثر سيرة محمد باشا تقويهم على الدفاع عن أنفسهم مع ما استأنسوا به من تلك السيرة وسماعهم بأن العدل والإنصاف قد شملهم بالقانون وأن لهم الكلام على حقوقهم فامتنعوا قاطبة وأرادوا غصبهم على ذلك، فثار القطر كله ثورة واحدة لم تعهد من قبلُ على غاية من الرياضة والأمن بحيث لم يتعرضوا بالأذية لأحد مع أمن السبل، وكثرة الغادي والرائح، وضبط كل جهة ببعض أهلها لردع السفهاء وحفظ الراحة والأمن وكان متولي أكبر الجهة الغربية والملتف عليه أكبر قبائل الأعراب رجلاً يسمى علي بن غذاهم وذلك سنة (1280).

وما زالت هذه الثورة تسمى ثورة ابن غذاهم، وكاتب الجهات:

بأنا إخوان ومطلبنا واحد، وليس المراد منه الإفساد، فالواجب حفظ الأمن والراحة، وتأمين السبيل، ولا نتعرض لأحد بشيء سوى أتباع الحكومة فإذا أرادوا غصبنا على الظلم ندافع عن أنفسنا وأنذرت القبائل عمالهم الذين كانوا بين أظهرهم فمن أراد منهم التوجه إلى الحاضرة أوصلوه بأمان ومن أراد الإقامة منكفئاً عن التداخل في أمرهم أبقوه بأمان.

ولما توجه أمير الأمراء فرحات إلى الكاف لإجبار قبائل ماجر على ذلك الأداء تعرضوا له وقتلوه فشدد النكير عليهم علي بن غذاهم وقال لهم: أصل اتفاقنا إنما هو الدفاع عن أنفسنا وما ضركم الرجل إلا إذا حاربكم فدَافِعُوا عن أنفسكم.

وكاتب المذكور رئيس الفتيا الشيخ أحمد بن حسين وطلب منه التوسط في الصلح مع الحكومة.

وحاصل مطالب الجميع إبطال الأداء الجديد وعزل الوزير مصطفى خزندار ومحاسبته.

فامتنع الوالي - يعبر صاحب صفوة الاعتبار عن الأمير بالوالي لأنه يرى أن تونس ولاية عثمانية فلا يحق له أن يلقب بالأمير بل بالوالي - أولا من جميع مطالبهم واشتد الكرب على الحكومة حتى لم يبق أمر الوالي نافذاً إلا في الحاضرة ونحو اثني عشر ميلاً حولها، واشتد الخوف في الحاضرة).

وقد فصل الشيخ الوزير ابن أبي الضياف هذه الثورة تفصيلاً مدققاً وأتى بأسبابها وكيف ابتدأت وهو ما أجمله غاية الإجمال صاحب صفوة الاعتبار.

وافتتح الشيخ الوزير كلامه على هذه الثورة بمقدمة دقق فيها الأسباب من فداحة الاقتراض الذي تسبب فيه جلب ماء زغوان إلى الحاضرة تونس مما أدى إلى أن تكون فائدة الدين أكثر من ثلث دخل المملكة التونسية حينذاك وهو أكثر من أربعة ملايين من الفرنكات لأن دخل المملكة وقتها لا يصل إلى خمسة عشر مليوناً من الريالات.

وإثقال كاهل الميزان بمصاريف الدولة فإن مرتب الملك وحده مليون ومائتا ألف إلى غير ذلك من المصاريف الباهظة.

فلما عجز الميزان عن تحمل تلك المصاريف الباهظة كاتب الأمير أعضاء المجلس الأكبر فامتنعوا بلطف كما قال الوزير الشيخ ابن أبي الضياف ودارت مباحثات في مجلس الأمير الخاص، وكان رجاله على رأيين.

منهم من يميل إلى الرفق بالرعية ومنهم من زين للأمير الزيادة في الضريبة الموضوعة على الدافعين إلى أن أفضت النوبة إلى أحدهم وهم ممن يشار إليه في مجلس الأمير الخاص فأشار برأي كان سبب اندلاع الثورة.

وهو أن مال الإعانة يزداد عليه مثله ويكون عامّاً في سائر بلدان المملكة من غير استثناء.

فقبل الأمير هذا الرأي وكتب إلى أعضاء المجلس الأكبر للموافقة فاعتذروا بأنهم لا رأي لهم في النازلة.

وبعد امتناع أعضاء المجلس الأكبر استبد الأمير برأيه وصدرت به المناشير إلى عمال الأعمال.

وهي مناشير كانت لقطع الطاعة والعافية والعمران كالمناشير كما قال الشيخ الوزير.

ورغم النصائح حتى من الأجانب تمادى الأمير في فرض الزيادة في الضريبة.

اندلعت الثورة بتقرر الزيادة في الأداء.

ويؤكد كلام صاحب صفوة الاعتبار الشيخ محمد بيرم الخامس المتقدم ما ذكره الشيخ الوزير ابن أبي الضياف.

«ولما التف عليه أغمار العامة في الجهة الغربية ـ أي على علي بن غذاهم ـ أبرم العقد معهم.

على أن القصد بهذا الاجتماع هو الاستعفاء من هذا الأداء الثقيل الذي لا قدرة عليه.

وإذا عَصَبْنا عليه بالقتال تكون يدُنا في المدافعة عن النفس والمال والحريم يداً واحدة.

ولا يتعرض منا أحد لنهب أموال الناس بالحرابة ومن تعرض تكون يدنا

عليه احدة لأن كلامنا مع الدولة، وإخواننا المسلمون يعذروننا.

فإذا تعرضنا لأخذ أموال الناس صرنا حرباً على الله تعالى وعلى السلطان ولا يعذرنا أحد بل تتوفر الدواعي على قتالنا والله معهم».

أجمل صاحب الإتحاف مبادىء ثورة ابن غذاهم في أنها محصورة في الامتناع من دفع الضريبة المضاعفة.

تحقيق حول ثورة ابن غذاهم وما دار حولها:

إن هذه الثورة ليست مقصورة على غرب البلاد بقيادة علي بـن محمد بن غذاهم وإنما هي عامة شملت البلاد كلها فعلاوة على غربها هناك عمل سوسة، وعمل القيروان، وعمل صفاقس، وعمل الأعراض.

لكنها كانت في هذه الأعمال غير مسيرة بقوة مثل ما هي في ناحية ابن غذاهم بل هي مقودة بقيادة فوضوية.

ولولا تداخل بعض أهل العلم والصلاح لانتهى أمر الدولة الحسينية لا أمر الدولة الصادقية مع ما انضم إلى ذلك من دهاء بعض الوزراء وبعض رجال الحكومة حينذاك فإنهم أنقذوا الدولة من الانهيار.

وتحقيق النظر في هذه الثورة العارمة يحتاج إلى كتاب خاص، وإنما نقتصر في هذا الملحق على بيان مواقف ثلاثة من المؤرخين التونسيين وهم:

الشيخ السنوسي في مسامرات الظريف.

والشيخ محمد بيرم الخامس في صفوة الاعتبار.

والشيخ الوزير ابن أبي الضياف.

إن موقف الأول من هذه الثورة موقف تزلف وتدلٍّ في الحط من أحد رجالها وهو علي بن محمد بن غذاهم حيث وصفه بما انتقدناه عليه.

فهو لم ينظر لها نظرةً تاريخية، بل نظر إليها بغير منظار المؤرخ النزيه ولولا

أن الـواقف على كتابه الذي أخرجته للطبع يغتر بكلامه ما كنت أتوسع في الكلام على هذه الثورة.

وثاني المؤرخين الثلاثة هو الشيخ محمد بيرم الخامس قد كانت له إحَنٌ في نفسه على الوزير مصطفى خزنه دار حيث أدمج في أسباب الثورة أنها ترمي إلى المطالبة بعزل خزنه دار.

(وحاصل مطالب الجميع إبطال الأداء الجديد وعزل الوزير مصـطفى خزنه دار ومحاسبته، فامتنع الوالي أولاً من جميع مطالبهم فاشتد الكرب على الحكومة)[1].

وأكد هذا بما نسبه إلى الوزير خزنه دار.

ومن وقتئذ تسلطت أيدي العدوان على الأهالي بسلب الأموال، والقتل والضرب بالسياط المؤدي إلى القتل لأن الوزير اشتد حنقه عليهم حتى أنه دخل عليه أحد الأعيان يوماً وهو يقول:

طلبوا دمي فلا أرضى إلا بدمائهم، طلبوا مالي فلا أرضى إلا بأموالهم.

ولعلّ مراده بطلب دمه هو طلب عزله، وقد اعتادوا في بعض الوزراء السابقين قتلهم فظن أن العزل يؤدي للقتل وإلا فنفس قتله لم يطلبه أحد.

أما المال فنعم فقد طلبوا حسابه.

أدمج صاحب صفوة الاعتبار عزل الوزير مصطفى خزنه دار في مطالب الثورة مع أنه لم يأت بدليل يدل على ذلك إلا ما أخبره به أحد الأعيان الذي قال له إنهم طلبوا دمي فلا أرضى إلا بدمائهم.

وثالث المؤرخين وهو أولهم في كتابة التاريخ التونسي وأقعدهم في كتابته الشيخ الوزير ابن أبي الضياف وهو أشد المؤرخين تحرياً في كتابة التاريخ فتاريخه مدعم بالوثائق التاريخية التي توقفك على عين الحقيقة.

---

(1) صفوة الاعتبار ج 2 ص 25.

وعين الحقيقة في هذه الثورة العارمة أنها مقصورة على طلب إلغاء الأداء الجديد دون التعرض لعزل الوزير مصطفى خزنه دار.

وقد وضّح هذا صاحب الإتحاف أتمّ توضيح فيما كتبه قبل صاحب صفوة الاعتبار.

فبيّن أن قنصل فرنسا شارل دوبوفال (Charles de Beauval) اغتنم هذه الفرصة للتداخل في أمر الولاية وأحكامها فأتى إلى الباي يوم الجمعة 23 من ذي القعدة (29 أفريل 1864) ومع أمير الأسطول الفرنسي والقائم مقام (كنبنو) الذي كان من معلمي الجند التونسي وتخلى عن ذلك.

وحين دخولهم على الأمير وجدوا معه مصطفى خزنه دار فطلبوا منه إخراجه فتشدد الباي في ذلك.

وابتدأت المحاورة بين الأمير والوفد الفرنسي الذي طلب إبطال عهد الأمان فبين له الأمير أنه أعطى عهده على إتمام عهد الأمان وأن أخاه هو الذي أعطى ذلك[1].

ثم طلب الوفد تبديل المأمورين في الخِدَم السياسية فأجاب الباي بأن ذلك غير ممكن في وقت هذه الثورة لأن ذلك يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

وطال الجدال بين الأمير ومحدثيه من الفرنسيين في شأن تبديل الوزراء وفي طالعتهم مصطفى خزنه دار.

وفي هذا المجلس أساء القائم مقام (كنبنو) إساءة لا تحتمل حتى أن القنصل الفرنسي أسكته ولما بلغ الأمر مبلغه من الإهانة مرض الأمير.

ثم إن الأمير جمع رجال الدولة من وزراء وغيرهم وأخبرهم أنه لا يتنازل في شأن تبديل الوزراء فقال الوزير مصطفى خزنه دار أنا أسلِّم، وأصرّ على تسليمه الوزير خير الدين وهو صهر مصطفى خزنه دار نفسه.

---

(1) إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ج 5 ص 151.

لكن تغلب الرأي الذاهب إلى عدم الرضوخ إلى مطلب القنصل الفرنسي لأن فيه تدخلاً في الشؤون التونسية وذلك مفض إلى أن تصبح تونس محكومة من طرف القنصل الفرنسي.

ولم يكتف التدخل الفرنسي بعزل الوزراء بما أرادوه من إرغام الأمير عليه فأضيف إلى ذلك مكاتيب مرسلة إلى العروش التونسية ومن نماذجها ما نقتطفه من بعضها.

(يا أيها العروش اعلموا أن الدولة أرسلت لكم مشايخ الطريقة وذكروا لكم أن نحن الفرنسيس غادرون بكم ومرادنا أخذ بلادكم ونحن بالعكس من ذلك وإنما مرادنا إصلاح أحوالكم ورفع المظالم عنكم وإجراء الحق على كل أحد ولكن سوف ترون ما يحل لكم من أولئك الناس وتقفون على كلامنا لأن المشايخ توسطوا بينكم وبين الدولة وباعوا ضمائرهم بثمن قليل.

وما دام الوزراء الموجودون في باردو فإنكم لا تتخلصون من الضرائب أي التي أثقلت كاهلكم والتي ثرتم من أجلها.

وما داموا لا أمان ينالكم لا في أبدانكم ولا في أرزاقكم.

وستقفون على أحقية كلامنا، وعما قريب يظهر لكم من هو على الصواب).

وهذا المكتوب نقلناه مع تحوير جزئي لإرجاعه عربياً سليماً نوعاً ما.

ويقول صاحب الإتحاف:

وهذا المكتوب لا تاريخ فيه، ولا إمضاء، ولا طبع خاتم.

ومنه نسخ عديدة بيد بعض العربان، وخطه مغربي جميل يشبه خط بعض الأعيان من تجار الفرنسيس تعلّم الخط العربي بتونس وبرع فيه، وكان هذا المكتوب إنذاراً بما وقع بعد ذلك من الشدائد والأهوال.

يتهم الشيخ الوزير ابن أبي الضياف القنصلية الفرنسية بذلك مستنداً على أن الخط فرنسي فلا بدّ أن مصدره منها.

ويؤيد هذا الرأي أن إنشاءه إنشاء قريب من العامية فهو محرر من بعض الفرنسيين الذين درسوا اللغة العربية ولم يتمكنوا منها فتغلب عليهم العامية إذ لا يفرقون بين الفصيح والعامي.

وكما كاتب الفرنسيون العروش كتبوا إلى زعيم الثورة في المنطقة الغربية علي بن غذاهم.

ونقتطف منه نقطاً على أن الفرنسيين بتونس مرماهم استغلال ثورة علي بن غذاهم.

جاء في طالعة الكتاب:

إلى الأعز الأكمل، العالم الأمثل علي بن محمد بن غذاهم أكرمه الله آمين.

ثم فيه تذكير بثلاث رسائل أرسلوها إليه فلم تقع الإجابة من ابن غذاهم.

وفي الرسالة اتهام تركيا بأنها أرسلت بجيش لقتال العروش فوقع رده من قبل الفرنسيين دفاعاً عن المظلومين.

وختمت هذه الرسالة بهذه الفقرة:

(ورأس سلطان فرنسا إذا بقي الخزنه دار في بلادكم يهلككم على بكرة أبيكم).

وهذه مرسلة على حسب ما جاء فيها من القنصل العام لفرنسا، ومن الأميرال والكرونيل الفرنسي أي الذي كان بتونس معلماً للجيش التونسي.

إن الدلائل القاطعة تشهد إلى أن المطالبة بعزل الوزير إنما هي مطالبة فرنسية ترمي إلى التدخل السافر في سياسة تونس.

واستدل صاحب الإتحاف بأن الثورة لم تقم من أجل عزل الوزير بما جاء من المكاتيب من رئيس المتحزبين علي بن غذاهم إلى الشيخ أحمد بن حسين رئيس المفتين في استشارته في القدوم إلى تونس للمفاهمة مع الأمير من أجل دفع الشدة وما دار في شأن ذلك القدوم.

يستنتج صاحب الإتحاف ما يلي:

(فانظر إلى هذه المكاتيب من رئيس المتحزبين إلى الشيخ الذي اعتمده واسطة، والحادثة في عنفوان شبابها والسيوف مصلتة، وقدور الحرب في سائر الجهات تغلي، هل عُرّج فيها على عزل وزير، أو كُرْه قانون، أو مجالس، أو ما يومىء إلى البغي، أو غير ذلك مما دار في برزخ هذه الإيالة دوران الرياح.

ولم ينط مطلبه إلا بالتخفيف، وهو من قواعد عهد الأمان التي عليها مدار القانون).

كيف خمدت الثورة:

لم تكن الثورة ثورة قاصرة على جهة من الجهات، وإنما هي عامة إلا في العاصمة فقط، مع أن الجند لم يقم بعمل فيها بل امتنع من إخمادها مع أنها لم تصنع شيئاً، وآلت في آخر أمرها إلى الفشل وتتبع بعض المثيرين لها حتى نالهم الانتقام من أحمد زروق.

ويتضح من أمرها أن إخمادها يعود إلى سبب قوي غير الجند.

والسبب القوي في إخمادها هو أن الشيوخ لم يكونوا راضين عن الثورة بل كانوا مهدئين للعامة من الانسياق في الفتنة وإضرام نارها.

وأبلى البلاء الحسن في إخماد هذه الفتنة التي أرادت فرنسا استغلالها لوضع يدها على تونس الشيخ الصالح مصطفى بن عزوز (ـ 1282) وهو الذي بث الطريقة الرحمانية في العروش الغربية.

وإلى موقفه الذي حسم به الفتنة أشار صاحب الإتحاف ونحن ننقله ليتضح للعيان أن العلماء الصلحاء كانت لهم يد لا تنسى في الإبقاء على رمق الدولة فلولاهم لذهب العَلَم الإسلامي بتشتت عِقد الأمة لأن الفتنة لا تأتي إلا بشر وبيل، وعسى أن يعرف المتحاملون على أهل العلم الإسلامي والصلاح أنهم مخطئون في إساءة ظنهم بالعلماء وتحميلهم وِزْراً هُمْ برآء منه.

وإلى هذا الموقف المشرف أشار المذكور:

(ولم يزل الحال في اضطراب وشدة إلى أن قدم من الجريد بركة القطر المشار إليه بالبنان، المتدرج في مقامات العرفان، الولي السالك المحب لعباد الله، شيخ الطريقة الرحمانية أبو النخبة مصطفى بن عزوز واجتمع بعلي بن غذاهم ووجوه جموعه وقد مسهم نصب الملل بعد أن أخذ لهم الأمان من الباي واستوثق منه بالعهود والأيمان وقرأ للباي قوله تعالى:

﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتمُ الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ (91) النحل.

ثم قال الشيخ مصطفى بن عزوز لجماعة علي بن غذاهم، لا جواب لكم عند الله على إراقة دماء المسلمين وقد أعطاكم الباي الأمان على يد أمير المحلة وخفف عنكم أكثر مما يظن، إلى غير ذلك مما تفضل به عليكم خشية إراقة الدماء.

وقال لعلي بن غذاهم:

(أنت لست بقائم تطلب ملكاً، وزعمت أنك جامع عصابة شاكية لكف عادية جهالها، وقد زال السبب فلا بدّ أن يزول المسبب وقد عطلتم الناس على السعي في ابتغاء رزقهم).

فانتدب ابن غذاهم وتأخر.

فأتاه فرج بن دحر وقال له أي لعلي بن غذاهم:

نحن في ربط واحد ما كان ينبغي لك أن تحله وحدك ولنا مع سيدي مصطفى بن عزوز موقف بين يدي الله.

وعلى كل حال فقد حاق بنا الغدر، وسترى أنت ومن معك عاقبة ما فرحتم به من الأمان إلى غير ذلك وفي بعض القلوب عيون.

وحضر مع الشيخ مصطفى بن عزوز أعيان من تلاميذه وغيرهم كأبي العباس أحمد ابن الشيخ الولي عبد الملك الحمادي وأبي عبد الله محمد

الصالح، والشيخ المسن الحاج مبارك صاحب الزاوية بتالة، وسيأتي له خبر، وحضر لذلك الشيخ البركة أبو العباس أحمد بن عبد الوارث وكفى الله المؤمنين القتال على يد هذا الشيخ ومن معه من هؤلاء الفضلاء جزاهم الله جزاء من أتعب نفسه في إصلاح ذات البين وحقن دماء المسلمين فالأعمال منوطة بالظاهر، والله يتولى السرائر، والمرء مجزيّ بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وأسقط الباي ما أجحف من الإعانة بل صيرها عشر ريالات فقط وأسقط من العشر، وترك الأداء على ما يباع في غير الأسواق وأجابهم إلى مطالب أخرى الله أعلم هل طلبوها، أو قيلت لهم فقالوها أو تُقوّلت عليهم فسمعوها، أضربنا عن ذكرها لمنافاتها قضايا العقول، وكل ما نافاها يُعَدّ نقله مجازفة وقد تقدم ذلك وإلى الله تصير الأمور).

(الإتحاف ج 5 ص 168 و ص 169).

وكما للشيخ مصطفى بن عزوز موقف كذلك كان للشيخ العلاّمة رئيس الإفتاء أحمد بن حسين في العمل بالمكاتبة على أثناء رأي ابن غذاهم عن القدوم إلى تونس لأنه لو قدم لاشتعلت الفتنة في العاصمة فإنه ثنى عزمه عن ذلك، وبه بقيت العاصمة بعيدة عن الفتنة.

ويظهر أن موقف أهل العلم في تونس كان في صالح هذه البلاد، وإبقائها محافظة على كيانها دون إدخال ما يؤول بها إلى فتن تموج موج البحر.

والمواقف الرصينة هي التي حافظت على هذا الجامع جامع الزيتونة نبراساً يشع بالعلوم الدينية وهادياً للتي هي أقوم.

الاتزان التاريخي:

يعبر كلام صاحب الإتحاف في هذه الثورة التونسية العارمة بأن الشيخ الوزير ابنَ أبي الضياف يحمل على السياسة التونسية في مواقف كثيرة ويحملها وزراً ثقيلاً، ويظهر المصلح من غيره في مواقف عديدة.

ومع مواقفه تلك لا يرى أن في ثورة علي بن غذاهم إنقاذاً للموقف لذلك

شكر وأطنب في مدح الشيخ البركة الصالح مصطفى بن عزوز حيث حقن دماء المسلمين وكفى الله بتداخله المؤمنين القتال.

وحقاً رأى لأن رأس الثورة لم تكن له المؤهلات التي تؤهله لتسلم دولة لأنه كما عرفه صاحب الإتحاف ذو معرفة جزئية.

ومع أنه حمِد فعل العاملين لحقن دماء المسلمين انتقد الشدة التي عومل بها الكثير بعد إخماد اللهيب.

ودعا إلى الرفق الذي لا يقتضي الحال غيره حتى لا يلتجىء المظلومون إلى الاحتماء برعايا الدولة الوافدين على المملكة.

فالواقع يدعو إلى الرفق لا إلى ضده كما وقع لأكثر أهل المملكة بعد خمود لهيب الفتنة من الشدة والعسف والانتقام، وسلب النعمة إلى غير ذلك مما نفر القلوب المرضى.

ولله در القائل:

[الكامل]

احـذر منافـرة القلوب فـإنهـا ورجـوعهـا للود أمـر يعسـر
إن القلوب إذا تنـافـر ودهـا مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

وقد تنبأ لدولة الأمير الصادق بالاضمحلال واستكانت الإيالة المسكينة ولسان حالها يقول: (للباطل جولة ثم يضمحل) ٪ .

ملحق (4)
الكومسيون المالي

الكومسيون المالي أجمل الحديث عنه صاحب المسامرات مع أنه أحدث لإنقاذ البلاد من الإفلاس لأن الحال بلغت أقصى التدلي مما يعقبه الإفلاس للدولة.

وقد تحدث عنه حديث عارف به الشيخ بيرم الخامس مبيناً أن الوزير خير الدين حين رئاسته للكومسيون بدأت تظهر إصلاحاته وتمكن من الإصلاح بسبب أنه لم يقبل رئاسة الكومسيون إلا بعد أن اشترط شروطاً.

فإنه لما شددت الأجانب في طلب أموالهم وأنشىء الكومسيون المالي باتفاق الدول دعاه الوالي إلى رئاسته فامتنع وبعد إلحاح وأخذ ورد وبعد توثقة من الوزير مصطفى خزندار قبل رئاسة الكومسيون المالي.

ويثبت الشيخ بيرم الخامس أنه منذ سنة 1286 كل ما هو من التصرفات هو للوزير خير الدين وشرح كيف أن الوزير خير الدين أدار كفة الكومسيون المالي.

(وذلك أن الوزير مصطفى خزندار عطل أموره مما أدى إلى تشكي قناصل الدول الممثلة في الكومسيون المالي وهي فرنسا وإيطاليا وإنكلترا فراجع الوزير خير الدين الوالي وطلب منه الإعانة على المهمة الشاقة التي أنيطت به فامضى الوالي مطلب الكومسيون ولإجل إعطاء الكومسيون المالي نفوذاً يحفظ حقوق الحكومة مع أن الكومسيون المالي يتصل برغبته، وذلك في توظيف رئيس الكومسيون بوظيفة وزير للوالي في رتبة الوزير ـ الأكبر ـ وتنقل خدمة الكومسيون إلى الوزارة ويكون مصدر جميع الأعمال واحداً).

وقد بسط القول في ذلك في (ج 2 ص 53 من صفوة الاعتبار).

وكذلك تعرض له صاحب الإتحاف في (ج 6 من ص 119 وما بعدها من إتحاف أهل الزمان) فذكر نص قانون الكومسيون المالي، وهو في اثني عشر فصلاً.

وكان ختمه بسراية حلق الوادي في 26 من ربيع الأول سنة 1286 (6 جويلية سنة 1869).

وأتبع ذكر القانون بالأوامر الصادرة في تعيين رئيسه وتعيين أعضائه.

وحديث ابن أبي الضياف عن الكومسيون كان مقتضباً لأنه كما ذكر بقلمه أدركه الضعف.

إبطال الكومسيون:

تناولت الإدارة الفرنسية بعد الحماية أشياء متعددة بالنسخ، منها إبطال الكومسيون المالي.

وجاء إبطاله في العدد 49 من جريدة الرائد الرسمي المؤرخ في 13 ذي الحجة سنة 1301.

افتتح هذا الأمر بمخاطبة الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور بأن الأمير أمر بما يأتي:

الفصل الأول:

أبطلنا بعد اليوم 12 من أكتوبر الإفرنجي سنة 1884 مسيحية الكومسيون المالي الذي أحدث بالأمر العلي المؤرخ في 26 ربيع الأنور سنة 1286 الموافق ليوم 5 جويلية من يولية الإفرنجي سنة 1869.

وكذلك مجلس المداخيل المعطاة للدين الواقع ترتيبه عملاً بالتأويل المنعقد في 23 مارس سنة 1870 ما عدا ما يتضمنه الفصل الرابع الآتي:

وبموجب ذلك يجب على مجلس الإدارة المذكورة أن يسلم خدمته يوم 12 من أكتوبر المذكور مساء لإدارة القمارق ولإدارة الإداءات المختلفة ولقابض الدولة العام بالحاضرة وبالجهات الأخرى التي له فيها نواب.

وبناءً على ذلك فإن الموجود تحت يد المجلس المذكور من المبالغ دون كاغد التانبر، ومن الرهونات التي دفعها نوابه، واللزامة تدفع لقابض الدولة العام إن كانت من علائق الحاضرة وحلق الوادي ولنواب القمرق الذين يتكلفون بإدارة محلات بلدان العمالة الأخرى إن كانت المبالغ والرهونات المذكورة من علائق البلدان الأخرى.

وأما الكاغد التانبر الموجود بالحاضرة فإنه يدفع لقابض عموم الأداءات المختلفة وإن كان بغير الحاضرة فإنه يدفع لنواب الكمرك عند تسليم المبالغ والرهونات المتقدم ذكرها لهم.

ويشتمل هذا الإبطال على ثلاثة عشر فصلاً من أهمها الفصل الخامس:

إدارة المال تتولى استخلاص جميع مداخيل المملكة كما أن جميع المشارعات التي يقتضيها الحال يباشرها مدير المال بدولتنا أو من ينوبه فيها.

وإنما وقع في هذا الفصل أن إدارة المال تتولى استخلاص جميع مداخيل المملكة لأن الميزانية التونسية كانت منقسمة بين الدولة وبين الكومسيون المالي.

ومن أهم فصوله الفصل الثامن:

ولاية مدير المال تصدر منا مباشرة بمقتضى طلب سفير دولة فرنسا المقيم بحاضرتنا.

وتصدر أوامر أيضاً بطلب من مدير المال لدولتنا في ولاية كل من كاهية مدير المال ومدير الأداءات المختلفة، والكمارك ورؤساء الأقسام والكتابة بإدارة المال، وكذلك متفقدو الإدارة المذكورة والخدمات المالية وقابض الدولة العام، والمترجم الأول بإدارة المال، وقابض عموم الأداءات المختلفة وقابض عموم الكمارك ووكيل أملاك الدولة والمكلف بالغابة وناظر دار السكة ووكيل الرابطة.

والفصل التاسع :

أعطى هذا الفصل الصلاحية لمدير المال في بقية المستخدمين.

والأمر الصادر بإبطال الكومسيون المالي انتزع كل الاختصاصات المالية من أيدي التونسيين وجعلها في يد مدير المال الفرنسي.

وقد أصبحت هذه الإدارة بعد برهة إدارة فرنسية تتصرف في حظوظ البلاد المالية.

ملحق (5)
المجلس الشوري

المجلس الشوري المتحدث عنه بالمدح وإطناب الشكر من المؤلف حتى عدّه من أعظم مآثر هذا الأمير الفائز بالسبق على سائر الأمجاد قلب فيه المؤلف الحقيقة رأساً على عقب.

وكان من حقه أن يأتي بالقضية على وجهها الصحيح، فإن لهذا المجلس قضيّةً تعد من أهم القضايا التونسية أبلى فيها أهل المجلس الشرعي وبالأخص القاضي المالكي البلاء الحسن.

وتفصيل هذه القضية حسبما ذكره المطلع عليها الشيخ محمد بيرم الخامس ونصه:

«ومنها أن أحد الأغنياء من الأهالي توظف في الحكومة المسمى بمحمد عريف توفي رحمه الله عن غير ولد وكانت له بنات من ابنه فأوقف كسبه عليهن وعلى من يتزايد له، وبعد وفاته وضعت زوجه حملها فكان ولداً ذكراً ثم توفي في إثر ذلك.

وكان للمتوفى ابن عم فتعاضد مع الزوجة وأرادا أن يبطلا الوقف المذكور ليصير المخلف إرثاً فيرثا أغلبه واستعانا بتابع الوزير علي بالزي على مواعيد له.

وقد كان القاضي ـ وهو القاضي الجد محمد الطاهر النيفر الذي تولى القضاء من سنة 1290 إلى سنة 1311 ـ جعل وصياً على البنات وحفظ الوقف والمنقول، فطلب التابع أن ينقل حكم النازلة من الشريعة إلى الوزارة على خلاف الديانة والعادة من تحكيم الشرع في المواريث والأوقاف.

وأرسل الوزير ـ وهو مصطفى بن إسماعيل ـ مكتوباً بأن يسلم رسوم الوقف إلى كاتبين أحدهما من خواص الوزير والثاني من الوزارة مع الوعد في المكتوب بأن الوزارة بعد الاطلاع على الحجج ترجعها وكان المتسلم لها أبا الزوجة وهو وكيلها مع أحد الكاتبين.

فطال الزمن ـ أي زمن تسلم الرسوم من الوزارة فلم ترجعها حسب الوعد ـ وأبلغ الوصي إلى القاضي التخوف على الرسوم إذ شاع أنها سيقع فيها تغيير فأرسل إلى أبي الزوجة وإلى الكاتب اللذين تسلما الرسوم بطلب إرجاع الرسوم فأبيا فأحضرهما فامتنعا، فسجن أبا الزوجة حيث إنه المتسلم وأخبر بأن الرسوم بعلو في داخل المحكمة الشرعية هو محل اشتغال الكاتب المذكور حيث كان من شهود الأوقاف وذلك العلو هو مكان اجتماعهم فبعد أن ألحّ القاضي على الكاتب وامتناعه أمر بأن يمنع من دخول العلو خشية إخراج الرسوم منه وبقي القاضي بمحل حكمه على الهيبة الشرعية حسبما سبق التعريف بذلك من كون أهل الشرع بتونس لهم من التعظيم والتوقير قريباً مما كان عليه الحال في الأعصر المعظمة للديانة وشعائرها.

فما كان غير بعيد إلا وعلي بالزي المذكور قام فضرب باب العلو برجله وكسر قفله وأمر الكاتب بالصعود وإخراج الرسوم، وأخرج المسجون وأمره بالذهاب حيث شاء، وقدم على القاضي وباشره بما لا يناسب ذكره، وفشا الخبر وعظم الأمر عند العلماء والعامة إلى درجة لم تعهد، فأبطلت الدروس من الجامع الأعظم، وأغلقت دار الشريعة وكثر اللغط وسرى إلى خارج الحاضرة.

وأبلغ أمر النازلة إلى الوزير ابن إسماعيل فأراد أن يهون النازلة بمنع تابعه من القدوم إلى تونس وأرسل مُعلِماً إلى القاضي بأنه سجنه فلم يلتفت لذلك العلماء وتقدم الشيخ أحمد بن الخوجة شيخ الإسلام وجمع العلماء مراراً وأظهر أشد الانتصار للشرع وكتب جميع المجلس الشرعي مكتوباً وأرسلوه إلى الوالي قصداً بلا واسطة الوزير على خلاف المعتاد وقدم به رسولهم على الوالي في

مجلسه العام فقُرِىء عليه فإذا فيه تفصيل الواقع والإشارة إلى أن الخطب عظيم فاهتز الوالي وتوقى عاقبة الأمر وأحضر الجاني وأمر بنزع رتبته وحبسه ونفيه إلى حصن جربة.

وقدم على أهل المجلس باش كاتب وزير الشورى (وهو الشيخ الوزير محمد العزيز بوعتور) وتأسف لهم على ما وقع وهدأ بَالَهُمْ بما صدر من الحكم فاقتنعوا في الجاني بما وقع ولكنهم طلبوا مواجهة الوالي وقصوا على باش كاتب المذكور ما هو الحال بالقطر مما تقدم شيء منه إلى أن بلغ الحال إلى تلك الدرجة وتوقعهم لما هو أعظم وكان شيخ الإسلام يبكي على حالة من لا أَرَبَ له في الدنيا وكل تكلم بما بدا له من فظاعة الحال فأبلغ باش كاتب مٰا سمع وما رأى فاضطربت أفكار الوالي وتكاثر الكلام في الناس وكانوا كلهم على كلمة واحدة في اتباع أهل المجلس الشرعي.

ومما ذكر إرادتهم إنهاء الأمر والشكاية إلى خليفة المسلمين، وطلب إجراء ما تضمنه الفرمان المؤرخ في شعبان سنة 1288 من إجراء العدل والإنصاف في الرعايا، وبلغ الوالي قصد العلماء وهو طلب تشكيل مجلس للنظر في المصالح وفي أعمال المأمورين لكي لا يقع مثل ما وقع، وخشي مما شاع من تداخل الخلافة الكبرى لظنهم أن السلطان لا يرضى بضياع أهالي تونس لمخالفة السيرة الإدارية لما هو مشروط في الفرمان السلطاني، سيما وقد بلغ الأمر إلى ما هو راجع إلى الشرع وحمايته. وأن ذلك أيضاً يجري إلى تداخل بقية الدول العالمية بقبح السيرة مع كون الصدر بالدولة العثمانية إذ ذاك هو خير الدين باشا الذي يراه عدواً له.

فأرسل الوالي إلى العلماء ثانياً يقول لهم أمهلوني بضعة أيام، فإن جعلت ترتيباً سياسياً يقنعكم فاقدموا إليّ حينئذ شاكرين وإلّا فلكم أن تبدوا ما يظهر لكم وكان هذا رأي أشير به على الوزير بأن يعمل كما قيل بيدي لا بيد عمرو خشية تفاقم المطالب على ذلك النحو ووقع إذ ذاك مبادىء انحلال في عزم أهل

مجلس الشريعة لأن رئيسهم تقرب إليه الوزير سراً فانحط حرصه وتوجهت أطماع البعض إلى المسابقة لإرضاء الوزير فأجابوه بنعم.

ثم جمع الوالي وزراءه وأعلمهم متأسفاً من مطلب أهل الشريعة بأنه يريد أن يجعل مجلساً مركباً منهم أي من الوزراء ورؤساء الإدارة دون غيرهم من الأهالي للنظر في المصالح وجريان السياسة، فأجابوه بأن ما يظهر له حسن فهو حسن.

وكان هذا الجمع من الوزراء والمستشارين مشتملاً على جميعهم حتى أن الوزير حسيناً كان إذ ذاك قدم من إيطاليا لمصالح في مأموريته فصادف الواقعة، وكان ممن وافق الوالي على رأيه في جعل المحتسب والمحتسب عليه واحداً خلافاً للمعقول، ولما يعلم من طبعه من لزوم الاحتساب الحقيقي على تصرف المأمورين بثقات من الأهالي إلى غير ذلك من أوجه العدل ومع هاته الموافقة فلم يسلم من القدح.

ثم إن الوالي أرسل لأهل الشريعة يعلمهم بأنه أنشأ مجلساً مؤلفاً من عشرة أعضاء تحت رئاسة الوزير ابن إسماعيل، وأعضاؤه: الوزراء والمستشارون وبعض رؤساء الإدارة ولما بلغ لأهل الشريعة ذلك قالوا ليس قصدنا المتوظفين لأنهم دائماً تحت الأمر، ولا خبرة لهم بما في أطراف القطر، وإنما المراد أن يكون المجلس من الموظفين والعلماء وأعيان من البلاد والعربان، ولا أقل أن يكون عددهم ثلاثين عضواً وأنهم لا يقصدون إلا مصلحة البلاد لأنهم ليس لهم غرض إلا هناء القطر وهناء الوالي، وقيل إن قنصل فرنسا صرّح بأنه لا يعترف بالمجلس وأنه إن أراد الوالي الاستعانة بعساكره لردع الطالبين فهو حاضر له حيث إنّ طريقة الوزير هي التي تبلغه إلى قصده كما ذكرناه في محله، ثم لما بلغ الوالي جواب العلماء أرسل إليهم بأنه يزيد اثنين من رؤساء الموظفين وأن هذا المجلس ينظر فيما يقتضيه الحال من الكيفية ويجري العمل به، وكان في أثناء هاته الأيام دبت السعاية بالترغيب لبعض العلماء والترهيب لهم من تداخل الأجنبي بلا مستند، فرضي عمدتهم بذلك، وكان سبباً في تمكن الفيض على

من زيد حيث انتهى رضا المقترحين عند ذلك وصرّح الوالي بما يشف عن ذلك والله المطلع على السرائر. ثم جعل هذا المجلس في نفس الأمر إذ اجتمع يعرض عليه ما يريد الوزير والأغلب أن يكون المعروض هو بعض النوازل التي تعرض بقلة ولما كان أغلب الأعضاء يسايرون الوزير لم يظهر لوجوده من أثر إذ لا يتداخل في نصب ولا في عزل ولا سيرة عامل أو رشا، وشاهد ذلك الخارج فإنه لم يمضِ عليه شهران حتى وردت الرسل على شيخ الإسلام بأن يتشفع في الجاني على الشرع فلم يوافق جهرة بل أظهر زيادة الامتناع ثم سودت سرّاً بطاقة إلى المنفي ليكتب على نمطها مكتوباً لأهل المجلس الشرعي ولما ورد مكتوبه على نحوها كتبوا إلى الوالي مستشفعين بعد أن امتنع بعضهم وقيل عندما سمع بذلك ليت شعري ما هو وجه كتبهم مع علمهم بالحقائق».

ومنها أنه شرع الوزير إثر ما تقدم في بناء دار شيخ الإسلام المذكور بتونس وكذلك داره بجبل المنار وكثر تردد تابعه الجاني المذكور عليه حتى نشأ عنه قيل وقال. (صفوة الاعتبار ج 2 من ص 110 إلى ص 113).

ومن الذين امتنعوا الشيخ القاضي المالكي حتى هدد بالإعدام كما جاء في بعض المذكرات لأحد أتباع الوزير مصطفى بن إسماعيل.

وهذه الحركة التي قام بها المجلس الشرعي هي أول حركة نبعت من الزيتونة لإصلاح الوضع ولإقامة نظام برلماني تتمثل فيه الأمة أتمّ تمثيل، فهي حركة القصد منها إعادة نظام عهد الأمان الـذي أُلغي بسبب ثورة علي بن غذاهم، وقوى النفوس أن الوزير خير الدين الوزير المصلح كان صدراً أعظم فوجوده في صدارة الدولة العثمانية كان في حسبانهم أنه يؤيد حركتهم النابعة من رجال الشرع.

والباعث ليس اعتداء على القاضي المالكي الشيخ محمد الطاهر النيفر لما أراد إجراء الحق وإنما كانت النفوس ملأى بالحنق من أجل تصرفات الوزير مصطفى بن إسماعيل تلك التصرفات الشاذة التي ذكر الكثير منها صاحب صفوة الاعتبار، فرجال المجلس الشرعي أرادوا أن يعبروا عن رغبة الأمة في إنهاء

الأعمال التعسفية التي قام بها الوزير مصطفى بن إسماعيل وأتباعه.

ولولا أَلاَعِيب هذا الوزيـر بالاغراءات التي انساق البعض القليل من رجال المجلس الشرعي إليها لكان لهذه الحركة أثرها في إنقاذ الأمة التونسية.

وما المجلس الشوري الذي نوه به صاحب مسامرات الظريف إلا ذر للرماد في العيون.

والعجب من الوزير حسين مستشار المعارف كيف وافق على هذا المجلس حتى كان أَحَدَ أعضائه فانتقاد صاحب صفوة الاعتبار عليه انتقاد وجيه.

ملحق (6)

تتمة للمقدمة

تتضمن تاريخ تونس

(من 1297 إلى 1376 هـ)

(من 1879 إلى 1957 م)

أنهى المؤلف كتابة القسم السياسي من تاريخه المسامرات بفاتحة سنة 1297 وهي التي قدم فيها وفد من أعيان التونسيين إلى المشير الثالث محمد الصادق ووزيره مصطفى بن إسماعيل مصحفين مرصعين.

وهذا الوفد مدسوس إليه في تقديم ذلك لإظهار رضا الأمة بوزارة مصطفى ابن إسماعيل تلك الوزارة التي عاثت في البلاد فساداً، خصوصاً بعد الحادثة الشهيرة وهي التي أثارها القاضي المالكي المرحوم محمد الطاهر بـن محمد النيفر بسبب تجرؤ علالة بالزي أحد أتباع الوزير المذكور على المحكمة الشرعية.

وهذه القضية طواها المؤلف مع أنها سابقة حدثت في سنة (1296).

وقد بسطنا الكلام على هذا المجلس الذي أطنب المؤلف في مدحه (المتحدث عنه في الملحق الخامس) مع أنه لم يرض أهل المجلس الشرعي إذ طالبوا بمجلس يضم نخبة تمثل الأمة.

إن وزارة مصطفى بن إسماعيل كانت من الأسباب المعجلة للحماية الفرنسية لأن الوزير المذكور ليست له الكفاءة المؤهلة للوزارة إذ هو خلو من التعليم حتى من التعليم الجزئي مع ما فيه من تكالب على المال ثم إن بطانته كانت بطانة سوء منهومة على المال بالأوجه غير المشروعة.

وزاد في تعكير الجو أن هناك دولتين كانتا تسعيان لاحتلال تونس أو تقوية النفوذ فيها لإحداهما دون الأخرى التي تزاحمها.

ونتج عن ذلك إعلان الحماية الفرنسية على تونس في (14 جمادى الأولى 1298) وفي (14 ماي 1881).

وقد أرّخ هذه الفترة الشيخ محمد بيرم الخامس مذيلاً بها كتابه صفوة الاعتبار ـ وهذا لم يطبع ـ بما ننشره كما جاء منقولاً عنه:

الحمد لله تعالى:

. هذا الذيل الذي نبّه عليه الشيخ بيرم في الباب الثاني من كتابه صفوة الاعتبار عند الكلام على سياسة تونس الداخلية والخارجية. قال:

ذيل في تسلط فرنسا على تونس:

قد مرّ في المطلب الثامن من أحوال الإدارة الداخلية في تونس حالة وزارة وزيرها مصطفى بن إسماعيل وتصرفاته وما وقع في نازلة صانسي الفرنساوي التي كانت سبباً في خوف هذا الوزير من القنصل وروم أن تبدّله دولتُه.

وتقدم أيضاً ما هي مقاصد فرنسا في تونس وأنها تروم نيل الدرجة العليا فيها ولما رأت سيرة الوزير المذكور لم تأمن وقوع ارتباكات مغايرة لما كانت راضية بالبقاء عليه وخشيت ضياع الفرصة من سهولة التوصل على يد ذلك الوزير إلى ما لم يمكن التوصل به على يد غيره من ذوي العرض والعقل.

فلذلك بينما كانت مساع جارية في إبدال القنصل وإذا بالسعاية إليه قد غيرت مشربه حتى طمع في ولاية العهد بأن يتولى هو الإمارة بعد سيده الوالي الحالي الصادق باشا إذا أتم إدخال تونس طْوعاً تحت فرنسا، فراكن حينئذ قنصلها وأحكم معه المودة، وصارت بطانة الوزير تأتي إليه معلمة بجميع أسرار الحكومة وسائر تصرفاتها.

وأضمر ابن إسماعيل الشر لمن كان أوعز إليه بأن يتشكى من القنصل إلى

دولته ثم تفطن بذلك التواطؤ السري ونصحه بأنه لا ينتج له شيئاً وعلى فرض الوفاء له بالوعد فإنه لا يلبث أن يناله ما نال الوزير العلقمي في انقراض دولة بني العباس من بغداد.

واتفق ذلك الوزير مع القنصل على شروط إدخال تونس تحت فرنسا، غير أن الوالي لم يساعف على لائحة تلك الشروط التي قدمت إليه سراً بواسطة الوزير، وخشي من الدول ومن الأهالي في البغي منه على الدولة العثمانية وفي تغيير حالة السياسة.

وجعل الوالي يسوّف العقد من وقت إلى آخر وجعل الوزير يسعى في إحداث وجه لتداخل فرنسا وإنفاذ أمرها، فأكثر من الرسل السرية إلى الآستانة متطلباً أن يدعى هو إليها رسمياً أو يرسل بعض الأسطول العثماني إلى مرسى تونس مع إظهار زيادة التشيع إلى الدولة العثمانية حتى لا يتفطن إلى مساعيه الباطنية، فلم يساعف من السلطان في مطلبه إذ لم يكن له من داع، كما أنه لم تفد في الدولة العثمانية الإيقاظات إلى دسائسه وعزمه حتى تسعى في سعة لدفع الغوائل المتوقعة إذ من المعلوم أن التدخل السياسي هو كالمرض المزمن الذي لا ينجح فيه العلاج إلا تدريجياً عند أول حدوثه سيما إذا كانت الدولة المعالجة محتاجة إلى استمالة غيرها من الدول القوية إلى معاضدتها على قرنها القوي، ومع ذلك أيضاً قد عكر الوزير ابن إسماعيل حالة الخلطة مع إيطاليا لعلّها تعلن على تونس الحرب ومنح للفرنسانويين منحاً لم يطلبوها مما يزيد في نفوذهم والشحناء معهم كما تقدم ذكره في المطلب الثامن من أحوال تونس. ولما لم تنجح جميع تلك المساعي التي كان يمكن لفرنسا الاستناد إليها في وضع حمايتها على تونس أحدثوا أقاويل في إهمال حقوق الفرنساويين، وأظهر الوزير المذكور الاستخفاف بقنصل فرنسا، ومال عنه كل الميل ظاهراً، ورام أن يظهر التعطيل في إجراء المنح التي أنالها إلى الفرنسيين بأوجه من الاعتذارات، حتى أغرت رعايا فرنسا بتونس على أن تكتب تقريراً للتشكي من ضياع حقوقهم وطلب دولتهم للانتصاف لهم، فلم يرع الأمم إلا أن فرنسا جلبت بخيلها ورجلها على

حدود تونس معلنة بأن قصدها إنما هو حفظ حقوقها من جهة الحدود وغيرها واستندت في عملها لما تضمنته لائحة وزير خارجيتها إلى سفرائه.

وهذا نص تعريبها:

«باريس في 9 ماي 1881 أيها السيد أتشرف بأن نرسل لكم جملة رسائل في شأن تونس ونريد أن نحقق لكم المقصود إجـمـالاً ونخبركم عن سبب إرسال العساكر الآن وعن النتيجة التي نرجو إتمامها فكم من مرة قد عرفت الدولة الجمهورية بدواعيها ومقاصدها وأنتم تتذكرون ذلك خصوصاً ما صرّح به السيد رئيس الوزراء في المجلس العام وهو لا يمكن أن يكون فيه أدنى شك من جده وصدقه ومع هذا فإني أُريد زيادة إيضاح لكم لينفعكم لدى الدولة التي أنتم عندها فنقول إن سياسة فرنسا في تونس ليس لها إلا مقصد واحد وهو المقصد الذي يكفي لوضوح موضوع سيرتها منذ خمسين سنة نحو المملكة هو الواجب علينا لحفظ راحة مستعمرتنا العظمى الجزائرية فمن سنة 1830 لم تأت دولة من الدول المتابعة وتركت هذه المهمة العظيمة وإنا لنعمل الواجب علينا لحفظ مستعمراتنا الإفريقية التي لا يوجد أحد من أروبا أنكر علينا ذلك فيها لحفظها من جارٍ عدو كثير الأراجيف وقد كانت القبائل التونسية مخوفين ومحاربين حتى فيما بينهم، وقد فاق على الجميع قبائل وشتاتة والفراشيش وخمير ولا تعرف كمية المحاربين ولا كمية قوتهم، فلذلك التزمنا الآن أن نرسل من العساكر عشرين ألفاً وهذا مما يدل على قوتهم أي الأعداء المتحصنين في بلاد منيعة تقريباً وكان الداعي الأول لإرسال العساكر هو قهر قبائل حدودنا الشرقية ولكن لا فائدة في تقرير الأمن والراحة وأعداؤنا ما زالوا يهددوننا ونحن لا نخاف من الهجوم الكبير المنسوب لباي تونس إذا كان منه وحده لكن النظر القليل في العواقب ألزمنا التحري من اتحاد الباي مع غيره، وهذه التشويشات يمكن أن يأتيَ لها وقت وتقلقنا كثيراً في الجزائر وتصل حتى لفرنسا، فيلزمنا بناءً على ما ذكر أن يكون لنا عند الباي محبة كبيرة واتفاق قلبي ويلزمنا جار يعوضنا المحبة التي لنا عليه ولا يسمع التشويشات الخارجية لضررنا واستحقار قوتنا الراسخة.

وقد وضحنا من نحو أربعين سنة بأنه يلزمنا لمحافظة فرنسا الجزائرية أن نحصل في المملكة على قاعدة راسخة ونحن نحترم بالتدقيق منافع الأجانب وهم يقدرون أن يتوسعوا بثبات مع فوائدنا، والدول يتحققون أن مقاصدنا من جهتهم لا تتغير وإلى هاته المدة الأخيرة اتحادنا مع دولة الباي المفخم مستمر إلا ما يحدث أحياناً من الاختلاف في دفع تعويضات لقبائلنا المضرورين ثم في الحين يرجع الاتحاد ويزداد ثبوتاً بعد هذه الاختلافات الصغيرة إلا هاته المدة الأخيرة فإنه بأسباب يصعب الاطلاع عليها مذ تغير ميل الدولة التونسية علينا دفعة واحدة وكانت إذ ذاك الحرب ساكنة ثم ما زالت تزداد إلى أن وضحت وتقوت ومبناها ضد كل الامتيازات التي حصلت للفرنساويين في تونس مع شدة الإدارة الرديّة إلى أن وصلت إلى هذه الحال.

وهذا هو السبب الثاني لإرسال العساكر الذي كنا نود التجنب منه ولكن بسبب السيرة الردية التي طالما صبرنا عليها التزمنا بما هو واقع ولو أننا بها ضمنا للباي في المطالب الحقانية لأننا نعترف بتونس كمملكة مستقلة.

وأما الحالة في الخلطة مع الباب العالي فهي مخالطة محبة وميل طبيعي، وبودنا أن لو كنا رأينا منزلة تونس في نظرة أخرى غير التي هي عليها الآن، ولكن قد بان ما يجب علينا مما ذكرناه سابقاً، وإننا نُقدِّر أن نسبتهم من الباب إذا كان باي تونس هو والياً من قبلهم فلماذا لم يمنعوا سيرته التي فعلها نحو فرنسا منذ عامين ولماذا لم يفتشوا ليمنع التحير الذي نحن مجتهدون في حصره أن ينتهيَ بشروط تؤمن حدودنا من الهرج المستمر والتشويش المغري لباردو إما من غيره أو من نفسه. فهذان هما المقصدان لإرسال العساكر.

ولا نُخفي إذا ما نقول أن لنا في أروبا الرضا العام في جميع الجهات عدا الجهات التي بها النظر الفارغ المطمس للعقول وهذه هي أيها السيِّد التي خيمت حول الباب وحول تونس ومن كلا الطرفين فنحن مشمولون بالمحبة وجميع ما نرجو من الباي هو أن لا يكون عدواً لنا ولو أن المملكة تنظر لفوائدها تقدر أن تحصل من اتحادها معنا فوائدَ لا تحصى وأكثر مما نحصله نحن منها ونقدر أن

نأتي لها بكل خير من العمران الحاصل عندنا، ففي سنة 1847 فعلنا فيها البريد وفي سنة 1859 وسنة 1862 فعلنا التلغراف وفي سنة 1877 وسنة 1878 فعلنا الشمنديفير الذي طوله 50 من حدود الجزائر إلى تونس وفي هذا الزمان نفعل لها شمنديفيرين جديدين أحدهما يربط تونس ببنزرت من جهة الشمال وطوله عشرون فرسخاً والآخر يربط تونس بسوسة من جهة الجنوب وسنبتدىء عن قريب في عمل مرسى في تونس نفسها لتدخل المركب من الشط ومن حلق الوادي إلى ذات القاعدة.

ودَيْنُ تونس وإن كان رأس ماله مشتركاً بين فرنساوي وإنكليزي وطلياني لكنه إذا اعتبرت النسبة يوجد ثلاثة أخماسه لفرنسا.

وإن الحنايا الجملية (لا دريان) التي تأتي بالمياه العذبة إلى تونس قد أصلحها أحد المهندسين الفرنساويين.

ولمّا ترجع الخلطة الطيبة فإنا لا نزال نفعل أشياء حسنة ومنارات على الشطوط وطرقاً داخلية توصل بين البلدان العامرة الناجحة ونسقي الأرض بالترع الكبيرة في البلاد التي بها أنهر كثيرة ولكن هاته البلاد أهلها ليسوا معتنين بتلك الأنهر وكذلك الغابات، وكذلك نعمل على استخراج المقاطع الموجودة بها كل نوع من المعادن، وكذلك ترتيب الفلاحة في الأراضي الحسنة التي للأجانب في المملكة والتي للأهالي أيضاً، وكذلك استعمال المياه المعدنية التي اكتشفها الرومانيون واستعملوها. وبالجملة إن مملكة تونس خِصبة، وغنى قرطاجنة القديمة يدل على ذلك.

وتحت الحماية الفرنساوية يمكن أن تزال جميع الحجب عن المنافع الطبيعية في هاته البلاد وتنتشر بقوة، وبشدة الترتيب الجديد نقدر أن نزيد أشياء أخرى وهي أنه إذا كان الباي يعتمد علينا في الترتيب الداخلي في المملكة فإنا نفعل تعديلاً لازماً قاراً، وهذا الخير الذي يسهل علينا عمله منه ترتيب كيفية قبض المدخول وترتيب المخروج وترتيب دفاتر الحساب على مقتضى ما نستعمله نحن في ماليتنا ومنه أيضاً خير عظيم وهو ترتيب العدلية على الأصول التي فعلتها الدول في ترتيب العدلية في مصر، وفائدة هذه التراتيب لا ترجع لفرنسا وحدها

بل إن المملكة يرجع لها النفع وكذلك لجميع الدول المتمدنة التي نحن منها ومن غير فتح ولا حرب.

فلا شيء يمنعنا من عملنا في تونس مثل الذي فعلناه في جزايرنا والذي فعلته إنكلترة في الهند إذا نحن جعلنا باي تونس متكفلاً بمطالبنا الحقّانية فهو دليل على ما نحسبه دائماً من أن تونس مملكة مستقلة من غير أن نراعيَ بعض آثار للتبعية بالاسم فقط لبعض أسياد قد تركوها منذ عدة قرون وقد تظهر تلك التبعية نادراً، وإن تحسب المدة التي هي فيها مستقلة لكانت أكثر من مدة التبعية ففي سنة 1534 أخذها المشهور بباربـورس خير الدين أربع أو خمس مرات بانتصاره على الإسبنيول وفي العام الذي بعده أخذها شَارَل كَانْ وكذلك في سنة 1553، ثم أخذها داي الجزائر سنة 1570 ثم أخذها دون جوان النمساوي سنة 1573 ثم في طول القرن السابع كانت تحت ظلم الإنكشارية من غير حكم ورؤساؤها الموسومون بالدايات كانوا إذ ذاك أربعين فقسموها تقريباً كالمماليك الذين قسموا مصر.

ثم في سنة 1705 كان أحدهم المسمى بحسين بن علي الذي أصله كريكي أو كرسكي صار مسلماً وكان هو أحذقَهم فعرف كيف يشدهم وقتل جميعهم واشتهر بالباي، وبعصبيات العساكر أقام العائلة الحسينية ومن ذلك الوقت لم تزل الإمارة فيهم على هيئة السيادة الإسلامية والآن 200 سنة تقريباً وهم مستقلون والرابطة الحقيقية بينهم وبين الباب العالي هي رابطة دينية وهم يعترفون بالخليفة إلا أنهم ليسوا تحت السلطان.

ومما يوضح هذا أنهم لا يدفعون له أداء إلّا أنه عند ولاية كلّ باي يُرسل هدية غنية تعظيماً لرئيس الديانة القاطن بالقسطنطينية وفي باقي مدة الولاية فلا مسألة سياسية يمكن أن تذكر غير هاته التحية الودادية فليس لأمير المؤمنين حق آخر على باي تونس.

والمملكة تعقد شروطاً كمملكة مستقلة مع الدول الأجانب وتعقد معهم اتفاقات ويكون لها قوة وذلك برضا الباي فقط وعلى هذا النمط وقعت معاهدة مع

فرنسا في سنة 1742 وكذلك في العام الثالث والعام العاشر وفي سنة 1824 وهكذا صارت المعاهدة المهمة في 8 أوت 1830 التي تمنع تملك العبيد والتلصص في البحر، ولا يلزم التكلم على المعاهدات الباقية كالتي في حق صيد المرجان وأن الباب لا يحكم على الولاية إلا حكماً وقتياً وهو راضٍ باستقلالها.

ومما يؤيد هذا أنه في القرن الثامن عشر لم يقبل تشكي دول أوروبا من التلصص البحري والسعي البربري وليس له حكم عليهم وهو ليس مولاهم وهو لم يضمن السرقات التي جعلوها مخلة بتجارة البحر المتوسط وأن دول أوروبا عملوا الحرب عشرين مرة مع المملكة من غير عقد الحرب مع تركيا، وفي سنة 1819 كانت معاهدة إكس لاشبيل قد حكمت على تونس بمنع التلصص البحري من غير أن تطلب من الباب التداخل على أنه متسيد على تونس وفي سنة 1833 فمملكتا سردينيا ونابولي عملا الحرب مع تونس من غير عمله مع الباب لأنهم يرون مثل ما نرى أن تونس مستقلة.

ثم إن علاقة تونس مع فرنسا من وقت أخذ هاته الجزائر على النحو السابق من غير واسطة تركيا ولما قدم إلينا أحمد باي في سنة 1843 اقتبل بكل ما يلزم من التعظيم للملوك والباب العالي لم يتوجع إذ ذاك من عملنا التعظيم الملوكي المذكور وكذلك جميع أوروبا لم تلم على ذلك لأن رأيي موافق لرأي اللورد آبردين الذي يقول في تسجيله ضد أخذنا الجزائر المكتتب بتاريخ 23 مارس 1831 إن الدول الأروباوية من مدة طويلة يفعلون المعاهدات مع الدول البربرية مثل الدول المستقلة وخصوصاً تونس فإنها لا تحسب نفسها إلا حرة، والدليل الواضح الحقي الذي لا ينكره أحد هو عمل القوانين في تونس المسماة (بويود لدي)، حلف عليها الباي الموجود بتونس محمد الصادق لما جلس على الكرسي في 23 أيلول سنة 1859 مثل ما حلف أسلافه فإن قانوناً واحداً منها وهو المسمى بالقانون النظامي لمملكة تونس قد احتوى على مائة وأربع عشرة مادة وانتشر بالعربي والفرنساوي في تونس وفي بونه ولم يصرّح فيه ولو بكلمة واحدة تقول السلطان.

ومما لا يقدر أن يشك أحد معه في استقلال الباي ما نشر في الصحيفة

الرابعة من المقدمة في ذلك القانون ونصه أن المتوظفين الكبار التونسيين اختاروه بكلمة واحدة ليكون رئيس الدولة على مقتضى قانون الوراثة المعروف في المملكة وفي ذلك القانون فصول تامة شرحت الحقوق والواجبات للملك وحالة الأمراء من العائلة الحسينية وحقوق وواجبات الرعايا وكيفية خدمة الوزراء وترتيب خدمتهم والمجلس الكبير بالمملكة والمداخيل والحساب ولا شك أن من يطلع عليها يقدر أن يجد ذلك البيان غريباً إذا أراد أن يقيس على رأينا الأروباوي ومع هذا فهو دليل واضح على استقلال مملكة تونس وأنها ليست تحت دولة أجنبية.

وجميع المعاهدات التي بين الدول الأروباوية ومملكة تونس منذ مدة الثلاثة قرون الأخيرة لم تقل أبداً إلا مملكة تونس، ملك تونس، ومنها خمس عشرة أو عشرون معاهدة أمضيت بفرنسا فيها ذلك القول، وفي سنة 1868 المعاهدة التي وقعت مع إيطاليا مذكور فيها مملكة تونس، وتونسُ أيضاً لم تسم نفسها في قانونها النظامي إلا الاسم الذي أطلقته عليها جميع الدنيا وهي أرادت أن توضح المزية التي لها بالاستقلال والقدرة المـوافقة له. فبناء على ما سبق من الأدلة القطعية والمتعددة فالباب العالي لا يقدر أن يتعجب من إنكار فرنسا لسيادته على تونس مهما طلب هو ذلك حتى إلى الآن ونحن نقر بأن الباب شدد في طلبه منذ خمسين سنة، وفي سنة 1835 أدخل تحت سيادته طرابلس بعدما ضبط التحيير الهائل هناك وأراد أن يعمم سيادته على تونس إلا أن قوة فرنسا المضادة له منعته من مقصده وبعد عشر سنين أي في سنة 1845 أتى (مابينجي) السلطان إلى تونس ومعه فرمان ليقلد الباي منصب الولاية إلا أنه لم يقبل منه، ثم مضت عشرون سنة من غير تجربة جديدة، ولكن في أواخر سنة 1864 رجعت التخمينات القديمة وإنما هاته المرة كانت المملكة بنفسها هي التي طلبت التقليد ولكن هذا كان من الغريب إذ وقع من الأمير الذي هو حتى لذلك الوقت بعينه وهو يظهر المدافعة عن استقلاله وهذا إنما كان من الإشارات القوية التي خوفت الباي من حالته أمام الباب فأرسل لذلك أمير الأُمراء خير الدين إلى القسطنطينية ليعرض ويأتي بالفرمان.

وهاته المرة أيضاً فرنسا عارضت في ذلك وعوضاً عن الفرمان السلطاني

فالباي ومستشاروه التزموا بالرضا بمكتوب وزيري متضمن لما في الفرمان، ثم اغتنموا الفرصة وقت مصيبتنا في سنة 1871 وتمموا ما كانوا ممنوعين منه سواء كان في مدة الوي فليب الذي كان غالباً أسطوله يمنع الأسطول التركي من القدوم إلى تونس أو في مدة الإمبراطور الذي لم يقلل من العزم المشار إليه، وفرمان 15 تشرين أول سنة 1871 الذي اتخذوه تحت ظل مصيبتنا اشتهر في 17 تشرين ثاني في باردو وأعلن به خير الدين باسم السلطان وقبله الباي الذي كان طلبه له مع شيء من الغضب، وفرنسا على كل حال سجلت بقوة، وحسب الفرمان باطلاً أو كأنه لم يقع ومن مدة عشر سنين لم تبطل شيئاً من عملها عندما يقتضي الحال ومع نجاح الباب هو بنفسه له شك في إجراء حق فرمانه بتاريخ سنة 1871 الذي ضرب استقلال مملكة تونس المتقادم وهذا الفرمان انتشر قليلاً إلا أنه عند الغالب لا يعرف ما عدا بعض الدول التي لها فوائد في ترتيب الفرمان المذكور أن تكون تونس جزءاً تحت الباب مع أن حكم باي تونس باق كما كان يعرف منذ مائتي سنة غير أن باي تونس صار والياً أي والياً عاماً على إيالة تونس وعلى موجب ذلك فالوارثة في الحقيقة لم تكن مستمرة في العائلة الحسينية خلافاً لما ذكره الفرمان بل الوالي يعزل بإرادة السلطان ومن الممكن أن يعرف الباي ضرره وضرر ملكه وحريته وحياته التي هي غلطته الكبيرة حسبما أشاروا عليه بها، ومحمد الصادق ليس له خوف من جهة فرنسا ولو مع ما عمل من الشر معها ومع هذا فهي ليستْ بضده لا لذريته ولا لذاته ولا لدولته وأما من جهة الباب فهو بالعكس وله الخوف الكبير منه لأنه يمكن أن يبدله بحسب الحال».

انتهت لائحة وزير فرنسا وإذا تأملها المتبصر وتدبر معانيها يجدها مخالفة للواقع في كثير من الأمور سيما بعض الأحوال التاريخية كما يتبين من مقابلة كلامه بما ذكرناه في تاريخ تونس وسياستها وصلتها مع الدولة مع المكاتيب الرسمية التي نلقاها حرفياً حتى من متوظفي فرنسا، ويؤكد ذلك ما تراه في لوائح الباب العالي الآتي بيانها فإن الحالة لما بلغت إلى درجة هجوم العسكر على الحدود تظاهر والي تونس بأن أرسل إذ ذاك إلى الباب العالي مكاتيب في التشكي من فعل فرنسا وأرسل إلى نواب الدول تسجيلاً على ذلك أيضاً ولما تحقق الباب

العالي الأحوال الرسمية أرسل عدة لوائح إلى سفرائه مستنجداً بالدول لمحافظتهم على معاهدة باريس التي أشرنا إليها سابقاً وعلى معاهدة برلين، ومما يفصح عن مقاصد الباب وحقوقه اللائحة التي أرسلها وزير الخارجية بالدولة العثمانية إلى سفراء الدولة ونص تعريبها:

اللائحة العثمانية

«القسطنطينية في 10 ماي سنة 1881 إن إعلاماتي المختلفة عرفت فَطانتكم الوقائع التي صارت في المسألة التونسية وقد نسبت بهجوم بعض القبائل البدويين جهة الجزائر وهذا الهجوم الحكام التونسيون أعلنوا بأنهم حاضرون ليضبطوه من غير تراخ فالدولة الفرنساوية حكمت بأنه يلزمها إرسال عدد وافر من العساكر الذين قد استولوا على جزء كبير من الولاية ولم يبعدوا عن المركز إلا بعض فراسخ، فمن غير التفات إلى ما كنا أكدنا به على حضرة الباشا ليأخذ التدابير اللازمة لتمهيد الراحة في المواضع الثائرة فدولة الجمهورية لا تريد أن تنظر للمخالطة الاقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التي هي محسوبة جزءاً مهماً للسلطة المذكورة وأظهرت بأنها لا تقبل قولنا للاتفاق الودادي معها لقطع الاختلاف الذي وقع وترتيب حقوق الباب العالي مع منافع فرنسا في ذلك المحل وترتيب الأشياء الموجودة من زمن قديم ولا نقدر أن نزيد في إيضاحها كما يلزم وهي سيادة السلطان التي ليس فيها اختلاف على هاته الولاية وهي سيادة لا تنكرها ولا دولة عموماً وهذا الحق بقي إلى الآن صحيحاً ولم ينقطع من زمن فتحها وهو إذ ذاك سنة 1534 بخير الدين باشا وفي سنة 1574 وتقليج علي باشا وسنان باشا وكانت الدولة العلية أرسلت إلى تلك المواضع قوة عظيمة براً وبحراً ومن زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التي فعلها الباب العالي هي أن جميع ولاة تونس يتوارثون الولاية من ذرية الوالي الأول المسمى من السلطان ويتقلدون إلى الآن المنصب منه وفرمانات الولاية تبقى في خزانة الديوان وكذلك جميع المكاتيب التي تأتي منهم للباب العالي فإنها تارة تكون في شأن مخالطتهم مع الدول الأروباوية وتارة تكون في شأن أحوالهم الداخلية والتي لهاته المدة الأخيرة فإن الباب العالي من استحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يُسمي الوالي العام

فإنه يرسل من القسطنطينية إلى تونس قاضياً وباش كاتب الولاية ولم يكن إلا من ترحم الدولة العلية أن منحت الوالي أن يسمي هو بنفسه هذين المتوظفين وأيضاً فاتباعاً للمذهب وخصوصية سيادة السلطان فإن الخطب يذكر فيها اسم جلالته ويضرب على السكة أيضاً. وفي وقت الحرب ترسل تونس الإعانة إلى التخت وعلى حسب العادة القديمة يأتي إلى القسطنطينية دائماً أُناس رسميون ليقدموا تعظيماتِ الوالي وخضوعَه لأعتاب السلطنة وليقبلوا أيضاً الإذن اللازم من الباب العالي لأمور عظيمة في الولاية ثم إن الباشا الموجود الآن والأهالي التونسيين طلبوا زيادة في التفضل وأعطى ذلك لحضرته السامية بالفرمان المؤرخ في 1871 وتعرف به جميع الدول، والآن قد استغاث الوالي بجهد سيده الحقي ليعينه على الحالة الرديئة التي وقعت فيها تونس الآن، وهاته الأشياء التحقيقية لا ينكرها أحد فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ وبالمكاتبات الرسمية هو سهل لكن نقتصر على المهم منها لئلا يطول الكلام في هذا التلغراف ففي المعاهدات القديمة التي بين تركيا وفرنسا تعدد ألقاب الحضرة السلطانية ويكون منها لقب سلطان تونس (فانظر مثلاً) معاهدة 10 صفر سنة 1084 هـ سنة 1668 م[1] وفي هذه المعاهدات أيضاً يوجد بأن كل المعاهدات التي بين الدولتين تجري أيضاً في تونس وفي نصف القرن السابع عشر أي في 15 صفر سنة 1166 أرسل السلطان فرماناً للباي والحاكم الكبير بالولاية في رضا الباب العالي بأن قنصل فرنسا يجمع خدمات قناصل الدول الذين لم يكن لهم إذ ذاك نواب بالقسطنطينية كالبرتغال وكتالوني وإسبانيا وفينيسيا وفرنسا وغيرهم، والقنصل وكالته هي حماية السفن تحت الراية الفرنساوية في المراسي المشهورة بالولاية والفرمان يمنع تداخل قناصل الإنكليز والهولانديز وغيرهم من التداخل في خدمة نائب فرنسا وذلك سند منع التعدي بين الباب العالي والنمسا المؤرخ في 9 رمضان سنة 1197 هـ المتقرر بمعاهدة ستوفا في 12 ربيع الآخر سنة 1295 فإنه يأذن حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بأن يحملوا باسم السلطان السفن التجارية لسلطنة

(1) السنة التي تقابل سنة 1084 هـ 1673 م.

الرومان الفخيمة وأيضاً فإن الاتفاق الذي تقدم هذا السند وتمم في 15 شوال سنة 1161 هـ بالإذن من السلطان وكان هذا الاتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة المذكورة فإن الوالي العام بتونس وهو إذ ذاك في رتبة بكلربيك ونال اسم علي باشا يذكر في مقدمة كل مكتوب ممضى عليه منه هاته الكلمات بعينها وهي (مولانا السلطان الغازي محمود) وعلى ذكر واقعات ذاك الزمان أستطرد لكم الإذن الصادر من الباب العالي في 15 ربيع الأول سنة 1245 هـ سنة 1827 م لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب فإنه يأمرهم أن لا يتداخلوا في الخلاف الواقع بين سلطنة النمسا ومملكة المغرب، وكذلك الإذن الصادر من القسطنطينية لوالي تونس في 14 صفر سنة 1247 هـ سنة 1830 م فإنه يأمر بترتيب العسكر النظامي بالولاية على نمط الترتيب العسكري النظامي العثماني، وأيضاً قد أتى مكتوب معين بالطاعة من الباشا التونسي لجلالة السلطان في سنة 1860 وذلك الباشا هو الذي سماه السلطان والياً عاماً، وقد اشتهر هذا المكتوب في جميع صحف أوروبا من غير أن يعارض ولا من جهة واحدة ونزيدكم شيئاً آخر وهو أنه في سنة 1863 في واقعة القرض التونسي الذي وقع في باريس من غير رضا الباب العالي كان مسيو دواراون دولويس وزير خارجية الإمبراطور نابليون الثالث قد أعلن رأيه بنا، على شكايات الدولة العثمانية وقال إنه يلزم إما الباشا بتونس أو الصراف الذي يريد عقد القرض معه أن يطلب رضا الباب العالي ليصبح هذا القرض للمدافعة عن حقوق الباب العالي فإن الوزير الفرنساوي أرسل يقول هذا الكلام للصراف المشار إليه وها نحن نضع بثبات الكلام السابق لدى ميزان العدل والحق الذي للدول الممضين على معاهدة برلين وإنا لمتحققون بأن فكر الدول محيط بدلائل كثيرة في الواجبات العمومية التي يقتضيها المؤتمر المحترم وأنهم يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذي قدمناه وأنهم يتحفظون على حقوق الباب العالي الأخرى المحفوظة بالمعاهدة المذكورة ويصلحون الحال بين الدولتين فرنسا وتركيا في علائقهما التي لهما في هاته الولاية المرءوف بها التونسية المتممة للسلطة العثمانية والمرغوب من جنابكم أن تتكلم مع وزير الخارجية في مضمون هذا التلغراف وتشرح له ما تراه نافعاً ولكم الإذن بأن تعطوا

نسخة من هذا لجناب الوزير إذا طلبكم (الإمضاء مصطفى عاصم).

ومن تأمل هذه اللائحة مع ما قررناه في سياسة تونس الخارجية ومقاصد فرنسا فيها لا يشك في أن فرنسا لم تكن تنازع قط في أن تونس من ممالك الدولة العثمانية، وإنما غاية دعواها هو أن تلك الإيالة لها امتيازات جارية تحافظ هي عليها لأجل منافعها ويُصدِّق ذلك تصريحُ وزير فرنسا دواروان دولويس في مجمع فيينا إثر حرب القريم لما سأل الوزير الروسي عن تعيين الممالك العثمانية للجهل ببعضها ومثل بتونس وأنه يتراءى فيها نزاع فأجابه الوزير الفرنساوي بأن لا شك ولا نزاع في كون تونس من الممالك العثمانية وإن كانت لها امتيازات تخصها وكذلك المعاهدات المعقودة بين فرنسا وتونس حتى التي وقعت بعد الاستيلاء على الجزائر بمدة طويلة يصرح فيها بأن سائر المعاهدات المعقودة مع الدولة العثمانية تكون مرعية الإجراء في تونس ولا يعزب عن عاقل أن ذلك التصريح لاتحاد تونس بالممالك العثمانية، ومع هذا كله لم يفد استصراخ الدول لأن فرنسا لم تعلن بعملها إلا بعد أن لمست أفكار أغلب الدول الكبيرة فوجدتهم غيرَ معارضين لها لأن دولة إنكلتره متولي زمامها حزب الإطلاق الذي لا يرى نفع دولته في المحافظة على الدولة العثمانية بعد أن طال تجريبُهم لها في الحث على الجريان على مقتضى نصائحهم ولكنهم لم يروا العمل ودونك ما نشر في الكتاب الأزرق من المخاطبات التي وقعت من الحضرة السلطانية ورئيس وزرائها ومع سفير إنكلترة في الآستانة حسبما أخبر بها وزيره بعدة تلغرافات تنبىء بما تقدم فمنها تلغراف من مسيو غوشين (سفير إنكلتره) إلى وزير خارجيتها بتاريخ 19 نيسان سنة 1881 هاته ترجمته إني وجدت جلالته (أي السلطان) مشغول الفكر بهذه الأفعال وبناء على ما عندي من الإذن أعلنت له بأن الدولة الإنكليزية تريد بقاء الحالة الموجودة بتونس والنائب الإنكليزي له الإذن ليرشد الباي إذا استشاره بأن يعين فرنسا في تقرير راحة الحدود وإني أرجو أن جلالته يشير على الباي أيضاً بذلك فالسلطان سكت بعض دقائق ثم ظهر على وجهه الغضب وقال إنه فهم من كلامي أن الدولة البريطانية تريد إبقاء الحالة على ما هي عليه في تونس ولها نفع في ذلك وفهم أيضاً أنا أشرنا على محمد الصادق بأن يعين العساكر

الفرنساوية فنبهت عظمته بأن قلت إن الدولة الإنكليزية تنتفع بإبقاء الحالة الموجودة ولكنها تظهر تمني ذلك فقط على هذه الكيفية ونحن نتأسف كثيراً من فتح مسألة جديدة في الشرق، وإنا لا نفتكر أنه توجد فوائد خصوصية لإنكلترة مربوطة بأي كيفية كانت في أحوال تونس، فعند هذا أجاب السلطان بأنه لم ير كيف يجمع بين رجائنا في إبقاء حالة تونس على ما هي عليه ومع ذلك نشير على الباي بأن يعين العساكر الفرنساوية فهذان الشيئان لا يتوافقان لأنه على رأيه يكون دخول العساكر الفرنساوية إلى تونس ناقضاً للحالة الموجودة.

وفي تلغراف آخر من مسيو غوشن أيضاً يقول فيه إن المحادثة التي وقعت بيني وبين باش وكيل كان يطلب فيها صحبة إنكلترة وقال إن الدولة الإنكليزية تقدر أن تعمل مع الدولة العثمانية المعروف وأن الباب العثماني يكون ممنوناً إذا كانت إنكلترة تريد أن تفعل معه ذلك، فقلت له إن ما كنت قلتُه لكم قد وقع، والذي كنتَ تقوله دائماً هو أنه يأتي زمن تكون فيه تركيا متذكرة بأن صحبة إنكلترة لها لازمة وقد تكلم على الحاجة الأكيدة الآن وتكلم أيضاً على مودة إنكلترة فتبعته وقلت له ما هو دليل المودّة الذي أظهرته تركيا لإنكلترة منذ بعض سنين وفي أي وقت اتبعتم إشاراتنا، وفي أي وقت قبلت استشاراتنا النافعة للسلطنة التركية نعم إن الترك قد عملوا غاية جهدهم ليتركوا المودة التي في رأي العموم في إنكلترة ورجوعها الآن ليس بسهل فحضرته العلية أجابت بأن جميع الأشياء الآن تتغير من غير أن يظهر على وجهه الغضب من الكلام الذي قلته له قصداً واستمر في طلب الإعانة وأنا شرحت له بأن نازلة تونس مثل النوازل الأخرى الشرقية ولا تقدر إنكلترة على إتمامها وحدها ومع هذا فليس لنا فائدة خصوصية وسياستنا متمسكة بالموافقة الأروباوية ولا دولة تريد قيام عُسر جديد قبل أن تتم الأعسار القديمة وكل دولة تكون حازمة إذا كانت تفتش كل واسطة لحصر النازلة التونسية في حدود ضيقة أقل ما يمكن لئلا تقوم نازلة تدخل فيها الدول برأي مختلف فجنابه يقدر أن يفهم من جملة كلامي بأن ليس لي إذن لتقرر الرجاء بأن تكون الدول العظام الأروباوية يظهرون أنفسهم مختلفين على نازلة مخلبطة بين الباب العثماني وتونس والطلب الخصوصي من إنكلترة ليس

بموافق لحالة الباب العثماني منذ بعض سنين مع الدولة المشار إليها.

فهذا الخطاب كافٍ في بيان الحال مع إنكلترة وهي وإن أظهر بعض أهل الشورى التنديد على سياستها وطلب المحافظة على تونس وإبقائها للدولة العثمانية وبين ما ينشأ لإنكلترة من المضرة عند استيلاء فرنسا على مرسى ابن زرت وعلى قربها من خليج السويس ورجحان كفتها في البحر الأبيض لكنه لم ينفذ كلامه حيث كان حزب المحافظين الذي هو مغلوب حينئذ واحتجت عليه الوزارة بأن حزبه هو الذي فتح الباب لفرنسا فإن اللورد ملسبري الذي كان وزير الخارجية عند عقد مؤتمر برلين كما باحثه وزير فرنسا على استيلاء إنكلترة على قبرص أجابه بأنه لا يعارض فرنسا إذا أرادت الاستيلاء على تونس.

فإذاً يكون استناد فرنسا على وعد إنكلترة وقد غفل المستند لذلك عن كون الوعد من ملسبري كان في سياق أن ترضى بذلك الدولة العثمانية صاحبة الملك مع الرضا العام لا اغتيالاً ومع ذلك فلإنكلترا مقاصد على تونس مخفية في مصر فرأت أن مساعدة فرنسا على تونس تلائمها في مقصدها هي في مصر عند الحاجة إذا ساعدتها فرنسا ولهذا لم تعترف بالمعاهدة الجديدة مع تونس رسمياً حتى أن وزير فرنسا الأول أعلن في مجلس النواب بأن إنكلترة وافقت على معاهدة مايه استناداً منه لما دار بينهم من الكلام فيها فأعلن وزير خارجية إنكلترة حالاً بتكذيب ذلك الإدعاء وما ذاك إلا تحفظاً على ما يريد لدولته حتى إذا لم تساعفه فرنسا في مصر وآل بينهم الأمر إلى المشاحنة الحقيقية كان لإنكلترة وجه في نقض ما حلّ بتونس.

وأما دولة الروسي فلا إشكال أنه يسرها كل ما يضعف الدولة العثمانية ولا فائدة لها في مشاحنة فرنسا وذلك كان جوابها يمثل محصول جواب سابقتها.

وأما دولة ألمانيا فأجابت خصوصياً بأن الأولى للدولة العثمانية الإضراب عن هاته النازلة وأنها هي لا تتعرض لفرنسا بشيء والباعث لها على ذلك وجوه (أولها) إظهار عدم التجافي عن فرنسا التي لها عليها حقد أخذ الثأر (وثانيها)

جذب أعداء ومضادين لفرنسا كالدولة العثمانية وإيطاليا حتى إذا أعلنت الحرب يوماً ما بين ألمانيا وفرنسا تجد ألمانيا الظهير على قوتها بما لذلك من الباعث الذاتي (وثالثها) إشغال فرنسا بفتوحات جديدة في أراضٍ فسيحة وخلق كثير في إفريقيا ربما طال اشتغالها بهم حتى يبرد لهيب أخذ الثأر (ورابعها) إضعاف قوة فرنسا وقت الحرب إذ الأمم الذين تريد التسلط عليهم وإن لم يكونوا كفؤاً لمحاربة فرنسا لخلوهم عن آلات الحرب والاستعداد لها لكنهم لما كانوا مسلمين وأهلَ نجدة وشجاعة ومثافنة للحرب لا يلبثون دائماً أن يحدثوا عليها ثورات سيما إذا علموا بوقوع حرب بينها وبين أجنبي فتضطر فرنسا في وقت الحرب إلى أن تبقي قسماً عظيماً من جيشها محافظاً على ذلك المستعمر وذلك يفيد ألمانيا بنقصان قوة جيش خصمها في حربها (وخامسها) تمهيد السبيل إليها فيما تريد التعارض به بينها وبين النمسا لأن ألمانيا ليس لها مرسى على البحر الأبيض، وقد بقي من جنس الألمان تحت النمسا عدة ملايين حول الجهات التي قرب مرسى ترست فلو أخذت ألمانيا ذلك الباقي من الألمان مع تلك المرسى يكون ذلك غايةَ أمانيها ولكن ذلك لا يحصل إلا بحرب مع النمسا وقهرها أو بمعاوضة ذلك لها بشيء يُرضيها من ممالك الدولة العثمانية مثل أخذها ولايات مقدونيا ومرسى سلانيك الموازي ذلك لما يؤخذ منها حسبما أُشيع مراراً ولذلك كانت ألمانيا أول من بادر لأمر نائبها بتونس باتباع سياسة فرنسا فيها، وتبعتها على ذلك أيضاً النمسا لأنها ليست لها سياسة تخصها في تونس وهي لها مع ألمانيا عقد محالفة اتحاد على الذب والإقدام، ثم إنها لها مطامح في جهة بحر الجزر لتتمكن فيه بمواقع مهمة لكي تسلم في مرسى ترست إلى ألمانيا حليفتها حيث لم يكن لها مرسى في البحر الأبيض كما تقدم ذكره فلا تعارضها فرنسا عند العمل.

وأما إيطاليا فإنها تجرعت من ذلك الغصص وطوت على الضغائن التي لا تزال ولكنها لما كانت غير كفء بانفرادها لمعارضة فرنسا، واتحادها مع الدولة العثمانية أيضاً لا يجدي لاحتياج كل إلى المال مع ما فيه الدولة العثمانية من الحالة الداخلية والخارجية التي أعقبتها الحرب الأخيرة، فلم يسعها إلا السكوت

وتحمل عرق القربة مع عظم الضغينة في عموم الأهالي والدولة إذ هي حريصة على إبقاء ما كان على ما كان في تونس وكانت عند ملاحظتها مبادي الشر عرضت بالسعي السياسي مع الدولة العلية فلم يكن من المقدر قبول الانتباه لما أراده حتى أنكر الوزير العثماني على المأمور الطلياني التكلم معه في تونس وقال له إنها تابعة لنا ولا دخل فيها لأحد وعند هجوم فرنسا صار يتملق إلى ذلك المأمور لكي تمد إيطاليا اليد إليه فقالت له مصداق المثل «الصَّيْفَ ضيّعتَ اللبن».

وبما تمهد عبرت عساكر فرنسا حدود تونس معلنة بأنها تريد تأديب قبيلة خمير من أعراب الجبال الشمالية عند حدود الجزائر ولم يتعرض لها أحد بالمصادمة لأن حكومة تونس قد تقدمت حالتها الباطنية من التوافق مع فرنسا ومع ذلك فليس عندها تحت السلاح ألفا عسكري ولا اقتدار لها على معارضة فرنسا بالقوة واستندت ظاهراً إلى أمر الدولة العلية بارتكابها سبيل الملاينة وأظهر الوزير التونسي إذ ذاك التزام العمل برأي مجلس الشورى حيث فات الإبان مع أن جميع ما يتفاوض فيه يقرره لتابعه علي بالزي ليلاً وهو يقرره إلى نائب فرنسا فكلما غزل المجلس غزلاً نقضه لهم من هو بالمرصاد منهم حتى تعجبوا من اطلاعه على جميع أحوالهم، وتمكنت عساكر فرنسا من بلد الكاف وباجة وبنزرت، وفي أثناء تلك المدة كانت الحكومة التونسية لا تزال تسجل وتتشكى وأنها مستعدة لتربية قبائلها الذين هم في نفس الأمر إنما اتُّخِذُوا وسيلة فقط، ومع ذلك فقد أوعز الوزير بواسطة تابعه المشار إليه إلى نائب فرنسا بأن لا واسطة مفيدة في الدخول تحت فرنسا إلا قدوم شرذمة من العساكر إلى قصر الوالي والإحاطة به إذ النسوة لما ترى ذلك تصعق بالخوف فيضطر الوالي إلى الإمضاء على الشروط ويجد العذر عند الأهالي، ومع ذلك أرسل خبراً بالسلك الكهربائي إلى الباب العالي يقول أنه قد علم أن فرنسا تطلب عقد شروط ولا يعلم ما هي فماذا يفعل فأُجيب من الباب بأن يحيل كلما يطلب منه على الباب العالي ولا يمضي شيئاً وقبل ذلك أشاع أصحاب الأخبار أن في عزم الدولة إرسالَ خير الدين باشا إلى تونس معتمداً في حسم النازلة لمعرفته بأحوالها وسياسة الأهالي

والأجانب ولكي يكون عوناً على إبقاء الحالة المعروفة فأرسل الوالي تلغرافاً إلى الباب العالي يطلب أن يكون المرسل غير المشار إليه وتعجب كل غافل عن المقاصد الخفية من ذلك الطلب إذ تلك الحالة لا تدع مجالاً للشخصيات سيما وقد سبقت من خير الدين إلى الوالي المشار إليه المجاملة وعدم الاكتراث بما فعل معه عند حلوله بالأستانة وترقيه فيها، لكن المطلع على الباطن زاده ذلك تيقناً في التواطؤ على تلك الأعمال لأن وجود مثل خير الدين في تونس لا يروج عليه ما يروج على غيره ممن لم يثافن طبائع الشقين. ومع مجاراة الباب العالي وتقليله لمواقع النزاع قدر الإمكان لتأمين الوالي حيث أظهر الميل إلى الدولة فإنه أي الوالي أسرع إلى إمضاء الشروط مع فرنسا والحال أن مداد الحبر من الباب العالي ينهاه عن الإمضاء لم يجف ولم يخبر الباب بعد ذلك بشيء حتى سأله عما شاع من إمضائه فأجابه بأنه مكره عليه وكل ما ورد بعد ذلك من الباب سلمه إلى نائب فرنسا مدعياً أن الشروط قاضية بذلك (وهذا نص تعريب المعاهدة):

إن دولة جمهورية فرنسا ودولة باي تونس أرادوا أن يقطعوا بالمرة التحيير المخرب الذي وقع قريباً في حدود الدولتين وفي شطوط تونس، وأرادوا أن يربطوا مخالطتهم القديمة التي هي مخالطة مودة وجوار حَسَنٍ، فاعتمدوا على ذلك وعقدوا معاهدة في نفع الجهتين المهمتين فعلى موجب ذلك رئيس الجمهورية الفرنساوية سمّى وكيله مسيو الجنرال برياد الذي يتفق مع حضرة الباي السامية على الشروط الآتية:

أولاً: المعاهدات الصلحية والودادية والتجارية وغيرُها الموجودة الآن بين الجمهورية الفرنساوية وحضرة الباي يتحتم تقريرها واستمرارها.

ثانياً: ليسهل لدولة الجمهورية إتمام الطرق للتوصل إلى المقصود الذي يعني الجهتين العظيمتين بحضرة الباي ترضى بأن الحكم العسكري الفرنساوي يضع العساكر في المواضع التي يراها لازمة لتقرر وترجع الراحة والأمان في الحدود والشطوط وخروج العساكر يكون عندما يتوافق الحكم العسكري الفرنساوي والتونسي على أن الدولة التونسية تقدر على إقرار الراحة.

ثالثاً: دولة الجمهورية تتعهد لحضرة الباي بأن يستند عليها دائماً وهي تدافع عن جميع ما يتخوف منه لضرر ما في نفسه أو في عائلته أو فيما يحير دولته.

رابعاً: دولة الجمهورية الفرنساوية تضمن في إجراء المعاهدات الموجودة الآن بين دولة تونس والدول المختلفة الأروباوية.

خامساً: دولة الجمهورية الفرنساوية تحضر نحو حضرة الباي وزيراً مقيماً لينظر في إجراء هاته المعاهدة وهو يكون واسطة فيما يتعلق بالدولة الفرنساوية وذوي الأمر والنهي التونسيين وفي كل الأمور المشتركة بين المملكتين.

سادساً: أن النواب السياسيين والقناصل الفرنساويين في الممالك الخارجية يتوكلون ليحموا أشغال تونس وأشغال رعيتها في مقابلة هذا فحضرة الباي تتعهد بأن لا تعقد معاهدة عمومية من غير أن تعلم بها دولة الجمهورية ومن غير أن يَحْصُلَ على موافقتها من قبل.

سابعاً: دولة الجمهورية الفرنساوية ودولة حضرة الباي أبقوا لأنفسهم الحق في أن يؤسسوا ترتيباً في المالية التونسية ليمكن لهما دفع ما يلزم الدين التونسي العام وهذا الترتيب يضمن في حقوق أصحاب الدين التونسي.

ثامناً: إن غرامة الحرب يُغصب عليها القبائل العصاة بالحدود والشطوط وتفعل دولة الجمهورية مع حضرة الباي فيما بعد شروطاً على كميتها وكيفية دفعها ودولة حضرة الباي تضمن في ذلك.

تاسعاً: للمدافعة على منع إدخال السلاح والآلات الحربية للمملكة الجزائرية الفرنساوية فدولة باي تونس تتعهد بأن تمنع دخول الأشياء المشار لها من جزيرة جربة ومرسى قابس وسائر المراسي الجنوبية في المملكة.

عاشراً: إن هاته المعاهدة توضع لدى رضا الدولة الجمهورية الفرنساوية وترجع في أقرب وقت ممكن لحضرة الباي السامية.

حرر في 12 ماي 1881 بالقصر السعيد الإمضاء محمد الصادق بـاي والجنرال برياد.

والذي يؤكد صدق التواطؤ من قبلُ أن الوالي طلب ظاهراً من نواب فرنسا وهما أمير العساكر والقنصل أن يمهلاه مدة للتأمل من حالة الشروط فأجابه القنصل بأنه لا داعي إلى ذلك حيث أن الشروط عند وزيرك من مدة وتأملتها أنت وهو لم يبق إلا الإمضاء ويؤيده أيضاً أن رئيس المجلس البلدي السيد محمد العربي زروق أحد أعضاء مجلس الشورى أصرّ على عدم الموافقة على إمضاء الشروط وألح على الوالي بذلك عند جمعه للمجلس وأمير عسكر فرنسا منتظر لانبرامها ونصحه بأن ما يخشى منه بعدم الإمضاء سيقع لا محالة بُعيْد الإمضاء فالتمسك بالبراءة الأصلية أسلم وأشرف وعورض بأنه قد علم أن الوالي إذا لم يصحح يولي الفرنسيس عوضه أخاه الثالث (محمد الطيب باي) لأنهم أكدوا أنّ له اتفاقاً مع الفرنسيس فأجابه بأن جميع الأهالي لا تطيع الوجه المذكور وعلى فرض قهرهم يكون الوالي على شرفه وربما اضطرت الدول إلى التداخل بوجه يحسن الحال، فلم يلتفت لكلامه وعزل إثر ذلك من جميع وظائفه وجعلت عليه مراقبة في داره وحجر عليه مخالطة الناس وتحقق مزيدَ الإضرار به إلى أن احتمى بقنصلية إنكلترة وسافر عن وطنه وأقام بالأستانة.

ويشهد صراحة للتواطؤ ما صرّح به البارون بيانك الفرنساوي في تشرين الأول سنة 1881 بما وقع في هاته المسألة وأنه كانت أرسلته دولته حيث كان أحد مأموري الوزارة الخارجية لاستقراء أمر تونس وذلك في كانون الثاني سنة 1881 وأن الوالي أجاب إذ ذاك فرنسا بأنه يقبل الشروط إذا كان الواسطة فيها هو فرديناند لسبس لأنه كان يؤمل بواسطة المذكور الحصول على شروط أوفق له وأن الشروط إذ ذاك كانت غير التي قررت الآن ومع ذلك كله لم تُعْلم الدولة العلية بشيء وبه يعلم صدق الكلام في إضمار الوزير التونسي الشر للبـلاد ولي بالخصوص حيث دافعت عن الحق ونصحته بما يقتضيه الدين والأمانة ثم كانت فاتحة أعمال النائب لفرنسا عند إمضاء المعاهدة أن طلب من الوالي نفي علي بِالزي حالاً لكي لا يُبيح بما وقع من الأسرار التي اطلع عليها فنفي إلى حصن

قابس ثم توجه الوزير ابن إسماعيل إلى باريس في سفينة فرنساوية حربية شاكراً لإنعام فرنسا بتلك المعاهدة ومعلناً لها بأنه يصدق في خدمتها أزيد مما كان يبذله سابقاً كذا في عبارته الرسمية عند ملاقاته رئيس الجمهورية المنشورة في الصحيفة الرسمية فقلدته فرنسا بأكبر نيشان لها مع الشريط الأكبر ورجع إلى تونس ولم يلبث بضع أشهر حتى ورد الأمر على الوالي من وزير فرنسا بعزل وزيره ابن إسماعيل لأن نائب فرنسا بتونس توجه إلى باريس وتفاوض مع دولته فيما يسلكونه في تونس حيث إن الأعراب والجهات الجنوبية أعلنوا بأن الوالي لما بغى على الدولة العثمانية بدخوله تحت حماية فرنسا فهم لا يطيعونه لأنهم بايعوا أمير المؤمنين سلطان الدولة العثمانية قديماً وحديثاً فلا يحل لهم الخروج عليه، وهرب على الوالي جميعُ عساكره فاضطرت فرنسا لتعبية الجيوش لتطويع الأعراب، وكان من جملة التدبير عزل ذلك الوزير الذي توقعوا منه أن يفعل معهم مثل ما فعل مع البلد الذي وصل فيها إلى تلك الدرجة وتحقق الوزير ما ضرب من المثل بوزارة العلقمي وإن كان هذا أي ابن إسماعيل قد امتاز بجميع خزائن أمراء تونس حتى كان آخرُ ما بقي للوالي من مفاخر الجواهر عقدَ لؤلؤ منظم سبحة بها مائة حبة مع حلية زمرد محاط بها الياقوت الأبيض، فأعطاهما إليه عند سفره لباريس بعد العزل المذكور ورام بسفره إرضاء فرنسا عليه وإرجاعه إلى الوزارة وبقيت البلاد إلى الآن في حيرة واضطراب ودخلت العساكر الفرنساوية إلى قصبة الحاضرة وإلى منازل العساكر في المدينة وأمام قنصلية فرنسا وسكن رئيس العساكر الفرنساوية بدار المملكة في بطحاء القصبة وصارت الحكومة لا تتصرف في شيء إلا بأمر الوزير الفرنساوي سواء كان في الداخلية أو في الخارجية، وتفاقم الضرر بولايات غير الأهل في الوظائف بوسائل غير مرضية، وعظم الكرب على القبائل والبلدان بما حصل فيها من العساكر الذين أقاموا بالقيروان وسوسة وهدموا صفاقس وخرجوا من قابس بعد دخولها وعادوا إليها. ونسأل الله تعالى أن يتدارکنا بألطافه وبحسن العاقبة.

ومما ينبغي التنبه إليه هنا أن الأحوال السياسية التي أشرنا إليها مع الدول سيما مقاصد ألمانيا لا يمكن أن تخفى على أمة عاقلة مثل الفرنساويين فكيف مع

ذلك أقدموا على تبوّؤ تونس مع كون الفائدة التي تحصل لهم منها لا توازي ما ذكر سيما إذا كان المعاهدة مع تونس التي ذكرناها تجري حقيقة على ظاهرها فالجواب أن كثيراً من عقلاء الفرنسيين قد نددوا على دولتهم وما زالوا في الاعتراض عليها لكنها بعد الوقوع في الأمر المتسبب عن تهور ممن بيدهم مقاليد السياسة حتى اتهمهم مضادوهم من نفس الفرنسيين بأن لهم في ذلك أرباحاً ذاتية من التجارة في الرقاع الدولية ومَوَّهُوا على العامة بالانتصار لحفظ ناموس فرنسا، فبعد ذلك صعب على الدولة إهمال سعيها ما خسرتـه من الأموال المتجاوزة مائة مليون ومن الرجال الذين ماتوا بالحرب مع الأعراب والأمراض المتجاوزين خمسة وثلاثين ألفاً فرأت فرنسا التحفظ على ما وقع مع السعي في حسن السلوك الذي يخفف أو يدفع عنها الغوائل المنتظرة ثم وراء ذلك أمر مهم جداً لفرنسا وهو طمعها في إحداث مملكة عظيمة في إفريقيا مثل ما للإنكليز في الهند فتريد أن تمتد من الجزائر إلى ما جاورها شيئاً فشيئاً إلى أن تصل إلى دواخل إفريقيا والسودان وتصل بين شاطىء إفريقية الغربي في سانيغال والشرقي في الجزائر وتونس حتى رسمت جمعية فرنساوية رسماً لخط الحديد في ذلك ولو يتم هذا يكون لفرنسا شأن عظيم غير أن القياس على الهند الإنكليزي هو قياس مع الفارق لا من جهة سياسة الفرنساويين في مستعمراتهم من حيث قلبُها إلى عوائد الفرنسيين وإناطتها الإدارة في الكليات والجزئيات بباريس ولا من حيث أخلاقُ الأمم المستوطنين بإفريقية والمستوطنين بالهند، وإن شئت الوقوف على برهان ذلك فانظر ما حررناه في أحوال الجزائر وفي أحوال الهند وفي سياسة كل من الدولتين تتبين لك حقيقة الحال وبما ذكرناه هنا يندفع الاعتراض على ما ذكرناه في سياسة تونس الخارجية من كون فرنسا لا تريد الاستيلاء عليها مع كون أعمالها ناقضت ذلك وشرح الدفع يؤول إلى أن الحامل لدولة فرنسا على مخالفة ما سبق من مقاصدها في تونس شيئان أحدهما سياسي ظاهري والآخر خصوصي باطني، فالباطني هو المشار إليه بما وقع من التهمة في نفع الأفراد الذي يأتي له مزيد شرح في مبحث الأحكام، والظاهري هو أن الدول قد تغيرت أفكارهم بالنسبة لمحافظة الدولة العثمانية منذ عقد معاهدة برلين فدلت أعمالهم على أن

من ناسبه شيء منها وكانت له قدرة على حوزه بادر إليه وغَضَّ عنه النظر بقيتهم إذا كان المَحُوز أكثرَ مناسبة بالحائز وقد علمت مقاصد فرنسا في تونس ورأت أن إيطاليا لها من المقاصد والمناسبات ما يزاحمها ثم رأت سيرة ابن إسماعيل وأنه غير أمين فلا يبعد أن يفعل مع إيطاليا أو غيرها من الدول ما فعل معها لخوف أو طمع مع تيسر إجراء الأمور بواسطته فانتهزت الفرصة خوفاً على درجة نفوذها فبادرت قبل أن تبادر إيطاليا. ومن المعلوم أن السياسة تدور مع الأحوال الحاضرة ولله عاقبة الأمور».

إلى هنا انتهى الذيل الذي كتبه صاحب الصفوة.

ما بعد الحماية

لم يحدث في المدة التي أعقبت الحماية حوادث ذات أهمية لقصرالمدة التي ما بين الاحتلال وانتقال مُوَقِّع الحماية إلى الدار الآخرة.

ومن المتوقع أن معاهدة المرسى كانت مهيأة لأن يوقعها موقِّع معاهدة باردو وإنما عاجلته المنية أو هي مخبأة لمن يأتي من بعده.

عاش المشير الثالث محمد الصادق باي بعد إعلان الحماية إلى سنة 1299.

وهذا ما جاء في الرائد الرسمي إخباراً بوفاته في العدد (50) المؤرخ يوم الأربعاء 20 ذي الحجة 1299.

قسم غير رسمي:

في السبت الفارط 16 ذي الحجة (1299) فجع القطر التونسي وتزعزعت أركانه بفقد غرة جبينه، وصادقه وأمينه، المولى الجميل الذكر المشير محمد الصادق باشا باي هطلت عليه سحائب الرحمة والرضوان، وأسكنه فسيح الجنان، وقد أسفت السكان على اختلافهم من فقده وأفول بدره، برد الله ثراه وأولاه من نعيم الجنة ما أولاه.

وجاء في نفس العدد المذكور:

(هذا ولما بلغ نعيه مسامع صنو الشجرة الحسينية الثابتة الأصل المباركة المولى المعظم الأرفع سيِّدنا علي باشا باي أقبل للجلوس على الدَّسْتِ الحسيني وقبول المبايعة الخاصة حيث كان ولي عهد المقدس.

وعندما وصل جنابه إلى سراية المرحوم انعقد موكب خاص حسب العادة المألوفة فيما بين الآل الحسيني مؤلف من جنابه أيده الله والوزير الأكبر، وبقية الوزراء الفخام، والمجلسَ الشرعي وبايعه الحاضرون.

وقد حضره الهمام الأفخم مسيو كامبون وزير الدولة للجمهورية الفرنسية المقيم بحاضرة تونس وتلا خطاباً بالنيابة عن دولته المحترمة وتأتي ترجمته).

ولما لهذا الخطاب من أهمية توضح مرامي فرنسا في ابتلاع النفوذ التونسي بعنوان إجراء الإصلاحات التي كانت خطوتها الأولى معاهدة المرسى ننشره توضيحاً لخطى الحماية الفرنسية التي أرادت ذَوَبان الذاتية التونسية خطوة خطوة، ولولا لطف الله تعالى بالحصول على الاستقلال لاضمحلت الأمة التونسية.

ونصه:

قد جئت أنا (أي كامبون) في حق الجمهورية الفرنسوية الحبيبة الحامية للمملكة التونسية نشارك حضرتكم في الحزن الذي أصابكم في أعز أوديكم ـ كذا ـ.

ونغتنم فرصة ولايتكم لنحقق احترامي وصداقتي لحضرتكم.

ونعرف حضرتكم باليقين أنها تقْدر أن تستند على فرنسا كذلك.

والدولة الفرنساوية تعتمد على العلاقة المشهورة التي برهنت بها حضرتكم عند الموافقة بجوار عساكرنا.

وإحساس هذه الثقة التامة الموجودة ما بين الدولتين في بعضهم بعضاً يعجل ـ وهذا عندي محقق ـ إجراءَ الإصلاحات اللازمة للغاية.

وما عطل حضرة محمد الصادق على شروعها إلا حضور أجله.

وبحول الله يعود لهذه البلاد غناها وثروتها السابقة.

هذا هو الدعاء الذي ينفتح به مُلْك حضرتكم، وهذا هو المرغوب الذي دائماً نعين حضرتكم لاتصاله فيما يخصني، وأنا جاعل نُصب عيني فائدة العامة من دون التفات إلى اختلاف الأجناس لهذه الأمة التي منذ اليوم ترأسها حضرتكم والتي فرنسا تحامي عليها.

وأجاب الأمير علي باي على هذا الخطاب بما لفظه

نستكثر خير الدولة الفخيمة الجمهورية كثيراً على ما نتحققه من وثيق صداقتها، وخير جنابكم الذي نتحقق جميل وساطته.

وبجانب هذا الخطاب نجد فقرة كتبها أحدهم بهامش نسخة من النزهة الخيرية توضح كيف أن المتولي الأول في عهد الحماية لم يتقدم للإمارة إلا بعد أن توثق منه المقيم العام بأنه ملزم بتوقيع المعاهدة التي تعتزم عقدها فرنسا.

وهذا نص ما كتبه بعضهم في النزهة الخيرية لسنة 1299 تعليقاً على اسم الباي:

توفي سيدنا محمد الصادق باشا باي ليلة السبت السادس عشر من ذي الحجة الموافق للسادس من أكتوبر سنة (1299) على أن عمره تسعون سنة والصواب أن عمره سبعون سنة كاملين ـ كذا ـ).

وفي صبيحة السبت توجه كامبون وزير فرنسا المقيم بالحاضرة، والسيد محمد الوزير الأكبر، والشيخ العزيز بوعتور باش كاتب إلى سانية علي باي بالمرسى وعزوه في أخيه، وطلبوا منه القدوم معهم إلى باردو، فقدم مع كامبون وأولاه عوض أخيه على شروط شرطها عليه، وقبلها منه وتركا في السراية منفردين ما يقرب من أربع ساعات منفردين للمفاوضة لقبول البيعة من الحاضرين.

ثم قبل الزوال بنصف ساعة خرج مصاحباً لكامبون عن يمينه وأجلسه على الكرسي وقبل البيعة قرأها إلياس بالنيابة عنه قبل جلوسه.

هذا التعليق لم يذكر كاتبه اسمه والظاهر أنه من المتصلين بالحكومة ومن خواص الصادق باي، وتعليقه هذا يشرح لنا كيف جلس علي باي على دست الإمارة وأنه لم يجلس إلا بعد توثق كامبون من أنه لا يمانـع فيما يملى عليه في المستقبل.

الأمير علي باي
1299 ـ 1320

افتتح عهده باستقالة الوزير ـ محمد ـ بفتح الميم ـ خزنة دار واستقالته مبنية على ما رآه من مرامي فرنسا لابتلاع الذاتية التونسية.

فبعد أسبوع من جلوس هذا الأمير قدّم الوزير المذكور استقالته.

جاء في الرائد التونسي عدد 51 سنة 24 بتاريخ يوم الأربعاء 27 من ذي الحجة (1299) ونوفمبر (1882) تحت عنوان:

استعفاء جناب الوزير الأكبر سيدي محمد وبعد الإشادة بأعمال هذا الوزير جاء خبر تولي خَلَفِه:

وفي يوم السبت الفارط دعا مولانا جناب أمير الأمراء الشيخ سيدي محمـد العزيز بوعتور فقلّده الوزارة الكبرى.

وكانت فاتحة الأعمال معاهدة المرسى في أواخر جمادى الثانية من سنة 1300 وفي 8 ماي من سنة 1883.

خولت هذه المعاهدة حق الحماية للدولة الفرنسية بفصلها الأول الناص على أن الغرض هو إتمام الحماية لذلك يتكفل الباي بإدخال الإصلاحات الإدارية والعدلية التي ترى حكومة فرنسا الفائدة في إدخالها.

لذلك كانت الحكومة التونسية بالباي والوزير الأكبر آلة تنفيذ لما تراه الحكومة الفرنسية من تقييد للحكومة التونسية بعنوان الإصلاحات.

ولم تمضِ إلا مدة وجيزة على معاهدة باردو حتى استصدرت الحكومة

الفرنسية أمراً من الباي في إنشاء الكتابة العامة كما في منتخبات الرائد التونسي المبدوءة من 1299 إلى 1300 ويوافق التاريخ المذكور لإصدار أمر الكتابة العامة 4 فيفري سنة (1883) ومن ذلك الحين والسلطة التونسية في ذوبان والسلطة الفرنسية في تركيز وتثبيت إلى أن جاءت الخطوة الحاسمة بالاستقلال.

وهذا الباي من أطول الملوك الحسينيين عمراً إذ عمره (87) سنة فقد ولد سنة (1233) وتوفي سنة (1320).

ابنه الأمير محمد الهادي باي
1320 ـ 1324

كان فيه انكماش عن فرنسا مما أدى إلى نفار بينه وبين بعض رجال دولته.

وقد أراد هذا الأمير الأخذ بيد العلوم الإسلامية فحضر بعض أختام الحديث سنة ولايته، واعتنى بطبع بعضها وهي التي ختم بها سنة (1320).

الأمير محمد الناصر باي
1324 ـ 1340

عاش هذا فترة من التاريخ التونسي تعد من فتراته الانتقالية سواء بالنسبة لتونس خاصة أو بالنسبة للعالم.

أما بالنسبة للعالم فقد نشبت الحرب العالَمية الأولى في سنة (1914 ـ 1918) التي شاركت فيها أكثرية من دول العالم وانقسم المتحاربون فيها إلى قسمين الحلفاء ودول الوسط تتزعمهم ألمانيا.

ونتج عن هذه الحرب وجود دول عربية، وبدأ العالم العربي يعتمد على نفسه دون الاتكال على الخلافة التي انتهى أمرها (1924 م).

كما أن مبادىء ولسن الرئيس (27) الأربعة عشر التي أعلنها في سنة (1918) م والتي منها حق تقرير المصير حركت مشاعر الحرية.

وأما بالنسبة لتونس فإن هناك نهضة نشأت من عوامل مختلفة منها:

- التحاك بالغرب.

- والنهضة العربية التي أيقظتها الأحداث فأرادت مسايرة ركب الحضارة.

- وسقوط الخلافة الذي بعث هزة في تونس حيث أدرك التونسيون أنه لا اعتماد للشعوب إلا على نفسها.

- والتأثر بالحركات الوطنية في الخارج.

- الحركة التونسية في الخارج التي ابتدأها الشيخ إسماعيل الصفائحي (- 1337) والشيخ صالح الشريف (- 1338)، ومحمد باش حانبة (- 1336).

ومن الأحداث في مدة هذا الأمير بدء الحركة السياسية فقد تأسس الحزب الحرّ الدستوري اختفاءً ثم إعلاناً.

- ومن بواكير أعماله وفد الأربعين الذي أعلنت فيه المطالب التونسية وأم هذا الوفد الأمير محمد الناصر باي.

وتكلم عن وفد الأربعين الزعيم التونسي الجزائري أحمد توفيق المدني في مذكراته حياة كفاح فقال ما ملخصه:

لم يكن من المنطق السليم أن يذهب الوفد التونسي إلى باريس لعرض رغائب تونس دون أن يقع عمل مشابه لذلك لعرض القضية على سمو باي تونس وإشراكه في المسؤولية.

وتركب الوفد من مجموعة تمثل كافة طبقات الشعب التونسي.

ثم يقول:

وقد أسندت رئاسته لعالم من أكرم العلماء ومدرس من أفضل المدرسين هو الشيخ الإمام محمد الصادق النيفر الذي أشهد أنه أبلى البلاء الحسن وناضل النضال المجيد... في سبيل القضية التونسية[1].

---

(1) حياة كفاح (ج 1 ص 180).

وأعلن وفد الأربعين المطالب التونسية في 2 شوال سنة 1338 وفي 19 جوان سنة 1929.

وسافر في شهر جوان من السنة المذكورة الوفد الأول الدستوري الممثل للجنة التنفيذية.

فتشكلت الحركة بشكل حركة منظمة منبعثة للعمل في الداخل والخارج، وقد نبهت المستعمر أن الشعب التونسي ليس بالشعب النائم، إذ أخذ ينفض عنه ما تراكم من تلك القرون المظلمة فأصبح يحسب له حسابه.

الأمير محمد الحبيب باي
1347 ـ 1340

من أهم الأحداث في مدته أنه بادر إلى التوقيع على الإصلاحات التي قدمها له المقيم فيما يخص تعويض المجلس الشوري بمجلس يسمى المجلس الأكبر.

والفرق بين المجلسين غير كبير فمجلس الشورى كان يتركب من قسمين فرنسي وأهلي هكذا كانوا يعبرون عن القسم التونسي.

ويتركب القسم الفرنسي للمجلس الشوري من (36) عضواً.

والقسم التونسي المعبر عنه بالأهلي من (16) عضواً يعينون كل أربع سنوات.

وانظر أسماء الأعضاء التونسيين في السنة الحادية عشرة من الرزنامة التونسية ص 142.

وأما المجلس الأكبر فأعضاؤه الفرنسيون (44) والتونسيون (18).

وجاءَ تفصيل تركيب المجلس التونسي المسمى بالأهلي في السنة الأولى للتقويم التونسي ص (47) وكان التوقيع على هذه الإصلاحات في 13 جويلية سنة (1922).

وثارت حول هذه الإصلاحات ضجة كبرى بسبب النظرة إليها، وبسبب دخول بعض الوطنيين في انتخابات هذا المجلس.

واسم هذا المجلس (مجلس المملكة التونسية الأكبر).

الأمير أحمد باي
1347 ـ 1361

في طالعة ما حدث في مدته تأسيس الديوان السياسي الذي كان الطريق إلى الاستقلال التام.

وابتدأت الحركة التي نتج عنها تأسيس الديوان السياسي وهي ناتجة عن حدثين هامين فيهما طعن للإسلام وطعن للوطن.

الحادث الأول المؤتمر الأفخارستي بعاصمة تونس في سنة (1348) (1930) الذي تبرأ من المشاركة فيه شيخ الإسلام الحنفي ورئيس المفتين المالكي.

والحادث الثاني هو ذكرى الاحتلال لتونس الذي لم يتم.

وفي سنة (1932) أسس الأستاذ الحبيب بورقيبة جريدة (العمل التونسي).

وتبلورت الحركة الوطنية بتأسيس الديوان السياسي (1352) وفي مارس (1934).

الأمير المنصف باي
1361 ـ 1362

هو أول أمير خلع حياً من الأمراء الحسينيين خلعته السلطة الفرنسية إثر دخول الحلفاء إلى تونس، ونفي إلى الخارج.

ويمتاز هذا الأمير بأنه تزعم الحركة الوطنية في مدة إمارته.

وتوفي في منفاه في (بو) سنة (1367) (1948).

الأمير محمد الأمين باي
1362 ـ 1376

جرى في عهده كثير من الأحداث حيث إن الشعب التونسي كان شعباً ناضجاً فمن أهم هذه الأحداث.

نهضة الزيتونة:

فقد تقدمت الزيتونة التي أصبحت تتمتع بمثل ما تتمتع به بقية المؤسسات التعليمية لأنها كان منظوراً إليها بعين غير العين التي ينظر بها إلى المؤسسات المضطلعة بمهمة تعليمية كبرى.

الاستقلال الداخلي:

وقامت في أيامه الثورة التونسية بالمقاومة المسلحة.

وبعد جهاد محكم نالت تونس استقلالها الداخلي إذ أعلن منداس فرانس رئيس الحكومة الفرنسية استقلال تونس الداخلي، في 30 ذي القعدة سنة (1373) وفي 31 جويلية (1954).

وأعقب إعلان الاستقلال الداخلي تكوين وزارة تفاوضية لإرساء الاستقلال الداخلي ونجم عن ذلك الحركة اليوسفية لمقاومة الوضع الجديد، ولكنها لم تُعَمِّر طويلاً.

الاستقلال التام:

وأعلن الاستقلال التام في 7 شعبان (1375) و 20 مارس (1956).

افتتاح المجلس التأسيسي:

وفي 26 شعبان 1375 وفي 8 أفريل 1956 اجتمع المجلس التأسيسي لسن دستور البلاد التونسية.

وهو أول مجلس شعبي في البلاد التونسية، وكان يوم افتتاحه يوماً مشهوداً.

وانتخب الرئيس الحبيب بورقيبة رئيساً له.

وكان من مبادراته أنه أعلن في أول فصوله الأولى أن تونس دينها الإسلام ولغتها العربية.

ولكون المجلس التأسيسي أول مجلس انتخابي في هذه الديار اعتنت بذلك الصحافة اعتناءً زائداً.

من ذلك أن جريدة الزيتونة استجوبت عدداً من المرشحين لإبداء آرائهم في هذا الحدث العظيم في تاريخ تونس، وفيما سيقدمه هذا المجلس.

وكان من المستجوبين المحقق لهذا الكتاب محمد الشاذلي النيفر، وقد ركز في إجابته على أن يكون الدستور التونسي كما يأتي.

(لا مناص من أن يكون الدستور التونسي دستوراً متماشياً مع مقتضيات الزمن كما أنه يربط قافلتنا بالعالم الإسلامي والعالم العربي، ورائده الإسلام).

الزيتونة عدد 8 من السلسلة الجديدة.

أول وزارة العهد الاستقلالي:

تشكلت أول وزارة في عهد الاستقلال برئاسة الرئيس الحبيب بورقيبة وهي أول وزارة تضم ستة عشر وزيراً.

وكان وكيل رئيس الحكومة الأستاذ الباهي الأدغم.

وكان ذلك (في 4 رمضان 1375) و (15 أفريل 1956).

وتمّ على يدها في أوائل عهدها تركيز الذاتية التونسية في الديبلوماسية، والأمن والجيش، والاقتصاد والمالية، مما طوى لها مراحل في أمد قصير، ولولا تلك الخطوات الجريئة لما تمّ ذلك فإن الوزارة الاستقلالية استثمرت بعض المواقف فتوسعت في فهم وثيقة الاستقلال، وبذلك انقلب الوضع رأساً على عقب بالنسبة للدولة الحامية فانفلت زمام الأمر من يدها.

وأصبحت تونس بعد تلك الجرأة السياسية البارعة لا يقيدها قيد في استقلالها على حسب إرادتهـا لا إرادة الحامية السابقة وهي فرنسا.

إعلان الجمهورية:

أرادت تونس استكمال نظامها السياسي المختار علاوة على حريتها التي نالتها بجهادها المتواصل.

ولم يحدث يوم إعلان الجمهورية ما يصاحب عادةً الانتقالَ من نظام إلى نظام من سفك دماء، وهزات شعبية، إذ جرى إعلان الجمهورية في رحاب مجلس منتخب أعلن بالإجماع الجمهورية وإلغاء الملكية.

وعبّر الكثير من الأعضاء في الجلسة التي أعلنت الجمهورية عن آرائهم في الجمهورية يوم الخميس 26 ذي الحجة 1376 وفي 25 جويلية 1957.

وقد ساهم كاتبه في الجلسة التاريخية لإعلان الجمهورية بكلمة لخصتها كتابة الأخبار والإرشاد في كتابها الأول: ثقف نفسك في السياسة بما يلي:

فحوى كلمة الشيخ محمد الشاذلي النيفر:

(لقد جعل الإسلام الكلمة للشعب في اختيـار من يرتضيـه لحراسـة مصالحه، والذود عنها، ولهذا جعل الخلافة شورى، فقد كان المسلمون أحراراً في اختيار خليفتهم.

وقد ربى الإسلام المسلمين على أن يفهموا أن الشورى جزء لا يتجزأ من الحكومة وجزء لا ينفصم من الأمة، حتى أنه قرر مبدأ الشورى في حق من عصمه الله تعالى، وهو سيدنا محمد ﷺ.

وإن هذه الأمة حين أخذت طريقها السوي وأنقذت نفسها من استعمار غاشم قد أرادت لنفسها نظاماً يضمن لها أن تكون أمة في مصاف الأمم الناهضة بحق وجدارة.

فحين نختار اليوم النظام الجمهوري لا نرمي من وراء ذلك الاختيار إلى

أية غاية إلا أن نكيف الدولة ونبنيها بناءً لا يتسرب إليه الخلل على تعاقب الأيام).

وفي تلك الجلسة التاريخية أصدر المجلس القومي التأسيسي برئاسة جلولي فارس رئيس المجلس القومي التأسيسي القرار التالي المتضمن لإعلان الجمهورية وانتخاب رئيس لها وهو فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

نحن نواب الأمة التونسية أعضاء المجلس القومي التأسيسي بمقتضى ما لنا من نفوذ كامل مستمد من الشعب.

وتدعيماً لأركان استقلال الدولة وسيادة الشعب.

وسيراً في طريق النظام الديمقراطي الذي هو وجه المجلس في تسطير الدستور.

نتخذ باسم الشعب القرار التالي النافذ المفعول حالاً:

أولاً : نلغي النظام الملكي إلغاءً تاماً.

ثانياً : نعلن أن تونس دولة جمهورية.

ثالثاً : نكلف رئيس الحكومة السيد الحبيب بورقيبة بمهام رئاسة الدولة على حالها الحاضر ريثما يدخل الدستور في حيِّز التطبيق ونطلق عليه لقب رئيس الجمهورية التونسية.

رابعاً : نكلف الحكومة بتنفيذ هذا القرار وباتخاذ التدابير اللازمة لصيانة النظام الجمهوري كما نكلف كلاً من رئيس المجلس والأمين العام لمكتب المجلس والحكومة بإبلاغ هذا القرار إلى الخاص والعام.

أصدرناه في قصر المجلس بباردو يوم الخميس في 26 ذي الحجة سنة 1376 وفي 25 جويلية سنة 1957 على الساعة السادسة مساءً.

جلولي فارس

رئيس المجلس التأسيسي

ختمت الملكية بتونس في آخر سنة 1376 وانتقلت البلاد إلى العهد الجمهوري برئاسة فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة رئيسها الحالي أجرى الله على يديه الخير موفقاً لما فيه رضاه بنهضة إسلامية لهذه البلاد مركز الإشعاع الإسلامي.

الوزارة التونسية

رأت البلاد التونسية تقلبات متعددة في أطوار مختلفة فبعد أن كانت عضواً في الخلافة الإسلامية سواءً في الطور الأموي، أو الطور العباسي استقلت استقلالاً داخلياً من الخلافة العباسية، إلى أن انفصلت عن الخلافة وأصبحت دولة تناوي الدولة العباسية وفي ذلك الطور كان هيكل الدولة مكتملاً بكل رجال الدولة.

وجاءت صِنهاجة بنظامها، وكذلك الدولة الحفصية إلى أن رزحت تونس تحت الحماية الإسبانية، ثم جاءت الدولة العثمانية فأصبحت البلاد التونسية ولاية عثمانية ففقدت المقومات التي للدولة، ومنها الوزراء.

ثم أخذت تونس تسترجع سيادتها في البُوتَقَةِ العثمانية إلى أن تكونت الدولة التونسية بالإمارة والوزارة والمعروف أن الوزارة المتصلة بالعهد الحاضر ابتدأت في إمارة الأمير علي بن حسين باي الذي تولى الإمارة من سنة (1172) إلى سنة (1196).

ومن المفيد ذكر رؤساء الوزارات بتونس منذ عادت الوزارة في تونس إلى العصر الذي نعيشه اليوم وهو العام الأول من القرن الخامس عشر (1401).

	مدة الولاية		سنة الوفاة
1) مصطفى خوجة	1172 ـ 1196		1215
2) يوسف صاحب الطابع	1196 ـ 1230	استشهد في	1230
3) العربي زروق أول وزير في العهد التركي من أبناء البلاد	1230 ـ 1238	قتل سنة	1238

4) حسين باش مملوك	1238 ـ 1245		1274
5) شاكير صاحب الطابع	1245 ـ 1253	قتل سنة	1253
6) مصطفى صاحب الطابع	1253 ـ 1256		1277
7) مصطفى خزندار	1256 ـ 1290		1295
8) خير الدين باشا	1290 ـ 1294		1308
9) مَحمد خزندار (1)	1294 ـ 1295		
10) مصطفى بن إسماعيل	1295 ـ 1298		1327
11) مَحمد خزندار (الوزارة الثانية)	1298 ـ 1300		
12) الشيخ محمد العزيز بوعتور	1300 ـ 1325		1325
13) محمد بن فرحات الجلولي	1325 ـ 1326		1326
14) يوسف جعيط	1326 ـ 1333		1333
15) الطيب بن حسين الجلولي	1333 ـ 1340		
16) مصطفى دنقزلي	1340 ـ 1345		1345
17) خليل أبو حاجب	1345 ـ 1350		1948 م
18) الهادي الأخوة	1350/ 1932م 1942م		
19) محمد شنيق (1)	1362/ 1943م		
20) صلاح الدين البكوش (1)	1943م ـ 1947م		
21) مصطفى الكعاك	1947 ـ 1950		
22) محمد شنيق (2)	1950م ـ 1952م		
23) صلاح الدين البكوش (2)	1952م ـ 1954م		
24) محمد الصالح مزالي	1954م ـ 1954م		

وفي المدة التي استقالت فيها وزارة محمد الصالح مزالي إلى المدة التي تشكلت فيها وزارة التفاوض كان هناك موظفون يباشرون المهمات الوزارية إلى أن تشكلت الوزارة التفاوضية برئاسة:

25) الطاهر بن عمار (1) 8 ذي الحجة 1373 و 7 أوت 1954م

وهي أول وزارة تونسية صرفة تتركب من عشرة وزراء وهي التي تولت المفاوضة مع الحكومة الفرنسية في شأن الاستقلال الداخلي.

وكان التفاوض المؤدي إلى حل الأزمات مع رئيس الديوان السياسي الحبيب بورقيبة.

- ورجع الرئيس إلى تونس 10 شوال 1374 وفي غرة جوان 1955م.

وفي 29 المحرم 1375 و 17 سبتمبر 1955م تألفت وزارة التفاوض الثانية من:

26) الطاهر بن عمّار (2).

وتركبت من اثني عشر وزيراً.

- وسعى الديوان السياسي في إتمام خطواته الحاسمة لنيل الاستقلال التام فاستؤنفت المفاوضات إلى أن انتهت بالاستقلال التام في التاريخ المتقدم، وبذلك انفسح الجو أمام العمل، فلهذا تكونت الوزارة الاستقلالية.

وقد تشكلت في 4 رمضان 1375 و 14 أفريل 1956 م.

وهي تتركب على الصفة الآتية:

27) الرئيس الحبيب بورقيبة

وزير أكبر رئيس الحكومة ووزير الدفاع والخارجية

والأستاذ الباهي الأدغم وكيل رئيس الحكومة

الوزارة التونسية في العهد الجمهوري:

ونظمت الوزارة التونسية في العهد الجمهوري بالقانون الصادر في 30 ذي الحجة سنة 1376 وفي 29 جويلية سنة 1957م بإثر إعلان الجمهورية.

واقتضى هذا التنظيم المعلن بإثر إعلان الجمهورية حذف أسماء الوزارات وعوضت بكتابات للدولة وأصبح المجلس تحت رئاسة فخامة رئيس الجمهورية.

وفي 20 جمادى 2 سنة 1378 و 31 ديسمبر 1958م وقع تعديل في كتابات الدولة فأصبحت اثني عشرة كتابة دولة.

وفي 7 نوفمبر سنة 1969م أرجع لقب الوزارة وكان على رأس هذه الوزارة

28) السيد الباهي الأدغم الوزير الأول

ثم في يوم الأحد 16 رمضان 1390 و 15 نوفمبر سنة 1970م تشكلت وزارة الاستقرار وكان تأليفها برئاسة:

29) السيد الهادي نويرة الوزير الأول

ثم في 8 جمادى الثانية 1400 الموافق لـ 23 أفريل 1980 شكل الوزارة:

30) السيد محمد مزالي الوزير الأول

وهذه الوزارة حققت لتونس أمنيتها الغالية في التقدم بالديموقراطية خطوة عملاقة، علاوة على ما تقدمت فيه من إنجازات تسير بالأمة التونسية إلى مصاف الأمم الراقية.

وفي 1 ذي القعدة 1406، الموافق له 8 جويلية 1986 أقال رئيس الجمهورية الحبيب بورقيبة السيد محمد مزالي من مهامه كوزير أول وأمين عام للحزب وتمّ تعيين:

31) السيد رشيد صفر وزيراً أول،
وأميناً عاماً للحزب

ثم في 9 صفر سنة 1408، الموافق له 2 أكتوبر 1987 قرر رئيس الجمهورية الحبيب بورقيبة إعفاء السيد رشيد صفر من مهامه كوزير أول، وأمين عام للحزب وتعيين:

32) السيد زين العابدين بن علي وزيراً أول،
وأميناً عاماً للحزب.

ابتدأ عهد التفتح بتخلي الرئيس الحبيب بورقيبة عن مهامه بسبب أن حالته

الصحية لم تعد تسمح له بمباشرة الوظائف المنوطة بعهدته كما أفاد ذلك البلاغ الطبي.

وبمقتضى الفصل (57) من دستور الجمهورية التونسية تولى فوراً منصب رئاسة الجمهورية الوزير الأول سيادة زين العابدين بن علي، وذلك في 15 ربيع الأول سنة 1408، الموافق له 7 نوفمبر 1987.

وقد قرر سيادته تشكيل الحكومة الجديدة.

33) السيد الهادي البكوش وزيراً أول

وفي 26 صفر 1410، الموافق له 27 سبتمبر 1989 تَمَّ تعيين من سيادة رئيس الجمهورية.

34) السيد حامد القروي وزيراً أول

الملحق (7)
تاريخ تأسيس جامع الزيتونة

بناء جامع الزيتونة وتسميته

نسب المؤلف في كلمته بناء جامع الزيتونة إلى حسان بن نعمان الذي تولى إمارة إفريقية من سنة (78) إلى سنة (83)، لما دخل تونس سنة (79) وعقب على تأسيس حسان بأن عبيد الله بن الحبحاب أتمّ بناء جامع الزيتونة سنة (141).

وأخذ المؤلف أن إتمام البناء سنة (141) مما رسم على أحد أقواس الجامع من لفظ (اعلم) الذي عدده بحساب الجمل (141).

وما أتى به المؤلف هنا من تاريخ جامع الزيتونة اختلط عليه فيه الأمر فإن حسان بن النعمان لم يدخل إفريقية سنة (79) بل دخل إفريقية سنة (78).

ثم إن عُبيد الله بن الحبحاب لم يبق بإفريقية إلى سنة (141) وما أتى به لم يذكره أحد من المؤرخين فكلهم يذكر أنه بناه إما سنة (114) أو سنة (116) وهي سنة دخوله إلى إفريقية ويدعو المقام إلى تحرير تاريخ تأسيس الزيتونة لأن هذا الكتاب مبني على تاريخ أئمته وعلمائه فمن جزيل الفائدة أن نحرر متى كان تأسيسه وما يتبع ذلك.

يتراءى للمؤرخ الباحث تساؤلات عدة منها:

من أسسه أولاً؟

تاريخ ابتداء تأسيسه؟

لماذا اختار ابن الحبحاب تونس لبناء مسجده؟

هل كان يسمى جامع الزيتونة منذ تأسيسه؟

1) مؤسسه:

جزم المؤلف أنه حسان بن النعمان وليس له في ذلك ما يستند إليه من شيء صحيح، فهذه كتب التاريخ التي هي الأمهات لتاريخ المغرب تذكر أن الباني هو عُبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية.

ونجد هذا المستند التاريخي عند البكري في كتابه المسالك والممالك (ـ 487) ففيه:

«ودَوْرُ مدينة تونس أربعة وعشرون ألف ذراع، وفي سنة أربع عشرة ومائة بنى عبيد الله بن الحبحاب الجامع، ودار الصناعة بمدينة تونس».

ونحو هذا المستند التاريخي في البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي من رجال القرن السابع حين يذكر ولاية عبيد الله بن الحبحاب إفريقية والمغرب كله:

«وهو مولى بني سلول، وكان رئيساً نبيلاً، وأميراً جليلاً بارعاً في الفصاحة والخطابة، حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها. فقدم إفريقية في ربيع الآخر من سنة (116) وهو الذي بنى المسجد الجامع ودار الصناعة بتونس.

وكان أوّلَ الأمر كاتباً ثم تناهت به الحال إلى ولاية مصر وإفريقية والأندلس والمغرب كله.

فاستخلف على مصر ابنه القاسم، واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي، واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه إسماعيل، ثم عمر بن عبد الله المرادي» (المغرب ج 1 ص 51).

ومثل ما ورد عن ابن عذاري المراكشي، ورد عن ابن خلدون (ـ 808) ونصه:

«عبيد الله بن الحبحاب

ثم عزل هشامٌ عبيدةَ بن عبد الرحمٰن وولي مكانه عبيد الله بن الحبحاب

مولى بني سلول، وكان والياً على مصر فأمره أن يمضي إلى إفريقية، واستخلف على مصر ابنه القاسم. وسار إلى إفريقية فقدمها سنة أربع عشرة ومائة (114) ـ كذا هنا ـ وبنى جامع تونس، واتخذ لها دار صناعة لإنشاء المراكب البحرية».

(العبر، وديوان المبتدأ والخبر) (ج 4 ص 404).

ونسب ابن الشماع في تاريخه الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية بناء الزيتونة إلى ابن الحبحاب:

«وجامعها ـ أي مدينة تونس ـ مليح الصنعة، حسن الوضع مطل على البحر بناه عبيد الله بن الحبحاب، هو ودار الصناعة (سنة أربع عشر ومائة) وأنفذ إليها البحر».

وابن دينار في المؤنس (ـ 1111) اعتمد كلام ابن الشماع وبنى عليه كلامه في الباب الأول الذي عقده في التعريف بتونس. فإنه علق على قول ابن الشماع:

«وجامع تونس مليح الصنعة» إلخ...

(قلت) عبيد الله بن الحبحاب كان عاملاً لهشام بن عبد الملك بن مروان على مصر، وأرسله إلى إفريقية سنة عشر ومائة، فلما وصل إلى القيروان أخرج المستنير من السجن وأرسله إلى تونس والياً عليها. ولعلّه لم يدخل تونس.

وتقدمه البكري حيث قال ومدينة تونس دورها أربعة وعشرون ألف ذراع وذكر بناء عبيد الله بن الحبحاب.

لكن صاحب المؤنس بعدما نقل الكثير من كلام المؤرخين المتحدثين عن تونس ذكر رأياً له وهو:

وإذا ثبت ما قلته، وتقرر ما نقلته، فالذي صح عندي أنها قديمة من بناء الأوائل، والذي ذكر فتحها هو أقرب من غيره، وأن حسان بن النعمان هو الذي فتحها، وبنى بها مسجداً، وعبيد الله بن الحبحاب زاد في ضخامته كما أن

زيادة الله بن الأغلب زاد فيه وضخمه وكملت ضخامته في أيام بني حفص كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ذكر ابن أبي دينار هذه الخلاصة التي ضمنها رأيه في أن تونس قديمة وأن فاتحها هو حسان بن النعمان وأن جامع تونس المعروف بجامع الزيتونة بناه حسّان وضخمه عبيد الله بن الحبحاب وهو الرأي الذي اعتمده صاحب مسامرات الظريف لكنه زاد على ما ذكر ابن أبي دينار شيئاً وهو أن عبيد الله بن الحبحاب زاد فيه سنة (141) كما رسم على أحد الأقواس وهو غلط تاريخي لا يغتفر.

وذكر الوزير السراج في تاريخه الحلل السندسية في الأخبار التونسية في القسم الثالث من الجزء الأول:

«أن عبيد الله بن الحبحاب هو الذي أسس جامع تونس وبناه سنة (أربع عشرة ومائة).

ومما اتفق فيه أن مفرد (جامع) وتاريخه متفقان».

وخلط المؤلف هنا خلطاً ولم يتحر في التاريخ في هذا الموضع الذي هو أساس تاريخه وهو جامع الزيتونة لأنه أراد أن يؤرخ لأمته وعلمائه البارزين من المفاتي والقضاة كما قدمنا.

فلا بدّ أن نذكر ما وقع فيه من الخطأ:

أولاً : أنه نسب بناءه لحسان معتمداً ذلك تاريخاً مع أنه غير صحيح. وإنما هو رأي لابن أبي دينار صاحب المونس، وأما كافة المؤرخين فإنهم لا يذكرون إلا ما نقلناه عنهم.

ثانياً : ذكره لقدوم عبيد الله بن الحبحاب والياً على تونس على عهد هشام بن عبد الملك بن مروان وأنه أتمّ بناء جامع الزيتونة سنة إحدى وأربعين مع أن هشام بن عبد الملك انتهت خلافته سنة (125).

ثالثاً : أن ابن الحبحاب لم يل إفريقية سنة (141) بل وليها إما سنة (114) أو سنة (116).

رابعاً : أن التاريخ الذي ذكر وهو (اعلم) حسابه بالجمل (141) ليس هو إشارة إلى التأسيس إذ يبعد أن يكون مراداً به ذلك لأن حساب الجمل الآخذ به متأخر.

ومن القريب جداً أن يكون المسجد الذي أسسه حسان بن النعمان غير الذي أسسه ابن الحبحاب، ويؤيد هذا أن هناك مسجداً صغيراً بالنهج المعروف بنهج الخمسة الذي بجانب المدرسة السليمانية يتناقل الناس أنه أقدم من جامع الزيتونة. وأمام باب صخرة عظيمة يحكي المُعمَّرُون من المشايخ أن بعض العملة الذين كانوا بصدد بناء جامع الزيتونة يقسمون أجورهم عليها كالمنضدة، والله أعلم.

وهذا المسجد به أُسطوانة عظيمة عتيقة يقوم سقف المسجد عليها وعلى الجدران الأربعة.

وكان لذلك المسجد منارة هدمت قبل الاحتلال بقليل لأنها ساخ بعض جدرانها بالأرض مما أدى إلى ميلانها فأدى ذلك إلى هدمها، وكان بابها يصعد إليه من تلك الصخرة التي أمام باب المسجد.

وإنما اتخذ حسان مسجداً صغيراً لأنه لم تكن له رغبة في إقامة مدينة بقرب قرطاجنة لأن هذه الأخيرة كانت حصناً للذين يغيرون على إفريقية فلم تكن له رغبة في عمارتها.

2) تاريخ ابتداء تأسيسه:

المشتهر والمتعارف هو أن ابتداء تأسيسه كان في سنة (114) وهو ما اختاره صاحب الحلل السندسية حتى ذهب إلى أن تاريخه بحساب الجمل (جامع).

إذ الجيم بـ	3
والألف بـ	1
والميم بـ	40
والعين بـ	70
	114

وهو ما جاء في المسالك والممالك للبكري.

والبكري عمدة الكثير من المؤرخين التونسيين وهو ما ذكره ابن خلدون في كتابه العبر.

والتحقيق أن عبيد الله بن الحبحاب لم يدخل إلى إفريقية سنة (114) بل دخلها سنة (116) كما جاء في فتوح إفريقية والأندلس لابن عبد الحكم من أن هشام بن عبد الملك كتب إلى عامله على مصر بأن يسير إلى إفريقية وكان مسيره في سنة ست عشرة ومائة، وابن عبد الحكم من رجال القرن الثالث الهجري، وهو في تاريخه يعتمد السند مثل السند الذي يعتمده رجال الحديث، فكان ما يأتي به مدعماً.

وسنده هنا عن رجلين هما يحيى بن بكير، والليث بن سعد.

أما يحيى بن بكير فالصواب في اسمه أنه يحيى بن أبي بكير، وذكره ابن يونس في تاريخه بأنه:

يحيى بن أبي بكير النخعي أبو زكرياء الكوفي، قدم مصر، وحدث بها ومات بها في ربيع الآخر سنة ثلاثين ومائتين (من تهذيب التهذيب ج 11 ص 190).

وهو ليس من رجال الصحاح الستة لكن لم يكن في المجرحين فهو ممن يعتمد عليه في الرواية.

وأما الليث بن سعد فهو الإمام المصري أبو الحارث.

وعرّف به ابن حبّان في الثقات بقوله:

كان من سادات أهل زمانه فقهاً، وورعاً، وعلماً، وفضلاً، وسخاءً وعداده في الرجال الثقات العلماء قريب من مالك الإمام الكبير وقد ولد سنة (94) وتوفي سنة (175).

وقد أطال ترجمته في تهذيب التهذيب في الجزء الثامن من (ص 459) إلى (ص 465).

وإذا نظرنا إلى ترجمته نراه معاصراً لعبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية ومؤسس جامع الزيتونة، فإذا ما حدّثنا أنه سار إلى إفريقية سنة (116) وهو الرجل الثبت علمنا علم اليقين أن سنة مسيره هي (116) وبالطبع أن يكون تأسيس الزيتونة تلك السنة ويؤكد صحة ذلك أن الليث بن سعد كان إمام مصر فهو أعلم بأحوالها من غيره.

ولا يمكن أن يغلط في مسير والي مصر إلى إفريقية إذ كان ذهابه إليها وهو في سن الشباب إذ أنه كان سنه عند ذهاب ابن الحبحاب ستاً وعشرين سنة مع أنه كان من أحفظ أهل زمانه وأثبتهم، فالرواية عنه في هذه القضية تفيد القطع.

وما ذكره ابن عبد الحكم اعتمده المؤرخ الثبت ابن عذاري المراكشي صاحب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، وهو أحفل الكتب المؤرخة للمغرب والأندلس من القرن الأول الهجري حين وقع الفتح للمغرب إلى نصف القرن السابع.

اعتمده المذكور مبيناً أنه قدم إفريقية في ربيع الآخر من سنة (116) ونسب إليه كما ذكرنا بناء المسجد الجامع بتونس، وكذلك دار الصناعة والمسجد كما ذكره ابن عبد الحكم.

وعلى هذا الغرار سار ابن الأثير في تاريخه المسمى بالكامل فأتى بخبر مسيره إلى إفريقية ضمن حوادث سنة (116):

وفيها (أي سنة 116) عزل هشام عبيد الله بن الحبحاب عن ولاية مصر

واستعمله على إفريقية فسار إليها. . . وقيل بل ولي عبيد الله بن الحبحاب سنة سبع عشرة وسترد أخباره هناك، وهذا أصح.

(الكامل ج 4 ص 219).

وابن الأثير هو أبو الحسن علي بن أبي المكارم محمد عز الدين الجزري المتوفى سنة (630) ألّف كتابه خلاصة لكتب التواريخ التي في مقدمتها تاريخ الطبري، وكتابه الكامل هذا له امتياز خاص، وهو أنه جمع فيه بين تواريخ المشرق والمغرب كما أشار إلى ذلك:

(. . . والشرقي منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب، والغربي قد أهمل أحوال الشرق فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخاً احتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملال.

فلما رأيت الأمر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق، والغرب، وما بينهما ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان، متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا).

وقد انتهى ابن الأثير في تاريخه إلى حوادث سنة (628).

ووقف تاريخه عند ابتداء دخول سنة (629).

فهؤلاء العمد في التاريخ نراهم مطبقين على أن ابن الحبحاب كان دخوله إلى إفريقية في سنة (116) وبذلك لا يمكن ابتداء تأسيس مسجد تونس الجامع الذي سمي بالزيتونة إلا في تلك السنة.

3) لماذا اختار ابن الحبحاب تونس لبناء مسجده؟:

اعتاد المؤرخون أن يذكروا الحوادث دون أن يتعمقوا في الأسباب إلا في القليل النادر كما هنا فهم يقتصرون على فقرة قصيرة، وهي أن ابن الحبحاب سار إلى تونس بأمر هشام بن عبد الملك في سنة (116) وأسس مسجدها الجامع وبنى دار الصناعة بها.

ولا تَقْنَعُ النفس بذلك متطلبة لماذا اختار هذه البلدة على غيرها؟ وما الداعي له لتأسيس هذا المسجد الجامع مع أن مقامه بالقيروان؟

والجواب نجده فيما ذكره مؤرخ الفتح الإفريقي عبد الرحمٰن بن عبد الحكم (ـ 257) الذي هو أقدم من وصلت إلينا مؤلفاته دون بقية مؤرخي مصر الإسلامية، وكذا الفتوح الإفريقية لاتصالها بتاريخ مصر.

وننقل ما ذكره ابن عبد الحكم في مسير ابن الحبحاب، ثم نستخرج منه الجواب المطلوب:

(كان قدوم عبيدة بن عبد الرحمٰن من إفريقية سنة خمس عشرة ومائة.

وفيها أَمَّر ابن قطن على الأندلس، وكان ما خرج فيه العبيد والإماء من الجواري المتخيرة سبعمائة جارية، وغير ذلك من الخصيان، والخيل، والدواب، والذهب والفضة، والآنية.

واستخلف على إفريقية حين خرج عقبة بن قدامة التجيبي.
فقدم على هشام [بن عبد الملك] بهداياه واستعفاه فأعفاه.

وكتب (أي هشام بن عبد الملك) إلى عبد الله (كذا) بن الحبحاب وهو عامله على مصر يأمره بالمسير إلى إفريقية وولاه إياها وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة ست عشر ومائة.

فقدم عبيد الله بن الحبحاب إفريقية فأخرج المستنير من السجن وولاه تونس، واستعمل ابنه إسماعيل بن عبيد الله على السوس، واستخلف ابنه القاسم بن عبيد الله على مصر، واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج، وعزل عبد الملك بن قطن. ويقال بل كان الوالي على الأندلس يومئذ عنبسة بن سحيم الكلبي فعزله ابن الحبحاب، وولى عقبة بن الحجاج).

يطالعنا كلام ابن عبد الحكم بأمرين هامين أولهما أن ابن الحبحاب لما حلّ بإفريقية وزع وظائفها على ذويه من أبناء وإخوة وكأنه يرمي من وراء ذلك إلى أن تكون له خالصة دون غيره لأنه إذا غرس فيها ذويه امتنعت طاعتها على غيره.

فقد استعمل ابنه إسماعيل بن عبيد الله على السوس.

واستخلف ابنه القاسم بن عبيد الله على مصر.

واستعمل المستنير على تونس بعد أن أخرجه من السجن، والمستنير هذا الظاهر فيه أنه أخو عبيد الله بن الحبحاب كما يفيده كلام ابن عبد الحكم حين حديثه على عبيدة بن عبد الرحمٰن القيسي الذي تولى إفريقية قبل ابن الحبحاب.

وهذا ما ذكره في ذلك:

حدّثنا يحيى بن أبي بكير عن الليث قال:

وولي عبيدة بن عبد الرحمٰن إفريقية في المحرم سنة عشر ومائة (110).

فلما قدم عبيدة إفريقية وجه المستنير بن الحبحاب غازياً إلى صقلية فأصابتهم ريح فأغرقتهم ووقع المركب الذي كان فيه المستنير إلى ساحل أطرابلس.

فكتب عبيدة بن عبد الرحمٰن إلى عامله على أطرابلس يزيد بن مسلم الكندي يأمره أن يشده وثاقاً ويبعث معه ثقة فبعث به في وثاق فلما قدم على عبيدة جلده جلداً وجيعاً، وطاف به القيروان على أتان ثم جعل يضربه في كل جمعة مرة حتى أبلغ إليه وذلك أن المستنير أقام بأرض الروم حتى نزل عليه الشتاء واشتدت أمواج البحر وعواصفه فلم يزل محبوساً عنده.

(فتوح إفريقية والأندلس ص 92).

أفاد ابن عبد الحكم أن المستنير هو المستنير بن الحبحاب، فلعلّه أخو عبيد الله بن الحبحاب.

فالمستنير بن الحبحاب لما ولي ولاية تونس لا نرتاب في أنه اقترح على والي إفريقية أن يبني بها مسجداً حين رأى مدينة تونس لا تقل عظمة عن القيروان لأنها المدينة الثانية بعد مقر الولاية الإفريقية والمغربية والأندلسية وهي القيروان وكونها المدينة الثانية في العصور الأولى الإسلامية يشير إليه ما ذكره ابن الشماع في الأدلة البَيِّنَة النُورَانية على مفاخر الدولة الحفصية.

وكان أبو جعفر المنصور العباسي إذا قدم عليه رسول صاحب القيروان يقول له: ما فعلت إحدى القيروانين يعني مدينة تونس، تعظيماً لها.

وخصّ أبو جعفر المنصور تونس لأنها كانت كثيرة الشغب على الولاة، وهو ما أشار إليه البكري في كتابه المسالك والممالك، فبعد أن مدح أهل تونس قال:

ومع هذا الفضل الذي فيها هي مخصوصة بالقيام على الأمراء والخلاف للولاة خالفت نحو عشرين مرة (المسالك والممالك ص 40).

فهذه الأهمية لهذه البلاد بعثت عبيد الله بن الحبحاب أن ينشىء مسجداً جامعاً بها، فهو المسجد الثاني بعد مسجد عقبة بالقيروان وهو إن كان من حيث المساحة أقل من مسجد عقبة إلا أنه كما قال ابن الشماع:

وجامع تونس مليح الصنعة، حسن الوضع، مطل على البحر.
(الأدلة البينة النورانية ص 17).

وثاني الأمرين اتخاذها عاصمة إذ يتجمع من توجيه العناية إلى تونس سواء في اتخاذ مسجدها الجامع أو بناء قصبتها، أو بناء دار الصناعة بها إلى غير ذلك من العنايات البالغة بهذه المدينة مع أنها لم تكن عاصمة أن الرغبة كانت أكيدة في اتخاذ تونس عاصمة للبلاد الإفريقية لأنها تجمع بين الحصانة وبين كونها مرسى من أعظم المراسي مع ما اختصت به من كونها كثيرة الخيرات مدرارة البركات التي لا توجد في غيرها كما حدّثنا عن ذلك البكري إذ يصفها بأنها أشرف مدائن إفريقية وأطيبها ثمرة وأنفسها فاكهة (المسالك والممالك ص 41).

فرغبة ابن الحبحاب في اتخاذها عاصمة يبديها هذا النص عن ابن عبد الحكم.

واستمرت هذه الرغبة في رجال الدولة الأغلبية إذ انتقل إلى سكناها واتخاذها عاصمة للبلاد الإفريقية إبراهيم بن الأغلب في سنة (281).

وبقي بها مدة إلى أن انتقل إلى رقادة سنة (283) ثم عاد إلى سكناها وإليها انتقل ابنه عبد الله بن إبراهيم وقتل بها.

وبها كانت بيعة ابنه زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم ولم يمكث بها.

وليست رغبة بني الأغلب مقصورة فيمن ذكر منهم بل كلهم قد اتخذوا بها القصور والبساتين ينتقلون إليها وقد جعلوها منتزهاً لهم كما أفاده البكري حين حديثه على تونس وابن أبي دينار في المونس.

وإنما اتخذها الأغالبة عاصمة ثانية أو العاصمة الأولى في فترات اقتداءً بابن الحبحاب الذي كانت رغبته كذلك بدليل تأسيس مسجدها الجامع فإنه لا يبنى مثله في بلد صغير وإنما في بلد له اتساع لأن إحداثَ مثله لا يكون إلا في العواصم الكبرى وإنما اتخذها الأغالبة كذلك لما رأوا فيها من أنها جديرة بأن تكون عاصمة، وإنما حببهم في القيروان أنهم لم يجرؤوا على مخالفة عقبة بن نافع ولعلّ ابن الحبحاب كان يرمي إلى اتخاذها عاصمة لأنها تجمع بين الحصانة في البر، والمكانة البحرية بمرساها الفريد في الخليج التونسي.

فنظرة الأمراء إلى إفريقية مختلفة فعقبة بن نافع يرى أن الاستقرار بإفريقية إنما يكون في مجمع الجند في مكان يبعد عن البحر ولهذا اتخذ القيروان عاصمة لهذا الصُّقْع الإفريقي بينما أخذت فكرة الأمراء تختلف عن ذلك من حسان بن نعمان إلى ابن الحبحاب إلى الأغالبة في ترددهم بين سكناها وسكنى القيروان.

وَغَير الفواطمُ الاتجاه نحو تونس بإنشاء المهدية التي كانت على البحر فهم قد حققوا أن العاصمة تكون بحرية في عاصمتهم الجديدة.

ورجعت الرغبة في تونس عند افتكاك الموحدين لشواطىء إفريقية من يد النورمان لأسباب بسطناها في بحث لنا في بيان الأسباب الداعية للموحدين لاتخاذ تونس عاصمة معرضين عن المهدية والقيروان.

ابن الحبحاب والفكرة الاتساعية:

حلّ ابن الحبحاب بإفريقية فانتشرت رجاله من قرابته في كل مكان تحت نظره حتى مصر والأندلس فضلاً عن إفريقية والمغرب، وأسند هذه الولايات إلى أبنائه وصنائعه وانضاف إلى ذلك أنه ركّز اهتمامه على تونس في إحداثاته بها.

ومن تلك الإحداثات دار الصناعة لإنشاء أُسطول تونسي غزا به في البحر بإمرة حبيب بن أبي عبدة.

واتجهت سياسته إلى سيادة العنصر العربي سيادة مطلقة حتى اعتبر البربر مسلمهم وكافرهم سواء وأنهم فيء مع أن الولاة قبله كانوا يخمسون من لم يُجِبْ إلى الإسلام وأما من أجاب إليه فهو بالإسلام قد اندمج في العائلة الإسلامية.

ومسلكه السياسي نحو البربر أوغر الصدور عليه وأدى إلى ثورة كبرى لم تعهد من قبل وكان اتجاهه هذا يقصد من ورائه إيجاد مُلْك عربي ممتد الأطراف يقوده هو وأهل بيته لكن إهانة البربر أدت إلى عزله حيث لم يقدر على إخماد تلك الثورة.

ونتائج تلك السياسة جعلت المسلمين في المغرب منقسمين إلى عنصرين كلما خمدت فتنتُهما دهراً لسبب السياسة الحازمة عادت إلى الظهور من جديد مما تسبب في فتن عدة جرت إلى كوارث ومحن قعدت بالإسلام وأوقفت تقدمه، ثم جرت إلى ضياع الأندلس مع أشياء أخرى.

4) هل كان يسمى مسجد تونس بجامع الزيتونة:

نجد قصة طريفة في سبب تسمية هذا المسجد بجامع الزيتونة ذكرها الوزير السراج وهي:

وأخبرني بعض إخواني عن سيدي سعيد الشريف ـ رحمه الله تعالى ـ (-1113) أنه حدثهم أن نوحاً ـ عليه السلام ـ لما كان في السفينة على الطوفان وقفت به يوماً وسط البحر فأوحى الله إليه أن تلك بقعة يقال لها: جامع الزيتونة.

فلما دخلها الصحابة وجدوا الرهبان في صومعتها لأن صومعة الجامع قديمة كانت للرهبان...

وكان قبلة الصومعة محل محصن بالحجارة والشوك فسأل الصحابة أولئك الرهبان عن سبب ذلك، فقالوا لهم إنا كل ليلة نرى من ذلك المحل نوراً ساطعاً

لعَنَان السماء، فوضعنا ذلك صوناً له من الكلاب أن يقذروا في ذلك المحل واتفق أن كان ذلك المحل هو المحراب، (الحلل ج 1 ص 558 طـ 2).

هذا ما جاء في الحلل السندسية في الأخبار التونسية وهو لا يتصل بشيء من الحقيقة التاريخية حيث جعل تسمية هذا المسجد الجامع منذ الطوفان مع أن تسميته بجامع الزيتونة غير متعارفة في القرون الأولى بل المعروف أنه مسجد تونس، ثم إن تلك القصة لا تتصل بالحقيقة بل هي من نسج الخيال.

ثم إنها كلها عليها أثواب الوضع ونشك في نقلها عن الشيخ سعيد الشريف فإنه كان محـدثـاً راوية والرواة من أهل الحديث لا ينقلون شيئاً إلا مسنداً وسعيد الشريف هذا توفي سنة (1113) كما في إتحاف أهل الزمان لا في سنة (1112) كما في شجرة النور الزكية.

وإذا تتبعنا كتب التاريخ ثبت لدينا أن هذا المسجد لا يسمى بجامع الزيتونة وإنما يعرف (بمسجد جامع تونس).

ذكر أبو العرب في الجزء السابع الذي خصّه بذكر علماء تونس في ترجمة زيد بن بشر فقد روى حين وصفه بأنه أكرم الناس ما يؤيد كرامة نفسه:

لقد حدّثني سليمان بن سالم وغيره أنه انصرف ليلة من جامع تونس فانقطع شسع نعله فوثب إليه رجل حائك من حانوته فأعطاه شسعاً فأصلح نعله وكان رجل معه يحمل قنديلاً فقال لحامل القنديل: قرب القنديل إليّ فقرّبه منه فنظر إلى وجه الحائك ليعرفه فيكافئه، فكان كلما مرّ إلى المسجد ومعه الجماعة مال إلى الحائك، فيسلم عليه، ويسأله عن حاله شكراً للشسع الذي أعطاه.

(طبقات علماء إفريقية لأبي العرب التميمي ص 256 طـ باريس و ص 226 طـ تونس).

وما جاء في طبقات أبي العرب جاء مثله عن محمد بن حارث في ضمن الطبقات التي لأبي العرب عند ترجمة أبي العرب ليحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري الذي دخل تونس.

قال محمد بن حارث كنت في جامع مدينة تونس مع بعض العلماء من أهلها فقال لي:

«هذا الباب ـ وأشار إلى باب مغلق لا يفتح ـ هو باب يحيى بن سعيد وكان يدخل منه إذا كان بها» (طبقات علماء إفريقية لأبي العرب ج 1 ص 26).

وإذا التفتنا إلى البكري أبي عبيد عبد الله الأندلسي لا يذكر إلا أن ابن الحبحاب بنى الجامع بتونس قارناً لبنائه ببناء دار الصناعة.

ولما وصف بناءه قال:

وجامع تونس رفيع البناء مطل على البحر ينظر الجالس فيه إلى جميع جواريه (المسالك ص 37 و ص 40).

وكذلك لم يسمه ابن عذاري المراكشي في كتابه البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب إذ يقول:

وهو ـ أي عبيد الله بن الحبحاب ـ الذي بنى المسجد الجامع، ودار الصناعة بتونس (ج 1 ص 51).

وابن عذاري المراكشي من رجال القرن السابع (ـ 695) وكان ينقل عن الرقيق الذي كان حياً سنة (388).

والرقيق من أهل إفريقية قيرواني عليم بأماكن تونس وتواريخها فلو كان الجامع يسمى بجامع الزيتونة لذكر أنه جامع الزيتونة.

وإذا التفتنا إلى كتب المناقب القديمة التأليف لقدماء الصلحاء بتونس نجد كتاب أبي الطاهر الفارسي حين يذكر مسجد تونس لا يذكره إلا باسم جامع تونس دون جامع الزيتونة، فإنه حين تحدث على ما أحدثه الشيخ أبو محمد محرز بن خلف الصديقي المتوفى سنة (ـ 413) يقول:

قال أبو الطاهر:

وأعظم شيء أذكره من كراماته الدالة على فضله وولايته أن القرآن كل يوم

يقرأ على قبره، ويختم كل جمعة منذ توفي إلى الآن ثماني عشرة سنة، لا ينقطع يوماً لعلّة من العلل، لا في صيف ولا في شتاء، ولا في شدة ولا في رخاء ولا غير ذلك، وهو دائم إلى الآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن استنباطه رضي الله عنه بمقصورة الجامع الأعظم بتونس حزب السبع لا ينقطع في كل يوم إلى آخر الدهر.

وكان تأليف أبي الطاهر الفارسي في سنة ثلاثين وأربعمائة بعد وفاة الشيخ محرز بن خلف رحمه الله تعالى بسبعة عشر عاماً.

وهذه المناقب ليست كالكثير من كتب المناقب التي تكون لغتها سقيمة ثم تكتب في جوانب لا تفيد الكثير من حياة صاحبها بل هي في لغة سامية صحيحة التركيب والتعبير مع كونها معرفة بالمترجم له وهو الشيخ محرز بن خلف وذاكرة من مناقبه ما يدل على علمه وأخلاقه وإخلاصه وتأثيره على مخاطبيه، وهي خالية من المبالغات التي يعتني بها أصحاب كتب المناقب فلا تجد فيها شيئاً من ذلك.

تسمية المساجد:

لم يسم مسجد تونس باسم جامع الزيتونة لأن المتعارف في تسمية المساجد أن تكون إما باسم البلد كما يقال مسجد الكوفة أو مسجد البصرة أو باسم مؤسسه كمسجد عقبة بالقيروان، وإنما لما تعددت المساجد في البلد الواحد اضطروا إلى تسميتها باسم خاص بسبب اتساع العمران وانتشار السكان لأجل التفرقة بين المساجد.

وهو القريب في مسجد تونس فإنه لما كان منفرداً أطلقوا عليه المسجد الجامع بتونس فحين أحدث مسجد القصبة الذي تمّ بناؤه سنة (633) وكان يعرف بمسجد قصبة تونس أو مسجد الموحدين سمي حينذاك بجامع الزيتونة.

التسمية بـ «جامع الزيتونة»:

ولم يشتهر جامع الزيتونة بهذا الاسم في القرون الأولى وقصارى ما وقفنا عليه أنه اشتهر بأنه جامع الزيتونة في أوائل العصر الحفصي وهو القرن السابع

وفي طالعة ما وقفنا عليه (صلة السمط وصلة المرط) لابن الشباط التوزري فإنه يذكره باسم جامع الزيتونة ويعلل التسمية بما ننقله:

وسمعت من يقول: إن المسلمين وجدوا بها ـ أي تونس ـ زيتونة، وأرى أنها التي يضاف إليها الجامع، فيقال: (جامع الزيتونة).

فلما رأوا تلك الزيتونة قالوا، أو قال بعضهم لبعض: إن هذه الزيتونة تونس، فسميت المدينة بذلك (صلة السمط ج 3 الورقة 112 وجهاً).

وجاءت تسمية جامع تونس بجامع الزيتونة في رحلة العبدري وكان ذلك سنة (688) حين تكلم على الحنايا المجلوب عليها الماء إلى تونس.

وأما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه إلا رَشْحاً يسيراً سُرِّب إلى ساقية جامع الزيتونة يرتشف منها في أنابيب من رصاص، ويستقي منها الغرباء ومن ليس في داره ماء ويكثر عليها الازدحام (رحلة العبدري ص 40).

ومن هذا التاريخ وهو القرن السابع إلى عصرنا الحاضر يذكر المسجد الجامع بتونس باسم جامع الزيتونة فلا تكاد تقف على تاريخ لتونس إلا تجده مذكوراً بذلك.

ومن تلك التواريخ تاريخ ابن القنفذ القسنطيني في كتابه الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية المتوفى سنة (809) على التحقيق، في مواضع من كتابه منها ما جاء حين حديثه على السقاية المستنصرية:

وفي هذه السنة ـ سنة (648) بنيت السقاية بشرقي جامع الزيتونة (ص 117).

وذكره باسم جامع الزيتونة عندما تحدث على وفاة أحد أئمته:

وفي شهر ربيع الأول الشريف المبارك من عام أحد وسبعمائة (701) توفي الشيخ الفقيه الخطيب الصالح أبو مروان عبد الملك بن الغرغار خطيب جامع الزيتونة (الفارسية ص 153).

واستمر على تسمية المسجد الجامع بتونس بجامع الزيتونة غير واحد منهم ابن الشماع أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الهنتاتي وكان حياً سنة (861).

فقد ذكر السقاية التي أحدثها المستنصر بالله الحفصي وبيّن أنها بشرقي جامع الزيتونة.

واستمرت التسمية على أنه جامع الزيتونة فلا يعرف بغير ذلك سواء في التواريخ أو في غيرها.

والقريب في وجه هذه التسمية أنه ربما يكون راجعاً إلى أن البلاد التونسية اشتهرت بزياتينها فتبرك الناس بتسمية مسجدهم بمسجد الزيتونة.

أو أنه عرف بجامع الزيتونة في القرن السابع بدون أن يعرف وجه للتسمية يستند لشيء ثابت معروف ولذلك التمس ابن الشباط في وجه التسمية ما تقدم.

فهرس موضوعات الجزء الأول

● الإهداء 7
فاتحة الكتاب 9
مبتدأ تاريخ أيمة جامع الزيتونة 11
● تقديم: تاريخ الزيتونة ـ تاريخ تونس العلمي 13
ـ محمد بن عثمان السنوسي 14
منبت العائلة 14
انحدار العائلة 14
ـ محمد بن عثمان السنوسي الجد 15
مشيخته 15
خططه 15
تلاميذه 16
تآليفه 16
مكانته العلمية 16
وفاته 17
ـ والد المؤلف 17
ـ ميلاد المؤلف 17
ـ ثقافته 18
ـ تطويعه 26
ـ مكانته العلمية 26
ـ امتيازه 28
ـ وظائفه 29
1) كاتباً في جمعية الأوقاف 29
2) التدريس بزاوية سيدي الهياص 29

3) إدارة الرائد التونسي 29
4) في المجلس المختلط 33
5) الإنشاء بالعدلية التونسية 35
6) الشهادة بالعدلية التونسية 36
7) حاكم بمجلس الجنايات 37
تأثره 38
رحلاته 42
رحلته الحجازية 43
الاستطلاعات الباريسية 46
ـ السنوسي السياسي 47
مشاركته في قضية صدور القانون البلدي 48
العفو عن أعضاء الحركة 52
ـ الانخراط في الوظيف 52
ـ مؤلفاته 53
1) شفاء النفوس السنية بمجمع الدواوين التونسية 53
2) تنقيح الدواوين بمدائح أعلام دولة بني الحسين 56
3) رسالة صغيرة أجاب بها على الطاعنين على الإمام الشيخ محمد الشريف ... 57
4) سموط الدرر في لطائف السفر 57
5) قصيدته الأجنة الدانية الاقتطاف بمفاخر السادة الأشراف 58
6) درة العروض: نظم في العروض 58
7) شرح هذا النظم: كشف الغموض 59
8) مسامرات الظريف 59
9) نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل 59
10) الرحلة الحجازية 59
11) تحفة الأخيار بمولد المختار 61
12) مطلع الدراري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري 61
13) تأليف جمع فيه من وقف عليه ممن كتب على مختصر خليل 62
14) رسالة في الحبس 62
15) نظام المدنية المفيد لكتاب العصر الجديد 63

16) المورد المعين 63
17) الاستطلاعات الباريسية 63
18) رسالة المجبى 64
19)رسالة المرأة 64
20) نشر البساط في نازلة الفسفاط 64
ـ وفاته 64
ـ مسامرات الظريف 65
القصد من تأليفه 65
تقسيم الكتاب ونشره 68
عملنا في الكتاب 69
التحقيق 70
قيمة المطبوع من المسامرات 70
قيمة المخطوط 72

كتاب المسامرات 75

ـ خطبة المؤلف 77
ـ المقدمة في ذكر الملوك الحسينيين 82
1) المولى حسين باشا باي (1080-1153) 88
2) المولى علي باشا باي (1100-1169) 93
3) المولى محمد الرشيد باشا باي (1122-1172) 99
4) المولى علي باشا باي (1124-1196) 112
5) المولى حمودة باشا باي (1173-1229) 119
6) المولى عثمان باشا باي (1176-1230) 124
7) المولى محمود باشا باي (1170-1239) 126
8) المولى حسين باشا باي (1192-1251) 130
9) المولى مصطفى باشا باي (1201-1253) 134
10) المولى المشير أحمد باشا باي (1221-1271) 137
11) المولى المشير محمد باشا باي (1226-1276) 146
12) المولى المشير محمد الصادق باشا باي (1229-1299) 159

ـ القسم الأول في التعريف بأئمة جامع الزيتونة 201
1) الشيخ إبراهيم بن عبد الرفيع 206
2) الشيخ هارون الحميري 207
3) الشيخ محمد بن عبد السلام الهواري 207
4) الشيخ محمد بن محمد بن عبد الستار التميمي 208
5) الشيخ عمر بن عبد الرفيع 209
6) الشيخ محمد بن محمد بن عرفة الورغمي 209
7) الشيخ أبو مهدي عيسى الغبريني 211
8) الشيخ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد البرزلي 212
9) الشيخ أبو القاسم القسنطيني 212
10) الشيخ عمر بن محمد بن عبدالله القلشاني الباجي 213
11) الشيخ محمد المسراتي 213
12) الشيخ محمد بن محمد بن عقاب 214
13) الشيخ محمد بن أبي بكر الونشريسي 214
14) الشيخ محمد البحيري 214
15) الشيخ أحمد بن محمد القلشاني 215
16) الشيخ أحمد بن عمر المسراتي 216
17) الشيخ محمد القلشاني 216
18) الشيخ محمد بن بلقاسم الرصاع 216
19) الشيخ محمد بن محمد بن عصفور 217
20) الشيخ محمد بن إبراهيم الأندلسي 217
21) الشيخ أبو الفضل بن أبي القاسم البرشكي 218
22) الشيخ محمد بن سلامة 218
23) الشيخ محمد الأندلسي 218
24) الشيخ أبو يحيى بن قاسم الرصاع الأنصاري 218
25) الشيخ محمد تاج العارفين البكري 219
*) الشيخ علي البكري 219
26) الشيخ أبو بكر البكري 223
27) الشيخ أبو الغيث البكري 224

28) الشيخ علي الرصاع 228
29) الشيخ أبو الحسن علي البكري 228
30) الشيخ حمودة البكري 229
31) الشيخ أبو الغيث البكري 230
32) الشيخ حمودة الريكلي 230
33) الشيخ عثمان البكري 232
34) الشيخ غيث بن عبدالرحمن بن عبدالسلام غلاب 233
35) الشيخ حمودة البكري 234
36) الشيخ أبو الغيث البكري 235
37) الشيخ علي البكري 236
*) ترجمة الشيخ الطاهر بن مسعود 237
38) الشيخ حسن الشريف 239
*) ترجمة أحمد الشريف إمام دار الباشا 240
39) الشيخ محمد الشريف 249
40) الشيخ إبراهيم الرياحي 252
*) ترجمة الشيخ صالح الكواش 254
*) ترجمة الشيخ محمد الفاسي 256
*) نص النرجسة العنبرية في الصلاة على خير البرية 264
*) رحلة الشيخ إبراهيم الرياحي إلى المغرب 272
*) توليه رئاسة الفتوى 297
*) رسائله وأجوبته 299
*) سفارته لدار الخلافة العثمانية 306
*) ولايته الإمامة الكبرى بجامع الزيتونة 317
*) تآليفه 321
*) ترجمة الشيخ محمد الطيب الرياحي 339
*) وفاة الشيخ إبراهيم الرياحي 340
*) ترجمة الشيخ علي الرياحي 341
41) الشيخ محمود محسن 342
42) الشيخ محمد محسن 349

*) ترجمة أخيه الشيخ علي محسن 350
43) الشيخ صالح النيفر 354
44) الشيخ محمد الشريف 364
*) ترجمة والده أحمد الشريف 364
*) قراءة البخاري عدد الأزمة 367
*) قصيدة المؤلف الأجنة الدانية الاقتطاف 369

الملاحق 385

ـ الملحق الأول: مشيخة المدينة بتونس 387
ـ الملحق الثاني: عهد الأمان 390
*) المشير محمد الصادق باشا باي وعهد الأمان 391
*) الحرص على إتمام قانون عهد الأمان 392
*) استقالة الفقهاء من مجلس شرح قواعد عهد الأمان 396
*) ومن أعذار الاستعفاء 399
*) حملة في غير موضعها 402
*) عالم الأدباء (قابادو) وقانون عهد الأمان 402
ـ الملحق الثالث: ثورة علي بن غذاهم 407
*) تحقيق حول ثورة ابن غذاهم وما دار حولها 411
*) كيف خمدت الثورة 416
*) الاتزان التاريخي 418
ـ الملحق الرابع: الكومسيون المالي 420
*) أبطال الكومسيون 421
ـ الملحق الخامس: المجلس الشوري 424
ـ الملحق السادس: تتمة للمقدمة تتضمن تاريخ تونس من (1297) إلى (1376)
من (1879) إلى (1957) 430
*) ذيل في تسلط فرنسا على تونس لصاحب صفوة الاعتبار 431
نص تعريب لائحة وزير خارجية فرنسا إلى سفرائه 433
اللائحة العثمانية 440
نص تعريب المعاهدة 448

*) ما بعد الحماية 452
ـ الأمير علي باي (1299-1320) 456
ـ الأمير محمد الهادي باي (1320-1324) 457
ـ الأمير محمد الناصر باي (1324-1340) 457
ـ الأمير محمد الحبيب باي (1340-1347) 459
ـ الأمير أحمد باي (1347-1361) 460
ـ الأمير المنصف باي (1361-1362) 460
ـ الأمير محمد الأمين باي (1362-1376) 461
*) الاستقلال الداخلي 461
*) الاستقلال التام 461
*) افتتاح المجلس التأسيسي 461
*) أول وزارة العهد الاستقلالي 462
*) إعلان الجمهورية 463
*) الوزارة التونسية 465
*) الوزارة التونسية في عهد الجمهورية 467
*) تولي سيادة زين العابدين بن علي رئاسة الجمهورية 469
ـ الملحق السابع: تاريخ تأسيس جامع الزيتونة 470
1) مؤسسه 471
2) تاريخ ابتداء تأسيسه 474
3) لماذا اختار ابن الحبحاب تونس لبناء مسجده 477
ابن الحبحاب والفكرة الاتساعية 481
4) هل كان يسمى مسجد تونس بجامع الزيتونة 482
تسمية المساجد 485
التسمية بجامع الزيتونة 485
فهرس موضوعات الجزء الأول 489

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم : 1994/5/1500/240
التنضيد :كومبيوتايب / بيروت
الطباعة : مؤسسة جواد للطباعة / بيروت